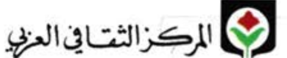
مكتبة ٣٩٤

رؤوف أوفقير

الضيوف

عشرون عاماً في سجون الحسن الثاني

ترجمة: حسين عمر



الضيوف

الكتاب

الضيوف

تأليف

رؤوف أوفقير

ترجمة

حسين عمر

الطبعة

الأولى، 2008

الترقيم الدولي:

ISBN: 978-9953-68-336-0

الناشر

المركز الثقافي العربي

الدار البيضاء ـ المغرب

ص.ب: 4006 (سيدنا)

42 الشارع الملكي (الأحباس)

هاتف: 2303339 ـ 2307651

فاكس: 2305726 ـ 2 212+

Email: markaz@wanadoo.net.ma

بيروت ـ لبنان

ص.ب: 5158 ـ 113 الحمراء

شارع جاندارك ـ بناية المقدسي

هاتف: 01750507 ـ 01352826

فاكس: 01343701 ـ 961+

www.ccaedition.com

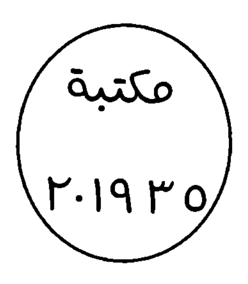
Email: cca@ccaedition.com

العنوان الأصلي للرواية:

Raouf Oufkir

Les Invités

20 ans dans les prisons d'Hassan II



رؤوف أوفقير

الضيوف

عشرون عاماً في سجون الحسن الثاني

ترجمة

حسين عمر

اللهم أنزل على قبرها الضياء والنور
والفسحة والسرور
اللهم اقبلها في عبادك الصالحين
واجعلها من ورثة جنة النعيم
ذكرى لـ نورسين

إلى عائلتي
إلى أهلي
إلى ناتالي وحليمة وعاشورا.

إلى صديقي المرحوم باتريك بارير.

«يتعلّق الأمر دائماً بأن نضحّي بما نحن عليه من أجل ما يمكننا أن نصبح عليه.»
شارل دو بوس

«إنّها لعظيمة الجمائل التي لا يمكن ردّها إلاّ بنكران الجميل.»
ألكسندر دوماس

رؤيا

أيُّ ظلٍّ غريبٍ في هاتين العينين المفتوحتين
يبحث في الحلم عن وميض اللهب؟
يدفنه الليل الكئيب بجناحيه
في صمتٍ موسوم بكلِّ الآلام!
أيُّ نشيدٍ متموّجٍ بأمنياتٍ صادقة؟
يغنّي هذه الروحَ في أعماق قبر
هو فراشها الأثير
يستلقي عليه في المساء قلقُ الكلمات!
أيّة ابتسامة مرعبة لهاتين الشفتين؟
المتفتحتين بأمطارٍ مريرةٍ تغرق الابتسامات
في القعر الكئيب للوداع الأخير!
مَنْ عساه يقول ذلك دون تأوّهٍ،
مَنْ عساه يشرح إن كان سعيداً،
مَنْ عساه يشرح ما تخفيه من معنى كلمة: الوَجَع؟

رؤوف أوفقير، 30 كانون الثاني (يناير) 1983
بير - جديد

المقدمة

كانت السنوات التسع عشرة من الاعتقال الوحشي التي أمضيناها، عائلتي وأنا، فظيعة ولكنّها مليئة بالدروس والعبر أيضاً. فقد صقلت مراحلها المرعبة والاستثنائية في قسوتها كما في انفعالها معدن رجولتي أكثر من طفولتي. كان ذلك «الإعدام» درساً في الحياة.

أقلّ ما يمكن قوله في حكايتي، وحكاية عائلتي، إنّها عاديّة بعض الشيء. بعد أن خدم والدي، الجنرال أوفقير، سبعة عشر عاماً في الجيش الفرنسي، أصبح بعد استقلال المغرب القائد العام لجيش العرش العلوي. خدم محمد الخامس بإخلاص، وأقسم له، في الديار المقدّسة، على أن يخدم وريثه بالتفاني ذاته. أصبح في البداية مرافقاً، ثمّ مديراً للشرطة. نال ثقة محمد الخامس، وبموت هذا الأخير، عيّنَ وزيراً للداخلية في عهد ابنه الحسن الثاني. كنّا مقرّبين لمحمد الخامس وللحسن الثاني وعائلته. عمل والدي مع الملك الشاب لزمنٍ طويلٍ باتفاق وتفاهم تامّين. فقد تكاملت الموهبة السياسية الرفيعة للثاني والفاعلية العسكرية للأوّل في سبيل تعزيز المَلَكية وترسيخها في مواجهة الاشتراكية الثورية. أمّا المهدي بن بركة، الزعيم الموهوب للاتحاد الوطني للقوى الشعبية UNFP، فقد دافع عن فكرة مغايرة للمغرب. خضعت الحياة السياسية للمملكة لحلقة من العنف، وتعاقب القمع والمؤامرات: من مؤامرة 1963 إلى الهيجانات

الشعبية الدموية في الدار البيضاء عام 1965؛ ومن اختطاف بن بركة وتصفيته في باريس في السنة نفسها إلى محاولتي الانقلاب العسكريتين في عامي 1971 و1972.

ذاع صيت أوفقير في العالم من خلال قضية بن بركة. إذ ما زال البعض يعتقد حتى الآن أنّ وزير الداخلية المغربي ومساعده العقيد الدليمي، قد اختطفا وقتلا بن بركة... مع ذلك، وبعد سبعة وثلاثين عاماً، لم يكفِ الاتّهام الرسمي لهذين الشخصين لإغلاق الملفّ. نحن في عام 2003، ولا يزال التحقيق مفتوحاً في هذه القضية! لماذا يستمرّ الشكّ؟ لماذا لا تقتنع عائلة بن بركة بهذه الرواية؟ لماذا لا تزال فرنسا والولايات المتحدة وحتى سويسرا ترفض رفع «السرية» المحيطة بهذه القضية الملغزة والمأساوية؟

في نهاية الستّينات، فرض الحسن الثاني حكمه وعزّزه بفضل أوفقير والعسكر. سُحِقَ اليسار المغربي، ولاح صراعٌ جديد، وهذه المرّة بين الملك وجنرالاته. أراد الحسن الثاني أن يتصرّف على هواه بالمغرب وثرواته، بينما رغب العسكر في سلطة قويّة، ولكن على أن تكون نزيهة. ولم يكفّ أوفقير، الذي لم يستطع الملك أن يفسده أبداً، عن تحذير الملك من الانحراف والاختلاس والابتزاز. أضعفه الملك وأبعده عن هذا الموضوع بكلّ السبل، دون أن يصغي إليه. وقد أدّى التجاوز على القانون والفساد المتفشّي، اللذان نهشا في الدولة وأساءا لسمعة العرش، إلى مذبحة الصخيرات أثناء المحاولة الانقلابية في تموز (يوليو) 1971. حينذاك، عيّن الحسن الثاني أوفقير وزيراً للدفاع وقائداً عاماً للجيش ولكنّه لم يغيّر سياسته في شيء. تلا ذلك صراعٌ قاسٍ بيدٍ حديدية مرعبة بين الملك والقائد العام لجيشه. وأخذ الرجلان يعاينان قدراتهما ويراقبان بعضهما؛ فلمن ستكون الغلبة أوّلاً... في ربيع 1972، نجا أوفقير بأعجوبة من محاولة اغتيال. وفي 16 آب (أغسطس) من السنة نفسها، استهدفت طائرات سلاح الجو المطاردة من طراز F5 طائرة الملك

البوينغ، وأمرتها بأن تلحق بها وتحطّ في قاعدة القنيطرة الأمريكية، ولكنّ الطائرة أفلتت منها. في تلك الليلة من 16/ 17 آب (أغسطس)، أُعدِم أوفقير في قصر الصخيرات بحضور الحسن الثاني. وقد حضر غداة المحاولة الانقلابية بصفته المدبّر الأكبر لتلك المؤامرة. منذ ذلك اليوم، خضعنا، عائلتي وأنا، لاضطهادٍ أعمى وجائر، فقط لأن أمّنا زوجة محمد أوفقير ونحن أولاده.

ألقى بي ذلك العرش، الذي ترعرعتُ في كنفه، في السجن في عام 1972 وأنا في الخامسة عشرة من عمري، وكذلك أمّي وأخي الصغير وأخواتي الأربع، بلا محاكمة. وفجأةً، تحوّل الملك، الذي كان يعاملنا فيما مضى كأب، إلى جلاّد. وبعد محاولةٍ يائسة للفرار، لم نخرج من عتمة ليلنا الطويل إلاّ في عام 1991. لم يكن الأسوأ بالنسبة لي هو ما عانيته من آلام وعذابات فظيعة، وإنّما هو التفكير الدائم بعدم معرفتنا للمدّة التي سيستغرقها عذابنا.

بعد ثلاثة أيام من الهجوم على الطائرة، وُضِعنا تحت الإقامة الجبرية في منزلنا بالرباط، وفُرِضَت الرقابة علينا. وبعد أربعة أشهر وعشرة أيام، اختُطفنا ونُقلنا إلى تخوم الصحراء. أوّلاً، في أسّا، وهي ثكنة سابقة للجيش الفرنسي، تائهة وسط الرمال، حيث بقينا حتى عام 1973، وفي تاماتاغت (قرب ورزازات) وسط الجبال الباردة والموحشة حيث تمّ احتجازنا لغاية عام 1977. ومن ثمّ نُقلنا، عام 1978، إلى مكانٍ ثالث، كان سجنه أكثر رعباً وفظاعةً من سواه: بير- جديد.

خلال الفترة الأولى من اعتقالنا، لم يفصلوا أبداً بيني وبين أفراد عائلتي. ولكن، في مطلع 1978، حُبِسَت أمّي مع أخي الصغير عبد اللطيف في زنزانة، وتقاسمت أخواتي مليكة ومريم وماريا وسُكَينة زنزانة أوسع، وشغلت حليمة وعاشورا زنزانة أخرى، أمّا أنا فقد خصّوني بأضيق الزنازين في أقصى عمق المبنى.

في ليلة 29/ 30 كانون الثاني (يناير) 1978، انغلق بابٌ مصفّحٌ من وراء ظهري بتثاقل. بدأت السنة السادسة من اعتقالنا، ولكن الأسوأ هو القادم. أصغيتُ، بلا حراك، إلى قعقعة حزمة المفاتيح، والصدى المكبوت لخبطات الأقدام في الممرّ، والصخب البعيد. وقفتُ وسط زنزانتي ذات الأربعة أمتار بأربعة، واستجمعتُ قواي لمواجهة طريق الآلام اللامتناهي. حرّكت الجدرانُ المطلية حديثاً بلون رمادي داكن، الناضحة بالرطوبة، والسقف الخفيض، الإحساس بالظلم، ذلك الإحساس الذي أثارته في داخلي تلك المساحة الضيّقة المفتقرة إلى الهواء بلونها الأخضر المزرقّ.

لا منفذ فيها سوى كوّة ضيّقة منحوتة في أحد جدرانها السميكة ومشبوكة بصفٍّ مزدوجٍ من القضبان، وبشبكة سميكة، تنسدل عليها ستارةٌ متّسخة. كان ثقب التهوية ذاك يطلُّ على ممرٍّ ليس فيه هو الآخر سوى فتحة ضيّقة في أعلى جداره، يسدّها غربالٌ بين الباب الأوّل وباب زنزانتي. وكان الضوء يتسرّب بصعوبةٍ من بين كلّ تلك الكتل المعدنية والاسمنتية.

منذ ذلك الحين، دفنتُ حيّاً في تابوتٍ من الظلمات والصمت، طواني في جوفه طوال السنوات التي تتالت طويلةً في أقصى درجات العزلة والوحدة المفروضتين عليّ. أمضيت عقداً من الزمن في الجحيم. عقدٌ من الآلام، كنّا خلاله محرومين من كلّ شيء، عقدٌ من الحبس البهيمي في سردابٍ معتم. خلال السنوات الثلاث الأولى، لم أخرج قط من بين تلك الجدران. ولا حتى في النزهة الاعتيادية للسجين. ولم يكن لي الحقّ في أن ألتقي أهلي.

في تلك الليلة، حينما انغلق عليّ باب زنزانتي المعتمة، انتابني شعورٌ خاصّ. بينما كنتُ مقرفصاً على حشيّتي، مسنداً ذقني على ركبتي، تأمّلتُ اللهب المرتجّ لنصف شمعة وأنا أحدّقُ فيه. تموّج ظلّي على الجدران، وبدا لي السقف أخفضَ، ولفّ صمتٌ مطبقٌ ذلك المكان

الكئيب. يقطع عُطاس حارسٍ أو سعاله في أعلى المَراقِب ذلك الصمت الرهيب. تاهت نظرتي على البلاطات المغطّاة بالعفن. فجأةً، هزّت خطواتٌ موزونة الأرض. انتابني خوفٌ لبعض الوقت، ولكن تبيّن لي أنّ ذلك يتعلّق بإبدال دورية الحرس التي تسير كلّ ساعتين في ممرٍّ خلف الزنازين. ولعدم وجود ساعة معي، كان ذلك السير الدوري يتيح لي تخمين الوقت. حينما تبتعد الخطوات، تكون الساعة قد تجاوزت منتصف الليل ببضع دقائق: بلغتُ العشرين من عمري. ويا له من عيد ميلادٍ مشؤوم!

ولكن ليس لي الحقّ في أن يؤثّر ذلك عليّ. يجب أن أصمد وأقاوم. كتب شيلر: «إنّها لفرصة أن يعرف المرء ما هو جدير به في العشرين من عمره.» لقد خدمني ذلك، إذ لا يمكن أن يكون هناك وضعٌ أكثر فظاعةً وأكثر ملاءمةً لكي أكتشف نفسي بنفسي. وقد اكتشفتُ ذلك بالتدريج.

لم أنجُ في جوف العذاب ذاك، الذي تألّمتُ فيه وقاومت، إلاّ بفضل قوّة الدروس التي انكشفت لي في قعره. تلك الظلمات الدامسة، التي حطّمت جسدي وعذّبت روحي أشدّ العذاب، منحتني نوراً حقيقيّاً. ولكن، حتى تُتاح فرصة اكتشاف فوائد الألم، لا بدّ في البداية من التكيّف معه، والسيطرة على تأثيره على الحواس، والإصغاء إليه، وفحصه، وفهمه. إنّه يزيح الستار عن كنوزٍ غير منتظَرة. فمثلما تخفي قوقعةُ المحار الخشنة لؤلؤةً كريمة، تضمر المحن مبادئ نبيلة وعظيمة.

ولأبقى حيّاً في ذلك القبر، لم يكن لديّ خيار سوى أن أتجاهل جسدي، وأن أركّز أفكاري بغية الهروب من الحاضر الذي يحاصرني. مذ أن رُميتُ في تلك الحفرة الكريهة، شرعتُ في لعبة الغميضة مع الجنون. تربّص الجنون بأدنى نقاط ضعفي لكي ينقضّ عليّ، ويتسلّل إلى عقلي، ويلتهم إيماني ويبدّد أملي الأخير. يرافقني النهّاب الصبور ليلاً ونهاراً. يطاردني ذاك الضَبع الجائع، ويقتفي أثري بلا انقطاع، ويلاحقني بلا كلل

كأنني فريسة جريحة، ينتظر أن أتعثّر لينقضّ عليّ. إنّه ينتظر اللحظة التي تزلّ فيها قدمي في ذلك الجحيم، جحيم الألم والنسيان والعزلة. اللحظة التي أستسلم فيها وأسلّم أمري إليه. سُرنا، هو وأنا، جنباً إلى جنب، خارج الزمن، في بُعدٍ آخر، بُعد ما هو عبثيّ وما لا معنى له.

عليّ ألاّ أضعف وألاّ أستسلم. عليّ أن أحافظ على ذاكرتي حيّةً أبداً، وأن أستبقي ذكرياتي التي وحدها ستصاحبني في السنوات القادمة. إنّها لا تزال تسكنني حتى اليوم وتتجسّد في هذا الكتاب.

وضعتُ خرقة مبلّلة على عينيّ، واستلقيتُ دون أن أنام. حاولتُ أن أجيب عن سؤالٍ عذّبني: «كيف وصل بنا الأمر إلى هنا؟»

منذ تلك الليلة التي بلغتُ فيها العشرين من عمري، لم يُبارح التساؤل ذهني. بأيّ ذنبٍ، بأيّةِ جريمةٍ أصبحنا مجرمين كي نستحقّ تنكيلاً كهذا، ومحنة كهذه؟ إن تبرير وحشية كهذه عته وجنون.

كيف يمكن تبرير عذابات كهذه مفروضة على أطفال، فقط لكونهم أولاد أبيهم؟ لو لم تكن تلك المعركة معركتي الشخصية، لأصبحت كذلك. لقد استمددتُ قوّتي وطاقتي من الاعتزاز والفخر بهويّتي التي أرادوا اقتلاعها. وإذا كنّا، أهلي وأنا، قد حاولنا الرحيل عن هذه الدنيا، مرهقين بظلمها وجورها، فذلك ليس جُبناً، وإنّما بغرضٍ وحيد هو إنقاذ أفراد العائلة الآخرين، والدعوة إلى إطلاق سراحهم.

هذه الصفحات هي امتداد للقوّة التي أوحى بها الألم ومواجهة عبثية البشر وعنفهم. ولكنّها أيضاً بيان ثقة بأناسٍ آخرين، دفعوا من أجلنا ضريبة إنسانيتهم إبان اعتقالنا وبعده، وبالحبّ الأخوي والبنوي، مصدر الحياة الذي لم يتخلّ عنّا أبداً.

ولم أنسَ أبداً مَنْ كنت. كنتُ أجاهر بذلك لمَنْ يعذّبني، وأصرُّ على الثبات، مهما كان ضارياً وعنيداً في تحطيمي. ربّما لو كنتُ أقاوم من أجلي وحدي، لوهنت عزيمتي. ولكنّ الدفاع عن اسمي، والكفاح ضد

هذا العسف من أجل مبدأ الحياة، وخلاص أهلي، غذّى هوسي بالنجاة وإصراري على المقاومة. بلغتُ العشرين من عمري في تلك الليلة، ومع ذلك كانت حياتي مليئة بالتناقضات الشديدة، والأحداث النادرة، ونضجت قبل أوانها بانتقالها من معاشرة المقتدرين والمتنفّذين إلى عزلة الزنازين.

أثناء سنوات العزلة تلك، لم أكفّ عن مراجعة الذكريات التي أثّرت على حياتي.

جعلتُ من عذابي ذكرى ثمينة، تساعدني على أن أحيا، جعلته مصدراً للشجاعة التي أودّ تقاسمها اليوم مع مَنْ سيقرأ أو ستقرأ هذه السطور التي هي ليست أثراً حبرياً فحسب بل هي أيضاً بصمة حياة.

الفصل الأوّل

القصر الرملي

بعد عام من الهجوم على القصر الملكي في الصخيرات، الذي وقع في تموز (يوليو) 1971، هزّ انقلابٌ عسكريٌّ ثانٍ المغرب. في 16 آب (أغسطس) 1972، انتهى استهداف طائرة الحسن الثاني من طراز بوينغ من قبل مطاردات القوى الجوية الملكية على نحوٍ مأساوي. ولا تزال نتائج تانك المؤامرتين المتعاقبتين تلقي إلى يومنا هذا بظلالها على الحياة السياسية للمملكة الشريفية وتطوّرها الاجتماعي. وتركتا آثارهما بعمق على الحسن الثاني على الصعيدين الشخصي والسياسي. وإذا كان الملك لم يغيّر الكثير في طريقة حكمه في أعقاب الانقلاب الأوّل، فقد هزّه الثاني وأرغمه على إثارة الأسئلة وإعادة طرحها على نفسه باستمرار. بالتأكيد، لم يغيِّر الحسن الثاني سياسته على نحوٍ مباشر، بيد أنّه عرف بذكائه الحاد بأنه سيضطرّ إلى أن يعقد العزم على ذلك، عاجلاً أم آجلاً. عمد، قبل كلّ شيء، إلى ترتيب البيت الداخلي لنظامه، وأقصى، واحداً تلو الآخر، بطريقة أو بأخرى، كلَّ من تجرّأ أو قد يتجرّأ على الوقوف في وجهه. وبموهبة لا مثيل لها، مهّد لانفتاحٍ سياسيٍّ محتَملٍ، ضروريٌّ وحيويٌّ لبقائه.

كان على الحسن الثاني، آنذاك، أن يواجه التصحّر السياسي الذي عمّقه انقلاب 16 آب (أغسطس).

عرف العاهل أنّ اليسار المغربي قد تحالف مع أوفقير للإطاحة به.

وأنّ فرنسا والولايات المتحدة قد أعطتا الضوء الأخضر للقيام بذلك. وأنّ أفراداً من عائلته قد حثّوا والدي على التحرّك بذلك الاتجاه! وأنّ حاشيته الخاصّة ومستشاريه والعديد من الشخصيات المدنية والعسكرية متورّطون في ذلك! كظم الحسن الثاني غيظه، وابتلع ضغينته وكتم حقده. فلا خيار لديه. عليه أن يقلِّل الخسائر، ويُظهر أوفقير بمظهر الرجل الشرّير، لكي تتراجع أهمية هذه المؤامرة في نظر المغاربة ويُصوّر أوفقير في صورة الوزير الشرير الذي كان يحلم بالخلافة في حكاية ألف ليلةٍ وليلة. لم يعد للملك سوى هدف وحيد، أن يثأر من هؤلاء الناس الذين يزحفون تحت قدميه ويقبّلون يديه ومع ذلك يغدرون به.

لم يعد يعمل الحسن الثاني سوى لحكمه المطلق. أراد أن يكون ملك الحقّ الإلهي، المطلق الصلاحية والمسلّم به من الشعب بأجمعه. واستخدم عبقريته وقسوته ودهاءه وثروته لبلوغ أهدافه. وفي كلِّ مرّة احتاج إلى إطلاق العنان لغيظه ولتعطّشه للانتقام، قام بذلك ضدّ أرملة أوفقير وأولاده. وصبّ علينا جام حقده الذي لا يمكنه أن يعبّر عنه لا حيال حاشيته ولا حيال الحلفاء الذين تفرضهم الضرورة السياسية عليه. وانتهى ما أُريدَ أن يُسمّى «مؤامرة أوفقير» إلى أن يقسو قلب الحسن الثاني وتخشن طباعه. وأدّى 16 آب (أغسطس) إلى أن تستبدّ به الرغبة في فرض نفسه كسيّدٍ مطلق. عوّد هذا الانقلاب الثاني، خلال عامٍ واحد، الملك على الشدّة، ولكنّه جرح فيه الإنسان إلى درجة قتل إنسانيّته. وإذا كان 16 آب (أغسطس) 1972 يشير إلى تحوّلٍ حاسمٍ في تاريخ المغرب، فإنّه يمثّل بالنسبة لي أوّلاً موت أبٍ، ونهاية عالمٍ.

كانت المصيبة تصيبني! إنّها على أيّ حال القناعة الأوّلية للمراهق الذي كنته، والخاتمة المبكرة والطبيعية لقهري. وسوف تبرهن الأحداث الاستثنائية لماضيَ القريب ولحياتي المستقبلية على أن القدر كان يتربّص بي...

ولن أدرك، إلاّ فيما بعد، في ضوء مسيرةٍ مرعبة وممجّدة، كلّ قوّة كلمة القدر، ولن أستوعب الفرق بين المعاناة من مصائب عظيمة في سبيل أمورٍ عظيمة، والمعاناة من أجل أمور عادية! لا يمكن تحديد مقدار الألم، وأيّاً كان نوعه، فله الأعراض الجسدية نفسها، ويتساوى عبء قلاقله. لم أنجرّ قط لبذاءة التصوّر أنّ ألم امرأة فقدت طفلها أقلُّ وطأةً من ألمي. ولكنّ تصرّف من يخضع له يتعلّق بالباعث الذي يسبّبه. زعم البعض أنّ الشهادة تؤدّي إلى اللذّة، وأقول إنّ هناك بالأحرى لذّة في الدفاع عن الحق المطلق، عن قضية عادلة، وهناك سموٌّ في التألّم في سبيل ذلك. حينما يناضل المرء في سبيل هدفٍ أغلى من حياته، لا يهاب أيّ موت، ولا يقهر إرادته أيّ طغيانٍ. فليندهش جبابرة ينقضّون على إنسانٍ أعزل وهم يرون كيف أنّ ضرباتهم الظالمة تقوّي ضحيتهم وتشدّ من عزيمتها! غالباً ما تتحطّم القوّة الوحشية أمام الإيمان.

بُعيد ذلك اليوم السادس عشر من آب (أغسطس)، لم يهدّئ موت أوفقير الغضب الملكي في شيء، وانصبّ جام غضب الحسن الثاني علينا. لم يكفِ موت الأب؛ فانتقم الملك لنفسه بصلب الأبناء. أصبح اسم أوفقير ملعوناً. أراد أن يزيله كما يُجتثُّ مرضٌ أو فيروس أو جرثومة! لا يمكن ارتجال إثم كهذا، ويحتاج هذا العار إلى مؤامرة صمتٍ لإنجاز المهمّة. أراد الملك أن يجعل منّا عبرةً لكلّ مَنْ تسوّل له نفسه الرغبة في الإطاحة به. الرسالة واضحة: بعد موت الآباء، سيدفع الأولاد الثمن. وفي لامبالاةٍ ناجمة عن الخوف أو المصلحة، سيتنكّر لنا وينسانا منذ ذلك الحين كلّ مَنْ عرفنا من المغاربة والأجانب. وسوف نختفي، منبوذين وملعونين، من الحياة ومن ذاكرة الناس. وسنغرق، عائلتي وأنا، في ليلٍ بهيمٍ لا نهاية له.

غداة الهجوم على طائرة البوينغ، 17 آب (أغسطس) 1972، أعلنت الوكالة الرسمية للأنباء (MAP): «في الساعة الثانية عشرة والنصف ليلاً، انتحر الجنرال أوفقير في مقرّ هيئة الأركان، برصاصة في الرأس.» كان

الغرض من ذلك البيان المقتَضَب هو الإيهام بأن الأمر يتعلّق بالانتحار وفاءً. سيكون أوفقير، وقد شعر بالإهانة من جراء محاولة ثانية للانقلاب من قبل الجيش الذي يرأسه، قد غسل العار الذي لحق به من خلال إقدامه على الانتحار. في الواقع، لقد تردّد النظام في الاعتراف بتمردٍ ثانٍ للجيش في غضون عامٍ واحد، فكيف يمكنه تفسير أنّ أوفقير، أوفى الأوفياء، تمرّد بدوره علىٰ ملكه؟

أتاحت التعازي الفرصة لحركة متواصلة في منزلنا في الرباط بجادة الأميرات[1]. وقد جاء رئيس الوزراء وأعضاء الحكومة ومستشارو الملك وأقاربه وبعض أفراد أسرته لمواساة والدتي و«المشاركة» في أحزاننا. . . استغرقت للاّ عائشة، الشقيقة الكبرى للحسن الثاني، في التفكير وهي تقف بجوار جثّة والدي المختَرقَة بالطلقات. أمسكت بيد أوفقير الهامدة والدامية، وقالت متحسّرةً:

- لماذا فعلت هذا، يا جنرال؟

من بين أوائل القادمين كان عبد السلام جسّوس، رجل الأعمال، والناشر، وأحد المقرّبين من علاّل الفاسي[2]. كما كان صديقاً حميماً لأوفقير، وكانت زوجته ماما الصديقة الوفية لأمي. وقد اعتبرهما والداي صديقين مخلصين. ومنذ سنوات خلت، كان جسّوس الصلة السرية المنتظمة بين الجنرال وعلاّل الفاسي. شاهد جثّة صديقه المختَرَقة بخمس طلقات: واحدة في الظهر على مستوى الترقوة، والثانية في الكبد، والثالثة في الساعد، والرابعة في القلب، والأخيرة أُطلقت على مؤخّر الرأس ونفذت من العين اليسرى. كانت تلك الآثار، غير المنتظمة في دقّتها،

---

(1) سمّي هذا الشارع من حي السويسي السكني بهذا الاسم لأنّ اثنتين من شقيقات الحسن الثاني تسكنانه، كما أنّ الملك يمتلك فيه ڤيلا تبعد نحو أربعمئة متر عن الڤيلا خاصتنا.

(2) أحد الزعماء الوطنيين الموقّعين على بيان الاستقلال، وهو العضو المؤسس، مع المهدي بن بركة، لحزب الاستقلال.

واضحة لا تنطلي على شخصٍ خبيرٍ بالسلاح الناري: لقد قُتِل أوفقير من قبل شخصين أطلقا عليه الرصاص؛ أحدهما متمرّس في استعمال المسدّس أصاب الأعضاء الحيوية؛ وآخر، أقلّ خبرةً، أطلق النار بحنقٍ وبلا فاعلية. أقنع جسّوس والدتي بأن تودع لديه البزّة العسكرية التي قُتِل فيها زوجها.

قال لها:

- يجب الاحتفاظ بدليل اغتيال الجنرال! أعطني هذه البزّة؛ سأودعها بأمان في صندوق مصرفٍ في جبل طارق. ولكن قبل ذلك، سأعرضها على علاّل الفاسي وآخرين!

حينما اختفينا، سلّم جسّوس، تحت ضغط زوجته، البزّة لرجال الحسن الثاني، واختلست زوجته، بمساعدة السلطات، المال الذي كانت والدتي قد أودعته لديها لاستثماره. هؤلاء الناس الذين اعتقدناهم أصدقاء لنا، باعونا لخوفهم من النظام ولحبّهم للذهب.

لثلاثة أيامٍ، تقاطر مجتمع السلطة إلى بيتنا. كان حضوره في تلك الأيام الأولى بعد الانقلاب مفارقة لم يدركها أولئك الذين أفلتوا من رقابة المَخْزَن[1] الدقيقة. والحسن الثاني بنفسه هو من أمر:

- فليذهب الجميع لتقديم تعازيهم لفاطمة أوفقير، باستثناء العسكر! يمكنهم أن يكلّفوا زوجاتهم بالحضور نيابة عنهم.

ومع ذلك أخلّ ضابطان رفيعان بالأوامر: العقيد الدمنتي (المحافظ السابق لمرّاكش)، مدير مكتب أوفقير في وزارة الدفاع، والعقيد عروب، الذراع اليمنى لوالدي في هيئة أركان القوات المسلّحة الملكية. عانقني الاثنان وهما يرتديان البزّة العسكرية بالأوسمة والرتب، وضمّاني بين

---

(1) المَخْزَن: إدارة تتبع القصر الملكي مباشرة وتضمّ وحدات رديفة للجيش والشرطة النظاميين، ويسمّى أفرادها بالمخزنيّين وهم مجموعات من الأتباع والمخبرين يقومون بمراقبة المجتمع.

ذراعيهما، لينقلا إليّ شدّة حزنٍ رجوليٍّ. لقد تقاسما مع أوفقير آخر الساعات التي كانت تفصله عن الموت. وفي تصرّفٍ مهيب وواضح، طلبا على مسمع ومرأى الجميع تقديم تعازيهما لوالدتي. قلتُ، موجّهاً كلامي لعروب :

- سيّدي العقيد، سأنتقل بكما إلى صالة... سيكون هذا أكثر سريّةً...

وردّ:

- لم نأتِ لنخفي أنفسنا!

بُعيد 16 آب (أغسطس)، أُحيل العقيد الدمنتي، الذي كان الملك ممتعضاً منه قبلاً، إلى التقاعد المبكر، تماماً مثلما أحيل حوالي مئة ضابط من ذوي الرتب العالية.

أمّا المقدّم عروب، الذي لم يكن والدي يكفّ عن مدحه، فقد أوقف عن مهامه لفترة، ثمّ أُعيد إليها من قبل الحسن الثاني. وقد رقّاه الملك في أواخر أيامه إلى رتبة عميد. ويحمل هذا الضابط القدير والمثقّف والنزيه الآن رتبة لواء، ويحظى بثقة محمد السادس وباحترام نظرائه.

لم يتّهم أيّ بيان رسميٍّ حينذاك الجنرال أوفقير صراحةً بمحاولة الانقلاب. وساور الشكّ الحسن الثاني، وشجّع صمت القصر الناس الأقلّ جسارةً على المجيء لتقديم تعازيهم لنا. وبدّل العديد منهم مواقعهم، مقتدين في ذلك بالشخصيات الرفيعة في البلاد. بعضهم حضر لنقل ما يرونه أو يسمعونه. آخرون، وقد شلّهم جُبنهم الشديد، لم يتجاوزوا عتبة بيتنا. ولا يسع المرء إلاّ أن يبتسم ويتذكّر الفيلسوف الذي قال: «الذين حضروا أكرموني، والذين لم يحضروا أسعدوني!» وقد تولّى حاج المشاط، رئيس فوج الإطفائيين، مراسم الجنازة، وهو بربري ينتمي إلى قبائل آل زيان، مثل جدّي لوالدتي، الذي حذّره كصديق:

- لستَ مضطرّاً للمخاطرة بنفسك بهذا الشكل. إنّك تجازف بمنصبك.

فأجاب:

- جلالته يعرفني. أنا لا أمارس السياسة. ولديّ مبادئي! حتى وإن لم نكن نتبادل الزيارات باستمرار، فإنّ أوفقير صديقي وأنا مدينٌ له بذلك.

وبقي حاج المشاط في منصبه حتى مماته. ولم يخن عشرته قط.

في الواقع، وحدهم أصدقاؤنا الحقيقيون جاؤوا عفوياً. عموماً، تكون المحن الكبيرة مصحوبة بخيبات أملٍ كبيرة، وأحمد اللّه أنّه لم يخيّب أملي في أصدقاء طفولتي وزملائي في المدرسة، الذين حضروا جميعاً للوقوف إلى جانبي.

استقبلنا، أمّي ومليكة وأنا، المعزّين. استقبلتهم على الباب لأدخلهم إلى البيت. وكانت إحدى شقيقاتي، مريم المصابة بداء الصرع، طريحة الفراش، بينما بقي الصغار، ماريا وسُكَيْنة وعبد اللطيف، في بيت إحدى صديقات أمّي، لأننا أردنا أن نجنّبهم صدمة موت والدنا. حينما كانت وتيرة القادمين تخفّ، كنتُ ألتقي بمجموعة من أصدقائي الشبّان فيخفّ بذلك ألمي. كذلك وجب عليّ استقبال ممثّلي قبائل البربر في الأطلس الأوسط حيث أصول أمّي، وقبائل جنوب شرق المغرب حيث تعود أصول والدي.

لم يتقبّل أولئك الرجال الأشدّاء الصادقون فكرة أن لا يتلقّى رجل العائلة تعازيهم لنقلها إلى أرملة المرحوم. جعلهم الحرس الخاص لوالدي ينتظرون تحت خيمةٍ خاصّة بزعماء القبائل. حينما دخلتها، تأثّرتُ لرؤية حوالي ستين رجلاً عملاقاً ينهضون واقفين أمامي بعمائمهم وبرانسهم الصوفية الفضفاضة. عانقوني واحداً تلو الآخر. كان في تصرّفهم من التبجيل أكثر ممّا فيه من الحزن. كانت مصافحاتهم الطويلة والحازمة أشبه بالتهاني منها بالتعازي: «مات والدك رجلاً... فكن رجلاً!»

حينما غادرتُ الخيمة، لحق بي مولاي علي، القيّم على منزل

والدي، وهمس لي:

- سعيد هنا، ويريد التحدّث إليك على نحوٍ عاجل! عليه أن يغادر بأسرع ما يمكن!

رغم الإرهاق والأحزان المتراكمة، لم يتركني ذلك الخبر لامبالياً. ما عساه أن يفعل سعيد هنا؟ هذا الرجل القصير القامة، الهزيل، الأسمر البشرة، الثاقب النظرة، هو يتيمٌ تبنّاه جدّي لوالدي، انخرط في الحرب الجزائرية في صفوف جبهة التحرير الوطني FLN. كان يومها مقرّباً من الرئيس بومدين، وبصفته تلك شغل حضوره بالي. اتّجه بي مولاي علي إلى حجرة مخصصة لماكينات المسبح. أخذني سعيد بين ذراعيه وعيناه مغرورقتان بالدموع. كانت تعازيه صادقة، فقد شعر باستمرار أنّه فردٌ من عائلتنا مع أنّه يعيش في وطنه الثاني، الجزائر.

- أنا أحمل رسالةً من الرئيس بومدين لوالدتك. سيكون من الأفضل أن ألتقي بها سرّاً. . . هل يمكنك ترتيب ذلك؟

- نعم، بالتأكيد. . . ولكن سيستغرق إخفاؤها عن كل هذه الأنظار بعض الوقت. تعال، اتبعني!

طلبتُ من مولاي علي البقاء معه في حجرة الثياب الخاصة بالمسبح.

كانت فاطمة، مرتدية الأبيض، محمرّة العينين، جالسة على الأرض فوق سجّادة صلاة في القاعة المزدحمة. كانت منهوكة، محطّمة حزناً. انحنيت نحوها، ففتحت لي ذراعيها وانتحبت وهي تعانقني. همستُ في أذنها:

- يجب، بكلِّ تأكيد، أن تجدي حجّة لتكوني في غرفتك خلال ربع ساعة. شخصٌ مهمّ يريد رؤيتكِ. . .

تائهة من شدّة الألم، ومنهكة من انعدام النوم، ومسحوقة من وطأة عذابها، شدّت على يدي بهدوء في إشارة موافقة. صعدتُ إلى الطابق العلوي. وفي غرفة والديّ، فاجأتُ خادمتهما وهي تبكي بحرقة أمام

صورةٍ لأوفقير[1]. انحنت على كتفي للحظة. وأحكمتُ كلَّ قواي لأتمالك، أنا أيضاً، الاضطراب الذي استبدّ بي. سحبت ستائر النوافذ المرئية من حديقة المنزل، ونزلتُ ثانية. وتوجّهت إلى غرفة العدّة، لآخذ منها صندوق أداوتٍ وبزّة عملٍ زرقاء اللون.

عدتُ إلى غرف الملابس، متسللاً بين السور وأشجار السرو المحاذية له. نظر إليّ كلّ من مولاي علي وسعيد، مذهولَين. قلت لسعيد وأنا أقدِّم له بزّةً:

- تفضّل، البس هذه، انّها الوسيلة الوحيدة التي وجدتها لكي أمرّرك خلسةً...

طلبتُ من مولاي علي أن يتّصل بالمقسم لاستدعاء سبّاكٍ:

- أخبرهم أنّ هناك تسرّباً للمياه في الطابق العلوي.

ثمّ اتّصلتُ بالمقسم لأشرح لهم أنّ هناك التباساً في الأمر. قلتُ لهم:

- لا داعي لإزعاجكم، لقد حضر سبّاكٌ، وشكراً لكم!

طلبتُ من الحرس الخاصّ لوالدي أن يوصلوا سعيد إلى الغرف عبر المطابخ.

سبقتهم على أمل أن تكون والدتي على الموعد. وسار كلّ شيء على ما يرام.

- سيّدتي، لقد جئتُ لأنقل إليك التعازي الصادقة للرئيس بومدين. إنّه يؤكّد لكِ صداقته، ومساندته. إنّ روابطه بزوجك تتعدّى إطار السياسة، ولها مسار شخصي ووجداني خالص. ويعلمك الرئيس بأنّ أبواب الجزائر مفتوحة لك، وإن رغبتِ في ذلك، فسوف يوضَع تحت تصرّفكِ منزلٌ وكلُّ الوسائل الضرورية للعيش.

شكرته والدتي:

---

(1) داخل العائلة، كنّا غالباً ما نقول «أوفقير» حينما نذكر أبي.

– لم أشك قطّ في شهامة الرئيس وكرمه. لا تفاجئني مبادرته، بل هي تستقرّ مباشرةً في قلبي. ولكنّه كوطنيٍّ عظيم، لا يمكنه أن يجهل الدلالة السياسية التي سيكتسبها عَرضه إن قبلتُ به. حتى وإن كان دافعها الصداقة، فإنّ دعوته لن تنجو من محاولات التشويه من طرف أعداء زوجي. لن ننسى، أولادي وأنا، أبداً اهتمام الرئيس بنا في هذه اللحظات المأساوية العصيبة التي نمرّ بها. تفضّل بنقل فائق تقديري وعميق امتناني.

في 21 آب (أغسطس)، بعد الانقلاب بأكثر من أربعة أيام، قدّم الحسن الثاني، في مؤتمرٍ صحفيٍّ، روايته للأحداث. لقد جعل 160 صحافياً ينتظرون ليصل بعد ساعةٍ ونصف من التأخّر. لطالما استهان العاهل الشريف بدقّة المواعيد، وذلك بلا شكّ لأنّها، كما كان اوسكار وايلد يقول، قاتلة الوقت.

حاصرته وسائل الإعلام العالمية بالأسئلة، ولم يخفِ الحسن الثاني مزاجه السيئ، فبدا عدائياً وألوفاً وجِلفاً، ووصف جان لاكوتور بأنّه صنيعة الاستعمار، وهي الصفة نفسها التي أطلقها على أوفقير! وشرح الملك، متضايقاً، كيف انتحر وزيره:

– أخرج مسدّسه، وحاول الحاضرون (العقيد الدليمي والجنرال مولاي حفيظ، وزير الديوان والتشريفات) منعه من ذلك. وبدأ بإطلاق النار عشوائياً، بدليل أنّني استطعتُ أن أطلع النفوس الحزينة لإدغار بو المفتقرة للمعلومات على آثار الطلقات حتى على السقف. وتابع الحسن الثاني: حتى أنّه أوشك أن يقتل أو يجرح شخصاً حاول منعه من الانتحار. كانت الطلقة الأخيرة قاتلة.

فاجأه أحد الصحافيين بسؤاله عن مبعوثٍ محتَمَلٍ من الرئيس بومدين قادم لتقديم تعازيه لزوجة أوفقير. وحاول الحسن الثاني، مرتبكاً، أن يكظِم غيظه:

– لو كان الأمر كذلك، لكنت أوّل مَنْ يعلم به! (أشار الملك بذلك إلى الحدود المغلقة منذ المحاولة الانقلابية). أنا حريصٌ على أن أخبرك

بأنّ صديقي الرئيس بومدين كان أوّل مَنْ اتّصل بي ليطّلع على أخباري ويهنّئني بسلامتي!

هل كانت مبادرة الرئيس الجزائري محض ودّية؟ ونحن نعلم الطبائع المتناقضة كلّياً للرجلين واختلافاتهما، أشكّ في ذلك. سيكون لي الفرصة للعودة إلى هذه المسألة، والتعمّق في ذلك المؤتمر الصحفي الشهير للحسن الثاني. . . لأنّ بعض تصريحات الملك التي مرّت حينها غامضة وملتبسة، تتضح اليوم من جديد.

طوال ليلة 17 / 18 آب (أغسطس)، لم يفرغ بيتنا. توارت أمّي أحياناً في غرفتها متذرّعة بالتعب والإرهاق. تناوبنا على إحراق ملفات ووثاق وصور. وما تصفّحناه باختصار قبل الإتلاف كان يثير الشبهة حول الكثير من الناس فتخلّصت أمّي منه بتعجّل لحرصها الدائم على أن تبقى بعيدةً عن أرجاس السياسة.

- فلنتخلّص من كلِّ هذا! لا شيء سيعيد لي زوجي! كلّ هذا لا يعنينا! لو أنّ والدك قد ارتأى أنّه من المفيد إظهار هذه الحقائق، لكان فعل ذلك في حياته.

مع ذلك احتفظتُ بورقةٍ ورسالتين وجدتها في جيب آخر بزّة ارتداها أوفقير. كانت قائمة بالأسماء مكتوبة بخطِّ يده. أربعة أعمدة مكتوبة ومعنونة: المجلس الوطني للوصاية (والذي سيسارع البعض إلى تحريف اسمه إلى المجلس الوطني للثورة).

كما حاولت أن أحتفظ في ذاكرتي بأكبر قدرٍ من المعلومات قبل حرق ذلك الجبل من الأوراق. ألححتُ على أمّي أن نحتفظ ببعض الملفّات ولكنّها رفضت ذلك تماماً. لا شكّ أنّها كانت تعي أكثر منّي الخطورة التي تشكّلها تلك الكومة من المعلومات الحسّاسة للغاية. كنّا مقتنعين، هي وأنا، بأنّ والدي قد أخذ معه الأسرار الأكثر خطورةً عن المغرب إلى قبره.

وخلال عملية الحرق المتواصلة تلك، والتي استمرّت حتى آخر الليل، لم أستطع منع نفسي من التساؤل حول عدم اكتراث والدي، عندما كان يتحمّل، في حياته، النميمة والشتائم دون أن يدافع عن نفسه. كان يمكن للحقائق التي يحتفظ بها أن تبرّئه من الكثير من التُّهم!

شاهدتُ انتشار العشرات من صور المعسكرات التي جمع فيها حزب الاستقلال الزعماءَ القبليين السابقين في عهد الحماية الفرنسية، شيوخٌ يرتدون مجرّد كيس من القنّب مثقوبٍ عند الرقبة، أياديهم فوق رؤوسهم وغارقون حتى ذقونهم في حفرٍ مليئة بمياهِ المجارير. جماجمهم حليقة وملطّخة باليود وتبرز بصعوبة بين الفضلات والغائط. وأعناقهم المجعّدة مرضوضة بالحبل الثخين الذي يخنقها ويربطها بعضها إلى بعض. وفي صورٍ أخرى، رأيتُ دار بريشة، مركز التعذيب التابع للحزب. صورٌ وملفّات عديدة تشهد على عمليات الاغتيال المقترَفة من قبل حزب الاستقلال عند فجر الاستقلال وبعده. كانت الحرب الخفية التي شنّها بشراسة حزب بن بركة من أجل التصفية الجسدية لخصومه حقيقة. تصفّحتُ في عجالةٍ صفحات وصفحات من المعلومات حول شخصيات الصفّ الأوّل، المنتمية إلى النظام كما المنتمية إلى المعارضة. إنّها أدلّة على الفساد المتفشّي والمعمّم.

اكتشفت الخطّة الكاملة لتشكيل جهاز البوليس السياسي المغربي، **الكاب** Cab 1 و2 و3 إلخ... الشهيرة. وقد حافظت الدعاية الإعلامية للقصر، والمعارضة المنغمسة أحياناً في المصالح المشتركة، دائماً على كذبةٍ وقحة، تنسب تشكيل أجهزة **الكاب** إلى أوفقير. بينما الحقيقة هي بخلاف ذلك. إنّ حزب الاستقلال هو مصدر جهاز البوليس السياسي. فلدى استقلال المغرب، كان أوّل مدير للأمن الوطني يُدعى محمد الغزاوي. وهو أحد رجال حزب الاستقلال والصديق الشخصي لعلاّل الفاسي، وقد أسّس، بتوجيهٍ من بارونات الحزب ومن بينهم المهدي بن بركة، جهاز شرطة موازياً، **الكاب**، وهي وحدات خاصّة سرّية قامت

بتصفية المقاومة المدينية وتنظيمها الرئيسي «الهلال الأسود»، النشط جدّاً في الدار البيضاء. استغلّ حزب الاستقلال تلك الحرب الخفية لتصفية خصومه الرئيسيين. وكان لمحمد الغزاوي كذراعٍ يمنى في **الكاب** رجلٌ يُدعى إدريس حصار، يقود الأمن الوطني في ذلك السادس عشر من آب (أغسطس) 1972. حينما استُبدِل محمد الغزاوي، في عام 1960، بأوفقير، احتفظ هذا الأخير بوحدات **الكاب**، على الرغم من أنّه نظّم الأمن الوطني وفق النموذج الفرنسي. وقد ورث تلك «الفرق الخاصّة» التي شكّلها حزب الاستقلال. وظلّت الفرقة السابعة، وحدة التعذيب في الحزب، تُقاد من قبل الرجل ذاته، «حلوف»، الذي كان ضابطاً في دار بريشة، مركز الاستجواب التابع لحزب الاستقلال. وأتاحت العلاقات الودّية التي احتفظ بها أوفقير مع العديد من الشخصيات السياسية والعسكرية الفرنسية أن يحصل على تعاونٍ واسع، ووافق صديقه الوزير الديغولي، روجيه فري، على أن يبقي في الوظيفة 350 شرطياً فرنسياً ليشكّل ويؤطّر الجهاز الفنّي لشرطة المغرب حديثة الاستقلال.

وهكذا تمّ تأسيس جهاز CMI (فرق التدخّل السريع) المُناظر للجهاز الفرنسي CRS، وBLS (المفارز الأمنية الخفيفة) التي ستتحوّل فيما بعد إلى GLS (الأفواج الأمنية الخفيفة). وهي وحدات نخبة سلاحها موحّد، منظّمة من قبل ضبّاط صف قادمين بأجمعهم من الجيش الفرنسي. هذه القوّة التي قوامها 3500 رجل مزوّدة بعجلات مدرّعة وعربات خفيفة. وتتركّز مجموعات GLS بشكلٍ رئيسي في الرباط والدار البيضاء. وهي الورقة الرابحة الرئيسة للنظام في حال حدوث «ضربة قاسية»... كما أنّ الدرك الملكي يمتلك بدوره وحدات حفظ النظام، القادرة على مواجهة انقلابٍ عسكري. كما تمّ تشكيل دوائر أمنية أخرى، على نمط دوائر السلطة السابقة للحماية الفرنسية. مثل الاستخبارات العامّة، و DST (مديرية الأمن الإقليمي) وDGED (مديرية الدراسات والتوثيق) المُناظرة لمديرية SDECE الفرنسية، مديرية DGSE الحالية. ولكن غاية النظام

الثابتة هي الإكثار من الدوائر الأمنية وإخضاعها للمنافسة فيما بينها. الكلّ يراقب الكلّ. إنّ الذين نسبوا إلى أوفقير سلطة مطلقة بسبب ثقة الملك هم إمّا سُذّج أو لا يعرفون شيئاً عن المَخْزَن.

في فجر يوم 18 آب (أغسطس)، حضر 200 شخص تشييع جثمان والدي، وقبّلت والدتي للمرّة الأخيرة زوجها. ووفق التقاليد الإسلامية، لا يجوز لها، ولا لأختي، حضور مراسم الدفن. وعندما انحنيتُ فوق جثمانه لأقبّله قبلة الوداع، كان وجهه الشاحب يكتسب تعبيراً غريباً. كانت ابتسامة ساخرة، مرتسمة على شفتيه. لا شكّ أنّه التعبير الأخير الذي أبداه أوفقير لقاتليه.

وُضِعَت طائرة عسكرية تحت التصرّف لتقلّ جثمان أوفقير إلى مسقط رأسه في الصحراء. وقادنا موكب جنائزيٌّ من حوالي اثنتي عشرة سيارة إلى القاعدة الجوية في الرباط- سلا. في اللحظة التي عبرت فيها سيارة الإسعاف التي تقلّ النعش بوابة القاعدة، قدّم الضباط وجنود الحراسة التحيّة العسكرية لدى مرورها. أقلعتُ على متن داكوتا مصحوباً بجدّي لوالدتي وببعض الأقرباء. وُضِع النعش في الممرّ المركزي للطائرة عند قدمي، ودعاني القائد للجلوس في القمرة. استأتُ منه لإبعادي عن ذلك النعش الذي لم أستطع أن أكفّ عن النظر إليه.

في مطار قصر السوق كان رسميون وعلى رأسهم محافظ الإقليم في انتظارنا. وشاهدتُ ثلّة من الجيش جاءت لتقديم تحية الشرف. فتحت سيارة جيب تابعة للدرك الملكي الطريق من أمام موكب السيارات. تقع القرية الأم لأوفقير على بعد ثمانين كيلومتراً من المكان في وسط الصحراء. كنتُ أظنُّ أن مراسم الجنازة ستتمّ خفيةً. واستمرّ الغموض والهزل. . .

فيما بعد، حين سقط القناع، غيّر الحسن الثاني اسم مدينة قصر السوق الموروث وجعلها الرشيدية، على اسم أصغر أبنائه، الأمير مولاي

رشيد. ومنذ موت أوفقير، حُرِمَت تلك المنطقة أيضاً من أدنى ميزانية لكي تبقى وتتطوّر، وفَرغت قريته الأمّ شيئاً فشيئاً من الناس من خلال رحيلٍ مفهوم تماماً. وإذا كانت الأفضال الملكية جعلت الذهب يلمع تحت أقدام المتملّقين فإنّ لعنة الملك ستحرم عامّة الناس من الخبز لأنّهم من قبيلة أوفقير نفسها. وسيُحرَس ضريح الجنرال ليلاً ونهاراً من قبل مخفرٍ للدرك، ليتأكّد الحسن الثاني إلى حين مماته أنّ لا أحد يستطيع المجيء لزيارته. وإلى يومنا هذا، لا يزال قبر محمد أوفقير معزولاً ومحاطاً بقوات حفظ النظام.

لن أنسى أبداً مراسم الجنازة التي حضرها المحافظ بلباسه الرسمي. في مقبرة صغيرة بين روابي قصر[1] وأطراف واحةٍ، تخبّط حشدٌ من الناس وهم يتلون بأعلى صوتهم صلوات الموت. وأضفت الشمس على الغبار المتصاعد والمتماوج لوناً مرمرياً. حمل حرّاس أوفقير النعش معي ووضعوه أرضاً قرب جدّه الباشا، تحت القبّة المتواضعة لضريحٍ صغيرٍ متهدّمٍ تغطّيه الرمال.

أولئك الرجال الذين طالما عرفتهم بهدوء أعصابهم بكوا كالأطفال، وعلى مسافةٍ منهم، وقفت نسوة من حول المقبرة على مصاطب مدرّجٍ ترابيٍّ، يولولن ويصرخن بصرخاتٍ تمزّق القلوب. حينما انهالت أوّلَ مجرفة من التراب على جثمان ابن البلد، الجندي الذي مات محارباً، والذي سقط تحت الرصاص، لعلعت طلقات البنادق القديمة احتفاءً واختلطت أصداؤها بزغاريد القرويات. في التقاليد البربرية، يعتبر الدفن المصحوب بإطلاق القذائف التكريم الأخير للمتوفّى. ويغفر الإسلام للمقتولين ذنوبهم.

اجتمع المحافظ وحوالي مئة شخصٍ على مائدة الزعيم القبلي. عند مغيب الشمس، زرتُ جدّتي لأبي، نعة، التي لزمت، حسب التقاليد، بيتها

---

(1) قرية محصّنة في شمال أفريقيا.

الطيني محاطة بنساء قريتها. حينما أخذتها بين ذراعيّ واحتضنتها، شعرتُ بجسدها الضامر يرتعش. كان وجهها المخدود شاحباً، ونظرتها، الحيوية عادة، خافتة، لا مثيل لعزّة نفسها سوى الألم الذي تكتمه. قبل شهرٍ من مقتله، جعلها أبي تقسم أن لا تذرف دمعة واحدة إن قُتِل كجندي شجاع. وقال لها: «ولكن إن متُّ جباناً، حينها ابكي حتى تفقدي بصركِ!»

ووفت نعة بوعدها، شاحبة مثل الكفن الذي انتزع منها ابنها.

للأسف، لم أرَ بعد ذلك أبداً تلك المرأة المدهشة بشجاعتها وحكمتها وعزّة نفسها، والتي لم تبارح قط صحراءها، ولم تولي أهمية للأمور المادية. وقد أضفى طبعها القاسي وإيمانها المتّقد عليها على الدوام هالةً خاصّة. وستكون طوال حياتها المرأة الحكيمة والموثوق بها والأم الحنونة لقريتها. ولا يزال الناس يجلّونها كقدّيسة حتى يومنا هذا.

بعد ظهيرة 18 آب (أغسطس)، أي بعد يومين من المحاولة الانقلابية، رفعت السلطة الستار عن تورّط أوفقير. فما كاد الجنرال يُدفَن حتّى خرج القصر عن صمته. وتحدّث وزير الداخلية بنهيمة عن الانتحار خيانةً، وشرح كيف أطلق أوفقير ثلاث طلقات على نفسه كانت آخرها قاتلة. . . تحدّث عن ثلاث، في حين أنني كنتُ قد شاهدتُ آثاراً لأكثر من ذلك العدد. واستمرّت مهزلة الكذب المشؤومة.

في 19 آب (أغسطس)، اجتمع الحسن الثاني في القصر الملكي بالصخيرات بكبار الضباط العسكريين. وشرح لهم كيف أراد أوفقير أن يسقط طائرته وينصّب مكانه ابنه، الأمير سيدي محمد، ذي السنوات العشر. وكان سيقود المغرب كرئيسٍ لمجلس الحماية إلى حين بلوغ الملك المقبل محمد السادس سنّ الرشد. كما أخبر العاهل جيشه بقراره إلغاء منصبي وزير الدفاع والقائد العام للقوات المسلّحة الملكية اللذين كان أوفقير يشغلهما: إنّه هو مَنْ سيتقلّد شخصياً هذين المنصبين. عقد الحسن الثاني النيّة على أن يمسك بيديه زمام الجيش. فجيشه لا يحبّه،

وقد بادله العاهل الشريفي ذلك الشعور حتى نهاية عهده. وقد انتهز، في عام 1973، الفرصة المفاجئة لحرب كيبور(*) ليبعد عن أبصاره الضبّاط العسكريين الأكثر إثارةً للشبهة. فقد أُرسِلَت وحدة عسكرية قويّة من المغاربة لمقاتلة إسرائيل إلى جانب مصر وسوريا. وعلى هضبة الجولان، وفي سيناء، قُتِل ضبّاطٌ في ظهورهم فقط لأنّهم اعتبروا خطراً. . . وعند توقّف الأعمال العدائية، تُرِكَت القوات المغربية في مواقعها لشهورٍ عديدة.

لم تكفِ عمليات التطهير التي أعقبت 16 آب (أغسطس) لطمأنة الملك، فاستغلّ، في عام 1975، قضية الصحراء الغربية وتخلّص نهائياً من التهديد العسكري بنقل جيشه إلى رمال الصحراء. وقد تعمّد الحسن الثاني أن يعيّن على رأس الجيش قائداً خاملاً وفاسداً وغير فاعلٍ. فكانت الخسائر المغربية باهظة، وعندما طلبت وحدات القوات المسلحة الملكية النجدة، حينما حوصِرَت وقُصِفَت وسُحِقَت بنيران العدو، تلقّت الردّ: «جلالته نائم، ولا يمكننا إيقاظه.» في الواقع، ومنذ تعرّض طائرته البوينغ لهجوم طائرات الـ F5، لا يمكن لأيّة طائرة من سلاح الجو أن تقلع إلاّ بإذنٍ صريحٍ من الملك.

في 19 آب (أغسطس) 1972، أبلغ العاهل الشريفي قادته العسكريين المدعوين إلى قصر الصخيرات بأنّه سيتحدّاهم!

في 20 آب (أغسطس)، زايد الحسن الثاني بخطابٍ إلى الشعب، ومرّة أخرى، كانت الرسالة واضحة: «نصّبني الله على العرش لكي أحافظ على الملكية. . . الشعائر الإسلامية الملكية تتيح لي أن أبيد ثلث السكان الملوّث بالأفكار الإلحادية لكي أنقذ الثلثين الآخرين السليمين من الشعب!» خلال تلك الخطبة الموجزة التي استغرقت حوالي عشرين

(*) أي حرب تشرين الأول (أكتوبر) 1973 بين مصر وسوريا من جهة، وإسرائيل من جهة أخرى. وكيبور تعني الغفران.

دقيقة، لم يتلفّظ الملك باسم أوفقير. كان ذلك إنكاراً واضحاً لوجوده: صمته أبلغ من الكلام.

في اليوم نفسه، أرسل الملك إدريس حصار، مدير الأمن الوطني، ليبلغ والدتي بأنّه يجب تطويق البيت. والأصدقاء الذين يرغبون في البقاء فيه، يمكنهم ذلك شريطة ألاّ يخرجوا بعد ذلك خارج سور الڤيلا. وحدهم بعض أفراد العائلة وثلاثة أصدقاء ومَنْ بقي مخلصاً من طاقم الموظّفين في البيت اختاروا البقاء معنا.

ترافق ذلك الحجز الأوّل مع استجوابات ليلية لا نهاية لها. حقّق المفوّض يوسفي قدور، رئيس الفرقة الخاصّة لمفوضية درب مولاي شريف السيئة السمعة في الدار البيضاء، وفريقه المكوّن من خمسة عشر محققاً بلا كللٍ حول مؤامرة 16 آب (أغسطس). كان المفوّض قصير القامة، أصلع، متكرّشاً، وجهه منتفخ، تلمع عيناه الغائرتان في شحم محجريه بخبثٍ جهنّمي. استجوِبَت والدتي، وهي تحت تأثير المهدّئات، بصلفٍ لم يخفِ عناد أكثر جواسيس الحسن الثاني حذقاً.

- ماذا تعرفين عن الصلات بين المعارضة والجنرال؟ وخاصّة مع الفقيه البصري؟ هل لك أن تؤكّدي لنا اللقاءات التي أجراها زوجكِ مع عبد الرحيم بوعبيد وعلاّل الفاسي؟ ماذا تعرفين عن اتّصالٍ يورد اسم عبد الرحمن اليوسفي في هذه القضية؟ ما هي علاقاتكم مع ابراهام السرفاتي. ابنه موريس صديقٌ حميمٌ لأولادكم، ويتردّد إلى منزلكم...

كما أصرّ إدريس حصار على أن يعرف ما حلّ بالبزّة العسكرية التي قُتِلَ فيها أوفقير وشهادة الوفاة التي حرّرها طبيبٌ فرنسي.

- يا حاجّة[1]، يطلب جلالته منكِ أن تُعيدي إلينا البزّة التي مات فيها الجنرال.

---

(1) لقب تشريفي ويدلّ على احترام مَنْ حجّوا إلى مكّة (في سنّ السابعة والعشرين، كانت فاطمة قد حجّت سبع مرات).

- لقد أحرقتها، كانت ملطّخة بالدم وبدأت تتعفّن.

أسرّ حصار إلى والدتي، بصوتٍ غير مميّز:

- هذا مدهش، يا حاجّة، لقد قال لي جلالته: «حينما تطلب البزّة من فاطمة، ستجيبك بأنّها قد أحرقتها...»!

كان حصار أحد روّاد بيتنا، نظرت أمّي بثبات إلى عينيه:

- أخبر جلالته أنّ هذا مضحك برمّته، لقد اغتيل أوفقير، ولا أحد يغفل ذلك... وما تبقّى رياء.

جاء فريقٌ من الشرطة المختصّة لأخذ الرماد الموجود في الحرّاق على أمل أن يكتشف فيه بقايا نسيجٍ يحمل آثاراً من الدم والتحقّق من أنّها ليست من بزّة بديلة.

بعد ذلك بعدّة أسابيع، قُتِلَ خالي عز الدين، الذي ساعد والدتي في حرق بعض الملابس، بحادث مروريٍّ في ظروفٍ غامضة. فقد صدم دركيٌّ، بشاحنته المدعّمة بواقيات من الفولاذ الصلب، وبسرعة جنونية، سيارة خالي الهشّة من طراز رينو 4L، وجهاً لوجه ومباشرةً. توفي خالي في مستشفى ماري - فوييه العسكري في الرباط بعد يومين من الغيبوبة. عجزت كليتاه عن القيام بوظيفتهما في الميز. وقد قيل لجدّي إنّ الجهاز اللازم لتلك الوظيفة موجود، ولكن لا أحد يجيد تشغيله، حسب زعمهم. وقد حرصوا على إبعاد الضباط الأطباء الفرنسيين، العاملين في المستشفى في إطار التعاون مع المغرب، عن حالته. رفض الملك أن تذهب والدتي لإلقاء النظرة الأخيرة على شقيقها. وسُمِح فقط بمرور موكب الجنازة من أمام باب بيتنا. تشبّثنا جميعاً بجدار السور ونظرنا بتلهّفٍ ونحيبٍ إلى الجثّة العابرة. كان الموكب المشؤوم يتكوّن من حوالي ثلاثين سيارة، ولم يسمح سوى لأقرب أصدقائنا بالمرور من أمام منزلنا. وقفنا فوق صناديقٍ على أصابع أقدامنا، متشبّثين كالقردة بذلك الجدار، ومددنا أيادينا بيأس وكأننا نريد أن نلمس عز الدين للمرّة الأخيرة. شكّلت سيارات الشرطة من طراز فيات السوداء اللون، بوقوف

كل اثنتين منها معاً، سوراً من حول الڤيلا خاصتنا. كان بعض رجال شرطة المراقبة يبكون بصدق. قالوا بغصّة:

- حتى أثناء الحرب، يُسمح للناس بدفن موتاهم وتكريمهم.

ربّما لم تكن المساعدة القيّمة التي تلقّيناها من هؤلاء الحرّاس فيما بعد، من خلال سماحهم لنا باستقبال بعض أصدقائنا سرّاً، غريبة أمام الحنق الذي أحسّوا به حيال القسوة العجيبة المفروضة على امرأةٍ وأولادها.

ولكننا لم نكن في حرب. كنّا نتعرّض لاضطهادٍ شديد، بلا قانون ولا شرف، دون حتى أن نتوقّعه. كنا نخضع لأولئك الذين حرّضوا، ببذاءتهم واختلاساتهم ودسائسهم، على انقلابين في غضون عامٍ واحدٍ، وراحوا يفترون علينا ويسيئون معاملتنا لنيل رضا سيّدهم. ومنذ ذلك الحين، سيصبح التحريض ضدّ اسم أوفقير وزوجته وسيلة جيدة لنيل أفضال الحسن الثاني.

لحسن الحظ، اجتزنا الأسابيع الأولى من الاحتجاز وسط تضامن بعض الأصدقاء الأوفياء الحقيقيين. فبعض أفراد العائلة وحورية، ابنة العقيد اوبيجا (الصديق الوفي لأوفقير، وهو ضابط سابق في الجيش الفرنسي، أُحيل هو الآخر على التقاعد المبكر غداة الانقلاب العسكري) وآن براون، وهي صديقة إنكليزية، أمضوا معنا تلك الأشهر الأربعة والأيام العشرة التي أمضيناها تحت الإقامة الجبرية.

ومن بين مَنْ أظهروا وفاءهم لنا، البروفسور الاسباني خوان هيرمو، جرّاح الأعصاب ومدير المستشفى العام في الرباط، وصديق وطبيب العائلة، وكذلك الدكتور كونستان بنتلياس، جرّاحٌ وطبيب أسنانٍ فرنسيٌّ من أصلٍ يوناني، وصديقٌ قديم لوالدي، وكان يعالجني منذ طفولتي. حصلا على إذنٍ من وزارة الداخلية بأن يزورانا بانتظام. وزوّدني خوان هيرمو بقطراتٍ من موغادون المنوِّم الذي كنتُ أضيف بعضه إلى الشاي المقدّم لبعض الحرّاس الذين لم يكن بوسعنا أن نضمن تواطؤهم. كنّا في

شهر رمضان، وبواسطة الصواني المزخرفة وأباريق الشاي الكبيرة التي كنّا نقدّمها باستمرار للحراس، قطرتُ لغير المشاركين في التواطؤ معنا جرعات من المنوّم.

أعلمنا وزير الداخلية، الدكتور محمد بنهيمة، الرجل النزيه، الذي تختلف بساطته عن أبّهة المجتمع المغربي المخملي، وبواسطة الدكتور بنتلياس، الذي كان يتلقى العلاج عنده، بقلقه الشديد بشأن المصير الذي ينتظرنا.

أكّد لوالدتي:

- لقد استخبر عنكِ وعن أطفالكِ وهو يبكي. يريدك أن تعرفي بأنّ الملك قد أمر أجهزته الاستخباراتية بأن تقدّم له وصفاً دقيقاً لأماكن الاعتقال المحتَمَلة لكم. إنّ الخيار الذي يتّجه نحو أقصى الجنوب يجعل وزير الداخلية يخشى ما هو الأسوأ لمستقبلكم...

حتى هذا الإنذار المثبت لم يدفع والدتي للجوء إلى سفارةٍ مثلما ألحّ المحيطون بها. وقد أبت، مرتاحة الضمير، أن تلطّخ ذكرى زوجها وبراءة أولادها، بفرارٍ مخجلٍ ينمّ عن شعورٍ بالذنب. ردّدت:

- ليس لنا أيّ شيءٍ نُلام عليه. المغرب وطننا. ولن نلقي ظلال الشك على اسمنا خوفاً ممّا يخبّئه لنا الغد.

لقد جرت الرهانات، وسوف نجابهها.

تواصلت الاستجوابات، وازداد الضغط. أمر الحسن الثاني أن يُفتَحَ تحقيقٌ معمّقٌ حول جُملة ممتلكات أوفقير. وقد أخذ التقرير الذي فصّل أملاك الجنرال أقلّ من صفحة. اندهش الملك، قائلاً:

- كنتُ أعرف أوفقير قليل الميل إلى المال، ولكن إلى هذه الدرجة!

كان محمد أوفقير يملك بيته في جادة الأميرات، وثلاثمئة ألف فرنك في مصرفٍ بمدينة ليون في حسابٍ جار (هي حصيلة تعويضاته حينما كان

يخدم العلم الفرنسي) ومزرعة صغيرة مساحتها عشرون هكتاراً عند مخرج مدينة الرباط. وكان والدي قد اقتناها في الخمسينات، حينما كان لا يزال برتبة مقدّم، دون أن يحتاط ويحرّر الصكوك التي ستتيح لورثته أن تؤول إلى ملكيتهم. والمفارقة هي أنّ الحسن الثاني هو مَنْ طلب إلى وزير داخليته أن يقيِّد هذه الثروة باسم فاطمة وأولادها. فالملك كان قلقاً من أنّ تحافظ قلّة ثروة أوفقير على صورته الوحيدة التي لم يستطع تدنيسها: صورة النزاهة التي حظي بها الجنرال حتى عند أسوأ نمّاميه.

وكالعادة، تمّ تمويه ذلك بالافتراء والشائعات. وهكذا، نُسِبَت إلى والدي، وبخلاف كلّ موضوعية، مزارع في البرازيل والمكسيك وحسابات في سويسرا. ولا تزال أمّي إلى اليوم تبتسم ساخرةً من تلك المزاعم. وقد وقّعت حينها طواعية توكيلاً للمحامين الأجانب الذين وكّلهم القصر، يخوّلهم كلّ حقوق البحث في البنوك العالمية. وانهمك ثلاثة وعشرون رجلاً قانونياً من الأوروبيين والأمريكيين من ستّة مكاتب مختلفة في البحث والتنقيب بمساعدة أجهزة الاستخبارات الخاصّة وسفراء المغرب في كلٍّ من فرنسا وسويسرا وإنكلترا والولايات المتّحدة وبلدانٍ أخرى.

بعد ثلاث سنوات من البحث والتحقيق، أطلق خلالها الحسن الثاني لشبكاته في الغرب العنان، استسلم الملك لحقيقة أنّ أوفقير لم يترك ثروة وراءه.

عشية عيد ميلاد عام 1972، انتهت أيام العدّة المئة والثلاثون التي يفرضها الإسلام على الأرملة. كانت أمّي ترتدي ثوب الحداد الكامل البياض بمنتهى الحزن وبكلّ وقار جمالها البهيّ. شجّعناها على المشاركة والتبرّج وارتداء الثياب الملوّنة. وحاولنا، متحلّقين حول شجرة التنّوب التي تتصدّر الصالون، أن نغرق في عالم الرموز والبشائر المعتمة، وأن نعبّر عن الأمل المدفون عميقاً داخل كلٍّ منّا في أن يُرفَع الحجز عنّا في

نهاية هذا الحداد. وفي اليوم ذاته، نحو الساعة السابعة مساءً، تبعثر ذلك الأمل هباءً منثوراً. فقد أبلغنا مدير الأمن الوطني، إدريس حصار، قرار الملك بإبعادنا «لدواعي الأمن» لبضعة أسابيع إلى تزنيت، في الجنوب المغربي. وأضاف:

- يؤكّد جلالته لكم، يا حاجّة، أن منزلكم سيُختَم بالشمع الأحمر، وأنّه لن يتحرّك شيءٌ منه إلى حين عودتكم.

وسيتبدّد ذلك الوعد بالسرعة نفسها التي سنختفي بها.

فُتِح بيتنا، أوّلاً، للنهب، ثمّ أُزيل بالجرافة بعد بضع سنوات. فقد عمل الجنرال مولاي حفيظ، المشرف على القصور الملكية، والروح المتفانية للملك، نهباً وسلباً مانحاً نفسه، وكذلك بعض الشخصيات، حصّة الأسد من محتوياته. وسطا رضا أگديرة، صديق الملك ومستشاره، مع أنّه كان متورّطاً على نحوٍ خطير في الانقلاب، على أموالٍ كانت والدتي أودعتها لديه. فقد أراد الجميع، من خلال التنكيل بالمهزومين، أن يثبتوا للمنتصر أنّهم مغتاظون مثله من «خيانة أوفقير»... كلٌّ رمى بحجره في عملية رجمنا القروسطية تلك. وكلّ مَنْ أراد أن يصرف نظر الملك عن ولائه المشكوك فيه، ساهم في تلنيشنا[1]. كان الناس في الصالونات الفسيحة لبيوت الرباط يأكلون من آنيتنا، ويشربون بأكوابنا، ويزيّنون جدرانهم بلوحاتنا الفنية، ويفرشون أرضيات بيوتهم بسجّادنا، ولكنهم يتجنّبون تماماً لفظ الاسم الملعون لأولئك الذين نفاهم الملك. وسارع العقيد الدليمي، الساعد الأيمن السابق لأوفقير قبل أن يصبح منافسه، وأحد قتلته قبل أن يخلفه في منصبه، إلى نهب جزء من أثاث منزلنا وآنية مائدتنا والسجّاد الفارسي الذي أهداه شاه إيران إلى والدي، وسياراتنا. وقد بلغت الخسّة بالعقيد إلى حدّ أنّه استولى على كلاب الصيد المغربية خاصّتي من فصيلة السلوقي، وهو جنسٌ موشكٌ على الانقراض

(1) تلنيش: معاقبة بلا قانون، نسبة إلى القاضي الأمريكي لنش. المترجم

مثلما سيكون حالنا عمّا قريب... لم يفلت شيءٌ من تلك الغزوة التي أرادها القصر.

لقد تجاوزت خسّة وشراهة ووصولية أولئك الأشرار، الذين مزّقوا بقايا المهزوم، وفق ما أمله القصر الملكي منهم. لقد ذهبوا إلى حدّ التنافس على موظّفينا.

أُطلِقَ رهط كلاب الصيد وانغلق الفخّ على الطريدة. كان إدريس حصار، القصير القامّة، الضعيف البنية، المصفرّ البشرة، الجاف بقدر ما هو شرس، في عداد أولئك الموظّفين الكبار المذعورين، الذين لا هيبة لهم. سألته والدتي:

- ماذا يعني كلّ هذا... يا سيّد حصار؟ ماذا سيحلُّ بنا؟

همس مدير الأمن:

- لو كنتُ مكانكِ، يا حاجّة، لانتحرتُ مع أولادي بدلاً من معاناة ما ينتظركم...

وخرج مسرعاً، وكأنّه خشي أن تحرقه نار رؤياه في مكانه. كان أمامنا ساعتان لكي نجمع حوائجنا، تحت فوهات الرشاشات وأنظار رجال الشرطة الذين كانوا يفتّشون الغرف ويتفحّصون بدقّة كلّ ما ننقله. تطوّعت ابنة عمّ أمّي، ومربية أخي الصغير لمرافقتنا. وأدركت صديقتنا الانكليزية آن براون أنّها لا تستطيع الانضمام إلى «الرحلة»!... وذلك لكونها أجنبية. أرادت حورية أوبيجا أن تُعرَفَ كفردٍ من طاقم الموظفين لتلحق بنا، ولكنّها مُنِعَت بقسوة. تلك الصديقة المثالية التي ندين لها بالفضل طوال حياتنا أجهشت بالبكاء والنحيب وهي ترانا نُختَطَف وسط لامبالاة الجميع وعدم اكتراثهم. لقد كان التواطؤ الضمني لكلِّ العصبة المتورطة في أحداث 16 آب (أغسطس) ضدّنا قاتلاً. حينما يُقدَمُ على عملٍ دنيءٍ، يخفض الجبناء أبصارهم ويزيغون بها. لم يحرّك أحدٌ ساكناً من أجلنا: لا في المغرب ولا في الخارج!

في ليلة 24 كانون الأوّل (ديسمبر) 1972، غادر موكبٌ مؤثّر العاصمة

باتّجاه الجنوب. وقد رافق موكبنا سبعة وعشرون شرطياً بالزيّ المدني، جميعهم من رجال أجهزة الأمن الخاصّة التي يديرها العقيد الدليمي، والمرتبطة بالقصر مباشرةً، وثلاثون عنصراً من جهاز CMI، بأسلحتهم، موزّعين على عربتين، من بينهم ثلاثة عملاء لجهاز شرطة القصر SSS. وُضِعت أمّي مع أخي الصغير وأخواتي في عربة زجاجها أسود كتيم. ووجدت عاشورا ابنة عمّ أمي، وحليمة المربية نفسيهما في سيارة أخرى. بينما كنتُ في سيارة مسؤول الموكب، جالساً في المقعد الخلفي محاطاً بشرطيين.

أتاح لي ذلك أن أسمع التعليمات التي يرسلها ويتلقّاها جهاز الراديو. وتماهت الرباط بالعبارات التالية:

- من كُندور[1] إلى قبّرة... حدّد الوضع.

كنّا إذاً القبّرات المهاجرات نحو صقعٍ مظلمٍ، صقع الصمت والنسيان. كنّا في طريقنا إلى القبر حيث سيحتضر ربيع أعمارنا. حينما جاء رجال الغستابو لاعتقاله، قال ماكس جاكوب لزوجته: «حتى الآن، كنّا نعيش حالة خوف، ومن الآن فصاعداً، سنعيش حالة أمل.» لن تكون هناك أبداً جملةٌ أصحُّ من هذه لوصف مشاعري لحظة أسرنا.

---

(1) نسر أمريكي كبير الحجم. المترجم

الفصل الثاني

أسا، صحراء النسيان

حُدِّد خط سيرنا. على بعد كلّ ثلاثين أو أربعين كيلومتراً، تقف سيارة جيب للدرك الملكي وإلى جانبها درّاجان ينتظران على قارعة طريق الموكب. وكلّما مررنا بهم، تردّدت الرسالة ذاتها:

- RAS، الضيوف بخير.

طوال مدة أسرنا، لن تُطلق علينا سوى تلك التسمية: الضيوف. ولن تشير إلينا الاتصالات اللاسلكية أو التقارير المكتوبة إلاّ بهذه الصفة اللطيفة المثيرة للضحك.

مضت ساعات ونحن نسير. لم تكن تزنيت سوى محطّة خاطفة، قُدِّمت لنا فيها وجبة فطورٍ فاخرة من قبل الزعيم القبلي للمدينة.

ثمّ تعرّج موكبنا في أقاصي الصحراء، وغادرنا كلّ معالم المدنية. تراقصت السيارات على الطرقات الترابية وهي تكاد تغوص في الرمال. فجأةً، توقف الموكب، وأُنزلنا من السيارات. قفز عناصر CMI من عرباتهم وانتشروا يستطلعون المكان. تقدّم المسؤول وأربعة مسلحين بانتظام نحونا. وقفنا متراصّين بعضنا إلى بعض، يتلاعب الهواء بذيول ملابسنا. ضمّت أمّي عبد اللطيف إلى صدرها، ولحسن الحظ، نعس الصغير ووضع رأسه على صدر أمّي ونام ببراءة الطفولة. قرقعت مغاليق البنادق الرشاشة، فوضعت فاطمة يدها على رأس الصغير في حركة عفوية لحمايته. همست لنا بصوتٍ رقيق ولكن ثابت:

- إنّها النهاية... يا أولادي، كونوا أباة، حبّاً بالله وبوالدكم، كونوا شجعاناً.

في تلك اللحظة العصيبة، المرعبة، الحصرية في حياة إنسان، بحث كلٌّ عن الشجاعة في قناعاته أو تعاليمه. راودتني حينها ذكرى المرارة التي كان يبديها والدي وهو يعلّق على تصرّف أحد الضباط المشاركين في انقلاب الصخيرات، والذي كان قد صرخ، أمام عدسات التلفزيون، تماماً قبل صلية الطلقات التي كانت ستعدمه: «عاش الملك!»

كان والدي يبدي تأسّفه وهو يقول: كنتُ لأتفهّم الموقف لو صرخ: «عاشت الملكية!» ولكنّه بصراخه «عاش الملك» أمام مَنْ كان قد وقف في وجهه، تسربل بعار الميتة الأكثر دناءةً، ميتة الجبناء!

كنت في الخامسة عشرة، ولست شخصاً مهمّاً ولن أترك ورائي شيئاً، وبالتالي أن لا أموت جباناً سيكون على الأقلّ العلامة الفارقة، والمجد المجهول لحياةٍ قصيرة للغاية. كانت أمّي في السادسة والثلاثين، وأختاي مليكة ومريم في التاسعة عشرة والسابعة عشرة، وماريا وسُكَيْنة في العاشرة والثامنة، وأصغرنا، عبد اللطيف يبلغ ثلاثة أعوام ونصف. ماذا جرى في ذهن الكبار؟ يمكنني أن أشهد بدقّة على تصرّفهم الشجاع وإبائهم، وأن أقول كم كنتُ فخوراً بعائلتي. نثرت تلك اللحظة القاسية، الغريبة، ثوانيها الثقيلة والكثيفة معلّقة فوق رؤوسنا وكأنّها الأبدية.

صرخ رئيس القافلة:

- انتهى فحص الحمولة، اصعدوا إلى السيارات!

انتهى مشهد التظاهر بتنفيذ إعدامنا. كانت غايته إشعار الضيوف بالقطيعة بين وضعهم السابق كأصدقاء حميمين للحسن الثاني، وكأفرادٍ من عائلته، وصفتهم الجديدة كمنفيين، وكأحياء أموات في المستقبل. وإذا كانوا لم يعدمونا في تلك الليلة، فذلك لكي يخنقوا حياتنا بطريقةٍ أفضل، لكي يحافظوا على لذّة إهلاكنا بموتٍ بطيءٍ لا نهاية له، ليكون درساً للآخرين وليشبع رغبة الانتقام الملكية.

تجاوزنا منتصف الليل، وزحف موكبنا، متموّجاً كثعبانٍ جريح.

رجّني تموّج السيارة بين زوج المناكب العريضة لرجلي الشرطة المحيطين بي. لم تشح عيناي للحظة عن المركبة التي تقلّ أهلي نحو الأيام القادمة الغامضة. فجأةً صرّ جهاز الراديو:

- من كُندور إلى قبّرة... حدّد الوضع...

- الضيوف بخير... بلغنا مقصدنا... RAS ... انتهى!

في الواقع، انقضت عشرون دقيقة، حينما تبيّنت، من خلال واقية الريح المتّسخة، الحُزَم الداكنة لأربعة سكاليب[1] وهي تنصب أشباحها المبهمة والبعيدة. إنّها الأبراج الضخمة لثُكنة عسكرية.

كانت سيارتا جيب تنتظراننا. فتحتا ما تبقّى من الطريق الذي يفصلنا عن مقصدنا، عن محننا وآلامنا.

قاربت الساعة الواحدة فجراً. وصلنا إلى أسّا، وهي ثكنة قديمة للجيش الفرنسي تعود إلى عهد ليوتي. توقّفت السيارات المغبرّة على شكل نصف دائرة في باحة واسعة سيئة الإنارة. ركض أشباحٌ، وغطّى الهدير الرنّان لمجموعة للمولّدات الكهربائية على صفق البوابات والأصوات الآمرة وصرير الجِزَم المتسارعة على الحصى. نزلنا من المركبات لنرى لجنة استقبالٍ صلبة. همستُ ممازحاً أمّي:

- تفضّلي، ها هي جماعة GO...

اختير المقدّم بوعزّة، مدير السجن العسكري في القنيطرة، لتُعهَد إليه المهمّة غير المشرِّفة التي تنتظره. وهو رجلٌ مسنّ، مغضّن الوجه، تعود أصوله إلى منطقة الشاوية في السهول المحيطة بالدار البيضاء، ويتّسم بخشونة فلاّحيها. وقد بقي في الخدمة مع أنّ سنّه الظاهريّة تؤهّله لأن يحظى بسكينة التقاعد. وكان مكلّفاً، حديثاً، في القنيطرة بملفّ انقلابيي عام 1971، و16 آب (أغسطس) 1972.

---

(1) سيكلوب: عملاق أسطوري بعين واحدة. المترجم

كان في انتظارنا، إلى جانب المقدّم بوعزّة، أربعة ضبّاط من القوى المساعدة، إلى جانب رتباء جهاز CMI وخمسة من رجال الشرطة بالزي المدني. وسيؤمّن هؤلاء الأخيرون سريّة الاتصالات الثلاثة الدورية مع الرباط، حيث كانت رموز الإشارة تتغيّر أسبوعياً.

اكتشفنا، مع مضيفينا، مقرّات «الضيوف». وضعنا أمتعتنا وسط أنقاض مبنى قديم مهجور، من آثار العهد الاستعماري، والذي، بحجرتيه ذاتَي الأرضية الترابية المحفّرة، وبلاطاته المكسّرة، وجدرانه السميكة المتصدّعه، لم يُثِر سوى دهشة أصغرنا. تمرّد أخي الصغير عبد اللطيف على سنوات عمره الثلاث:

- ولكن لا يوجد موكيت هنا...؟

وانهمكنا طويلاً في ترتيب المسكن. استخدمتُ سكيناً صغيراً لفتح علب السردين، التي شكّلت، مع بعض الخبز، «وجبتنا الترحيبية»، وأقمنا كيفما كان في وضعنا الجديد كمفقودين.

في النهار، لا يصادف النظر، ما وراء الجدران، على بعد ما يبلغه، أيّ حاجز. وما عدا الجروف الجوفاء التي يتعرّج منها بستان كثيف لأشجار النخيل، لا يوجد سوى الأفق الوضّاء حيث تمتزج السماء بالأرض.

سهر ثلاثمئة رجل على حبسنا. وجلب البدلاء، الذين يؤمّنون المناوبة، معهم الكتب والألبسة التي أرسلها جدّي لنا مع موظّفي وزارة الداخلية. ولكن مُنِع أيُّ اتصالٍ بينه وبيننا بصرامة. بحثنا عبثاً عن البرودة ونحن ننام على الأرضية الجرداء وسط مستنقع أُجاج. لم يكن هناك ماءٌ جارٍ بل جرارٌ آجرّية فقط. كما كافحنا ضدّ القُبَل الماكرة للعقارب.

لجأتُ إلى المطالعة التي غدت اهتمامنا الرئيسي. وقد ظلّ الأمير مولاي عبد الله، الشقيق الأصغر للحسن الثاني، والذي كان بمثابة أبٍ حقيقيٍّ بالنسبة لي، يظهر مودّته لنا من خلال إيصاله الكتب بوفرة إلينا،

وتقديمه اللُّعَب للصغير. وعلى غرار والدته للاّ عبلة، وشقيقته للاّ أمينة، لم يكفّ الأمير عن الدفاع عن قضيتنا لدى الملك:

- حباً بالله، هؤلاء ليسوا إلاّ أطفالاً!

كما توسّطت زوجة الحسن الثاني، للاّ لطيفة، لصالحنا. فقد سألها الحسن الثاني ذات يوم، في لحظة حبورٍ بمناسبة هامّة، عمّا يُسعدها.

- سيدي[1]. أتوسّل إليك أن تُفرِجَ عن فاطمة وأولادها!

ووعدها الملك بأن يفكّر في الأمر...

كانت النهارات قائظة، كلُّ ساعةٍ من ساعاتها عقوبة، والليالي خانقة، وتخرج العقارب والزواحف غازية.

لا يمرُّ يومٌ وإلاّ ونفحص بدقّة كلّ ما رأينا وسمعنا من هذه السلطة التي انغمرتُ وترعرعتُ في كنفها، والتي تعذّبنا اليوم وسط لامبالاةٍ من الجميع. وقد أدلى كلٌّ بدلوه في ذلك من خلال اللجوء إلى الذاكرة. أوّلاً، ذاكرةُ أمّي، العاطفية والغابرة المليئة بحكاياتٍ عاشتها وسط المجتمع، وبخبرتها منذ أيام المغرب في عهد الحماية وحتى عهد الحسن الثاني. ثمّ ذاكرة مليكة، ومُراهَقةٌ سريّة بقرب للاّ مينا، الشقيقة الصغرى للملك، الموسومة بالعشرة الدورية لنساء القصر لكونها عادت إلى العائلة قبل انقلاب 16 آب (أغسطس) بعامين فقط. وأخيراً، ذاكرتي، المتآلفة مع ذكريات القصر من خلال مخالطتي للعائلة المالكة، وذكريات المَخْزَن التي توحي بها علاقتي الحميمة بوالدي ورجاله. أمّا الأصغر منّا، ماريا وسُكَيْنة وعبد اللطيف، فلم يبلغوا السنّ التي تُعينهم على التساؤل، وليس لهم سوى اليقين الذي أُسيء التعبير عنه لطفولتهم المسروقة، البادية على سيماهم الحزينة والمتعَبة.

---

(1) يُخاطَب الملك بهذه العبارة: سيدي.

البحث عن تفسيرٍ منطقيٍّ للعذاب الذي ينهكنا، هو الذهاب في البحث عن الغرال[1]! واستعدنا بلا كللٍ السؤال ذاته:

- ماما. . . هل كنتِ على علمٍ ؟ هل أخبركِ بابا بما كان سيحدث؟ هل أُطلِعْتِ على سرّ الانقلاب؟

تأسّفت أمّي، المنزعجة أساساً من شدّة الحزن ومن المصيبة المحيقة بأولادها، لتشكيكنا فيها:

- هل تصدّقون بأنني لو كنتُ أعلم بأيّ شيءٍ كان، كنتُ سأرمي بنفسي في شدق الذئب؟ كنّا، والدكم وأنا، لنموت ألف مرّة على أن تُمَسّ شعرةٌ منكم.

تألّمت أمّي لكونها أُخِذَت على حين غرّة لجهلها بما كان يُعدُّ له. شعرت بأنّها قد خُدِعَت. ففي آخر مرّة التقت فيها زوجها، قبل 16 آب (أغسطس) بثلاثة أيام، لم يخبرها أبي بأيِّ شيء. ولم تتغلّب أعذاري وقدرتي على الإقناع على شعورها بالذنب طوال السنوات التسع عشرة من اعتقالنا. وأثقل كاهلها رؤيتها للعذاب الفظيع الذي يتعرّض له أولادها وشعورها بأنّها لم تعرف أو لم تستطع حماية فلذات كبدها. لطالما أهملت والدتي السياسة وأدوات سلطتها، ولطالما نأت بنفسها عن شبهاتها وقذاراتها ودسائسها. لم تستطع استقامتها وعفويتها أن تتلاءما أبداً مع الرياء والصلافة اللذين يتطلّبهما غالباً الشأن العام، وفن الحكم. وقد حافظت على نفسها بتجاهلها للعالم الذي أرغمتها الحياة على العيش فيه. كما أنّها لم تكن راضية تماماً أن يخرج أوفقير من وسطه الطبيعي، الجيش، لكي يتقلّد منصباً سياسياً. وقد ظلّت أمّي دائماً تتوق إلى الحياة الآمنة والبسيطة للعسكر. وبفضل ذلك التحوّل في مجرى حياتنا، تيقّنتُ

---

(1) غرال: الكأس المقدّسة، الكأس التي شرب بها يسوع المسيح خلال العشاء السرّي، العشاء الأخير الذي تناوله مع حوارييه قبل صلبه، وفي القرنين الثاني عشر والثالث عشر، روت العديد من روايات الفروسية قصة بحث فرسان الملك آرثور عن الغرال. المترجم.

من مدى حرصها على النأي بنفسها عن كلِّ فضولٍ يتعلّق بجهاز الدولة أو عملها الأكثر سريّةً.

في أسّا، مضت الشهور مضجرة، قائظة، حارقة! تُشرف الثُكنة بأبراجها وأسوارها على المرتفعات التي تتسلّل الواحة بينها. أسّا طيف مركبٍ تائهٍ في أوقيانوسٍ من الرمال والحصى.

على مرِّ الأيام، اشمأزّ المقدّم العجوز بوعزّة من إكمال مهمته. فقد وهنت قسوته العسكرية وسط عدم اقتناعه بها والعار الذي يلحق به من جراء قذارتها. وكشف لنا عن بعض الأسرار التي لم يكن بعضها خافياً عليّ.

ذات يوم، أخبر والدتي:

- سيّدتي، كنتُ في سجن القنيطرة مكلّفاً بملفّ متمرّدي الصخيرات. وقد أخرجتهم من القلعة لمرّاتٍ عديدة لأصطحبهم لمقابلة الجنرال في بيته! نعم! في بيتٍ صغيرٍ مقابل منزلكم في الرباط. وقد أمضوا مع الجنرال ليالي كاملة. لا أعرف ما كان يجري بينهم من أحاديث، ولكن كلّما كانوا يلتقون الجنرال، كان سجنائي يزدادون سعادة وتفاؤلاً. إلى حين موت زوجكِ، كانوا يُعامَلون معاملةً حسنة تماماً. وأنا ذاهلٌ من أنكم لا تلقون المعاملة الحسنة نفسها!

وكشف لنا بوعزّة فيما بعد كيف أنّ الملك استدعاه ليلاً إلى قصر الصخيرات الملكي ليجتمع به شخصياً:

- ستتكفّل بفاطمة أوفقير وأولادها... وتتعهّد بهذه المهمّة شخصياً. ولا تنسَ الخطر الذي يشكّلونه!

أيُّ تهديدٍ يمكن لأرملةٍ وستّة يتامى أن يشكّلوه، سوى خطر الفضيحة والعار الذي قد يجلبه عملٌ مشينٌ كهذا على مرتكبيه إذا ما انكشف؟ إنّ الإجراءات الأمنية البليغة التي أحاطت بنا هي على قدر القلق الملكي. لقد سحقنا العذاب والعزلة، ولكنّ همّتنا لم تفتر أبداً. ساند

الكبارُ الصغارَ ومنح الصغارُ الكبارَ دافعاً للحياة، والقوّة من أجل المقاومة. لم تكفّ والدتي عن تحفيزنا: «مهما حصل لنا، فلنسعَ لمواجهته مرفوعي الرأس!» «لا شيء يدوم، لكلّ شيءٍ نهاية، وحدهما الخزي أو الموت لا جدوى منهما».

مع ذلك، أملنا ألاّ يكون سجْننا، الذي لم يعد «مؤقّتاً»، مؤبداً. خلقت محن المصيبة وعذاباتها بيننا تضامناً ربّما لم يكن بهذه الصرامة في حياتنا قبل السجن. قرأنا بجنون، ودرسنا. واكتشفت أنّه «يتم حبس الجسد ولكن الروح هيهات». فيما بعد، في العزلة التامّة لزنزانة، تحقّقت من ذلك على مهلٍ.

كنتُ تابعاً للّعب. احتفلتُ بذلك الطقس الدائم لـ«الصغار الرجال»، بتلك الحاجة الحيوية لكي أحافظ على معنويات الأطفال. جذبتُ ماريا وسُكَيْنة وعبد اللطيف إلى تسلياتٍ لامتناهية، الأمر الذي لم ينقذني مع ذلك من عذابي: عذاب فقدان أبي. عذاب رؤيتي لأهلي وهم يتألّمون دون أن أتمكّن من فعل أيّ شيءٍ لهم. بإسعادي للآخرين، فرّجتُ عنّي ألمي بعض الشيء.

قلّما استطعتُ النوم قبل الفجر. كم من ليالٍ أمضيتها، محمرَّ العينين، مستجمعاً قواي، وأنا أتأمّل أسرتي النائمة. كم فجراً شاهدته يطلع على الصحراء، والروح مرهقة من الأسئلة. وكم من مرّة لعنتُ عجزي!

ذات ليلة، مزّق دويٌّ مجلجل الصمت الصحراوي، وسمعنا من وراء جدران مخيّمات الجنود صرخات وحركة جنونية، غير عادية. لقد انهار سقفٌ وقتل خمسة رجال وهم نائمون. كان سيئو الطالع، بشكلٍ ما، آخر ضحايا الاستعمار... فقد بدأت الأبنية المستخدمة، المعاصرة لعهد ليوتي، تمضي راحلةً. عجّل ذلك الحادث المأساوي من نقلنا من ذلك البناء القديم الذي شغلناه. في الواقع، من المربك رؤية «ضيوف» المغرب

الأفضل حراسة ينتهون قطعَ عجينٍ تحت أنقاض جدارٍ منهار. خصّص لنا مسكنٌ مستطيل الشكل، مسبق الصنع، مشيّدٌ في أرضٍ جرداء، يحيط به جدارٌ طينيٌّ عريض، في كلّ زاويةٍ منه مرقبٌ بأربعة حرّاس. كان السقف الصفيحي لذلك المخيّم يئنّ تحت وطأة نار القيظ الشديد. وكانت الألواح الإسمنتية الرقيقة، سيّئة العزل، التي تكسوه، تسرّب الرمال والرياح. وتسلّلت إليه العقارب والزواحف بحثاً عن الظلّ والرطوبة. عند حلول المساء، كانت الحراسة تنتقل إلى داخل جدار السور.

في 28 نيسان (أبريل) 1973، نُقلنا تحت الحراسة المشدّدة إلى أگدز، وهي قرية في جنوب شرق البلاد، على بعد سبعين كيلومتراً من ورزازات. مكثنا فيها شهراً، في مخيّم محاطٍ بسورٍ يرتفع خمسة أمتار. غلّفت تلك الحصون الفولاذية بصرامة شديدة المبنى الذي أُدخلنا فيه حتى ظننا أننا في زريبة لحديقة فانسين للحيوانات. أُعِدنا إلى أسّا في نهاية شهر أيار (مايو) 1973.

لم يُحسن المقدّم بوعزّة إدارة هذه المهمّة التي تنافت مع مبادئه أكثر فأكثر. وربّما لم يكن ذلك خافياً على ابنه الذي كان يزوره مرّة كلّ فصل. إذ كان يجلب لنا، سرّاً، كلّما أُتيح له ذلك، بعض الحلوى، وكان يرفع من معنوياتنا. يوم عيد ميلاد عبد اللطيف، صرخ بوعزّة وسط الضباط:

- أربعون عاماً في الخدمة... لم أرَ قط أطفالاً في السجن! ليسامحنا الله!

وقد عُزِل من منصبه بسبب ذلك الكلام، عشية مغادرتنا أسا. ودّعنا المقدّم العجوز، وهمس لي:

- لو كنتُ أعرف... لقلتُ هذا الكلام قبل الآن بكثير!

عشيّة رحيله، استدعى بوعزّة عرافاً. وقد احتاج في ذلك إلى إقناع المسؤولين الآخرين عن أمننا. قال لهم:

- أنا ذاهب، وما يحصل هنا لم يعد مشكلتي! ولكنني، عوضاً عنكم، سأكون فضولياً لمعرفة الوقت اللازم لبقائكم هنا؟ هذا الوسيط هو

ابن البلد، ولم يغادر قط هذه الواحة. إنّه رجلٌ ساذجٌ لا يمثّل أيَّ تهديدٍ لإفشاء السرّ. علاوة على ذلك، إنه ضرير... وإذا قبلتم بالإجماع، ضبّاطاً ورجال شرطة ملنيين، استدعوه... ودعوه يقرأ مصير «الضيوف» الذي يرتبط به مصيركم على نحوٍ وثيق.

وقد تكهّن لنا العرّاف، المقعَد، الضرير، بمحنة شديدة طويلة ومرعبة. قال لنا:

- سيكون درب آلامكم طويلاً، طويلاً جدّاً، وقاسياً جدّاً! وسيبدو لكم لا نهاية له مثل كابوسٍ لا ينتهي. ولكنّكم ستنجون منه. بعد زمنٍ طويلٍ، طويلٍ للغاية، ستولدون من جديد من رحم الأرض! ستظهرون من جديد على السطح... وسيتكلّم العالم أجمع عن حكايتكم!

جمّدنا هذا الحكم تماماً مثلما جمّد الرتباء الذين كانوا يعلمون أنّ مصيرهم مرتبط بمصيرنا. حاولنا أن ندفن تلك النبوءة في أعماقنا. وكلّما مرّت السنوات، غدت ظروف اعتقالنا لاإنسانية أكثر وازداد تعلّقنا بتلك الكلمات المبشّرة الوحيدة:

- ستنجون من محنتكم! وسيتكلّم العالم عن ذلك...

غدت أسّا، الواقعة على مبعدة حوالي مئة كيلومتر من الحدود الجزائرية، منطقة خطرة عندما بدأت قضيّة الصحراء الغربية[1]. ازداد تأثّر سكان الواحة بمصيرنا يوماً بعد آخر. وكان مرور الرحّل الذاهبين إلى موسم تندوف[2]، قد أحدث خوفاً في الرباط من مخاطر «إفشاء الأسرار.

---

(1) الصحراء الاسبانية السابقة، التي عادت مغربية، والتي طمعت بها الجزائر بواسطة استقلاليي جبهة البوليساريو.

(2) قرية في جنوب الجزائر، أصولها مغربية، ضمّتها فرنسا قسراً إلى الأراضي الجزائرية. وبما أنّ المغرب لم يكن سوى محمية ستنال ذات يومٍ استقلالها، فضّلت فرنسا أن ترى مناجم الحديد في تندوف تقع في الأراضي الفرنسية الجزائرية. اشتُهرت تندوف بموسمها الذي يجمع العديد من القبائل المتنقّلة في

طوال فترة اعتقالنا، خشيت السلطة من تدخلٍ عسكريٍّ قد ينتزعنا من بين براثنها أو انكشاف وضعنا للعالم الخارجي. ولتفادي أيّ احتمالٍ، لن تُهمَل أيّة وسيلة أمنية. وحين بدأ نزاع الصحراء الغربية، نُقلنا من مكاننا، وكانت التدابير الأمنية التي أحاطت بعملية نقلنا تعسفية وظالمة.

في 8 تشرين الثاني (نوفمبر) 1973، غادرنا أسّا في موكبٍ مؤثّرٍ أكثر حتّى من الموكب الذي قادنا إليها في السنة الماضية. هذه المرّة، كُدِّسنا جميعاً في عربة لا زجاج لها ولا مقاعد فيها. كانت الحراسة مشدّدة وعدد الحراس وفيراً. طرحنا في عُجالةٍ حشيّة مبقورة على أرضية العربة، وأخذنا آخر جرعة ضوءٍ قبل أن ينغلق علينا الباب. سعى كلٌّ منّا إلى تثبيت جسمه بطريقة تخفّف من وطأة فوضى الطريق. حرصنا بشدّة على جرّتين فخاريتين، مغطّاتين بنسيجٍ من الخيش الذي بلّلناه للحفاظ على برودة الماء بعض الشيء.

غزا الغبار، الغادر، حجرتنا ورشح من خلال فتحات التهوية والثقوب المنخورة في صفيح العربة المتهالك. سخرنا من ظلالنا المغطاة بغبارٍ أشبه بالثلج، ومن رؤوسنا الشعثاء، ومن وجوهنا المغبرّة حتى العينين، ومن قفزاتنا المتنافرة تحت رحمة «عيوب الطريق»... وجعلت أهدابنا، المثقلة بالغبار الأبيض، حركات أجفاننا مضحكة. وبسبب هدير محرك الديزل، كنّا نرفع صوتنا إلى درجة الصراخ كي نسمع بعضنا بعضاً. كان صوتنا يتقطّع ويتحوّل إلى شهقاتٍ عند كلّ حفرةٍ أو حدبٍ تجتازها السيارة بسرعتها الفائقة. أزعجت ابنة عمّ والدتي، عاشورا، التي كانت تنعس وهي تحتضن بحرص إحدى الجرّتين التي تكفّلت بها، حتى لا تنام.

= الصحراء الغربية. وأسّا هي نقطة عبور القوافل التي تذهب سنوياً إلى ذلك الاحتفال الموسمي.

غنّينا بأعلى صوتنا أغاني فرقتي ناس الغيوان وجيل جيلالة التي ستصبحان أسطوريتين. فقد ظهرتا بقوّة في أوائل السبعينات، وتركتا تأثيرهما طويلاً على جيلٍ كاملٍ من المغربيات والمغاربة. واستمدتا إلهامهما من التقليد القديم وأحيتا تراثاً منسيّاً. وقد أقلقتا، وهما من الوسط الطلابي، السلطة برسائلهما الملتزمة ومواقفهما الجريئة.

غنّينا أغنية a cappella وضبطنا إيقاع تصفيقنا تماماً مثلما يتزامن هدير المجاذيف مع أصوات المجذّفين بمشقّة وعناء. اندهشت والدتي، الخبيرة بالشعر والأقوال المأثورة، وهي تجعلنا نكتشف أغانيهما:

- وكأنّها كُتِبَتْ من قِبلنا، وكأنّها تروي حكايتنا... «قولوا لحبيبي إن رحلتُ ليلاً، فلن أستطيع أبداً أن أفكّر فيه مرّة أخرى. لماذا إخوتنا في هذا المركب يصبحون فجأةً أعداء لنا؟ لماذا في هذه اللحظة، يتبرأون منّا في مهبّ النسيان؟» واصلنا، نزقين، الغناء متناسين ارتجاجات العربة، والتعب الذي يسحقنا، والعطش المرتقَب: «لِمَن شطره سيفٌ بتّار، ما جدوى البكاء والدموع إن مات ودُفِن؟ كم ذرفنا من الدموع على أجدادنا حتى ابيضّت العين ثمّ انطفأت!» «كم من رجالٍ اقتدروا بالطغيان، رأوا عظامهم تتفتّت لتتلاشى هباءً منثوراً...»

بعد ذلك بسنواتٍ طويلة، سنعلم أنّ قائد فرقة جيل جيلالة، محمد درهام، قد تزوّج من ابنة عمّنا بشرى (ابنة أخ أوفقير) وأهدانا بعض نصوصه.

توقّف الموكب الثقيل عند الغسق. وفي زمجرةٍ مصحوبةٍ بصدمة خفيفة، انحرف باب عربة الإرسالية. دلفت نسمة شافية خفّفت من وطأة ذلك الجوّ الخانق. نزلنا من المركبة رتلاً، وقفز حوالي ثلاثين عنصراً على الأرض وسلاحهم في حمّالاتها، وانتشروا على شكل نصف دائرة على مبعدة مئة متر من الشاحنات.

وجدنا صخرةً للتبوّل خلفها. أُخِذتُ إلى قضاء حاجتي مع حارسٍ

يمسك بشدّة حزامي، وعلى مقربة وقف جنديان يصوّبان بندقيتيهما الرشاشتين على وركي. شعرتُ وكأنني كلبٌ فرض صاحبه عليه الخروج ليشبع حاجاته الطبيعية. وكان على أمّي وشقيقاتي والتعيسات اللواتي رافقننا أن يقضين حاجتهنّ خلف غطاءٍ عسكريٍّ أمسك حارسان بطرفيه وأدارا ظهريهما لهنّ. إذا كانت هذه الدواعي الأمنية الهذيانية مهينة، فإنّه لا يمكن للمقرّبين السابقين للملك، حتى في محنتهم، أن يقدموا على أدنى مخالفةٍ للحشمة قد تخدش الاحترام الذي يُكنُّ للملك. أثار ذلك في داخلي التمرّد المكتوم والفائر لحيوانٍ عاجزٍ يشدّ عليه طوقٌ خانق؟ سعيتُ إلى التركيز الذي قد يريح مثانتي المحصورة. حدّقتُ في الأفق الملتهب، والكرة الدامية للشمس الغاربة. عدتُ بلا تحذير، فاستدار حارسي الملاك فطرياً معي. أصبحتُ في مواجهة الجلاوزة الذي أبرزوا مدافعهم، فاستعنتُ بالقوى الخفية التي قد تلهمها رغبة ملحّة ومحتدّة، ويدعها انبجاس البول أن تتفجّر. ولأنّ البول كان قد انحبس طويلاً في مثانتي، حينما انبجس توّج ارتطامه المندفع الرملَ الشره بالزبد، وطفح على الحصى، وتناثر رذاذه على لفافات سيقان حرّاسي. استولت صورة على مخيّلتي. رغبتُ لو أنني أمتطي حصاناً، يجري فوق صفحة الماء على ضفّة شاطئٍ غريب جدّاً.

ها نحن من جديد، نرتجُّ على الطريق اللانهائي.

بعد أربع عشرة ساعة من المسير، اكتشفنا، منهوكين، مكان اعتقالنا الجديد.

الفصل الثالث

تاماتاغت، جبل الأرواح التائهة

على تخوم الصحراء، تقع تاماتاغت على بعد خمسة وثلاثين كيلومتراً من ورزازات. في تلك الجبال، على ارتفاع ألف وسبعمئة متر، تنتصب خرائب قصر أحد أتباع الباشا الغلاوي السابقين. بين تلك الأسوار الآجرية، يستند مبنى إلى بقايا القصر. وقد أوت إليه مجموعة من الحمام، متعايشة في ذلك المكان مع الخفافيش. كانت تاماتاغت، في مطلع القرن العشرين، مسرحاً لمأساةٍ دامية. فقد رأى تابع الباشا، المتمرّد على سيّده، حصنه يسقط بعد حصاره لفترة قصيرة. وقتلت قوات الباشا بالسيوف النساء والأطفال والخدم والغلمان، ودفنتهم في أرضهم. وظلّت الذاكرة المثقلة لتلك الأماكن المهجورة تتحدّث عنهم برهبة مشوبة بالاحترام. وظلّ القرويون في المنطقة يبتعثون بخشية الأسطورة المفجعة لذلك المكان الملعون الذي يقولون إنّ أرواحاً متألّمة ومعذّبة تخفق فوقه عند هبوط الليل.

«أُسكنّا» في قلب هيكل القلعة. في أعماق تلك الأنقاض الشبيهة ببرجٍ، حجبنا عن العيون المتطفّلة: مسكنٌ مؤلّفٌ من غرفتين مستطيلتين يفصلهما صحنُ الدار الضيّق. لقد صمدت تانك الحجرتان بسقفيهما العاليين، وقناطرهما البالية، وهما جزءٌ من الأمكنة النادرة التي لا تزال

«صالحة للسكن». رمينا فيهما الأمتعة والحشيّة: الخلاصة، «أقمنا في منزلٍ جديد».

وفي زاوية صحن الدار، يوجد «الحمّام». كهفٌ رطبٌ متعفّن، متران بمترين. توجد على أحد جدرانه المتصدّعة، المتّسخة، بقايا مرآةٍ، متآكلة ومتّسخة ببقعٍ خضراء داكنة من نيم الذباب، معلّقة بمسمار. وفيها مغسلةٌ صغيرة متشقّقة باهتة اللون مغطّاة بالرغوة والفضلات الكريهة. ولأنّها غير موصولة بأيّة أنابيب، تسكب محتوياتها مباشرة وراء الجدار، في الهواء الطلق. وإلى يمين هذا الحوض، توجد على الأرضية حفرة دائرية قطرها عشرون سنتيمتراً تفضي بصمامها المعدني، المنخور بالصدأ، إلى الحجرة التي تقع تحتها. وسنستخدم كومة الحصى في ذلك المكان السفلي العاجّ بجرذان «الحفرة المتعفّنة» «مراحيض» لقضاء حاجاتنا. . .

تحت أقدامنا، ومن حولنا، أحاط بنا ركامٌ متعفّن من كلّ الجهات ورمقنا بعيونٍ فاحصة. لا يمكن لأحدٍ أن يشكّ في وجودِ بشرٍ تضمّهم هذه الأنقاض. ولأننا لم نُعامل ككائناتٍ حيّة، لم نعد إلاّ أشباحاً. كان الدرج اللولبي، الشديد الانحدار، الذي يفضي إلى مسكننا، يطلّ على ساحةٍ صغيرةٍ محصورةٍ بين واجهات عالية يظللها برجٌ في الزاوية. استخدمنا تلك الثغرة العميقة بين الأسوار للاستحمام والاصطياف الصيفي. أمضينا فصول الصيف الأشدّ حرارة بقراءة الكتب، ونحن نتمرّغ في تلك البُرَك. زادت الشتاءات القاسية من مهانة القلعة المتهالكة. هدّ الجنود الجدران لكي ينتشلوا من بين حطامها القصب ليتدفأوا بنيرانها في تلك الليالي الباردة. بالطبع لم تكن هناك طاقة كهربائية ولا مياه جارية، وكانت مجموعةٌ من أربعة رجال، يقودها بالتناوب ضبّاطٌ من جهاز CMI والقوى المساعدة، تقدّم لنا الماء بالدِلاء، وكنّا نخزّنه في جرارٍ وأحواض. وقد جرى الحفاظ باستمرار على التوازن المطلوب لتأمين أفضل مراقبة ووشاية ممكنة من خلال عددٍ متساوٍ من العناصر المتمية إلى جهازين مختلفين. وظلّ التنافس الطبيعي بين رجال الشرطة والمخزنيّين

مستمراً: فأمّن ذلك لمنظّمي اختطافنا أعلى درجات الأمن.

ولكن سرعان ما تجاوز انعدامُ المعنى والقسوةُ المفروضة على امرأةٍ وأولادها الرُعبَ الذي خلقه الشركاءُ في هذا الضلال عند حرّاسنا. وأتى أول ردّ فعلٍ إنساني من رجال CMI. فقد دأب هذا الجهاز البوليسي، الذي شكّله أوفقير، على حماية بيتنا والحرص عليه. وكان أفراده يشعرون بقربهم منّا أكثر من متطوّعي القوى المساعدة الأفظاظ، الأميين، من أبناء المناطق الأكثر تخلّفاً في المملكة. فقد عاشت هذه الميليشيا أو القوّة المساعدة لحفظ النظام، التي نشأت في عهد الحماية الفرنسية، في ثُكناتٍ مغلقة على أطراف المدن. ويُنظَر إلى رجالها بازدراء في المغرب، حيث يسمّيهم السكان «مرده»[1].

عشنا في تاماتاغت على ضوء الشموع، وسط خرير مصباح المخيّم، في حجرةٍ لا منفذ لها على الخارج سوى فتحة ضيّقة، طول أضلاعها ثلاثون سنتيمتراً، محميّة بصفّين من القضبان، ويسدّ لوحان من الخشب المصراعين المتعفّنين لتلك الفتحة الطارئة. لم نلق أيّة صعوبة في إغلاقها أو فتحها كلّما أراد أحدنا أن يتنشّق الهواء. . . وسرعان ما غدا ذلك المنفذ، بالنسبة لنا، حاجّة حيويّة، متنفّساً ضرورياً في تلك الحياة المنعزلة العمياء والصمّاء.

وتناوبنا على التنفّس منها بلا كللٍ طوال السنوات الأربع التي قضيناها تحت الركام الخفيّ لتلك الأنقاض المعزولة عن العالم. تعلو تلك العين الشافية، بارتفاع ثمانية أمتار، أحد المراقب العديدة الموزّعة على جنبات الأسوار وفي البستان الكثيف الذي يستند إليه شبح القلعة. وينساب جدول ماء من تحت النباتات، ويتموّج تحت أشجار التين. كنتُ أسمع خرير مياهه. وتأوي ستّة معاقل ، تحت أشجار اللوز، الحرّاس، ويقود ضابطُ صفٍّ كلّ مرصد من المراصد، ويؤمّن عنصران من CMI ومخزنيّان سير

---

(1) أي: merde وتعني: خسيس أو دنيء. المترجم

العمل فيها. أقامت بقية الجند، في البداية، في الخيم، ثمّ في حجرة مسبقة الصنع، منصوبة بمهارةٍ وسط المبنى، بحيث لا تُرى من الطريق الذي يشق المرتفعات البعيدة.

المسؤول الجديد عن «المهمّة» يُدعى أيضاً بوعزّة. كان هذا المقدّم، الذي تخرّج ضابطاً دون أن يلتحق بمدرسة عسكرية، ضابطَ صفٍّ سابق في الجيش الفرنسي. رجلٌ أشيب الشعر، طويل القامة، يرتدي معطفاً عسكرياً، يوحي وجهه المخدود بأنّه ذو خبرة طويلة. ويخفي خلف شاربه الكستنائي تكشيرة تعبٍ دائم. ورغم ساقيه العليلتين، واستناده في مشيته على عكازة، حافظ على وقاره وهيئته الصارمة. همستُ في أذن والدتي:

- ألم يعد يتوفر لديهم غير هذا؟ هذا يبشّر بـ. . . !

بالتأكيد، لم نكن ننتظر رجلاً مسنّاً لعملٍ من هذا النوع. . . وهو بدوره لم يبدُ سعيداً بهذه المأمورية المهينة. تقدّم، وصافحنا فرداً فرداً بنبرة صوته الأجشّ، بلغة فرنسية متقَنة:

- تحياتي، يا سيّدتي، أنا المقدّم بوعزّة. لقد كُلّفتُ بمسؤولية لم أكن أتمنّاها. أتمنى من كلّ قلبي أن تكون قصيرة جدّاً، وأن يغلب العقل عليها. وإلى ذلك الحين، أنا تحت تصرّفكِ يا سيّدتي!

ثمّ عاد إلى الخيمة المنصوبة التي كان يستخدمها مكتباً وغرفةً ومأوى له فيما بعد. وسرعان ما طلب من الرباط إعفاءه من منصبه. ولكنّ الجنرال مولاي حفيظ، وزير المراسم والديوان الملكي للحسن الثاني، سيّد المهمات القذرة، و«الشؤون الخاصّة» للعاهل، أمره بصلف:

- أنت في خدمة مليكك. مُتْ هناك إذا اقتضى الأمر، ولكن قم بواجبك!

ووجب على المقدّم المسكين أن يخضع للأمر. أرسلنا له حساءً ساخناً، بلا ملح، ونصحناه بشرب منقوع بعض الخلاصات. ولم يُظهر لنا ذلك السيّد المسنّ، المسمّر رغماً عنه على سريره العسكري، سوى الاحترام والتعاطف.

حينما علمنا بنقله إلى مامونيا، المستشفى العام في مرّاكش، والذي يحمل اسم فندقها الشهير نفسه، تأثّرنا وحزنّا بصدق ولكننا لم نستطع أن نمنع أنفسنا من ضحك متواصلٍ ساخرٍ عندما أخبرنا حارس:

- المقدّم بوعزّة ذهب إلى مامونيا. . .

ودون أن يدعنه ينهي كلامه، هتفت شقيقاتي ببراءة:

- آه! يا للمحظوظ، سيلتهم حلويات «ميل فوي» الشهيرة. . . !

لسوء الحظ، لن يلتهم صاحبنا بوعزّة الثاني الحلويات وإنّما سيُدفَن. كان بديله أيضاً يُدعى بوعزّة. وكسابقه تماماً، كان قد رُفِع بمشقّة من صفوف الجيش الفرنسي، وفي سن الخامسة والخمسين، وصل بالكاد إلى رتبة نقيب. اشتهر صاحبنا بوعزّة الثالث، القصير القامة، الأصلع، الخجول، ولكنّه المرح، باللقب الذي أطلقه الجميع عليه: «زمايم». لم يكن يستوعب الوضع تماماً، ولا يفهم الدقّة والصرامة المحيطتين بحبسنا ولا حتى الانتشار الكثيف للجنود بسبب ذلك. لم يكن، وهو النابض بالحياة، يفوّت فرصةً للقفز إلى سيارته الجيب ليذهب إلى ورزازات لشرب الجعّة هناك. حينما أشعره أحد مرؤوسيه بأنّ غياباته المتكررة قد تكلّفه غالياً، صرخ في وجهه:

- حسنٌ، في النهاية، يمكنني أن أنام دون أن يوقظني ضميري! ما زلتُ أفضّل المشرَب في حانةٍ على أن ألعب دور حارسٍ فظٍّ لأطفالٍ في حفاظات.

نظّمنا، ونحن نقيم في تلك الجبال المثلجة شتاءً والقائظة صيفاً، صفوفاً دراسية يومية. علّمت أمّي عبد اللطيف الذي أكمل أعوامه السبعة وأدهشنا جميعاً بتصرفاته. وأعطت مليكة دروس الفرنسية واللغات ومنحت الصغارَ أسساً متينة فيها. وأشرفت مريم على الكتابة والإنشاء وعروض القراءة وراقبت صحّة الأسئلة المكتوبة. علّمتُ ماريا وسُكَيْنة، اللتين غدتا صبيّتين في الخامسة عشرة والثالثة عشرة، الفيزياء

والرياضيات. وقد جعلتني ضرورة تعليم أخواتي الصغيرات أن أكتشف بشغف المواد التي لم يكن لدي أيُّ ميلٍ إليها. أثار إصرارنا ومثابرتنا غيظ أمّي، لأنّها ظلّت تتخيّل أنّ هذه الطاقة، هذه الرغبة، كانت ستحقّق هدفها لو أننا حظينا بفرصة تقديم الامتحانات مثلما يحظى بها أخطر سجناء الحقّ العام.

أكّدتُ لها:

- يا أمّاه، لو لم نكن هنا حيث نحن، لما كنّا فتحنا كتاباً إلاّ للتسلية.

وتفانت حليمة وعاشورا في بذل كل ما بوسعهما لإحاطة هذه الدراسة الحماسية بكل «راحة» و«هدوء»: بتقديم المشروبات الساخنة المعدّة في عُلَبٍ من الألمنيوم، ووجباتٍ خفيفة تنعش بعد طول تركيز... هما مَنْ علّمتانا السمو والجمال والنُبل بإخلاصهما المطلق في كلّ الظروف. لقد أعطتا درساً في الشرف والحماسة والاندفاع لكلٍّ أولئك ذوي المقامات الرفيعة، من مغاربة وأجانب، الذين كانوا فيما مضى يتدافعون إلى بيتنا، ولا يتجرأون اليوم حتى على الهمس باسمنا. ولم يكن ذلك سوى بداية التضحيات الجسيمة، والشواهد الرائعة التي ستقدّمها لنا هاتان الصديقتان الوفيّتان في حياة السجن الشاقّة.

إنّ المظاهر المباشرة لسردي قد تدع المرء يعتقد بأن لنا، نحن الكبار، فضلاً ما على الصغار. وأنّ ميزة السنّ، ووظيفة المربّي الارتجالية كانت تمنحنا قيمةً وفضائل ما كان للأصغر سنّاً أو الأقلّ تعليماً أن يتحلّى بها؟ أو أنّ ميزة الخبرة، أي التعليم الذي تلقيناه فيما مضى، كان يمنحنا تفوّقاً على الجهود والتضحيات المشتركة؟

ولكنّ الأكثر ضعفاً، بسنوات عمرهم القليلة، وطفولتهم الواهنة، وصحتهم العليلة كما بمقاومتهم، هم مَنْ أبلوا بلاءً أحسن ممّن ساندوهم. كانت مريم من بين هؤلاء. فمع أنها كانت معاقة من جراء داء الصرع الشديد، ومحرومة من المعالجة، وتعاني من آلامٍ كثيرة، وحالات

نزفٍ متكررة، سارت جنباً إلى جنب مع بقيّة المجموعة دون أن تبدي أيّ عجزٍ أو شكوى. إنّ التشارك في هذا القدر الكبير من العذابات حجّم العيوب وعظّم الخصال في سبيلِ مجدٍ مشتركٍ سيكون الحب والتضامن بطلَيْه الحقيقيين الوحيدين.

سارت حياتنا، كئيبةً، آليةً، يتهددنا الإعياء والملل. وكان لا بدّ أن نتصرّف. لحسن حظّنا، كنّا، مليكة وأنا، قريبين من بعضنا ومن جيلٍ واحدٍ. ذكرياتنا الواعية وذاكرتنا المشتركة عن الوسط الذي ترعرعنا فيه وتجانسنا وتناغمنا جعلتنا صديقين متفاهمين، وشريكين لا ينفصلان. أصبحتُ، بفعل الضرورة، الساعي إلى المرح والابتهاج. لم ألعب أبداً دور المهرج بهذا القدر طوال حياتي، مع أنني لم أكن كذلك لا في طفولتي ولا في مراهقتي. كنتُ، بالتناوب، مهرّجاً وقوّالاً وراقصاً وشاعراً جوّالاً. لم أفوّت فرصة للمزاح وسرد مغامرات مراهقتي وحياتي في المدرسة الداخلية، وعلاقاتي مع أساتذتي، وهروبي من المدرسة بالدراجة مع زملائي. تحدّثتُ عن ذكرياتٍ تقاسمتها مع أبي، ورويت نكاتٍ عن المحيطين به. باختصار، حافظتُ على الصورة الجدارية لماضينا حيّة. حينما كانت معنوياتنا تتعرض لخطر الهبوط، كنتُ أكتشف أنّ لا شيء أكثر فاعلية من أن أرتدي ألبسة نسائية لأقلّد ساخراً حركات النساء. أدّيتُ رقصات جنونية ومشاهد تمثيلية لا تنتهي، كانت مكافأتي القصوى عليها أن أجعل أهلي يضحكون حتى تجري دموعهم.

طوال فترة اعتقالنا الظالم، وزّعت ضرورات البقاء الأدوار الضرورية للحفاظ على المجموعة، دون أن ينتقص أحدٌ من قيمة الآخرين أو يلغيهم. وبثّت أمّي فينا القوّة والإيمان والأمل. نظّمنا، مليكة وأنا، الأمور وضبطنا إيقاعها. وانضمّت مريم إلينا كلّما سمحت لها صحّتها الرديئة. وكانت ماريا وسُكَينة، المراهقتان، بحاجة ماسّة لأن تعيشا، بالوكالة، عمريهما. أحدثت مليكة فيهما تغيّرات حقيقية وواضحة، بشأن

تحوّل فتاة شابة، كما هي حالها. تماماً مثلما سعى عبد اللطيف عبر الألعاب الذكورية إلى علاقةٍ وثيقة معي. لا تولّد القدوة القوّة، ولا يدين الصغار بشجاعتهم سوى لطبيعتهم الأبية والمتينة. أي أننا واجهنا مصيبتنا بصفوفٍ متراصّة، معتمدين على تماسك مجموعتنا الصغيرة وصلابتها.

لقد خفّف هيجاننا الخلاّق من وطأة افتقارنا إلى اللوازم المادية. اكتشفنا الإمكانيات غير المنتظرة التي يولّدها الضجر والعزلة. وكشف لنا الخيال الخصب، المتولّد عن هشاشتنا وعوزنا، عن مواهب كانت حتى ذلك الحين مطمورة تحت رغد العيش وسهولته.

انهمرت دموع والدتي غزيرة وتأثّرت بعمق حينما اكتشفت، يوم عيد ميلادها، شقّة جدار مغطاة تماماً بنتاجاتٍ من إبداعنا: صور ولوحات استوحيناها من رُسيمات قاموس لاروس قديم[1]...

همست بين شهقتين:

- شكراً... شكراً... هذه أجمل هدية قُدِّمَت لي في كلِّ حياتي!

كما أخرجنا تمثيلية تكريماً لها. وقد شارك كلٌّ منّا، بمثابرة النمل وبمكر الثعالب، ومن خلال بحثه، بتقديم العناصر الضرورية لديكور ذلك العرض الأوّل. لم نخلّ بأيّ طقسٍ من طقوس العرض: دُقّت الدقات الثلاث بأبّهة، ورمز شرشفٌ مقصوص إلى رفع الستارة. وحضر المشاهدون: أمّي وعاشورا وحليمة، بابتهاج، العرض. ولأننا كنّا طموحين، أخرجنا مشهداً من حياة ماركو بولو. ربّما كان ذلك تعبيراً لاشعورياً عن تعطّشنا إلى الفرار. لا شكّ أنّ كلَّ واحدٍ منّا كان يخفي في أعمق أعماقه انقباضاً في قلبه، وغمامةً على جبينه حينما تعبر صورٌ من الحياة الحقيقية ذهنَه، ولكن أيضاً، التزم كلٌّ منّا بأن يتمالك نفسه، وأن يهب نفسه للآخرين إلى درجة نكران ذاته.

---

(1) حتى أن إحدى شقيقاتي أعادت رسم صورة لجاك شيراك وجدتها في «جور دو فرانس» والتي مسحها سجانونا ظنّاً منهم أنها صورة أبي.

قطع حدثٌ رتابة حياتنا في السجن. فقد آوى عبد اللطيف فرخ حمامٍ جريحاً، منتوف الريش، هزيلاً، باختصار إنّه زميلٌ لنا! أحاطه بعناية فائقة ووضعه في علبة من الورق المقوّى. كان ذلك الرفيق الجديد موضع ترحيبٍ بيننا. أهّله اللون الرمادي الداكن لريشه القاتم أن يُسمّى زورو. وسرعان ما حمل إلينا هذا الفارس المقدام، الذي قذفته الرياح، هديةً رائعة. ذات مساء قدّم لنا زوجة سمينة، مهيبة، ناصعة البياض: آستريد، التي منحتنا زورو معها مجموعة كبيرة من الزغاليل! كانت آستريد وزورو وصغارهما ينامون بيننا، ملبّدين بهدوء وَدَعَة في علبهم الكرتونية. وجليت حمائمنا حمائم أخرى. وتوطّدت مشاركة غريبة بيننا وبين تلك الطيور.

حتى أمّي كان لها حمامها المفضّل، الذي سميناه بونيا، تيمّناً بوزير الداخلية الفرنسي ميشيل بونياتوفسكي. لم يكن هناك ما هو مشترك بين الطائر والوزير سوى كتفٍ ممتلئ وضخم، ولكن أيضاً وظيفة الشرطي التي يمارسها كلٌّ منهما في المجتمع. كنا نغمز بذلك من قناة أمّي التي تميل بشدّة إلى وزراء الداخلية...

عشّش كل ذلك العالم الصغير من المناقير والريش، المليء بالحنان والشهيّة، على أكتافنا، وأكل في راحة أكفّنا، وشرب من أفواهنا. ريشها المنشور بلسمٌ لحيواتنا المعطّلة. وحريتها المفرحة تُعزّم قلاقل سجننا. وكلّما طارت تلك الطيور، شعرنا وكأننا نحن مَنْ نهرب من سجننا. وجد أخي الصغير عند رفقائه الجدد العفوية والحنان والنقاوة وصفاء القلب، المعدومة في العالم الراشد، القاسي، الذي اختلس منه طفولته.

امتلأ قلبنا بالحسرات، ورأسنا بالأحلام، فتعلّقنا بالمطالعة أكثر من أيِّ وقت. أجرينا مسابقات جنونية، وأُرغم كلٌّ منّا على سرد ما قرأه. من بين أولئك القراءات الانتقائية، سيخصب بعضها أرواحنا إلى الأبد. لا يزال الأثر الثابت لتلك الأعمال المهمّة مثل «البؤساء» لفيكتور هوغو، و«يومٌ من أيام ايفان دينيسوفيتش، وسُرادق المصابين بالسرطان» لسولجنيتسين يملأُ روحي وأفكاري.

وبالنسبة للفائدة التي جنيناها من هذه المطالعات، لن أكفّ عن الامتنان للأمير مولاي عبد الله، الذي تدخّل بقدر ما استطاع لكي يكون بوسعنا الاستفادة من بعض الكتب.

في سنّ السابعة عشرة، محروماً من وجود أيّ ذكرٍ معي، ابتعدتُ عن أمّي وأخواتي، لأنزوي بنفسي في خضمّ تأملاتٍ لا تنتهي. بقيتُ ليالي كاملة وأنا أسند جبيني إلى قضبان النافذة الصغيرة. وكنتُ أتبين، في الأسفل، سقف مرقبٍ، مستندٍ إلى الأسوار، يمكن رؤية أحد جوانبه فقط. حينما يشعل الحرّاس للحظاتٍ مصباح الجيب خاصّتهم تتسرّب هالةٌ من كوّته. بينما تسود العتمة بقيّة الحجرات. فالأوامر حازمة وواضحة: يجب ألا تبدو أيّة علامة على الحياة للمسافر الذي قد يلمح حتى من بعيد الشبح الموحش لتاماتاغت. وحدها الومضات المتقطّعة غير المنتظمة لمصابيح الجيب تشير بوميضها إلى الحضور الأبدي لعناصر RAS. مستجمعاً قواي على المعدن البارد، حلّقتُ بعيني، بروحي، في قبّة السماء. داعبت الريح جبيني مثلما تهدّئ اليد العطوفة الحيوان الجفول، الحصان الحرون. فكّرتُ في ما قد يفعله في اللحظة نفسها أصدقائي، الأشخاص الذين عرفتهم. وتعلّمتُ شيئاً فشيئاً أن أحتفظ بذكرياتي حيّةً. كانت ذاكرتي أغلى ما أملك. كانت أنا، إن ماتت قُتِلت. من خلال تغييبي، أرادوا أن يستأصلوا اسمي. إن أردتُ النجاة من الحاضر الذي يحاصرني، عليّ أن أمرّن ذاكرتي، أن أواظب على الأمل بالمستقبل، ولو من خلال الحلم به.

استمددتُ الكثير من القوّة من تلك التأملات الليلية... بُحتُ للنجوم بأسرار حرماني وكبتي وألمي وأحلامي وأمنياتي. الصمت، في تلك الأمكنة، مطبقٌ لدرجة أنّه كان يكلّمني. إنّه ليس بالفراغ الخالي، ولا بالظلّ المفتقر لنورٍ خاصٍ به. كانت تلك لحظات عصيبة ولكنّها كم كانت سعيدة، ساحرة، مثيرة بقدر ما يمكن للاستبطان أن يكون كذلك...

من حينٍ إلى آخر، يسعل حارسٌ، ويدندن آخر. وكلّ ساعتين، ترنّ

خطوات موزونة لدورية على جنبات الأسوار، ثمّ تبتعد وتتلاشى في مكانٍ قصيّ. ومضت بعض الأشعّة الخاطفة في مواقع مختلفة من البستان. ذلك السيل العشوائي من الأحزمة الضوئية كشف لي تماماً الجهاز الذي يراقبنا. . . ولم أكفّ عن إعداد خططٍ للهروب. راقبتُ بدقّة طبوغرافية الأمكنة، وتبديلات الحراسة، والثغرات الصغيرة للجهاز. . . عرفتُ أنّه يمكن القيام بتلك اللعبة! كانت نقطة ضعف حرّاسنا هي كوننا إلى ذلك الحين ضحايا طيّعين. وكنّا سنستفيد من عنصر المفاجأة في حالة التمرّد. فلأننا امرأة و«أولاد»، اعتبر مراقبونا أننا مسالممن. وارتأيتُ أنّه يجب استغلال ذلك قبل أن تغدو ظروف اعتقالنا عقبة أمام أيّة محاولة للهروب. . . بيد أنّ أمّي اعتبرت أيَّ هروبٍ استسلاماً أمام كلّ الذين يريدون أن يجعلونا مذنبين بأيِّ شكلٍ كان. . .

قالت لنا:

- إذا كان الملك لا يخجل من ارتكاب هذا العسف، فلنمتنع عن إعطائه الفرصة للإحساس بأنّه على صوابٍ في معاملته لنا كمذنبين. قوّتنا الوحيدة هي براءتنا!

وهذا ما جعلني أدخل معها في جدالات عاصفة. وحاولت مليكة التوفيق بيننا. فقد اعتقدت، على غرار أمّي، بأنه بما أنني ذكر العائلة والابن البكر لأوفقير، فإنّ جلاّدينا سيسعدون بقتلي. . . أغاظتني الحجّة.

ذكّرتني أمّي بلا كلل:

- لا تنسَ أنّ ثقافة وفلسفة مَنْ يعذّبوننا هي: إذا قتلت بروتوس، اقتل ابن بروتوس!

انضمّت مليكة فيما بعد إلى أطروحاتي. وواصلنا الدفاع عنها لدى أمّي، ولكنّ خطابنا لم يزعزع موقفها.

ذات ليلة، سمعتُ أحد شاغلي الحجرة يدندن لحناً لفت انتباهي. . . كانت كلمات أغنية شعبية:

- يقولون أنني مجرم وأنا بريء. أقسم بالله العظيم إنّ جريمتي

الوحيدة هي أنني أحبّ أصدقائي. ولكنني سأرفع الراية وأسير في المقدّمة وسأقاوم القدر والمصادفة. وغداً، إن نجوتُ من الأسوأ، فسأتنعّم بنصيبي الأفضل. أينما كان الرجل الرحيم على وجه الأرض، فإنّه سيجد دائماً إخوةً له...

تلقّيتُ، حائراً، يقظاً، رسالةً ولكنّني لم أستطع أن أصدّقها. انقطع الصوت... أدار الحرّاس مذياعاً. استمعوا إلى الأخبار، ولا شكّ أن رتابة النشرة اليومية لم تستهوهم... تحوّلوا بين المحطات وضجيج التشويش. في اللحظة ذاتها، رفعت سواعد الغطاء، فانفتحت كوّةٌ منارةٌ ثمّ انغلقت في الليل الدامس. كان هناك مرحٌ وابتهاجٌ داخل الملجأ. دندن الحرّاس مع أغنية لفرقة جيل جيلالة تذيعها محطّة إذاعية. تعثّرت خطوات على الحصى، وارتسم ظلٌّ في الأسفل. التفّ شبحٌ حول المرقب، ووقف تحت نافذتي. فجأةً، نبت حصاةٌ صغيرة بالقرب منّي. ألصقتُ وجهي بشدّة بالقضبان لأتبيّن مَنْ في الأسفل. مرّ مقذوفٌ آخر، وهذه المرّة، من بين القضبان الحديدية الثخينة وتوقّف خلف الزخارف الحديدية في متناول يدي. إنّها رسالة. حصاةٌ ملساء مغلّفة بوريقةٍ! انخدش رسغاي وأنا أمررهما من خلال الشبكة لألتقط الرسالة. فتحتها، بأصابعٍ مرتعشة، وقرأتها بتلهّف:

- أنا صديق... يجب أن أكلّمك... لأمرٍ هام...

كتبتُ بسرعةٍ على مزقة ورق:

- هناك أنبوبٌ قديم في الفناء، إذا كان طوله كافياً، فسأدلّيه من طاقة حجرتي حتى يصل إليك. إذا ما توقّفت الموسيقى أو المناقشات في المرقب، وعند حدوث أيّ طارئ، انقر نقرتين على الأنبوب، وسأرفعه في الحال.

لففتُ حصاةً بكلماتي ورميتها إلى الأسفل. اجتاحني انفعالٌ شديد وأنعشني. أخيراً، حدث اتّصال، وحدث خرقٌ إنساني لهذا العالم المغلق. أوّل ما بادرتُ إليه هو ذهابي لإيقاظ الآخرين، ولكنني، إذ

تمالكتُ لهفتي، عدلتُ عن رأييّ. بخطوةٍ واحدة، أصبحت عند أسفل الدرج، في الفناء. طفتُ، حافي القدمين، كشبحٍ في غندورتي البيضاء. منحتني إمكانية تبادل الحديث مع ذلك الرجل المجهول أجنحةً. لمحتُ الأنبوب القديم تحت علبةٍ كرتونية وتهيّأتُ للاستيلاء عليه.

- تبّاً! إنّه أصفر ومثقوبٌ من عدّة أماكن. . .

سيجعله لونه الفاقع ظاهراً على طول الجدار. لا بأس! سددتُ شقوقه بالبلاستيك لكي أضمن على نحوٍ أفضل التكتّم الصوتي، واستخدمتُ عُصيبات رفيعة قاتمة اللون بغرض تمويهه. عدتُ إلى مرقبي. لسع الطرف المسنّن للأنبوب أذني. انتظرتُ، مضطرباً، أن يمسك المتحدِّث إليّ بالأنبوب. عكست هزّتان خفيفتان أمواجهما على معصمي. أخيراً، وصلت الإشارة! بعد ضجّة مخنوقة ومرتبكة، سمعتُ صوتاً هامساً:

- مولاي. . . هل تسمعني؟ اسمي حدّو. . . منذ زمنٍ وأنا أحاول الاتصال بك. . . كنتُ أتمنّى أن أُعيّن في الفرق التي تدخل إلى حجرتكم من أجل سخرة الماء، ولكن هذا لم يحصل. ولم ألحّ على ذلك لئلاّ أثير الشكوك. . .

لا شكّ أن هذا الرجل الذي يعرف اسمي الذي يناديني به أصدقائي المقرّبون وعائلتي، قد عاشرنا في الماضي. وتابع حديثه:

- هل تتذكّر زيارةً إلى مرّاكش في عام 1970، حيث كنّا مكلّفين بحمايتك؟ كنت تأتي غالباً وتجلسُ في المحرس. . . ونتقاسم معك لحظات سعيدة. . . لقد أحزننا كثيراً المصير الذي قُدِّر لكم. . . يمكنكم الاعتماد على مساعدتي.

- شكراً، أنا ممتنٌّ لك للغاية. .

قطعت نقرتان على الأنبوب الحديث، فرفعته سريعاً. قامت دورية بجولتها، وابتعد حدّو. خيّم الصمتُ المشوب بنقيق الضفادع، ومسحت نسمةٌ خفيفة، مرتعشة، أوراق قمم الأشجار. أصغيتُ، بلا حراك، إلى

همس أشجار اللوز. سار الهلال من وراء الغيوم المتفرّقة، خجولاً، فضيّ اللون. بَرُد الليل، وأنا ما زلتُ أراقب الإشارات الضوئية التي تسير من أوّل البستان إلى آخره. بثّت كوّة المرقب ضوءها الخافت، وصوت مذياع. انتظرتُ بحذرٍ وتلهّف. من جديد، اصطدمت حصاة بالقضبان. انحنيت، وجاء حدّو.

- يجب أن أتحدّث إلى والدتك. لدي رسالة مهمّة لها.

- أخبرني برسالتك، وسأنقلها إليها.

- أعلم أنّ في وضعٍ كهذا، لم يعد هناك أيّ شيءٍ تخبّئونه عن بعضكم... ولكنني قطعتُ على نفسي عهداً أن أسلّمها الرسالة مشافهةً. ولا مانع من حضورك.

اتّفقنا على أنّه من الضروري إيجاد وسيلة ومكانٍ أكثر ملاءمة لكي نتحادث. أخبرته عن برج الزاوية الذي يطلّ على ساحتنا الصغيرة.

- إذا كنت تستطيع الوصول إلى الأنقاض، والبحث عن مدخل حجرة خفيضة، فستجد نفسك خلف جدار المطبخ. ومن خلال فتح ثقبٍ على ارتفاع قامة رجل، سيمكننا التحادث على نحوٍ أفضل.

همس حدّو:

- سأحاول. هذا وعد. أيّاً كانت الوسيلة، فلا بدّ أن أتحدّث إلى والدتك.

افترقنا. وقررنا تحديد الموعد في فرصةٍ تمنّيناها أن تكون قريبةً.

استلقيتُ دون أن أعرف النوم. ترقّبت مطلع النهار لكي أُخبِر أمّي، التي تستيقظ باكراً، باتصاليَ السرّي. عند الاستيقاظ، سارعت إلى إخبار الجماعة. مثل سربٍ من عصافير الدّوري المزقزقة، علّقنا في هيجان على «اللقائي في المرحلة الثالثة». منحنا هذا الحدث طاقةً جديدة. وشغلنا نهارنا كالعادة بالدروس والمطالعات، إلا أنّه شقّ على ذهننا، الشارد بإمكانية اللقاء، أن يركّز على الدراسة.

بعد الظهيرة، كان الاستعداد للمعركة. صعد عبد اللطيف وسُكينة، اللذان كانا يلعبان في الفناء، السُلّم، كل أربع درجات دفعة واحدة، ووصلا لاهثين ليقطعا قيلولتنا.

صرخت أختي الصغيرة:

- بسرعة. . . بسرعة، لقد وصلوا! سمعنا ضجيج المفاتيح وأصواتاً خلف باب المدخل!

وفي هبّة جماعية، ركض كلٌ منا إلى المهمة الملقاة على عاتقه. ورغم الاستعجال، أنجزنا تلقائياً ما ينبغي القيام بها. أخفينا جيّداً ما اعتبرناه الأكثر ضرورة لنجاتنا. نزلتُ مسرعاً إلى الفناء. ذهبتُ للقاء زوّارنا على أمل أن أؤخّر غزوتهم. ولأننا لم نكن متفائلين بنواياهم، لم يكن بوسعنا سوى أن نرتجل هذا الدفاع الهزيل عن أنفسنا.

أسفل الدرجات التي تقود إلى «مبانينا»، كدتُ أصطدم بمجموعةٍ من حوالي عشرة رجال. كان واحدٌ منهم فقط يرتدي الزيّ المدني: محافظ ورزازات، معاطي بوجمعة. أثناء «الرحلة» في الصحراء من أسّا إلى تاماتاغت التابعة لولايته، استقبلنا كضيوفٍ متميّزين، طالباً من قائد ضيعةٍ صغيرةٍ خاضعة لسلطته أن يُعدّ لنا مأدبةً باذخة ويكرِم وفادتنا بمناسبة توقّفنا في ضيعته. قدّم لنا رجالٌ بقبّعاتٍ وقفازاتٍ بيضاء أطباق الضيافة. واستقبلنا كضيوفٍ حقيقيين لجلالته.

في أواخر عهد الحماية، كان سي معاطي بوجمعة معلّم مدرسة، وعند الاستقلال، انخرط في الخدمة المدنية واهتمّ بالشأن العام. حينما أصبح أوفقير وزير دولة للشؤون الداخلية، لفت نظره وعيّنه محافظاً. بعد خمسة عشر شهراً من وفاة والدي، ظلّ سي بوجمعة في منصبه في ورزازات، وأبدى حيالنا تعاطفاً ومناقبية عالية يحسبان له، غير آبهٍ بالمخاطر التي تحيق بمن يتجرأ على الاستخفاف بزوال الحظوة الملكية. منذ وصولنا إلى تاماتاغت، رحّب بنا المحافظ بحرارة، وتوجّه إلى أمّي معبّراً عن رأيه بصوتٍ عالٍ لكي يسمعه الجميع:

- سيّدتي، صدّقي أن قلبي يتمزّق لحالكم. كان الجنرال رئيسي وصديقي. وجلالته يعرف ذلك. هذه هي حال السياسة، ويبقى الحكم الأخير للتاريخ. ولكنّ الرجل الذي يتحدّث إليك، يا حاجّة، لن يتنكّر أبداً لماضٍ لكي ينبح مع الكلاب على رجلٍ ميّتٍ وعائلته. بالنسبة لي، كنتم وستبقون أولاد القصر وأولاد جلالته. ومهما بقيتم في ولاية ورزازات، سأعاملكم، في نطاق إمكاناتي، على هذا الأساس.

بعد تسعة أشهر، عاد زوارنا من جديد.

- صباح الخير، يا سيّدي المحافظ، ما الذي جعلنا نستحقّ شرف زيارتكم لنا؟

لم تنطلِ عليه السخرية الكامنة في سؤالي. وبدا في غيظٍ شديد، وتحدّث بضيقٍ وارتباك:

- كيف حالكم. . . ؟ هل يمكنكم إخبار والدتكم بأننا نريد مقابلتها؟

كلمة «أننا» تلك التي شُدِّدَ عليها أشارت إلى الطاقم المرافق له وأظهرت خيبة المحافظ. أدركنا، من خلال وجهه العبوس، أنّ زيارته لم تعد للمجاملة وإنّما لمهمّة محدّدة بدقّة.

نزلت أمّي في الحال إلى باحة الدار، وأحطنا بها قلقين ومتلهّفين. لم نستطع كبح شعورٍ بالأمل راودنا. أيمكن أن يكون المحافظ قد جاء ليعلن إطلاق سراحنا؟ كنّا، في أعماقنا، نكذب على أنفسنا. لم تدع المظاهر التي شاهدناها أيّ شكٍّ حول طبيعة هذه الزيارة. . .

تقدّم المحافظ خطوة إلى الأمام وتوجّه إلى أمّي:

- سيّدتي، لقد جئتُ لأودّعكم. لقد عُزِلتُ من منصبي. عليّ، ان سمحتم لي، أن أنفّذ الأوامر. سنفتّش غرفكم، والغاية من هذه الإجراءات هي التأكّد من عدم تغيّب أيٍّ منكم. . .

صعدنا في رتلٍ درج ذلك القصر المنيع. وقد فرض ضيقه وعمارته البرجية أن ندلف إليه الواحد وراء الآخر، تاركين بيننا مسافة لا بأس بها. مرّت أمّي أولاً. ولحق بها المحافظ. ولدى مروره أمامي، غمز لي وأشار

لي بيده سرّاً، ليحثّني على اللحاق به كي يتّخذ مسافةٍ من الرهط. لا شكّ أنّ هناك ما يخبرنا به. وضع الضباط الذين لحقوا بنا أياديهم على الجدران ليأمنوا الخطر في تقدّمهم. تعثّر أحدهم، فانتهزت تلك الفرصة لأتظاهر بأنني أشدّ رباط حذائي. وإذ أقعيتُ، أبطأتُ صعود الجماعة. فابتعد المحافظ وأمّي بما يكفي ليكونا خارج مدى أذنٍ فضولية.

- سيّدتي، استعدّوا لتحوّلٍ جذريٍ في وضعكم! فالقصر يعتقد أنّه هشٌ جدّاً... لقد اختير رجلٌ لتولّي أمركم، وستسوء ظروفكم للغاية. خبّئوا مذياعاً وبعض الكتب! هذه آخر مرّة ألتقيكم فيها... تشجّعوا يا سيّدتي؛ كان الله في عونكم...!

التمّ الرهط، وإذ لم يعد من الممكن تبادل الحديث، استمرّت الزيارة في صمتٍ ثقيل. ودّعنا المحافظ. ولن نلتقيه بعد ذلك.

في 24 شباط (فبراير) 1974، انقلب مصيرنا جذرياً. أيقظونا بقسوة وعنف، وأُمرنا:

- اصطفّوا على طول الحائط!

انتظرنا مجتمعين في الفسحة التي تفصل حجرتينا. سمعنا وقع خطى على الدرج. وظهر رجلٌ في الإطار الخَرِب لبوابةٍ خفيضة. كان يرتدي زيّاً عسكرياً ومعطفاً كاكياً، وقد تقوّس ظهره كثيراً بسبب بدانته. لم أتبيّن رتبته على كتفيه. ولكنّ واقية قبّعته الملتمعة باللون الذهبي، بيَّنت لي أنّه ضابطٌ رفيع. إنّه عقيدٌ شرع بتفتيش الأمكنة. كان قصيراً وسميناً مكتنزاً، ويرتدي بزّة ضيّقة على كرشه، وأراد بذلك أن يبدو عسكرياً صارماً وهو يرفع ياقة معطفه ويبقي يديه المكفوفتين خلف ظهره. وجدته مضحكاً أكثر منه مدهشاً، وحدّقت فيه لكي ينظر إليّ. كانت عيناه الجاحظتان، المحاطتان بهالةٍ قاتمة، متباعدتين. وجعلتني بشرته الباهتة والزرقة المحيطة بأجفانه أعتقد بأنّه من المصابين بالتهابٍ مزمنٍ في الأمعاء أو الكبد.

أخذ العقيد وقته، وكأنّه مشترٍ مفترَض جاء إلى عمارةٍ ليشتريها. دعكت رائحة العفونة المتصاعدة من حجرة «مراحيضنا» أنفه. جعلته إيماءة امتعاضٍ لم يستطع كبتها أكثر بشاعةً. جرفت كلّ حركة من حركاته الأريج الخانق لعطرٍ ثقيلٍ، فاحت رائحته بإفراط. لا شكّ أنّه كان يعتقد أنّ الفوحان البرجوازي، الذي يرمز بالنسبة له إلى الغنى، سيلغي عفونة فقرنا. ضحكتُ في سرّي. سوف يكتشف العقيد أنّ الغائط لا يُزال برشقاتٍ كبيرة من العطر النفيس.

ولأنني كنتُ منغمساً في الوسط العسكري، كنتُ أميّز بين مُقاتلٍ وضابط صالونات، وبين مخبرٍ سريٍّ وجنديٍّ حقيقي. لم يكن زائرنا في مصافِ أيّة فئةٍ محترَمة. إنّه أحد جلاوزة القصر، ضابطٌ في جهاز الشرطة الخاصّة للحسن الثاني SSS. الجهاز الذي يراقب بقيّة الأجهزة بسلطة غير محدودة. وفي كلّ مأساةٍ لحكم الحسن الثاني، يلوح طيف الجهاز SSS، وتكون له يدٌ فيها. هذه الدولة داخل الدولة، هذا السلاح المتفوّق تحت الرحمة المطلقة للعاهل، يمسك بكلّ خيوط القمع، ويسهر على «راحة الضيوف الأكثر امتيازاً لجلالة الملك المعظّم»... يندسّ SSS في كلّ الأوساط دون استثناء، وحتى في منازل أرفع شخصيات المملكة وأدقّ تفاصيل حياتهم الخاصّة. بل ويتجسّس حتى على عائلة الحسن الثاني نفسه، وخاصّة شقيقه مولاي عبد الله. ويتسلّل SSS بين خدم المخبرين غير المشكوك فيهم، الفاعلين والمجنّدين في صفوف أقرب وأخلص خَدَم مَنْ يُراد التجسّس عليهم. وسوف تكون لي فرصة العودة إلى هذا الكيان الخفيّ الذي برع في كلّ «العواقب الوخيمة» لحكم الحسن الثاني، والسريّ للغاية لدرجة أنّ ليس له أيّ وجود رسميّ. حتى والدي نفسه لم يعرف به إلاّ في عام 1966، بعد قضيّة بن بركة... وقد اكتشف الجنرال حقيقة هذا الجهاز الخاصّ جداً لدى بحثه بسذاجة عن أجوبةٍ كانت قد تعذّر عليه الوصول إليها. ومنذ ذلك الحين، عاش هو نفسه تحت رهبة SSS. ويظنّ الأشخاص القلائل الذين يعرفون هذا الشعار أنّه يعني «دوائر

الأمن الخاصّة» أي الأحرف الثلاثة الأولى باللغة الفرنسية من Sérvices Spéciaux de Sécurité. ولكنّ، بالنسبة للخبثاء، الترجمة الصحيحة لهذه الأحرف الثلاث هي: Sérvice Spécial de Sa Majesté، أي «الشرطة الخاصّة لجلالته».

أمام حرّاسنا المذعورين، واصل الدخيل زيارته. كانت هناك حشيّاتنا الملوّثة المصفوفة على الأرضية المتشقّقة، وبعض العلب الكرتونية التي كنا نستخدمها كطاولات ليلية، وكأعشاشٍ لحمائمنا. كان بؤسنا منقوشاً في تلك الجدران. وجد زائرنا نفسه وجهاً لوجه مع صورتين لأوفقير. وقد صُدِم كما لو أنّه رآه حيّاً!

توقّف كما لو أنّه تقزّز. كانت صورتان بسيطتان بالأبيض والأسود مصفرتان، معلّقتين على الجدار، كافيتين لأن تقلقا ذاك المفتّش الجبان. تُظهر واحدة من تلك الصورتين والدي إلى جانب الجنرال جوان في عام 1944، أثناء العرض الذي أقيم احتفالاً بتحرير روما من قبل الحلفاء، وهو يتقدّم فوج القنّاصة خاصته حاملاً العلم الفرنسي الثلاثيّ الألوان. وتصوِّر الأخرى والدي بالزيِّ المموّه وخوذة المشاة أثناء حرب الرمال التي نشبت في عام 1963 بين المغرب والجزائر.

هذه الشخصية السمجة، التي جاءت تحوم على تحويطتنا مثل عقاب، شَحُبَت أمام خيال إنسان. وفي حين جاء يعايرنا ويفزعنا، فإنّه هو مَنْ انصرف مهزوزاً مذعوراً، وفرّ حانقاً. تعزّزت عجرفته الظاهرة في تأكّده من أنّه لم يُعرَف. ولكن والدتي تعرّفت عليه قبل غيرها. همست لي:

- إنّه بن عايش. شقيق الطبيب الخاص للملك الذي قُتِل في الصخيرات. . .

وهمست مليكة لي:

- لقد سبق أن رأيتُ هذا الشخص في القصر. . .

حينما مرّ من أمامي لينزل السلّم، عاودتني الذاكرة. تذكّرت أنني

صادفته بحضور الأمير مولاي عبد الله، شقيق الحسن الثاني، الذي لم يخفِ نفوره من رجلٍ من هذا النوع، العسكري المسبق الصنع في دورةٍ تدريبية من ستّة أشهر بعد الاستقلال. إنّه لا يدين برتبه سوى لمولاه الملك.

وهو على وشك نزول السلّم، نظر إليّ العقيد شزراً. ولمستُ فيه غضباً بادياً. نزل بخطوات متقطّعة لصغر قدميه.

وعلمنا فيما بعد من بعض حلفائنا في صفوف الحرّاس، بتفاصيل بقية التفتيش. لدى خروجه من عندنا، فحص بن عايش الحصن وأنقاضه والبستان والمراقب ومعسكرات الجند. اجتمع بالمسؤولين وبالفرق التي تدخل على «الضيوف». وخاطبهم مهدّداً، وباقتضاب:

- لقد تغيّر الوضع! من الآن فصاعداً، تريد الرباط ألاّ يتغذّى الضيوف سوى بكسراتٍ من الخبز وماءٍ... فليتحمّلوا! والذين لن يطبّقوا الأوامر حرفياً، سأتكفّل أمرهم شخصياً!

ركّز العقيد على تعليمات وأوامر صارمة وواضحة. كان بن عايش يعرف أنّ مجرّد انتمائه إلى الشرطة الخاصّة للقصر يكفي لإخافة من يتحدّث إليهم. وبالتالي فرض تفتيشاً دقيقاً على حجراتنا. اقتحم النقيب بوعزّة «زمايم»، متبوعاً بكلّ الطاقم ونصف دزينةٍ من رجال الشرطة، كوخنا. وحقّاً لم يكن المسكين راغباً في تلك الوظيفة، وبدل أن يقود جنده، بدا وكأنّه يُقاد من قبلهم.

- أنا آسف، نحن... علينا أن نفتّش.

دُرِسَت كلّ أشيائنا بالتفصيل، وجُمِعَت في كراتين، ونُقِلَت إلى الخارج. وقام بن عايش شخصياً بفرزها التعسّفي. أكثر ما أحزننا، هو رؤية كتبنا المصادرة. حُرِم علينا كلّ ما يمكنه أن يسلّينا ويشغل أذهاننا ويلهينا عن عقابنا. حتى لُعَب أخي الصغير لم تفلت من تلك القسوة الظالمة. عاد العقيد إلى الرباط مدركاً أنّ تهديداته ستخلق الحماس اللازم لتعذيبنا. لقد تكلّم سرّاً مع رجال الشرطة الستّة المدنيين الذين يؤمّنون

سرية الرسائل المشفّرة الثلاث اليومية المخصّصة للديوان الملكي. من بينهم عملاء لجهازي DST وSSS، تحت غطاء هويّة أخرى، وباسم جهازٍ شرطة آخر. وسوف يراقبون مَن ينفّذون الأوامر الجديدة على مضض، وسيبلغون الجنرال مولاي حفيظ والعقيد بن عايش بكلّ مخالفة «للنظام الجديد» وبكلّ مَن يتردّد في تنفيذها.

أعلن لنا زمايم البرنامج. قُلِّلَت كميّة الغذاء، وأُلغيت أجهزة الراديو، وأوقِفَت إرساليات جدّي نهائياً. والأكثر هولاً من كلّ هذا، مُنِعَت عنّا الأدوية. حُرِمَت أختي مريم، التي تعاني من صرعٍ شديد منذ طفولتها، بقسوة من تسعة أقراص من الدواء كانت تتناولها يومياً وضرورية لحياتها. وأخبر مبعوثٌ من القصر جدّي، العقيد شنّا، بعباراتٍ بذيئة، مفسحاً المجال للشك والحيرة: «بالنسبة لمريم، لم تعد الأدوية ضرورية...» كما أوهَمه بأنني قُتِلتُ أثناء محاولةٍ للفرار. حتى أنّ جدّي سمّى آخر وليدٍ له رؤوف حفظاً لذكراي. كان الغرض من هذا التسميم القاسي ضمان سكوت أصدقائنا القدامى، ومعارفنا السابقين، وكذلك الحثّ على اجتثاثنا النهائي من ذاكرتهم. وللسيطرة على العقيد شنّا، احتفظ به الحسن الثاني في احتياطي الجيش، ورفض تقاعده النهائي.

في 24 شباط (فبراير) 1974، اجتزنا درجةً إضافية في الاضطراب. منذ إلقاء القبض علينا في 24 كانون الأول (ديسمبر) 1972، كان الجنرال مولاي حفيظ العلوي، وزير المراسم والديوان الملكي، المنسّق الأكبر لوضعنا. ولم يكن يستجيب سوى للحسن الثاني الذي كان حريصاً على تزويده بالمعلومات بدقّة. قرأ الملك التقارير المفصّلة عن «ضيوفه». كان مولاي حفيظ، الذي تربطه بالعاهل قرابة من بعيد، بالنسبة للحسن الثاني مثل أوليڤييه لو دام بالنسبة للويس الحادي عشر. إنّ هذا الجنرال الرخيص، الكاهن الأكبر للقصر الملكي، النفس المتفانية لأمير المؤمنين، هو صنيع سيّده. إنّه رجل المهام الخاصّة، القيّم على الزنازين الملكية،

والحارس الشرس «للحدائق السرية» للعاهل. كان الجنرال، الأمهق، الأصلع، المخلّع المشية، مع زأزأة في لسانه، بارداً كالموت، خطيراً كالسمّ. يعيش وحيداً، لا أصدقاء له، ولا يستقبل أحداً قط. والوزير الدائم منبوذٌ في داخل القصر كما في خارجه، تمقته العائلة الملكية. تحتقره والدة الحسن الثاني التي تسمّيه «القدوة السيئة» لابنها... وكذلك العبيد والمحظيات والجمهور الكبير للقصور الملكية يلعنون لمجرّد رؤية كبير محقّقي العرش. حتى حريم القصر لم ينجُ من «التدخلات السافرة» للجنرال. يرعب مسؤول البيت الملكي الوزراء وكبار الموظّفين في جهاز الدولة. وفي الجيش، وحدهم بعض الجنرالات الذين خدموا في القوات الفرنسية يملكون الهيبة والشخصية الكافيتين للتأثير عليه. وكان أوفقير من بين هؤلاء الجنرالات. كان الجنرال مولاي حفيظ يداهن من لا يستطيع النيل منهم ويتملّقهم بانتظار أن يفقدوا الحظوة الملكية، وهو ما يعمل من أجله باستمرار، فيتسلّمهم مكبّلين. ويسيل لعاب جرذ المجاري هذا بالمدائح على من يحلم بافتراسهم. كدّس مولاي حفيظ من خلال أعمال النهب الفاضحة ميراثاً عقارياً وأموالاً غير منقولة مذهلة، دون الأخذ بالحسبان المليارات التي اختلسها من مختلف الصناديق السوداء التي كان يتصرّف بها. أمّا حساباته في الخارج فلا تُعدُّ ولا تُحصى. لم يتردّد وزير التشريفات والديوان الملكي في سرقة الأمراء والأميرات، بل والحسن الثاني نفسه. غضّ الملك الطرف عنه، وأزقم يده الخفيّة كما يُطعم المرء كلبه المولوسي. أدرك الحسن الثاني أنّ رجلاً كهذا يبقى وفياً من خلال إطعامه، مثلما لم يجهل أن شخصاً مثله قد يبيع نفسه في أيّ لحظة لمن يدفع له أكثر. لم يعتقد الملك أنّ ولاء العبد يأتي من شيمةٍ فيه، وإنّما يُشترى بالمال. لم يفهم أحدٌ قط كيف استطاع الحسن الثاني أن يجنّد مَنْ خان محمد الخامس. فقد كان مولاي حفيظ العلوي، الذي تربطه صلة نسبٍ بعيدة بالعائلة العلوية، أحد الموقّعين على الوثيقة المزوّرة، غير الشرعية، التي استخدمتها فرنسا لعزل محمد الخامس واستبداله بالألعوبة

بن عرفة. وقد تسلّم، تقديراً لخدماته، منصب قائد مدينة سطات. لم ينسَ أحدٌ ذلك... سوى الملك.

لم يكذب المحافظ سي بوجمعة. فقد عبّر القصر بوضوح، من خلال إرساله بن عايش إلينا، عن نيّته في مضاعفة عذاباتنا وآلامنا. وتبيّن أنّ ما تمنّيناه إبعاداً قصير الأمد تعذيبٌ لا نهائيٌّ، ونظّمنا صفوفنا لمواجهة تقهقرٍ شديدٍ في ظروفنا. وبفضل تحذير المحافظ، نجحنا في إنقاذ مذياع صغير. فتحته لكي لا يبقى منه سوى أحشائه، الصفيحة الرقيقة التي تتركّز عليها مكوّناته، وأعددتُ له غطاءً مصنوعاً من قطعةٍ من بطانية، ولم تتجاوز سماكته سنتيمتراً واحداً. وحرصتُ على أن أنتزع من المذياعين الآخرين، قبل أن يُصادرا، مكبّرات الصوت وبعض قطع التبديل. أعددنا مخابئ في الأرضية الطينية، طمرنا فيها ما تبقّى لنا من الكتب، لكي نقرأها ليلاً على ضوء شمعة. وقد أخفينا عن عيون السجّانين بعض الكراريس المدرسية وبعض الكتب التي قرأناها مراراً وتكراراً.

لم يتأخّر حصار المبعوث الملكي في ترك آثاره على حالتنا الجسدية والمعنوية. نفدت مأكولاتنا وضعفت أجسادنا، وتملّكنا الضجر، وضاقت أنفاسنا، وحام اليأس من حولنا، وتقلقلت إراداتنا. ولكن إذا كان تفاقم وضعنا قد ضاءل أملنا في الحريّة فإنّه أيضاً شحذ قدراتنا على البقاء. فقد أخفينا وكدّسنا وطمرنا، كالنمل تماماً، كلّ ما يمكن أن يكون نافعاً لأزمنة القحط والبرودة. أعددنا أنفسنا لمواجهة «الشتاء الملكي»...

بمرور الزمن، اندهشت الفرق التي تجلب لنا الماء من عزمنا وتصميمنا، وأثارت مقاومتنا البريئة تعاطفها، وبدأ تواطؤ عناصرها معنا. فساعدنا أربعة رجال من بين ثمانية. واستغلوا أعمال السخرة اليومية لمرّتين ليرموا إلينا طحيناً وسكراً وبعض قطع اللحم التي يخفونها في الجيوب الوسيعة لثيابهم الخاصّة بالعمل. خفّف تعاطفهم عن مَعِداتنا ولكنّه لم يخفّف قط من قلقنا وضجرنا... ظلّت نوبات الصرع تنتاب

شقيقتي مريم، وصدمت الاختلاجات العنيفة، التي كانت تشوّه شكلها، نفسياً الأصغر منها سنّاً. لم يكن بوسعنا أن نفعل شيئاً سوى وضع قطعة قماشٍ في فمها كي لا تقطع لسانها. وكانت نوبات مريم تُتبَع بحالات غيبوبة؛ استمرت أطولها لثلاثة أيام. كما مرضت مليكة بدورها ووصلت إلى حالةٍ خطيرة. أُصيبَت بحمّى شديدة استغرقت عشرين يوماً، ولم يكن بوسعنا سوى وضع بياضات مبلّلة على جسمها لمحاولة تخفيض درجة حرارتها. وستعرف مليكة بعد سنوات أن ذلك المرض الذي لم يُعالج حينها قد حرمها من الإنجاب. أيّ شيءٍ في الدنيا يمكنه أن يعوّض عن هذه الفظاعة؟

أمّا أنا فقد بدأت آلام الأسنان والخرّاجات القيحية تنهش فيّ. تورّم وجهي، وانغمضت عيني اليمنى، وازرقّ جسمي وانتفخ وتعفّن، وجرّبتُ كلّ الوسائل لتخفيف الألم المبرح، ولكنّها ذهبت سدىً. وكوسيلة أخيرة، وضعتُ حدَّ سكينٍ محمرّاً، مجازفاً بأن يُغمى عليّ، على الخرّاجات لتفجيرها وكيّها بالحرق.

على ارتفاع ألف وسبعمئة متر، تكون الشتاءات باردة. فالرياح الجليدية التي تكسح القمم تندفع في هيكل القلعة. وتتسلّل التيارات الهوائية حتّى إلى مغارتنا العفِنة. ووجب علينا أن نُعمل خيالنا لمخادعة الجوع، وأكثر من ذلك لمخاتلة الضجر أيضاً. تعاظم التعاطف معنا في صفوف حرّاسنا، وأصبحوا أكثر جرأةً في مساعدتنا. وسرعان ما تشكّلت شبكة دعم حقيقية. كان المحسنون يأتون عبر البستان ويتسلّقون الخرائب ويسيرون لمئات الأمتار في متاهات تلك الأنقاض لكي يصلوا إلى خلف جدار «مطبخنا» ومن خلال الثقب الذي أحدثناه في ذلك الجدار، كنّا نتبادل الحديث ونتلقّى المؤن التي تنقصنا.

كان حدّو أوّل مَن اتّصل بنا من خلال كوّة الكلام تلك. في اليوم التالي لزيارة العقيد بن عايش المدمِّرة، وجد أخيراً طريقاً إلينا. ذات ليلة،

سمعنا صوت وقع حصاةٍ في الفناء الصغير. أنزل لنا حدّو من أحد نوافذ البرج قفّة طعامٍ مدلاّة بحبل. ومنذ ذلك الحين، أصبح التسليم السرّي للبضائع أكثر أماناً من المغامرات اليومية لسخرة الماء. انتظر حدّو تسليم رسالته إلى أمّي. وأخيراً جاءت الفرصة. ألصقنا أذننا، أمّي ومليكة وأنا، بالثقب المحفور في الجدار، واستمعنا بخشوع إلى بوحه بالأسرار.

بعد عبارات السؤال عن أحوالها، توجّه حدّو، بتأثرٍ واحترام، إلى أمّي:

- سيّدتي، لقد أقسمتُ بالقرآن الكريم على أنني لن أسلّم هذه الرسالة إلاّ إليك، وإليكِ وحدك...

فأكّدت له أمّي:

- لا فرق بيني وبين وأولادي الكبار.

في الجانب الآخر من الجدار، دحرج حدّو الحصى وطقطق بالقصب لتأمين وصول مساعداته. حبسنا أنفاسنا. فالليل الساكن قد يخوننا. توقف صوت قرقعة الأقدام على الركام. أصبحنا كلّنا آذاناً صاغية:

- سيّدتي، لقد حدّثك ابنكِ عنّي. أنا عريف أوّل في جهاز CMI. كنتُ في عداد الحرّاس الذين حرسوا الطيّارين الانقلابيين ليلة إعدامهم. وقد جعلني زعيمهم، العقيد أمقران، أن أقسم بالكتاب المقدّس أن أنقل إليك، إذا ما أُتيحَت الفرصة، كلماته الأخيرة...

- أراد العقيد أمقران أن تعرفي بأيّ طريقة اضطرّ إلى أن يشهد ضدّك تحت ضغط محقّقي الملك. انتزع منه الجنرال مولاي حفيظ والعقيد الدليمي اتّهامات خطيرة ضدّك. فقد قالا له: كلّما شهدت ضدّ آل أوفقير، أنقذت عدداً أكبر من رجالك من الضبّاط وضباط الصف والجنود، ويمكننا أن نأخذ ذلك بالحسبان... إنّ فاطمة أوفقير أقلّ تعرضاً للخطر من رجالك! إنّها وأولادها من أهل القصر، وأصدقاء مقرّبين لجلالته ولعائلته... ولن يكون الغضب الملكي حيالهم كما هو حيالكم أنتم الانقلابيين.

ثمّ وصف لنا حدّو اضطراب العقيد أمقران ليلة إعدامه مع عشرة طيارين آخرين.

- أخبر فاطمة بأنني ذهبتُ إلى الموت وهمّي الوحيد هو أن تغفر لي هي وأولادها.

أكّد حدّو مساندته لنا، وشجّعنا:

- لا تيأسي، يا سيّدتي، إن شاء الله سيأتي يومٌ تُنصَفين فيه! نحن كثيرون مَنْ نريد مساعدتك. سنحاول، على الأقلّ سرّاً، أن نوفّر تغذيةً لائقة لأولادك. حتى الأكثر صرامةً من بيننا لا يفهمون كيف يمكن للمرء أن يعامل صبياناً وصبايا بهذه الطريقة! كثيرون على استعداد للمشاركة في مساعدتكم. الأكثر خوفاً سيغضّون الطرف عن ذلك... ولكن، لنكن حذرين، فنحن لسنا بمنأى عن وشاية واشٍ ما. اطلبي كل ما بوسعي فعله، يا سيّدتي.

شكرته أمّي:

- ابنتي مريم تحتاج إلى أدوية، أرجوك أن تذهب إلى أبي العقيد شنّا، وهو يعرف ما سيفعله... سيسلّمك أقراص الدواء وبعض المال إن ذهبت إليه بورقة مكتوبة منّي.

بعد شهرين من «انقضاض» بن عايش علينا، أقمنا أوّل اتّصالٍ مع الخارج. جاءنا حدّو برسالة من جدّي. وكان ذلك حدثاً هائلاً بالنسبة لنا!

بيدٍ مرتعشة، كتب جدّي: «ابنتي، صغاري، بفضل الله، أخيراً عرفنا أخباراً عنكم! لقد أوهمونا أنّ رؤوف ومريم قد ماتا... لا أجد الكلمات لأعبّر لكم عن مدى قلقي، لا أكفّ عن دقّ الأبواب التي لم توصد أمامي بعد. الأمير مولاي عبد الله هو من الأشخاص النادرين الذين لا يزالون يستقبلونني. لقد سألني مراراً عن أخباركم. وقد ركّز على رؤوف الذي يذكره دائماً على أنّه ابنه. وخلال آخر زيارة قمت بها إلى الأمير، أخبرته بسوء ظروف اعتقالكم، ورويت له بالتفصيل الطريقة التي تُعاملون بها. أجهش الأمير بالبكاء، وخرج منتحباً للحظة، ثمّ جاء محمرّ

العينين، ممتعضاً، لا يخفي تمرّده واشمئزازه، وقال لي: إنني أتألّم، أيها العقيد، هذا لا يقبله عقل، لم أكفّ عن مناشدة أخي ليعود إلى رشده. ليس للأولاد أيّ ذنبٍ في ما حدث. أقسم لك إنني سأفعل كلّ ما يمكنني لأستمرّ في إرسال الكتب واللُّعب إليهم! أنا أعرف... أعرف أن هذا ليس كافياً... وإذا ما اتّصلت، بمعجزةٍ، مرّة أخرى بفاطمة والأولاد، أخبرهم بأنني سوف أواصل التدخل من أجلهم مهما كلّفني ذلك!»

جمع مولاي عبد الله المرافقين والموظفين، وأمرهم:

- فليكن هذا مفهوماً، العقيد شنّا هنا في بيته! إذا طلب مقابلتي، يجب أن يُدخَل دون انتظار، في أيّ وقتٍ كان نهاراً أو ليلاً!

وفى الأمير بوعده، وخرق الحصار المضروب علينا. فقد أرسل مبعوثاً إلى تاماتاغت. ولكنّه طُرِد بقسوة. استشاط الحسن الثاني غضباً لذلك واستدعى شقيقه وأخبره بأنّ ليس له التدخّل في شأنٍ يخصّه وحده. كانت المواجهة بين الرجلين صاخبة، وبقي مولاي عبد الله لثلاثة أيام تحت «الإقامة الجبرية سرّاً». كان الإنذار واضحاً: وتطلّب الأمر كلّ حكمة وفطنة والدتهما، للاّ عبلة، كي لا تحيد علاقة الأخوين نحو القوّة والعنف. ومع ذلك، لم يتخلّ مولاي عبد الله عن الدفاع عنّا، وطالب الأمير، وهو على فراش الموت، بإلحاح شقيقه بأن يطلق سراحنا. وعده الحسن الثاني ولكنّه لم يفِ بوعده.

في تاماتاغت، مضت الأشهر بمزيدٍ من القسوة والإنهاك. أصبحت شبكة رجال الشرطة والمخزنيّين المتعاونين معنا تضمّ خمسة عشرَ عنصراً. وبات تواصلنا مع عائلتنا شبه منتظم، وكذلك إرساليات الأدوية. وظنّ جدّنا أنّه يُطمئننا برسائله:

«يا أولادي، كونوا على يقينٍ من أنني لا أدّخر جهداً لإخراجكم من ذلك المكان. ثقوا بخبرتي، لا يجدي التصادم مع جلالته في شيء... أدقُّ كلّ الأبواب التي يمكنها أن تطلب من الملك العفو عنكم. هذه هي الوسيلة الوحيدة لإنقاذكم.»

وفي إحدى رسائله، أخبرنا كذلك بسعي شاه إيران لدى الملك. كتب إلينا: «طلب شاه إيران من الحسن الثاني أن يسمح له بأخذكم على عاتقه، وأن يوافق على دعوته لكم للانتقال إلى بلاده، ووعد الملك بأن يحيط ذلك بسريّة مطلقة. ولكن الحسن الثاني رفض طلبه بلباقة، تماماً مثلما رفض مبادرة العاهل الأردني حسين الذي حاول الحصول على إطلاق سراحكم بكفالته.» وتابع جدّي: «إنّ سفيرَي إيران والمملكة الهاشمية كانا الوحيدين اللذين استقبلاني من بين الممثّلين الأجانب.»

كما اعتقد أن خلاصنا يمرّ بالسراي الملكي...! وتمنّى أن يصبح تدخّل بعض شخصيات المعارضة ممكناً مع حكومة الاتحاد الوطني التي يسعى الملك إلى تشكيلها. بقيتُ متشكّكاً في ذلك. فبعد انقلابي 1971 و1972 اللذين أضعفا السلطة، اعتقدت المعارضة بأنّه سيكفيها أن توجّه الطعنة الأخيرة للقضاء على الحسن الثاني. وقد حاولت، من خلال خمسة آلاف مغربيٍّ مدرّبٍ في الجزائر، أن تُحدِث انتفاضة شعبية في الثالث من آذار (مارس)، يوم عيد الجلوس على العرش. وشت الجزائر بها. واعترض الملك سبيل مجموعة المعارضين المسلّحين وأُبيد القسم الأعظم منها. أمّا الناجون فقد «حوكِموا» وأُعدِموا. وعانت القبائل والقرى التي ينتمي إليها الثوار من الغضب الملكي. كانت الضربة قاسية بالنسبة لليسار المغربي. وبات باستطاعة الحسن الثاني أن يفاوض من موقع القوّة ويحقّق، بعد عناء، الوحدة الوطنية المقدّسة حول الصحراء الغربية. قبلت المعارضة، وعلى مضض، تجنّباً لانقسامات داخلية خطيرة، أن تشارك في اللعبة، وقد أرغمتها الحرب الوطنية في الصحراء الغربية على أن تعتدل في مواقفها... لم يشأ اليسار المغربي أن يعيد خطأ عام 1963 حيث كان المهدي بن بركة قد ساند الجزائر في اعتدائها على المغرب. فقد فضّل زعيمه الأيديولوجيا على الوطنية وأعطى المبرّر للحسن الثاني ليقضي عليه... حُكِم على المهدي بن بركة بالموت غيابياً. وكان موقف بن بركة إبّان حرب الرمال، وبُعده الثوري العالمي

المتعاظم قد وفّر مبرّرات تحجيم نفوذه. لم تكن القوى الغربية ترتاح لهذا الزعيم الذي كان يهدِّد مصالحها على نحوٍ خطير.

كان ابراهام السرفاتي ومنظمته الثورية السرية، «إلى الأمام»، وحيدَين في رفض الموافقة على ما اعتبراه فخّاً منصوباً من قبل الملك لتحييد معارضته وتحجيم دورها. وانتهت المعارضة، المسحوقة، إلى الرضوخ. أما الذين رفضوا «الانفتاح الملكي» فقد أسكتهم الحسن الثاني. عُذِّب ابراهام السرفاتي وأُلقيَ به في السجن لمدّة ثماني عشرة سنة. واغتيل عمر بن جلّون، الخليفة المرتقب للمهدي بن بركة، ضرباً بقضبان الحديد أمام منزله في الدار البيضاء. ونُسبت الجريمة إلى المتشددين الإسلاميين، جريمة لم تأخذ الأصداء التي أثارتها قضية للمهدي بن بركة. لأنّ اليسار المغربي لم يعترض عليها كما ينبغي، حيث لم يكن كبار قادته مستائين فعلياً وهم يرون اختفاء رجلٍ نزيهٍ وصلبٍ كان يزعج القادة القدماء لتنظيمه القديم في لعبتهم المقامرة المنحرفة مع القصر.

في سنة 1977، تحمّلت المعارضة المصائب بصبر، سعيدة برؤية الحسن الثاني وهو يُغرِق في الرمال قواته المسلحة الملكية، التي لم تكن لتتقاسم السلطة معها فيما لو استولت عليها.

توقّع جدّي بسذاجة أن اللعبة السياسية مواتية للتدخّل لصالحنا لدى الملك. فقد كتب إلينا: «لقد توسّلت إلى محمد بوستة[1] لكي يتوسّط لصالحكم عند الملك. إنني على قناعة بأنّ جلالته لن يستطيع البقاء لامبالياً بصوته. إنّ المفاوضات بين القصر والمعارضة مواتية للتحرك والمبادرة. لن يكون إطلاق سراحكم تنازلاً سياسياً في شيء، وإنّما تبادلاً للخدمات.»

بمرور الأيام، بات العقيد شنّا أقلّ تفاؤلاً: «حينما سألتُ، باكياً، محمد بوستة إن كان بوسعه المساهمة في إنقاذ أحفادي، صرفني بلا

(1) أصبح بوستة رئيساً لحزب الاستقلال بعد وفاة زعيمه التاريخي علال الفاسي.

حياء، قائلاً: أيّها العقيد، مع أنّ والدهم عمل ضدّنا، سأحاول إذا ما سنحت الفرصة أن أقول للملك كلمة بشأنهم. لا أعدك بشيء. . . عليك أن تدرك أن المسألة حسّاسة.»

هذا هو كلّ ما تكرّمت به المعارضة المغربية من مساعدة لنا. وبالانتقال إلى الخارج باتجاه ديمقراطيين أوفياء، لم يمتلك قادته البصيرة والأخلاقية اللازمة للتمييز بين الأب وأبنائه، كما كانوا أقلّ كرماً من أن يدافعوا عن قضيّة لا مصلحة لهم فيها. ماذا يُرتجى من فلسفة كهذه، من مبادئ كهذه، من رجال كهؤلاء؟ سرعان ما نسي رجال المعارضة هؤلاء بأنّهم كانوا متواطئين مع أبي من أجل إسقاط الحسن الثاني، وارتضوا باتّهام أوفقير عوضاً عنهم عارفين تمام المعرفة أنّ الملك هو المسؤول الوحيد عن ذلك. والقمع الوحشي الذي تعرّضوا له بعد 16 آب (أغسطس) 1972 يثبت ذلك. ومع ذلك استمرّت الدعاية الإعلامية في اتّهام أوفقير بكلِّ الشرور والآثام. وإذ لم تستطع المعارضة قطع اليد التي تخنقها، لم تتردّد في أن تغفر لها من خلال التهجّم على رجلٍ ميّت. في الصراع اللدود الذي يواجههما منذ الاستقلال، أمّن الحسن الثاني واليسار المغربي ضمناً لنفسيهما مسبقاً مخرجاً لتجنّب نزاعاتهما القاتلة. إذا صدّقناهم، كان الجنرال هو ملك المغرب، والحسن الثاني مجرد ألعوبة لا تأثير له، تجاوزه اندفاع خادمه القاسي. عاهلٌ عطوف، طيّع، ساذج، ألعوبة لتجاوزات القائد العام لجيشه. وسوف يُكرّر التصوّر ذاته بالنسبة للعقيد الدليمي، خليفة أوفقير، ثمّ بالنسبة لإدريس البصري، وزير الداخلية حتى نهاية عهد الحسن الثاني.

أيّاً كان الحزم والتأثير اللذان كان أوفقير يمارس بهما مهامه، فإنّ أصغر عمل من أعماله كان يخضع خضوعاً أعمى للأوامر الملكية! كانت مسؤوليته الكبرى هي أنّه قبِل بأن يُستَخدَم كدرعٍ واقية لأفعال الملك، دون أن يستطيع حتى التدقيق فيها، وأنّه أصبح العلامة الموضوعة على كلّ تعدّيات العرش! وأنّه التزم الصمت في كلّ مرّة وشيَ به! في حين أنّه كان

يملك الوسائل لنفي التهمة عن نفسه. أعتقد أنّ إثم أبي هو كبرياؤه. لقد انتهى به الأمر إلى أن يعاني لذّة رجولية صغيرة أمام الخوف الجسدي الذي كان يوحي به، أسطورة الوزير الكلّي القدرة العديم الشفقة! ذات يوم سألته بهذا الخصوص:

- لماذا تترك نفسك تتجمّد في هذه الصورة الخاطئة؟ أجابني:

- لأنّه من الأفضل أن يطلقوا اتّهاماتهم ضدّي كي يبقى شخص الملك مهيباً. فليكرهوني قدر ما يريدون شريطة أن يحبّوا الملك!

وإذا كانت وحدها القناعة السياسية للجنرال قد منعت إقامة الشيوعية في شمال أفريقيا، فإنّ اليد الوحيدة التي حكمت حقيقةً وحصراً وفعلياً المغرب، كانت يد الحسن الثاني.

استمرّ وضعنا على حاله. انضمّ عضوٌ أخير إلى لجنة المحسنين التي تساندنا. كان يُدعى حمادي، وهو بربريٌّ من منطقة والدتي، شرع في الاتصال بنا منذ وصوله. قال لنا:

- أريد مساعدتكم تعبّداً لله وخدمةً للعدالة. أنا مستعدٌّ لكلِّ شيء!

أغاظ مصيرنا حمادي وأثار حنقه. رفض رفضاً قاطعاً أن يدفع له جدّي لقاء خدماته لنا. لم يكفّ عن الثوران ضدّ ما كان يصفه شاتماً:

- يوصينا القرآن الكريم بالرفق بالأرملة واليتيم. كيف يمكن لهذا الملك أن يدّعي بأنّه أمير المؤمنين؟ إنّه لمن العار إيداع طفلٍ في الثالثة من عمره السجن! كيف سيمكنه تحمّل هذا الإثم يوم الحساب؟ لن تخرجوا أبداً من هنا. لن يدعكم الملك ترون النور مرّة أخرى. لو كان ينوي ذلك لما عاملكم بهذه الطريقة. استيقظوا وتنبّهوا! ألا ترون أنه قد تمّ تجاوز نقطة اللاعودة؟

كانت نظرته المشوبة ببريقٍ غريب تفيض عاطفةً. سمّيناه مباشرة راسبوتين. كان أحياناً يقلقنا ويتحدّث عن التضحية بكلّ سلسلة المتواطئين معنا إن أوقِف لسوء الحظ.

- على كلٍّ لن تصبح القاضي والحكم في ذلك؟

ردّ عليّ:

- ماذا تظنّ أنّهم سيفعلون بي لو اعتقدوا أنني الوحيد الذي أساعدكم. سوف يسحقونني كبعوضةٍ. انظر كيف يعاملكم الملك، أنتم مَنْ كنتم معه في القمّة! ماذا سيفعل بشخصٍ مسكينٍ مثلي؟ صدّقني لو أنّه قُبِضَ عليّ لسوء الحظّ، فستكون الطريقة الوحيدة لأنجو بجلدي هي تسليم الآخرين. . . يمكنهم أن يقتلوني ببساطة، ولكن إعدام سبعة عشر شخصاً مشاركين في الأمر، لن يمرّ دون أن يُكتَشَف. حتى الحكم علينا خفيةً سينشر أسرار الملك. ولكنّه سيكون قد فات الأوان! سيكون قد عُرِض على الحسن الثاني صورته في المرآة[1]!

صُدِمَ حمادي لرؤيتنا محرومين من اللحم حتى في شهر رمضان المبارك. وبدا الأكثر فاعليةً من بين «ممونينا». وقد أحسّ هو وشرطيان شابان بتعاطفٍ حقيقيٍّ معنا. لقد ذهبوا إلى حدٍّ جعلوني أزور البستان ومرقبهم. ذات ليلةٍ عاصفة، فتحتُ منفذاً في جدار «المطبخ» الآجري. وسط مشهدٍ أشبه بمدينة قُصِفت بالقنابل، شدَدنا على يدِ بعضنا فوق قمّة تلّةٍ من القرميد والحصى. واحتفلنا كجيشين منتصرين بلقائنا الشاقّ. تحيّرنا وسط متاهةٍ من الغرف المتهاوية والسلالم المتكسّرة والأسقف المنهارة والفناءات المشرعة للرياح من جهاتها الأربع بأعمدتها المقطوعة. كان هناك ممرٌّ وحيد للنزول إلى البستان. ممرٌّ ضيّق ومحفوف بالمخاطر على المنحدر المليء بالحصى للمعتقل. حاولنا أن نسلك الدرب غير المأمون الذي رسمته الخطوات السرية للمتعاونين معنا. . . كنتُ سعيداً وحزيناً في آنٍ واحد، سعيداً بشعوري بأحاسيس منسيّة منذ أمدٍ طويل، وحزيناً بتحقيق أحاسيس بسيطة حرمنا سجننا منها. أين يمكنني أن أدفن التمرّد الذي يخنقني؟ إذا لم يكن في اليقين بأنّ هذا هو قدري، وأنّ حياتي على الأقلّ ليست تافهة ومبتذلة. لقد أدركتُ إلى أيّ مدى نحن

(1) هذه العبارة تعني بالعربية العاميّة «إذا عرضت للمذنب ذنوبه، يخجل».

أمواتٌ أحياء! حتى وإن كان هروبي الخفيّ يحدّد رؤيتي للمكان، فإنّ هذه الحياة تصيبني بالدوّار. عدتُ إلى الجُحر الذي نستخدمه مهجعاً. أردتُ أن يستغلّ الآخرون الفرصة المفاجئة لاستنشاق الهواء الطلق ربّما للمرّة الأخيرة. انسلّت مليكة وماريا وسُكَيْنة بين الخرائب، وسرن في رتلٍ خلفي.

لم ننزل إلى البستان. لم يشأ حمادي والشرطيان أن يجازفوا أكثر. وبقينا قابعين في خرائب المعتقل حتى مطلع الفجر برفقتهم. حينما نشرت أولى خيوط الضوء هالتها الشفيفة على القمم الجرداء، زحفنا من فتحة المطبخ لنعود إلى جُحرنا.

في 26 أيلول (سبتمبر) 1976، ازداد وضعنا تراجعاً. فقد ضُبِطَ حمادي متلبّساً وهو يهمّ بالنزول من الخرائب بعد أن سلّمنا إرسالية. أُعطي الإنذار، وفتّش النقيب بوعزّة وفريقه متاع راسبوتين وعثروا فيه على أدلّة دامغة. اعترف حمادي بكلّ شيء، وأوقفت الشبكة كلّها: خمسة عشر شرطياً ومخزنيّان. أرسل القصر المفوّض يوسفي قدور، وهو نفسه الذي «تشدّد في استنطاقنا» بلا كلل غداة 16 آب (أغسطس). رجلٌ بدين، سمج، دقيقٌ للغاية وماكر جدّاً. نصب المحقّقون الذين رافقوه طاولات ووضعوا عليها آلات كاتبة وتسجيل. بدأت الاستجوابات... وطالت كلّ العائلة. كانت طويلة لا تنتهي ومنهكة. لم يتخلّ يوسفي قدور عن عادته، فهو لا يزال يعمل في مفوضية درب مولاي شريف[1]. بعد أربعة أعوام من موت أوفقير، استمر التعذيب وحشياً وقاسياً. ولأنّ الجيش أُدخِلَ إلى

---

(1) مفوضيّة درب مولاي شريف، مركز استجواب وسجن سيّئ الصيت في الدار البيضاء، قُتِل العديد من المعتقلين فيه تحت التعذيب ومَنْ خرج منه، خرج مشوّهاً لسوء ظروف الاعتقال فيه، وقد أُغلِق مؤخراً للتخفّف من عبء صيته السيئ. المترجم

الصحراء الغربية، أصبح الحسن الثاني طليق اليدين في قمع خصومه وترتيب حساباته. وكنّا جزءاً من الحساب.

جاء الماهر في طرح الأسئلة، «مُطلِق الألسنة»[1] في درب مولاي شريف لكي يزيح الستار عن الشبكة التي ساعدتنا. أرسل الديوان الملكي العقيد بن عايش في أعقاب المفوّض يوسفي. وقد وصل الضابط في جهاز SSS، ليُعاقِب. وقد اهتمّ في المقام الأوّل بمعاقبة الذي تجرأوا على تحدّي التعليمات والأوامر الملكية. أوسِع المذنبون لكماً ونُقِلوا إلى الرباط. وسوف يسجنون لمدة عامٍ بلا محاكمة. أرسل يوسفي تقريره إلى وزير الداخلية والذي سلّمه بدوره للملك. أوقِف جدّي واستُجوِبَ لمدّة أسبوع في مقرّات الأمن الوطني في الرباط. وتبيّن أن عناصر CMI والمخزنيّين الذين يحرسوننا غير قادرين على عزلنا. ما أرعب القصر هو أننا استطعنا أن نقيم تواصلاً مع الخارج. وسرعان ما تحقّقوا من أن ذلك التواصل لم يُستَخدَم سوى في الحفاظ على اتّصالٍ مع أسرتنا، وأننا لم نستخدمه للحظة من أجل الاستنجاد بالخارج! واعتقدنا بسذاجة أنّ الملك، قبل أن ينهال علينا، سيأخذ ذلك في الاعتبار. عاد العقيد بن عايش إلى تاماتاغت بعد خمسة أيام من انتقال يوسفي إليها، وأكّد التعليمات والأوامر الجديدة للقصر المتضمنة تهديدات أكثر رعباً. شعر النقيب بوعزّة بأنّه جالسٌ على كرسيٍّ يمكن له في أيّة لحظة أن ينقذف. كانت التعليمات حاسمة، والاحتياطات عديدة للتأكّد من أنّها ستطبّق بصرامة.

أظهر الأمن حول «ضيوف» تاماتاغت ثغرات فاضحة، وسيسدّها القصر نهائياً. عُزِل زمايم، وهو ثالث بوعزّة تتسبّب في إقصائه...

حلّ مساعدٌ أوّل في القوات المساندة محلّه. كان يُدعى بورو، وهو خيارُ بن عايش. وبعكس الذين سبقوه، لم يكن بورو عسكرياً، وإنّما

---

(1) أي مَنْ ينجح في دفع المتّهمين إلى الاعتراف. المترجم

رجلٌ فظّ ارتقى من بين صفوف الوحدات المساعدة لحفظ النظام، المحتَقَرة من قبل الجيش والشرطة. كان لبورو جذع مصارع سومو وساقا فارس سباق، نظرته كابية وحذرة. منذ لقائنا الأوّل به، أدركنا أن بن عايش عقد كل آماله على هذا الجلاّد الجاهل والفظّ والمطيع ليقهرنا ويعاقبنا! معاقبتنا لأننا تجرأنا على الكتابة إلى عائلتنا! وتعذيبنا لأننا نشرنا أخبارنا بعد سنواتٍ من الصمت!

شعرنا بالخطر ماثلاً أمامنا بوضوح. تضرّعنا إلى السماء لتمنحنا القوّة على تحمّل الغضب الذي سينصبّ علينا. أصبح الغذاء أكثر شحّاً. ووجب عليّ أن أحضر يومياً لثلاث مرّات في الباحة الصغيرة ليتأكّد الحراس من وجودي... قاومنا بقدر ما استطعنا سيل الضغوط والحرمان. واعتقدنا، كلاعبين باردي الأعصاب، أنّ هذا هو الثمن العابر الذي يجب دفعه لتهدئة «غضب الآلهة». وكلّ يوم يمرّ هو بمثابة عقاب!

في 11 تموز (يوليو) 1977، أي بعد خمسة أعوام وسبعة أشهر من اختطافنا من الرباط، قرّرنا الشروع بإضرابنا الأوّل عن الطعام. كتبتُ بدمي، وباسم كلّ أفراد عائلتي، رسالةً إلى الملك. تلك الرسالة الشهيرة، التي اشتكينا فيها من أنّنا نُعامل كالشعب اليهودي ونُعذّب فقط بسبب هويّتنا! ولدى تسليم الأسطر الموجّهة إلى العاهل لحرّاسنا، أبلغناهم قرارنا بالتوقّف عن تناول الطعام ما لم نتلقّ جواب القصر. ولن يتحمّل أحدٌ، وإن كان أكثر المتحمّسين من معذّبينا، مسؤولية أن يخفي عن الملك إضراب فاطمة وأولادها عن الطعام. لا أحد من المسؤولين عن وضعنا، مهما كان حقوداً، ومهما تصوّر نفسه مقتدراً، سوف يتحمّل الموت المحتَمل لأحدنا.

إنّها ساعة الحقيقة! حتماً سيُخبَر الحسن الثاني بحركتنا اليائسة، وستتبيّن لنا بدقة نواياه الحقيقية.

توقّفنا عن تناول الطعام. وأرادت حليمة وعاشورا، رفيقتينا في

الشقاء، أن تشاركانا في حركتنا. واستخدمت أمّي كلّ قدرتها على الإقناع لحملهما على تناول الطعام. قالت لهما:

- أريدكما أن تتمتّعا بالقوّة والصحّة للإعتناء بالصغار إذا ما حصل مكروه لي ولأولادي الكبار... الملك متعجرف وعنيد وستكون يده الحديدية قاسية، الأولى بكما أن تبقيا بعيدتين... لقد فعلتما الكثير من أجلنا!

شربنا، ونحن ممدّدون لادّخار طاقتنا، ليترات من الماء، وقضمنا، عند حلول المساء، قطعةً من السكر لئلاّ ننهار تماماً. في الأيام الأولى من الصيام، نهش الجوع أحشاءنا. وبمرور الوقت ضعف الجسم شيئاً فشيئاً، وحدث تعفّفٌ عن الطعام ولامبالاة واضحة. جاءنا طاقم المسؤولين بانتظام لكي يتأكّدوا من أننا لا نخدعهم وأنّ صيامنا ليس ادّعاءً. لم يحرّك القصر ساكناً. وبعد أحد عشر يوماً، أنهينا إضرابنا عن الطعام دون شروط. كانت المدّة كافية لكي يتصرّف الملك ويضع حدّاً للتصعيد ضدّنا. ذُهلنا لتأكّدنا من أنّ موتنا لن يُحزِن الحسن الثاني. أردنا أن نستعيد قوانا لنلعب ورقتنا الأخيرة... جُوْكَرنا!

فقد نجحتُ في إقناعِ والدتي بأنّ نعدّ لعملية هروبٍ. مرّت سنتان وأنا أحاول إقناعها، ودائماً كانت ترفض طلبي:

- إذا ما هربنا، فسنجعلهم محقّين. ليس لنا شيءٌ نُلام عليه. لا أريد المخاطرة بحياة أولادي بإيقاعهم في حلقة مفرغة لا بداية لها ولا نهاية. كونوا شجعاناً، وصبورين مثلما كنتم حتى الآن؛ لا شيء يدوم على حاله، لكلِّ شيءٍ نهاية، عزّاً كان أو محنة! مهما طال الليل، فسينبلج النهار.

بعد ذلك الإضراب عن الطعام، استسلمت أمّي لحقيقة أنّ حياتنا لم تعد تساوي بعد الآن شيئاً بالنسبة لملكٍ ارتبطنا به من خلال الماضي بمشاعر قويّة، وعلاقاتٍ عائلية ووجدانية. وأخيراً، أعطت موافقتها على الفرار. كنّا، مليكة وأنا، الأكثر قدرةً، بحكم خبرتنا، على الاستنجاد

بسفارةٍ أو قنصليةٍ. فتدرّبنا بخطواتٍ حثيثة في الساحة الصغيرة. وقرّرنا الانطلاق بخطّتين لنوسّع من فرص النجاح. الهدف هو الوصول إلى قنصلية مرّاكش، أقرب مدينة فيها تمثيلٌ دبلوماسي. كنتُ أعرف بدقّة أين توجد المَراقِب، وأملك فكرة دقيقة عن المحور الوحيد المتاح للنفاذ من بين عيون شبكة المراقبة. أرادت أمّي أن تتأكّد بنفسها من المكان الذي اخترته للنزول إلى البستان، والوصول إلى النهر والنزول فيه ليجرفني تياره. حدّدنا لها، مليكة وأنا، المكان الذي نريد تنفيذ فكرتنا منه. كانت نافذة تعلو حوالي خمسة عشر متراً عن الأرض، على مستوى حائط شديد الانحدار. وسوف نستعين بحبال نجدلها من أغطيتنا. عندما اكتشفت أمّي الارتفاع، رفضت مطلقاً أن تمنحنا بركتها:

- أريدكم أن تهربوا، لا أن تتحطّموا كفطائر تحت هذا الجرف!

ومع ذلك، عرفت أننا هنا ننتهز الفرصة الأخيرة للدفاع عن أنفسنا وللمقاومة. وأمام غضبي الشديد، حاولت تهدئتنا:

- إذا ما انتحرتم، فسيُسعد هذا بعض الناس... لا تكونوا نافدي الصبر؛ هناك بالتأكيد وسيلة أخرى للوصول إلى الأسفل. ممرٌّ بهذه السريّة نفسها ولكن أقلّ خطراً!

كنّا لا نزال نتجادل حينما وصلت أختي الصغيرة سُكَيْنة لاهثةً. لم نفهم لماذا غادرت مقرّها، فهذا ليس من عادتها.

- هيّا، هيّا! استعجلوا! لقد جاؤوا! لقد سمعتُ بورو ينادي أسماء فريق السخرة! كان يستدعيهم ليعود إلى مقابلتنا!

سألتها أمّي:

- هل أنتِ متأكّدة من ذلك؟

أجابت سُكينة مخنوقة:

- متأكّدة!

عُدنا في عجالةٍ إلى جُحرنا. كان لدينا بالضبط الوقت الكافي لإزالة

بقع التراب والوحل عن أغراضنا، وأن نتظاهر بالخمول والكسل. مرّت ثلاثون ثانية حينما نزل بورو وأتباعه إلى حجراتنا.

- اجمعوا أمتعتكم! سوف تغادرون!

ذُهلنا للخبر. هل هذه النهاية أم بداية النهاية؟ أرادت أجسادنا المنهوكة وأذهاننا المضنية أن تأمل بأننا سنعود إلى بيتنا. مع ذلك، ولأننا أصبحنا سجناء محنّكين، تحسّبنا لمحنةٍ إضافيةٍ. سُرعان ما كُدِّس متاعنا ونُقِلَ إلى الخارج. ولحسن الحظ، كانت حمائمنا كلّها في أقفاصها الورقية. وحده زورو تخلّف، فقد كان لا يزال في نزهةٍ بين الخرائب. خضّ أخي الصغير عبد اللطيف بيأس فتات خبزٍ في كيسٍ ورقي لاستدراجه. استدار بعصبيّة وهو يحوّم بطرف يده ويحرّك الطعم القابل لاستعادة حَمامه المفضّل. فرقع بلسانه وحنكه على أمل أن يسمعه زورو. عيل صبر الحرّاس واعتبروا عبد اللطيف أبله. قال له ضابط:

- هيه! أيّها الصغير! لا تفرط في التفكير، لا يمكنه سماعك من هنا!

ألحّ بورو علينا بالنزول. لا بدّ أنّ العقيد بن عايش ليس بعيداً! في اللحظة التي هممنا فيها بنزول الدرج اللولبي، حطّ زورو بأزيزٍ من ريشه على الكتف الهزيلة لعبد اللطيف. فقبّله أخي الصغير الهادئ، ودسّه في علبة كرتونية مع الطيور الأخرى، وانسلّ من بين أرجل الحرّاس المذهولين. وخرجنا. في الباحة، أمرنا بورو أن نجتمع كلّ ثلاثة معاً. أشار بإصبعه إلى أمّي وأخي الصغير وعاشورا.

- أنتم الآخرون، تقدّموا!

وبحركة واحدة حوّطنا أمّنا:

- لا تمسّوها! ستبقى معنا!

تقدّم المساعد، متهجّماً:

- إنّها الأوامر! تراجعوا، التزموا الهدوء، وكلّ شيء سيمرّ بخير!

أمسكتُ بيد والدتي بشدّة: «لن تذهب إلى أيّ مكانٍ من دوني. إذا أردتم فصلها عنّا، فسيكون عليكم قتلنا!»

شقّ على بورو، وهو محتقن العينين بالدم ومبيضّ الشفتين، أن يتمالك نفسه. انتصرت إرادتنا عليه. نظر إليّ المساعد نظرة متوعدّة، وأبلغني أنّ هذا ليس سوى تأجيلٍ للأمر. تمالك غضبه بصعوبة، وخرج يُعلم رئيسه الذي يقود العملية وعاد بتعليمات وأوامر. بدت عليه الخيبة والمرارة وكأنّه قد فُرِض عليه التراجع عن موقفه. كان يرغب بشدّة في أن يتمسّك بموقفه وينقلنا قسراً. يبدو أنّ معلّميه قد فرضوا عليه هذه المرّة إرادتهم. كانوا يريدون حينها أن يتمّ هذا النقل بسرعة، وسوف يكون لديهم متّسعٌ من الوقت لتصفية حساباتهم مع الضيوف المتمرّدين.

قال لي وهو يكزّ على أسنانه:

- موافق! يمكنك مرافقة أمّك وأخيك الصغير. والآن اخرجوا أنتم الثلاثة.

عانقنا بقية أفراد العائلة قبل أن نتبع بورو إلى الطرف الآخر من الباب الكبير.

الفصل الرابع

بير- جديد

منذ أكثر من سنوات حبسنا الخمس في تاماتاغت، كانت هذه هي المرّة الأولى التي نخرج منها. لم نُطِق النور المبهر لوضح النار، ودوّخَنا الهواء الطلق. وضعنا أيدينا على عيوننا الذابلة لاتّقاء نور الشمس، وتقدّمنا متلاصقين نحو الباب. حينما عبرناه، شاهدنا قافلة من المركبات لونها أخضر داكن. لدى رؤية ذلك الأسطول الكبير من الشاحنات المحمّلة بالقوات، وسيارات الجيب بفوانيسها الدوّارة والعربات المغلقة الكتيمة، تبّخر وهمنا الخاطف اللاشعوري بأن ينتهي هذا الكابوس. لم ندرِ إلى أين سنُنقَل، ولكننا كنّا متأكدين أننا لن نعود إلى بيتنا! مررنا بين صفّين من الرجال المسلّحين لنُدفع إلى عرباتٍ مصفّحة ونحمّل فيها تحت حراب الأسلحة الرشاشة المصوّبة إلى خصورنا. مثل الماشية التي تُقاد إلى الزريبة بين حاجزين خشبيين، دُفعنا نحو مركبات المساجين. كنّا، أمّي وعبد اللطيف وأنا، أوّل مَنْ تجاوزنا «حاجز الشرف» لنصعد إلى مركبة. حين صعدنا إليها، انزلقت البوابة الجانبية وانصفقت ثقيلةً. ومع الضجيج العنيف لمدرجة الكريّات، أغلق مخزنيٌّ بعنف غطاء العلبة علينا فأصبحنا في عتمة دامسة. أمسكتُ بكتف أمّي، وبيدي الأخرى ضممتُ أخي إليّ بقوّة. تائهين في الظلام الدامس، حاولنا أن نعثر على سندٍ لكي نجلس. كدنا أن ننقلب على الحرّاس الجالسين في أطراف العربة، القابعين في العتمة، والذين سيرافقوننا في رحلتنا في تلك الخَزْنات المتنقّلة. تحرّكت

مركبتنا فجأةً، وانحرفت لبضعة أمتار ثمّ توقّفت. تقدّمت، مليئة بحملها، لتدعِ العربة اللاحقة تُحمَّل حصّتها من الضيوف. حُمِّلت مليكة وماريا وسُكَيْنة في عربة واحدة، وتقاسمت مريم وعاشورا وحليمة واحدة أخرى. كان في كلِّ عربةٍ من عرباتنا، أربعة رجال، بحرابهم، صامتين صمت القبور، وصارمين صرامة التماثيل. أجلستُ أخي الصغير على ركبتيّ، واحتضنته جيّداً. وضع خدّه على خدّي. كان ألمي الأشدّ هو أنني عاجزٌ عن حمايته. لم أجرؤ على أن أتخيّل ما يجول في رأسه الصغير! ولن يطول الأمر حتى أعرف ذلك. فقد همس عبد اللطيف في أذني:

- لا أريد أن تكون أمّي حزينة. حتى وإن كان غداً عيد ميلادي[1]. لقد كبرت، ولا أبالي بذلك الآن! إنّه يومٌ كبقيّة الأيام. لا أريد أن تقلقوا وتغضبوا لذلك. شكرتُ العتمة التي أخفتنا. حبستُ دموعي وحاولتُ أن أتمالك صوتي لأُجيبه:

- لا، هذا ليس يوماً كبقية الأيام! فلمناسبة بلوغك الثامنة، كافأنا «أصدقاؤنا» برحلة جميلة... بالغوّاصة!

ضحكنا. في الخارج، كان ضجيج المحركات يغطّي على الأصوات. تحرّك الموكب المهيب.

منذ خمس سنوات ونحن ندفع ثمن الجريمة الوحيدة وهي أننا نُكنّى بأوفقير. ومنذ أن نُفينا، كنّا نأمل في كلّ مناسبة هامّة أن يُقْدِم الملك على مبادرةٍ تجاهنا. بعد خمسة أيام، 3 آذار (مارس) 1977، سيكون عيد الجلوس على العرش، الذكرى السنوية الخامسة عشرة لاعتلاء الحسن الثاني العرش. وظهر أنّ الحِلْم الوحيد الذي تفضّل به جلالته علينا، هو منحنا نزهةً جديدة بعربات المساجين.

كنّا نسير ونحن في عتمة تامّة ولكنني شاهدتُ فُرجةً في الحاجز الذي

(1) 27 شباط (فبراير).

يفصلنا عن السائق. ومن خلال ذلك الثقب الصغير جدّاً، لمحتُ خلسةً رايات صغيرة وشرائط تمجّد الحسن الثاني، وزخرفات وشرائط ملوّنة ومزخرفة تحتفل بعيد العرش... ولكن عندما تثبّت السائق في مقعده، حجب ظهره الثقب الذي حاولت من خلاله التقاط إشارات خاطفة.

تسلّقت العربة مرتفعاً، وجعلت المحركاتُ السريعةُ الدورانِ الحواجزَ بيننا وبين السائق ترتجّ. وتتالت المنعطفات الضيّقة والمتعاقبة. لا شكّ أننا نتسلّق ممرّاً جبلياً. استقام حرّاسنا في جلستهم؛ فقد أمّنت لهم أقدامهم المتباعدة والموضوعة أفقياً جلوساً ثابتاً. كانوا يمسكون ببنادقهم بين أفخاذهم، وأعقابها على الأرض، وهم يتشبّثون بها وكأنّها عصا راعٍ. ويحافظون على أسلحتهم منتصبة وهم يقبضون عليها بشدّة.

يشرع الموكب الآن في النزول، فتتسارع الارتجاجات. أخذ مرافقونا يقيئون. لم يكونوا «محظوظين» مثلنا بمعداتٍ خاوية. لم نأكل شيئاً منذ المساء. كان الجندي الجالس إلى جانبي الأكثر مرضاً. وانغمرت أقدامنا بقيء حرّاسنا، وامتلأت أحذيتنا به. كان المشهد مؤثّراً، ويكاد يكون مضحكاً. ولن أنسى أبداً أخي الصغير الذي سند بندقية طويلة بطوله، أفلتت من جنديٍّ انحنى ليستفرغ ما يطفح به. استعلمتُ عن حالة أمّي، القويّة أبداً، الأبية، رابطة الجأش. قلقنا على بقيّة العائلة، أخواتي، وحليمة وعاشورا، هل سيُفصَلْن عنّا؟ وما جعلني أطمئن هو أنّ مليكة ترافقهنّ. فهي ستساعدهنّ وتخفّف عنهنّ لأنّها تجيد ذلك.

سار الموكب العملاق دون توقّف. أحياناً كنّا نسمع تزميراً قصيراً في مقدّمة الرتل. لا شكّ أنّها سيارة الجيب التي تفتح الطريق. وتواصلت المنعطفات. ليس هناك سوى اتّجاهين ممكنين للانطلاق من ورزازات. إمّا أن نسلك طريق الغرب لنعبر الأطلس الأعلى: وفي هذه الحالة، سيكون علينا عبور ممرّ جبل تيزين تيشكا الذي يبلغ ارتفاعه 2260 متراً، للنزول إلى سهول الغرب الخصيبة، نحو مراكش. وإمّا أن نتّجه إلى

أقصى الشرق على طريق زَكورة عبوراً بوادي درعه: وفي هذه الحالة، سوف نغوص مرّة أخرى في رمال الصحراء! استنتجنا، أمّي وأنا، أنّ صعود مرتفعٍ جبلي والنزول المتعرّج نحو سهلٍ لا يمكن أن يدلّ إلاّ على عبور جبل تِيزين تيشكا. إذاً لا شكّ أننا نتّجه نحو مرّاكش، الطريق الذي أعرفه إذ سبق أن سلكته.

كانت الرائحة الكريهة لا تُطاق. مرّت ساعات ونحن نسير. لم يكن لدينا ماء. والجوّ حار. وأصبح الهواء خانقاً. وجفّت حلوقنا. كانت درجة حرارة صندوق عربتنا لا تختلف كثيراً، ومع ذلك كان أكثر رطوبةً. طنّت أذناي وذلك لا ريب بسبب اختلاف ارتفاعنا. تلاشت المنعطفات. زاد الموكب من سرعته. إذاً نسير في السهل. عَبَرَنا أملٌ خاطف... أيمكن أن تكون مرّاكش محطتنا المقبلة؟ أيمكن أنّهم يقربوننا من المدنية بغية «ترميمنا» قبل إطلاق سراحنا؟

كرّت الساعات. لم نستطع أن نتمالك تبوّلنا أكثر. مرّاكش لا تزال بعيدة، وكذلك أملنا.

عند هبوط الليل، تحوّل الموكب إلى طريقٍ ترابي، ثمّ توقّف في حقل. انزلقت بوّابة العربة، واستنشقنا أخيراً هواءً منعشاً! اصطفّ الرتل على شكل نصف دائرة، وانتشر حوالي ثلاثين جندياً مستطلعين المكان. خرجنا بالتوالي تحت الحراسة المشدّدة لنريح مثاناتنا. لمحتُ مليكة، مصحوبةً بأربعة مخزنيّين، تمشي وتتوارى خلف غطاء أمسك به ضابطا صفٍّ. ارتحتُ لمعرفتي أنّ بقية العائلة لحقت بنا. أرهقني شعوري بالعجز وأذلّني. حقدتُ على الدنيا كلّها لأنّها لامبالية بقدر ما هي ظالمة! كان هناك رجلٌ يذرع جيئةً وذهاباً. يرتدي زيّاً رمادياً غامقاً بأكمله، وبُرنساً صوفياً أسود اللون يغطّي كتفيه وقلنسوةً من الأستراخان، ينفث بعصبيّة من سيجارةٍ مطوّقة بطوقٍ ذهبيٍّ عند عقبها. وكان رتباء يتسمّرون في مكانهم عند مروره بهم. إنّه مسؤول الموكب. ومع أنّه يرتدي اللباس المدني، إلا أنني كشفتُ فيه المظهر العسكري، والثقة العالية لضابطٍ رفيع، والحركات

الحازمة للقيادة. لدى عودتها إلى عربتها، مرّت مليكة على مقربة عدّة أمتار منه. كانت أختي ترتجف برداً، وتشدّ يديها على صدرها المقرور. غطّى الرجل المعتمر للقلنسوة الأستراخانية كتفيها ببرنسه ورافقها إلى العربة. حينما جاء دوري في عبور الحقل، حوّلتُ مساري لأتمكّن من المرور بقرب المسؤول. كانت شاحنةٌ تقوم بمناورة، وكشفت لي أضواء مصابيحها شخصيته. بشرته شاحبة وشارباه رفيعان، وشعره أسود، ويضع نظارات ذات إطار ذهبي. حيّاني بإيماءةٍ من رأسه. إنّه العقيد العلمي، قائد القوات المساعدة في منطقة الجنوب[1]. البادرة الحسنة التي بدرت منه تجاه أختي جعلتني أقرّر الاقتراب منه:

- هل لديك سيجارة من فضلك؟

تمتم:

- طبعاً، طبعاً.

مدّ لي العقيد علبة سجائره وأشعل قدّاحته. بدا عليه الضيق. استغللتُ ذلك لأطلب منه ماءً. فقال لي:

- ماذا؟ أليس لديكم ماء؟

حينما أخبرته بأننا لم نشرب ولم نأكل منذ العشيّة، تعجّب الضابط.

- عجباً! ولكن... ولكن... هذا غير ممكن!

استدار العقيد، واستدعى بورو ووبّخه بشدّة:

- ما معنى هذا؟ لماذا لم تتحسّبوا لما هو ضروري؟

حينما سكت رئيسه، همس بورو بشيءٍ ما في أذنه. وابتعد الرجلان. سمعتُ نبرة العقيد تتغيّر، فقال مرتبكاً:

- حسناً، حسناً، اعطوهم على الأقل ماءً. لا تزال الرحلة طويلة.

---

(1) كانت القيادة العليا للقوات المساندة مقسّمة إلى منطقتين: المنطقة الجنوبية والمنطقة الشمالية للمملكة.

أنا أتحمّل مسؤولية ذلك. سنقول إن هذا تدبير أمني، لكي لا يُصاب أحدهم بالتجفّف ولا يواجه مشكلة من جراء ذلك.

لم يتغيّر النظام في شيء: مجرّد مساعد يخالف عقيداً مذكّراً إيّاه بالأوامر التي تلقّاها وحده من القصر...

استعدّت القافلة لمعاودة الانطلاق. وأعطاني العقيد العلمي رزمة من علب السجائر. كنا نجهل إلى أين نذهب. نام أخي الصغير بين ذراعيّ. كان الوقت منتصف الليل. قبّلتُ الجبين المحموم لعبد اللطيف، ورغم أنّه لم يكن يسمعني، همست:

- عيد ميلادٍ سعيد، يا كبيري.

أخفيتُ هديّةً كانت أخواته قد أوصينني أنْ أقدّمها له حينما تحين لحظة عيد ميلاده؛ كانت عبارة عن مندرينة. مندرينة من الورق وضعنا فيها أربع قطع من السكّر. غفت أمّي على كتفي، فقد حطّم التعب عظامنا. لم نعد نشعر بالزمن. ازدادت الرطوبة، وتكثّف الهواء. حافظنا على الاتّجاه نحو الغرب، باتّجاه السهول الأطلسية. نحو المدن الكبرى! ما دمنا نتّجه نحو المناطق المأهولة، نحو المدنية، فلن نفقد الأمل تماماً. اقتنعنا بأنّ واقع خروجنا من الصحراء، ومهما حصل، يُعدّ تحسّناً في وضعنا.

إنّها الساعة الثانية صباحاً. لقد مرّت اثنتا عشرة ساعة ونحن نسافر محبوسين في «عرباتنا البهيمية». وفي كلِّ مرّةٍ نُنقَل فيها، يزحف موكبنا المحروس بشدّة لساعاتٍ وساعات في طرقٍ ضيّقةٍ ودروبٍ فرعية ومسالك محفّرة. مع احتمال مضاعفة الوقت لثلاثة أضعاف لبلوغ المكان المقصود، يحيط المكلّفون بنقلنا أنفسهم بأقصى درجات الحيطة والحذر. إذ يروق لمعذّبينا رؤيتنا نتعرّض لضغوطات هذه الحملات المضنية.

بدأ المطر يهطل. سمعنا قطراته تنقر سقف العربة وجنباتها. تباطأ

الموكب. وانحرفنا من جديد نحو طريقٍ ترابي. تمايلت عرباتنا وتعثّرت في الوحول. لهثت محرّكاتها وتزحلقت عجلاتها. وكلّما عبرنا مستنقعاً صغيراً، بركةً، كانت أمواجٌ تضرب على جنبات المركبة. شعرتُ أحياناً أننا نسبح أكثر من أننا نسير. ارتجّت العربة وهدرت الآلة. وخرج «صندوقنا» بصعوبة عند كلّ عبور. اشتدّ هطول المطر، ودوّت العاصفة. لم أستطع منع نفسي من أن أرى في ذلك غضباً من السماء. أصبح سير الموكب شاقّاً. علقت المركبات في الوحول، وتوقّف الرتل. لمحتُ السيل الشفاف لمجرى مائيٍّ. لم يكن نهراً ولكن يبدو أنّ شدّة تدفّقه أوقف قطارنا التأديبي. كانت هناك أصوات مرتفعة في الخارج، وسمعتُ حركة مستمرّة. جاء جنودٌ بشاحنات لجرّ مركباتنا العالقة في الوحل. سمعنا أصوات تحسّس أياديهم الباحثة عن ممسكٍ على هيكل المركبة، وحشرجة جهودهم اليائسة. صرخ العقيد العلمي:

- العربات ثقيلة جدّاً، ولن تعبر النهر أبداً! أخرجوا الضيوف! لم يبقَ أمامنا سوى حوالي عشرة كيلومترات. سنكملها بسيارة الجيب... يمكن لشاحنات الجند أن تمرّ! فلتلحق بنا! نفّذوا الأمر!

بلغت العاصفة أوجها. أُخرجنا من غُرفنا المنيعة... انغرست أرجلنا في الوحل حتى منتصف ربلة الساق. التصقت ملابسنا، باليةً، مبلّلة، بجلدنا، وارتعشت أجسادنا من البرد ومن التعب. أُحيط كلٌّ منّا بجنديين أمسكا بذراعينا. نُقلنا بسرعة إلى جانب سيارات الجيب... رفرفت أغطيتها، مع أنّها خفيضة، بالهواء. كانت هناك فجوات فاغرة عند الستار السميك المرصوص إلى أقواسٍ معدنيةٍ صغيرة، أتاحت لي رؤية تقريبية لمسار سيرنا. أخيراً عبرنا المجرى المائي الذي جعله المطر أكثر خطورةً. عوّدنا اعتقالنا على العتمة، فارتاح نظري لليل الشفّاف. مسحت فوانيس خمس عشرة مركبة المشهد الطبيعي. سرنا في أعماق منطقة زراعية. كانت متاهة من الدروب الترابية تتقاطع وتتلاقى إلى ما لا نهاية. وكانت المساحات المزروعة شاسعة. لا شكّ أنّ دروب العبور هذه تقود إلى

مزارع نائية. بعد خمس سنوات أمضيناها بين الرمال، على المرتفعات الجرداء المقابلة لجبال الأطلس، كيف لي أن أردّ، هنا، الإحساس الذي يغمرني برؤية هذه المساحات الطافحة بالحياة والحريّة؟ لا يمكنني أن أفسّر هنا لماذا راود ذهني هذا البيت الشعري للشاعر شارل بيغي: ها هو الغطاء الثقيل والتموّج العميق وأوقيانوس القمح...

أفقدتنا السنوات التي انقضت في يباب الصحراء، في المناخ الجاف لجبال تاماتاغت، الاعتياد على الرطوبة. وباغتت نداوة الهواء والروائح الفوّاحة للأرض المنبسطة حواسنا. كنّا قد نسينا الأحاسيس الأكثر بساطةً. الأحاسيس التي تعرفها حتّى الكلاب الشاردة.

كانت الساعة الثانية والنصف حينما لاحت أنوارٌ من بعيد. أمسك الضابط الجالس إلى جانب السائق بجهازه اللاسلكي النقّال. سبق صريرٌ قصير صوتاً متقطّعاً:

- لقد وصلنا. رصّوا الصفوف. قلّلوا المسافة بين المركبات!

- تلقيتُ الأمر كاملاً!

أبقى الضابط على جهازه PP[1] في يده، وفكّ خلسةً غمد المسدس الآلي الذي كان يحمله على وركه. ورفع المخزنيّون صمام أمان بنادقهم الرشّاشة.

واصلنا المسير. توقّف هطول المطر. جرت الغيوم كخرافٍ مذعورة. وشاهدتُ مجموعات من النجوم عبر الشقوق المتواسعة في السماء. رأيتُ الأنوار بشكلٍ أوضح. شعرتُ وكأننا نقترب من محطّة لتوليد الكهرباء. تقع تلك المباني المنارة والمسيّجة بالأسلاك المعدنية في أرضٍ مكشوفة. دلفنا إلى طريقٍ ترابي يصل إلى مكان إقامتنا الجديد، واكتشفنا، مذهولين، نسخة مطابقة تماماً لأحد معسكرات الموت النازية. فيه أسلاك شائكة ومَراقِب وأسلحة رشّاشة وأضواء كاشفة. تذمّرنا لكوننا،

---

(1) جهاز محمول للبث والإرسال.

مثل اليهود، نُضطهَد فقط بسبب هويّتنا. . . الظاهر أنّ القصر قد تولّى أمرنا مباشرةً.

كانت عدّة هكتارات من الآراضي البائرة المستصلَحة تحيط بالمعسكر. وتعزل شبكة من السياج والأسلاك الشائكة سجننا. عبرنا بوابته المصفّحة، المفصولة عن المدخل بحاجز. كانت أكياس من الرمل تغطي المحارس العالية التي تحميه. عبر الموكب شبكة المدخل ودلف إلى الممرّ المركزي. اصطفّت شاحنات الجنود التي تفصل بين سيارات الجيب التي تقلّنا على الممرّ الجانبي لتفسح الطريق لعبور مركباتنا. نزلنا. وصوّب صفّان من المخزنيّين حرابهم نحونا. اندفعنا لنتعانق فرحين ببقائنا معاً، ولكنّ ضباطاً تدخّلوا بيننا لمنعنا من الالتقاء ببعضنا. غير أن ذلك لم يجدِ في شيء، فرغم بعدنا عن بعضنا تبادلنا القبلات بإشارات من أيادينا. وكانت بضع كلمات من أمّي كافية لإسكاتنا.

- ابقوا أباة، يا أولادا سيكون لنا كلّ الوقت للعناق وتبادل القبل.

تقدّم العقيد العلمي، مرتاحاً لعدم تدخّله في الانفعال الذي اجتاح خدودنا. اُقتِدنا، في رتلٍ، أمام بابٍ حديديٍّ عالٍ مدهونٍ باللون الرمادي القاتم. كان مرأباً ينفتح بابه الآخر، الأصغر، على إفريز واحدٍ. كانت تلك الحجرة غرفة انتظار «الضيوف». شاهدنا باحةً مزروعة بتسع أشجار تين، مظهرها غريب، فجذوعها رفيعة جدّاً، وطويلة، وأغصانها قصيرة جدّاً، جرداء، وكأنها أوتادٌ صناعية كبيرة.

شكّلت أشجار التين الميّبسة ثلاثة صفوف متباعدة تماماً، يشبه تراصفها على نحوٍ غريبٍ تراصف القبور في مقبرة. . . ولسخرية القدر، كنّا تسعة. . . وقد علمنا فيما بعد بأنّها فعلاً قد تكون مقبرتنا. فغالباً ما كان بورو يردّد على مسامعنا:

- سندفن أوّلَ مَنْ يموت في الباحة.

لدى دخولنا إلى ذلك المقرّ المحصّن أمنياً، بدت لي السماء أكثر

ضيقاً. تحيط جدران ضخمة، بعلو ستة أمتار، تنتهي بمسنّنات وبلفائف شائكة، بتلك الفسحة الغريبة. كان مبنى على شكل حرف L ينتصب وسط ذلك السور الاسمنتي المحكم. وتطلّ ستّة محارس، مسلّحة بالرشاشات وبكاشفات الضوء الدوّارة، من ارتفاع ثمانية أمتار على كلّ المكان وتغطّيه. يصل إليها الحرّاس بواسطة سلالم معدنية من الجانب الآخر من السور. شعرتُ وكأنني أدخل إلى حلبة مصارعة.

تقع زنزاناتنا في البناء الذي على شكل حرف L. زنزانة أمّي وعبد اللطيف في أوّل المبنى: حُجرة مع عليّة صغيرة يتمّ الوصول إليها بكرسيٍّ خشبي. وزنزانة شقيقاتي الأربع هي ثلاث حجرات صغيرة متّصلة ببعضها تشكّل مرفق المبنى. تليها زنزانة حليمة وعاشورا. أمّا حبسي فهو في نهاية المبنى. كانت جدران الزنزانات جميعها مسدودة لا نوافذ فيها، وسقوفها خفيضة لا تتجاوز المترين، وأبوابها مصفّحة ومغلقة، ليس فيها أيّة فتحة. وللانتقال من حبسٍ إلى آخر، لا بدّ من المرور في الباحة، تحت مراقبة المحارس التي يتناوب عليها الحرّاس ليلاً ونهاراً.

ومنذ ذلك الحين، باتت القوات المساعدة وحدها مكلّفة بالمهمّة. قوامها مئة وثمانون مخزنيّاً يتناوبون شهرياً لعزل «الغولاغ» خاصّتنا عن العالم. فقد راقبتِ ثلاث فرق، قوام كلّ واحدة منها حوالي ستين رجلاً، «الضيوف»... وأُبعِد رجال الشرطة والعسكريون عن المهمّة. الأوّلون لمساعدتهم لنا، والآخرون لكونهم متردّدين كثيراً!

في 27 شباط (فبراير) 1977، اكتشفنا مأوى المحتضرين الذي سنقاوم فيه لعشر سنواتٍ قادمة. ولم نعرف بدقّة المكان الذي نحن فيه. ولم نعلم إلاّ في عام 1987 بأنّ هذا المعسكر المرضيّ يوجد في ناحية تُسمّى بير-جديد (أي «البئر الجديد»...) تقع على بعد حوالي خمسين كيلومتراً جنوب الدار البيضاء.

آنذاك، لم يكن بوسعنا سوى بناء استنتاجات. فالرطوبة كانت مرتفعة جدّاً، وغير اعتيادية بالنسبة لنا، إلى درجة أنّها غدت مزعجة وصعبة

الاحتمال، حيث جعلها القربُ من المحيط الأطلسي لزجة ودبقة. وحينما يغطّي الضباب العمارة الكئيبة لمعسكرنا، يجعلها تبدو أكثر كآبةً.

أثناء وصولنا إلى المزرعة المحصّنة، تم جمعنا في وسط الباحة، فقدّم كلٌّ منّا تهانيه لعبد اللطيف متمنياً له عيد ميلادٍ سعيداً. . . وعلّقنا على حملة الاثنتي عشرة ساعة وتجادلنا حول الحرّاس الأكثر إثارة للاشمئزاز. كانت الفكاهة والسخرية عوّامتين نتشبّث بهما وسط المحنة. فالضحك واجبٌ على المعتَقَل الذي يريد البقاء حيّاً. انشغل أخي الصغير بحمائمه أكثر مما انشغل بنفسه. فقد قرفص أمام الصندوق الكرتوني الذي يحبسهم، ومسّد بتلهّف ريش زورو وعصابته. انتظرنا وسط ذلك المشهد المرعب. ملأ الصخب المصمّ لمولّدة كهربائية المكان، فاهتزّت الأسيجة وقسّمت الكاشفات بنورها الساطع المعسكر إلى أربعة أقسام. في أسّا وفي تاماتاغت لم يكن لدينا لا ماء جار ولا كهرباء. لدى وصولنا إلى بير_جديد، اعتقدنا، لسذاجتنا، بأنّنا سنحظى بالوسائل الأولية للرفاهية التي حُرمنا منها حتى الآن. ولكننا أخطأنا. وعلى غرار حالنا في الصحراء والجبل، لن نحظى هنا بـ«معجزة» الكهرباء ولا بأدنى الأدوات الصحيّة. فالمولّدة الكهربائية لا تُستَخدَم إلاّ لحرّاسنا. ولن يكون من حقّنا التمتّع سوى بساعة واحدة من الإضاءة. من الساعة الثامنة وحتى التاسعة مساءً. وفيما تبقّى من الوقت، كنّا نتعفّن في عتمة ورطوبة حُفَرِنا. انتظرنا، منهَكين، مرتعشين، ومحاطين بالمخزنيّين المسلّحين، بقية البرنامج. وصل بورو، متبوعاً بضابطين وأربعة جنود. طبعاً كان يمسك بحزمة ثقيلةٍ من المفاتيح. أقبلت المجموعة مباشرةً نحوي:

- اتبعنا!

فصرخت أمّي:

- إلى أين تقتادونه؟

لم يُجبها بورو. لم ينسَ بعدُ التنكيد البسيط أثناء مغادرتنا تاماتاغت.

وابتهج بأن يردّد عليّ:

- هيّا، اتبعني، ليس لديك ما تخشاه.

لم أستسغ ذلك الرجل وأساليبه وتهديداته وما يضمره. قلتُ له:

- أنت مَنْ ليس لديك ما تخشاه مع كلّ هؤلاء المخزنيّين الذين يحمونك.

رمقني بورو مع تكشيرة انتقامية. كانت الرسالة واضحة وبدت أنّها موجّهة إليّ: «لن تخسر شيئاً بانتظارك!»

تكتّلت العائلة، واعترضت أمّي وشقيقاتي وحليمة وعاشورا. وذهب عبد اللطيف إلى حدّ الإمساك بالساق الغليظة لبورو. لم أستطع، وأنا فخورٌ بشجاعة أهلي وبتضامننا، أن أكبح كبريائي الجريح. ابتسم المساعد مزدرياً. لم أحتمل أن يتصوّر بورو أنني بحاجةٍ إلى فتيات وصبيٍّ صغير لأدافع عن نفسي. كنتُ مقتنعاً بأنّ جلاّدينا يحسبون كلّ خطوةٍ في حربهم النفسية التي يشنّونها علينا. قد يضني يأسي قلبي، ولكنه لن ينال من صلابة عزيمتي . فبقدر ما يسير المرء عالي الجبين، يبقى مرفوع الرأس! إنّه الاحترام الواجب على الإنسان لنفسه أوّلاً، ولعذابه وألمه تالياً.

خاطبت أمّي بورو:

- أريد التحدّث إلى العقيد!

فسألها حارسنا الأوّل بادي الحيرة:

- كيف عرفتِ أنّه عقيد؟ كيف يمكنكِ أن تكوني واثقة من ذلك إلى هذا الحدّ؟

لم أُطق اللهجة التي تكلّم بها مع فاطمة وأجبته:

- وأنا واثقٌ من أنّك جندي!

صعقني بورو بنظرة. شعّت الكهرباء في المكان، وانفتح الباب المصفّح للحجرة المظلمة، وظهر العقيد العلمي في نهاية الممرّ. استدرك بورو عدوانيته. وذهبت أمّي لمواجهة الضابط الرفيع:

- أيّها العقيد. . . إلى أين يريدون اقتياد ابني؟

كان العلمي من أولئك الضباط المهذّبين الذين يرفعون غطاء رأسهم أمام سيّدة، فرفع قبّعته الأستراخان وثناها بعصبية بين يديه الشاحبتين النظيفتين:

- أنا حزينٌ، يا سيّدتي، أنا عسكريٌّ أنفّذ الأوامر. كانت مهمّتي أن أنقلكم إلى هذا المكان، ما تبقّى ليس من اختصاصي، لسوء الحظ. ثقي تماماً، يا سيّدتي، لو أنّ الأمر يتعلّق بي وحدي، لكنتم، أنتِ وأولادك، منذ هذا المساء، في بيتكم بين أهلكم!

تلقّى بورو الأمر بحبسي في زنزانتي ليلاً. لم يُسمَح لي برؤية أهلي إلاّ في النهار. كان العقيد العلمي، الذي اكتشف على ما يبدو تلك الإجراءات في الوقت نفسه الذي اكتشفناها، متضايقاً إن لم نقل خجلاً.

- أيّها العقيد. . . أتوسّل إليك أن تبلغ القصر بأن يصلبني إن كان هذا يريحه، ولكن فليعفِ عن أولادي!

لم يعرف العلمي ماذا يقول. وقبل أن يغادر، طمأننا:

- على كلٍّ، لا يمكن لوضعٍ كهذا أن يدوم! لا بدّ للرشاد أن ينتصر. تجلّدوا وكان الله في عونكم.

وبالفعل، كنّا بحاجة إلى السماء لنتحمّل ما ينتظرنا.

انصرف العقيد. ولن نراه بعد ذلك أبداً. قضيت ليلتي الأولى في عزلة زنزانة.

في اليوم التالي، 28 شباط (فبراير) 1977، الساعة العاشرة صباحاً، سُمِح لي بالانضمام إلى عائلتي. التقينا بعد ليلتنا الأولى في بير-جديد. كان هذا «البئر الجديد» السجن الأكثر رعباً على الإطلاق من بين السجون التي عرفناها.

روت لنا أمّي الرؤيا الغريبة التي حلمت بها:

- حلمتُ بأنني كنتُ أتنزّه تحت أشجار التين في هذه الباحة بصحبة الحبيب بورقيبة. سألته: «أخبرني ياحبيب كم من الوقت سنقضي أولادي

وأنا في هذا السجن الجديد؟» فأجابني: «آه! يا فاطمتي المسكينة، سيكون ذلك طويلاً. لن تخرجوا من هنا إلاّ بعد عشر سنوات.»

حاولت أمّي أن تدوّر الزوايا:

- وبما أننا أمضينا خمس سنوات من الاعتقال، بقيت خمس سنوات على إطلاق سراحنا...

كان حلم أمّي نذير شؤم. ولكن في روايته الأولى. وبالفعل سنقضي عشر سنوات في بير-جديد.

لطالما أُعجِبَت والدتي، التي عرفت الرئيس التونسي وزوجته وسيلة، بالحبيب بورقيبة بسبب الحرية التي منحها للنساء التونسيات. كنّا قد استمعنا، قبل ثلاث سنوات، إلى «المناضل العظيم» وهو يشرح، خلال برنامج جاك شانسيل[1] Radioscopie، كيف تجاوز السنوات السبع من الاعتقال الذي فرضته فرنسا عليه. أخبره بورقيبة: «النصيحة الوحيدة التي أسديها لمَنْ قد يتعرّض للوضع نفسه، هي أن يمرّن ساقيه. لقد قمتُ بنفسي، في زنزانتي، بجولةٍ حول العالم لعدّة مرّات. هذه هي الوسيلة الوحيدة للصمود والتماسك!»

كنّا حينذاك بمنأى عن التفكير أنّنا سنعرف نظاماً تأديبياً إقصائيّاً إلى هذه الدرجة! استخدم الحبيب بورقيبة، في ذلك البرنامج، عبارة لطالما استخدمناها فيما بعد: «سيّد شانسيل، حينما لا يكون المرء قد سُجِن ليومٍ واحدٍ، كيف يسمح لنفسه أن ينتقد مَنْ قضوا في السجن سنوات عديدةً للدفاع عن قناعاتهم؟» فكلّما أردنا التعبير عن عدم اكتراثنا بمَنْ تهجّم علينا وعلى اسمنا بعنف، نخلص إلى القول:

- ليس لهذا أيّة أهمية لأنّه صادر عن أشخاص لم يُسجَنوا ليومٍ واحد!

---

(1) صحافي وكاتب فرنسي، اسمه الحقيقي جوزف كرامب، قدّم الآلاف من البرامج على France-Inter. وهو صاحب برنامج Radioscopie الذي استضاف فيه العديد من الشخصيات الرفيعة. المترجم

انقضت الأسابيع الأولى في بير-جديد كيفما كان. وكان لنا الحقّ في أن نجتمع معاً من الساعة العاشرة وحتى الساعة السادسة مساءً. بقيت أبواب الزنازين مفتوحة، واستطعنا أن نستفيد من الباحة. لم تبارحنا أنظار الحرّاس الجاثمين على المحارس الستّة للحظة واحدة. عرّضنا أنفسنا للشمس واستفضنا في الحديث عن التقلّبات الجديدة لوضعنا. تساءلنا حول تناقضٍ: «لقد أُعدًّ هذا المعسكر الكريه والمرعب خصّيصاً لنا، ولكن لا يسمحون لنا برؤية السماء... والطعام رديء وغير كافٍ، ولكنّهم لا يسمحون لنا أن نتقاسم هذا الزاد الزهيد...»

أردنا مرّة أخرى أن نصدّق بأنّ هناك علامات مبشّرة بإطلاقنا الوشيك.

كانت مسألةٌ واحدة تشغل بالنا: «أين نحن؟ ماذا يُدعى هذا المكان الملعون؟» لكثرة مرور الطائرات في السماء، استنتجنا أننا بين الرباط والدار البيضاء، حيث يوجد فيهما المطاران الوحيدان في المملكة القادران على استيعاب عدد كهذا من الطائرات. على أبواب العالم الحيّ، بدا لنا إخفاؤنا مضنياً وجهنّمياً أكثر من ذي قبل. كانت كلّ طائرة تعبر الأجواء من فوقنا عذاباً إضافياً لنا. وكلّما أسمع من قاع زنزانتي الهدير البعيد للطائرات النفّاثة، يعتصر قلبي ألماً. كانت الطائرات تمرّ أحياناً، وخاصّة في الليل، على ارتفاعٍ منخفضٍ جدّاً بحيث تهتزّ الضفيرة المعدنية التي تزيّن معسكرنا؛ ويرتجّ فولاذ الأبواب. «ولا يعرف المسافرون قيمة أن يسافروا وأن يروا العالم وأن يكونوا أحراراً!»

في 12 نيسان (أبريل) 1977، بعد أربعة عشر يوماً من وصولنا إلى بير-جديد، تخلّصنا نهائياً من سذاجتنا. وثب بورو وزمرته إلى باحتنا وهم ينبحون ويصرخون. كُدِّسنا جميعاً في الزنزانة المحصورة أكثر من غيرها، زنزانتي، وحُبِسَت أمّي في زنزانتها. لم يكفّ عبد اللطيف عن سؤالنا:

- ماذا سيفعلون بأمّي؟ لماذا فصلوها عنّا؟

طمأنته:

- لا تقلق، يريدون فقط التحدّث إليها. هناك بالتأكيد شخصية مهمّة تريد الحديث إليها على انفراد.

ابتهج أخي:

- إذاً سنخرج! هل سنعود إلى بيتنا؟

وضعت مليكة يدها على رأسه لطمأنته. ساد صمتٌ ثقيل. لم يتجرأ أحد على الإجابة عن سؤال الصغير. ولكسر القلق والضيق، جثت سُكَينة وأخذت بيد أخيها الصغير، وأرادت أن تسلّيه:

- هيّا نلعب. اجلس.

أخرجت من جيبها دميتين اشتغلتهما بمهارة فائقة. وقد سرقت الشخصيتان الطافحتان بالبساطة قلق عبد اللطيف مؤقتاً. جلس منزوياً بنفسه، سعيداً، في عالمه الطفولي. كان سحر اللعب كافياً لإقامة جدارٍ بين هذا الصبيّ الصغير وأسوأ الوقائع البشرية. وقد أظهر لي ذلك الصبي وهو يلعب على بلاطات سجنٍ إلى أيّة درجة يمكن للكائنات العزلاء أن تحوّل فجأةً ضعفها إلى قوّة لا يمكن قهرها.

ماذا حلّ بأمّنا؟

في الخارج، انهمك بورو ومعاونوه في حملة تفتيشٍ دقيقة للأمكنة، مغايرة لأساليب النقيب بوعزّة «زمايم» المتردّدة. فُحِصَت الأرضيات والجدران بضربات أعقاب البنادق. كان الغرض من إطالة وقت التفتيش وإثارة الضجيج وإخفاء والدتنا التأثير علينا وإخافتنا وإقلاقنا. وإذ سادت غريزة البقاء، قلقنا على لوحة المذياع التي أودعتها لدى أميّ والتي تحملها معها ليل نهار. بعد بضع ساعات من الانتظار، انفتح باب الزنزانة، وطلب بورو منّا الخروج، ما عداي... لأنّ الساعة كانت قد تجاوزت السادسة مساءً، حُبِستُ في زنزانتي. إنّها الأوامر! وأوت بقية العائلة إلى زنازينها. وانضمّ عبد اللطيف إلى أمّي. دارت المفاتيح في الأقفال. وصفقت الأقفال على مغاليق أقفاصنا. وابتعد صرير الحرّاس على الممرّ. سمعنا الضجيج المكبوت لباب حجرة الانتظار، الذي أُعيد

إغلاقه، من الباحة. وخيّم الصمتُ من جديد على المربّع الملعون.

أبرِق تقريرٌ مفصّل إلى الرباط. قُدِّمَت فيه تفاصيل العملية. وتلقّاه العقيد بن عايش فوراً على مكتبه في الديوان الملكي. ونقله إلى الجنرال مولاي حفيظ العلوي. حينما يُعطي الملك الأوامر، يُريد أن يتحقّق منها بنفسه، ولاسيما حينما يتعلّق الأمر بحديقته السريّة التي يودّ أن يُعنى بها شخصياً...

مرّت الشهور. وتواصل الانحدار إلى مهاوي الجحيم. ورغم تفاقم حالة الحرمان، ازداد تعطّشنا إلى إخفاء بعض المؤن الزهيدة. كانت تلك المدّخرات تطمئننا. تمنحنا اليقين الزائف بأننا ما زلنا نستطيع التغلّب على معذّبينا. وتولّت مليكة الإشراف على هذه الإدارة الدقيقة بطريقة مثالية. وحرمت حليمة وعاشورا نفسيهما بدون علمنا لكي تقدّما لنا حصتيهما من الطعام. هذا القدر من السخاء وسط الحرمان وهذا القدر من الإخلاص وسط الشدائد عزّز إكبارنا لهما وطبع في داخلنا عرفاناً أبدياً لهما بالجميل.

في الباحة، قضينا ساعات في صياغة فرضيات، وفي إعداد خطط للدفاع.

ذات يوم، قطع عبد اللطيف، الذي اعتقدنا بأنّه لا يُدرك أحاديثنا، ألعابه مع حمائمه وتدخّل في الحديث:

– لماذا تسعون إلى توقّع ما سيفعلون بنا؟ لا يمكن معرفة ما يدور في رأس الناس المعتوهين. إنّ الذين أتوا بنا إلى هنا مجانين!

واستأنف أخي الصغير، هادئ الأعصاب، تساليه. غيّرنا موضوع نقاشنا. ومع أن الطريق كان مسدوداً أمام مستقبلنا، فقد ابتكرنا لأنفسنا مستقبلاً موهوماً ومصيراً خيالياً. تارةً ربّينا ماعزاً في لارزاك[1]، وأخرى أصبحنا مزارعين في كندا، نعيش في مزرعة كبيرة لتربية الحيوانات دون

---

(1) منطقة في جنوب فرنسا. المترجم

أن ننفصل بعضنا عن بعض أبداً. كما سافرنا نجوب العالم بصحبة أصدقاء مختارين بدقّة. وهذينا بالطعام الذي حُرِمنا منه بقسوة. وصف كلٌّ منّا بمغالاة، ولساعات، الألف طبق وطبق من الطعام الذي ينوي التهامه إذا ما خرجنا يوماً من هذا المكان! سبّب هذا الفيض من الأطعمة الوهمية المزيد من الويلات لمعداتنا ولكنّ أرواحنا استمدّت منها لذّة مازوخية.

تعاظم تضامننا وتقاربنا بمرّ المحن. إحدى أكبر فضائل المصيبة، هي توثيق عُرى العلاقات بين مَنْ يتقاسمونها.

عشية عيد ميلاد الحسن الثاني، في 19 تموز (يوليو) 1977، تذكّرنا حكاية سجين الحقّ العام الذي عفا عنه العاهل. رسم الرجل صورةً للملك. وأُعفي عن «الرسّام- السجين» المحكوم بالمؤبّد لقتله زوجته بالبلطة. فقرّرنا أن نستخدم ما تبقّى لنا من أوراق لرسم صورة الملك وعائلته. وطلبنا من بورو إرسالها. وأرفقنا بها رسالةً موجّهة إلى الحسن الثاني، راجين أن يضع الملك بمناسبة بلوغه الثامنة والأربعين نهايةً لآلامنا. مرّت خمس سنوات ونصف ونحن نعاني من الاعتقال القسري بلا محاكمة. تُرى سيعتبرها الحسن الثاني كافية لبلوغ ثأره؟ سُحِر بورو بدقّة الرسومات. تخاطفت أيادي حرّاسنا إنجازاتنا وعلّقوا، منذهلين، على الشبه التام للقسمات. قبّل الجميع، وأوّلهم بورو، صورة محمد الخامس. وحده والد الحسن الثاني تحقّ له هذه الإشارة الورعة. تأثّر بورو والضبّاط كثيراً لدرجة أنّهم وعدونا بدعم مسعانا.

مرّة أخرى، أخطأنا التقدير. في 17 أيلول (سبتمبر) 1977، بعد شهرين من إرسال هدايانا، قلب هدير طائرة مروحية رتابة المعسكر. كانت المرّة الأولى التي يزورنا فيها أحدٌ عبر الأجواء! لا بدّ أن يكون الزائر مهمّاً، فوحده رسول الملك يمكنه استخدام وسيلة النقل هذه. عاودنا، للحظة الأمل: أيكون الحسن الثاني قد تأثّر بهدايانا، ورقّ قلبه برسالتنا التي استعادت ذكريات الماضي؟ مع ذلك، أخفينا على عجلٍ ما

كنّا نحتفظ به. وانتظرنا، قلقين ومتلهّفين، إشارات من الخارج. أهو منقذٌ حاملٌ لأخبارٍ سعيدة؟ أم أنّه الملاك المدمِّر الذي أرسله الحسن الثاني ليعاقبنا على جرأتنا؟

كان بورو وجماعته متوتّرين أكثر مما هو معتاد. كُدِّسنا على عجلٍ في زنزانة شقيقاتي. وأُخطِرتْ أمي بالبقاء في زنزانتها. خرج رئيس المعسكر راكضاً، وتبعه الآخرون. بقي باب الحجرة الفاصلة مواربا. راقبنا منبطحين، وأنوفنا مندسّة تحت شقٍّ في بابٍ مصفح، ممرَّ الباحةِ ومدخل حجرة الانتظار.

مرّت عشر دقائق. سمعنا بعض الأصوات، ثمّ الضجيج الدائم، والفظيع للمفاتيح والأقفال المثبتة والأقفال المتنقّلة التي تُستعمَلِ بحميّة خاصّة. دخلت مفرزةٌ صغيرة على الضيوف، على رأسها رجلٌ بالزيّ المدني. رجلٌ قصيرٌ وسمين، منتفخ البطن، يرتدي معطفاً كابياً من المخمل الرمّانيّ اللون يتناقض مع ما يرتديه من سروال وقميص فاخرين وحذاءٍ متميّز. لا شكّ أنّه استعار المعطف من أحد المخزنيّين، معتقداً أنّه بارتدائه هذا المعطف البالي سيخفي رتبته. توجّهت المجموعة نحو زنزانة أمّي. نقلت النسمة التي انسلّت من تحت الأبواب إليّ رائحة التبغ الفائحة من عطرٍ ثقيل. لقد شممتُ «أبخرة» العقيد بن عايش: أتعرّف عليها من بين ألف رائحة! كبرت الأشباح في الحقل الضيّق لرؤيتي: تعرّفتُ على ضابط جهاز SSS. كان يُمسك في قبضته المضمومة حقيبةً. فتح له بورو الممرّ باحترامٍ وتبجيل. دخل بن عايش بمفرده إلى زنزانة أمّي. وانتظره الآخرون مسندين ظهورهم إلى أشجار التين في الباحة.

أجلس العقيد أمّي وأخرج من خُرْجِه الصور التي أرسلناه إلى الملك.

- هل تتعرّفين على هذه الرسومات؟

أجابته أمّي:

- طبعاً، أولادي هم مَنْ رسموها

تابع العقيد:

- مَنْ منهم رسم كلاً من الرسومات؟

فأوضحت أمّي له:

- سُكينة رسمت هذه الصورة، ومليكة رسمت تلك، والأخرى رسمها رؤوف.

لم يتمالك بن عايش نفسه، وهو في غاية الحنق، فقال:

- كيف... الجميع؟ كلّ أولادكِ يرسمون؟

أخبرتنا أمّي، وهي تنقل لنا فيما بعد مواجهتها مع العقيد: «كان يبدو خائباً من كوني ما زلت صامدة! وكان مغتاظاً بوضوح من جودة رسوماتكم، وكأن على لعنة الملك أن تمنعنا من أدنى مَلَكة، أصغر موهبة!»

واصل العقيد استجوابه:

- كيف استطاع أولادك أن ينجزوا هذه الصور بهذه الدقّة؟ بأيّة مواد نفّذوها؟

أجابت أمّي برباطة جأش:

- احتفظتُ بصورةٍ صغيرة لولي العهد، واستخدمنا قطعة نقود، كانت لا تزال في جيبي، لننقل منها صورة الملك. وأحتفظ باستمرار معي، منذ الاستقلال، بتعويذة عليها صورة محمد الخامس، وقد استخدمناها نموذجاً في رسم صورته.

قاطع بن عايش، الذي لم يعجبه هذا الكلام المحيّر، أمّي:

- تريدين القول... إنّها استُخدِمَت كنموذج للوحاتكم؟

- اسمع، أيّها العقيد بن عايش، تُعجبني قدرتك على قراءة ما بين السطور، ولكن ما يهمّني هو أن يُشرَح لي لماذا نُهاجم بهذه الضراوة!

امتقع وجه العقيد بن عايش. بدا مصعوقاً. تمتم مضطرباً، حائراً:

- مَنْ... مَنْ أعطاكِ اسمي؟

لامست ابتسامة حزينة وجه أمّي:

- ليس لأننا دُفِنّا أحياء لم نعش حياتنا الماضية . . . لقد عرفتُ شقيقك حينما كان الطبيب الشخصي لجلالته. وقد صادفته قبل وقتٍ قصير من مقتله على أيدي انقلابيي صخيرات. . . إنّك تشبهه للغاية.

همس العقيد، مرتبكاً، إلى أمّي باللغة العربية:

- فاطمة، لا يمكنني مساعدتكِ بأيِّ شيء. . . لا أحد يمكنه مساعدتك بشيء. ما حدث، وما سيحدث لك هو مشيئة الله. . . أتمنى لك، كما لأولادك، كلّ الجسارة التي ستلزمكم في محنتكم.

قبل أن يستقلّ طائرته المروحية، أعطى العقيد أوامره لبورو. أعادونا إلى زنازيننا الخاصّة. وحبسوا فيها معنا ضابطاً وضابطي صف وثلاثة جنود. و«دُعي» كلٌّ منّا إلى إعادة رسم الصور التي كنّا قد رسمناها، تحت رقابتهم. قُدِّمَت لنا أوراق رسم، وممَاح وأقلام الرصاص التي تلزمنا لإعادة إنجاز العمل الدقيق. ذرع بورو الزنازين جيئةً وذهاباً، وهو يراقب الامتحان. اشتبه القصر في أننا حصلنا على تواطؤ البعض ومساعدتهم لنا في تنفيذ الصور. وما دمنا لم نُنهِ رسوماتنا، ظلّت المولّدة الكهربائية تعمل. اشتكينا من الإنارة الكئيبة التي لا تُطاق، ومن المصابيح الضعيفة بقوة خمسة وعشرين واطاً التي تنير زنازيننا ذات اللون الأخضر المزرقّ. سارع بورو، متأثراً بالعمل الذي ننجزه، إلى إرضائنا. أعاد إلينا مصابيح متنقلة كبيرة أمسك بها المخزنيّون فوق رؤوسنا. فعل قائد المعسكر كلّ شيء لكي ننسخ الصور بأسرع ما يمكن. ومثله مثل بن عايش تماماً، كان لبورو كلّ المصلحة في أن يقتنع الملك بأنّ هذه الأعمال الموجودة هي أعمالنا الأصلية. فإذا ظنّ الحسن الثاني بأن عزلتنا لم تكن كاملة وتامّة، فإنّهما سيتحمّلان وحدهما المسؤولية عن ذلك! أتاح لي كلّ ذلك فرصة تدخين أربع سجائر. كلّما تظاهرتُ بالضعف، وبانعدام التركيز والإلهام، كان بورو يستسلم. . . ووزّعت علينا قهوة حقيقية من تلك التي يحتسيها الضبّاط. والتي لا علاقة لها بمشروبنا المقزّز المعدّ من طحين الحِمّص المحَمَّص، المخلوط بكميّة زهيدة من

البن. أُنجِزَت الصور في موعدها وأُرسِلَت مباشرةً إلى الرباط.

مضى الوقت، مضجِراً. انتظرنا نتيجةً لـ«قضية اللوحات» ولكن القصر بقي صامتاً. كنّا نعرف جيّداً شخصية الملك حتى لا نخشى من أنّ هذا الصمت ينبئ بما هو أسوأ. حتى داخل بيته، كان الحسن الثاني دائماً يُنضِج غلّه لبضعة أيام قبل أن يبتَّ في مصير الذي أو التي يريد معاقبته أو معاقبتها. أضنانا الانتظار. وكان حرّاسنا أيضاً قلقين مثلنا. لم يكن لبورو ومعاونيه سوى وسواسٌ واحد: الخروج من هذه المسألة سليمين معافين! كان تعتيم الرباط على الموضوع يزعجهم تماماً مثلما يزعجنا.

في 13 تشرين الثاني (نوفمبر) 1977، ردّنا القصر إلى ذكراه الطيّبة. وثب بورو وزمرته إلى الباحة. استُأنِف صخب التفتيش. ومن خلال باب زنزانتي شممت العطر الشهير، الممزوج برائحة تبغ الكولونيل بن عايش. لم يواجهنا. فمنذ أن عرِف بأننا كشفنا هويّته، لم يعد ضابط SSS يجرؤ على التصرّف بوجهٍ مكشوف. كدّسنا في أصغر حجرة من المبنى. هذه المرّة، قام العقيد بنفسه بالتفتيش. وسنكتشف لاحقاً الفرق الواضح عن المداهمات السابقة.

استمرّ التفتيش حتى الساعة الواحدة صباحاً. تم حجزنا منذ بداية ما بعد الظهيرة بلا ماء ولا غذاء. كان المبنى الذي على شكل L مناراً عدا الزنزانة التي كُدِّسنا فيها. وحلّلنا، ونحن جالسين في العتمة، الضجيج الذي يبلغ مسامعنا. غفا بعضنا بقدر ما استطاع على البلاطات الرطِبة. ونام أخي الصغير، منهوكاً، على حشيّتي. كان محموماً، ولم يكن لدينا أيّ وسائل نستخدمها لتبريد جسمه. تخفّف كلٌّ منا من قطعة ثياب لتغطية جسمه النحيل، الضعيف، المنكمش على نفسه. حاولت أن أستمع إلى أصوات المفتشين لأستدل بها على ما يرمون إليه، وتكلّمت مليكة بصوتٍ خفيضٍ مع أخواتها لتشغل ذهنهنّ وذهنها عن الانتظار، والقلق، وألقت أمّي علينا المواعظ:

– دعوهم يأخذون ما يشاءون، فهذا لن يغيّر شيئاً، ولكن لا تدعوهم يأخذون منكم قوّتكم!

نحو الساعة الثانية، خمد النشاط، ثمّ سمعنا ضجيج وقع الجزم وحزمة المفاتيح. انفتح باب الزنزانة. مُنحنا ربع ساعة للتنفّس في الباحة التي وجدنا فيها محرقة كبيرة أوقدها المخزنيّون بأغراضنا. وذهب كلّ ما أخفيناه بمغامراتٍ عديدة هباءً منثوراً. لم يعد لدينا كتابٌ واحد. وأُحرِقَت لُعب عبد اللطيف المصنوعة من الورق الممضوغ، التي كنّا، سُكَيْنة وأنا، صنعناها له بصبرٍ وأناة. كسبت السلطة رهاناً، أو كادت. . . لأننا استطعنا أن ننقذ الراديو وقطعه. احتفظت أخواتي معهنّ بالبطاريات الست التي بقيت لنا، وحمت حرارة جسدهنّ البطاريات من الرطوبة، ودامت بذلك طاقتها لزمنٍ أطول. أُعيدت إلينا الألبسة الخفيفة، دون أيّة قطعة صوفية دافئة أو تلك المصنوعة من الكتان والنسيج. ومُزّق كل ما أُعطي لنا وقُطِّعَ قصداً. حينما عُدنا إلى زنزاناتنا، كانت جرداء، وبدت أكثر برودةً ورطوبةً وفظاعةً مما كانت عليه من قبل. لم يكن لنا الحقّ في شيء سوى حشيّة وبطانية عسكرية وصندوق نستخدمه كطاولة ليلية.

تمدّدت لأحاول أن أنام، ولكنني لم أكفّ عن التفكير. لا بدّ أن الآخرين في بقية الزنازين فعلوا الأمر ذاته. في الظلام الدامس، تحت غطائه، يجد كلُّ واحدٍ نفسه أمام ذاته. إنّها اللحظات الأصعب ولكنّها أيضاً الخلاّقة أكثر. في عزلته، يقيّم المرء الأحداث على نحوٍ أدقّ، ويقف أمام ذاته على نحوٍ أصدق.

صمتت المولّدة الكهربائية. وساد المعسكر صمت القبور. وفي الباحة ألقت المحرقة آخر ومضاتها على الأسوار ومراكز الحراسة. تسرّبت رائحة الحريق من خلال الأبواب وفاحت في زنزاناتنا.

في اليوم التالي، عادت الأمور تجري على نمطها السابق. تُركنا لساعتين في الباحة. بحث عبد اللطيف يائساً عن حمائمه. لدى وصولنا

إلى بير-جديد، تركها مع كراتينها في الباحة. كانت تذهب وتأتي على راحتها، ولكنّها لم تهجرنا أبداً، وتعود إلينا أينما ذهبت. وهذا الصباح، لم تعد موجودة. أوهمَنا أخي بأنّها ذهبت في رحلةٍ.

بعد يومين، أخرجَنا بورو، محاطاً بلجنته، من زنازيننا ليخبرنا:

- سمحت لكم الرباط أن تتناولوا لحماً لعدّة أيام.

رمى ضابطُ صفّ محتوى سطل أمام أقدامنا: الجثمانان الداميان الهامدان لزورو وآستريد!

صُعقنا لرؤيتهما، ومكثنا صامتين. حاولت أن أضع يدي على عيني أخي، لأجنّبه المشهد ولكنّ عبثاً. بإعطائه أمْرَ ذبح رفاقنا في ذلك اليوم، قتل بن عايش طفولة عبد اللطيف.

في كلِّ صباح، كنا نُسام العذاب ذاته. نشاهد، عاجزين، زوجاً من حمائمنا وهي تُذبح. ولستّة أيام، ستُفرَض علينا تلك المكيدة الجنائزية المنَفِّرة بانتظامٍ وصلفٍ وحشيين. لقد أُبيدت تلك الطيور المسكينة فقط لأننا أحببناها. افترض بن عايش أننا كنا نحضر كلّ الإعدامات. كانت الصدمة على قدر تلك الوحشية المجانية!

لم تتأخّر آثار تلك الفظاعة في الظهور. ذات يوم، أثناء ساعات الخروج إلى الباحة، كان أخي الصغير يلعب بينما كنا نبحث الوضع. فجأةً، ترنّح، وحاول أن يمشي، فخرّ على الأرض. هرعنا إليه، كان عبد اللطيف هامداً فاقداً الوعي. عمّ الهلع بيننا! أخذته بين ذراعيّ، وركضنا كسربٍ مجنون نحو زنزانة البنات. مدّدت الصغير على حشيّة. امتقعت وجوهنا جميعاً. لمستُ جسم عبد اللطيف. في صحراء أسّا، كنتُ قد درستُ قاموس جيب من دار نشر مارابو لأتعلّم منه كيفية القيام بالمعالجات الطارئة، وأتعرّف على الأعراض الأكثر ظهوراً لبعض الأمراض. عشنا، محرومين من الرعاية الطبية، وسط ذُهان مرضٍ عضال. كانت أولى الأمور التي درستها هي لدغات الزواحف وكيفية

التصرّف حيالها حينما نعدم المصل اللازم. نزعنا ألبسة أخي الصغير المغمى عليه. فحصته من قمّة رأسه حتى أخمص قدميه، بحثاً عن لدغةٍ محتَمَلة. لم يكن هناك أيّ أثرٍ على جسمه. رفعتُ جفنيه، فوجدتُ حدقة عينه ثابتة وكابية. وخزتُ جلده في أمكنة حسّاسة، ولم يبدِ أيّ رد فعل. لا شكّ أنّه قد تسمّم!

وصرخنا بصوتٍ واحد:

- احتياطي الأدوية!

احتفظنا بآخر أقراص الموغادون مذ كنّا في تاماتاغت. لأنّ مريم حُرِمَت بقسوة من العلاج، وكانت حالتها تؤول من سيّئ إلى أسوأ، فاحتفظنا بحوالي عشرة أقراص لتفادي مضاعفات وبيلة.

- أقراص الموغادون ليست في مخبئها!

كانت اللحظة كابوسية. لم أرَ من حولي سوى وجوهٍ ملوية من الألم، وجوهٍ مكشّرة وحشية. لا يمكن للمرء أن يعبّر بالكلمات عمّا يشعر به في لحظاتٍ كهذه. أردنا أن نعوي حتى الموت كالحيوانات الجريحة!

غطّت أمّي وجهها بيديها وضربت رأسها بالحائط وأطلقت حشرجة تمزّق القلب:

- لا، لا، يا ربّي، ليس هذا!

كاد الهلع يصبح هستيريا، فدفعتُ الجميع إلى الخارج:

- اخرجن! اخرجن! يا بنات، اهتممن بماما! مليكة، ساعديني! حليمة، بسرعة، بسرعة، أوجدي الحنّاء الذي خبأته! بسرعة! بسرعة!

وضعتُ الصغير على جنبه. كانت حرارته مرتفعة جدّاً، وجبينه نديّاً، ويعلو الزبد شفتيه الصغيرتين الناشفتين، وسال خيطٌ من اللعاب على خده. جلبت حليمة راكضةً المقيّء المعدّ ارتجالاً. خليطٌ من الشاي الكثيف والحنّاء والملح. حاولت أن أجعل عبد اللطيف يبتلع المزيج.

استعنتُ بطرف أنبوبٍ نظّفته سريعاً. غرسته في بلعوم الصغير. وسكبتُ السائل بواسطة قِمع. ولففتُ منطقة معدته بغطاء، وضربتُ على بطنه بقوّة لدرجة أنني خشيت أن أكسر أحد أضلاعه. وأخيراً، استفرغ أخي الصغير. غسلت مليكة بخرقةٍ مبلّلة جسده الذي ظلّ هامداً. جاثياً على البلاطات، نبشتُ بيديّ المجرّدتين القيء، وأنا أجسّ بغيظٍ القطع البيضاء التي تخالطه. منعنا على الأقلّ انتقال كلّ كميّة الموغادون إلى دمه. ظلّ عبد اللطيف في غيبوبة، ولم يستفق منها إلاّ في اليوم التالي. في المساء، كنتُ حبيس زنزانتي. ظلّ سجّانونا لامبالين:

- نحن لا نقوم سوى بعملنا! سنُبلِغ الرباط بذلك.

ولكن لم يتحرّك أحد. لم تبالِ الرباط «ملكياً»! لن أنسى أبداً تلك الليلة من الانتظار، بعيداً عن أهلي، آملاً، دون أن تُغمَض لي عين، أن يُقال لي بأنّ عبد اللطيف قد نجا! ولم يستعد أخي الصغير وعيه إلا بعد ظهيرة اليوم التالي. كانت الكلمات الأولى التي نطق بها بلا تعليقات:

- فعلتُ ذلك من أجلكم، كنتُ أعتقد بأنّهم سيدَعونكم تعودون إلى البيت.

بعد ذلك بشهر، تجاوزنا درجة إضافية من التعذيب. تشير تلك الليلة 29/ 30 كانون الأوّل (ديسمبر) 1978 التي ذكرتها في الصفحات الأولى من هذه الشهادة إلى درجة حاسمة من انحدارنا إلى مهاوي الجحيم. في اليوم الذي بلغتُ فيه العشرين من عمري، فُصلنا عن بعضنا نهائياً. حجزنا حرّاسُنا لأمدٍ غير محدود. ولم نعد نخرج من زنازيننا لا في الليل ولا في النهار. تقاسمت أمّي زنزانتها مع عبد اللطيف. وحُبِسَت مليكة ومريم وماريا وسُكَينة معاً. وكذلك حليمة وعاشورا. وأنا، عُزِلتُ في آخر المبنى في الزنزانة الأضيق.

مرّت ستة أعوام على اختطافنا من منزلنا في الرباط. ولم نكفّ، ليومٍ واحد، عن الأمل في أنّ الانتقام الملكي المشبع بآلامنا سوف يخمد! وفي

كلّ مرحلة لاعتقالنا، تعلّمنا على حسابنا بأنّ هناك ما هو أسوأ! في ليلة 29/ 30 كانون الأوّل (ديسمبر)، اكتشفنا أغوار الجحيم. بدأت المعركة الحقيقية.

المعركة الأولى التي ينبغي كسبها، هي السيطرة على الذات، والانتصار على جنون العزلة التامة. سنبقى لعقدٍ كاملٍ نتعفّن في ذلك المأوى القذر للمحتضرين لعمرٍ آخر. بدأت فيه صنوف الأمراض الخطيرة. ولأننا عانينا لزمنٍ طويلٍ من سوء التغذية وانعدام الرعاية الصحية، وأصبحنا الآن نعاني الجوع، انهارت قوانا تماماً. . .

عانينا من حالات الغثيان والتعرّق والرجفان والاضطراب القلبي، وفقدان الوعي. ألمّت بنا أوبئة فتّاكة تستحيل معرفتها. لم يكن بوسعنا سوى الانتظار والأمل في أن تكون نهايتها سعيدة. انقضّت الإسهالات على أجسامنا التالفة، وعذّبنا المرض النموذجي للسجناء: داء البواسير. وخرّت رئاتنا، التي فتكت بها الرطوبة، كرئات القطط من جرّاء التهاب القصبات المزمن. وفتّت التهابات المفاصل عظامنا. وتسوّست أسناننا، وتكسّرت مثل الزجاج. نهشت أنواع الفطر أصابع أقدامنا، وكنّا نحكّها بالمواضع الخشنة من الأبواب المصفّحة حتى تنقلع أظافرها. ولأننا كنّا محرومين حتّى من حبّة أسبرين، غدا الماء المملّح ترياقنا الوحيد. كانت أيادي وأقدام حليمة وعاشورا تنزف دماً من الشقوق العميقة المفتوحة والمتقيّحة. وأُصيبت ملتحمة عيونهما بحرقةٍ من جراء نار الحطب الأخضر الذي سخّنتا به بعض السوائل. أعدّتا موقداً بدائياً في الشرفة الملحقة بزنزانتهما، والتي كان جدارها يمتدّ عملياً حتى سقفها، وهو ما يحول دون تسرّب أعمدة الدخان الحلزونية إلى الخارج.

ولكوننا محرومين من كلّ شيء، كنّا نغسل أسناننا، كما قصعاتنا، بالتراب الصلصالي الذي تلمّه عاشورا وحليمة من تحت أشجار التين في الباحة. وسوف نستخدم ذلك الصلصال، المنخول على قطعة غربالٍ منتزعةٍ من ناموسية، في أمورٍ أخرى غير اغتسالنا به. وسنختبر فيما بعد

القدرات المدهشة لذلك التراب: استخدمناه كملاطٍ لستر الثقوب التي كنّا نفتحها في زنازيننا. . . في البداية، اشتبهنا بأن يكون معجون الأسنان هذا قد نقل جرثومة فتّاكة إلى أخي الصغير لأنّ لثّتي عبد اللطيف التهبتا. وقد نزفتا بغزارة رغم ضمورهما الظاهر. ولم يعد بإمكان الصغير أن يبتلع أيّ شيء، وبات يعاني من حالات حكّة فظيعة. حاولت أمّي التخفيف عنه بما استطاعت من خلال إذابة بضعة غراماتٍ من الملح في الماء في محاولةٍ لتطهير اللحم البنفسجيّ اللون، المتورّم، من الجراثيم.

حينما فقدت إحدى الفتيات وعيها لبضعة أيام، سهرت أخواتها إلى جانبها، مستسلمات، خاضعات. قدّموا لها بانتظام ماءً مضافاً إليه بعض الملح وبعض القطع من السكّر مع الجراية(*) اليومية الشحيحة. أدارت مليكة اقتصاد الحرب هذا: وهذا ما جعلها تستحقّ لقب «الأب غرانديه». . .

مرّت الأيام، وعانيتُ فظاعة العزلة التامّة. حينما تخنقني وحدتي وتسحقني، أرغب في العويل. كنتُ أرشّ ماءً على جسدي وألطم نفسي كما يفعل الملاكمون لإثارة حميّتهم قبل مباراة. حينما يشدّ القلق الخناق عليّ، أمشي دائرياً في العتمة مثل حيوانٍ متوحّش. أمشي حتى الإنهاك، ثمّ أرتمي على الأرض مثل وحشٍ ضارٍ ألهثُ وأنزّ عرقاً. حينما أشعر بأنني على وشك أن تزلّ بي قدمي، أوسع حشيّتي ضرباً لأتخفّف من غيظي ويأسي. وكلّما تألّمت أكثر، كلّما تعلّمت كيفية البقاء أكثر.

حتّى وإن كان جسمي يتلف سريعاً، كنتُ أحاول ألا أترك له أيّة فرصة. يومياً، تتكرر اللازمة المضجرة نفسها: الضجيج البعيد لباب الحجرة الفاصلة، وقع الخطوات التي تقترب منّي، الجلجلة المزعجة لحزمة المفاتيح، يفتح الحرّاس الباب الفولاذيّ الأوّل، ويتجمّعون في

(*) الجراية هي حصة الطعام التي توزّع للمساجين.

الشرفة المغلقة. يوارب ضابطُ الباب الثاني، باب زنزانتي. وهو مصفّح ولكن أُقيم خلفهُ بابٌ آخر من الخشب السميك. تُلقى قصعتي في الحيّز الضيّق بين الفُتحتين. الأوامر واضحة وقطعية: عليّ ألاّ أرى وألاّ أسمع كائناً حيّاً. وحتى بلجوئي إلى شتمهم وإهانتهم، لم أفلح في جعل الحرّاس يخرقون تلك التعليمات. حينذاك، ولأنّه لم يكن يحقّ لي حتى استخدام الحفرة الموجودة في الشرفة، التي كانت تُستخدَم كمرحاض، كنتُ أقضي حاجاتي في سطلٍ. وكان الحراس ينقلون، في اليوم مرّة، «سطلي» إلى حليمة وعاشورا لإفراغه.

أصبحت آلام أسناني لا تُطاق. تسبّبت بقايا الأسنان المنخورة بحفرٍ في لثّتي، وتوالت الخراجات فيها، وشوّهتني. حرمني تورّم وجهي من إحدى عينيّ، المغمضة باستمرار وكأنني تلقّيتُ ضرباً مبرّحاً. في كتابه **الصفر واللانهاية**، يصف آرتور كوستلر أفضل منّي بكثير «مغامراته السنية»، التي يصفها بأنّها أسوأ عذابٍ في وضعه المرعب كضحية للستالينية. خلال هذه السنوات التسع عشرة من الاعتقال الجائر، تشبّثتُ بكل عظمة فكرة الكاتب هذه: «ليس هناك سموٌ ممكن للإنسان إلا في أعماق الإذلال.» كلّما أرهق نقص الغذاء والأمراض والرطوبة جسدي أكثر، عرفت أكثر أهمية أن أحلم وأن أبتكر لنفسي فسحةً وسط هذا الكابوس. خرجتُ من جسدي لكي أتحرّر من ضعفه. كان الخيال والتأمّل بالنسبة إليّ نافذتي النور الوحيدتين وسط تلك الظلمات.

كان الليل صقيعيّاً. تكوّرتُ على نفسي أملاً في أن أدفئ ساقيّ المنمّلتين. شعرتُ أنّ هيكلي العظمي المكوّر قد ينجو من نهشةِ البرد. الواقع، عبثاً حاولت أن أتكوّر على نفسي قدر المستطاع، فعزلتي هي التي تثلجني! بدت لي أنّها لا تُطاق عندما فكّرتُ بكلّ الناس البالغين ثلاثة وعشرين عاماً الذي يحظون بفرصة ووسائل عيش عمرهم. ولكن سرعان ما عدتُ إلى رشدي، وفضّلتُ التأمّل في الشهادات التي أُتيحَت لي فرصة

حفظها عن ظهر قلب قبل أن أُدفَن حياً. جدّدت قوّتي تحت تأثير أقوال ناجين من المعسكرات النازية، التي قرأتها أو سمعتها من المذياع. وفي كلّ مرّة شارفتُ فيها على الغرق في اليأس، ردّدتُ على نفسي هذه الجملة السحرية: «إن هم استطاعوا أن ينجوا من رعبهم، من المقت البشري الأخير، واستطاعوا أن يعيدوا بناء أنفسهم وأن يتسموا من جديد، فنحن أيضاً يمكننا أن نتغلّب على مصيبتنا!» طوال فترة اعتقالنا، بل وطوال حياتنا، سنتّخذ من مثالهم الرائع المنارة التي نهتدي بها في أعتى عواصفنا.

حينما تنخفض درجة الحرارة، يصبح الجوع لا يُطاق. ينهش الأحشاء تماماً. وعندما يشرب المرء ماءً لتهدئته، يرتعش الجسد. كنتُ، مقروراً من الرطوبة والبرد، أرتعش لكلّ جُرعةٍ من السائل البارد. حينذاك، كانت المعدة، المتشنّجة، لا تستمع إلاّ لألمها، وتنسى، للحظةٍ، جوعها: لم أستطع مخادعتها في الكثير من المرات التي أردتُ ذلك، لأنّ الماء الذي لا يُمنَع حتى عن حيوان، كان مقّنناً عليّ. لم يكن يحقّ لي الحصول سوى على لترٍ ونصفٍ من الماء كلّ أربع وعشرين ساعة، للشرب والذهاب إلى «المراحيض». . . وللاغتسال.

تعلّمت التركيز الذهني، وتوهّمتُ، مغمض العينين، بأنني حرّ، وأصبحت أحلامي وذكريات ماضيّ ملاذ مقاومتي. إنّها سخريتي اليومية ممّن ألقوا بي إلى هذه الزنزانة النتنة تحت الأرض. من أيّة طينةٍ عُجِنَت قلوب هؤلاء الذين أخضعونا لتعذيبٍ مهذا، وآلام كهذه؟ من العبث أن نبتغي فهم العمل الأخرق. ولذلك فضّلتُ تجميع كلّ طاقاتي لأجد وسائل النجاة منه. لم أكفّ عن استذكار ما كتبه باسكال: «إذا ما سجنني طاغية، فسأعطي الكثير من التمارين لساقَيَّ كما لضحكتي.»

وبالتالي، لم أكفّ عن المشي. أمّا بالنسبة للضحك، فلم أحرم نفسي منه، باستحضاره من مواقف ماضية أو باستيحائه من حياتي اليومية. غالباً ما ضحكتُ من نفسي. أحياناً، بدت النهاية المأساوية مضحكة.

كانت أشكال العفونة المتزايدة التي تغطّي الجدران تستحيل بالنسبة لي لوحة جدارية لوجوهٍ غريبةٍ ولكنّها حيّة. وقد أصبح بعض تلك الوجوه الموهومة مألوفة جدّاً بالنسبة لي إلى درجة أنني كنتُ أتكلّم معها. كان هناك حكيمٌ مسنّ وديعٌ ولطيف نحتَه بَرَصُ الجدار بموهبة رفيعة. ينسدلُ شعره الفضيّ اللون على كتفيه البيضاوين، وتموج لحيته المهيبة وسط سحابةٍ. ذكّرني بشخصية شارلتون هستون في **الوصايا العشر**: فسمّيته موسى.

وفي حضرة هذا الشيخ الجليل وأنا أتأمّله، كنتُ أُمعن التفكير، وأبحث عن القوّة والأمل حينما يهجرانني. بيد أنني لم أطلب أرض الميعاد! لم أرد سوى أن أرى من جديد ضياء النهار، والنجوم في السماء. ها قد مرّ عامان دون أن ينفتح هذا الباب اللعين! الإيمان ليس اختراعاً وإنّما غريزة غالباً ما نهذّبها ونقوّيها في الشدائد. وأيّاً كانت طبيعتها، فإنها تمرّ أوّلاً بالثقة بالنفس. في السنّ الذي يختبر فيها المرء العلاقات الغرامية مع الجنس الآخر، حُرِمتُ من ممارسة مشاعري وأحاسيسي، فابتدعتها. صبيّة متوحّشة ذات عينين واسعتين كاشفتين، وسحنةٍ ملائكية ونظرةٍ شرسة، تنشر شعرها الذي بلَوْن القرفة على قطعة جدارية. لا أعرف لماذا أسميتها إيما. ربّما لأنّ هذا الاسم يتشابه مع فعل أحَبَّ[1]. غدت الموضوع العذب لمشاعر الحبّ التي مُنِعتُ عنها منذ الخامسة عشرة من عمري. المتعة التي لم يكن بوسعي بلوغها، كنتُ ألمسها بعد كلّ حساب عبر الهمس بكلماتٍ ناعمة وعذبة إلى «إيما»ي.

اختار عنكبوتٌ شفوق أن يقيم في جُحري. وكنتُ ممتنّاً جدّاً له لدرجة أنني زوّدته بطيبة خاطر بالمأوى والمفرَش. اصطدتُ الذباب وقدّمته له بانتظام للاحتفال بصداقتنا الجديدة. وسمّيته استهزاءً «جُمعة».

---

(1) يقصد التشابه اللفظي في اللغة الفرنسية بين الاسم Emma والفعل aimer الذي يعني أحبّ، عشق، هوى... المترجم

ولأنني لم أكن محظوظاً في أن أكون روبنسون، فإنّ شريكي في المسكن اختفى ذات يوم دون تحذير. لحسن الحظ كان هناك النمل. كنتُ، منبطحاً على الأرض وأنفي على البلاطات، أراقب بإعجاب تلك الجماعات العاملة المستبسلة القادرة على أن تحمل، لمسافات لا نهائية بالنسبة لها، حملاً أثقل من أجسامها الضعيفة ولم أتأخر في أن أستمدّ منها دليلاً إضافياً لتغذية إرادتي في المقاومة: «أنا أيضاً، عليّ أن أحتمل الثقل غير المتكافئ الذي يسحق كتفيّ الغضّين!» وجاء زوّارٌ آخرون، أقلّ لطفاً، جرذانٌ ضخمة، يجرون على جسمي حينما أتمدّد. وكان عليّ ألاّ أتحرّك كي لا أتعرّض للعضّ.

حينما كانت تسير قوائم صغيرة وباردة، بعضلاتٍ مدهشة، على وجهي، كنتُ أكفّ عن التنفّس، وأُخرج يدي بهدوء من تحت الغطاء وأقذف بالدخيل إلى آخر الزنزانة. فتبدأ معركة حقيقية، أدافع فيها بالأسنان والأظافر عن مملكتي. وتمضي ليالٍ كاملة من المعارك التي غالباً ما تكون دامية، أصفّ جثث قتلاها في الفُرجة الفاصلة بين البابين اللذين يسدّان زنزانتي. تظاهر حرّاسي، لأيامٍ عدّة، بعدم رؤية أيّ شيء؛ تركوا الجرذان الميّتة في مكانها. وانضافتْ رائحة الجثث المتفسّخة إلى الجوّ المقزِّز بالأساس لزنزانتي.

استوحيتُ كلّ الوسائل التجريبية التي أمتلكها لاحتواء المصائب العديدة التي ألمّت بي. أصبح جسدي أمراً ثانوياً. حتى وإن كان عليلاً على نحوٍ خطير، تجاهلته. مع ذلك، لم أستطع أن أتغلّب على خرّاجٍ بقي لعدّة شهور، وهو عبارة عن كيسٍ قيحيٍّ ضخم بحجم إجّاصة شوّه حنكي لدرجة أنني لم أعد أستطيع أن أبتلع شيئاً ولا أن أتكلّم. بشعري الأشعث وجسدي النحيل المتّسخ كجيفة، لم أنظر في مرآة منذ ما يقارب ثلاثة أعوام. لم أعد أعرف ما أشبهه. حينما لمحتُ. ذات يوم، صورتي منعكسةً على غطاءٍ صدِئٍ لعلبة حليبٍ مجفّف، شاهدتُ صورة

كازيمودو[1]! خرّاجات تغطّي بشرتي تماماً، ووجهي منتفخ وملويّ ومشوّه بالخمج، وجلده مشدود جدّاً لدرجة أنّه كان يلمع. شكّل لونٌ لا يمكن تحديده، يتدرّج من الأصفر الليموني إلى الأزرق الغامق تتخلّله لطخات ضاربة إلى البنفسجي، قناعاً مرعباً على وجهي. أدركتُ أنّني ما لم أجد وسيلة أفرغ بها يومياً الإجاصة التي تتدلّى في فمي، فإنني سأُصابُ بتسمّمٍ في الدم. فقأتُ، بمسمارٍ حامٍ لدرجةِ الاحمرار على شمعةٍ، النواسيرَ الظاهرة على لثّتي. وهكذا أصبحتُ أضغط بثلاثة أصابع يومياً على الإجّاصة التي تشوّه حنكي وتسدّ تجويف فمي. انبجس القيح، كما ينبجس من محقن، من الثقوب الثلاثة المفتوحة بعناء. سالت خيوطٌ من دم غامقٍ نتنٍ على طول عنقي ولوّثت جذعي. كانت مذبحة. كانت العملية مؤلمة لدرجة أنّني تصبّبتُ عرقاً، وارتعش جسمي بكلّ أعضائه. ومع ذلك أرغمتُ نفسي على ذلك «التمرين» اليومي، لكي لا أموت.

مرّت الشهور والسنون واختلطت ببعضها. مضى تسعمئة وأربعون يوماً وليلةً وأنا أتفسّخ في قاع الجحيم. سنتان ونصف وأنا أدور من حول نفسي في كهفي. منذ أن رُميتُ إلى قعره، لم أرَ أحداً، ولم أتكلّم مع أيٍّ كان.

---

(1) يقصد كازيمودو الأحدب والمشوّه الوجه بطل رواية أحدب نوتردام لفيكتور هوغو. المترجم

الفصل الخامس

الفجر المذهّب

تسرّب تيارٌ هوائي من تحت الباب المصفّح. عادةً ما يبدو هذا النعيب الصادر عن ريحٍ قوية محزناً، ولكنّه ليس كذلك بالنسبة لي. فروائح الأرض المبلّلة التي يحملها إليّ تخمد آلامي وتخفّف عذاب احتجازي من هذا الجُحر منذ أكثر من عامين. حُرِمتُ من الطبيعة إلى درجة أن صدري انشرح بتلك النفحة المحمولة إليّ من الحرية التي بدّدت قلقي وضجري. أيُّ شعور مرعب أن يُدفَن المرءُ حيّاً! أحياناً، كان لا بدّ لي من الكفاح ضدّ الجنون. أن أقاوم في كلّ لحظة ذلك الشعور الخانق، والجدران التي تضيق بي إلى حدّ سحقي. يقاوم الجسد والروح وكأنّهما مدفونان تحت ركام. حينما ينقضّ عليك ظرفٌ عصيب، تفاعلْ معه للتخفيف من وطأته، إذ من العبث أن تثور وتضطرب وأنت تكتمه. من الأفضل الاسترخاء دون استسلام، والتخفيف من وطأته، والدخول في سُباتٍ والهروب ذهنياً، واستنشاق الأوكسجين الذي تُحرَم منه بالتأمّل أو التخيّل. أغمضتُ عينيّ وفكّرت في أولى ذكريات طفولتي. كانت لحياتي الماضية نكهة مختلفة. الإطلال على حياتي السابقة، من المكان الذي وجدتُ نفسي فيه، هو النظر إليها مع العودة إلى الوراء ومع الصفاء والانفصال المتعاظم باستمرار الذي يسبّب العذاب. أعدتُ رسم الطريق منذ ولادتي وحتى اليوم، أحياناً مع الإحساس الغريب برؤية صورٍ تتوالى متواثبة، حكاية خيالية في عالمٍ لم أعد أتعرف على نفسي فيه.

حينما أهرب إلى شريط حياتي السينمائي، لا يمكنني الامتناع عن استعراض المراحل التي طبعت تاريخ بلادي. إذ بدون فهم خفايا هذا التاريخ، ووقائعه، والسياقات والظروف التي صنعته، لن أستطيع شرح قصّة حياتي ولا حكاية سجني.

بمجيئي إلى الدنيا بعد عامين من إعلان الاستقلال، عشتُ حتى مراهقتي وسط شخصياتٍ من كلّ المشارب والاتجاهات السياسية، وعمل كلّ منها وفق أسلوبه وقناعاته من أجل تحرّر المغرب. شاهدتُ الدولة تتأسّس، وعرفتُ مهندسيها كما بنّائيها. لا شكّ أن تأثير أولئك الوطنيين من كلّ التوجّهات السياسية عليّ هو مصدر اهتمامي المبكر وحبّي الشديد لبلدي. حتى أن تعرّضنا، عائلتي وأنا، لعقدين من الاضطهاد الجائر والقاسي لن يتغلّب على تعلّقي العميق بالمغرب. كما تأكّدت إلى أيّ مدى كانت الأسرار تغلّف الوقائع الأكثر أهمية لأحداث تاريخنا. المغرب بلد التناقضات، تتعايش فيه الظلمات والأنوار، ولن تصدر بعض الحقائق أبداً من عالِمٍ صغيرٍ سيرى، أيّاً كان ولاءه الأيديولوجي، أنّه من المناسب إبقاء الشعبَ بمنأى عن «عصائده السياسية». صودِرَ تاريخنا، وزوِّر باستمرار من قبل السلطة ومعارضيها على حدٍّ سواء. كان نابليون يقول: «ما هو التاريخ إن لم يكن حكاية نتّفق حولها؟» وإذا كنتُ أُجيز لنفسي قراءة الوقائع الأكثر أهمية للماضي المغربي، فذلك لأنني أريد ببساطة أن أوضّح مشهد بيئةٍ لا يمكن فصلها عن مسيرتي، ولا غنى عنها لفهم هذه المسيرة. ولأنّ هذه الشهادة هي أوّلاً شهادة عن حياتي، لا أدّعي إعطاء درسٍ في تاريخ المغرب، ولكنني أطمح إلى أن أنشر، لمن يهمّه ذلك، عناصر ربّما تقدّم إضاءةً جديدة.

ولفهم أفضل للسياق الذي نال من خلاله المغرب استقلاله في 2 آذار (مارس) 1956، لا بدّ أوّلاً من معرفة كيف فقد ذلك الاستقلال، ومعالجة حقبة الوجود الفرنسي، واستخلاص كلّ النتائج منها، لكي نفسِّر الآثار والعواقب.

حرص مولاي الحسن الأوّل، الذي توفي في عام 1894، على تعيين أصغر أبنائه، مولاي عبد العزيز، وريثاً له. ولكن الأمير الشاب، البالغ بالكاد أربعة عشر عاماً، لم يكن يمتلك لا النضج الضروري ولا الصفات المطلوبة للحكم. كان المغرب منذ زمنٍ طويل منقسماً إلى بلد المَخْزن، المنطقة الخاضعة لنفوذ السلطان، وبلد السيبة، المنطقة الخاضعة للسلطة الشريفية. أدار الوزير الحازم والحاذق باحماد بن موسى[*] شؤون البلاد. لم يمنح الوزير الحذِر، وهو ابن عبدٍ أسود وأمّ بربرية، ثقته سوى لحلقة ضيّقة من الوزراء المخلصين. وببلوغه العشرين من عمره مع بداية القرن العشرين، شرع مولاي عبد العزيز بالاعتماد على نفسه في الحكم. فتح بلاطه أمام الأجانب واتّخذ من ضابطٍ إنكليزيٍّ سابق مستشاراً رئيسياً له، مانحاً إيّاه لقب القائد ماك لين. أعاد هذا الرجل الأوروبي تنظيم سلاح المدفعية المغربي وبات خبيراً لا غنى عنه، ومستشاراً سياسياً عند الحاجة. المؤسف هو أنّ مولاي عبد العزيز، المحبّ للملذات والمعتاد عليها، كان مبذّراً، مفضّلاً، على عكس والده، طيش اللهو والتسلية والبذخ على أعباء الحكم المرهقة.

في عام 1904، في أعقاب الاتفاقيات الموقّعة مع إنكلترا وإيطاليا وإسبانيا، منحت فرنسا قرضاً كبيراً للمغرب، وتسلّمت بالمقابل الإشراف على البريد والجمارك. في عام 1905، قام إمبراطور ألمانيا، غليوم الثاني، الذي أراد إعاقة الوجود الفرنسي في الغرب، بزيارة رسمية خُلِّدَت بصورةٍ فوتوغرافية نراه فيها يسير على حصانه الأبيض إلى جانب مولاي عبد العزيز. وكان القائد ماك لين[1] يصاحب الموكب اللامع.

في طنجة وموغادور[**]، تخاصم أوروبيون، واغتيل الدكتور

(*) واسمه الحقيقي هو أحمد بن موسى. المترجم

(1) الضابط الانكليزي المكلّف بالحراسة الملكية وبإعادة هيكلة سلاح المدفعية المغربي.

(**) الاسم القديم لمدينة الصّويرة في جنوب المغرب. المترجم

موشان، الطبيب الفرنسي المقيم في مراكش. وفي الدار البيضاء، حيث شرعت فرنسا بإنشاء سكّة حديد فيها، بلغ التوتّر أشدّه إلى درجة أن حوادث خطيرة وقعت، لأنّ مسار سكّة الحديد مرّ بمرقد وليٍّ يجلّه المغاربة، وهو سيدي باليوت. نجمت عن هذا الانتهاك صدامات 30 تموز (يوليو) 1907، التي قُتل فيها تسعة أوروبيين والعشرات من المغاربة.

في آب (أغسطس) 1907، قصفت الطرّادة الفرنسية غاليليه الدار البيضاء. وأصبحت المدينة، بعد الاستيلاء عليها، رأس الجسر لغزو السهول الخصبة لمنطقة الشاوية، المحيطة بالدار البيضاء. كذلك احتل الفرنسيون وجدة، عاصمة شرق المغرب الشرقي. وفي كانون الثاني (يناير) 1908، احتل الجنرال ليوتي المرتفعات الجبلية الإستراتيجية لقبيلة بني سناسين[1].

وإذ باتت الفوضى فرصة مواتية للاستيلاء على السلطة، أعلن مولاي حفيظ، الأخ البكر للسلطان وحاكم مراكش، نفسه سلطاناً في مدينته. ولم تكن يد ألمانيا بعيدة عن ذلك الطموح. فقد كان للإمبراطور غليوم كلّ المصلحة في مفاقمة انعدام الاستقرار لإزالة النفوذ الفرنسي في المغرب. وقد خدم الصراع الأخوي على العرش هذا الاحتمال أفضل خدمة. انقسمت البلاد، وأصبح لها سلطانان وعاصمتان: فاس ومراكش. وتمرّد العديد من زعماء الحرب، وكان بعضهم من الأدعياء، الطامعين في العرش.

أشهرهم يُدعى بوحمارة («صاحب الحمارة») الذي زعم أنه أخو السلطان وطالب بالعرش بنفس طريقة الأخ «الحنون» الحقيقي الذي نُصّب في مراكش. فكان على مولاي عبد العزيز أن يضيف إلى خيانة أخٍ حقيقي الادّعاء الذي لا يقلّ خطورةٍ لأخٍ زائف. استولى بوحمارة على تازة ثمّ وجدة في شرق المغرب بالقرب من الحدود الجزائرية.

---

(1) قبيلة بربرية فرسانها محاربون أشداء.

استغلّ طامعون آخرون في السلطة الفوضى: بسط الشريف رايسولي نفوذه على الشمال وماء العينين على الجنوب. كما استولت قوات مولاي حفيظ، المدعوم من القبائل البربرية، على فاس.

آلم هذا التسابق إلى العرش وسط الفوضى الشعب المغربي وأقلق الأوروبيين، الذين اعتبروا أنّ الازدهار التجاري يرتبط بالاستقرار. اعترفت القوى الدولية بمولاي حفيظ كسلطانٍ أوحد للمغرب. انهزم مولاي عبد العزيز، الوريث الشرعي للعرش، ولجأ إلى طنجة عام 1909. وسُجِن بوحمارة في قفصٍ حديدي وعُرِض في شوارع فاس، قبل أن يُعدَم في ساحة عامة. الأمر الذي لم يمنع حالات التمرد من أن تستمر، وأن تحاصر قبائل الشمال البربرية مدينة فاس في عام 1911. بات مولاي حفيظ على أعتاب هزيمة مؤكّدة، فاستنجد بفرنسا لترسيخ سلطته. وتدخّلت باريس بذريعة حماية رعاياها في وادي السوس (جنوب المغرب). أغاظ ذلك ألمانيا فأرسلت سفناً حربية، من بينها البارجة بانتير إلى قبالة أغادير. فتخلّت فرنسا للإمبراطورية الجرمانية عن جزءٍ من الكونغو في كانون الأوّل (ديسمبر) 1911 لقاء وجودها في المغرب. أمّا شمال البلاد فقد خضع لإسبانيا. في 30 آذار (مارس) 1912، وقّع الوزير رينو مع مولاي حفيظ اتفاقية فاس الشهيرة التي بسطت الحماية الفرنسية على المغرب: سيتولّى مندوبٌ سامي يمثّل باريس تطوير البلاد، والحفاظ على النظام، وسيكون المتحدّث الوحيد مع الأمم الأجنبية. إنّها نهاية المغرب القديم.

حينما نالت بلادي الاستقلال في 3 آذار (مارس) 1956، انفتحت ساحة مواجهة بين الأيديولوجيات المتناقضة كليّاً، والمطامح المتزاحمة. كانت القوى المتنافسة من أجل ترسيخ هيمنتها على خصومها هي حزب الاستقلال، وجيش التحرير، البربري بغالبيته، والقصر والقوات المسلّحة الملكية التي كان ضباطها الأرفع رتبة قادمين من المدرسة الكولونيالية.

في عام 1956، كان حزب الاستقلال في الحكومة، ويشغل المناصب الرئيسية ويستأثر رجاله بزمام الإدارة. ترأس المهدي بن بركة، أحد شخصياته البارزة، المجلس الوطني. وقد كتب جان وسيمون لاكوتور، اللذان جابا البلاد على مدى ثلاثة أشهر، في كتابهما المغرب على المحكّ[1]: «إن غزو جهاز الدولة من قبل هذا التكتّل الأغلبي (حزب الاستقلال) لا يسير دون طرح سياق إقامة حزبٍ واحدٍ ولا ينبئ بمستقبلٍ إيجابيٍّ للحريات في المغرب.» وكما الحال في فرنسا بعد تحريرها، عرف المغرب أيضاً مطاردته «المتعاونين» مع المحتل، وقد قادها بشكلٍ رئيسي حزب علاّل الفاسي والمهدي بن بركة. وبحجّة معاقبة الخونة، واظب حزب الاستقلال في الواقع على التطهير المنظّم لخصومه الذي كان قد بدأ منذ ما قبل الاستقلال. فاغتالت هذه الحركة المئات من الشخصيات مدّعية الحق في تصنيف من هو خائن ومن هو ليس كذلك. قام الاستقلال بالتصفية الجسدية لكلّ مَنْ اختلف مع أفكاره، سواء تعلّق الأمر بمقاومين أو نشطاء من تيارات أخرى أو بمواطنين عاديين رفضوا التأطير المنهجي، القسري، للمجتمع المغربي. وهكذا، قُتِلتْ أوّل امرأة تقود طائرة في المغرب: تورية الشاوي التي كانت تحطّ بطائرتها الأحادية المحرك الصغيرة في مهابط جبلية بدائية، لتزوّد رجال المقاومة بالمؤن، أو تُسقِط المناشير على المدن والأرياف. فقد أُقصيت تلك المرأة الاستثنائية، المقاوِمة الرائعة، إلى مخابئ التاريخ المنسية ككلّ المغربيات اللواتي ناضلن ببسالةٍ ونكرانٍ للذات في سبيل استقلال وطنهنّ. لا تزال عواقب هذا الإثم ثقيلة حتى يومنا، ولا تزال مجتمعات دولنا تسير على قدمٍ واحدةٍ من جرّاء هذا التميز ضدّ المرأة.

حتى الفنانون والمغنّون الذي تجرؤا على انتقاد الحزب، لم ينجوا، فتكفّل مغاوير الاستقلال بهم. وقد وصل الأمر بالمهدي بن بركة أن

---

(1) سيمون وجان لاكوتور، المغرب على المحكّ، سوي، 1958.

يجيب، في الصحافة العربية بالقاهرة، صحافياً سأله عن المسألة البربرية: «أيّ مسألة بربرية؟ هل تعلم ماذا تعني كلمة بربري؟ إنّها ببساطة تسمية رجلٍ جاهل!» بالطبع، كان لدى عباس مسعدي، الزعيم المهيب لجيش تحرير الشمال، تعريفٌ آخر لهويّته الألفية. وإذا كانت كلمة «بربري» تخصّ الإشارة إلى أوّل شعبٍ أصلي في شمال أفريقيا، فإنّ البرابرة، في لغتهم، يُسمّون بالأمازيغيين، أي «الرجال الأحرار!» ولأنّه أيضاً كان يرفض أيّ ولاءٍ لحزب الاستقلال، اغتيل عباس مسعدي بوحشية في ڤيلا بتطوان، كان على موعدٍ فيها مع المهدي بن بركة. فقد فُصِل رأس عباس عن جسده، وجذعه عن طرفيه السفليين، ودُفِن كلّ جزءٍ منه في مكان. ميتةٌ كانت الصاعق الموقوت لحرب الريف.

في أواخر عام 1958، عمّ الاضطراب شمال المغرب، فأمر محمد الخامس القوات المسلّحة الملكية (FAR)، بتحريضٍ من حزب الاستقلال، بقمع التمرّد الريفي. وكانت تلك ضربة بليارد بثلاثة جوانب لحزب المهدي بن بركة الذي تخلّص من جيش التحرير، ووضع العرش في حيرةٍ، ولكنّه في الوقت ذاته فقد كل احتمال في أن يرى الأرياف، ذات الأغلبية البربرية، تنضمّ إلى صفوفه. وجد النظام الملكي نفسه مضطراً على أن يحول دون انتشار الحريق الذي يهدّد السلم الأهلي، وأن يقطع رأس الشيطان العجوز الذي أبقته فرنسا في المغرب: «التنافس بين البرجوازية العربية والفاسية وبربر الريف الذين يشكّلون أغلبية السكان الواسعة.» طوال فترة وجود الاستقلال في الحكومة، حرّض الملكية لا على معاقبة من ناهضوا الملكية، وإنّما من ناهضوا التنازلات غير المقبولة التي قدّمتها الملكية للاستقلال. كما حرص حزب المهدي بن بركة على أن يصرف الانتباه عن مسؤوليته عن اندلاع حرب الريف، مزوّراً التاريخ بالدعاية والإشاعات. والحال أن حكومةً استقلالية هي التي تكفّلت بإرسال قوات FAR إلى الريف. طالبت الشخصيات المرموقة في اليسار محمد الخامس بتدخّل الجيش المباشر للحؤول دون وقوع حرب أهلية!

من جهته، وجد العرش في ذلك فرصةً لاختبار ولاء وإخلاص قواته المسلّحة. بالمناسبة، إنّ كلّ ما أمكن استيهامه عن القسوة المزعومة لأوفقير إبان الانتفاضة الريفية لابدّ أن تُعاد قراءته في ضوء هذا السياق. ومع أنّ الدفاع عن والدي ليس موضوع هذا الكتاب، أودّ أن أذكر الخُلاصات التي توصّل إليها صحافي في صحيفة **ليبراسيون**، يعمل حالياً في **لوموند**. لا يمكن اتّهام الخطّ السياسي لهاتين المؤسستين بمحاباة النظام الذي خدمه أوفقير، ولا يوجد سببٌ للتشكيك في أقوال ستيفن سميث حينما كتب: «ولكن علينا أيضاً أن نقوّض أسطورةً: أسطورة قسوة أوفقير في هذا الموضوع. لقد التقينا شهوداً جديرين بالثقة، وهذا ليس نصّاً من طرازٍ قديم، تابعوا العمليات إلى جانبه. وقد نفوا جميعاً أعمال القسوة المجانية التي تُنسَب إليه. يؤسفنا أن ندحض أسطورة مثيرة كانت تزيّن شخصيتها ببريقٍ شيطاني[1].»

مهما يكن، حينما خضعت منطقة الريف وانطفأ الحريق، لم يُغبَن لا الاستقلال ولا القصر. وإذا كان محمد الخامس قد أصبح مقدّساً، ولا غنى عنه، فإنّ ولي العهد مولاي حسن، الحسن الثاني المقبل، كان مرهوب الجانب. ولم يفت المهدي بن بركة، الذي كان أستاذه لمادة الرياضيات، اكتشافه السريع لذكاء تلميذه الحادّ وطموحه المرعب. عرف لو أنّ ولي العهد سيتبوّأ العرش، ستتلاشى الوعود، حتى غير الملزمة، بملكية دستورية. لم يكن للأمير حسن من هدفٍ سوى ملكية حاكمة ومطلقة. فلم تغرب لا عن باله ولا عن بال بن بركة المجابهة الحاسمة والنهائية التي ستواجههما حتماً. وكان كلٌّ منهما يستعدّ لذلك خفيةً. تصرّف محمد الخامس بدهاء وكسب الوقت. فبينما وعد حزب الاستقلال بملكية دستورية، قوّى موقف ابنه بمنحه كلّ الوسائل لفرض سلطته في المستقبل.

---

(1) ستيفن سميث، أوفقير، قدرٌ مغربي، كالمان-ليفي، 1999.

منذ اليوم الأوّل للاستقلال، كان محمد أوفقير مرافقاً لمحمد الخامس. في مغربٍ مستقلّ حديثاً، حيث كثُرت الأسلحة بين أيدي المدنيين كما لدى الأحزاب، كان لا بدّ من فعل الكثير لاجتناب الاقتتال العام. اتّضح، قبل وبعد الاستقلال، أنّ المجابهة بين الأحزاب والزمر دموية. وهدّدت تلك الحرب الأهلية المقنّعة، التي لم تحمل اسماً، البلاد بالتشظّي. عاش رجال المقاومة، الممسكون بشؤون الأرياف، في عداوة شديدة مع حزب الاستقلال، الذي كان يمتلك شبكات قويّة في المدن وخلايا مسلّحة وتنظيمات سريّة ومعسكرات تدريب ومراكز تعذيب.

كانت الأولوية لدى أوفقير هي أن يشكّل في زمنٍ قياسي جيشاً قادراً على مواجهة المخاطر العديدة التي تحيق بالمغرب وعرشه. وكان لا بدّ من استثمار صداقاته العديدة في فرنسا وهيبته العسكرية التي يتمتّع بها لدى زعماء فرنسيين لكي يحصل على المساعدة والوسائل اللوجستية في زمنٍ قياسي.

كانت لفرنسا، حقّاً، مصلحة كلّية في دعم الملكية الشريفية: فلو كسب المهدي بن بركة وأعوانه المعركة، لانتهى النفوذ الغربي في هذا الجزء من العالم. ففي غمرة الحرب الباردة، كانت الرهانات كبيرة وكان الإصرار على الدفاع عنها شديداً في كل معسكر مثلما هو في الآخر. ولعدّة عقودٍ من الزمن، ستطمح فكرتان إلى تقدّم العالم ورفاهيته، في صراعٍ أيديولوجيٍّ سيحكم العالم إلى حين سقوط جدار برلين. ومن لا يُدركْ هذه الحقيقة فإنه لن يكون بوسعه امتلاك فهم متجرّد للأحداث التي جرت في المملكة منذ استقلالها وحتى وفاة الحسن الثاني.

مع أن النظام كان يُحارَب من قبل أناسٍ مسلّحين، كان لا يجوز، في نظر الجميع، المسّ بمحمد الخامس. ولكن الحال لم يكن كذلك مع ابنه مولاي حسن، الذي سرعان ما جرت المحاولة لتصفيته جسدياً. لم يحتج محمد الخامس إلى حراسة، وما كان يلزمه هو رجالٌ لا يرتبطون بأيّة قوّة سياسية. والحال أنّ العسكريين وحدهم يمتلكون هذه الميزة. ومن بين

صفوفهم، اختار محمد الخامس القائد العام الذي سيؤمّن حماية العرش: أوفقير.

في 6 كانون الأول (ديسمبر) 1955، شُكّلت أوّل حكومة للمغرب المستقلّ. ومُثِّلَت فيها الحركة الوطنية بقوّة. في 14 أيار (مايو) 1956، تم تشكيل FAR. وبفضل المساعدة المادية لفرنسا وخبرة الضباط الذي خدموا تحت رايتها، جُهِّز الجيش المغربي خلال خمسة أشهر. وسار، فرحاً، في عرضٍ أمام الملك في الرباط وعلى رأسه أوفقير. ومع أنّ ولي العهد عُيّن قائداً للأركان، عرف محمد الخامس أنّ الخبرة التي اكتسبها أوفقير خلال سبعة عشرة عاماً من الخدمة في الجيش الفرنسي لا غنى عنها لتأدية المهمّة. كما عرف العاهل إخلاص الرجل الذي وثق به: كان أوفقير يخدمه ويطيعه طاعة عمياء، لأنّه كان معجباً به ومقتنعاً بأنّ عرشاً محترَماً وقويّاً وحده يمكنه إنقاذ المغرب من سيطرة الحزب الواحد. كان يرى أنّ المَلَكية يجب أن تبقى فوق الأحزاب والجماعات. ولو أن أيديولوجية اشتراكية ثورية فُرِضَتْ على المغرب لأدّى ذلك في نهاية المطاف إلى إقامة جمهورية. والحال أنّ أوفقير كان من الذين يعتقدون أنّ مقولة إدغار فور الشهيرة «الاستقلال في الترابط» تحقّق الحلّ الأكثر حكمةً لبناء المستقبل. وكان جميع الضباط المغاربة الذين خدموا في الجيش الفرنسي مقتنعين، مثله، بأنّه لا معنى لقطع الجسور مع الغربيين عامةً للوقوع تحت النفوذ الاشتراكي للكتلة الشرقية. وقد احتفظت فرنسا، حتى عام 1962، بقواعد عسكرية في المغرب، وأبقت فيها قوّة قوامها حوالي خمسة وستين ألف رجل. واحتفظ الألوف من الفرنسيين المقيمين في المملكة الشريفية بأراضيهم وممتلكاتهم وكامل حقوقهم فيها.

وأنا جئتُ إلى الدنيا في هذه المرحلة الحساسة للغاية حيث يمكن لكلّ شيءٍ أن ينقلب.

من نوافذ عيادة الدكتور مارمي للتوليد في الرباط، تاهت نظرة أمّي في التأمّل الحزين لضفاف نهر بورقراق. يسمّى النهر بمجراه الذي فرض

الانفصال بين الرباط وسلا، المدينة القديمة للقراصنة. في الثانية والعشرين من عمرها، وضعت فاطمة طفلها الثالث،، ولكن أيضاً صبيّها الأوّل. كانت أمّي حزينة، لأنّها وَلَدَت بدون حضور زوجها.

في الخارج، عمّ الهدوء كلّ شيء. ترجرجت الشمس الغاربة على مصبّ النهر. وانعكست أسوار قلعة أودايا، معلّقة على حافة الجرف، بألوانها الأرجوانية والصلصالية، على صفحة المياه المتلألئة التي تذهب، صقيلةً، متلهّفةً، لمعانقة المحيط. انساب ظلُّ سيارة ليموزين على الزجاج الملوّن للمدخل، وأكّد الصفْق المخنوق والمتواقت لعدّة أبواب وجود مركبات أخرى.

تاركاً الأمن المرافق له وسائقه الفرنسي مسيو مارتي في الخارج، تقدّم محمد الخامس في البهو بمشيته الوديعة الشامخة. مرتدياً الألوان الداكنة، كعادته، جلابية متواضعة، وقبّعة بسيطة من اللباد غدت أسطورية لكلّ المغاربة، ببساطته العفوية التي تمنحه العظمة، تحرّى جلالته بنفسه عن غرفة فاطمة أوفقير. مسبوقاً بالهيجان الموقَّر للموظّفين، ارتقى الملك درجات الطابق، ودقّ بلطف الباب الذي فتحه بنفسه، وفاجأ أمّي في هواجسها. توقف الشخصان أو الثلاثة من أقاربه الذين رافقوه في ركنٍ من الحجرةِ.

قبل أن يجلس على الكرسيّ الذي قُدّم له إلى جانب وسادة فاطمة، هنّأها الملك، ومال على مَهْدي وأخذني بين يديه:

- يا له من طفلٍ أعلن على نحوٍ متميّزٍ عن قدومه الصاخب!

أحسّ محمد الخامس بالاندهاش الذي سبّبته كلماتٌ كهذه لأمّي.

- يا فاطمة، إذا كان أوفقير غائباً، يجب ألاّ تحملي ضغينة له على ذلك. لقد وقع حادثٌ خطير فوق قاعدة سيدي سليمان الأمريكية. فقد طلبت طائرة قريبة جدّاً، تنقل مادّة خاصّة جدّاً مصدرها الولايات المتّحدة، هبوطاً اضطرارياً، وقد اندلعت نيران على متنها. ولهذا قلتُ لابنك بأنّه أعلن عن قدومه بصخب... وبفضل الله، تجنّبنا كارثة كبيرة!

وليُفهِم فاطمة بأنّ الموضوع قد انتهى، تابع محمد الخامس:

- وماذا سنسمّيه؟

أثّر الشرف الكبير الذي منحها جلالته برغبته في تسمية أحد أولادها على أمّي في أعمق أعماقها. ففي أعرق التقاليد المغربية، من الشائع أن يطلب المرء من الشخص الأكثر تقديراً واحتراماً عنده أن يسمّي طفله. بعد ابنتيها مليكة ومريم اللتين اختارت اسميهما بنفسها، ابتهجت فاطمة وافتخرت بأن يُسمّى ابنها من قبل ملك المغرب. إذاً، لقد حظيتُ بامتياز الولادة بين يدي ملكٍ عظيمٍ، يجلّه شعبه، سمّاني مولاي رؤوف.

كما حضر محمد الخامس ووليّ عهده الحفلة التي أقامها لي والداي. وكما تقتضي أعراف القصر، جلب الملك هديّة للطفل الذي تكرّم بتسميته وسلّم إلى أمّي كيس نقودٍ من المخمل يحتوي على مئة ليرة ذهبية: مئة نابليون[1].

في أواخر عام 1958، أي بعد أقل من عام على ولادتي، قامت انتفاضة الريف التي تكفّلت بقمعها حكومة عبد الله إبراهيم، ذات الأغلبية الاستقلالية المطلقة. وفي 6 أيلول (سبتمبر) 1959، تمّ الانشقاق في صفوف حزب الاستقلال. أسّس المهدي بن بركة الاتحاد الوطني للقوى الشعبية UNFP، القوّة السياسية الجديدة التي اتّجهت نحو الراديكالية، وضمّت الوزير الأوّل عبد الله إبراهيم. كان UNFP اشتراكياً ومعادياً للإمبريالية وثورياً وعالمثالثياً وجمهورياً. أدرك الأمير مولاي الحسن مباشرة المواجهة التي ترتسم في الأفق: فالصراع مع بن بركة وأتباعه يتركّز بكل بساطة على طبيعة النظام ذاته. هل سيكون المغرب ملكية مطلقة أم جمهورية اشتراكية شعبية.

في خريف 1959، حجّ محمد الخامس إلى مكّة. وإذ شعر بهبوب

(1) نابليون: عملة فرنسية ذهبية. المترجم

رياح الخطر، جعل أوفقير يُقسم بالأماكن المقدّسة، داخل الكعبة، على أن يخدم ابنه بالإخلاص نفسه الذي خدمه به. وفي عام 1960، اتُّخذت خطوة أخرى: قدّر محمد الخامس أنّ الملكية توفّرت على الأسلحة الكافية لئلاّ يُسمَح بمشاركة الحركة الوطنية في شؤون البلاد. حُلَّت حكومة عبد الله إبراهيم، وعيّن العاهل وليّ عهده مولاي الحسن رئيساً للحكومة. سقط القناع. واحتكر القصر السلطات المطلقة.

انضمّ الكثير من خصوم حزب الاستقلال إلى القوات المسلّحة الملكية والخدمة المدنية. وفي 13 تموز (يوليو) 1960، عيّن محمد الخامس أوفقير مديراً للأمن الوطني بديلاً من محمد الغزاوي، أحد رجال حزب الاستقلال، الذي أسّس هو نفسه البوليس السياسي.

في مواجهة هذه المصادرة للسلطة من قبل العرش، قرّر المهدي بن بركة فسخ تحالفه مع القصر. تردّد زعماء حزب الاستقلال في دفن ميثاقٍ سبق أن ترسّخ بالكفاح المشترك في سبيل الاستقلال، وحاولوا إقناع أنفسهم بأنّ الأمر يتعلّق بأزمة عابرة فحسب، وأنّ العرش لا يستطيع أن يدير وحده تطوّرات البلاد، وأنّه لا يستطيع الاستغناء عنهم طويلاً. كان بن بركة أقلّ تفاؤلاً وأدرك أنّ الملكية قد تبنّت خياراً لا رجعة فيه. وفي ظلّ الحسن الثاني ستتجه نحو الحكم الفردي.

جعل المهدي بن بركة، كمنظّم كبير، من UNFP تنظيماً منافساً ومنظّماً ونشيطاً. وراح كلّ مَنْ يشعُرون بالضيق في الحركة الوطنية يتبعونه. وكلّ مَن كانوا مقتنعين مثله بأنّ السبيل الوحيد الممكن لمواجهة ملكية تتجه نحو الراديكالية هو السلاح انضموا إلى تنظيمه. واعتقدوا بأنّه إذا كان النظام لا يستند سوى إلى قوتّه، فيجب إسقاطه بالقوة! وكان حزب بن بركة يمتلك خلايا سرية ثورية، وشبكات من نشطاء مستعدين للكفاح المسلّح ضدّ دكتاتوريةٍ زاحفة.

تفاقمت الأزمة، وتوالت المؤامرات. وكذلك محاكمات المعارضين. فدخل المغرب في حلقة جهنمية، ستكون مراحلها الأساسية مؤامرة 1963،

والحرب مع الجزائر المجاورة التي ساند فيها بن بركة الأخ الاشتراكي ضدّ الملكية الرجعية (الأمر الذي كلّفه حكمين بالإعدام غيابياً بتهمة الخيانة العظمى)، واغتياله في عام 1965، ثمّ محاولة الانقلاب العسكري في 10 تموز (يوليو) 1971، وانقلاب أوفقير في 16 آب (أغسطس) 1972! الكثير من التواريخ الحاسمة التي حدّدت معالم تصاعد ملكية مطلقة بالقوة، الكثير من الأزمات المأساوية لصراعٍ سينكشف ضارياً.

ذات مساءٍ من عام 1961، ألبستني أمّي أجمل ثيابي. وذهبنا إلى القصر الملكي في الرباط. وقفت السيارة تحت سقيفةٍ مهيبة، أمام بابٍ خشبيّ ضخمٍ مرصّعٍ بمهارة، تزيّنه مصاريع برونزية ضخمة. هنا نعرف مَنْ يحظون بامتيازِ الدخول إلى القصر في أيّ وقت: وكانت أمّي في عدادهم. كان القصر، في عهد محمد الخامس، مكتنفاً بالأسرار، منيعاً أكثر مما سيصبح عليه في عهد الحسن الثاني. في زمن محمد الخامس، اتّسمت الحياة في القصر بالكتمان والبساطة والحميمية العائلية الصارمة، بينما ستظهر مع عهد الحسن الثاني مظاهر البذخ والترف والتكلّف. أصبح الدخول إلى القصر أسهل، وباتت أسراره أكثر شيوعاً، الأمر الذي أثار حفيظة للاّ عبلة، والدة الحسن الثاني، التي كانت ترى أنّه من المحزن أن ينعدم الكتمان والصرامة، وتقول إنّ ذلك سيضرّ بالسموّ الذي ينبغي للقصر أن يكون عليه: أن يكون قدوةً للجميع.

وصلنا إلى سرادق فخيم، وعبرنا الفناءات الواسعة التي يرتادها القليل من الناس، حيث إنّ المهمة المفروضة على فردٍ واحد لم تُنجَز حينذاك من قبل مئة شخص. سرتُ، متشبّثاً بيد أمّي، مرفوع الرأس، مشدود العينين إلى الأسقف العالية المصنوعة من خشب الأرز الخالص، المزيّنة بتعاريق معدنية رفيعة وخشاخيش ذهبية وأسناخ ساحرة، محفورة في زخارف من الجصّ ناصعة البياض أصابتني بالدوخة. وسأعرف، بمرور الزمن، أنّ كلّ ذلك الجمال لم يخفّف من حدّة الدسائس، وأنه قد تنمو وسطه بشاعة مصالح الممالقين، وفظاعة الأحقاد القاتلة. دخلنا إلى

مدخل المباني الملكية! أقبلت للاّ عبلة نحو أمّي فاتحة ذراعيها، واستقبلتها بابتسامةٍ وبكلمات الترحيب. وارتمت للاّ بهية، الزوجة الثانية لمحمد الخامس، المتمسّكة بشخصيتها المرحة، بين ذراعي فاطمة. لم يكن محمد الخامس قد فكّر أبداً في اتّخاذ زوجتين، معبّراً باستمرار عن رأيه في هذا الموضوع: «لا أريد أن أكرِّر أخطاء الماضي. إنّ الملك الذي يكون لديه أولاد من عدّة زوجات يخاطر بعرشه. فغالباً ما ينجم عن ذلك صراعٌ بين الإخوة على الخلافة. إذ يمكن لكلٍّ واحدة من الزوجات إدّعاء شرعية الخلافة وأحقيّة ذرّيتها فيها.» ولكنّه، وقع ذات يومٍ في الغرام. وكعامّة الناس، غلبته مشاعره فتزوج من للاّ بهية. أنجبا ابنةً، للاّ أمينة، في المنفى إبان عهد الحماية الفرنسية. وغدت الأميرة الصغيرة بالنسبة للجميع تميمة الاستقلال. أحبّها والدها حبّاً جمّاً، وأعزّها الشعب ودلّلها. حينما طلب محمد الخامس من والديّ أن تكبر مليكة معها، كان التكريم كبيراً لدرجة أنّهما لم يستطيعا رفضه.

في الواقع، كانت زوجتا محمد الخامس متناقضتين في كلِّ شيء: الجمال أوّلاً: لم تكن للاّ عبلة تتوفّر على مقاييسه المثالية. ولكنّ ذلك لم يمنعها من أن تكون امرأة من طرازٍ نادرٍ وعلى أناقةٍ رفيعةٍ. كانت ذات طولٍ فارعٍ ونحيفة وهيفاء، تضع غطاءً أنيقاً على رأسها. بشرتها كامدة، وعيناها غائرتين في ظلِّ حاجبين رفيعين. نظرتها ثاقبة، وتعرف كيف تجعلها متكبّرة حينما تضطرّ لإظهار مقامها ومكانتها. وتشيع بهدوئها المؤثّر، جوّاً رائقاً. يتحرّك كلُّ شيء من حولها على إيقاع رزانتها اللبقة. وتعيش حاشيتها تحت هيبة سلطتها الصارمة. لا تنجرف أبداً إلى الانفعال الذي كانت تعتبره مقدِّمة للسوقية وفقدان الاتزان. تلك المرأة التي أظهرت لي محبّة بليغة لم تكن تبذلها إلاّ نادراً، ألهمتني على الدوام شعوراً عذباً، صادقاً، واحتراماً عميقاً لها.

أمّا للاّ بهية، فكانت على جمالٍ نادرٍ. يشعُّ وجهها العذري بقسماته الناعمة تحت بشرةٍ بيضاء صقيلة. يظلّل عينيها العسليتين، الجميلتين

كعيون المها، رداءٌ من رموشٍ كثيفةٍ ومقوّسة بحيث تستغني عن أيّ تجميل أو تصنّع. وتحت شفتيها المكتنزتين الشهيّتين بزاويتهما تلمع أسنان ناصعة البياض. كانت للاّ بهيّة ذات شخصية ودودة ومعبِّرة، كريمة في حنانها مثلما هي في نزقها واحتدادها. تلك الشخصية المتمرّدة، المولعة بالحرية، لم تعرف أبداً كيف تتحرّك وسط المتطلبات الدقيقة لحياةٍ فرضها القدر عليها.

أحسنت أمّي، بكلامها الخالي من التملّق والتساهل، في إثارة محبّتهما الصادقة. وقد عبّرتا لها باستمرار عن مودتهما، ولكن كلٌّ حسب مزاجها.

جلست للاّ عبلة وللاّ بهية وأمّي في ذلك الصالون الصغير، وتبادلن أطراف الحديث. فعيل صبري. بعد ذلك بسنواتٍ عديدة، روت لي أمّي ما لم يكن عمري يتيح لي أن أفهمه آنذاك. ووصفت لي بدقّة تلك الليلة، ليلة 25 شباط (فبراير).

بدت للاّ بهية متوتّرة أكثر مما هي في العادة. عبّرت عن قلقها، ويدها المضمومة بين يدي أمّي:

- تعلمين يا فاطمة، الموعد غداً، إلهي، أتمم هذا بخير!

قالت أمّي وهي تربت على فخذها:

- أجل، سيجري كلّ شيء بخير، سيرعى الله ملكاً محبوباً من شعبه، ولا تزال البلاد في حاجة ماسّة إليه.

حاولت للاّ بهية، باكيةً، أن تقتنع بالكلام. ووضعت للاّ عبلة حدّاً لذلك التهاون:

- فاطمة محقّة، كلُّ شيء بيد الله، ولن يتخلّى الله عنّا.

ماذا كان يخفي ذلك التخوّف؟ ماذا كان سيجري في اليوم التالي؟ سُمِعَت همسات في الممرّ. نهضت النسوة الثلاث بحركة واحدة، تفاجأت، فلم يسعفني الوقت لأفعل مثلهنّ. دخل الملك إلى الصالون،

فقبّلن يده، وأعربن عن قلقهنّ على صحّته. سعى جلالته، هادئاً، إلى أن يحتفظ بابتسامةٍ خفيفة تجمّدت، للحظةٍ، في تكشيرة منقبضة، بانت عن ألم. عدتُ بهدوء إلى الوراء واختفيت خلف أمّي لشدّة ما أثّر عليّ حضور هذا الرجل. لطفه وبساطته الشديدة جعلاه أكثر احتراماً وتقديراً وأكثر سمواً في عيون الجميع.

في ذلك الصالون الصغير، في مساء 25 شباط (فبراير) 1961، رأت أمّي محمد الخامس للمرّة الأخيرة. ولا تزال تحتفظ بصورة رجلٍ وسيم ذي حركاتٍ هادئة ورصينة. كان يتضوّع صفاءً مهدِّئاً ومؤثِّراً، يرتديَ جلبابه الكستنائي وقبّعة لبّادية من اللون نفسه، وقميصاً وردياً. لا شيء في وجهه ينمّ عن أيّ مرض، ولا حتى في سحنته الصافية المشرقة المتورّدة. لا شيء ينبئ بموته الوشيك، اللهمّ سوى بعض الإشارات الغريبة التي لم يفهم كثيرون معناها إلاّ بعد فجيعة وفاته. فقبل عدّة أسابيع، سمعت أمّي للاّ بهية تقول للعاهل وهو يحضر نقل إحدى نسيباته إلى مثواها الأخير:

- سيّدي، ليمنح الله جلالتك حياةً مديدة، ويسعدني بأن أُدفَن ذات يومٍ بهذه الطريقة على يدي جلالتك.

فأجابها محمد الخامس حزيناً:

- لا تقولي هذا، لا أحد يعرف مَنْ سيدفن الآخر. ربّما أنتِ مَنْ ستدفنينني!

قبل وفاته بتسعة أيام، في اليوم الأوّل من شهر رمضان، وكما يقتضي العرف، وزّع الملك بنفسه **الفاكية**، وهي خليط من الفاكهة المجفّفة والسكاكر الناعمة. سمعته أمّي يقول:

- كلوا، كلوا، لا تتردّدوا! كلوا اليوم، ما دمتُ موجوداً، فربّما غداً لن تجدوا أحداً يُطعِمكم!

في مرّة أخرى، وقد لجأ إلى شرفة الطابق الأخير من قصر الرباط، أسرّ الملك إلى أمّي، التي أبدت قلقها لحزنه:

- آه! يا فاطمة، لو تعرفين، أحياناً تتملّكني الرغبة في أن أرمي

بنفسي من علوّ هذه النوافذ. . .ولم تستطع أمّي، المذهولة، أن تعبّر عن ذُعرها سوى بسؤالٍ ساذج:

- ولكن. . . ولكن. . . لماذا يا سيّدي؟

مرّة أخرى، وإذ أثار محمد الخامس القلق والأحزان، هدّأها بفكاهاتٍ مختَلَقةٍ لم يستطع أحدٌ أن يكشف المرارة التي تكتنفها.

- من الصعب جدّاً حكم بلدٍ فتيٍّ لدرجة أنني أشعر بنفسي، من حينٍ إلى آخر، منهوكاً، هذا كل ما في الأمر!

وقد ظلّت كل تلك التلميحات المتفرّقة إلى الوساوس التي أثارها قدرٌ مشؤوم، غامضة بالنسبة إلى اللواتي أو الذين كانوا قد سمعوها. ولم تتضح إلاّ في عتمة رحيله الفاجع.

استأذننا جلالته أسفل السلالم التي تؤدي إلى شققه. بعد أن صعد أولى درجاتها، التفت محمد الخامس، مطلاً على الأشخاص الحاضرين، ليتمنّى لهم ليلة هانئة.

ردّت أمّي:

- ليلةٌ هانئة، يا سيّدي، ليعِن الله جلالتك ويحفظك.

نزل الملك بضع درجات، تاركاً يده الناعمة البيضاء تنزلق على الدرابزين الصقيل:

- ليلة هانئة، يا فاطمة. اعتني جيّداً بأولادك وبأوفقير، لأنه، فيما ينتظره، سيحتاج إلى المزيد من مساندتك وتفهّمكِ.

لم تُفاجأ فاطمة كثيراً بهذه التوصية التي لم تكن جديدة. حينما عيّن محمد الخامس، في تموز (يوليو) 1960، والدي مديراً للأمن الوطني، بناءً على نصائح المهدي بن بركة، تجرّأت والدتي، المذهولة، على أن تعبّر عن لومها للملك:

- سيّدي، أوفقير عسكري، دعه في الوظيفة التي خُلِقَ لها، فالجنود ليسوا معتادين على الرمال المتحرّكة للسياسة!

لم يستطع العاهل أن يحجم عن ابتسامة أبوية:

- يا فاطمة... يا فاطمة، إذاً لن تتغيّري أبداً! إنّ أيّة زوجة أخرى كانت ستأتي لتشكرني على هذه الترقية. وأنتِ تجدينها إكراهاً، وتضحية. ما سيدهشك أكثر هو أنني أشاطركِ ردّ فعلك وأتفهّمه... ولكنّكِ ترين يا فاطمة، هناك رجالٌ لهم قدر وأوفقير من هؤلاء. هل حقّاً تعتقدين في قرارة نفسك أنّ زوجك سيدخل اليوم فقط، ومن خلال هذا التعيين، حقل السياسة؟ تعرفين تمام المعرفة أنّ كفاءاته ومزاجه قادته إليها حتى قبل الاستقلال.

مهما بلغت قوّة إخلاص أوفقير لمحمد الخامس، فقد بقي الملك مدركاً أنّ الرجل الذي يثق به لن يستطع أن يُظهر كامل طاقاته إلاّ إذا كانت زوجته تشاطره القناعات نفسها وتدرك معناها وغايتها. كان الملك وآل بيته يعتبرون فاطمة فرداً من عائلتهم.

اتّسمت تلك السنوات الأولى من الاستقلال بعدم الاستقرار وبالتوترات والحسابات الإستراتيجية.

واجه محمد الخامس، حتّى عشية وفاته، الهجمة الضاغطة التي شنّها عليه حزب الاستقلال والاتحاد الوطني للقوى الشعبية. كان لهذين التنظيمين قواعد جماهيرية وشبكات وأسلحة، والحماسة الشعبية التي أجادا اجتذابها إلى المعركة من أجل الاستقلال. ولم يكفّا عن إظهار تهديداتهما. وقد قاما بهجومٍ مركّزٍ ليحصلا من محمد الخامس على إقامة ملكية دستورية. نفد صبر المَهدي بن بركة ولاسيما أنّه أدرك طموح الأمير مولاي الحسن الذي عزم على ألاّ يدع والده يفرّط بسلطته المستقبلية. فشخصية هذا الأمير الشاب، الذكيّ والحازم، لا تُهيّئه لأن يكون دمية في يد حزبٍ سياسي. لعب كلٌّ على ثغرات الشطرنج السياسي المغربي، الموروثة من فرنسا، التي حافظت عليها ببراعة حسب المبدأ البسيط والفعّال: فرّق تسد. أجّج فجر الحرية المُستعادة نار الفرحة الجماعية

العارمة، وهيّج الشهوات، وفاقم من مخاطر الحريق. ظلّ المراقبون المجرّبون مدركين لخطورة الرهان في وضع دوليّ محكوم بالحرب الباردة. كانت خارطة المغرب العربي، مع الجزائر التي كانت تتهيأ للاستقلال، ترتسم في معظمها بالجمهوريات الاشتراكية. وأسقطت الناصرية، المحسوبة على خطّ موسكو، المعادية للملكيات العربية، الملكية المصرية أوّلاً، والسورية[1] والعراقية فيما بعد، ومن ثمّ الليبية. لم يكن أمام المغرب سوى خيارين: إمّا سلوك طريق الاشتراكية، والحزب الواحد الذي يتزعّمه المهدي بن بركة وأتباعه، أو اتّباع طريق ملكية، لا بدّ أن تكون قويّة حتى وإن كان ثمن ذلك القمع. ولكن قبل أن تكون قوية في الخارج، ينبغي لها أن تكون كذلك في الداخل. وكلا الطريقين يمرّان من خلال محمد الخامس. فقد عرف حزب الاستقلال أنّه، وقد غدا بالنسبة للشعب المغربي رمزاً للاستقلال، لا يمكن تجاوزه. وإذا كان اليسار المغربي قد استخدم، في الأمس، اسم محمد الخامس للتحالف مع الجماهير، أما اليوم فإنه متضايقٌ جدّاً من مجاملة ملكٍ بات لا يمكن المساس به ويريد أن ينتزع منه ملكية دستورية. وإذا ما أصبح مولاي الحسن ملكاً، يعرف المهدي بن بركة وأتباعه ما سيؤول مصيرهم إليه!

تصرّف محمد الخامس بدهاء وبدبلوماسية وكسب الوقت ليجهّز الملكية بأسرع وقت ممكن بدرعٍ فعّال: جيشٌ بنيته الأساسية من العناصر التي خدمت في الجيشين الفرنسي والإسباني، وجهاز شرطة قادر على حماية النظام من أعدائه. وقد أُلقيت هذه المهمّة على عاتق أوفقير. ولكنّ فاجعة طارئة تهيّأت لوضع حدٍّ لذلك الستاتيكو المتفجّر.

---

(1) لم تشهد سوريا النظام الملكي منذ استقلالها، وربّما يقصد المؤلّف، هنا، تجربة الملك فيصل . المترجم

الفصل السادس

الكسوف

صبيحة 26 شباط (فبراير) 1961، اصطحب الأطباء جلالة الملك محمد الخامس إلى غرفة العمليات. تهيّأ الملك، البالغ اثنين وخمسين عاماً، للخضوع لعملٍ جراحي غير خطر. كان الغرض منه، حسب الرواية الرسمية، إجراء عمليّة لوتيرة الأنف التي تمنعه من التنفّس بشكلٍ سليم. ابتسم الملك وطمأن عائلته، قائلاً: «كلّ شيء سيكون على أفضل ما يُرام». اعتبر الجميع أنّها عملية بسيطة لا تستغرق أكثر من ثلاثة أرباع الساعة. في قاعات الانتظار، ساد التوتّر الخفيف الذي يبرز عادة أثناء حدث كهذا. ولكن ساد الاطمئنان. ودلّت على ذلك الأحاديث العادية التي جرت هنا وهناك. كان ولي العهد الأمير مولاي الحسن يخرج من حينٍ لآخر من قاعة الجراحة لطمأنة أهله.

حينما دوّى الصدى الكتوم لمنبّه ساعةٍ، كانت للاّ بهية أوّل من أبدت علامات القلق، فقالت شاحبةً:

«ها قد مرّت ساعتان وهو يخضع للعملية، لقد قيل لنا إنّ...»

قاطعتها للاّ عبلة، التي ظلّت رابطة الجأش، وحاولت إقناعها وتشجيعها:

- إنّه من الطبيعي يا بهية أن يستغرق الأمر مزيداً من الوقت إلى حين الاستيقاظ التام لجلالته من التخدير. لا تقلقي، كلّ شيء يسير سيراً حسناً.

استطالت الدقائق وغدت أكثر تثاقلاً. توقّفت الأحاديث، تاركة مكانها لهمساتٍ نادرة. واتّجهت الأنظار لاإراديّاً إلى للاّ بهية. بدا أنّ توتّرها عمّ الحضور. تعاظم القلق. وبدا الهواء متخلخلاً. ولم يظهر مولاي الحسن من جديد.

ارتسم على وجه للاّ عبلة المغلق انقباض معبِّر. رنّت الساعة من جديد، معلنة في المجلس نهاية الهدوء وتملّك الأعصاب. نهض الجميع، وساروا في الممرّات. تجنّبت النظرات الشاخصة بعضها، ولم تلتقِ، خشية أن تكشف عن إثبات تخوّفٍ مشترك. ترقّب الجميع بيأس أدنى إشارة أو صوتٍ قد يبدران من باب قاعة الجراحة، الذي لُمِحت من خلف زجاجه السميك الملوّن تلويناً خفيفاً تحركاتٌ محمومة، مقلقة.

تصبّب الأطباء الذين يجرون العملية لمحمد الخامس عرقاً، شاحبي الوجوه. أصابت الملك سكتة قلبية، ويُحتَمل أن يكون ذلك من جراء التخدير. أدركوا أنّ بين أيديهم رمزَ شعبٍ وأمل بلدٍ بأكمله. شرعوا مباشرة في التدابير الطبية الطارئة. ولكن لم يجدِ أيُّ شيء. ذهب الجرّاحون إلى حدّ فتح شقّ واسعٍ في البطن ليدلّكوا بأياديهم اليائسة القلب المتوقّف للعاهل. لم يكن أيٌّ منهم مختصّاً في أمراض القلب، إذ لم يرَ الملك ضرورة حضور طبيبٍ أخصّائيٍّ. هل قصد برغبته تلك ألاّ يُحاط بالاحتياطات الاعتيادية، برغبة، شعورية أو لاشعورية، في وضع حدٍّ لآلامه؟ هل هي إرادة واعية في أن يقدِّم بموته السلطة لابنه؟ هذه أسئلة ستُطرَح لزمنٍ طويلٍ دون إجابة. وشعوري هو أنّ هذه الميتة، إن لم تكن مدبّرة، فهي على الأقل كانت متوقّعة من قبل محمد الخامس.

للحظةٍ، انجرف الأمير وليّ العهد للتأثّر الذي اجتاحه، ثمّ تمالك نفسه أمام المسؤولية الكبيرة التي وقعت على كاهله منذ تلك اللحظة. استجمع كلّ قواه وحكّم عقله ليُظهِر رباطة جأشٍ تخفي ألماً شديداً وصادقاً. انتحل قناعاً خادعاً، عاد إلى أمّه وأسرته ليعلم الحاشية بحسن سير العملية:

- استغرقت العملية من الوقت أكثر مما كان متوقّعاً. نُقِل جلالته إلى غرفته حيث لابدّ أن يرتاح أوّلاً، بعد استيقاظه من التخدير، قبل أن يتلقّ أية زيارة.

فطلب سرّاً من أهله أن ينتقلوا إلى صالونٍ خاصّ وتوارى خلف أبواب المبنى. وفي حجرة صغيرة مجاورة ناقش الأمر مع محمد أوفقير، مدير الأمن الوطني. لا بدّ من اتّخاذ الإجراءات الطارئة لضبط الوضع. في البداية، احتواء موجة الصدمة الرهيبة، التي، بعد عدّة ساعات، ستمزّق البلاد وتبلبلها، وتصيب الشعب بأكمله. ثمّ ترتيب تفاصيل أوّل عمل لعهدٍ جديد يبدو صعباً. أوّلاً لأنّ ما عرف عن محمد الخامس من شعور قويّ وحبّ صادق وإخلاص أيقظه لدى عموم رعاياه لن يخدم الحسن الثاني. وسيكون سلفاً ضحية الأحكام المسبقة. وسيرفض المغاربة تحت تأثير الصدمة لزمنٍ طويل هذا الرحيل المفجع. سيشعرون بيتمهم ولن يقبلوا بأن يحلّ ملكٌ آخر محل محمد الخامس، حتى وإن كان ابنه.

عرف الحسن الثاني أنّ إحباط الشعب هذا قد يُستَغلّ ضدّه من قبل أعدائه. وإذ لم تكن رؤيته للأمور محجوبة بأيّ وهم، وسلطته لا تحظى بأيّ رضى، فإنّ الملك الجديد استمدّ من أعماق هذا الواقع المرّ القوّة التي قد لا توحي له بخلافةٍ هيّنة. إذا كان الملك قد ارتاح لهذا الجرح لشحذ أسلحته، فأيّ إنسان هو؟ وإذ حُرِم جوراً من المظلّة الآمنة التي هي الرأي العام المؤيّد، وأدرك أنّ طريق المشاعر مرفوضٌ بالنسبة له، لم يؤمِن سوى بسلطته لمواجهة التحدّي الذي ينتظره. وإذ لم يعتمد الحسن الثاني على تسامح رعاياه، فلن يستند سوى على نقاط ضعفهم: الخوف، الجشع، الطمع. عرف أنه بدل أن يكون محبوباً، لكي يكون محترَماً، عليه أن يكون مرهوب الجانب، وأن الإذعان الإجماعي الذي لا يحظى به سوف يُشترى بأسرع من أن يُنشَر. ولن تكون المرارة المكتومة في أعماق قلب الملك الشاب دون عواقب على أعماله وأساليبه وعلاقاته حيال الآخرين. لا أحد أكثر من الحسن الثاني يذكّرني بكلمات لا روشفوكو:

«لا يكفي امتلاك مزايا عظيمة، يجب دعم ذلك بالاقتصاد.» كان الحسن الثاني ذكيّاً، حاذقاً، عديم الشفقة، مثقّفاً وذا شخصية ساحرة. كان رجل سلطة بالولادة. جعله حزمه مرهوب الجانب.

بعد ظهيرة 26 شباط (فبراير)، وُضِع الجيش والشرطة في حالة تأهّبٍ قصوى. بعد تأكّده من حسن سير الإجراءات المتّخذة، عاد مولاي الحسن إلى أمّه وأهله. عند دخوله، نهض الحضور. وكانت للاّ بهية وأمّي من أوائل مَنْ شحبن. أفشت سيماء الملك الجديد الحسن الثاني الكلمات التي تهيّأ للنطق بها:

- مات الملك. . . إنّا لله وإنّا إليه راجعون!

فهزّت ضجّة رهيبة وصرخة مدوّية جدران العيادة الملكية. واجتاحت تلك الأصداء المأتمية كلّ أروقة القصر، وأظلمت، في بضع ساعات، المملكة وجمّدت قلوب المغاربة. وعبرت قبضات نساءٍ وخدم الزجاجَ السميك لنوافذ العيادة بغضبٍ شديد. أُغمي على للاّ بهية. وبكت أمّي ألمها، منكمشة على السجّادة. وحطّمت للاّ عبلة، متكزّزةً، شاحبةً أكثر من كفنٍ، اللآلئ الصدفية لمسبحة بين أصابعها وهي تتلو الآيات القرآنية. وتعدّدت النوبات الهستيرية وسط ذلك الرعب العام. وساد الارتباك والحيرة بين الموظّفين المعالجين. وسارت بعض الممرضات اللواتي سيطرن على انفعالاتهنّ بين مجموعات الأشخاص المنهارين، مع محاقن جاهزة لتقطير مزيجٍ من المهدّئات. ونقلت نقالاتٌ بعنف نساءً ورجالاً مغمى عليهم.

وسم رحيل جلالة الملك محمد الخامس الذاكرة الجماعية للمغاربة. والحزن الذي استغرق كلّ الشعب أغرق ايضاً روحي الطفولية البريئة. علاوة على أنّ الذكريات المتوقّدة والمنفعلة لوالديّ قد حافظت على ذكرى وفاة محمد الخامس، أحتفظ شخصياً بصورةٍ جليلة عن تلك الوفاة: صورة أمّي وأنا محاطَين ببعض الموظّفين المنتحبين، جالسَين على

شرفة آخر طابقٍ من مبنى الأمن الوطني الذي كنّا نسكنه. من ذلك المرصد المتميّز، استطعنا أن نعيش اللحظة الأكثر احتفاليةً وتأثّراً: مرور النعش الملكي في شارع محمد الخامس. كان الموكب الجنائزي، مصحوباً بآلاف المسؤولين الكبار من المغاربة والأجانب، يسير وسط جمعٍ بشريٍّ كبير. كان الدويّ المخنوق لطبول الحرس الملكي، والحشرجة اليائسة للجمهور الهائج يضبطان إيقاع مسيره الاحتفالي. وقد انتحر أو مات نحو أربعين مغاربياً تحت صدمة هذا الحزن الفاجع.

طبع وجه أمّي المتشنّج بالدموع إلى الأبد في داخلي صوراً مأساوية وصادمة عن يوم 26 شباط (فبراير) 1961. وتشاءمت السلطة الجديدة التي انبثقت وسط الألم بمستقبلٍ غامضٍ ومخاطر غير مشكوك فيها.

مع قدوم الحسن الثاني، لم يظهر ملكٌ جديدٌ على العرش فحسب بل وأُقيم نظامٌ جديد أيضاً.

وسرعان ما تحسّبت المعارضة لذلك. فقد خشي بن بركة باستمرار من أن يتمكّن الحسن الثاني من أن يخلف محمد الخامس. اقتربت المواجهة النهائية. جذّر المهدي بن بركة الصراع. وأيّد الذين انضمّوا إليه إسقاطَ النظام بالعمل المسلّح في حين احتمى الحسن الثاني بالجيش الذي أثبت كفاءته وقدراته في الريف وغيرها من المناطق. توجّهت كلّ الأنظار، في العواصم الغربية، نحو المغرب. خشيت الديمقراطيات في الشمال من أن تجد الشيوعية موطئ قدمٍ في المغرب العربي. ودافعت عن مصالحها غير آبهة بالأخلاق السياسية التي تسارع إلى الدفاع عنها حينما يتعلّق الأمر بأممها. راهنت الصحافة الفرنسية على أنّ الحسن الثاني لن يحكم لأكثر من ستّة أشهر. من جهتها، جعلت القوّة السياسية المنظّمة، والمساعدات التي تلقّاها بن بركة، في القاهرة ودمشق وبغداد وكوبا والجزائر، وكلّ الكتلة الاشتراكية، من زعيم اليسار الشخص المفضّل للسباق إلى السلطة.

منذ عام 1963، اتّخذت العداوات بين المعارضة والقصر طابعاً

جدّياً. انهارت التسوية التاريخية التي ربطت بين القصر والقوميين. وتوطّدت الجزائر المجاورة، المستقلة حديثاً والاشتراكية، وعزّزت موقعها. قدّر بن بركة، وهو يرى في ولادة الجمهورية الفتية الشعبية منبراً أخيراً للقضاء على الملكية الشريفية، أن اللحظة قد حانت لتسديد الضربة القاضية النهائية. في تموز (يوليو)، ضايقت الجزائر المغرب على حدوده. وتواترت اشتباكات بين جيشي البلدين.

حينما غدت الجزائر مستعمَرة فرنسية في عام 1830، لم تتوانَ الدولة المستعمِرة عن إعادة ترسيم الحدود التي كانت تفصلها عن المغرب. وفي عام 1945، وقّعت فرنسا مع المملكة الشريفية اتّفاقاً يحدّد الحدود البحرية في المتوسّط مع الجزائر بينما أبقت حدودها البرية في جنوب-شرق البلاد غامضة وغير محدّدة. اكتُفيَ بالتسمية الغامضة «الحدود الجزائرية-المغربية» للإشارة إلى الرمال الصحراوية بين البلدين. كان البلدان الجاران المغاربيان متضامنين في النضال من أجل الاستقلال، ولذلك أجّلا نزاعهما على الأراضي، هذا النزاع الموروث من المحاباة الاستعمارية لطرفٍ على حساب آخر. وعد قادة جبهة التحرير الوطنية FLN المملكة الشريفية بأنّهم ما إن ينالوا استقلالهم، سيجدون حلاً عادلاً للتعسف الذي تسبّبت به فرنسا. حينما تحرّرت الجزائر، بقي ذلك التعهّد حبراً على ورق. على العكس، زادت الجمهورية الشعبية من اجتياحاتها للأراضي المغربية حتى غير المتنازع عليها. في بداية عام 1963، زامن ضغطها على جارتها مع الهجوم الحاسم الذي كان اليسار المغربي يتهيّأ لشنّه على العرش.

في الصيف، زادت المناوشات والاشتباكات. وأعدّ حزب بن بركة وجناحه المسلّح بقيادة الفقيه البصري، أحد أوائل المقاومين، لهبّةٍ شعبية. وموّنت شبكات قادمة من الجزائر الخلايا السرية للاتحاد الوطني للقوات الشعبية UNFP.

ولكي يرتّب كلّ الفرص من جانبه، قرّر المهدي بن بركة، بالتوازي مع ذلك، القيام باغتيال الحسن الثاني. وكُلِّف الفقيه البصري بالتقرّب من

أحد أكثر الضباط قرباً من الملك الجديد، رئيس ديوانه العسكري، العقيد محمد المدبوح. لم يكن هذا الريفي، الضابط السابق في الجيش الفرنسي، مجافياً للأفكار اليسارية. على الأقلّ، هذا هو السبب في تعرّضه لشائعة أنّه كان متورّطاً في مؤامرة 1963. سار المدبوح مع المعارضة وسلّمها المخططات التفصيلية لقصر الرباط. وكانت الخطّة تقضي بقتل الملك في سريره. إلا أنّ المدبوح أخبر في اللحظة الأخيرة الملك بالمؤامرة. وشرح له بأنّه انخرط في المؤامرة ليفضحها على نحوٍ أفضل. وسواءٌ كان ذلك صحيحاً أم خاطئاً، فقد أدّى ذلك إلى بروز نجم الضابط وصعوده السريع. وسيكون بعد ذلك بسنوات، في عام 1971، وهو في ذروة عمله المهني، المدبّر الرئيسي للانقلاب العسكري في المغرب. أكّد المدبوح في اعترافاته للملك أنّ الوحدة الخاصّة المكلّفة بالاغتيال تلقّت الأمر بألاّ يوفّروا أحداً من أفراد عائلته، ولا حتّى الأميرة الصغيرة، للاّ مريم التي كانت لا تزال في المهد. أراد حزب المهدي بن بركة، تماماً على غرار البلاشفة في عام 1917، أن يبيد الملكية عن بكرة أبيها بغية تخليد الثورة. كانت تلك الحادثة مفصلية لأنّها صمّمت العلاقات المستقبلية بين بن بركة والحسن الثاني. ولن ينس عاهل المغرب ذلك أبداً.

طالت اعتقالات غامضة لا سابق لها أعضاء المعارضة. واستجوِب المئات من النشطاء اليساريين. فرّ المهدي بن بركة سرّاً من البلاد ولجأ إلى القاهرة حيث استقبله ناصر مرحّباً به. بقي لزعيم اليسار أن ينتظر يداً خارجية تعينه على التخلّص من النظام الملكي الذي سجّل نقطة عليه. وأَمِلَ ذلك من مصر ما دام ناصر يزوّد الجزائر بالأسلحة والمساعدات اللوجستية. وفضلاً عن ذلك، لم يتردّد الريّس في إرسال ضبّاطٍ مصريين لتنظيم الجزائريين على أرض العمليات. ردّ المغرب بانتفاضة مسلّحة في الوقت نفسه في منطقة القبائل، ولم يكن ذلك أمراً غريباً البتّة. كان أوفقير يتكلّم اللغة القبيليّة بطلاقة، وظنّ البعض بأنّه قد فعّل صداقاته العديدة في

المنطقة. . . وتواصات المناوشات والاشتباكات بين البلدين أكثر حدّة مما كانت عليه.

كُشِف النقاب عن مؤامرة 1963 في الصحافة في 16 تموز (يوليو) من السنة ذاتها. في 14 تشرين الأوّل (أكتوبر)، اندلعت الحرب! اعتقدت الجزائر، المنتشية بانتصارها على القوّة الفرنسية، بأنّ النصر على الجيش المغربي، ومن خلال ذلك على الملكية الشريفية، ليس سوى نزهة. كيف يمكن للجيش الملكي «الصغير» المؤسّس حديثاً أن يُهزِم القوات الشعبية الجزائرية الشهيرة بانتصارها على فرنسا؟ وسيكلّف هذا الشعور بالتفوّق غالياً الجمهورية الوليدة.

ظلّت الدعاية الثورية تذمّ المغاربة لكونهم خدموا في الجيش الفرنسي معتبرة إياهم عملاء لفرنسا! وظلّ المعنيون يردّون: «إنّ الذين لم يمتلكوا الشجاعة للذهاب إلى مقاتلة النازية التي هدّدت الحضارة ليسوا سوى جبناء وأنذال!» وبشّر المهدي بن بركة عبر أثير **صوت العرب**(*) في بثٍّ مباشر بانتصار الشقيقة الاشتراكية على الملكية الشريفية، الرجعية والموالية للإمبريالية. الأمر الذي كلّفه أوّل حكم بالإعدام غيابياً بتهمة الخيانة العظمى. وحُكِم زعيم اليسار بحكمٍ ثانٍ بالإعدام، أيضاً غيابياً، أثناء قضية 1963، لمسّه بأمن الدولة.

حينما تقاتل الجيشان المغاربيان في الصحراء، كانا متناقضين في كلّ شيء: الأيديولوجيا، الماضي، الثقافة، التدريب، الخبرة. من خلال هذين الجيشين، تجابهت رؤيتان متناقضتان للعالم. خلف النزاع الحدودي الذي سيُسمّى بحرب الرمال، كان ذلك قبل كلّ شيء الصراع بين نموذجين: الجمهورية الاشتراكية الشعبية والمملكة الشريفية الموالية للغرب. وأقل ما يُمكن أن يُقال، بأنّ لا هذه ولا تلك كانتا مرادفتين للديمقراطية.

(*) إذاعة كانت تبث من القاهرة إبّان حكم جمال عبد الناصر.

كانت القوات المسلّحة الملكية من وحدات النخبة، المكوّنة بشكلٍ أساسي من القنّاصة المغاربة السابقين المكلّلين بالمجد إبّان الحرب العالمية الثانية والحرب في الهند الصينية. علاوة على ذلك، كان يقودها القادة الذين سبقوا أن قادوهم بنجاحٍ باهرٍ في الماضي. وكان أوفقير في عدادهم. وقد جمع لتلك الحملة ضبّاطاً وضبّاطَ صفٍّ اشتهروا مثله بمونتي كاسينو في حقول الأرزّ في الهند الصينية.

ستُحدث الخبرة المدهشة لأوفقير - يساعده العقيد بن عمر- تحت الرايات الفرنسية، ومعرفته الطبيعية بالصحراء، وهيئة أركانه المدرّبة، الفرق في الموازين. خلال ثلاثة أسابيع لقّنت القواتُ المسلّحة الملكية جيشَ التحرير الوطني ALN درساً وصل إلى حدِّ الإذلال. أسر مولاي الحسن، الأخ غير الشقيق لأوفقير، على رأس وحدة من الهجّانة، طاقم مروحية جزائرية والجنود الذين كانوا على متنها. حطّت الطائرة التي أُصيبَت في واحةٍ. فاستولى عمّي على الطاقم والركّاب. وكان لهذا الأسر صدى كبير. أوقِفَ خمسة ضباط مصريين، وقُدِّموا مباشرةً للإعلام العالمي: وأخيراً امتلك المغرب الدليل على التورّط المباشر لمصر في حرب الصحراء. الأمر الذي دفع وزير الدفاع المغربي المحجوبي أحرضان[1]، إلى أن يدلي، أمام الصحافيين الذين سألوه عن الموضوع، بالتصريح التالي:

- في عام 1956، ترك المصريون أحذيتهم في سيناء. هنا، سيفقدون سراويلهم!

في الجيش الفرنسي، كان شعار الفوج الرابع للقنّاصة المغاربة الذي خدم أوفقير فيه «مع أنّ سروالي بالٍ، لن يرى العدو مؤخّرتي!» ويبدو أنّ الوحدات المغربية لم تنسَ القول المأثور. على الأرض، كان انتصار

---

(1) زعيمٌ بربري ووطنيٌّ كبير، وضابطٌ سابق في الجيش الفرنسي. مؤسّس جيش التحرير، وصديق كبير لأوفقير، وشغل العديد من المناصب الوزارية.

القوات المسلّحة الملكية كاملاً. كبح الحسن الثاني جماح قادته العسكريين الذي أرادوا أن تتحقّق العدالة وأن تُعاد الأراضي المتنازع عليها دون شروط. فضّل عاهل المغرب، البارع في التكتيك، تسوية سياسية ووافق على وقفٍ لإطلاق النار طالب به الجزائريون بإلحاح. أمر الحسن الثاني جيشه بالانسحاب.

في 2 تشرين الثاني (نوفمبر) 1963، توقّفت الأعمال الحربية. بإظهار نفسه متسامحاً مع جاره الشرقي، قطف الملك ثمار مبادرته. تفاوض حول سلام على حدوده الأكثر تهديداً بحصوله على ضمانات من خلال بنودٍ سرّيةً لأمن نظامه. أدركت الجزائر منذ ذلك الحين بأنّ لا مصلحة لها في الرغبة بتصدير ثورتها! وأُطلقت يد الملك منذ ذلك الحين لقمع معارضته. بالمقابل، وافق الحسن الثاني على إبقاء النزاع على الأراضي معلّقاً؛ فبحرمان جيشه من إعادة الأراضي بقوّة السلاح، حمى الملك نفسه من الشعبية الخطِرة التي ستحظى بها القوات المسلّحة الملكية FAR عند الشعب. إذ قد يجعل انتصارٌ باهرٌ جدّاً العسكريين أكثر طموحاً...

في نهاية هذا الانتصار على الجزائريين، رُقّي كلّ من أوفقير وبن عمر إلى رتبة عميد.

بعد عشرين يوماً من توقّف المعارك، افتُتحت، في الرباط، محاكمة المناضلين اليساريين المتّهمين بالمساس بأمن الدولة. ومَثُلَ فيها ستّة وثمانون ناشطاً. وحوكِم ستّة عشر متآمراً آخر، فارّين، غيابياً، من بينهم المهدي بن بركة.

صدر الحُكم في 7 كانون الثاني (يناير) 1964. نُطِق بأربعة أحكام بالإعدام. لم يُنفَّذ أيٌّ منها. حُكِم على المهدي بن بركة بالإعدام غيابياً. كما صدرت أحكامٌ أخرى، تراوحت بين المؤبّد والسجن لأقلّ من سنة. كظم الحسن الثاني غيظه لحساباتٍ سياسية، وأظهر نفسه رؤوفاً، رحيماً.

في 20 آب (أغسطس)، أصدر الملك عفواً عن المدانين في مؤامرة

1963، باستثناء الحكم الغيابي بحقّ بن بركة. وفي اليوم نفسه، عيّن الحسن الثاني أوفقير وزيراً للداخلية. بتعيينه جنرالاً في هذا المنصب، أعلن العاهل بوضوح عن الاتّجاه الذي سيسلكه. بالإضافة إلى ذلك، أحلّ الملك ضباطاً آخرين في المناصب المفتاحية للدولة. كان معظم محافظي الأقاليم من الضباط الرفيعين، ولكن مع ذلك، لم يكن الجيش هو مَنْ يحكم. فقد احتفظ الحسن الثاني باليد العليا فوق الجميع. لم يفلت منه أيُّ شيء. راقبت شرطته الخاصّة العسكر. وأيّ أمرٍ يُصدر لأجهزة المخابرات لا بدّ أن يُراقَب من رجال القصر. ولا يحدث أي توقيف بدون طلبٍ صريح من الملك. ولا يتمّ أيّ استجواب دون أن يدقّق الحسن الثاني في غايته وأهميته. تُشاهد الأفلام المصوّرة وتُسمَع التسجيلات الصوتية من قبل الملك شخصياً وبانتظام. في وقتٍ متأخرٍ من الليل، غالباً ما يستقبل الملك خفيةً عملاء الكاب الذين يستجوبون المعارضين. يستمع الحسن الثاني لتقاريرهم ويدقّق فيها. يريد أن يتحقّق عياناً من سير التحريّات ويسأل مطوّلاً الذين يقومون مباشرة بالتحقيقات والتعذيب. وإذا كان قد وضع أوفقير بمهارة واجهةً للقمع، فإنّ العاهل كان يستقبل المنفّذين الصغار بغيابه. وكلّ الذين لم يملكوا جسارة انتقاد السيّد الحقيقي للبلاد، سوف يصبّون جام حقدهم على معاونيه الأكثر ظهوراً. أمّا الملك، الذي يعرف ما يريد، ويزخر بالسلطة والطاقة، فحاضرٌ في كلّ مكان ويقظٌ أشدّ اليقظة.

كان أحد أسلاف الحسن الثاني يقول: «مملكةُ السلطان تحت سرج حصانه.» بعبارةٍ أخرى: «على الملك أن ينجز العمل بنفسه لكي يستمرّ!»

الفصل السابع

اكتشفت قضية بن بركة

في بداية الستينات، كنّا لا نزال نقيم في مسكنٍ ملحقٍ بمقرّ عمل والدي الذي لم نكن نراه كثيراً. كانت مربيّة اسبانية، كارمن، محور العالم بالنسبة لي، أنا الطفل المشاغب غير المطيع. بين الجدران القاتمة لذلك المسكن الواقع في الطابق الأخير من مقرّ الأمن الوطني في الرباط، المكوّن من أربعة مبانٍ تعود لعهد الحماية والتي تشكّل مربعاً مغلقاً مع باحةٍ داخلية، لم أكفّ عن ندب حظّي لعدم قدرتي على الركض واللهو في حديقة. وإذ تحزّزت أرضية الممرات من جرّاء الحفلات الهائجة في التزلّج بالعجلات، احتاجت كارمن إلى كلّ سلطتها لتحجيم أضرار نفاد صبري.

ذات يوم، أرادت كارمن معاقبتي لتمرّدي على سلطتها، فحبستني في غرفة المهملات. قلتُ لها:

- إنْ لم تفتحي لي هذا الباب، فسأفرّ من النافذة!

- لا بأس، مثل بيتر بان! يمكنك أن تقول لي ما تشاء، ولكنّك ستبقى هناك لعشر دقائق! تابعت، وهي تبتعد، بلهجتها الاسبانية اللذيذة: «إلى اللقاء يا بيتر بان!»

كان ذلك أكثر من أن تتحمّله كرامتي! اضطررت لأن أتصرّف لئلاّ أكون كمن يقول ولا يفعل، فتوجّهتُ نحو نافذة المكان لأفتحها. ودون ضجيج، جلستُ على حافتها، وساقاي تتأرجحان في الفراغ. في لمحة

بصر، ظهر تجمّعٌ صاخب من رجال الشرطة والموظّفين في أسفل المبنى. رأيت الوجوه القلقة ترتفع نحوي. كانوا يتحدّثون في وقتٍ واحدٍ، وأياديهم ممدودة إلى السماء. حاول كلٌّ أن يعثر على الكلمات الصائبة لإقناعي. لم أدرك ما كانوا يقولونه، وسمعتُ الرنّة البعيدة لباب مدخل المبنى، الذي دُقّ عليه بطريقة مسعورة. ارتفع صوت كارمن:

- أنا قادمة! أنا قادمة!

حزرتُ أنّ أحداً يحذّرها من طيشي. لم أتوفّر على الوقت الكافي لإنهاء استدلالي حتى أدخلت كارمن، لاهثة، المفتاح في القفل. لم تعد عزّة نفسي تسمح لي بالتراجع. ماج الجيش الصغير المحتشد في الأسفل على أمل استباق ردّ فعلي. صرختُ في الحلقة البشرية التي راوحت وتنقّلت مثل سربٍ تحت قدمَي: «هاني جاي!» التي تعني في اللهجة المغربية: «أنا قادم!» انفتح الباب بعنف. هرعت كارمن مندفعة، فلم يعد لدي من خيار.

فجأةً قفزت في الفراغ. دوّت صرخة «آه!» قويّة في الباحة. سقطتُ سابحاً تماماً في شبكة من الأذرع المفتوحة. حينما أصعدوني من جديد إلى الطابق الثالث، كانت كارمن لا تزال مغمى عليها. لزمنٍ طويل وحتى في السجن ظلّت أمي وعائلتي يلقّبونني «هاني جاي» كلّما أرادوا أن يلمّحوا إليّ: «أنت ممسوس!»

قضت كارمن أسبوعين حتى شُفيت. بل وقدّمت استقالتها لأمّي التي رفضتها. فمن غير المعقول أن تنصرف هذه الأمّ الثانية بالنسبة لي ولأخواتي الصغار! فقد كانت شمس البيت. تحدّثنا معظم الوقت باللغة الاسبانية، وتناولنا الأطباق الاسبانية. وكان إيقاع نشاطاتنا ايبيريّاً، مليئاً بالدفء والمحبّة، مفعماً على الدوام بالبهجة والسعادة. حينما سافرنا إلى شمال المغرب، في طنجة، كانت كارمن فخورة بأن تظهر لأصدقائها ومواطنيها الطابع الأسباني القوّي الذي تضفيه تربيتها علينا.

فضّل والداي، المصعوقان من حركتي، الوقاية على العقاب.

وسرعان ما انتقلنا للإقامة في ڤيلا مخصّصة لمدير الأمن الوطني، وهي عبارة عن مبنى كبير بناه الفرنسيون، له حديقة واسعة جدّاً. يوجد خلف البيت بستانٌ كثيف ومستودعٌ للحصيد، وقنّ دجاجٍ وإسطبلٌ صغير. غدت تلك النباتات في حالتها الفطرية مملكتي. وأصبحت تخشيبة مقامة على قمّة الأشجار ملاذي. وكان رجال الشرطة المدنيين لجهاز CMI وسطي اليومي. وأضافت كارمن إلى تلك الحياة التوازن الجوهري لمعالم صباي. وأصبحت أكثر ضرورة لذلك أيضاً.

في عام 1964، تطلّق والداي. وباتفاقٍ مشترك، آلت رعاية الأطفال لأمّي. كان عمر سُكَينة، الصغرى، أقلّ من عام، وماريا حوالي عامين.

تأثّر الملك بنفسه لانفصال أوفقير وفاطمة ولكنّه أبدى رقّة متساوية حيال الاثنين. فأوفقير هو الموظف الذي يحتاج إليه أكثر من غيره في ذلك الحين، وفاطمة التي تُعدّ جزءاً من أهل بيته، اعتُبِرَت فرداً من عائلته. بل كانت واحدة من الأشخاص القلائل جداً الذين كان ولي العهد الحسن الثاني قد تكرّم باقتراض أموالٍ منهم. وإذ لم تشأ أمّي أن تتكلّم أبداً عن ذلك، أسرّت إليّ بذلك السرّ في السجن، مضيفة أنّها تأثّرت جدّاً لتلك الثقة. كلّ ذلك لأنّ الأمير الشاب كان على علاقة مع ممثّلة فرنسية، ايتشيكا شورو، غمرها بالهدايا. ولكن، ذات يوم، رفض محمد الخامس، الذي لم يكن وافر الغنى، أن يدفع فاتورة تركها الأمير عند صائغٍ باريسيٍّ شهيرٍ. فجاء مولاي الحسن لمقابلة فاطمة.

في بداية عهده، كان للحسن الثاني خصال لم تكن السلطة قد قضت عليها بعد. كان الملك يجيد استذكار الذين ساعدوه في أوقات الشدّة. ويعرف ويقرّ بطيبة خاطر، وحتى علناً، بما يدين به هو وعائلته لأوفقير وفاطمة. كما ازداد حرصه علينا. أقنع الحسن الثاني أمّي بضرورة حماية الأولاد من الوضع الحسّاس الناجم عن الانفصال. قال لها:

- يا فاطمة، الأولى بكِ إبعاد أولادك الكبار عن صدمة الطلاق. من

الأفضل أن لا تبقي معكِ سوى الصغيرين. فمليكة مع للّا أمينة وتعلمين أنني أعاملها كابنتي. وإن وافقتِ سأجد مدرسة لمريم ورؤوف في الخارج. وطبعاً سأتكفّل بكلّ مصاريفهما.

لم يبخل الملك بالمساعدات. وأُرسلنا، أختي وأنا، إلى غشتاد في سويسرا للدراسة في معهدٍ راقٍ هو كوليج ماري-جوزيه الذي بقينا فيه لما يقارب عامين، إلى حين قضيّة بن بركة. فغادرتُ للمرّة الأولى المغرب والحضن الأبوي.

كان كوليج ماري-جوزيه مدرسة لأبناء الأثرياء، وهي عبارة عن شاليه رائعة يعيش فيها حوالي أربعين فتاةً وصبياً في جوٍّ عائلي. وأنا لم أكن أعرف إلى ذلك الحين سوى المدرسة الحكومية، البعثة الثقافية الفرنسية. كان طلاب القسم الداخلي يتناولون في الأسبوع مرّة العشاء بلباس السهرة حول مائدة مهيبةٍ مفروشة بدانتيلا ناعمة وبأدوات فضيّة وأطباقٍ كريستالية نفيسة.

غدت المديرة مدام راسين بمثابة أمّي الثانية وإن اشتقت لكارمن أشدّ اشتياق. وطبع الريف السويسري في داخلي جماله الساحر، وتعايشُ أهله وتوادِدهم، وتهذيبهم وصدقهم. عشتُ هناك أعياد ميلادٍ بهيجةً. وأُغرِمتُ بالتزلّج والهوكي على الجليد والنزهات المدهشة الساحرة في المراعي الجبلية، فنلتُ ميداليةً في الألعاب المدرسية. جعلني ذلك الوسام، «دوفان الثلوج»[1]، مختالاً مثل آرتابان[2]. كما شاركتُ في أوّل نزولٍ لي على ضوء المشاعل، مبتهجاً بكوني حلقة من حلقات ذلك الثعبان الناري الذي يخطّط منحدر الجبل من أعلاه إلى أسفله. مع ذلك لم يكنْ كلّ شيءٍ وردياً. فبعد وصولي إلى المدرسة بوقت قصير، تشاجرتُ مع اثنين من زملائي، زعما، بازدراء، أنّ ليس في المغرب سوى الجِمال

---

(1) دوفان: ولي العهد. المترجم

(2) مثلٌ يُضرب، في إشارة إلى آرتابان بطل رواية لكليوباترا. المترجم

والحمير، وليس فيها لا طُرُق ولا منشآت. والأسوأ هو أننا نعيش تحت الخيام! وقد بلغ بنا الأمر إلى حدّ التشابك بالأيدي. دُعيتُ إلى مكتب المديرة، مختلّ الهندام، أتصبّب عرقاً. قالت لي:

- ألا تعتقد بأنّ هناك وسائل أخرى لتبرهن لزميليك على أنّهما مخطئان؟

أجبتُ يائساً:

- ولكن كيف؟

ردّت المديرة بلطفٍ:

- هذا ممكن تماماً وسأبرهن لك على ذلك.

خلال شهرين، وزّعت علينا المديرة بحثاً حول المغرب أرفقته بشفافات[1] وحلويات لتلطّف طباعنا العنيفة. وضعَنا الجوّ المرفّه في حالة ممتازة. ولم تتأخّر النتائج في الظهور. وكم كنتُ فخوراً برؤية الطلاب الداخليين لماري-جوزيه وهم يمسكون كل اثنين معاً بذيل صدارهم، ليقلّدوا كواكب الفرسان المدهشة لمهرجانات الفرسان. بل ويأتون لاستشارتي حول القواعد الناظمة لتلك السباقات الموروثة عن الأجداد. وسرعان ما أصبحت الصرخة الحربية للخيّالة البربر صرخةَ «فرسان» ماري-جوزيه. قبل الانقضاض في هذه السباقات المجنونة، تُطلَق صرخةٌ وحيدة: «أرغاب! الحفيظ الله!»

اندمجتُ في الوسط الجديد. وتلاشت التوترات، وساد الانسجام، وخفّ شعوري بالمهانة. بالطبع ليس من خلال ردّ فعلي العنيف، وإنّما بفضل حصافة المديرة وذكائها وعلمها التربوي الغزير.

أقمت صداقات جيّدة مع بعض الزملاء من بينهم كريستوفر، ابن اليزابيت تايلور، الذي كان، مع أخيه البكر، في القسم الداخلي بمدرسة

---

(1) شُفافة: صورة أو رسم على زجاج أو فيلم يُجلى للعين بنور مُشعّ من خلفه. المترجم

ماري-جوزيه. ثمّ نويل، ابن مليارديرٍ ايطاليٍّ سويسري كان، في كلّ مرّة يزور ابنه، يأتي بسياراتٍ رياضية مدهشة. وقد قُتِل على طريقٍ سيّار، ضحيّةً لشغفه بالسيارات السريعة، وهو الرحيل الذي جعلني أفهم معنى الموت. وبمواساتي لصديقي نويل بفاجعته، عرفت معنى اليأس الناجم عن فقدان شخصٍ عزيز.

لم أتخيّل، وأنا بالكاد في الثامنة من عمري، أنني أتهيّأ لولوج مرحلة جديدة من حياتي. وأنّ العدّ العكسي لنضوجٍ مبكرٍ قد بدأ بالنسبة لي...

في شهر آذار (مارس) 1965، بدأنا نشعر بآثار سلطة الحسن الثاني التي تصبح يوماً بعد آخر أكثر شخصيةً وأكثر جبروتاً. وككل سلطة شمولية، أثار تصلّب الملك وسياسته التوجيهية ردود فعلٍ مبرّرة وتمرّداً مشروعاً. كانت حالات تفجّر الغضب الشعبي لازمة محزنة لعلاقات السيّد بالرعيّة التي حافظ عليها التاريخ بين سلاطين المغرب وشعبهم. في 21 آذار (مارس)، بدأت الهيجانات الشعبية في الدار البيضاء. وها هي حلقة مأساوية أخرى من التاريخ المعاصر لبلدنا، والتي غالباً ما اختُزلت في: «أوفقير مطلقاً النار على الجماهير من على متن طائرته المروحية.» وما يؤسفني هو أنّ الأشخاص الذين استطاعوا أن يتبيّنوا، في طائرة مروحية محلّقة فوق المدينة بأقصى سرعةٍ، شبحاً وأن يلصقوا به اسم أوفقير، لم يمتلكوا النظرة الثاقبة الكافية ليروا أنّ الحسن الثاني، من على متن مركبه المتنقّل الراسي في ميناء الدار البيضاء، هو من أمر بنفسه الجنرالين أوفقير وبن عمر بإطلاق النار على الحشود. ومع ذلك، سيكون على الضباط الرفيعين الذين أطاعوا الملك، وأوّلهم والدي، أن يتحمّلوا نصيبهم من المسؤولية أمام التاريخ. وقد رسّخ والدي على الدوام في ذهني أنّ ميزة القائد هي أن يتحمّل مسؤولية الأوامر التي يعطيها لمرؤوسيه. وهذا يسري على الحسن الثاني كما يسري عليه. كيف ولماذا اتّخذ الملك القرار الخطير الذي لا رجعة فيه بفتح النار على الدار البيضاء المتمرّدة؟ ما هي دوافع العسكر الذين قبلوا المسؤولية

الجسيمة لتنفيذ هذا الأمر الفظيع؟ وفي أيّة ظروفٍ أقدموا على ذلك؟ ولماذا؟ أسئلةٌ جوهريةٌ كثيرة.

بعد مؤامرة 1963، المنسّقة مع الاعتداء الجزائري في حرب الرمال، انهارت المعارضة ولكنّها لم تستسلم تماماً. إذا كان النظام قد تغلّب على تلك المصائب، فهل سيحتمل نتائج تمرّدٍ في قلب الدار البيضاء، الرئة الاقتصادية للبلاد ومرجلها الاجتماعي؟ سيكون ذلك بالنسبة للحسن الثاني امتحاناً مباشراً وتحدّياً في طريق سلطته المطلقة. وبأهمية هذه الأحداث سوف يتعلّق هامش المناورة لدى الملك. وكانت المعارضة مدركة لذلك. ولذلك ستقوم بكلّ ما بوسعها لتأجيج الاستياء الذي يكتنف الشعب ودفع النظام إلى ارتكاب الأخطاء. كان القرار القاضي بمنع الطلاب الذين تجاوزت أعمارهم سبعة عشر عاماً من دخول المرحلة الثانوية هو الذريعة التي أدّت إلى تفجّر الغضب الشعبي. كان السياق الاجتماعي للمملكة عموماً ولعاصمتها الاقتصادية خصوصاً ملائماً لهذا السخط من قبل المحرومين والمهمّشين، بعبارة أخرى، أغلبية الشعب المغربي! فبدل أن يوزّع الملك على الفلاحين مئات الآلاف من الهكتارات التي استعادتها الدولة بعد رحيل المستعمرين، اقتطع لنفسه حصّة الأسد منها، ومنح على هواه هذه الأراضي لأسرته وحاشيته وأنسبائه. غذّت الهجرة الريفية المدينة بسيلٍ متواصلٍ من البشر ينبئ بما سيحصل فجأة. زرع الحسن الثاني في البلاد البذرة القاتلة للفساد المتفشّي وتجاوز القانون والعسف الاجتماعي الممأسَس. وبدأ العسكر بطرح الأسئلة على أنفسهم. هل أعادوا السلام إلى البلاد، وخاطروا بأنفسهم وسط القمع لكي يروا تبديد المنافع السياسية التي تم اكتسابها بصعوبة، بإلغائها من خلال الاستهانة بالحالة الشعبية ومن خلال سلطة شبه إلهية لرجلٍ واحدٍ؟ بالتأكيد، المغرب مستقر. وبالتأكيد، اختارت المملكة الشريفية المعسكر الغربي، ولكن بماذا يفيد ذلك، إذا كان قد تمّ تجاهل تطوّر المغرب ورخاء شعبه بشكلٍ مهينٍ جدّاً؟ سارع الحسن الثاني إلى قطع الطريق على

الأسئلة الخطيرة للعسكر، بامتلاك القدرة على توريطهم ووضعهم في الخطّ الأمامي للمواجهة.

كانت الهيجانات الشعبية في الدار البيضاء التعبير المباشر عن المرحلة الصعبة التي أراد الحسن الثاني فرضها على البلاد. باستهانته بحقوق الشعب، أبقى العرش على التربة الصالحة لمعارضة راديكالية. وإذا كانت المعارضة قد صبّت، بصراحة، زيتاً على النار، فإنّ النظام هو المسؤول الحقيقي عن الأسباب العميقة التي أدّت إلى هذا الحريق. بلغ عدد العاطلين عن العمل زهاء نصف مليون في الدار البيضاء. الأحياء الشعبية، التي كانت تُؤوي لحظة الاستقلال ثلاثين ألف شخص، صار عددُ سكانها يتجاوز مئتي ألف نسمة!

قرّرت المعارضة أن تدلف من تلك الثغرة عبر المطالب الطلابية. ففعّلت المعارضة نشطاءها في أحياء الصفيح وفي المدينة، والذين دعوا إلى انتفاضة المتعطّلين والمحرومين والعاطلين عن العمل. من جهتها، عبّأت النقابات الموالية لها العمال.

في 22 آذار (مارس) 1965، في اليوم الثاني من أحداث الدار البيضاء، اتّخذت الصدامات مجرى مختلفاً. إنّها الفتنة. غطّت الشوارعَ الرئيسية للمدينة الحواجزُ والحافلات المحترقة. أُحرِقت المصارف والمحلاّت ونُهِبَت المؤسسات العامّة. واُستُهدِف كلّ ما يرمز للرفاهية التي حُرِم المحرومون منها؛ بما في ذلك الأجانب. وخفّفت المعارضة، المرعوبة لكونها لم تعد تسيطر على هذه الفتنة المعمّمة، من لهجتها. وأظهرت للحسن الثاني أنّها ستتفهّم ضرورة استخدام القوّة للحدّ من انتشار التجاوزات التي عرّضتها هي نفسها للخطر. لم يكن لا للقصر ولا للمعارضة مصلحة في أن ينتفض الشعب عفوياً.

ارتفعت في الشارع شعارات تمسّ بالملك. وعُلِّقت دُمى تمثّل العاهل في الساحات العامة وأُحرِقَت. وصاحت جموعٌ هائجة: «ارحل يا حسن! المغرب ليس ملكٌ لك!» أثار شعارٌ حميّة المتمرّدين: «حسن ملك

اليهود، خادم الصهاينة، ستنتصر الأمّة العربية الواحدة!»

حام الحسن الثاني، مرتدياً بزّة قائد مروحية، فوق المدينة ثلاث مرّات للإشراف على الوضع مع جنرالاته أوفقير وبن عمر والمدبوح. كان الملك على وشك الوصول إلى مركبه في الميناء، وهو لا يزال يرتدي بزّة ضابط صفٍّ، حينما علِم بأن الحشود تتّجه نحو الأحياء السكنية مردّدة شعارات معادية للسامية. فعرف أنّ عليه أن يتّخذ قراراً سريعاً سيترك أثره ثقيلاً في التاريخ. فأصدر الحسن الثاني، بوقارٍ واحتفالية، الأمر لأوفقير وبن عمر بإطلاق النار على الجموع إذا ما اقترب المتظاهرون من هدفهم. وسقط العشرات والعشرات من القتلى، من بينهم حوالي عشرين عنصراً من قوات حفظ النظام.

من خلال إعادة قراءة صحافة تلك الفترة، يمكننا أن نحدّد على نحوٍ أفضل مسؤوليات الأطراف في مأساة الدار البيضاء تلك. فقد تجرأت صحيفة **أخبار الدنيا**، التي زعمت حسن الظنّ، على أن تكتب في عددها الصادر في 11 أيلول (سبتمبر) 1963: «لا يستحقّ اليهود حتى أن نسمّيهم بشراً.» كما يمكننا أن نقرأ في لسان حال حزب الاستقلال، يومية **العالم**: «اليهود براغيث، ثعالب، مُرابون، عطشهم للمال لا يُروى.» بل ذهب القوميون إلى حدّ نبش **بروتوكولات حكماء صهيون** المشؤومة بغية نشرها. خلف كلّ البصقات التي يغمرون بها العسكر، وخاصّة أوفقير، تُخفى المبادئ الأساسية التي دافعوا عنها: الانتماء المغربي وحدة لا تتجزأ، واليهود مغاربة كاملو العضوية! وكان محمد الخامس قد قاتل في سبيل ذلك: فقد رفض تسليم اليهود لنظام فيشي، ودعا المغاربة للانخراط إلى جانب فرنسا الحرّة. فكان من الجوهريّ في تلك الظروف المضطربة الحفاظ في المغرب على إرثه في التسامح والتعايش الأخوي بين مكوّنات المجتمع المغربي. إنّ الذين سعوا إلى الخلط بين اليهودية والصهيونية أشعلوا ناراً لا تزال أضرارها مستمرة حتى اليوم. منذ الستينات، لم يحلم مطلقو الجنّ هؤلاء سوى بتحويل المشكلة السياسية في الشرق الأوسط

إلى صراعٍ ديني. والآن تتأكّد النتائج المفجعة لذلك الخليط الفاسد، ومخاطره على الحضارة. ألم يحضّ النبي محمد على الوئام واحترام الآخرين؟ فقد بشّر في المدينة المنوّرة بالكلمات التالية: «من ظلم منكم ذمياً (المسيحيّين واليهود) سأشهد ضدّه يوم الحساب!» وتوحي ثماني آياتٍ من القرآن الكريم بهذا المعنى: الاحترام والوئام بين أهل الكتاب، أي بين الأديان التوحيدية. وإذا كانت بعض الأيديولوجيات السياسية تدفع باتّجاه التجديف والكراهية، فذلك تأويلٌ مغلوطٌ للإسلام! ولا ينخدع به المسلمون الحقيقيون.

بيد أنّه، مع هيجانات الدار البيضاء، لم يعد الضباط ذوو الرتب العليا الذين خدموا الملك، مقتنعين بصحّة دعمهم اللامشروط للعرش. وغالباً ما ردّد أوفقير أنّ عصيان آذار (مارس) 1965 دلّ على، وأظهر الفشل الذريع للنظام. لسوء الحظّ، جرى التخلّي عن فرصة بناء دولة مستقرّة ومجتمع متوازنٍ مستندٍ إلى الطبقات الوسطى لصالح أقليّة دائرة في فلك القصر، نهبت اقتصاد البلاد. واعتقد كثيرون أنّ أحداث الدار البيضاء شكّلت البرهان، المؤلم والساطع، على أنّ مغرب الحسن الثاني قد تخلّف عن ركب التاريخ، وأنّه خيّب آمال شعبه وأفنى الحلم ببلدٍ مزدهرٍ يحظى بالحدّ الأدنى من التوازن والعدالة الاجتماعية!

توجّه الحسن الثاني بخطابٍ إلى البلاد فيما بعد، قائلاً:

- لقد وضعتني على المحكّ أيّها الشعب العزيز!

في 29 آذار (مارس)، أصدر الملك عفواً. أطلق سراح معارضيه، ووعد المعارضة بتشكيل حكومة مكوّنة من أعضائها وحدها. لم يقع بن بركة في الفخّ: فرفض العودة إلى المغرب. لا شكّ أنّ زعيم اليسار قد قرأ ما كتبه بيندار: «لا شيء أخطر من مستبدٍّ حليم.» على أيّ حال، لم يرَ سبباً في أن يمدّ يده إلى نظامٍ ينبذه الشارع. وقال في نفسه إنّ الظرف ناضجٌ أكثر من أيّ وقت مضى، فالشعب الآن متورّطٌ وما أسهل تعبئته لثورةٍ حقيقية.

في 2 حزيران (يونيو) 1965، ألغى الملك المجلس الوطني، وحلّ البرلمان وأعلن حالة الطوارئ. أُقيم القدّاس. فقد منح الحسن الثاني لنفسه رسمياً سلطةً مطلقةً، لم يتوانَ عن الاستئثار بها بشكلٍ شبه رسمي منذ اعتلائه العرش. بفضل أوفقير والعسكر، أصبح المغرب تحت جزمة أمير المؤمنين. رأى الملك في المهدي بن بركة الخصم الوحيد الندّ له والذي يمكنه، على غراره، اللجوء إلى العنف لبلوغ أهدافه.

في الوقت الذي اندلعت فيه أحداث الدار البيضاء المأساوية، كنتُ بعيداً عن حقائقها القاسية سواءٌ من الناحية الجغرافية أو من ناحية قدرتي على تحليلها. من ملاذي السويسري، لم أكن أسمع الأصداء المقلقة لمغرب ذلك الوقت. سارت الحياة بهدوء في ماري-جوزيه. حالت الإدارة الحامية لمدام راسين آنذاك بين قساوة الدنيا وبيني.

ولكنّ حدثاً مفاجئاً وقع، وسيترك عبئه ثقيلاً على اسمي وعلى نضجي المتسارع. في 29 تشرين الأوّل (أكتوبر) 1965، اختُطِف المهدي بن بركة في باريس. في 30 تشرين الأوّل (أكتوبر)، في الساعة السابعة مساءً، كانت إذاعة أوروبا واحد هي أوّل محطّة تذيع الخبر. شكّل اختفاء زعيم اليسار المغربي منعطفاً حاسماً في تطوّر المغرب لأنّه غيّر جذرياً العلاقات بين الحسن الثاني وأوفقير، وإن لم تفطن إلى ذلك، حينذاك، غالبية المراقبين. كان اغتيال المهدي بن بركة حجر الزاوية لتدهور العلاقات المستمرّ بين الملك والقائد العام لجيشه، والذي آلَ، في عام 1972، إلى المواجهة بينهما.

آنذاك، في 29 تشرين الأوّل (أكتوبر) 1965، لم أكن في سنّ تسمح لي بفهم كلّ تلك الأحداث. في الثامنة من عمري، اكتشفتُ فقط أنّ حياتي ليست كحياة الصبيان الآخرين تماماً. كان النهار ماطراً في غشتاد، بينما كان علينا الذهاب في نزهةٍ. أرغمنا الطقس الرديء على التخلّي عن النزهة. كنّا، زملائي الصغار وأنا، منهمكين في صنع تلفريك بمدّ خيطٍ

من مسند كرسيٍّ على الأرض حينما عاد أحد زملائي في الغرفة، وهو يخرج من مكتب المديرة، إلى قاعة اللعب وصرخ في الحضور:

- والد رؤوف. . . لقد سمعتُ اسم والد رؤوف في الراديو!

ظننتُ أن مكروهاً قد حدث لوالدي، فأسرعت للقاء مدام راسين. لم أقطع سوى نصف الطريق حينما ارتميتُ عليها وهي تركض أكثر مما تمشي للقائي، مصحوبةً بمعاونتها. مذ رأتني، تمالكت نفسها وتهادت في خطوها. ابتسمت لي، وجثت أمامي وأخذتني بين ذراعيها. أقلقني ذلك أكثر من أن يطمئنني. توقّعت أسوأ الاحتمالات. قالت لي:

- كنتُ أبحث عنك. تعالَ، هيّا إلى مكتبي.

لحقتُ بها بانقياد إنسانٍ محكوم. مدّت مدام راسين لي علبة كبيرة من الشوكولا. هذا الاهتمام الذي عادة لا تبديه المديرة سوى لمكافأة تلميذٍ جدير ولّد لدي القناعة بوجود خبرٍ سيّئ. فأنا لم أفعل أيّ شيءٍ يجعلني جديراً بهذه الحلويات التي يشتهيها كلّ الطلاب. لا بل تعرّضتُ في الصباح إلى توبيخٍ لإثارتي الضجيج في مدخل قاعة الطعام. كما أنّ الغرض من قطع الحلوى هذه ليس سوى تمرير مرارة خبرٍ سيّئ.

لم تدرِ مدام راسين من أين تبدأ لتشرح لي الوضع. حاولت أن تُفهِمني معنى الرجل السياسي. قاطعتها لأخبرها بأنّ هناك التباساً حول الشخص:

- والدي عسكري!

بشّت المديرة متعاطفة:

- نعم، ولكن هناك عساكر يكونون سياسيين، ووالدك منهم. هل تعرف منْ هو رجل السياسة؟

لم أعد أفهم أيّ شيء، وأصابني كلّ ذلك بالدوّار. وبإيماءةٍ من رأسي، اعترفتُ بجهلي. تابعت المديرة بثبات:

- هو شخصٌ يدير بلداً. . . كما. . . كما أنا أدير ماري-جوزيه. هل فهمت؟

هدأتُ أكثر. إذا كان الشخص السياسي مثل مدام راسين، فليس هناك ما يدعو للقلق! وهذا ما جعلني أفترض أنّ هذه المهنة مليئة بالحنان والعناية واللطف، وببعض السلطة أحياناً، ولكنّها لا تنمّ عن أيّة كراهية حقيقية.

- ففي المغرب، والدك يقود إلى حدّ ما كما أفعل ذلك هنا...

أجبت بعفوية:

- كلاّ! في المغرب الملك هو الذي يقود!

طوال ساعة كاملة، بذلت مدام راسين ما بوسعها لتُفْهِمني أنّ في عالم السياسة، يكون للمرء «الكثير من الأعداء بشكلٍ طبيعي»، الأمر الذي صعُبَ عليّ كثيراً. كيف يمكن للمرء أن يختار مهنة قاسية نتيجتها الوحيدة هي خلق أعداء لنفسه؟ ومع ذلك، طمأنتني المديرة، لدى الخروج من مكتبها، على حال والدي. ولكنها زرعت في داخلي سيلاً من الأسئلة حول وضعي. ولم أفعل سوى فتح عينيّ على واجبات ابن رجل دولة. ولم أكن إلاّ في بداية اكتشافاتي حول العالم الغريب الذي أنمو فيه. ولم تكفّ المواقف، التي راحت تتعاقب منذ ذلك الحين، عن أن تُظهِر لي خصوصية حياةٍ تبدو فريدة تماماً.

وصل أبي وأمّي، اللذان تقاربا من بعضهما، إلى جنيف يوم الأحد 31 تشرين الأوّل (أكتوبر) 1965. التقيا في فندق بريزيدان يوم الاثنين في الأوّل من تشرين الثاني (نوفمبر)، يوم عيد جميع القديسين. استقلاّ القطار إلى غشتاد وجاءا لزيارتنا أختي مريم وأنا. في المساء، تناولنا العشاء في المدينة، في مطعم صغيرٍ ذي مقاعد خشبية. كان والدي هادئاً، وبدا لي أنّه يفكر في أمرٍ ما. ولم يكن ذلك جديداً في شيء بالنسبة لي. فمنذ سنواتٍ خلت، لا نراه إلاّ قليلاً. حتى وهو وسط العائلة، لا يسمع إلاّ بإذنٍ واحدة، ويبدو على الدوام مستغرقاً في تأمّلاتٍ داخلية. ومع ذلك، شعرتُ بأنّه في حالةٍ خاصّة، نوع من السخط، يكاد يكون غيظاً مكظوماً، مشوباً بالمرارة. حينما انشغلنا، مريم وأنا، بالتعليق

على لائحة الطعام والديكور البسيط المحيط بنا، تحادث أبي وأمّي باختصار وبصوتٍ خفيض. لم أسمع سوى مقتطفات من أحاديثهما المتبادلة.

- ما الذي يحدث، يا أوفقير؟ ما هذه الحكاية؟ يبدو أنّ المهدي قد اختفى. لا يمكنني أن أتصوّر بأنكما الملك وأنت بهذا الغباء لترتكبا حماقةٍ كهذه!

زمّ والدي شفتيه في حركة تنمّ عن ضجر، واضعاً سبّابته وإبهامه على عينيه. وصاحبت تكشيرةٌ متقزّزة ردّه الوجيز:

- ولا أنا...

ثلاث كلماتٍ غامضة تماماً بالنسبة لي.

سمعتُ الأحاديث ولكن فاتني معناها. منْ عساه يكون المهدي هذا؟ بالتأكيد هو من أقارب أمّي ما دامت تذكره باسمه الأوّل دون كلفة!

صباح اليوم التالي، 2 تشرين الثاني (أكتوبر)، عاد الاثنان إلى جنيف. وبعد ظهيرة اليوم نفسه، استقلّ والدي الطائرة متّجهاً إلى باريس. بعد ذلك الفاصل الترفيهي العائلي، فكّرت في العودة إلى الحياة المرفّهة، المنظّمة في ماري-جوزيه، بعيداً عن تخيّل التقلّبات التي ستحدث فجأة.

في الواقع، كانت الأيام التي تلت خادعة. عملياً، لم يتغيّر نمط الحياة اليومية في المدرسة: الدروس، النزهات، التزلّج، الجبل. إلى أن تعقّبني رجلان على حلبةٍ للتزلّج. حتى أنّ أحدهما حاول أن يصوّرني. فانطلقنا، صديقي نويل وأنا، كسهمين نحو الوادي. استفهم منّا معلّمنا، وهو عملاقٌ سويسري ألماني، ثمّ حاول توقيف الشخصين اللذين تعقّبانا. ولكنه لم يفلح في ذلك. لدى العودة إلى المدرسة، عقدت مدام راسين اجتماعاً مغلقاً مع مساعديها. وأصبح معلّمنا، الجبّار بقامته البالغة متراً وستة وتسعين سنتمتراً، يرافقنا كظلّنا.

وضعت حادثة أخرى نهايةً لكتمان المديرة. ذات يوم، كان القطار

الجبلي الذي يقلّنا إلى نزهةٍ يهمّ بالدخول إلى المحطّة عندما لاحظ مرافقونا رجلين شاحبي الوجه. كانا جالسين في العربة التالية، وتوجّها نحو المغاسل دون الدخول إليها، ومكثا خلف الباب الزجاجي الذي يفصل بين المقصورتين. جرى كلّ شيء بسرعة. شاهدهما معلّمنا، فتركنا مع أحد زملائنا، وسار مباشرةً نحو الفضوليين. تنبّه أحد المجهولَيْن، ومزّق صفيرٌ عنيف طبلة آذاننا. حينما توقّفت العربة، قفز الشخصان، اللذان غلب اللون الأسود على لباسهما، من القطار ونزلا بسرعةٍ من منحدرٍ شديد إلى قارعة الطريق قبل أن يتواريا في الغابات.

حينما وصلنا إلى المحطّة التالية، نزل زُهاء عشرين تلميذاً في صفوفٍ متراصّة على الرصيف. أمسك معلّمنا بيدينا، مريم وأنا، بحرصٍ شديد. عدنا إلى ماري-جوزيه من الطريق المعتاد. للوصول إلى المدرسة، لا بدّ من صعود طريق متعرّج يمرّ أمام فندق غشتاد الكبير الأسطوري، ومن ثمّ سلوك طريقٍ مختصرٍ من ممرٍّ ضيّقٍ منحدرٍ يحاذي ملعباً لكرة المضرب، يتم تحويله في الشتاء إلى ميدانٍ للتزلّج. فجأةً، سمعنا صرير عجلات سيارة. ظهر سقف سيارة في الشارع فوق رأسينا خلف حاجزٍ حجري يحمي منعطفاً. انحنى ثلاثة أشباح من فوق الدرابزين. فصرخ معلّمي:

- اخفض قلنسوتك، اخفض قلنسوتك!

وبدون تفكير، سحب كلّ زملائي بأيديهم قلنسواتهم الصوفية الحمراء. فأصبحنا عبارة عن عشرين وجهاً مقنّعاً. فرقعت أضواء كاميرات. وانطلقت السيارة من جديد بسرعةٍ جنونية. ولن تكون هناك أيّة فائدة للصور التي التقطت لنا في تلك الحالة، إلاّ إذا كانوا يعدّون ريبورتاجاً عن المريخيين في سويسرا.

في المساء ذاته، كنّا نتهيّأ للنوم عندما سمعنا، زميلاي في الغرفة وأنا، صوت تقصّف أوراق الشجر على رصيفنا. نبحت الكلاب. صرخ صوتٌ في الحديقة. أُنيرت أضواء المدرسة بالتالي. وسرعان ما اجتمع

الجميع في البهو. أصغت مدام راسين، وهي تمسك بمقوّرة مبذلها، إلى البستاني الذي بدا عليه الانفعال:

- سيّدتي. . .سيّدتي. . . كان هناك شخصٌ ما في الحديقة! شاهدتُ ظلالاً تنزل المزراب وتفرّ من خلف المرْأب!

انزوت المديرة في مكتبها، وأجرت العديد من المكالمات الهاتفية وأشعلت سيجارة من أخرى. أخطرت السلطات السويسرية بالحادث. وأبلغت السفارة المغربية، التي أُعلِمَت مباشرة بالحادث، قلقها ومخاوفها إلى الديوان الملكي في الرباط. أمر الحسن الثاني بأن لا يتم اطلاع أوفقير وفاطمة على الأمر، وأوضح بأنّه سيهتمّ شخصياً بالموضوع.

ابتداءً من تلك الحادثة، تغيّرت الأمور: عزلتنا المديرة، مريم وأنا، في شقّتها في الطابق الأخير. في صباح اليوم التالي، قُدِّم لنا الفطور ونحن في سريرينا. أقمنا، أختي وأنا، في غرفة ابن مدام راسين الذي كان يدرس خارج غشتاد. جاءتنا المديرة مصحوبةً بأربعة شخصيات ترتدي زيّاً كالحاً. بقي أولئك السادة على عتبة الباب المفتوح قليلاً. لوت المديرة بعصبية أصابعها، وهي تحاول أن تشرح لنا بأنّه علينا ألاّ نبارح غرفتنا. كان من غير المعقول بالنسبة لي أن أبقى بين أربعة جدران في حين يواصل زملائي الصغار أنشطتهم الاعتيادية! كانت المدرسة فارغة. إنّه يوم نزهة. اشتقتُ إلى والديَّ وإلى أصدقائي. تكلّمت مدام راسين معي بصبرٍ وأناة ولكنّها لم تكن مطمئنّة. بذلت كل ما بوسعها لتبدو مقنعة، ولكنّها أبت أن تخون ثقتي بها، وأخذت تتجرّأ على قول أنصاف الحقيقة كي لا تكذب عليّ. لم تعد المديرة تجد الكلمات المناسبة، فجاء أحد الرجال لنجدتها: دفع الباب وقرفص ومدّ إليّ يداً ضخمة مشعرة، فيها خاتمٌ كبير عليه شعار، حيّاني:

- مرحباً، اسمي لوكاس.

أجبته بازدراء:

- صباح الخير. . . أنا رؤوف. . .

فهمت بكلّ بساطة أنّهم أرادوا حبسي في هذه الغرفة. فلم أعد أسمع وكأنني كنتُ أشاهد فيلماً صامتاً! كان الوجه الذي يقابلني ممتلئاً ومربّعاً. فحصتني عينان متّقدتان، ذات زرقةٍ خفيفةٍ، تحت حاجبين ناتئين مشعّثين. وأكمل شعرٌ ممشّطٌ أشيب وأنفٌ كبيرٌ معقوفٌ وجذعٌ مدهشٌ كاريكاتور قائدٍ روماني. حتّى طيبة قلب هذا الرجل العريض المنكبين، لم تخرجني من خيبة أملي. كان الوضوح الوحيد في أقواله هو لهجته الألمانية البليغة وضحكته المجلجلة. غير أنّ تفصيلاً أخرجني من تحفّظي: فمن ذيلِ سترته غير المزرّرة لمحت سلاحاً أدهشني فولاذه اللامع وأبهرني. ابتسم لي لوكاس، فاختفت شفته العليا الرفيعة، وهمس لي مع غمزة:

- سأعرضه لك حينما نبقى وحدنا...

انحنت مدام راسين لتستمع إلينا. وقف لوكاس، وبدا لي عملاقاً.

- حسناً، يا سيّدتي، يمكنكِ أن تتركينا الآن، وأن تعودي بعد قليل... أشعر وكأننا صديقان من قبل!

بحثت المديرة عن جوابٍ في نظرتي، فطمأنتها بإشارةٍ إيجابية من رأسي. وتوارت.

سنبقى محبوسين لثمانٍ وأربعين ساعةٍ في هذه الغرفة. وسيتناوب أربعة شرطيين على ملازمتنا. مُنِع علينا فتح النوافذ أو الاقتراب منها. لم أفهم لماذا ألصق حرّاسنا الملائكة أوراق الصحف على زجاج النوافذ. لا شكّ أنّ الغرض من ذلك هو منع الرمايات من مسافة طويلة. لحسن الحظّ، كان ابن مدام راسين قد ترك على الطاولة الواسعة مجموعته الرائعة من الدمى. قضينا، «صديقي» لوكاس وأنا، ساعات ونحن نجري مناورات بالجيوش الغازية. ارتجلتُ مقلباً حيث دعوت كلّ موظّفي قاعة المراقبة[1]، وتسلّيتُ برؤية أولئك الرجال الأشدّاء يتلوون وهم يمسكون

---

(1) قاعة المراقبة: قاعة يُرسل إليها التلاميذ الذين أهملوا واجباتهم أو أخلّوا بنظام المدرسة ويمكثون فيها لبعض الوقت تحت المراقبة وذلك عقاباً لهم. المترجم

بأيديهم غمد أسلحتهم. أبدى رجال الشرطة السويسريون، الذين تقبّلوا اللعبة بلطف، الكثير من الصبر والتفاني لمساعدتنا، أختي مريم وأنا، على تجاوز ذلك الوضع غير المألوف.

ذات صباح، عند الفجر، أيقظتنا المديرة وسكرتيرتها. في الباحة، كان في انتظارنا ما يقارب خمسة عشر ضابطاً مغربياً في زيٍّ مدني. أُخرجَت أمتعتنا. أمسكنا، مريم وأنا، بأيدي بعضنا. بدت مدام راسين حزينة ومتوتّرة في آن.

- لا شيء يا أولاد! ستذهبان في عطلة إلى المغرب. وستلتقيان والديكما. . .

دخلنا إلى مكتبها. كانت لجنة صغيرة في انتظارنا. ومرّة أخرى، كان الزيّ كالحاً. بدأت أغتاظ بعض الشيء. كل ما أردته هو أن أنام!

كان الأسطول الصغير الذي جاء لاستعادتنا مدجّجاً بالسلاح. والرجل الذي يقوده مألوفاً بالنسبة لي، ويدعى راضي. لا يمكن نسيان رأسه الشبيه برأس موظّفي الصين الامبراطورية وقامته الشبيهة بقامةِ فارسٍ قوزاقي. يرتدي في كلّ الأحوال سلهماً(*)؛ حتى وهو يلبس زيّاً أوروبياً، كان ذلك البرنس الصوفي يغطّي منكبيه العريضين. احتضنني، وقبّلني وهو يرفعني عن الأرض.

اجتمع رجال الشرطة السويسريون، الذين كانوا لا يزالون حاضرين، للمرّة الأخيرة مع المغاربة في مكتب المديرة. وفي الباحة، كانت هناك حركة دؤوبة حيث رجالٌ يجيئون ويغدون. واكتشفنا وجود عدد كبير من السيارات في المرأب. حضر معاونو ومعاونات مدام راسين، متأسفين لرحيلنا العاجل. وبدر من كلٍّ منهم كلمة ودٍّ وحركة محبّةٍ وعباراتُ تشجيعٍ، فقد ردّدوا لي: «ليس هذا إلا توديعاً». ذرفت المربّية دمعةً، وقدّم لِي البستانيّ زهوراً يابسة:

(*) السلهم: لباس مغربي تقليدي.

- تفضّل، ستقدّمها لوالدتك...

خرج راضي من المكتب متبوعاً بلجنة «الرحلة». وبتسوية التفاصيل النهائية، تبادل المجاملات مع نظيره السويسري. استغلّت مدام راسين ذلك لتكلّمني ولكنّ دموعها انهمرت. ولم يعد موظّفو المدرسة يتمالكون، اقتداءً بالمديرة، دموعهم. فخاطب راضي الجمع:

- هيا، هيا! سنعيد طالبَيكم الصغيرين! نحن أيضاً في المغرب اشتقنا إليهما! اطمئنوا، سنعيدهما إليكم بسرعة!

الظاهر أنني كنتُ الوحيد الذي صدّقتُ بعودة وشيكة. لم توقف كلمات راضي فيض المشاعر التي عبّرت عن وداع أخير أكثر منه عن انفصالٍ مؤقّتٍ. وسيكون لديّ متّسعٌ من الوقت لأتأكّد من أنّ البالغين يقضون وقتهم في الكذب بوقاحة وصفاقة. وكلّما كبرت أكثر، أدركت أكثر أنّ بعض الحالات ترغم المرء على الكذب الأبيض. وأنّ لعالم السياسة، والسلطة أينما وجدت، موهبة التلاعب بالحقيقة.

لم أشأ أن أغادر المكان دون أن أودّع أصدقائي. قيل لي إنّ المدرسة نائمة. ما باليد حيلة، فلن أخطو خطوة دون أن أستأذن زملائي في الغرفة. أخيراً مُنحتُ تلك الفرصة. صعدتُ إلى الطابق مع المديرة لإيقاظ نويل وميشل اللذين لم أرَهما منذ يومين. ذُهِلا لخبر رحيلي. وأكّدت لهما أنني سوف أعود دون إبطاء.

وغادرنا. حينما خرجنا إلى المرأب، فوجئتُ بعدد رجال الشرطة والسيارات. ركبنا في سيارة مرسيدس 600 سوداء اللون. جلس ضابطان مغربيان قبالتنا على مقعدين متحركين وثيرين. ظننا أننا في صالون. أمال راضي برأسه من خلال الباب المتروك مفتوحاً:

- كيف حالكما؟ هل أنتما بخير؟ هيّا، سنعود إلى البيت!

هرع شرطيون بالزيّ المدني نحو السيارات الثلاث الأخرى التي رافقتنا. سمعتُ خشخشة أجهزة الاتصال النقالة. جلس راضي إلى جانب سائقنا. كان زجاجٌ ملوّنٌ تلويناً خفيفاً يفصلنا. فتحت سيارة للشرطة

السويسرية الطريق من أمامنا بمصباحها الدوار الأزرق فوق سقفها. تحرّك الموكب. نزلنا الممرّ المركزي للمرأب. صرّت الحصى تحت عجلات السيارات. ولم أعد أسمع صخب الخارج. عبرنا البوابة. جعل درّاجان عادمَي آليتهما يزمجران. فتح الأوّل الطريق؛ وكان الثاني يُبقي جزمة لامعة على سُندةٍ من الكروم، واضعاً قدمه الثانية على الأرض، بانتظار أن تمرّ آخر مركبة ليسير في مؤخّرة الموكب. تدافع كلّ شيء في رأسي. عشتُ في الواقع ما لا يراه الصبيان في عمري إلا في السينما. ما إن خرجنا من المدرسة حتى أُسدِلَت ستائر سيارتنا الليموزين. حاول أحد الشرطيين أن يسلّينا. فتجاوبنا معه. كان اسمه لامين، ولم أكن أعرف بعد بأنّه مرافق الدليمي، أقرب مساعدي والدي. كان الدليمي حينذاك أوفى الأوفياء لأوفقير، ولكنّه سيتحوّل فيما بعد إلى منافسٍ له ومن ثمّ سيصبح خليفته. وفيما بعد، حينما حصلت توتّرات بين رجال الدليمي ورجال أوفقير، جعلني ذلك اللقاء السويسري مع لامين وسيطاً مفضّلاً.

نمتُ. كان استيقاظي مبلبلاً ومزعجاً. سألت لامين عن الوقت وأردت أن أعرف أين نكون. مرّة أخرى، رويَت لي أضاليل. لم أفهم لماذا لا نزال نسير، معتقداً أننا كنا ذاهبين إلى المطار. رافقنا الموظّفون السويسريون إلى الحدود وانتقلنا إلى فرنسا حيث مكثنا فيها ليلةً قبل أن نستقلّ أخيراً طائرةً إلى المغرب. لماذا هذا المسير الأخرق؟ إنّه لغز!

تمّت العودة إلى البلاد وسط تناقضٍ صارخ. ومع أني لم أستطع أن أحدّد ذلك، فقد اكتشفت تغيّراً عميقاً في حياتي. شرح الحسن الثاني لوالدي أنّه قرر إعادتنا من سويسرا لكوننا قد تعرّضنا للتهديد:

– وضعتُ الولدين تحت الحماية أوّلاً قبل أن أُقلقكما. أعدكما بأن يحظيا في المغرب بأمانٍ مطلق. وسأسهر على ذلك.

لم يصدّق لا أبي ولا أمّي أننا كنّا مهدَّدَين.

ثارت فاطمة:

– لا أحد في المعارضة أو سواها سيفكّر في إيذاء أطفال! أعرف

رجال هذا البلد! لن يتلطّخ أيٌّ منهم بخطأ كهذا!

لم يكن أوفقير أقلّ قناعةٍ بذلك، ولكنّه لزم الصمت. إذ تفرض وظيفته عليه أن يتظاهر بأنّه شاكرٌ للملك على جميله. إنّه في الواقع لشرفٌ أن ينشغل الملك بنفسه بأمن ذريّته. ومع أننا كنّا الوحيدين الذين نحظى بهذه الرعاية، حاولت أمّي أن تحمينا.

- سيّدي، ماذا سيحلّ بأولادي إن كبروا وسط المرافقين؟ أرغب أن يكبروا بشكلٍ طبيعي مثل كلّ الأطفال الذين في عمرهم. أرجوك يا سيّدي أن تترك أولادي خارج ما يجري بين أوفقير وبينك!

غضب الحسن الثاني:

- لا تنشغلي بهذا الشأن يا فاطمة، هذا أمر! كيف تريدين أن يخدمني أوفقير بالفاعلية نفسها إذا كان لديه أدنى شكّ حول أمن أولاده! من واجبي أن أخفّف عنه هذا القلق!

وسارت الأمور حسب الإرادة الملكية. رأى الحسن الثاني بأنّه علينا أن ننغمس في الواقع المغربي بلطف وأقنع والديَّ بأنّ إيفران ستكون المكان المثالي لتخفيف الضغط المتصاعد. فأمر أن تُجهّز لنا شاليه فيها. كانت قرية إيفران، التي بُنيت في عهد الحماية الفرنسية، الواقعة على مرتفعات جبال الأطلس الأوسط بشاليهاتها المتقنة والنظيفة، وأسطحها القرميدية الحمراء، ومدافئها الداخنة، تمتد على هضبةٍ مخضوضرة، محاطة بجبالٍ تكثر فيها الينابيع وجداول الماء. وكانت غابات الأرْز والصنوبر المحيطة بها مرصّعة ببحيراتٍ وأنهارٍ كثيرة السمك. كانت تلك الطبيعة تشبه بعض الشيء سويسرا، وكانت جنّة حقيقية للمتنزّهين. كنّا في فصل الشتاء. فوصلنا إليها وكأننا طردٌ بريدي، دائماً تحت الحراسة وتحت مسؤولية راضي. السماء خفيضة وندائف الثلج تتناثر على القرية الوادعة. أسعدتني تلك البيئة، وأحيت في داخلي وهم عودةٍ إلى الحياة الطبيعية.

ولكن سرعان ما سيخيب أملي لأنّ البيت الذي خُصِّص لنا كان معسكراً محصّناً حقيقياً. بوابته محروسة بخفيرين مزروعين تحت محرَسين

خشبيين. كانا عنصرين من CMI مكلّفينِ بحمايتنا. وفي الليل، تكون الحديقة إلى حين طلوع النهار مُنارةً بصفٍّ من الأنوار الكاشفة كما هي الحال في ملعب. وتصاحب كلابٌ مدرّبة الدوريات التي تقوم بجولتها كلّ ساعتين. وكانت هناك حديقة فسيحة على تخوم الغابة محاطة بجدارٍ خفيضٍ يتستّر خلفه مرقبٌ كلّ ثلاثين متراً. قطع راضي جولة التعرّف على الأمكنة تلك:

- تعال، سأعرّفك بزملائك الجدد في اللعب.

مررنا عبر المطابخ لكي ننزل إلى القبو. وجدتُ بحبور وجوهاً مألوفة. خاصة دادا خاصّتي، الاسم الذي أطلقناه على حاضنةٍ في المغرب. دادا سيّدة عجوز كانت قد كبرت وخدمت في بيت الغلاوي، باشا المرّاكش، والتي أوتها أمّي. قضت في بيتنا شيخوخة مدلّلة وكأنّها تميمة البيت. كما استعلمت بإلحاح عن كارمن. لماذا ليست هنا؟

طمأنوني:

- لقد بقيت في الرباط مع أخواتك الصغار ووالدتك.

نفد صبر راضي ووضع حدّاً لفيض اللقاءات. وبجملة واحدة، أجّج فضولي:

- بسرعة! أصدقاؤك بانتظارك!

أبهجني احتمال أن أتخذ زملاء جدداً.

نزلنا إلى المرأب. توقّعتُ أن أجد أطفالاً في عمري، ولكنني بُهتُّ لرؤية اثني عشر رجلاً بأطقم وربطات عنقٍ وقد اصطفّوا بعناية وكأنّهم ينتظرون مَنْ يستعرضهم. وقدّمهم راضي لي واحداً فواحداً.

حدّد لي لحسن، قائد المجموعة التي ستسهر من الآن فصاعداً على تسلياتنا. رجلٌ معتدل القامة، مفتول العضلات. وجهه متناسق، أنفه ناعم، بشرته نحاسية، وجنتاه بارزتان، ابتسامته باهرة تحت شاربٍ رفيعٍ أصهب. تضغط ياقةٌ بيضاء على عنقه المحتقن كعنقِ ربّاع. صدغاه المسفوعان بالشمس مشذّبين، ويُبرزُ قوسا حاجبيه الثخينين عينيه بلونهما

الأخضر المائل للأصفر. في إيفران، كان لحسن، البربريّ من جبال الأطلس الأوسط، في منطقته، وبالتالي هو أفضل من يجعلني أكتشف تلك البقعة الساحرة من المغرب. كان قائد المرافقين رجلاً ودوداً رائق المزاج وطيّب المعشر على الدوام. لم أعرف معه الضجر. لديه عادة غريبة في شرب جرعات ساخنة من الشاي بعد أن يقضم بكامل أسنانه مكعّباً من الزبدة المجمّدةِ تماماً في الثلاجة.

اقتصرت إقامتنا في إيفران على النزهات في الغابة والألعاب المرتجلة مع رجال الشرطة في الحديقة. وبدأت معالم الرتابة تظهر على رحلاتي التي كنتُ أقوم بها تحت حماية مشدّدة. صُدِمَت أمّي، التي جاءت لزيارتنا لعدّة أيام، بالإجراءات الأمنية المحيطة بنا. أحزنها ذلك، بل وأثار ثائرتها. ونوت أن تفاتح الملك ما إن تقابله بالاضطراب الذي نعيش وسطه. ووعدتني بأن ننضمّ إليها في الرباط خلال أقلّ من أسبوع. جعلت فكرة العودة إلى بيتنا الانفصال أقلّ وطأةً عليّ. وكان على فاطمة أن تنزل إلى العاصمة لأنّ أختي سُكَيْنة، الرضيعة بعد، كانت مريضة. سألتها عن كارمن. تجنّبت سؤالي بابتسامة فاترة وقبلة كبيرة:

- عليّ أن أعود، عزيزي، لا أريد أن أقود السيارة ليلاً. سنلتقي قريباً في البيت!

لم ألحّ عليها في السؤال.

أينما تنزّهنا، كان الجهاز الثقيل المرافق لنا يسدّ الأفق أمامي. ولكي أجعل لتلك النزهات المصحوبة نكهةً، انطلقتُ بلا تحذير لكي أتخلّص من رجال الشرطة. أوهمني لحسن وفريقه بأنني قد هربت، واستطعت أن أخدع تيقّظهم، ومرّوا على بعد خطوتين من الأجمة التي لبدتُ فيها. كدتُ أطير فرحاً لرؤيتهم جميعاً، وقد طوّقوا أفواههم بأياديهم على شكل مكبّرات صوت، وهم ينادونني بأعلى صوتهم. ذات يوم، أفلتتُ من لحسن، واندفعت وتسلّقت لوحةَ أردوازٍ ضخمة تعلو فوق ساقية ماء. حينذاك، مزّق انفجارٌ الهواء فجأةً. كان ذلك أوّل عيارٍ ناريٍّ أسمعه في

حياتي. توقفتُ على الفور، جامداً في مكاني. تلقّفني لحسن، الذي بات فوق رأسي، بين يديه القويّتين، وطمأنني:

- لا تخف، لا تخف!

لم أكن قد رأيتُ، وأنا أتسلّق تلك الصخرة الكبيرة المسطّحة، ثُعباناً يندسُّ في صدعٍ. شاهده أحد المرافقين فأطلق النار لتخويف الحيوان الزاحف.

في الليل، لم أستطع أن أنام إلاّ بعد أن أُغلِقَت ستائر النوافذ، واجتاحت غرفتي الأضواءُ الكاشفة المنيرة للحديقة. سمعتُ أحياناً مرور الدوريات. كان لحسن ورجاله يقيمون في الطابق السفلي، فيأتي بين الفينة والأخرى أحدهم ليفتح الباب قليلاً بحذرٍ ويُلقي نظرةً على الحُجرة. أبدى لحسن الاهتمام تماماً مثل حاضنة. وكلّما كان يقوم بدوريته، كان يضمّني أو يُداعب أذنيَّ.

ذات صباح، استيقظتُ على ضجيجٍ غير اعتياديٍّ في الحديقة. اصطفّت سيارتان أمام درج المدخل. أُنيرت الباحة وضجّت بالنشاط. سمعتُ أصواتاً وقورة ولكنّها خفيضة. تردّدت أصداء خطى في الممرّ. برز ظلٌّ في إطار باب غرفتي. استندتُ على مرفقي. وضعتُ يدي كواقية فوق عينيّ. إنّه والدي الذي تقدّم على أصابع قدميه ليحتضنني. قفزتُ خارج أغطيتي لأرتمي على عنقه. بعد كلماتٍ رقيقة وحنونة، وضعني من جديد في السرير، وقبّل جبيني وشرح لي أنّ عليه أن يغادر. ألقيتُ عليه وابلاً من الأسئلة. حاول، بطريقةٍ ما، أن يجيب عنها. قلتُ له:

- لماذا لا تبقى معي؟

- لأنّ عملي يتطلّب ذلك.

فأصررت، محاولاً عبثاً أن أجعله ينطق باسم هذه المهنة التي لا يُعتَرَف بها والتي تبقيه بعيداً عنّا.

- وما هو عملك؟

أجابني وهو يُداعب شعري:

- أنت تعرفه، أنا عسكري.

أغاظني استخفافه بي ومعاملته لي كأنني طفلٌ صغير، فرميتُ جوكري، مقتنعاً أنّ والدي سينذهل من الامر. وبلهجة من يُضبطُ مخالفاً بالجرم المشهود، خاطبته بلهجةٍ نصف استجوابية ونصف تأكيدية:

- أنت رجل سياسية أيضاً!

وكأنني أردت أن أقطع دابر أيّ تكذيبٍ منه، ختمتُ جازماً:

- مدام راسين هي من أخبرتني بذلك!

حاول أبي أن يحافظ على وقاره كي لا يغضبني. لم أستطع أن أمتنع عن إبداء هيئة ظفرٍ وعجرفة. انتظرتُ، بثباتٍ وجدية، جواباً. وبدل ذلك تلقّيتُ سؤالاً:

- وماذا يعني رجل سياسية؟

تردّدت. وتقلقلت. ولأستعيد ثقتي بنفسي، لجأتُ مرّة أخرى إلى شروحات مدام راسين:

- حسناً، إنّه مثل مدير مدرسة. قالت لي مدام راسين إنّك تدير المغرب كما تدير هي ماري-جوزيه.

ابتسم لي والدي:

- كلاّ. الملك هو القائد الكبير. أمّا أنا، فأنا جنرالٌ وعسكري أخضع للأوامر كما كنتَ تُطيع مدام راسين.

فهتفتُ متعجباً ومهتاجاً:

- ولكن هذا ما قلتُه للمديرة!

نهضتُ على ركبتيّ، عازماً على متابعة الجدال. قبّلني والدي ونهض:

- هيّا، عليك أن تنام الآن. حينما تكبر، سنعاود الحديث عن ذلك.

انتظرت للحظة، ثمّ انسللت إلى الممرّ. كان في الطابق نافذة تطلّ

على مدخل البيت. تطلّعت إلى والدي، ملصقاً جبيني بزجاج النافذة. اتّخذ الشرطيون، الذين اعتادوا أن يكونوا مسترخين بحضورنا، موقفاً مُجلاً. حينما نزل والدي درج المدخل، تسمّر الجميع في حالة استعداد. فتأكّدت من أهميته ومن التأثير الذي يحدثه حضوره على موظّفي الدولة. رفع والدي أبصاره نحو الطابق. تحرّكت السيارة. وتتبّعت ببصري الأضواء الخلفية لسيارته إلى أن توارت عن أنظاري. عاد أهل البيت إلى النوم.

مكثنا بضعة أيام أخرى في إيفران. بقي للحسن ولفريقه والموظّفين الذين اعتنوا بنا أن يعيشوا المشهد الأكثر إثارةً لإقامتنا.

قُبيل المغرب، سمعتُ بلبلة لم تحدثها حتى الزيارة المفاجئة لوالدي. وبقفزة واحدة أصبحت على درج المدخل. شاهدتُ في الطرف الآخر من الممرّ الرئيسي حرّاساً مذعورين يرتعدون خوفاً وهم يسارعون إلى فتح باب «قلعتنا» على مصراعيه. سارت سيّارة عادية نحو مدخل البيت. هرع لحسن ومرافقان آخران نحوها وأحاطوا بها! وكلّ مَن شاهد الرجل، من الحديقة وحتى المرأب، تجمّد في استعدادٍ مدهش. قضمتُ تفاحةً ريّانةً مستمرّاً في اندهاشي لهذا الترويض المفرط.

اقتربت المركبة. ترجّل منها راكبان، وتهيّأ لحسن لفتح الباب للسائق. لم أجده قطّ جديراً بهذا الاحترام وهذه الحيرة التي تسبّب بها. من على الدرجات التي جلست عليها، لم أرَ سوى رجالٍ متجمّدين، منتصبين كالأوتاد، واضعين أيديهم خلف ظهورهم، مستعدين لأن ينبطحوا في أيّ لحظة. لم يكن للمشهد أيّة علاقة مع الاستعداد التقليدي للجنود. خرج السائق من مقعده ببطء وتقدّم في الممر وهو يُصلح حزامه. كان يرتدي سترةً كستنائية من جلد الأيّل وسروالاً صوفيّ اللون وحذاءً أبيضَ. منعتني قبّعة من الكتّان الفاتح نزلت على جبينه ونظارتان كبيرتان بإطارٍ أبيض من تحديد شخصيته للوهلة الأولى. ولكن من خلال

مشيته ومن الوقع الذي أثاره ظهوره على أفراد طاقم الموظّفين، أدركتُ أنّه الملك! جاء بكلّ بساطة وبدون حراسة.

يرافقه مولاي حفيظ. لم أشعر قطّ بأدنى ميلٍ نحو تلك الشخصية الباردة، التي أقلّ ما يمكن القول فيها بأنّها سمِجة. إنّه بشكلٍ ما «رئيس القيّمين على القصور الملكية». وسرعان ما سأعرف، حينما أكبر، أنّ هذا الأمهق الأصلع والمُتعتع هو الإبليس شخصياً! وجدته مقزّزاً، وارتحتُ حينما تقدّم الملك بمفرده نحو درج مدخل الفيلا.

اكتشفت تفرّداً كان قد فاتني إلى تلك اللحظة: يُحدث الحسن الثاني لدى موظّفي الدولة حالةً من الورع والخوف، وذعراً لا يُسيطَر عليه كالذي كان يحيط بالأباطرة الرومان المؤلهين.

جاء أفراد المنزل الواحد تلو الآخر لتحيّة العاهل. قبّل كلٌّ منهم يده بلهفةٍ. سحب يده منّي، ضمّني إليه ومدّ إليّ وجهه الحليق بعناية، والمعطّر. تحدّث إليّ الملك باقتضاب ببضع كلماتٍ. بتلك العبارات التي تُوجّه للأطفال بلا انتباه. فضّل أن يطرح بعض الأسئلة الملائمة والمحدّدة على الرجال والنساء الذين يحيطوننا برعايتهم. بقي الحسن الثاني لربع ساعة. قبل مغادرته، كرّر تعليماته وثقته. أثار مجيء الملك وكلماته حميّة الذين كانوا يهتمون بنا.

لم يعد لحسن يعرف الراحة. كان دائم النشاط، وطالب فريقه بتيقّظ دائم.

وفت أمّي بوعدها. وعدنا إلى الرباط بعد بضعة أيام. ردّ لحسن على معاونه الذي تساءل حول ضرورة نقل كلّ هذه الكمية من الأسلحة والذخائر بسياراتنا الثلاث للحراسة:

- اذهب واشرح ذلك لجلالته! لو أنّك تلقّيت منه شخصياً التعليمات نفسها ولاسيما تهديداته بشأن عواقب فشلٍ من جهتنا، لجافاك النوم مثلي.

ولكن سرعان ما تبدّدت نشوة العودة: فقد علمت بقسوة ومن دون

تفسيرات بأنّ كارمن لم تعد في خدمتنا، وأنّها عادت وابنها بيدرو إلى اسبانيا. بين ليلةٍ وضحاها، رفضتُ التكلّم بالاسبانية. اليوم، وأنا في الخامسة والأربعين من عمري، ومع أنني أكتب وأفهم هذه اللغة بطلاقة، ما زلت أعاند في ألاّ أتكلّم بها إلا نادراً. وسوف يستمرّ أبداً انبهاري بشبه الجزيرة الايبيرية، وتجانسي مع نمط حياتها الجذّاب والدافئ والإنساني. بالنسبة لي تُعدّ أسبانيا ما بعد نظام فرانكو جذّابة إلى حدّ أنّها تسحرني. إنّ إعجابي بملكيتها الدستورية والديمقراطية، وبتطوّرها الاجتماعي السريع والمتوازن، يجعل منها في نظري أحد النماذج الغربية الأكثر نجاحاً.

كانت بديلة كارمن فتاة سويسرية، تُدعى جوزيت. تمّ اختيارها بدافع الرغبة في ألاّ نتغرّب كثيراً عن جوّ إقامتنا السويسرية! ولذلك كان اختيار جوزيت طويلاً وشاقاً.

لدى العودة إلى الرباط، استأنفتُ حياتي فيها كما كنتُ قد تركتها، أو قريباً من ذلك. وإذا كانت الحديقة لا تزال وفيرة الأشجار ولا تزال تخشيبتي منصوبةً على أغصان شجرة البلوط، فإنّ الحماية المحيطة بنا كانت جديدةً. تضايقت، بل وامتعضتُ من ذهابي إلى المدرسة مع كلّ أولئك المرافقين. وتأثّرت دراستي بسبب ذلك على نحوٍ مضاعف. كانت دروسي الأولى اختباراً. في درس الحساب، سألتني المعلّمة:

- ثلاثون زائد أربعون كم يكون الحاصل؟

رفعتُ إصبعي لأجيب:

- سبعون (septante)(*)، مدام!

قهقه زملائي الصغار! لم يفهموا لماذا لم أقل سبعون (soixante-dix). تملّكني الخجل والحنق، فأبيت بعد ذلك أن أشارك في الدروس. أبدت معلّمتي صبراً وتفهّماً. وكان عليّ، مرّة تلو الأخرى، أن أتكيّف مع الجوّ الجديد.

(*) يستخدم السويسريون الناطقون بالفرنسية septante أي سبعون بدل Soixante-dix

نجحت أمّي، بفضل الإلحاح على الملك، في الحصول على قرارٍ بتخفيف الإجراءات الأمنية من حولنا. ولكن كان عليها الرضوخ لفكرة أن نحتفظ بمرافقين. أوضح لها العاهل أن لا مشكلة في أن يُلغى مبدأ حراسة مسلّحة. سمح الملك لفاطمة بتخفيض عدد المرافقين مقابل أن تترك للملك أن يعيّن شخصياً المرشحين الجدد لحمايتنا عن كثب. طلب الحسن الثاني من المفوّض بودريس، البربري من الأطلس الأوسط الذي يدير الأمن الملكي، أن يختار مرافقين من بين أفضل مَنْ في فريقه. أراد الملك رجالاً موثوقين، صارمين ولكن أيضاً قادرين على أن يديروا بحصافةٍ وخبرة تربوية المهمّة الحسّاسة المناطَة بهم. عيَّن بودريس صهره ادريس، ضابط الصفّ السابق في الجيش الفرنسي، في هذا المنصب الحسّاس. بعد حملة إيطاليا وفرنسا والهند الصينية، ترك خدمة العلم وناضل في سبيل الاستقلال، في صفوف جيش التحرير الذي تركه كآخرين كثر لينضمّ إلى القوات المسلّحة الملكية، ومن ثمّ إلى الشرطة الوطنية. كانت كفاءاته تؤهّله لأن يكون أحد مرافقي محمد الخامس. طرح ادريس شروطه. طلب أن يختار بنفسه معاونيه الاثنين.

أوضح له المفوّض:

- ستكونون أكثر من ثلاثة لهذه المهمّة.

- في هذه الحالة، ستكون المهمّة من دوني.

طلب رئيسه، مندهشاً، تفسيرات.

ردّ ادريس:

- ألم تقل لي بنفسك إنّ جلالته كان يحرص بشكلٍ خاص على التربية والحصافة والكتمان. إذا وضعنا وحدة عسكرية حقيقية في أثر هذا الطفل، يمكننا إذاً نسيان هذه الكلمات الثلاث!

خاطبه المفوّض:

- ولكنّك مجنون! مَنْ أنا لكي أتجادل في أوامر جلالته؟

فقدّم بودريس للملك الفريقَ المكوّن من خمسة شرطيين والذي على

صهره أن يقوده. وحينما اشتكيت، وأنا مراهق، من ضغوطات تلك الحماية اللصيقة، ردّد علي إدريس بلا كلل أقوال العاهل التي أبلغه بها يوم تسلّمه للمهمّة.

- لقد خدمتني كما خدمت جاهداً والدي. المهمّة التي أكلّفك بها خطيرة. أوفقير يخاطر بنفسه من أجلي. أريد أن يتمكّن من خدمتي بصفاءٍ وراحة بال. ولذلك، أجعل من أمن أولاده أحد مشاغلي الشخصية. أتمنّى ألاّ تخيّب الثقة التي أوليك إياها!

وسترنّ هذه التوصية الأخيرة في ذهن الشرطيين كتحذيرٍ دائم، كسيفِ ديموقليس مسلّطاً فوق رؤوسهم.

لدى دخولهم في خدمتنا، استُقبِل ادريس والمراقبون الأربعة المعيّنون من قبل الحسن الثاني من قبل والدي. وصاحبهم رئيس الأمن الملكي. سأل والدي كلاً منهم عن ماضيه العسكري. وكالعادة، طغت على أوفقير ذكريات سنوات خدمته الميدانية كفتوّة مبهجة، ونفحة هواءٍ نقيٍّ وسط جوّ السياسة الفاسد. استغلّ ادريس تلك الفرصة ليفاتح الجنرال بآرائه. عبّر بوضوح لوالدي عن تحفّظاته الخاصّة بجدوى هذا العدد لحمايتي. عضّ المفوّض بودريس شفتيه، وحاول تلميحاً أن يثني صهره عن مثل تهوّرٍ كهذا. أمّا الوزير، فعلى العكس من ذلك، أُعجِب بجسارته و«اقتراحاته». عاد اثنان من المرافقين الخمسة المعيّنين من قبل الملك إلى القصر. وأكّد والدي للمفوّض، الذي قلِق من ردّ فعل الحسن الثاني، أنّ ذلك لن يثير مشكلةً وأنّه سيتباحث بالأمر مع جلالته.

إذاً، ثلاثة رجال، بينهم ادريس، سوف «يُلصقون بردفيّ». وإذ بقيتُ متضايقاً لكوني مرَافَقاً باستمرار، ولكن مع ذلك شعرتُ بالفارق بين الاحتراف الذكي لادريس وصرامة لحسن الجذّاب. ولا بدّ من القول إنّه بعد إنهاء مهمّة هذا الأخير لم يكن عدد المرافقين هو نفسه. أصبح وصولي إلى المدرسة أقلّ صعوبة بالنسبة لي لكونه أكثر سريّة. وهذا لم يمنع إدريس وبوطويل ومحمد من أن يذرعوا كالأشباح ساحة وممرّات

مدرسة بول سيزان في الرباط. ولكنّهم قاموا بذلك بحيطةٍ وسرّية. ولكي يمتزج حضوره في المشهد، كان ادريس يلبس أحياناً جلباباً صوفياً ليجلس في ركنٍ من الباحةِ الفسيحة. وصادقَ بوابَ وبستاني مدرسة بول سيزان. أثناء ساعات الدرس، كان يجلس مع أحدهما في ظلٍّ شجرة. ومن نوافذ صفّي، كان يمكن رؤيتهما وهما يتنافسان في أشواطٍ لا تنتهي من لعبة الدامَة.

جرت السنوات الأخيرة من الستينات، عاديّةً، رتيبة على نسقٍ واحد، موسومة بالأحداث السياسية وما رافقها من ضغوطات غير ملائمة لعمري. كان لديّ الكثير من الأصدقاء الذين أستقبلهم في البيت أو الذين يقبلون باللعب تحت البصر الذي لا يكلّ لرجال الشرطة. كان والدي يزورني على الدوام بشكلٍ خاطف، غير راغبٍ في قطع نومي. طالبتُ بأن يوقظوني لأحتضنه وأقبّله، أيّاً كانت ساعة مروره. جهد أوفقير أن يعوّض قلّة تردّده إلينا بنوعية علاقاتنا. فقد عرف أن يقيم بيننا ثقةً أتاحت لي أن أعبّر له عن حرماني وتساؤلاتي. أعطاني بعض الوعود، التي وفّى بها على الدوام أيّاً كانت التزاماته الآنية. وبخصوص عتابي الذي وجّهته إليه حول غياباته الطويلة، شرح لي بكلمات بسيطة الظروف الطارئة التي تتطلّب ذلك وأقسم لي إنّه، بعد الآن، سيجهد، أينما كان، في نطاق الممكن، أن يوصل إليّ رسالة تشجيع. طبعاً، حينما كان سائقه بوشعيب ينزل في وقتٍ متأخرٍ من الليل، كان ذلك ليخبر الكبار بما سمح له والدي أن يبوح لهم به. وكان لدى المبعوث الأبوي دائماً رسالة شخصية لينقلها إليّ.

ذات ليلة، أيقظني بوشعيب. كان يأخذ بين يديه كرة صغيرة من الوبر الأسود. إنّها كلبةٌ صغيرة، من نوع بيشون المالطي القزم، ذي الخطم اللامع.

قال لي بوشعيب وهو يقدِّم لي قطعة القطيفة الرائعة:

- تفضّل، هذه هديّة لك من الجنرال. والدك في صحّة جيّدة ويبعث لك بقبلاته. اسمها «مشاكل»، الجنرال هو من سمّاها!

كان اسم «مشاكل» الذي اختاره لها أوفقير يكشف عن المناخ السائد في المغرب خلال تلك السنوات.

لم أحبّذ اختيار هذه التسمية التي لم أُدرك مغزاها المضمر، فانتظرت أن أتناقش في ذلك مع والدي. وفي أوّل فرصة أخبرته بامتعاض بأنّ جمال البيشونة الصغيرة يستحقّ اسماً جديراً بها! نكّد عليّ والدي، واقترح عليّ أخيراً أن نسمّي الكلبة «جيجي»، تيمّناً بالاسم المصغّر لبريجيت باردو. أعجبتني الإحالة كثيراً. وقرّرنا في اتّفاق مشترك أنّها ستُدعى من الآن فصاعداً «جيجي مشاكل»!

في نهاية أيار (مايو) 1966، تصالح أبي وأمّي واقترنا من جديد. قرانٌ جديد لم يغيّر حياتي العاطفية كثيراً إذ لطالما حافظا أمام أولادهما وفي تصرّفهما على مجاملةٍ ولطفٍ رفيعين خلال فترة طلاقهما. بإظهارهما الدائم للاحترام المتبادل بحضوري، رسّخا لديّ، ربّما دون أن يعرفا، فكرةً أوّلية عن العلاقات الإنسانية.

في السنوات التسع التي مضت، منح حادثٌ فريد فرصةً ملموسة لوعيي النامي لكي أعرف والدي على نحوٍ أفضل. مثل أيّ طفلٍ يتحقّق، يوماً ما، من خلال موقفٍ أو من ردِّ فعلٍ لوالديه، من شخصيتهما الحقيقية. من خلال تلك اللحظات العصيبة، يتولّد الحكم الأوّل الذي يُطلقه المرء على والده أو والدته. وكانت هذه حالتي ذات يوم.

كان أحد أفضل أصدقائي في الصف ابن أحد المعارضين آنذاك، المنخرطين في صفوف الاتحاد الوطني للقوى الشعبية UNFP. وكان العقيد الدليمي، الذي لم يعد يرتبط منذ قضية بن بركة سوى بالحسن الثاني شخصياً، يبدو يوماً بعد آخر كمنافسٍ لأبي إذ إنّ مخابراته اغتصبت

سلطات أوفقير خطوةً خطوة. تجريدٌ مورِس خلف ستار دخان الأمجاد والمجاملات الملكية التي كان الحسن الثاني يقرظها رسمياً لأبي. جمع الدليمي وزوجته زهرة بأساليب ملتوية واحدة من أكبر ثروات البلاد. لم يخفِ العقيد ثراءه غير المشروع وزعم جهاراً أنّ ذلك ناجمٌ فقط عن الأجرة التي يتقاضاها لقاء المخاطر التي تعرّض ولا يزال يتعرّض لها في سبيل الحسن الثاني. وإذا كان القدامى لا يولون أهمية سوى لذهب ميدالياتهم فهو قد أدرك القوّة المحدودة للذهب! والحال أنّ العقيد الدليمي هو من أخبر الملك عن «أصحابي غير الفاضلين في المدرسة». بل شرح للحسن الثاني أنّ صداقتي مع ابن محام من المعارضة هي خُدعة للتقرّب منّي قبل اختطافي! ذهب إلى بيت والد صديقي مع جلاوزته، وبعد أن استجوبه شخصياً، أكّد له أنّه جاء لزيارته بناءً على أمرٍ من أوفقير.

- لا يريد الجنرال أن يقترب ابنك بعد الآن من ابنه! تدبّر أمرك كما تشاء، ولكن أطِع الأمر!

ذات يوم اثنين، في باحة المدرسة، سارعتُ كالعادة نحو صديقي الذي أخافني ببروده. لم أفهم تغيّره المفاجئ. شرح لي بكلماته الطفولية:

- أَرِحني! أخبرَ والدُك والدي بأنّه علينا ألا نتكلّم مع بعضنا!

لن أستطع وصف ما تسبّب به ردّ الفعل ذلك من صدمة وحزنٍ عميقٍ وإهانة جائرة. لقد جرحني ذلك إلى حدّ أنني أردتُ الموت لأبي. قررت حينها ألاّ أعود أحبّه وأن آخذ مسافة غير اعتيادية منه.

سرعان ما فهم أوفقير ذلك. حتى اليوم الذي استمع إليّ، مذهولاً، وأنا أخبره بما حدث وأصبّ عليه سيلاً من اللوم والعتاب.

كبح والدي انفعاله وطلب منّي أن أعيد عليه القصّة من أوّلها. طرح عليّ بعض الأسئلة، ثمّ جثا على ركبتيه وأمسكني من كتفيّ وحدّق في عينيّ. لمحتُ حزناً عميقاً في نظرته، تعبيراً عن أسفه. بعد لحظاتٍ من الصمت، تمالك نفسه، ونهض وجرّني من يدي. خرجنا إلى الحديقة،

عبرنا المدخل وتوجّهنا نحو المرأب. قدّم بوشعيب السيارة. أخبره والدي بألاّ يُصاحبنا وبأنّه سيقود السيارة بنفسه. تبعته، حائراً، بصمت. سألني أين يسكن صديقي. أنزلني أمام بيته وسمح لي بأن أمضي فترة بعد الظهيرة والليل عنده إن سمح والداه بذلك. قبل أن يتركني، قال لي والدي بهيئةٍ احتفالية:

- يا بنيّ، لقد أخبرتك بأنني لستُ على علم بهذه المسألة. لن أمنعك قط عن اختيار أصدقائك. اعلم إنّ الصداقةَ هي أغلى شيء في الدنيا. إنّ الرجل الذي لا أصدقاء له، لا وجود له! عِدْني يا بنيّ، بأنك ستتحقّق من كلّ ما يُقال لك عني منّي شخصياً قبل أن تكوّن رأيك. سأتّصل بوالد صديقك لأشرح له الموقف وأبلغه بأنّ ابنه وأنت يمكنكما أن تلتقيا متى ما ترغبان!

تلك الأواصر المتينة، التي باركها الوالدان المتخاصمان سياسياً، دشّنت صداقةً طويلةً ومتينة. اليوم أيضاً، لا يزال عبد الرحيم بوحميدي صديقي ومحاميّ في المغرب. وهو، كوالده، رجل قانون ويدافع عن حقوق الإنسان في بلدنا. كما ظلّ شقيقه توفيق صديقاً لي. وهو طبيبٌ وأنا مدينٌ له منذ خروجي من السجن بكونه يعالجني باستمرار مجاناً وبمحبّةٍ وودّ.

كما أنّ المستقبل سيثبت صداقات أخرى لم يستحسنها القصر. سيصبح موريس، ابن ابراهام السرفاتي، صديقاً حميماً؛ وكذلك أولاد بن عاير الذين كان والداهم من المناضلين الماركسيين. وكان الدكتور ميسواك، وهو شخصية شيوعية، طبيب أسرتنا. وقد قاومت علاقاته البريئة والصادقة الأحكام المسبقة التي طالما أطلقها الحسن الثاني على حاشيته:

- من يُعاشر العدّو، يتحالف معه ويتآمر ضدّي!

وبقيت تلك الصداقات حتى اليوم وهي لا تزال أكثر متانةً. وأنا ممتنٌّ لوالديّ ولوالديهم لكونهم عرفوا أن يتساموا على قناعاتهم الخاصّة وأن

يواجهوا الانتقادات اللاذعة وقصيرة النظر من لدن أوساطهم.

وجّه غياب المهدي بن بركة ضربة قاضية للحركة الثورية. فقد قطع الحسن الثاني رأس معارضته وليس له سوى أن ينتظر القطع الأكثر تعفّناً لتقلب ظهر المجن. وأن يستسلم أصدقاء بن بركة ومعاونوه لنداء الغواية. سيستفيدون من كرم وسخاء جلالته... حتى أن بعضهم سيصبحون وزراء، وأعضاء في الديوان الملكي، ومحافظين ورجال أعمال أثرياء. وتحوّل الكثير من «التقدّميين» إلى مخبرين للقصر. حتى أولئك الذين أهانوا أوفقير وصرخوا في كلّ مكان «أنّ بينهم وبين الجنرال جثّة المهدي بن بركة!»، أصبحوا يُعْلَفون من يد الحسن الثاني. باتّهامهم لأوفقير، سلِم شرفهم جميعاً! وسيُضحّى بكل شيء مثل أوفقير على مذبح الصداقة الفرنسية المغربية. وتمّت التسوية بين باريس والرباط بالحكم المؤبّد والغيابي. وها هو ما سمعه والدي من الحسن الثاني كما من أصدقائه الفرنسيين: «أوفقير، ما لم تتحمّل المسؤولية، سنسقط جميعاً!»

تجاوزت خطّة الحسن الثاني آماله. استخدم الجيش وأوفقير بشكلٍ خاصّ لإخضاع البلد. بعد تجاوز تلك المرحلة، عرف الملك أنّ العسكر سيرغبون بوضع بصمتهم على إدارة الدولة. إذاً لا بدّ من مواجهتهم وإرغامهم على القبول بالخضوع. بتوريطه لأوفقير في اغتيال المهدي بن بركة، قطع الحسن الثاني نهائياً عن وزير داخليته العديد من المساعدات المدنية والعسكرية التي كانَ يحظى بها في الخارج ولاسيما في فرنسا. وبذلك وجّه الملك ضربة مزدوجة، فقد أقصى ألدّ أعدائه المهدي بن بركة، الوحيد الذي كان يصارعه بنفس مهارته. وبتضحيته بمَنْ كان يسمّيه «أخلص عاملٍ لخدمته» استطاع الحسن الثاني علاوة على ذلك أن ينام قرير العين. لم يكن لأوفقير من خيارٍ سوى خدمته بلا نفور، لأنّ صيته الذي ذاع كقاتل لن يمكّنه على المدى القريب من تدبير انقلاب عسكري!

إنّ القوّة الأكثر احتمالاً لأن تحثّ على تغييرٍ، إن لزم الأمر، ستكون فرنسا. ونظراً للماضي العسكري والإداري لأوفقير في ظلّ الحماية

الفرنسية، فسيكون هو من يقع عليه الاختيار لاستلام السلطة. وسرعان ما أقنعت بعض السجلاّت المصنّفة على أنّها سريّة الحسن الثاني بالدور والمصير اللذين قد يُناطا بأوفقير. لم يفتأ المندوبون الساميون في المغرب وكبار القادة العسكريون الفرنسيون يثنون على المقدّم السابق في الجيش الفرنسي.

في عام 1955، لم يعد أوفقير شخصاً مجهولاً لا بالنسبة للطبقة السياسية الفرنسية، ولا بالنسبة لعسكريي فرنسا، من منديس- فرانس إلى ادغار فور، من الماريشال جوان إلى ديلاتر دي تاسيني. سواءٌ في ميادين القتال أو في المفوّضية السامية، عاشرهم أوفقير جميعاً. ففي عام 1955، كتب فرانسيس لاكوست بشأنه في ملفّه العسكري: «ضابطٌ ممتاز، مدافعٌ رائع عن الفرانكوفونية، عاطفيٌّ وعقلانيٌّ في آن. يتمتّع بذكاءٍ نادر وحدسٍ فريد. دبلوماسي بالولادة، ضابطٌ مناسب لهيئة الأركان كما للجيش. أتأسّف بعمق لأنّه لم يُمنَح هذه السنة الترقية إلى رتبة مقدّم التي كان مؤهّلاً لها بجدارة؛ وينبغي حتماً أن ينالها في أوّل فرصة.[1]» أمّا الجنرال بيير-جورج بوابيه دي لاتور، فقد دوّن في مذكّرة مرسلة إلى باريس هذه السطور المقتضبة بخصوص مرافقه: «الحدّ الأعلى: جنرال» ويجب متابعة تقريرٍ أكثر تفصيلاً، مصنّف على أنّه سريّ: «ضابطٌ مغربي على ذكاءٍ رفيع، يحظى بدينامية كبيرة، ويتمتّع بشهرةٍ واسعة وبهيبةٍ وسط زملائه وفي عيون قطاعٍ واسعٍ من الشباب المغربي، وأعتقد أنّه سيكون واحداً من الصنّاع المستقبليّين للصداقة الفرنسية المغربية في النظام الجديد الذي يتهيّأ للمغرب. ينبغي أن يتعزّز ولاؤه وهيبته بترقية هو جديرٌ بها ويدرك أنّه جديرٌ بها وسيُصاب بخيبة أملٍ شديدة إن لم يحظ بها. وبالتالي أعتقد أنّه من الضروري، على الصعيد السياسي، وضع النقيب أوفقير هذه السنة على قائمة الترقية، مكافأةً مبرّرةً مع ذلك بألقابه العسكرية.» ولن تغيب

(1) انظر الملفّ العسكري في الملحق.

هذه السطور عن بال الحسن الثاني. حينذاك، بعد عامٍ من اغتيال المهدي بن بركة، استطاع الملك أن يترك سلطات لأوفقير، ولكن فقط ما كان يلزم لمكافأته على طاعته في القضية. كان تلويث سمعته، في الداخل كما في الخارج، لجاماً فعّالاً لكلِّ طموحٍ أو رغبةٍ محتملةٍ لوالدي في الحكم. علاوة على ذلك، كان على أوفقير أن يتظاهر بأنّه مدينٌ للتضامن الملكي. ألم يقف الحسن الثاني، مع أنّه «بكى» أستاذه و«صديقه» بن بركة، الموقف النبيل في تغطية التجاوز الخطير لوزير داخليته؟

من عام 1966 وحتى عام 1970، أطلق الحسن الثاني العنان لأوفقير. ولكن في بعض المجالات فقط. فقط فيما هو ضروري لانشغاله بالعمل، لكي لا يخرج من اللعبة. لأنّ أمن الدولة بات يخصّ حصراً ورأس حربته، جهاز SSS بقيادة مولاي حفيظ. رسمياً، كان وزير الداخلية يتولّى أيضاً منصب مدير الأمن الوطني ، ولكن في الواقع كان من يُديره هو المدير المساعد العقيد الدليمي المرتبط بالملك مباشرةً. جعل الحسن الثاني من هذا الأخير المنافس الأكثر طموحاً لأوفقير. كان الدليمي وحفيظ مفتاحي الجهاز الذي يوقف قائد قوات المملكة عند حدّه.

خلال تلك السنوات، تعلّق أوفقير بمهمات أكثر قبولاً من الدور الحاسم للبعبع الملكي. اعتقد بقدرته على أن يوازن شهوات بطانة الحسن الثاني، من خلال المثابرة على ورشات عملٍ هامّة. أعاد أوفقير تنظيم الإدارة والمرافق العامّة. أُقيمت مؤسّسة للمياه والكهرباء وكذلك وكالة لتنمية منطقة الريف (عرقل الملك حُسْنَ سير هذه الوكالة التي نظر إليها بعين شريرة جدّاً؛ إذ لا ينبغي أن ينال أوفقير الحظوة لدى الفلاحين البربر). أنشأ والدي مدرسة الكوادر في القنيطرة التي لا تزال تقدّم في عهد محمد السادس موظّفي الدولة. وأطلق ورشات عملٍ كبيرة لصالح الطبقة المتوسّطة المدنية والعسكرية. قمتُ معه بأولى رحلاتي. حرص والدي على أن أرافقه في جولةٍ في الجنوب المغربي حيث وزّعت الدولة أراضي مُفرَزة على سكان المناطق المحرومة.

قال لي:

- أريد أن تعرف بلدك وأهله.

حاول أوفقير، في اندفاعه، أن يقوم بإصلاحٍ زراعيّ. وعلى غرار وكالة تنمية الريف، حال الحسن الثاني دون المشروع الذي قد يجعل من أوفقير بطل الأرياف البربرية التي يتحذّر منها.

قال الملك:

- نعم من حيث المبدأ، ولكن شريطة أن أقرّر وحدي مدى توزيع الأراضي على الفلاحين الصغار.

ومن أصل أربعة آلاف هكتار من الأراضي المستردّة من المستعمرين، آلت نسبة زهيدة إلى الشعب. واستحوذ الملك على البقية. خصّ نفسه بأكثر من عشرة بالمئة من أراضي المغرب الصالحة للزراعة. ثمّ أعاد توزيع الباقي على حاشيته وعلى كلّ القادة العسكريين باستثناء أوفقير الذي رفض المزرعة ذات الثلاثمئة هكتار التي قُدِّمت له، والجنرال مدبوح الذي قبل بها ولكنّه تركها بائرة. وإلى حين مماته، أغدق الملك بمزارع الدولة هذه حتّى على زعماء المعارضة. أغلبية الضباط من ذوي النفوذ تلقّوا تلقائياً ترقيتهم مصحوبة بالمئات من الهكتارات الأكثر خصوبة من أراضي المملكة. والأمور لا تزال على حالها حتى أيامنا هذه.

قبل ولاسيما بعد الانقلابين العسكريين اللذين هزّا المغرب، كانت رُتَب الجنرال تترافق بلقب المزارع الجنتلمان! «gentleman farmer». إنّ مَن يجرؤون على رفض الهبة الملكية، سيُزاحون مباشرةً، وستكون حياتهم مهدّدة. إذ يرى القصر أنّ صحوتهم الأخلاقية تهيّئهم لأن يصبحوا انقلابيي الغد.

الفصل الثامن

أغوار الجحيم

من أعماق زنزانتي، أتاح لي التحليق في الماضي العودة بالزمن إلى الوراء والتوهّم بإيقافه. كانت لحظاتٌ شرد فيها ذهني ولكنّه لم يتخلّص من إنسانيته. أثارت صور الماضي تلك في أعماقي فيضاً من الأحاسيس المختلطة والمتناقضة ولكنّها القوية! كانت الانفعالات التي تحملها تلك الرحلة في ذكرياتي واضحة وراسخة أحياناً مثل الطبيعة. نحوياً، يُصرّف الزمنان الماضي والمستقبل، أمّا عملياً وفي الحياة، فهما ليسا إلاّ ولدَيْن غير شرعيان للحاضر الذي نستحضرهما فيه. مع ذلك، فإنّ تلك الخيالات التي نقلتها إلى اللحظة الراهنة، تداعت إليها إلى حدّ أنّها ألغت ما هو محيط بي وبعثت في نفسي أحاسيس قويّة بقدر ما هي حقيقية.

أتاح لي استعراض واستعادة حياتي السابقة حياةً واقعية، وتفكيراً مستغرقاً، وأحاسيس مختلطة، مريحة أحياناً، وأليمة غالباً.

وحدها آمالي في مستقبلٍ افتراضيٍّ منحتني الهدوء والراحة. وخفّف الخيالُ المحض عني وولّد عندي شعوراً بالعوم شبيهٍ بالسعادة والهناء. اخترعت لنفسي مكاناً آخر مليئاً على نحوٍ ساحرٍ بالأحلام الأكثر جنوناً، وباستيهاماتي الأكثر هذياناً وجموحاً. خلف الجدران، كلّ ما هو بعيدٌ عن إدراكي الحسّي والمادي يخضع لأفكاري. في لحظةٍ، يسكتُ الجوع والتشوّش والأمراض والعزلةُ أمام روعة أحلامي. مع ذلك، لا يخلو هذا العلاج البديل لجراح حاضري من الخطر: فمن خلال الاقتلاع القطعي

عن الواقع، يجازف المرء بفقدان الإلمام به.

مغمَض الجفنين، وروحي في تطواف، وحاضري مغلَقٌ عليه في خزانة، سيطرتُ كسيّدٍ متعجرف ومتقلّب الأطوار على أوهامي. مع ذلك، قضيتُ الوقت في تحليل ماضيّ أكثر مما قضيته في الهروب إلى المستقبل. ليس لهذين التمرينين المذاق نفسه. الأوّل ضرورة والثاني اندفاعٌ لاإرادي. في الواقع، ساهم «التنظير الشعاعي» لمسيرتي في الحفاظ على هويّتي. والهوية، مع الأمل، هي آخر شيءٍ يقبل بالظلم والاضطهاد. والعزلة هي أوّلاً مواجهةٌ فظيعة مع الذات، لحظة للحقيقة المطلقة.

منذ 30 كانون الثاني (يناير) 1978، لم ينفتح الباب المزدوج لزنزانتي. منذ اليوم الذي بلغت فيه العشرين، درتُ دائرياً في تلك الزنزانة العفنة. وقد مضى ما يقارب ثلاث سنوات وأنا مدفونٌ حيّاً.

حاولتُ، ككلّ سجناء الدنيا، أن أتّخذ مفكّرة. ولكن كلّما مرّت الأيام أكثر، كانت الشطبات التي تحسبها على الجدار حانقة وملحاحةً أكثر. وكأنّ تضحية كلّ ثانيةٍ انقضت في الجحيم كانت قد دلّت على الغضب! في صيف 1981، كنتُ لا أزال على قيد الحياة! وأذهل ذلك حرّاسي وعظّم من شأني. اشتاق إليّ أهلي. لم أسمع أخبارهم سوى عبر الرسائل التي كانت جارتاي التعيستان تنقران بها من خلف الجدران. ونقلت حليمة وعاشورا بطريقةٍ ما إلى بقية الزنازين جلسات «مورس»[1] خاصّتي. وبدت الطريقة غير فاعلة.

منذ حملات التفتيش في تاماتاغت، حاولنا أن نتهيأ للأسوأ. وبما أنني نجحتُ في غرز رصاصات قلم في مطاط نعالي، فقد بقرتُ حشيّتي المصنوعة من مسّاحات وكراتين مضغوطة لكي أصطاد فيها أدنى مساحةٍ

(1) مورس: رموز لتوجيه الرسائل عبر النقر والضربات. المترجم

أكتب عليها. قبل الاغتراف في نعالي وحشيّتي بتقتيرٍ كان عليّ بالمقابل أن أجد وسيلةً لإيصال رسالتي. ولم يكن لديّ خيار سوى اللجوء إلى مبولتي. فقد ترك حرّاسي الذين كانوا يشمئزّون من تفريغ محتويات سطلي هذه السخرة لحليمة وعاشورا. وقبل استعمال «علبة الرسائل» هذه، كان عليّ أن أحلّ مشكلة تقنية: سيكون غطس الرسالة فيها تالفاً لها من دون حمايتها. بغية إيجاد وسيلة لتغليفها بإحكام، انخرطتُ في البحث عن غطاءٍ رقيق، مهما كان صغيراً، من البلاستيك. لم أجد سوى سنتمتر مربّع واحد من تلك المادة التي أصبحت فجأةً أثمن من الذهب في نظري. كان «حصادي» المتواضع عبارة عن ضريبة مختَلَسة من قوائم خنفسٍ ضخمٍ، تعرقل بها. ورغم خيبة أملي، لم أستسلم. عاينت واستمعت إليَّ وشممت أصغر زاوية من قفصي. شغلتني تلك المطاردة اليائسة وأنهكتني. ثنيتُ ساقيّ وتركتُ نفسي أنزلق على الحائط الذي كنتُ أسند ظهري إليه. حينما لمس عقباي ردفيّ، بقيت على تلك الحالة مقرفصاً، رافعاً رأسي، محدّقاً بنظري، وكأنني أتضرّع إلى السماء لتهبني راحةً، لترسل لي حلاً!

شعرتُ بمادة لزجة على رقبتي التصقت بشعري. إنّه الجدار يتقيّأ بفقاعاتٍ هُلامية عفونةَ قشرته. بعد أن انتزعتُ ذلك الطلاء السميك، دعكته بقوّة بين السبابة والابهام إلى أن تحوّل إلى ما يشبه العجين الذي يمكن صنع قالبٍ منه. لففتُ رسائلي على شكل أسطوانة صغيرة لا تتجاوز طول عود ثقاب. ثم غرزتها في كرةٍ صغيرةٍ من الصمغ الذي جنيته من الجدران. ثم سدَدتُ بدقّة الفتحات التي أدخلت الرسائل منها. كما وجب عليّ أن أُثقّل كرة الصمغ التي تتضمّن الرسالة بثقلٍ كي لا تطفو على سطح وعائي. وإذ باتت جاهزة للشحن، غطستها في وعائي ولم يتبقّ لجارتيّ «سوى» تلقّيها. ولتلقّي الرد، انتظرتُ إلى أن تُرمى لي جرايتي اليومية من الطعام لكون حليمة وعاشورا هما من تضعان القصعات على درج الزنازين. ترك حرّاسنا لهما تلك المهمة التي اعتبروها مُهينة.

فأوصلت رفيقتانا في البؤس إليّ الأجوبة على رسائلي عبر إخفائها في الزاد الزهيد الذي كانتا توزّعانه. بالطبع كان الاتصال الذي أقمناه غير كافٍ. وكانت الكلمات التي تبادلناها قليلة كما المساحات الضيّقة التي خربشناها عليها. انضاف القلق من نضوب مصدر الورق ورصاصات القلم إلى حرماننا من تلك البطاقات المقتضبة. قبل أن نعدم صلة الوصل هذه لسببٍ أو لآخر، لا بدّ من إيجاد وسيلة أكثر فاعليةً للاتصال. في الزنازين، استغرق كلٌّ منّا في التفكير. أعترف أنني بذلت طاقة خاصّة في ذلك لأنني كنتُ في وضع جنديّ غواصةٍ حبيس سفينته الغارقة في الأعماق.

شغل ذلك البحث اليائس عن كسر طوق العزلة ذهني ليلاً ونهاراً. حتى وأنا نائم، تسلّطت تلك الرغبة في الخلاص على ذهني.

حلّ الصيف. وكان محنة قاسية. أصبحت جدران زنزانتي أكثر ضيقاً عليّ، ولم تجفّفها الحرارة: فأصبحت أكثر دبقاً بل وأكثر لزوجةً. كان جوّ زنزانتي جوّ قدرِ ضغط. يشحُّ فيها الهواء وتغدو رائحتها الكريهة نتنة، ويسحقني سقفها. كنتُ، منبطحاً على البلاط، وأنفي على مستوى الأرض، أمدّد خدّي وألوي وجهي بتكشيرة الغريق لكي أتلقّف التيار الهوائي الخفيف الذي ينسلّ من تحت الباب.

حينما ضاق الخناق عليّ، بحثتُ عبثاً عمّا يخفّف عنّي. تحدّثتُ بصوتٍ عالٍ إلى «أصدقائي»، إلى تلك الوجوه المألوفة التي جمّدتها تقلّبات الزمن على جدراني:

- سترين! في النهاية، سنخرج من هنا! سترين يا ايما، نحن الاثنين سننتصر على الدنيا برمّتها!

ليست ايما سوى صورة محفورة على الجصّ، ولكنّها حقيقية جدّاً إلى درجة أنّها موجودة في قلبي. كنتُ أبثّها تشجيعي بمغالاة لأتخلّص من ضيقي.

كانت الساعات والأيام احتضاراً بطيئاً. ومن فرط ما فصلتُ روحي

عن جسدي انتهيتُ إلى أن أقيم تعايشاً في هيكلي العظمي التالف بين عزم الروح وضعف جسدي المشرّح. استخدمتُ جلّ الوقت ما تبقّى لي من قوّة لكي أعثر على عوّامة وسط هذه العاصفة. تعدّدت لحظات الإحباط، وظلّ وسواس إمكانية أن تزلّ بي قدمي حاضراً دائماً، وترسّخت غريزتي في البقاء باحكام.

لم أتخلّ عن أبحاثي وتقصيّاتي. كان لا بدّ لي أن أجد وسيلة لتحطيم أذيّة الصمت، لكسر ذلك الحصار الجهنّمي. وسأتكلّل بالنجاح لو أردتُ قهر هذا الحكم بالعزلة اللاإنسانية والقاتلة.

أنهكني ذلك الوسواس. قررتُ أن أمنح نفسي فترة من الراحة. جالساً خلف باب زنزانتي، ألصقتُ ظهري بتصفيحه: فبرّدتني تلك الملامسة. خنقتني الحرارة المصحوبة بالرطوبة. تنفّستُ بعمق. رفعتُ جبيني، كانت حبّات من الندى تهتزّ معلّقة بأهدابي. عطشت، ولكن كان عليّ ترشيد جرعاتي المائية، عليّ أن أدير الاجتفاف وضرورة «اغتسالي». غالباً ما اخترتُ أن أغتسل لا أن أروي عطشي. هذه النظافة بحدها الأدنى هي احترامٌ أدين به لجسدي في سبيل الحفاظ على كرامتي.

أغمضتُ عيني في تنهيدةٍ عميقةٍ ضارباً بقفا رقبتي على الباب وبقيتُ ساكناً، خائر القوى. فصلّيتُ، وتوجّهتُ بالدعاء بكلّ قواي! لم أتوجّه إلى السماء عبر شعائر أو عقيدة معيّنة. في المحن الكبيرة الطارئة، تمتنع التوسّلات إلى الله عن التوسّط: فتضرّعتُ إليه باللغة المشتركة لكلّ المكروبين.

بقيتُ هكذا، مقرفصاً بلا علم بالزمن ولا حركة حياة. بفضل غسقٍ متّقدٍ أكثر ممّا هو بالعادة، انسلّ شعاعٌ خافتٌ من الطاقة الصغيرة. حينما فتحتُ عينيّ، كشف لي انعكاسه المزعج عن فضولٍ. . . فوق رأسي، وبشكلٍ عموديٍّ بالضبط، كان يوجد المصباح الوحيد في الزنزانة، وهو ينشر بطاقته ذات 25 واطاً ضوءاً شاحباً، مضجراً، بدا أن الجدران الكتيمة

تمتصّه. لم يكن لنا الحقّ في الإنارة سوى لساعة واحدة، من الثامنة مساءً حتى التاسعة. ما بعد ذلك، كانت المولّدة الكهربائية تستمرّ في الهدير، ولكنّ زنازيننا تُغرق في الظلام. في الواقع، كنتُ أتمنى أن يجنّبونا ذلك «المعروف». فبعد أن اعتدتُ على العتمة، وذلك التباين في الإضاءة الشاحبة، المحزنة، يثير أعصابي. كان ذلك أمراً من العقيد بن عايش. بتذكيرنا لوقتٍ قصيرٍ يومياً بأنّ الضوء موجودٌ، وإن كان باهتاً جداً، أراد جلاّدونا أن يجعلونا نفهم على نحوٍ أفضل قسوة الظلمات.

كان المصباح محاطاً بزجاجٍ واقٍ سميكٍ مستطيل الشكل، ومغطّى بشبكة حديدية مقفلة. وكلُّ ذلك مثبّتٌ على الجدار بلوحةٍ من مادةٍ بلاستيكية سوداء. وكان بين هذه الدعامة والجدار فجوة صغيرة جدّاً. انتهت الرطوبة التي انقضّت على الحيطان إلى قرض تلك المساحة الصغيرة جدّاً بين اللوحة التي ترصّع المصباح والجدار الذي ثُبِّت عليه بصرامة. كانت شبكة عنكبوتٍ تهتزّ وتموج من حينٍ لآخر في ذلك الفاصل الذي بالكاد تتجاوز سماكته نصف إصبع. تراءى لي لسان عظايةٍ امتدّ لالتقاط حشرةٍ، واختفى سريعاً في شدقه المعتم. شغل ذلك بالي. فنهضتُ بهدوء. تحلّيتُ بالمرونة والصمتِ مثل الصائد بالكمائن. لم أشأ أن أُرعِبَ أيّ كائنٍ حيٍّ إلى جانبي. وإذا كنتُ، في بداية عزلي، أكافح أيّ دخيلٍ في مقاطعتي، فإنّ الوحدة غيّرت عاداتي. كنتُ أُرحِّب حتى ببنات وردان[1]. لم يُستبعَد سوى الجرذان من تلك «المعاملة السلمية والأليفة» التي ذهبت أحياناً إلى حدّ التعاون التقني مع بعض الأجناس- وستكون هذه حالة الجعول[2] فيما بعد. تعلّمتُ أن أُراعي العالم المجهري المحيط بي. وما لم أكن أكنّ له، ككل إنسان، غير النفور والازدراء، أصبحتُ أستقبله بسرور في صحبتي. كانت تلك حالة

(1) بنت وردان: حشرة من المستقيمات الأجنحة لها قرون طوال. المترجم
(2) جُعَل: جنس من الخنافس. المترجم

«غاسبار»، صرصورٌ كبير يزورني من حينٍ لآخر. ولأتعرّف على كلّ زائرٍ يعبر أرضي، جهدتُ لأن أضع بطريقةٍ أو أخرى علامة فارقة له. أفادتني في ذلك الخيوط الملوّنة في كنوز حشيّتي. فكلّ حشرة تمرّ يكون على قوائمها خيطها الملوّن، ولكلٍ منها ألوانها وراياتها! وبذلك، يُعرَف كلّ سائح، مزوّد بسمة الدخول خاصّتي، ويخترق حدودي، ويُستَقبَل من قبلي كما ينبغي. أعترف بأنّه كان هناك من الزحام أمام كُوى زنزانتي أقلّ بكثير مما هو أمام كُوى القنصلية الفرنسية في الرباط! كان الشعاع الكاشف الذي ينسلّ إلى حفرتي يشير بإصبعه كالعناية الإلهية إلى منطقة سرعان ما اكتشفتُ فائدتها الجمّة. ميّزتُ على نحوٍ أفضل الفاصل بين مخبأ المصباح والجدار. أتاح لي السقف الواطئ، بصعودي على الصندوق الذي كنتُ أستخدمه كطاولة ليلية، بلوغ غاية فضولي. بدأتُ بالتفتيش. أدخلتُ إصبعاً في الفراغ الفاصل، فالتصقت شبكة العنكبوت به. لمسته. كان جافّاً. لا شكّ أن قاطن هذا السرير الحريري المعلّق قد غادر مقرّ إقامته منذ أمدٍ طويل. فهمت أنّ «المسكن» متعفّن. كحتُّ بإظفري القشرة التي تفتّت مسحوقاً مائلاً إلى اللون الرمادي. أيقظت ملامسةٌ غريبةٌ حواسي. أحسستُ بسلكين كهربائيين. فجأةً، راودتني فكرة: أخيراً ها هي وسيلة الاتصال الدائم مع أهلي! أجل! من خلال الشبكة الكهربائية! طالما أنّ زنازيننا لا تُنار سوى ساعة في اليوم سيكون من الممكن لنا أن نستفيد من الأسلاك التي تربط كلّ الحُجرات ببعضها من خلال ترابطها مع القواطع الصدئة لزنازيننا. ولأجل ذلك، لا بدّ لنا من استخدام مكبّرات الصوت الصغيرة التي انتزعناها من أجهزة الراديو حينما كنّا في تاماتاغت، والتي حرصتُ على حماية قطعها الدقيقة والهشّة بأغلفة من الألمنيوم، مأخوذة من علب الحليب المجفّف. قبل تركيب تلك الدروع للحفاظ على قلب المكبّرات القابل للعطب، بخشتُها بثقوب مخصّصة للتهوية ولتسهيل الاستماع إليها. وإذ لا يتجاوز قطرها قطر طبق فنجان الشاي، احتفظت أمّي وأخواتي بها معهنّ. لم أحتفظ بواحدة من تلك المكبّرات خشية أن

يفتّشوا جسدي لكوني سأكون منعزلاً في زنزانة منفردة. وباستخدامها، يمكن التحدّث مع متحدّثٍ آخر في زنزانةٍ أخرى. إلاّ أنّه تلزم الأسلاك الكافية لإجراء الاتصالات. فكّرت في الإطار القديم لجهاز التسجيل الذي تستخدمه أمّي كوسادة. بالإضافة إلى المكبّرات التي استطعنا استعادتها، سنجد فيها بالتأكيد وشائع الأسلاك النحاسية الرفيعة: الناقل المثالي لتنفيذ وصلاتنا. شريطة أن تنفّذ التوصيلات بشكلٍ صحيح. سيكفي نظرائي توصيل الجهاز نفسه ليكون الاستماع بمستوى وضوح جهاز الهاتف.

بانتظار تفصيل الإطار والحصول منها على النتيجة النفيسة، قادني نفاد صبري إلى إيجاد حلٍّ وسط. انتزعت من كوّة زنزانتي أسلاكها الألمنيومية. سحبتُ من الشبكة «ضفائر» طويلة جدلتُ كلّ ثلاثٍ منها معاً، حاصلاً على سلاسل رفيعة من الألمنيوم جدلتها مع بعضها فيما بعد بغرز كلّ وصلة في أخرى. ولتضفير الأسلاك، كان عليّ تثبيت أطرافها بين أسناني. كان فمي مرضوضاً كثيراً من جراء الخراجات بحيث لم أستطع أن أقاوم طويلاً. واصلت صنع القِطَع بلفّ فتائل الألمنيوم حول إبهام قدمي. جدلتُ، وجدلتُ المزيد. في لجّة هيجاني، لم أحسّ بأنّ الألمنيوم المسنون قد انغرز في لحمي. كان نتاجي بطيئاً وشاقّاً. بلغ طول كلّ سُلَيْسلة ما يقارب اثني عشر ستمتراً. لم يبقَ لي أكثر من انتظار تسليم مكبّري. يتعلّق الأمر من الآن فصاعداً بالنجاح في إيصال «هاتفٍ» إليّ في عجينتي اليومية!

قفزتُ إلى أسفل صندوقي. وابتهجت. قبّلتُ «أصدقائي»: ايما وموسى وصحبه! رقصت، وجريت وقفزت. ثمّ سقطتُ، منهكاً، على ركبتي. حيّاني الشعاع الخيّر وهو يمضي ببطء. بعد الفرحة، طغت الأحزان المتراكمة. داعبت دمعة كبيرة خدّي:

- شكراً، شكراً يا ربّي!

هبط الليل. شعرتُ بالجوع. شربتُ بضع جرعات من الماء. ظلّت

معدتي تئنّ، ولكنّ شقوق شفتيّ هدأت. أصبحت الكتلة التي تشوّه حنكي بحجم بيضة، ومشدودة أكثر من جلد طبل. ما لم أفرغ الخراج الذي يزعجني، فلن أجد الراحة، ولكنني كنتُ ضعيفاً جدّاً لأحتمل العملية دون البقاء في صدمتها للساعتين التاليتين. ليس لدي الوقت لأضيّعه: عليّ أن أختار بين الألم الشديد الذي يسببه الخرّاج أو «التوقّف بداعي المرض» الذي سيؤخّر هذا المشروع الحيوي. بلّلتُ خرقةً عقّدتها فوق فكّي المتعفن. أعطتني هذه الكمادة التافهة على الأقل راحة الضمير: «لن يكون من الممكن القول بأنني لم أعتنِ بنفسي!»

شرعتُ في كتابة الرسالة الأطول على الإطلاق المنقولة إلى أهلي. إذ لم تعد البطاقات الصغيرة الموجزة التي تبادلناها إلى ذلك الحين كافية لتطوير خطّة العمل الكبرى التي أفكّر فيها. المحطّة السابقة، في كلّ الزنازين، هي استعدادٌ للمعركة!

أخيراً جاء اليوم العظيم. كان الجوّ في الزنازين قلقاً ومتوتراً جداً مثلما كان عليه حال مهندسي وكالة ناسا NASA، يوم هبوط آبولو 11 على سطح القمر! نزعتُ المصباح الجداري من القاطع لأوصِل به مكبّري. أصبح كلُّ شيء جاهزاً. ضربتُ الجدار الفاصل بين زنزانتي وزنزانة حليمة وعاشورا، اللتين نقلتا مباشرةً إشارتي إلى أخواتي. ولنجاح الاتصال، يجب أن تكون القواطع جميعها في وضعٍ سليم. الصمت المشوب بالقلق في كلّ المبنى L هو الذي سبق التجربة الأولى. انتظرتُ، قلقاً ومرتجفاً، نتيجة الاختبار التدشيني. بعد حيرةٍ وترقّبٍ وبعض الصرير والنشيش، رشحت ضجّة من المكبّر. اضطرب قلبي ثائراً. استعدتُ أنفاسي. تملّكني الانفعال. فجأةً، بلغني صوتٌ. وجدتُها[1]! لقد نجحت!

---

(1) Eurêka «وجدتها»: كلمة تعزوها الأسطورة إلى أرخميدس حين اكتشف فجأةً في الحوض قانون الثقل النوعي للأجسام، وهي تُستَعمَل حين يُعثَر فجأةً على حلٍّ أو وسيلة أو فكرةٍ جيّدة. المترجم

لكي أُعيد هنا ما شعرتُ به في تلك اللحظة، ستلزمني الموهبة التي لا أمتلكها. كيف يمكن لي أن أكرّر انفعال تلك اللحظة، ما لم يكن من خلال التعبير برصانة الكلمات: «لقد شعرتُ بما يحسّ به الأعمى وهو يستعيد بصره. وما يمكن للأصمّ الذي يستعيد سمعه أن يسمعه!» كنتُ تائهاً مضطرباً كناجٍ نجا بأعجوبةٍ من تحت أنقاضِ زلزالٍ مدمّر.

في الطرف الآخر من الخط، لم يكن الانفعال والاضطراب والتلهّف أقلّ. كانت أوّل رنّة أسمعها هي رنّة صوتٍ مخنوقٍ بنحيبٍ يكظمه:

- رؤوف، رؤوف... أخي... أخي العزيز... هل أنت بخير؟ هل أنت بخير؟... هل تتحمّل؟ وإن كنا منفصلين، نحن معك، دائماً وفي كلّ ثانية...!

لم تعد تتمالك مليكة نفسها، فبكت. ثم التقطت أنفاسها لتبثّ لي محبّة الجميع وتشجعيات كلّ واحدٍ منهم. ابتلّ وجهي بالدموع ولكنّ صوتي ظلّ ثابتاً. عليّ أن أُطمئن أهلي. وهذا أقلّ ما يمكنني فعله لأخفّف عذاباتهم وآلامهم. وسمعتُ في ضجيجٍ عميق أخواتي الأخريات، مريم وماريا وسُكَينة، يتدافعن لكي ينقلن إليّ مشاعرهنّ. تكلّمتُ مع كلّ واحدةٍ منهنّ للحظة. حينها لم أحظَ بسعادة التحدّث مع أمّي وأخي الصغير. وأخّرت مشاكل تقنية تلك الفرحة. اكتفينا بالتدشين الحذر والمحدود لشبكتي الطموحة، والتي سيتجاوز اتّساعها لاحقاً توقّعاتي منها!

أكّدتُ لأخواتي أنّ يشدّدن من الاحتياطات حينما يُعدن إغلاق مخبأ القاطع: يجب ألا تتلامس الأسلاك التي تغذّي قطبيه بالكهرباء، إذ سيتسبّب ذلك، عند تشغيل المولّدة الكهربائية، بانقطاع للتيار سيلفت نظر الحرّاس. لا سيما وأننا لسنا في منجى عن إقلاعٍ مفاجئ لمحرّكها، إذ يقدم حراسنا على تشغيله دون سابق إنذار! وسوف أنظّم مجموعة الصدمات الكهربائية أثناء «مهنتي ككهربائي».

حان وقت إنهاء الاتصال. رجوت أهلي أن يتمالكوا أنفسهم وأن

يتماسكوا، واعداً إيّاهم بأن أفعل الشيء ذاته. طلبتُ إليهم أن ينقلوا رسالة تشجيعٍ إلى والدتي.

- أخبرن أمّي بأنني بصحّة جيّدة، وبأننا سنصمد بقدر ما يقاوم كلٌّ منّا في سبيل الآخرين. خاصّة هي! إنّها ركيزةُ مقاومتنا! إذا وهنت، سيتغلّبون علينا، ولن يبقَ لنا سوى أن نموت جميعاً!

رَجَونني أخواتي ألاّ أقلق على بقيّة العائلة.

ختمت مليكة:

- نحن مع بعضنا، يمكننا أن نساند بعضنا! فكّر في نفسك! لا تفكّر سوى في تحمّل عزلتك! لا تقلق على الآخرين، أنا أهتمّ بأمرهم! يمكننا الحديث إلى ماما من خلال ثقب البالوعة التي تفصل شرفات زنازيننا. بل يمكننا أن نلمح صورنا المتبادلة المنعكسة على صفحة بركة الماء الصغيرة لتلك الفجوة. اطمئن يا رؤوف، ماما والصغير بخير. وكذلك حليمة وعاشورا.

الجميع لا يقلقون سوى لأجلك! تشجّع... تشجّع يا أخي العزيز!...

انتهى الاتصال. استغرقتُ في صمتي المطبق وفي ظلماتي الرطبة. كان ارتداد الصدمة في ذلك الفاصل الترفيهي القصير وسط العزلةِ ثقيلاً وكبيراً جدّاً بحيث أصبح يسحقني الآن.

متشنّج الحلق، معتصر القلب، متضوّر الأحشاء جوعاً، استلقيتُ على حشيّتي وتكوّرتُ على نفسي تحت غطائي، مسلّماً روحي لله وعذابي لنومٍ تمنّيته بكلّ جوارحي.

الآن وقد ربطت الشبكة كلّ الزنازين ببعضها، يمكن لعزلتي أن تخفّ بالاستماع، ولو لوقت قصير، إلى أصوات عائلتي. كانت مليكة في السابعة والعشرين، ومريم في الخامسة والعشرين، وماريا في الثامنة عشرة، وسُكينة في السابعة عشرة. أمّا أخي الصغير، الذي كان أثناء

اختطافنا في الثالثة من عمره، فسيبلغ، في صيف عام 1980، الحادية عشرة من عمره. انعصر قلبي ألماً على أهلي، خاصّة وأنني لم أرهم يكبرون. ولكن لأنجو من حبسي، لم يكن لديّ من خيار سوى تجاهل مشاعري. كان عليّ، في كلّ لحظة، أن أقاوم التجربة بالتصرّف بشكلٍ طبيعي. لو استسلمنا للعاطفة، لكان الواقع المحيط بنا قاتلاً. إنّ رؤية المرء لجسده يتألّم، دون أن يستطيع فعل أيّ شيءٍ له، هي أسوأ من أكثر العلاجات فظاعةً! كان علي باستمرار أن أفرض إرادتي على التمرّد الذي ينهشني. فإذا ما تركته يكتسحني، فسيكون عزاءً نسبياً، ينغلق، خلفه، فخّ الجنون.

منذ أن أُتيح لي أن أتكلّم وأسمع صوتاً، وإن لم يكن سوى لبضع دقائق في اليوم، أصبحتُ مرتعاً لصراعٍ داخلي. حاولت ألا أسيء استعمال هذا الاحتياطي من الأكسجين. قَلب اتصالٌ بشري، وإن كان بواسطة هاتفٍ، غيّر عاداتي وخلط معالمي. وباتت الدفاعات التي طوّرتها بعناءٍ كبير كمضادات جسدية مهدّدة بالانهيار.

في تلك العتمة التي اعتدتُ عليها، درتُ من حولي، مغيّراً بانتظام خطّ الالتفاف لتحقيق التكافؤ في التمرين. حينما كنتُ أبلغ سرعتي القصوى، كان يمكن لمساري أن يطول لساعات. ليس هناك سوى قدميّ الحافيتين، المرضوضتين دائماً، الداميتين غالباً، اللتين تفرضان عليّ التوقّف. تقوّي الأفكار التي تشغلني أثناء تلك المسيرات القسرية من عزيمتي وتخدّر آلام جسدي.

ذات يومٍ أثناء ذلك المسير الجنوني، شعرتُ بفرقعةٍ خفيفةٍ، باهتزازٍ تحت قدمي. ارتميتُ جاثياً. بسطتُ راحتيّ وتحسّستُ الأرض. ثارت أعصابي وأنا أبحثُ عن قطعة شمعتي وأحد أعواد الثقاب الثلاثة التي تحقّ لي يومياً.

أدخلتُ رأسي في كنوز حشيّتي. أخرجتُ منها خرقةً. مزّقتُ النسيج إلى صُفيحات رفيعة لكي أجدلها. صنعتُ بذلك فتيلات شبيهة بفتيلات

الشموع. بتبليلها بالفضلات الدهنية لقصعتي، استضأتُ على الطريقة الرومانية. الآن وأنا أراها على نحوٍ أفضل، يمكنني دراسة البلاطة المصابة بداء «باركنسون». ليس هناك أيّ شكّ في أنّها تتحرّك بوضوح. بشعوري بأنّها مهيّأة للاقتلاع، ارتجفتُ أكثر منها. طمحتُ مباشرةً إلى اقتلاعها. منذ أن عُزِلت، لم أتوقّف عن محاولات الحفر والثقب. ولكن البلاط، الذي سلِم من الرطوبة، كان يتصدّع دون أن ينخلع. يبدو أنّ الزمن قد عمل لصالحي. فقد تغلّبت العفونة والرطوبة الدائمة بصبرٍ وأناة على الإسمنت. وقد ظهرت البلاطة التي اهتزّت تحت قدمي أكثر سهولة على الخروج من مكانها هذه المرّة. أخيراً، سأعرف بدقّة تركيبة الأرض التي تحت قدميّ. شعرتُ وكأنني فأرٌ هاربٌ بقطعةٍ من جُبن غروييز. وفي لجّة اندفاعي، أردتُ أن أنسى أنّ الجُبن الذي يحبسني هو من الخرسانة. إلى ذلك الحين، لم أكن أتوفّر على الأدوات لكي أعمل بفاعلية دون أن أترك أثراً. بالحديث إلى أخواتي، سيتمكنّ من توصيل ما سيساعدني. تكفّلت حليمة وعاشورا بإخفاء «البضاعة» في خبيصة الدواجن[1] خاصّتي اليومية. وهكذا تلقّيت مقبض ملعقة وقد شحذته بانتظام وأشياء مختلفة لا قيمة لها: خيط، شمعة، وقارورة زيتٍ صغيرة لفتيلاتي البديلة، إلخ. كانت آخر بضاعة وصلت عبارة عن بكرة من سلك نحاسي، مرفقة بكلمة:

- لقد قمنا بما طلبته منّا. التقطنا من كلّ مكان أدنى مليمتر من السلك. لقد تجاوز حصاد صندوق مكبّر الصوت توقعاتنا. لدينا ست بكراتٍ كالتي أرسلناها لك. انظر أوّلاً بماذا ستفيدك وسنرسل لك البقية. إلى الآن، لا تزال «الحقيبة» تعمل، ولايزال الحرّاس يشمئزّون، فيدعوننا نفرغ سطلك. ولا يزال صندوق رسائلك يعمل بفضل الله. حتى الآن، لا يدسّ الحراس يدهم لكي ينبشوا في قصعتك. حينما ستتكلّم مع بعضنا بالهاتف، ستخبرنا إن كانت فكرتك عن المحوّل ستنجح في تغذية الراديو

---

(1) إشارة إلى الطعام الرديء الذي كان يُقدّم له. المترجم

من التيار الكهربائي، وإن لم يكن إلا خلال ساعة إضاءة الزنازين. الجميع بخير ويقبّلونك ألف مرّة. أهلك الذين يحبّونك من كلّ قلبهم.

أرادت أمّي أن توصل إليّ الراديو أو على نحوٍ أدقّ هيكله الأجوف. كانت البطاريات قد فرغت من طاقتها منذ زمنٍ طويل. ونفد الاحتياطي القليل الذي حافظت هي وأخواتي عليه ليلاً ونهاراً من الرطوبة حتى من خلال نقل حرارة أجسادهما إليه. تملّكني أملٌ طائشٌ في القدرة على تشغيلِ نوعٍ من محوّل يحوّل طاقة الشبكة ذات الـ 220 ڤولت إلى 12 ڤولت لتغذية الراديو. مهما يكن من أمر، وما دمتُ لم أنجح في إعداد مخبأ تحت بلاط زنزانتي، فضّلت ألا أتلقى ما لا يمكنني وضعه في منجى عن مداهمةٍ محتَملةٍ لسجّانينا. كذلك لا بدّ من فتحه وإعادة إغلاقه دون تكسيره. وضعت مصباحي الزيتي بالقرب من «مريضتي». زوّدتني فتيلاتي المبلّلة المحلية الصنع بنورٍ ضعيفٍ، متراقصٍ ومتقلّب. اكتفى بصري، المتكيّف مع وسطه المعتم، بتلك الهالة المضيئة. مزوّداً بعقب الملعقة خاصّتي، بدأتُ تنقيبي. كان التقدّم شاقّاً، وسيتطلّب عدّة أيام. لا بدّ من النحت، النحت إلى حدّ الإنهاك. تعرّق جسدي وأدمت يداي. ولكي لا أهدر مائي، استخدمتُ بولي لتبليل فواصل الإسمنت. حفر عقبُ الملعقة فقاعات كبيرة في يديّ الرطبتين. لففتُ راحتي يدي بقطعة نسيج، فخفّ الألم وتحكّمتُ على نحوٍ أفضل بحفارتي.

أثمر صبري. حينما رفعتُ البلاطة، كشفت لي طبقةً من الإسمنت ثُبّت عليها البلاط. وللتغلّب عليها، احتجتُ إلى أداةٍ أكثر صلابةً من عقب الملعقة خاصّتي. انتزعتُ مقبض سطلي ومددته على الأرض لأعطيه شكلاً مستقيماً.

في مركز مربّع طول ضلعه خمسة عشر سنتمتراً، منزوعة عنه بلاطته، حفرتُ ثقباً صغيراً. بعد تبليل الإسمنت، أدخلتُ فيه رأس السلك المعدنيّ لسطلي، الذي أدرته مثل خرّاقة. كان عليّ أن أوسّع الفتحة، انطلاقاً من المركز، لأتمكّن من إدخال يديّ المضمومتين. وأن

أحرص على ألاّ أكسر النتوءات الأربعة الإسمنتية الضرورية لإسناد البلاطة حينما سأعيد إغلاقها. فبدون هذه النتوءات الخرسانية، ستغور وتبقى متذبذبة. لم يكن من الممكن إنجاز هذه المرحلة، الأكثر حساسية، من الحفر إلاّ في عدّة جلسات. وكلّما أعدتُ البلاطة إلى مكانها، كان لا بدّ من أن تلتصق دون تخلخلٍ أو ارتجاجاتٍ بالحواف الإسمنتية التي تنزل فوقها. والحال أنني، مهما فعلت، لن أنجح في إلغاء اهتزازٍ، سيخيّب مشروعي لو أحسّ به أحدٌ ما تحت قدميه. استخدمنا التراب الصلصالي الذي جمعته حليمة وعاشورا من الباحة كصابونٍ لغسل آنيتنا، ومعجون أسنانٍ، ولكنني وجدت له وظيفةً إضافية. بغربلة ذلك التراب الصلصالي بقطعةٍ من ناموسية، وترطيبه بالماء، حصلنا على طينٍ ليّنٍ، لدنٍ، ومرن. أتاح ذلك الملاط الذي وُضِع بكرياتٍ صغيرة على زاوية كلّ نتوء يحمل البلاطة التصاقاً تامّاً. وبتطريق سطحها بلطف اتّخذت مكانها تماماً، مطليةً بتلك العجينة المطواعة الطبيعية التي تثبّتها كمحجم. حينما يتجمّد الطين، ينتهي الأمر. لم تعد البلاطة تتحرّك، وتتثبّت في الوضعية التي رتّبتها فيها قبل أن يتجمّد الملاط. بقي إذاً سدّ الشقوق الفاصلة بين البلاطة والبلاطات المجاورة لها. كان الطين ممتازاً لسدّها، ولكنّه كان مائلاً للون الأصفر، ولونه أفتح من الأرضية المتّسخة. وحينما يجفّ، سيظهر مختلفاً عن الفواصل الإسمنتية التي سوّدتها الرطوبة. إذاً لا بدّ من إضفاء لون منسجم عليه، لا يلفت الانتباه. راودتني فكرة ذرّ رماد وسخام الشمعة على الملاط الصلصالي الذي يسدّ ثغرات محيط البلاطة. وسيكتسي الطين الرطب اللون ذاته.

لدى جفافه، كان من المستحيل ملاحظة فارقٍ بينه وبين الإسمنت الذي يثبّت بقية البلاط في مكانه. حينها، تزوّدت بقليلٍ من الرماد قدر ما استطعت، بحرق بعض فضلات حشيّتي. ولزم الأمر أن أمرّر الأوامر إلى حليمة وعاشورا لترسلا إليّ رماد موقد الحطب الذي تستخدمانه مطبخاً. وسرعان ما جهز مخبئي. ويمكنني التأمين على المجموعة التركيبية

الإنقاذية التي ستزوّدني بها، أوّلاً بأوّل، الإرساليات.

تعدّدت «المكالمات الهاتفية»، وتعاقبت الرسائل، وانتعشت الحياة في الزنازين بحماسةٍ جديدة وبهيجانٍ محموم. وسط الظلام والصمت، كرّسنا كلّ ما تبقّى لنا من طاقة لاستكمال وسائل اتصالنا خاصّة، ومقاومتنا عامّة.

حينما كنتُ أتكلّم، بصوتٍ أعلى، عن «اتفاقية سلامٍ وتعاونٍ» مع أجناسٍ أخرى، لم أكن أبالغ في شيء. حينما تفحّصتُ الجدار الفاصل بين زنزانة حليمة وعاشورا وزنزانتي، لفتَ تفصيلٌ انتباهي. عند أساس حجر الزاوية، كان هناك أثرٌ لمسحوق الإسمنت يشكّل بقعةً كاشفة. نبشتُ بإصبعي قرب كويمة الرماد تلك، وشعرتُ بوجود حفرةٍ صغيرة. جثوت، وأنفي على مستوى الأرض، وقرّبتُ شمعتي لأتفحّص الثقب. احترقت أهدابي وبعض شعري وأنا أحاول أن أتتبّع بنظري، خيط الضوء المترجرج داخل الفجوة. نظرتُ إلى تلك «الكوّة المستديرة» ولقيتُ جُعلاً ضخماً يخرج سيراً إلى الوراء من النفق الذي فتحه سابقاً. كانت قوقعته مغبرة وقوائمه مطلية بمادة دبقة. راقبته مذهولاً. للحظة، أنساني بؤسي. أنهى الوحش مناورته. ويمكنني الآن رؤية قرنه الشبيه بقرن الكركدن: إنّه مبيضٌ بالمسحوق الإسمنتي. يستخدم هذه الزائدة الفطرية مثقباً ومنجنيقاً في آن واحد! نظّف قوائمه من بقايا الحفر ثم غطّ من جديد في دهليزه. تابعتُ مراقبتي. خرجت الجرافة مرّة أخرى، وقامت بالعملية نفسها. أفرغت التراب المستخرَج من النفق. ذُهلت. في مناورتها الثالثة، حبستها في يدي. وكالفرعون، سوف تبني أهراماتي! أدخلتُ الحفّارة ذات القوائم في الأخدود الضيّق الذي شرعت بحفره. حينما بدأ الجُعل بالعمل، سددتُ مخرج النفق بلبّ الخبز، جاعلاً فيه فوهات للتهوية: لم أودّ أن يختنق رئيس ورشتي. ولكن بسدّ كلّ منفذ للتراجع، لم يبقَ لسيّئ الحظ من خيار سوى التقدّم إلى الأمام. لم تكن سماكة الحاجز الذي يفصلني عن جارتيّ تتجاوز ثلاثين سنتمتراً. ولو حفر الجعل حوالي عشر

سنتمترات منه، سيكون ذلك كافياً. وسأنقضّ على ما تبقّى بساق السطل. نقلتُ إلى حليمة وعاشورا طريقة العمل لتحاولا القيام بحفرٍ مماثل من جانبهما. وعمّت مطاردة الجعلان كلَّ الزنازين. ولكي يلتقي ثقبانا ولا يكونان سوى ثقبٍ واحد، يجب أن تثقب جارتاي تماماً في المكان نفسه الذي نحفره جُعلي وأنا! وإلا فقد يلتقي أخدودانا ولكن دون أن يحقّقا الاتصال. قستُ انطلاقاً من زاوية الجدار الإحداثيات الدقيقة للمجرى بفضل خيط، أرسلته فيما بعد إلى جارتيّ بواسطة «الحقيبة الدبلوماسية». وما عليهنّ سوى تطبيق القياسات المحدّدة بعقد الخيط. وسيهلك الكثير من الجعلان في هذا المشروع الكبير. حينما يتوغّل هؤلاء الشهداء بما يكفي في النفق، أُدخِل فيه مقبض السطل. ويوماً بعد يوم، تمنّيتُ أن ألاقي السلك التي تعمل به حليمة وعاشورا من جانبيهما.

وسرعان ما حصلتُ على مجرى يربطني بجارتيّ. يمكن إدخال أنبوبٍ قطره نصف سنتيمتر منه. أخرجت حليمة، وهي تلمّ التراب من الباحة، قطعةً من أنبوب غازٍ من تحت التراب، ملائماً لقياسات الثقب العابر لسماكة الجدار. تجاوز الأنبوب بحوالي عشرة سنتمترات من كلّ جانبي الجدار. من خلال هذا البويق، استطعتُ التكلّم مع جارتيّ اللتين استطاعتا، بفضلِ قمعٍ من الكرتون، أن تزوّداني بالماء. رشفتُ الماء السائل من طرف الأنبوب مباشرةً كما يرتوي المرء من صنبورٍ. علاوة على ذلك، استخدمتُ الأنبوب لإرسال رسائلي. أربطها إلى طرف مقبض سطلي، وأدفعُ الساق في الأخدود وتتلقّى حليمة وعاشورا «الرسالة المضغوطة» من جانبهما، ثم ترسلانها إلى أخواتي. ولإعادة سدّ هذه الثغرة الجديدة، استخدمتُ الطريقة نفسها التي استخدمتها في طلاء البلاطة. أخفيتُ القطر الضيّق للثقب بكُريّةٍ من الطين الصلصالي. دعكتُ فوق الملاط رماداً وقليلاً من السخام. مسحتُ الجدار على محيط تلك البقعة الطينية المائلة للون الرمادي، التي ظلّت طريةً جداً. سخّنتها بلهب شمعتي الذي سوّدها بالدخان الأسود حسبما تمنّيت. بعد أن انتهت عملية

الطلي، لم تعد الفتحة تُميّز وسط اللون الرمادي للجدار والعفونة التي تكسوه.

ساءت معاملة أجسادنا وعُذّبت أكثر من أيّ وقتٍ مضى، ولكنّ كينوناتنا شُفيت في خضم تلك المعركة اليائسة في سبيل البقاء.

تسلّمتُ الراديو. ولكن تبيّن أنّ إمكانية تغذيته بمحوّلٍ مصنوع يدوياً مستحيلة. فأعددتُ من بطانة لحافي غطاءً واقياً، وقبل أن أخفي اللوحة التي لُحِمَت عليها قِطَع الترانزستور، غلّفتها داخل تلك البطانة التي ستحميه من الرطوبة الزائدة لباطن الأرض. كان المبنى L الذي يضمّ زنازيننا مرتفعاً. إذ يقع المبنى على ارتفاع متر ونصفٍ فوق صخور مقلع ضخمة ورمالٍ وأحجار بناء. أتاحت تلك الصخور الضخمة تهويةَ الأساسات. وبرفع بلاطتي، حفرتُ حفرة ضيّقة القطر في الحاجز الخرساني الذي يتمدّد عليه الغطاء المرصوف لأرضية زنزانتي. ألصقتُ نصف وجهي على تلك الفتحة، ودرستُ بانتباه تراصف الصخور والحصى والرمل وتنعّمتُ بالتيار الهوائي المنعش الذي جرى من تحت المبنى لتهوية أساساته. في أسوأ حالات الرهاب من انغلاق المكان، حينما كانت عزلتي تسحقني، رغبتُ في أن أصرخ وأخدش الجدران إلى أن تتمزّق أظافري وتنزف دماً. أحياناً، تركتُ على الجِبس خدوش حيوانٍ متوحشٍ تحطم على قضبان قفصه. فتحتُ بلاطتي، أدخلتُ وجهي في الحفرة كمن يضع كمّامة الأوكسجين لكيْ لا أدع نشوة الأعماق تستولي على روحي. فاستنشقتُ ملء رئتيّ الرائحة اللاذعة والعفنة لباطن الأرض. أبقيتُ عينيّ مغمضتين منتشياً بذلك «الهواء الطلق» الذي ما كانت حتى أكثر الزواحف قسوةً وعزلةً لتحسدني عليه.

ولكنني كنتُ أملك ما لا تملكه الدواب: السخرية من كلّ شيء ومن الذات هي اجتنابٌ للأحزان ومخاتلة للشقاء. كلّما فتحتُ بلاطتي، خاطبتُ ايما:

– بعد قليل يا حسنائي، سأنطلق إلى الجبل، لأجدّد كرياتي الحمراء!

لم أفعل سوى التشبّع بالهواء، أدخلتُ ذراعي إلى العمق، فالأحجار المرصوفة كيفما اتفق فوق بعضها وفّرت فراغات كافية لأتمكّن من تمرير يديّ بين الفجوات. دعّمتُ جدران ذلك البئر الصغير بملاطٍ من الحصى والصلصال المبلّل. عملتُ بانتباه وحذر كأنني نازع ألغام. حينما انزلقت لَبِنَةٍ على لبنات أخرى، أحدث ذلك صوتاً مخنوقاً واهتزازاً خفيفاً كصوت احتكاك الأقراص الغرانيتية لرحى بدائية! وغالباً ما قَرَضَت لبنةٌ إصبعي أثناء تحريكها. فأتألّم صامتاً إلى درجة تعرّق جبيني. وتسيل دموعٌ من عينيّ دون أن أفهم سببها.

منذ تاماتاغت في جبال ورزازات، ظلّت فكرة الفرار تسيطر على ذهني. وأعتقد أنّ ذلك هو المرض الذي يعانيه جميع معتقلي العالم إلى جانب البواسير. ولبلوغ أرض الباحة، لا بدّ من التخلّص من مسافة المتر ونصف المتر من أحجار البناء التي تفصل أرضية الزنزانة عن الأرض الطبيعية. الأمر الذي سيتطلّب إسناد الحاجز الخرساني الذي يسند البلاط بحواجز من خشب. اصطدم مخطّطي للفرار بواقع مرير: لحفر نفق، لا بدّ من إمكانية إخفاء التراب والصخور الناتجة عن الحفر! فاكتفيت حينذاك باستنشاق التيار الهوائي، المنساب من الأعماق، ملء رئتيّ.

حافظتُ بإتقان على المعدات النفيسة التي أخفيتها تحت بلاطتي. نظفت، كلّما أمكنني ذلك، الملاط الذي غطّى جدران ذلك البئر الصغير، وأزلتُ عنها العفونة. ولكن كان هدف كلّ اهتماماتي الترانزستور المخلّع. مسحتُ يومياً لوحته بريشةٍ صغيرةٍ أعددتها من زغب العصافير المربوط على غصنٍ صغير. ولكلّ واحدٍ من اختراعاتي، لا بدّ من تمرير «طلب بضاعة» إلى حليمة وعاشورا، الوحيدتين اللتين يمكنهما الوصول إلى الباحة أثناء توزيع قصعة الطعام. لدى جمع التراب الصلصالي من الباحة

لغسل الأواني، سمح سجّانونا لهما بأن تجزّا من بين الأعشاب الضارة نوعاً من السبانخ البرّي الذي حسّن طعامنا اليومي. التهمناه، بعد سلقه، مثل طحالب. لم يكن لذيذاً جداً، ولكنّه كان يحتوي على الحديد. كما استغلّت حليمة ذلك لجمع بعض حبّات التين الجافّة أو المسحوقة. خبأت المسكينتان في أسمالهما أتفه الأشياء أو الفضلات التي اعتقدتاها مفيدة في معركتنا.

لم يكن بين جميع الإرساليات التي تلقّيتها ما هو أهمّ في نظري من الراديو. كان ذلك الترانزستور أغلى من حياتي، وكنتُ على يقين بأنّه سيفيدني ذات مرّة. لحسن الحظ أوصلنا الهاتف. فقد نجحنا في إعداد أسلاكٍ طويلة تمتدّ من زنزانتي إلى زنزانة أخواتي. وقد استخدمنا المجرى الذي يوصلني بجارتيّ ممراً لها. ثمّ مدّت حليمة وعاشورا التركيب إلى بالوعة شرفتهما المتّصلة بزنزانة البنات. ومن هناك، سحبت أخواتي السلك المزدوج إلى الحائط المشترك مع الزنزانة المجاورة. وتواصلن من خلال ثقبٍ كالذي في زنزانتي مع زنزانة والدتي. ولعدم مضاعفة التشويش على الشبكة ، لم نوصل سوى ثلاثة مكبّرات صغيرة سميناها فيما بيننا باللواقط. أصبحنا مترابطين ببعضنا من خلال الشبكة، فأمكننا أن نتحادث معاً. تكلّمت مع أهلي من تحت لحافي، لكتم صوتي. حاولت أن أتخيّلهم:

- كم يبلغ طول عبد اللطيف الآن؟ كيف هي سُكَيْنة؟ وماريا؟ هل أصبحن صبايا؟ هل ما زالت مريم مصابة بفقر الدم؟

وصف كلٌّ منّا نفسه للآخرين، بطريقة تطمْئِنَهم. وصفنا أنفسنا لبعضنا بطريقةٍ عجيبة. كانت كذباتنا البرئية بعيدة عن الواقع الفظيع. تجنّبنا القيام بالجردة المحزنة لآلامنا ومصائبنا. حاول كلٌّ منا أن يحتفظ بآلامه الخاصّة لنفسه. غالباً ما ضحكنا بعفوية. لعبتُ دور المهرّج لأخفّف قدر ما استطعت من شدّتنا المشتركة. دشّنت دائماً افتتاح «البرامج» بنعيبٍ، في تقليدٍ رديءٍ للبرامج الشهيرة لإذاعة بي بي سي، إبّان الحرب العالمية الثانية:

- يتحدّث الفرنسيون إلى الفرنسيين! راديو باريس يكذب، راديو باريس ألماني!

كنتُ دائماً مغرماً بتلك الحقبة من التاريخ. كانت في عداد تلك الحقب المرعبة التي ثار فيها جنون البشر ونشرت بربريتهم البدائية الفوضى. ولكن أيضاً طبعت إنسانيتهم المجيدة في استثنائية تلك الأحداث إلى الأبد قصصاً عنيفة ومآسي كبيرة وتضحياتٍ رفيعة مفعمة بقصص حب أسطورية وصداقات خالدة ذات دلالاتٍ جليلة. كنتُ لا أزال مراهقاً، حينما قال لي والدي، وهو يوبّخني:

- ها! لقد كان شارل العظيم[1] محقّاً تماماً! أتعرف ما قاله لدى تحرير باريس؟

أمام جهلي بما قاله، تابع والدي:

- قال الجنرال: «نعيش أياماً قد تتحسّر عليها الأجيال القادمة لكونها لم تعشها!»

كان أوفقير، بتجربته الغنية، يتأسّف لكوني، تماماً مثل أبناء جيلي، قد حُرِمتُ من أن أعيش حياتي وسط ظروفٍ استثنائية وبنّاءة بهذا الشكل. كنّا، هو وأنا، بعيدَين عن أن نتخيّل بأنّ قدري فيها سيكون غير معقول.

كنّا على مشارف القرن الواحد والعشرين، ومع ذلك نعيش مأساةً جديرة بأربعينات القرن العشرين. خضنا حربنا، على هامش العالم المتمدّن الذي تُعتَبر مآسٍ كهذه بالنسبة له مرحّلة إلى كتب التاريخ! لقد دُفنّا أحياء، لا لجريمةٍ سوى أننا ولِدنا وحملنا الاسم الذي نحمله. ولكن كلّما تمّت محاولة قتل هوية، تجذّرت أكثر. وبدل أن يقضي علينا الاضطهاد، كيّفنا بألم كما تصهر النارُ الحديدَ ليُعاد تشكيله. ألبسَنا قالب العذاب لبوساً حربياً. وكان احتضارنا الطويل خارج الزمن. استطالت كلّ ثانية منه مسمومةً بكلّ عذابات الجحيم. لم نكن نحظى حتى بضمان

---

(1) هكذا كان والدي يسمّي شارل ديغول.

معرفة العقوبة التي حُدِّدَت لنا. حينما يعرف المرء مدّة حبسه، يستسلم الجسد والروح. ويشير إلى الأيام التي تقترب من إطلاق سراحه. ومهما كانت فترة الحكم التي ينبغي أن يمضيها طويلة، فإن الحياة في السجن تأخذ إيقاع تلك العلامة. أمّا نحن، فلم نكن نحظى لا بمعرفة أَجَل صَلْبنا، ولا بظروف الاعتقال التي يحظى بها أسوأ سجناء الحقّ العام!

ما كنتُ قط لأتصوّر الكائن البشري قادراً على مقاومة كهذه، واستبسالٍ كهذا من أجل البقاء، وقدرة مبدعة كهذه على التخلّص من الكابوس. اليوم، الكثير من الناس يقولون لي: «ولكن كيف استطعتم النجاة! أنا ما كنتُ لأستطيع! كنتُ لأنتحر!» مجازفاً بأن أخيّب أمل بعض المعجبين المحتملين، لا أعتقد بأننا كنّا بشراً خارقين. لا أحد مهيأ للمحن. يفيض تاريخ العالم بملايين الأبرياء، بأناسٍ مسالمين، طبيعيين، رأوا حياتهم تهلك وسط الرعب. ومع ذلك، قاوم هؤلاء الرجال والنساء والأطفال! ويدينون بذلك للعمل اللاإرادي من أجل البقاء الذي يُطلِق طاقة كامنة غير منتَظَرة. السعادة تكشفك للآخرين، والشقاء يكشفك لنفسك. هذه القوى التي تُطلقها إرادة الحياة، تهجعُ في أعماق كلٍّ واحدٍ منّا. وإذا كنّا لم ننهار، فذلك لأنّه كان على كلٍّ منّا أن يحافظ على الآخرين: هذا لأننا جميعاً، كافحنا من أجل اسمنا، من أجل هويّتنا! ومَن كان سيستسلم من بيننا، لما انتحر فحسب، بل لقتل الآخرين. لو استسلمنا للموت، لكان ذلك باتّفاقٍ مشترك. ولكننا ما كنّا لنتنكّر لبعضنا قط!

في الأثناء، ناضلنا متلاحمين متّحدين، فأغرقتنا محننا ، ولكن أملنا نجا. وإذ أصبحنا وحدة واحدة، حتى ضعفنا أصبح قوّة! ظلّت الشبكة تعمل مع أنّ الأعطال كانت عديدة. في الليل، تواصلنا مع بعضنا. ولتزجية الوقت، بدأت مليكة تقصّ حكاية خيالية لا تزال تجهل غايتها. روت، وشقيقاتها من حولها، ومتّصلة بزنزانة أمّها، حكاية مشوّقة

استمرّت لسبع سنوات. كانت أسطورة تجري أحداثها في عهد القياصرة. وأصبحت مسلسلة شعبية عجيبة لزنازيننا. تناوبت أخواتي على سرد الترجمة، باللغة العربية، لحليمة وعاشورا. وسرعان ما طالب المستمعون بجلساتٍ نهارية. لم أتابع الحكاية إلاّ في الليل حينما أكون متّصلاً. ولأشغل نفسي، أصبحتُ موظّف الأحوال المدنية. وجدتُ أسماء للشخوص.

اختلطت السنوات عليّ. حينما تحدّثنا مع بعضنا بالهاتف، تشاجرنا. قلت:

- نحن في عام 1980.

أجِبت:

- كلاّ، نحن في عام 1981!

لم أوقف محاولاتي مع الراديو، مع أنني لم أعثر على الطاقة لتشغيلها. انتظرتُ كلّ يوم معجزةً تجعل صوتاً يتعالى منه. وستحدث هذه المعجزة في اللحظة الأقلّ توقّعاً. استغلّ أحد سجّانينا توزيع جراية(*) الطعام ليرمي ببطاقةٍ صغيرة إلى حليمة وعاشورا. كانت مكتوبة بالعربية: «لقد خضتُ حرب الرمال إلى جانب والدك. سأحاول مساعدتك، إن شاء الله.» في الحال، كتبنا ردّاً، نخبره فيه بأننا نحتاج إلى بطاريات وإلى أقلام حبر. خاطر ضابط الصفّ ذاك بحياته وهو يساعدنا. ومع هذا، سيقدم على ذلك بجسارةٍ ومروءةٍ نموذجيتين. حينما دخل طاقم الخدمة لتوزيع الوجبة اليومية الوحيدة، لفتت عاشورا انتباهه إليها، فرمى ضابط الصفّ المعني ببعض البطاريات والأقلام إلى حليمة.

تخيّلوا الحدث بالنسبة لنا! سأتمكّن أخيراً من تفعيل الترانزستور. بتلقّي الشحنة النفيسة، انفعلتُ لدرجة أنّ كلّ أعضاء جسمي ارتعشت. أخرجتُ لوحة الترانزستور المجرّدة تماماً. يتدلّى منها سلكان، هما قطبا التغذية. طلبتُ من جارتيّ أن تقطّعا صفيحة بلاستيكية، لترسلا إليّ قطعة مستطيلة منه بطول ثمانية عشر سنتمتراً وعرض اثني عشر سنتمتراً، حمّيتها

على شمعةٍ إلى أن باتت لدنة وليّنة. لففتها على شكل أسطوانة قطرها مطابقٌ تماماً لقطر البطاريات. لحمتُ الأنبوب على طولها. وثُبِّت سلكا التغذية بطرفي ذلك الغمد بواسطة الصمغ. بحلول الليل، كان التركيب جاهزاً. تواصل الجميع. أوصلتُ الراديو بالشبكة. وتابعت الزنازين كلّها البرامج بفضل اللواقط. مدفونين في جحورنا، تعلّقنا بأصداء العالم. بعد خدعٍ تافهة للتسلية وبعض القهقهات المناسبة لها، أعلنتُ البرنامج. كانت ساعات الإرسال محدودة. إذ يجب الاقتصاد في البطاريات. كان لا بدّ من الأخبار. وغدت محطات RTL وأوروبا واحد، وراديو فرنسا الدولي عيوننا وتنفّسنا، والمسبار الحيوي الذي يبثّ فينا هنيّة من الحياة. وأصبح العاملون في هيئات التحرير رفقاء وأصدقاء لنا، مثل فيليب ليماري وشارل ليسكو وكارمن بادر. تابعتُ عن كثب مداخلات آلان دي شالڤرون، مراسل RFI في لبنان. تعاطفتُ مع ذلك المراسل الميداني الذي أجاد مهنته في بيروت المعذّبة. ولكن لم يخطر ببالي قط أنّ القدر سيجعل طريقينا يلتقيان.

إذا كانت وسائل الإعلام، وسط الإهمال التامّ واللامبالاة العامّة، قد تجاهلتنا، فقد اهتممنا نحن بها. في ظروف السجن تلك، أصبحت أصوات الصحافيين ومقدّمي البرامج «أصوات» الملائكة؛ أجل، ملائكتنا الحرّاس الذين، بدون علمٍ منهم، ساندونا وسهروا علينا. كانت نغمات برامجهم ونبرات صوتهم وطبائعهم وأحاديثهم العُدَد التي منعت المهاوي من جذبنا إلى أعماقها. في قاع ذلك المعسكر اللعين، همس لنا المذيعون والمذيعات، دون أن يعلموا بذلك، برسالة أمل. كانوا عائلتنا الوحيدة. غونزاك سان بريس وبرنامجه «الخطّ المفتوح» على محطة أوروبا. كوليت بيرتو وأخبارها الصحيّة على RFI. كلود فييرس وجان-لويس فولكيه وماشا بيرانجيه وكليمنتين سيلاريه وبرامجهم الموسيقية الممتازة، وإيف روجييري وسِيَرها الإذاعية. الفذّ بيير بيلمار وألغازه البوليسية الآسرة. فيليب آلفونسي وذكرياته عن الأحداث السياسية الدولية الكبرى. ذلك هو

المسبار الذي أبقانا على قيد الحياة. كانت بعض البرامج بمثابة قداديس بالنسبة لنا. ومع أننا كنا نجازف نادراً بالاستماع إلى الراديو أثناء النهار، فإنّنا لم نقاوم بعض برامجنا المفضّلة. كنّا متلهفين لبرنامج المعلّم برنار بيڤو ومختاراته الأدبية، ولفيليب بوڤار وبرنامجه *Grosses Têtes*. كانت الضحكات التي ينتزعها منّا برنامج *L'Oreille en coin*، ومتعة البرامج الشهيرة التي يتلهّف الجميع لمشاهدتها تستحقّ المخاطرة والمجازفة. تصدّر برنامج جوزيه آرتور *Pop Club* اهتمامنا، وزيّن بعض ساعات ليالينا الموحشة.

شغفنا ببرنامج جاك شانسيل *radioscopies*. اعتقدنا أنّ الصديق الكبير للحسن الثاني، الذي يعرف المغرب جيّداً، ربّما سيأتي على ذكر حقوق الإنسان. حينما استضاف الملك، استمعنا إليه، مكتومي الأنفاس. كان للملك صوته المعتاد، صوته المألوف بالنسبة لنا. لم تكن نبرته نبرة المناسبات الرسمية. انتظرنا بيأس أن يسأله شانسيل عن وضعنا. كاد البرنامج أن يشارف على نهايته، ولم يطرح المُحاوِر سوى الأسئلة التي يبتهج لها الملك. الميدان المفضّل لدى الحسن الثاني، هو الميدان الدولي. وما دام يجري تجنّب طرح الأسئلة حول «حديقته السرية» يكون خيرجليس، ويجيد الاستقبال وإظهار نفسه كرجلٍ عصريٍّ وبراغماتي. من المحقّق أنّ الواقع المغربي، المرئيّ من قصر مامونيا، يبدو مثالياً. وأنّ أشخاصاً جاهروا بانتقاداتهم، وسُخطهم حول بعض القضايا، ثمّ، وقد استُقبِلوا من قبل الملك، افتقدوا فجأةً الشجاعة... وحدها بعض الشخصيات المشهود لها في الصحافة حافظت على استقامتها الأخلاقية ونزاهتها المهنية في مواجهته. منهم، دون ذكرهم جميعاً، السيّدان جان دانيل وآلان دوياميل والسيّدتان ميشيل كوتا وآن سينكلير.

شارف *radioscopie* على نهايته. وجدنا لأنفسنا العزاء:

– من الأفضل ألاّ يتكلّم عن وضعنا، بدلاً من أن نتلقّى خيبة أملٍ.

ولكن جاك شانسيل عاد إلى الماضي:

- سيّدي، في عهدك عرفت كلّ شيء، النجاحات والغدر!

هذا السؤال الذي كدّر الملك في الحال، سهّل مهمته. أحدثت تلك العودة إلى الماضي صمتاً.

تجهّم الحسن الثاني لبرهةٍ قبل أن يُجيب:

- إنّ قيادة بلد هي كقيادة سيارة، إذا قضى المرء وقته في النظر إلى المرآة الارتدادية سيتسبّب بحادثٍ. انقلاب 1972 وخيانة الجنرال أوفقير... لقد جرى ذلك ببغيٍ شديد بحيث لن أتسامح معه أبداً! لأنّ هؤلاء الناس كانوا مقرّبين منّي، مقرّبين جدّاً. لقد جرحوني بعمق.

بالطبع لم يكن الحسن الثاني يقصد غيرنا. مَنْ بوسعه أن يكون مقرّباً جدّاً منه، بالتأكيد ليس العساكر المحتضرين في سجن تاماتاغت للأشغال الشاقّة. إلا أنّ شانسيل لم يذهب أبعد من ذلك. وأنهى حواره بأسئلة عائلية، حول الروابط الأبوية التي يحافظ الحسن الثاني عليها مع أولاده. وأفاض الملك في النصائح التربوية وفي المبادئ الأكثر نبلاً. بدا أنّ رؤيته للمجتمع مستوحاة من كتاب روح الشرائع لمونتسكيو، الذي يُعتَبر الكتاب المفضّل لجلالته. خيّم علينا الصمت. كنّا وحيدين، مجهولين من قبل العالم، والملك يزعق بحقده وبانتقامه على عواهنهما، دون أن يتجرأ أحدٌ على مجادلته!

تحدّثنا عن صحافيين ومذيعات ومذيعين وكأننا نتحدّث عن فردٍ منّا.

- هل سمعت جوزيه البارحة؟ كان لطيفاً جدّاً! كان غونزاك متعباً... نعم، إنّه الزُكام! هل سمعت آلان شالڤرون؟ كان يستثير مَنْ حوله! ايه بيه! البارحة، كان الأب شانسيل مُلهَماً! كانت رائعة الموسيقى التي بثّتها كليمنتين ليلاً!

لن يكفي شكري لكلّ هؤلاء الرجال والنساء، الذين، وهم يقومون بعملهم، أدّوا، دون أن يعرفوا ذلك، أنبل المهمات: التخفيف من مآسي الآخرين.

لدي شغفٌ خاص ببرنامج ملفّات التاريخ لأندريه كاستيلو وجان-

فرانسوا شياب وبرامج المؤرخين أمثال هنري آمورو أو بيير ميكيل. كان هذا الأخير راوياً ممتازاً لدرجة أنّه جعلني أحسّ وكأنني أمتطي جواداً إلى جانب الاسكندر ويوليوس قيصر وهانيبال ونابوليون. اكتست حكاياته المروية على نحوٍ أسطوري رونقاً خاصّاً، تتخلّلها موسيقى أنجيلو براندادري القروسطية. لكثرة ما دندنتُ بتلك المقدّمة الموسيقية الصاخبة وأنا أدور في زنزانتي، أصبحت نشيداً أردّده. حينما عوّضتني الحياة، في 13 أيلول (سبتمبر) 1993، بطفلةٍ رائعة، تانيا آليا، كانت أوّل تهويدة تنبس بها شفتاي هذا النغم القروسطي. حينما يُرادُ إفناؤك بسبب هويّتك، يكون أكبر الانتصارات هو النجاة من ذلك، وخاصّة القدرة على الاستمرار. أتمنّى أن تتمكّن ابنتي من قراءة هذه السطور لتستمدّ منها القوّة على البقاء وتتأثّر بمسؤوليتها في مواصلة هذا التحدّي.

حاولنا أن نمنح أنفسنا وسيلةً أخرى للمساعدة، وهي الكتابة. لم يقضِ ضابط الصفّ المقدام الذي يموّننا من وظيفته غير شهرٍ واحدٍ من أصل ثلاثة، ولم يكن وارداً أن نعرّض المحسن إلينا لخطرٍ إضافي. سيكون خطر رمي مفكّرات أو دفاتر سرّاً مثل بطاريةٍ أو قلمٍ جسيماً للغاية.

الآن وقد أصبح بحوزتنا ثماني بطاريات وثلاثة أقلامٍ من ماركة Bic فصلياً، ينقصنا ما نكتب عليه. كان سجّانونا يُدخلون لنا الخبز في علبة كرتونية، كلّ ثلاثة أيام. إنّها حصّتنا: ربع رغيفٍ من الخبز لكلّ شخص كلّ أربع وعشرين ساعة. حرصت الرباط على أن نتناوله يابساً. علاوة على ذلك، من الأصعب امتلاك المرء لقطعة خبزٍ كبيرة في متناول اليد وممارسته للتقنين الذاتي لتأمين زادٍ منتظم. حينما يرمي الحرّاس العلبة الكرتونية في زنزانة البنات، عليهنّ أن يفرغنه ويُعدنه للضابط، الذي يَصْفُقُ الباب مباشرةً ويُدير المفتاح في القفل بعنف. أعددنا خدعة لنحصل على الورق. أفرغت البنات بأسرع ما يمكن العلبة من الخبز وانتزعن قشرةً رقيقةٍ من الورق من أوجهها الداخلية. ملكت سُكينة ناصية «السّلخ»

السرّي لقفّة خبزنا. بلّلنا تلك القشرة المنتزعة من الكرتون. إذ كان لا بدّ من تصميغ دقيقٍ بطرف الإصبع وإزالة الشوائب وتخفيف سماكة الورق لجعله صقيلاً. ومن ثمّ تركه يجفّ تحت ضغط ثقلٍ حتى لا ينتفخ. وأخيراً، حينما يجفّ جيّداً نقصّه وريقات متساوية الحجم نخيطها بخيطٍ لنضمّها في مفكّراتٍ صغيرة. خرّبنا باستمرار قاع الكراتين، لكي تضطرّ الفرق المختلفة التي تجلب لنا الخبز إلى تبديلها في غالب الأحيان. دوّنت سُكَينة الحكاية التي ترويها مليكة. استهوت الحكاية المتواصلة أمّي وأخواتي.

في الطرف الآخر من المبنى، وحيداً، على هامش الآخرين، كنتُ بحاجة إلى سماع صوت أهلي ولكنّ هوّة كانت تفصلنا. حتى في هذه الظروف اللاإنسانية، يحافظ التعايش في زنزانة واحدة على الحدّ الأدنى من العلاقات الاجتماعية. أفقدتني عزلتي الإحساس بالتواصل الإنساني. رفيقي الوحيد بين هذه الجدران هو أنا؛ سندي الحقيقي هو أفكاري وأحلامي. عزائي الأكبر، هو لحظة أستطيع الكتابة.

على واحدة من تلك المفكّرات المصنّعة بمهارة ، على اللهب المتراقص لشمعةٍ، خربشتُ كتابةً دقيقة رديئة. الأسطر متلاصقة جدّاً، الأحرف ناعمة جدّاً، لدرجة أنّ صفحاتي كانت أشبه بأشرطة الأفلام. كتبتُ ما يقارب مئة قصيدة وحكاية. بدأت بكتابة رواية. ولسوء الحظ، لم أستطع كتابتها حتى النهاية. انعدم الورق.

أيّاً كانت وسائلنا في المقاومة، فقد أنهكنا الألم، وتراكمت السنوات وتعاظم الكابوس. حام الموت من حولنا. لم تعد أجسامنا، الجائعة، الهزيلة، المنهوكة، السقيمة، تحتمل المزيد. ظلّت مريم تعاني من حالات النزف؛ إذ انتكست حالة بواسيرها. منعتها كتلة لحمية متقيّحة بحجم كرةٍ حتى من الجلوس. عانت آلاماً شديدة كلّما ذهبت إلى المرحاض. كانت تنزف بكميّاتٍ كبيرة. كانت البنات يخرجن وعاءً مليئاً بالدم كلّ يومين. أمّا سجّانونا فظلّوا لامبالين. أتلفت الالتهابات المتتالية

رئاتنا، وسقطت أسناننا، ونهشت الرطوبة في عظامنا وأنهكتنا الإسهالات. كاد كلُّ زكامٍ أصابنا أن يقضي علينا. كنا نبقى، محمومين إلى درجة الهذيان، مرتَعشين، خائري القوى ومنهكين لأيام عديدة. أحياناً كان المرض ينهكني لدرجة أضطرّ معها لأن أزحف إلى قَصعتي. ظلّ خُرّاجي يؤلمني ويُعيقني. أوقفته عند حدّه بالعملية الجراحية الاعتيادية، بتفريغ الإجّاصة التي تسدّ حنكي بضغطٍ شاقّ وأليم.

دُهش حرّاسي لرؤيتي لا أزال حيّاً. دُرتُ مثل إنسانٍ آليٍّ في زنزانتي. كانت تأمّلاتي الطويلة وأحلامي النُسغَ الذي سقاني وأبقاني على قيد الحياة. راجعتُ على نحوٍ دائري فيلم حياتي. حافظتُ بعناية على ذكرياتي لأنّها محراب هويّتي ولأنّ هذه الأخيرة هي روح مقاومتي.

إنّه الطقس ذاته يتكرّر باستمرار. ساكناً على حشيّتي، خرقةٌ مبلّلة على عينيّ، ويتوقّف الزمن. يغزو ذاكرتي الحاضر، وينبعثُ ماضيّ، فأستغرق فيه بثلاثة أبعاد، وأعبره كطيف. أعيشه من جديد، وأحلّله، فتكرُّ الصور وسط عَدَمِ هذه الحفرة...

الفصل التاسع

الدُّرَر المسمومة

نحن في ربيع 1970. تسير الحياة في بيتنا بإيقاعها الاعتيادي. يضجّ المنزل بروحات وغدوات أصدقاء أبي ومعاونيه. استُخدِمَت صالة الاستقبال مكاناً للعمل والاستراحة. وكالعادة، قمتُ بجولةٍ فيها لخدمة الضيوف وللسهر على ألاّ ينقصهم شيء. لم يكن أوفقير يحبّذ دخول الموظّفين إلى الصالون والاستماع إلى الأحاديث التي تجري فيه، سواءٌ كانت سياسية أو خاصّة. باستثناء باتريس، وهو يتيمٌ آواه أبي وربّاه إلى جانبي كأنّه أخي. سمّاه والدي باتريس لأنّه دخل إلى البيت في عام 1961، يوم مقتل باتريس لومومبا[1]. لقد أثار ذلك الطفل الأسود كالآبنوس والوديع كملاك، والصموت كسمكة شبّوط، على الدوام محبّة الجنرال وعاطفته. تابع باتريس دراسته إلى مرحلة BEPC ولكنّه قرّر ذات يوم التوقّف عنها. وحتّى والدي لم يفلح في إقناعه بالعدول عن ذلك.

- أُريد يا سيّدي الجنرال أن أخدمك لأردّ لك جزءاً يسيراً مما فعلته من أجلي.

ردّ عليه أوفقير:

---

(1) زعيم الحركة الوطنية الكونغولية، وقد أصبح رئيساً للوزراء عام 1960 لدى نيل البلاد لاستقلالها. أُعتُقِلَ من قبل موبوتو في السنة ذاتها، وقد عومِل وقُتِل بوحشية.

- ولكن يا باتريس، إذا كانت الحياة قد منحتك فرصة لتتعلّم، لماذا تودّ أن تُضيّعها في عناءٍ بلا طموح؟

- لأنّ الرجال الطموحين، يا سيّدي الجنرال، كثيرون، ولكنّ الخدم الأوفياء نادرون. . .

لم يتغيّر شيء في الأمر: كسب باتريس القضية شريطة أن يتابع دروسه بدوامٍ نصفي.

أدخلُ إلى الصالون ثمّ أنصرف للتفرّغ لإحدى تسلياتي المفضّلة: الجلوس مع السائقين والمرافقين أو القيام بجولة على مراكز الحراسة لتوزيع الطعام على الجنود. أدخّن بعض السجائر معهم وأنا أتنافس معهم في ألعاب الدامة الضارية على قطعة كرتون ذات خانات حائلة اللون، ببيادق من سدادات القوارير.

كم انتظرت بنفاد صبر أن ينتهي بن جلول، وهو سائقٌ ميكانيكي مشهودٌ له، تلطّف بإصلاح دراجتي النارية العصيّة، من إعادة تركيب حوض دراجتي. فقد كنتُ مدعوّاً إلى بيت الأمير مولاي عبد الله، شقيق الملك. وبانتظار ذلك، تحدّثت مع الشرطيين المدنيين الجالسين في المرأب. كان أولئك الرجال، الذين يخدمون شخصيات مهمّة أو مرؤوسين، يُشبعون فضولي ويلبّون رغبتي باكتشافاتهم الرصينة أو السخيفة. وبرؤيتي أكثر فأكثر إلى جانب والدي في مناسباتٍ خطيرة ومهمّة، وفي ظروفٍ خاصّة، باتوا يعتبرونني كواحدٍ منهم. ولكوني كنت أدخل إلى الصالون كما أشاء، كنتُ بدوري مفيداً لهم بأكثر من طريقة. وهكذا حينما كانوا ينشغلون بلعبة ورق أو دامة، لم أكن أتوانى عن تنبيه الشخص المعنيّ بأنّ معلّمه يتهيأ للخروج. كما أتوسّط لهم حينما يمكن ذلك، وأغطّيهم عند الحاجة، مثل البائس سائق إدريس السلاوي، المستشار المقرّب للملك والصديق الحميم لوالدي، والذي عطّل، أثناء مناورة سريعة في مرأبٍ مزدحمٍ بالسيارات، مصباح سيارة سيتروين

ماسيراتي المهداة حديثاً لمعلّمه من الحسن الثاني. جعلني قلقه أذهب للقاء رئيسه.

- عمّي، أنا آسف بصراحة، ولكنني ارتكبتُ حماقة...

وهكذا، بمرور السنين، نُسِجت بين أولئك الرجال وبيني علاقات متميّزة. وحينما كانت المنافسات تتفاقم بين رؤسائهم إلى درجة تؤثّر على علاقات مَنْ يخدمونهم، لم أقف مكتوف اليدين. بل حدث لي، في مناسباتٍ نادرة، أن توسّطت لتجنّب انحلال العلاقة بينهم.

وإذ يُعدّ الصمت المطلق الشرط الرئيسي لأسرارهم، لم يكن وارداً الخوض في المسائل الهامّة. كانت الجماعة الأكثر كتماناً هي جماعة العيونيين، مثلما يُسمّون عندنا، وهم بربر الجنوب الشرقي تعود أصولهم إلى منطقة والدي. تميّز أولئك الرجال الصحراويون، أصحاب القامات المشيقة والعيون الشبيهة بعيون الصقور، بصرامتهم، وثقافتهم الصحراوية وأساليبهم البسيطة، وتجرّدهم المادّي، وإخلاصهم المطلق لأوفقير. مسلكهم لائق، لا يتأثّر، وسلوكهم نبيل وفدائيّ. كانوا بالنسبة لي المعقل الأخير الذي لا بدّ من احتلاله لتأكيد تعويدي على العالم الغامض للسلطة. فشاهدتُ، وأنا الناضج قبل الأوان - كنتُ المراهق في الثانية عشرة من عمري - سلوك العيونيين يختلف بشكلٍ ملموس. حينما حصلتُ أخيراً، في الثالثة عشرة من عمري، وبعد عدّة مرّات من الرفض من قبل والدي، على إذنٍ بتلقّي دروسٍ في الرماية تحت إشراف خبيرهم، أظهروا لي تقديرهم. ومنذ ذلك الحين، جسستُ نبض الأوضاع بالاستماع إلى تعليقاتهم وصمتهم وسلوكهم. وكلّما كانت الشخصية التي يخدمونها أرفع منصباً كانت أحاديثهم تتّخذ مظهراً تفخيمياً وتعظيمياً. وغالباً ما ستتحقّق حدّة تشخيصاتهم. وقد تأكّدت من ذلك من خلال وجودي إلى جانب رؤسائهم، ونقاشاتهم في الصالون. ومن خلال معاشرة والدي والمحيطين به، أدركتُ بواكير ذلك. وفي السنة ذاتها أيضاً، 1970، حقّقتُ ولوجي إلى العالم.

عُقِدَت قمّة تجمع الدول الإسلامية[1] في الرباط. أقام رؤساء الدول في ڤيلات كبار موظّفي النظام. تركنا بيتنا لشاه إيران. حينما زار والدي ضيوف المملكة ليستعلم عن راحتهم وأمنهم، رافقته وتتبّعتُ الخطى التي خطاها أولئك الملوك والرؤساء مع والدي وهم يتبادلون الحديث. اكتشفت العلاقات الممتازة التي تربط والدي مع شاه إيران والملك حسين عاهل الأردن والرئيس بومدين على نحوٍ خاصّ. في حلقته الخاصّة الضيّقة، غالباً ما تأسّف والدي لسلوك «الملك الأندلسي» للحسن الثاني، حالماً بـ«ملكٍ عسكريٍّ» مثل العاهل الهاشمي. وكذلك، بدءاً من سنة 1970، بدأ والدي يبدي المزيد من الاهتمام حيالي، ملاحظاً ولوجي إلى العالم الخاصّ جدّاً للسلطة. حينما قام بجولاتٍ في البلاد، اصطحبني معه، حيث أمكن ذلك. وغالباً ما كان يهمس لي بنصائح:

- ابقَ بمعزل عن الرسميين، ابقَ مع رجال الأمن، لا تقترب منّي إلاّ إذا دعوتك. لا تتكلّم قطّ عن الملك حتى بالإيجاب. ابقَ بعيداً عن السياسة، إنّها شيءٌ قذر! السياسة في الوقت الراهن، هي نوعٌ من الدعاية! وهي لا تكون إلاّ حينما تصبح تاريخاً، وحينما تُتاح للحقائق فرصة لأن تُكشَف.

لم يوفّر والدي، في تلك المناسبات، كذلك تعليماته عن الوقار:

- حينما تُصافح، يجب أن تَكون مصافحتك حازمة وأن تحدّق في عينيّ من تُصافحه! كُن منتصب القامة، مرفوع الهامة.

كما ذكر لي غالباً مثلاً بربرياً: «تُعرَف الخيمة الكبيرة من أعمدة دعامتها.»[2]

أتذكّر المرّة الأولى التي وجب عليّ فيها أن أصافح زعيم دولة: كنتُ

---

(1) المؤتمر التأسيسي لمنظّمة المؤتمر الإسلامي الذي عُقِد في الرباط بتاريخ 25 أيلول (سبتمبر) 1969. المترجم

(2) اكتفينا بترجمة المثل بما يتناسب مع المعنى. المترجم

متوتّراً حتى قبل أن ألتقيه. ولتهدئة قلقي واضطرابي، كشفتُ لأوفقير عن ذلك. قلتُ له:

- أنا مضطرب، يُرهقني أن أصافح النجاشيّ[1] غداً.

ردّ:

- سوف ترى، إنّ عظام هذا العالم ليسوا أبداً صغاراً كما نعاشرهم عن قرب!

لم أفهم مغزى الابتسامة الواضحة التي رافقت تلك الكلمات، إلاّ أمام إمبراطور أثيوبيا هايلا سيلاسي... الرجل الرقيق الذي لا يتجاوز طوله المئة وخمسة وخمسين سنتمتراً، ولكنّه ذو الحضور المدهش!

أخيراً أصبحت دراجتي جاهزة. أنجز بن جلّول، الميكانيكي، عملاً جيّداً: دار المحرّك مثل ساعةٍ. تحقّق المقسم من والدي أو والدتي من أنّ الإذن بالخروج ليس خُدعةٍ من طرفي. فنُقِل الأمر إلى المحرس الذي يحرس مدخل البيت. منحنيّاً فوق مخزن الوقود، وشاداً على مسكته، أسرعتُ نحو الشاطئ. يتعرّج الطريق الساحلي الذي يربط الرباط مع تمارة على طول الجروف الصخرية الخفيضة المحاذية للمحيط الأطلسي. داعب الهواء البحري وجهي، واجتاحني إحساسٌ مُسكِرٌ. منذ سنّ الثامنة، كنتُ مرافَقاً من قِبَل إدريس وبوطويل، ظليّ الوفيين. كانا، في طفولتي، مربّيين. ثمّ أصبحا صديقين ومؤتمنين على أسرار المراهق الذي كنت. حاولت سيارتهما من طراز رينو 16 ألاّ تفارق عجلتي. كان الطريق العَرضيّ الضيّق الذي يربط العاصمة بمحطّات الحمّامات مزدحماً، ومع ذلك قلّما غبتُ عن أنظار الرجلين اللذين تابعاني. حينما أُجازف كثيراً، أتلقّى إنذارات مصابيح سيارتهم في مراياي العاكسة.

تجاوزت قرى الاستجمام المحاذية للمحيط. بين شاطئ تمارة والقصر الملكي في الصخيرات، يقع الشاطئ الخاصّ لشقيق الحسن

---

(1) لقب إمبراطور الحبشة (أثيوبيا). المترجم

الثاني، الأمير مولاي عبد الله. ينتصب على مرتفعٍ، وسط الكثبان الرملية، مبنى صغير على مستوى واحد تلحق به خيمةُ قايد[1] واسعة، وظلّةٌ بسقفٍ خفيف مسنودٍ بأعمدة ممشوقة. كانت تلك المصطبة البسيطة تطلّ على البحر. تقود درجات خشبية مشدودة إلى بعضها بحبال إلى الشاطئ، على مدى كيلومترٍ واحدٍ من الرمل الناعم الذي يحدّه إلى الشمال جرفٌ صخريٌّ عال. في أسفل ذلك الجدار الحجري، خليجٌ صغير فيه حوضٌ للسباحة من مياه البحر. كان المدخل الرسمي لهذا المسكن الصيفي أبعد بقليل، مسدوداً بسلسلة حديدية ومحروساً سرّاً من قبل فريقٍ من المظليين من الحرس الملكي، كامنٍ بين القصب. تعرّف الحرّاس عليّ، وحيّوني بمودّة لدى مروري بهم. صفّ إدريس وبوطويل سيارتهما على قارعة الطريق، مفضّلَين البقاء هناك ليراقبا المخرَجين اللذين يُمكن لي أن أُغادر منهما دون استئذانهما.

في مرأبٍ فسيحٍ، كانت تصطفّ ست دراجات من طراز هارلي ديفيدسون وحوالي عشر مركبات، مغطّاة بالأغطية الخاصّة بها. ويحتمي تحت سقفه سائقون ومرافقون من الشمس. ما إن ترجّلتُ من الدراجة حتى دعوني إلى مشاركتهم كوباً من الشاي بالنعناع. عببتُ بسرعة كوبي، لأنني لم أشأ أن أتأخّر على الغداء. استقبل الأمير مولاي عبد الله ستيڤ ماكوين! وانتظرت بفارغ الصبر لأتعرّف على بطل **الهروب الكبير**[2]، هذا الفيلم الأسطوري الذي شاهدته مراراً. ومن سخرية القدر أن معلوماته ستكون نفيسة بالنسبة لي في حياتي المستقبلية...

اجتزتُ بكلّ خطوة أربعاً من الدرجات المنحوتة في الصخر. نفذ الدرج الشديد التحدّر على مصطبةٍ. على وقع الموسيقى، بلغتني أصداء

---

(1) قايد: لقب للزعماء المحليين والقبليين. المترجم

(2) فيلم شهير من كلاسيكيات السينما الأمريكية، أُنتِج في عام 1963، من بطولة ستيف ماكوين. المترجم

أصوات. كانت للاّ نزهة، إحدى شقيقات الحسن الثاني الخمس، المفتونة بفرانك سيناترا، تستمع إلى أسطوانةٍ لمغنّيها المفضّل. كانت الأميرة تعرف جيّداً الولايات المتّحدة لكثرة زيارتها، وبدعوة منها زار ستيڤ ماكوين وزوجته نيل المملكة.

كانت الأميرة تعرّض نفسها للشمس ممدّدة على كرسيٍّ طويل، محاطةً بكلبيها من نوع يوركشاير اللذين تحبّهما أكثر من كلّ شيء في الدنيا. كان من المعلوم أنّ سموّها تحبّ الأشخاص الذين يحبّهم كلباها. وكان يطيب لها أن تكرّر أنّ حدّة ذهن حيوانٍ وسيلةٌ ناجعة لاختراق الطبيعة البشرية. كانت للاّ نزهة امرأة شابّة فائقة الجمال. ذات طبيعةٍ صادقة ولكنّها نفورة، مفرطة في مشاعرها كما في فورات غضبها. حتى الملك نفسه لم يستطع قط أن يروّض نزق واحتداد تلك الشقيقة المتمرّدة. وفيّة للصداقة، صارمة في مبادئها، لا يُغضبها شيء أكثر من ضراوة المتملّقين ضدّ شخصٍ ألمّت به مصيبةٌ. غالباً ما سمعتها تدافعُ عن تعسٍ يُعاقَب بالسخط الملكي. وتستمرّ في ذلك حتى نيل عفو جلالته. ولطالما كننتُ الودّ والمحبّة لتلك المرأة الشابّة الصريحة والشجاعة والصادقة. ولم تبادلني سوى اللطف والعناية.

تقدّمتُ لتحيّتها، واحتفى بي كلباها اليوركشاير. استندت الأميرة على مرفقها ورفعت نظارتها الشمسية إلى جبينها. هممتُ لتقبيل يدها، ولكنّها سحبت يدها وقبّلتني على خدّي. لم يدع أيّ فردٍ من العائلة الملكية لنا يده لتقبيلها. وسيكلّف هذا عائلتي الكثير من العداوات والغيرة الخفيّة ولكنها الثابتة من قبل المتملّقين.

كان الأمير يتحدّث تحت الظلّة مع بعض أصدقائه المحيطين به. في جوٍّ مريحٍ، تشكّلت تلقائياً مجموعات صغيرة من الأصدقاء. يرتدون جميعاً إمّا سراويل قصيرة أو لباس البحر. الدعابات والفكهات على قدمٍ وساق. والكلام كلّه على ستيڤ ماكوين الذي، ما إن وصل، حتى توارى في حجرةٍ للثياب لكي يرتدي لباساً مريحاً. حييتُ مولاي عبد الله

وضيوفه وزوجته الأميرة لمياء. لمياء الصُلح هي ابنة إحدى شخصيات لبنان الأكثر احتراماً وتقديراً، وهو مدافعٌ عنيد عن استقلال بلاده. وقد تزوّجت شقيقاتها من رجالٍ مهمّين، من الأمراء السعوديين. الأمر الذي يفسِّر جزئياً العلاقات المتميّزة لمولاي عبد الله مع قادة الخليج الفارسي. وقد عرفت على الدوام، بفضل وقارها، كيف تُبعِد المتملّقين الدائرين حول زوجها فأثارت نميمتهم واغتيابهم. كما جعل إباؤها الطبيعي علاقاتها صعبة مع الحسن الثاني. بجمالها الفاتق، فُسِّر كبرياؤها وعاداتها الأرستقراطية كنوعٍ من التمرّد.

كان الأمير بمزاجٍ ممتاز. ولمولاي عبد الله، بطوله الفارع وقامته الممشوقة ورشاقته، بنيةَ جسد فتى السينما الأوّل. مظهره ورشاقته نادران. أكسبه لطفه مع عامّة الناس تعاطفاً عامّاً وحبّاً إجماعيّاً. والتسامح الذي تمتّع به على الدوام يعود إلى المكانة التي يحتلها في قلوب الجميع. كان ذلك متيسّراً له ولاسيما أنّه لم يمارس أيّة سلطة. ومع ذلك حاول أن يؤثِّر على مسيرة الدولة وعلى توجّهات وقرارات شقيقه الملك، بيد أنّ هذا الأخير أعانه دون أن يُصغِ إليه. أراد الأمير أن يطرح نفسه كمخاطبٍ للمستائين، وكملاذٍ للمطالب التي كان الملك يرفض الخضوع لها، محتفظاً، في أوجّ الصراع بين اليسار المغربي والنظام الملكي، باتصالٍ وثيقٍ مع الذين كان الملك يعتبرهم ألدّ أعدائه. ولكنّ الحسن الثاني حذّره من مناوراتٍ سياسية ترمي إلى إضعاف العرش. قال له بأنّ تقسيم العائلة الحاكمة هي فرصة للمعارضة لكي يكون لها حليفٌ في معقل العائلة، واعظاً شقيقه الشاب حول النتائج الكارثية لأيّة سذاجةٍ محتَمَلة.

- إنّ الاعتقاد بأنّ ليس للمعارضة من همٍّ سوى دمقرطة البلاد، هو وقوعٌ في الفخّ!

وشرح الحسن الثاني بلا انقطاع لأخيه الأصغر:

- هؤلاء الناس ليس لهم هدف سوى التخلّص من الملكية! خطّتهم الوحيدة هي نظام الحزب الواحد في سلطة شعبية مزعومة! حلمهم الوحيد

هو رؤية العرش المغربي ينتهي مثل عروش مصر أو سوريا أو العراق أو تونس!

قبل الأمير بألاّ يتعاطى الشأن السياسي، لو منحه الملك الحقّ في أن يكون حرّاً من الناحية المالية، لا تابعاً لحسن نيّته. حريةٌ لم توهب دون صداماتٍ ولم تنزع التوتّرات الدائمة، كي لا نقول صراعاً ضارياً بين الرجلين، أُجِّجَ من قبل الحاشيتين الملكية والأميرية. حاولت المعارضة هي الأخرى أن تُفاقم الاختلافات في وجهات النظر بين الشقيقين من خلال إدخال أناسٍ منها إلى محيط الأمير. واستمرّ الحسن الثاني يمارس بحزمٍ، وباستعدادات ثابتة، حقيقة سلطةٍ حاذقة وقاسية في آن. وكلّما أصبحَ محلّ نزاعٍ ومهدّداً أكثر، أظهر نفسه عديم الرحمة أكثر، لا يتردّد في سحق أيّة معارضة لـ«حقّه الإلهي على الشعب المغربي» كما كان يحلو له أن يردّد ذلك. وسيتحمّل شقيقه، ولكن أيضاً والدته للاّ عبلة وزوجته لطيفة وبعض أخواته ثمن ذلك. مرّ البعض من العائلة الملكية بتمرّد مكبوت، بغضبٍ مكظوم، بمرارةٍ مدمّرة للذات، مرهقين صحّتهم بملذّاتٍ مصطنعة، على أمل أن يغرقوا فيها سوء معيشتهم دون أن يستطيعوا التهرّب من تدخّلات الحسن الثاني وسلطته المرهِقة. من جهة أخرى، كان هذا الأخير قد تجنّب تماماً، بعد وفاة المرحوم محمد الخامس، توزيع الإرث العائد قانوناً للأميرات. وإذ جعل أهله تابعين مالياً له، منح الحسن الثاني لنفسه سلطة إضافية: التحكّم المطلق بعائلته.

وضع مولاي عبد الله يده على كتفي:

– ها هو مغرمٌ بالدراجات النارية لا يحلم سوى بلقاء ستيف ماكوين!

تكلّمنا، واستهزأنا بترّهات. نهضت للاّ نزهة لتستقبل ستيف ماكوين الذي خرج من غرف الملابس: كان يرتدي صدرية رقيقة من الجلد على البشرة مباشرةً وسروالاً قصيراً من الجينز، وصندلين ونظارتين من طراز راي بان معتمتين. أخذت الأميرة بيده وقادته نحونا. كنتُ منفعلاً مثلما

يحصل لمراهقٍ أمام نجمٍ سينمائيٍّ أوّل. تمّ التعارف بيننا، واستمرّت المجاملات الاجتماعية. بَدا ستيف ماكوين ضجراً. انضمّت إلينا زوجته التي كانت تجلس تحت الظلّة برفقة الأميرة لمياء وزوجين من أصدقائها. وداعبت بحركةٍ أمومية شعر زوجها.

فجأة، ارتفع صوت الموسيقى. ورقص الجميع. جلس ستيف ماكوين منعزلاً وهو يرنو إلى البحر. استغللتُ تلك اللحظة للاقتراب منه. كنتُ متحفّظاً وهو كذلك، ولكنّ شغفنا المشترك بالدرّاجات النارية سهّل الحوار بيننا. اكتشفتُ، خلف برودةٍ ظاهرة، رجلاً مشبوب العاطفة. ابتعدنا على الرصيف. تصاعدت الروائح الفائحة من المطابخ نحونا أشدّ من الهواء البحري. افتتن طُهاةٌ وسائقون ورجالُ أمنٍ برؤية النجم السينمائي بلحمه وعظمه. اكتشفتُ أن ستيف ماكوين قد استراح وغدا أكثر ابتهاجاً وبشاشةً. وشعرتُ بأنّه إذا كان لا يملك أيّ ميلٍ للمجاملات الاجتماعية، فإنّه قريبٌ من عامّة الناس. فقد تهيّأ بطيبة خاطر وبمنتهى اللطف لالتقاط صورٍ مع الموظّفين ولحفلة تواقيع.

توقّف ستيف ماكوين مذهولاً أمام مدجّني الصقور المفترشين الأرض على شكل نصف دائرة، مزيّنين ببرانسهم البربرية. أراد الأمير أن يترك له المفاجأة، ولكنّه، كطفلٍ ذاهل، اتّجه نحوهم وجلس. بالنسبة لأولئك الجبليين الأشدّاء، الممثّل هو إنسان مثل الآخرين، الأمر الذي أنعش فؤاده وأفرحه. أصبح ودوداً وبليغاً. طرح أسئلةً، وأصغى باحترام إلى الأجوبة. بدا حائراً في أمر الأوشام التي يحملها أولئك الرجال على ظهر اليد أو بشكلٍ أقلّ على رأس الأنف أو الجبين أو الذقن. كانت رسوماتها تقتصر في غالبها على وردةٍ صغيرة، أو نُجيمات أو خطوطٍ قصيرة. كانت تلك الأوشام أكثر وضوحاً عند النساء، اللواتي كنّ يتباهين بها على رسوغهنّ وعراقيبهنّ. شرحتُ له أنّ هذه النقوش هي، في الأصل، الرمز المميّز بين القبائل والعشائر، وهي خاصيّة تُعتَبر كزينةٍ للجمال عند المرأة،

وكإثباتٍ للهوية القبلية عند الرجال، وقد بَطُلَت عند البربر المتمدّنين.

شقّ عليّ أن أقطع الأحاديث الودّية بين النجم والجبليين. من خلف حواجز اللغات والحضارات، تحادثوا بعفوية. حلّت الحركة محلّ الكلمات، وأعطت لهذه المُسارّة حقيقة مدهشة. بدت تلك اللغة العالمية وكأنّها تضمن للحديث صدقاً ربّما كانت الكلمة المنقّحة ستخدشه. كان ستيف ماكوين سعيداً مثل طفل. أهداه رئيسُ مدجّني الصقور خنجراً بمقبضٍ من الفضّة المرصّعة، وقد علّقه بحزامه وربّت عليه بيديه. بدا التأثّر على الممثّل، وفكّ ساعةَ يده وقدّمها للجبّار المعمَّم المتربّع في أذيال برنسه الناصع البياض. نهض الرجلان في حركة واحدة وتعانقا. شعرتُ أنني أحضر مشهداً من فيلم لجون فورد يبادل فيه الرجل الأبيض عربون الصداقة مع زعيم هندي. كانت مائدة فاخرة قد أُعدّت على شكل هلال في نصف دائرة الظلّة. التأم الضيوف حولها، كلٌّ بيده طبق. لا شكّ أنّ الأجانب الحاضرين قد اكتشفوا أطايب المطبخ المغربي وتفنّنه المدهش. وانتهى الجميع إلى الثناء على ما وصفوه بفنّ الطعام.

جعلت نشوةُ وجبة شهيّة ودسمة الحضورَ أكثر صراحةً. ذكرنا، الأمير وأنا، الفيلم القادم الذي سيأخذ ستيف ماكوين دور البطولة فيه: والمقصود هو فيلم **مانس**[1] الذي تروي أحداثه مغامرات سائقٍ خلال أربع وعشرين ساعة من السباق الأسطوري. شرح لنا مرافقو النجم أنّه مذ أن وقّع العقد، منعت البنود التي تؤمّن عليه منعاً باتّاً أن يُعرّض ستيف ماكوين نفسه لأدنى مخاطرة. وحُظِرَ عليه أيّ نشاطٍ محفوفٍ بالمخاطر أو أيّة رياضة خطِرة.

قال الأمير ممازحاً:

– أتمنّى ألاّ تستبدّ به الرغبة في الأحاسيس الهائجة عندي؛ فأنا لا أودّ أن أكون مسؤولاً ولا أن أكون ممنوعاً من زيارة هوليوود.

---

(1) من أفلام «الأكشن»، أُنتِج عام 1971، أخرجه لي هـ. كاتزين. المترجم

حينما انضمّ إلينا ستيف ماكوين، تجنّبنا، دون أن نغيّر الموضوع، ذكر الالتزامات التي تفرضها عقود التأمين عليه.

قال الأمير:

- كنّا نتحدّث عن فيلمك القادم. هل ستُستَبدَل بممثّل بديل في مشاهد القيادة؟

- أتمنّى من كلّ قلبي أن لا، إذا مثّلت في هذا الفيلم فذلك أوّلاً لمتعة قيادة تلك السيارات السريعة ومواجهة أولئك الأشخاص ذوي الخصى الفولاذية، أيّ السائقون المحترفون.

للحظةٍ، أثار الكلام الفجّ لستيف ماكوين البلبلة وسط الحضور. احمرّ وجه المترجم خجلاً. ظلّ ماكوين رصيناً كطبيعته، وبدا أنّه بالكاد لاحظ ضيق مواطنه. لزم الأمير الصمت لجزءٍ من الثانية ثمّ انفجر في قهقهةٍ فاجأت عفويتها الأمريكيين أكثر من زلّة لسان صديقهم. ضرب ستيف ماكوين بفرحٍ وحميّة كفّه بالكفّ الذي مدّه له الأمير. أصبح الجوّ هادئاً ومريحاً بوضوحٍ. لم أستطع الامتناع عن سؤال بطل الهروب الكبير عن ارتجاله في هذا الفيلم. هل نفّذ بنفسه مشاهد السقوط بالدراجة النارية؟ شرح لي ستيف كيف اجتاز جداراً من الأسلاك الشائكة، بالتحليق من فوقه، بسيارة BMW من طراز الأربعينات. وصف لي بأدقّ التفاصيل المراحل التقنية الضرورية لمشهد كهذا. وقد تحدّث، فرحاً، عن صعوبة إقناع المنتجين بأن يدَعوه يؤدّي ذلك بنفسه دون ممثّلٍ بديل. كما ذكر المطاردة الأسطورية للسيارات في فيلم بوليت[1] وتحليقات سيارته من طراز فورد موستانغ في شوارع سان فرنسيسكو. وكما في كلّ اجتماع، تشكّلت مجموعات، وتناسجت الأحاديث حسب الانسجام والتوافق في الاهتمامات. وسرعان ما تبيّن أنه عدا مولاي عبد الله، كنّا، ستيف وأنا،

---

(1) فيلم بوليسي، يتضمّن مشاهد مدهشة من مطاردات السيارات، أُنتِج عام 1968، وهو من إخراج البريطاني بيتر بيتس. المترجم

الوحيدين اللذين نهتمّ بالرياضات الميكانيكية. ولكن أصول اللياقة لم تسمح للأمير بأن يهمل ضيوفه، فكان يقترب، بين حينٍ وآخر، منّا ويستمع إلى بعض حديثنا ويُعلّق تعليقاً سريعاً ومقتضباً على الموضوع الذي يشغلنا. ثمّ يبتعد ليتأكّد من أنّ جميع ضيوفه يستمتعون مثلنا بالحوار. قطعت نيل، زوجة ستيف، أحاديثها بانتظام لتأتي وتهتمّ بزوجها. هذه المرّة، تقدّمت وبيدها أنبوب لمرهمٍ واقٍ من الشمس ودهنت بلطف أنف وجبين وكتفي زوجها الذي استسلم لذلك الاهتمام على مضضٍ كفتى شغِبٍ معارضٍ لكلّ دلال. ببسمة مشرقة، ولغة فرنسية متقنة، أبدت دهشتها من القريحة غير الاعتيادية لزوجها. شعّثت شعري وقالت:

- قلّما أراه ثرثاراً هكذا، لا بدّ أنّه قد أُعجِبَ بك.

عبس ستيف قليلاً. إنّه لا يفهم لغة موليير، ولكنّه لشدّة اندهاشي، أمسك بيده الضخمة كتفيّ وضرب رأسه ودّياً برأسي:

- *Ya kid, you're my friend!* (نعم يا صغيري، أنت صديقي!)

ضربني بكفّه بقوّة على ظهري، وقال:

- البحر جميل، هيّا نسبح!

مشينا على الشاطئ. حينما وصل ستيف إلى مقدّمة الجرف، وثب إلى الماء في غطسٍ مذهل. أثار قلق وخشية الضيوف الذين كان يشاهدوننا من على الظلّة وهم يضعون أياديهم فوق أعينهم اتّقاءً من الشمس. لم تحل المسافة دون بلوغ صيحات الرعب إلى مسامعي. رأيتُ الأمير مومئاً بيديه ومعلّمي السباحة من الغطّاسين الإطفائيين يهرعون نحونا. لم أستطع أن أفعل شيئاً سوى هزّ كتفيّ لأشير لمولاي عبد الله إلى أنّه ليس لي في الأمر يد. التفّ ستيف حول الجرف سباحةً. منزعجاً من حضور برج السبّاحين الذين انضمّوا إليه، طمأنهم وواصل السباحة حتى بلغ الضفّة. بعد احتساء كوبٍ من الشاي الساخن اللذيذ، طلب من

الأمير أن يعيره إحدى دراجاته النارية ليقوم بسباقٍ على الشاطئ. شرح له مولاي عبد الله، محرَجاً، أنّه لا يريد أن يراه يخاطر وهو في ضيافته. وقد أثار هذا الردّ بعض الفتور. عاد ستيڤ إلى رمال الشاطئ، فعرضت عليه، دون طول تفكير، دراجتي. ففي نهاية المطاف، لا تقع مسؤولية ذلك إلاّ علينا أنا وإياه.

- استطاعتها 500 سنتمتر مكعب؟

فوجئتُ بسؤاله، فقلتُ متردداً:

- آه... إنّها...

- أَهي 250؟

مرتبكاً، قلت:

- كلاّ، إنّها 125.

لا أهمية لذلك. قدّم لي ستيڤ عرضاً عظيماً، رغماً عن إرادة مولاي عبد الله وضيوفه.

شارف عَصر ذلك اليوم الجميل على نهايته. استأذن الأمير وزوجته من الضيوف. رغب ستيڤ ماكوين في قيادة السيارة التي وُضِعَت تحت تصرّفه، ولكنّهما، نيل وهو، احتاجا إلى دليلٍ يرشدهما إلى الطريق. طلبا منّي أن أرافقهما. أودعتُ درّاجتي عند أحد أفراد حماية الأمير. توجّهنا نحو الرباط. تمنّيتُ الإفلات من رقابة إدريس وبوطويل، معتقداً أن بخروجي داخل سيارة، لن يكشفاني. بعد اجتياز الكيلومتر الأوّل، اقتنعتُ بأنني قد تخلّصتُ منهما. ولكن سرعان ما رأيتُ واجهة سيارتهما من طراز رينو 16 تبرز خطمها خلف شاحنة.

نزل ستيڤ وزوجته في فندق برج الحسن. تواعدنا للقاء في السهرة الخاصّة التي أقامها رئيس الوزراء في ذلك المساء، في منزله بشاطئ تمارة.

نحو الساعة التاسعة مساءً، ازدحم منتجع تمارة الصغير بالسيارات.

على رصيفٍ في مستوى واحد على الرمال، أُقيمت مأدبة قبالة البحر. تراصفت أشهى المأكولات المغربية عليها في أطباقٍ كبيرة من الخزف الصيني. ونُصِبَت خيمة زعامة كبيرة على الشاطئ، وفُرِشت المساحة البالغة حوالي عشرة أمتار والتي تفصلها عن الرصيف بالسجاد البربري. حضر معظم الضيوف.

وصل الأمير مولاي عبد الله وزوجته والأميرة للاّ نزهة معاً. التقيتهم بالمرأب، وطلبوا منّي الدخول معهم. اعتذرتُ من سموّهم، وانتظرت ستيف ونيل. كما وصل أبي وأمّي مع الجنرال ادريس بن عمر والعقيد اليوسي، صديقيهما الدائمين. قبّلتهما وعدتُ إلى ترقّبي! وأخيراً ظهر الزوجان. قدّمتهما، تاركاً إيّاهما لمجاملات اجتماعية فظيعة. قابلتها نيل برقّةٍ ولطف، ولكنّ زوجها لم يلزم نفسه بها طويلاً. أبهجت السهرة الحضور وأصبح الجوّ مريحاً تماماً. رقص الناس وتسلّوا، واستعاد ستيف هدوءه. جلسنا مع زوجته على حافة جدار صغير يحدّ الرصيف. كانت السماء مرصّعة بالنجوم والبحر هادئاً والهواء لطيفاً مثل مداعبة. سواءٌ قبل اعتقالي أو بعده، لطالما انبهرتُ بجمال جغرافية المغرب ومسحتها الخاصّة: شهوانيتها الملغزة، نكهاتها الجذّابة، روائحها الغريبة جدّاً مرصّعة عميقة في داخلي، أينما كنت، وأيّاً كان الهواء الذي استنشقه. فأيّة خسارة في أن المؤهّلات الطبيعية لبلادنا لم تُقدّر قط كما تستحقّ!

سألتُ أصدقائي عمّا يريدون شربه. ازداد المرح، وتقدّم الليل. فجأةً، رغب ستيف ماكوين أن أرافقه إلى أبي.

- جنرال، هل يمكنني أن أتحدّث إليك للحظة؟

أُصِبتُ بدهشة كبيرة! أمسك والدي بمرفقه ممازحاً:

- جئتَ في أوانِك! لقد ضقتُ ذرعاً بكوني وزيراً للداخلية، ألا يمكنك أن تدعمني بمهنة ممثّل؟ في دور الشرير طبعاً!

عاد ستيف وزوجته إليّ، وهما يبتسمان. عاد أبي وجلس على

العشب الأخضر، ملقياً عليّ بخبث تحيّة عسكرية على الطريقة الأمريكية، كنوعٍ من الموافقة. لم أفهم شيئاً. أمسكت نيل بيدي، وستيف بكتفي، وعدنَا إلى جدارنا الصغير.

- لك عندنا مفاجأة، ولكننا لم نكن نريد أن نمنحك فرحةً مزيّفة قبل استشارة والدك.

أصغيتُ، بعينين محملقتين. معلّقاً بشفتي نيل، انتظرتُ بقية الحديث. تابعت:

- سندعوك، ستيف وأنا، لحضور تصوير فيلم مانس، ثمّ سنصطحبك معنا إلى الولايات المتّحدة. ستقضي العطلة الصيفية عندنا!

كنتُ تحت تأثير الصدمة. تابع ستيف:

- سترى حلبة سباق الدرّاجات التي خطّطتها في مزرعتي. لديّ نصف دزينة من الدرّاجات في المرأب، ولن تتحيَّر سوى في الاختيار من بينها!

انحنى عليّ وهمس لي:

- أعدك بأن أدعك تقوم بجولة على مضمار مانس مع سائقين حقيقيين.

قال لي مترجمه:

- تأثّر ستيف بمبادرتك. لقد قدّر لك إعارتك إياه دراجتك، واهتمامك بنيل وبه طواعيةً وعفوياً.

غارقاً بانفعالاتي، بحثتُ عن والدي لأتحدّث إليه. كان المدعوون قد أطلقوا العنان لأنفسهم، وكان عليّ أن أزاحم حتى أشقّ لنفسي طريقاً. أخيراً وجدته يتحدّث مع أحد أصدقاء الملك. حاول ذلك الممالق المحترف أن يثني والدي عن إرسالي إلى الولايات المتّحدة.

- ولكن يا سيّدي الجنرال، هذا نوعٌ من الجنون، لن تدع ابنك يسافر وحده مع ممثّلين! أمريكا وهوليوود، خطرٌ بالنسبة لمراهق!

قاطعتهما على ذلك، وسمعتُ أوفقير يردّ:
- أثق بأولادي.
انتظرت أن يكون وحده لأشكره على سماحه لي بتلك الرحلة الجميلة. ولكن ما أثّر فيّ أكثر هو الثقة التي وضعها فيّ.
- اشكر أيضاً أمّك، فبدون موافقتها، ما كنتَ لتحظى بموافقتي.

خلف المظهر المثالي لمجتمع السلطة، كان الواقع المغربي فجاً. واقعٌ مصنوعٌ من تناقضٍ فاحش: بذخ وإسراف وتعسّف المَخْزن، وبؤس الشعب وحرمانه من الحقوق. ويوماً بعد آخر، تفاقم «الشرخ الاجتماعي» وهنا نستخدم تعبيراً بات شهيراً. تناسجت علاقاتٌ وثيقة بين رجال الملك ووسط الأعمال. أراد العسكر أن ينبّهوا الحسن الثاني إلى هذا الانحراف الخطير. وكلّفهم ذلك رقابة أكثر صرامة من قبل جهاز SSS الذي يديره رسمياً الجنرال مولاي حفيظ. رسميّاً، لم يكن هذا الأخير سوى وزير التشريفات والديوان الملكي، ولكن، منذ أواخر 1969، بات تجريد أوفقير من صلاحياته فعلياً على نحو متزايد. تحييدٌ متصاعد نسّقه بشكلٍ رئيس الملك ونفّذه العقيد الدليمي والجنرال مولاي حفيظ. بعد قضية بن بركة، وثمانية أشهر من الحبس الاحتياطي في باريس، استعاد الملكُ الدليمي، المساعد السابق لأوفقير. لدى عودته إلى المغرب، عيّنه الحسن الثاني محافظاً بلا تخصيص في وزارة الداخلية كنوعٍ من فقدان الحظوة غايته تهدئة أوفقير الذي لم يغفر لمساعده السابق تجاوزه في القضية ولعبه فيها لدور حصان طروادة للحسن الثاني. ثمّ بدأ القناع بالسقوط حينما عيّن الملك العقيد الدليمي مديراً لديوانه العسكري. وأخيراً، حينما قدّم له الملك إدارة الأمن الوطني، في عام 1970، تصاعد الشكّ عند أوفقير. وحدها السذاجة أو سوء النية قد تشكّك في أنّ السيّد المطلق للمغرب هو الحسن الثاني. ومن ثمّ ودائماً بالدهاء ذاته، ثبّت الملك العقيد الدليمي كرئيسٍ للاستخبارات الخاصّة والبوليس السياسي، ووحدات الكاب، التي

كان العقيد يديرها فعلياً منذ فترة. ولكنّ الملك أصرّ على تسمية الجنرال كرئيس وحيد لجهاز «الاستخبارات» وكرمزٍ منظورٍ للقمع.

وإذا كان أوفقير قد أصلح قوات الأمن ومُنِح سلطة جهاز قمعي منافس، فإنّه لم يكن السيّد الكلّي القدرة مثلما أراد القصر والمعارضة على حدٍّ سواء أن يخلقا تلك القناعة. كان ذلك السياق الملكي يدخل ضمن حسابٍ سياسيٍّ معقّد وبارع: استخدم الملك العسكر لإقامة سلطته، وأثار حميّتهم بتذكيرهم الدائم بالقسم المقطوع لمحمد الخامس بالدعم الأبدي للنظام الملكي. أوهمهم الحسن الثاني بأنّه يشاطرهم الرؤية في عرشٍ قويّ، ومغربٍ حديثٍ، مناصرٍ للغرب. بالنسبة للجيش، كان الأمر يتعلّق بالرشاد في عدم إفساد الانتصارات المتحقّقة على الإيديولوجيا الماركسية أو الاشتراكية العروبية الناصرية. كان يعتقد، بحقّ، بأنّ الظلم الاجتماعي الفاضح لا يؤدّي سوى إلى تعزيز الأرضية الثورية وأنّ القمع سرعان ما سيبلغ حدوده. غداة الاستقلالات الأفريقية، اندلعت صراعات أخوة للاستئثار بالسلطة. وفي أغلب الأحيان، ساندت الكتلة الشرقية معسكراً، وساند الغرب الآخر. ودائماً، الشعوب هي التي دفعت، أكثر من النُّخَب، الثمن الباهظ. اجتناباً لحربٍ أهلية في المغرب المستقلّ، تحمّل العسكر، عبر القوّة، مسؤولية إقامة عرشٍ مطلق. ولكن الضباط الأكثر قرباً من الملك شعروا بعد ذلك بأنّهم يُهانون صراحةً من خلال الاستغلال الذي يمارسه الحسن الثاني لتضحياتهم. وإذا كان الجنرالات يتساءلون على حِدة، فإنّ بعضهم من أمثال أوفقير أبلغوا الملك بالنهب المفضوح للبلاد من قبل أقليّة من المتنفّذين. ومن هنا جاء فقدان الحظوة السرّي.

كان الحسن الثاني يقظاً ومحترساً. شدّد الدليمي ومولاي حفيظ الطوق الذي أخذ الملكُ به أقربَ العاملين في خدمته. ولإخفاء فقدان الثقة الذي فرضه عليه، أوهمَ الملكُ المغاربة بأنّ الجنرال يحكم. في الحقيقة، لم تكن لأوفقير من سلطةٍ سوى التنفيذ الحرفي لأوامر العاهل.

لم يمتنع الحسن الثاني عن أن يكلّف وزير داخليته بالمهمات الأكثر «انتقاءً»، الأكثر شُبهةً. حريصاً على أن تراقب وحدات SSS كلّ عملية وتنفيذها. مارس الحسن الثاني دوره كعاهلٍ مطلق: أقصى منافسيه، وأخضع أقرب وكلائه من خلال الوصفات القديمة لجهاز المَخْزن والتي يُعدُّ العطّار الموهوب في إعدادها. ما لم أفهمه قط هو كيف أمكن لأبي أن يكون بتلك السذاجة ليصدّق بأنّ ما كان يقود الحسن الثاني للتصرّف بتلك الطريقة لم تكن سوى أزمات عابرة لإثبات شخصيته. لم يكن يفقد الأمل من رؤية الملك يعود إلى تقارير الإصغاء والثقة التي كانت تقدّس علاقات محمد الخامس بأوثق مساعديه.

على أيّ حال، ثَقُل الجوّ في سراي السلطة بانتظار أن يصبح خانقاً.

انتظرتُ الصيف على أحرّ من جمر. في بداية حزيران (يونيو)، ذهبنا لقضاء جزء من العطلة الصيفية لأوّل مرّة في اسبانيا. سمحت لنا أمّي بأن نصحب معنا أقرب أصدقائنا. وكان من بينهم نجل محجوبي أحرضان، الزعيم البربري والوطني الرائد، وهو صديق قديم ووفي لوالديّ، ونجل ابراهام السرفاتي، زعيم خلية ثورية ماركسية وعدوّ لدود للنظام. وقد تسبّبت صداقاتنا بتوجيه الحسن الثاني ملاحظات لوالدي.

لم يكن الجوّ السياسي السائد في المخْزن غريباً عن هذه الرحلة. ولأننا لطالما استمتعنا بالشواطئ الرائعة للمملكة، وخاصّة بشواطئها المدهشة للساحل الشمالي، لم يثر ذلك حماستي لأكتشف ما يحدث ما وراء مضيق جبل طارق. ولأنّه كان عليّ أن ألتقي في أواسط حزيران (يونيو) بستيف وزوجته في فرنسا من أجل تصوير فيلم مانس، طمأنتني أمّي، قائلةً:

- لا تقلق، ستنضمّ إليهما في أسبانيا!

أخيراً جاء حزيران (يونيو). استُقبِلنا من قبل العقيد سيمانكاس في

مطارٍ عسكريٍّ في أطراف مدينة مَلَقه. في طفولتي، كنتُ أناديه «عمّو» سيمانكاس، معتقداً بسذاجة بأنّه يرتبط بوالدي بروابط عائلية. هذه المرّة، اكتشفتُ وظيفته: إنّه عقيدٌ في الاستخبارات السرّية الاسبانية زار والدي مراراً عديدة خلال عام.

سحرتني شبه الجزيرة الإيبيرية. لم تمنع فظائع عهد فرانكو هذا الشعب من أن يكون ودوداً وخفيف الروح ومرحاً قدر المستطاع. لم تكن ماربيا بعد سوى قرية محاطة بمطاعم ريفية جبلية. كان بيتنا يبتعد عن البحر خمسمئة متر، نصل إلى الشاطئ سيراً بمحاذاة غابة من أشجار الأوكالبتوس. وسط تلك النباتات، شاهدتُ جماعة «سُيّاح» تبيّن أنّها مكوّنة من شرطيين أسبان مكلّفين بحمايتنا. حراسةٌ فاعلة ولكنّها خفيّة. أعددنا في المرأب مهجعاً للعطلة لأنّ البيت كان مكوّناً من غرفتين فقط في حين كان عددنا، مع أصدقائنا، حوالي خمسة عشر شخصاً. والطريف أنّ والدتي عرضت، عشية اختطافنا في عام 1972، على أصدقاء أسبان الإقامة مؤقّتاً في ذلك المنزل الذي استولوا عليه!

وسأحتفظ على الدوام بذكرى خالدة من تلك الزيارة لماربيا. استعدتُ ذكريات الأسبوعين اللذين قضيتهما في إسبانيا في سجني. وفي كلّ مرّة فكّرت فيها، عاودتني المسرّة ذاتها. مع ذلك ألقى حادثٌ بظلاله على تلك العطلة الجميلة. قبل ثماني وأربعين ساعة من توجّهي إلى فرنسا، أرغمني فيروس نادرٌ في الرئتين على العودة إلى الرباط. منعني الطبيب من ركوب الطائرة. فَأحبط موعدي مع ستيف. أغاظني ذلك، ولكنّ الحمّى البطاحية غيّرت مجرى غضبي. تلقّيتُ رسائل من صديقيّ الأمريكيين، في رأس كلّ ورقة منها صورة لسيارة بورش 917 خارجة من منعطف، يمنح مصباحاها المزدوجان عدوانية حيوانٍ متوحّش. وقرأت تلك الرسائل معتصر القلب. واساني ستي؟ ونيل، وكتبا إليّ: «هذا تأجيلٌ ليس إلاّ!»

ولكنني، إذ أعرف طوارئ حياتنا، خشيتُ من أن أفوّت فرصة قد لا تُتاح لي عمّا قريب.

لم أكن أتخيّل آنه، في أقلّ من عامٍ بعد ذلك، أحد أكبر زلازل تاريخ المغرب سيهزّ البلاد، ويفتتح مرحلة مفصلية من نضجي. إنّها السنة التي قرّبني فيها والدي منه. أصبحتُ، في أوقات فراغي، سائقه الخاصّ. ومنذ ذلك الحين، سينظر رجاله والمحيطون به إليّ بطريقة مختلفة. شعرتُ بأنني قطعتُ مرحلة إضافية في تدريبي. شجّعتني ثقة أبي وأسعدني هذا الشعور. تعلّمتُ أن أتّخذ الهيئة الجديرة بترفيعي. لم يصاحب المخلصان إدريس وبوطويل نضجي فحسب بل كانا معلميّ أيضاً. لم أُبلغ بذلك إلاّ متأخّراً، بفضل مرافقي أبي الذين باتوا يتحدّثون إليّ بثقة. ومولاي علي بنفسه هو الذي، على سبيل السرّ، أفشى لي ذلك بإسلوبٍ لطيف:

- يتكلّم الجنرال بانتظام مع إدريس وبوطويل. أعلم أنّهما من الأشخاص الجيّدين ويحبّانك كابنهما، ولكنّني أردتُ فقط أن تعرف ذلك، هذا كلّ ما في الأمر!

الأمر الوحيد الذي أعرفه هو الأوامر الصريحة المحدّدة لمجال تدخّل إدريس وبوطويل. منذ سنوات، لم يكفّ «حارساي الملاكان» عن إقلاقي بها: عليهما ألاّ يدافعا عنّي إلاّ إذا كنتُ ضحية اعتداءٍ ذي طابعٍ سياسي. عليهما ألاّ يتحرّكا، بأيّة حالٍ وتحت أيّة ذريعةٍ، إن كان الأمر يتعلّق بشأنٍ خاصّ، بمشاجرةٍ في الشارع أو مشكلة خاصّة بالحياة المدنية. ولن يخالف إدريس وبوطويل هذه التوصيات أبداً. لأكثر من مرّة، عدتُ إلى البيت، وقد جُرِحتُ جروحاً ليست خفيفة، وإن أصبح معظم «ملاكميّ المدرِّبين السابقين» من أصدقائي الحقيقيين.

في أسوأ حالات تمرّد مراهقتي، وعناد فتوّتي، وضعتني حجّة وحيدة من مرافقيّ على الطريق الصحيح:

- قبل أن تسيء التصرّف وتطلق لنفسك العنان، فكّر في ما ستتسبّب

به من متعة لخصوم والدك ولكلّ هؤلاء الممالقين الذين يغارون من علاقاتكم مع العائلة الملكية!

ذكر لي إدريس وبوطويل باغيرا وبالو[1] في كتاب الغابة *(the Jungle)*. ولم يكفّا قط، وهما يرافقانني في غابة المَخْزن، عن تحذيري من العالم الذي أتطوّر فيه:

- هل تعتقد أنّ كلّ هؤلاء الناس المحيطين بك سيدومون؟ افتح عينيك. والدك ليس الرجل الذي يموت في فراشه! يمكن للحكايات الخارقة أن تنتهي في لحظة أو أخرى. الملك مدينٌ كثيراً للجنرال ببقائه على قيد الحياة... في اللحظة التي ستنهار فيها كلّ هذه الواجهة، لن يبقى لك من الأصدقاء سوى الحقيقيين! وكلّ هؤلاء الذي يتملّقونك اليوم، لن يقولوا لك حتى صباح الخير. والذين سينقضّون عليك بضراوة، سيكون أكثر مَن أحسن إليهم والدك ووالدتك. حينما ستتبدّل الأحوال، ستكون تلك هي الطريقة الوحيدة ليتناسوا أنّهم مدينون لكم! فكن جدّياً وصاحياً. أيّاً كانت مشاريعك في الحياة، لا تعتمد إلاّ على نفسك.

---

(1) باغيرا فهدٌ أسود، وبالو: الدبُّ أسمر وهما شخصيات كتاب «الغابة» الشهير. المترجم

الفصل العاشر

الحياة في لحظات مغايرة

ابتسمتُ، وأنا أحدّق في سقف زنزانتي. لم يكن إدريس وبوطويل يعرفان إلى أيّ حدّ كانت مواعظهما منذرة. في مأوى المحتضرين هذا، عليّ ألاّ أعتمد سوى على «أنا». واصلتُ عرض ذكرياتي، وتركيزي لكي أستعيد وضوح الصور. اتّخمت، في الحلم، بكلّ الأطباق المدهشة التي طبختها لي ذاكرتي. وسال لعابي لها.

كنتُ لا أزال ألتذّ بولائمي الافتراضية، حينما ردّد الجدار الذي يفصلني عن حليمة وعاشورا أصداء ضرباتٍ ملحّة ومتكرّرة. إنّه إنذار! ودوّى الإنذار بالخطر في جميع الزنازين. دخل الحرّاس في الحجرة الفاصلة. وسرعان ما سُمِعَ ضجيج وقع الجزم العسكرية على الممرّ الإسمنتي. إنّها بداية فترة ما بعد الظهيرة، وليس من عادة سجّانينا أن يدخلوا في هذا التوقيت: لا بدّ إذاً أنّ هناك حدثاً خطيراً. غصتُ تحت حشيّتي لأفحص البلاطة التي تخفي مجموعة إنقاذي.

- أُفٍّ! إنّها ثابتة! قلتُ في نفسي، حينما سمعتُ صليل حزمة المفاتيح.

فتح الحرّاس الباب الأوّل، وأصبحوا في الشرفة المسوّرة التي تُعدُّ نظّارة زنزانتي. أثارت رنّة أصواتهم شعوراً غريباً في داخلي. وبّخ بورو ضابطَ صفٍّ تأخّر في فكّ السلسلة والقفل النقّال المضافين إلى القفل المصفّح. طنّت أُذناي. تسارع نبضي. أسندتُ ظهري إلى الجدار المقابل

للباب. مع صرير المفاصل، لفح شعاعٌ حقيقيٌّ من الضوء جسمي تماماً. وضعتُ يدي على عينيّ. قطّبتُ جفنيّ، ولمحتُ على نحوٍ غامضٍ خيالاً ضخماً في إطار الباب. الهواء النقيّ والنديّ الذي اندفع في حفرتي جعلني أنتشي إلى حدٍّ أطار صوابي. تذكّرتُ النظام وانتصبتُ لا إرادياً. مررتُ إحدى يديّ من بين شعري الطويل، وأخفيتُ كفيّ المتّسختين، المخدوشتين، المجروحتين. لم أرد أن يروا أظافري السوداء المتّسخة. ظلّ بورو على عتبة باب الزنزانة. اشمئزّ السجّانون. جرف التيار الهوائي العفونة النتنة لمغارتي. بدا المقدّم يتفحّصني من قمّة رأسي حتى أخمص قدمَيّ. لجأت إلى كلّ عزّة نفسي لأحاول أن أنفخ صدري وأبدو أبيّاً، ولكن كلّما نفختُ جذعي، انفجرتُ في نوبات سعالٍ جعلتني أنحني على نفسي. تشبّثتُ بالجدار لأبقى واقفاً. حينما رأوني ألفظ رئتيّ، تراجع بورو وزمرته خطوة إلى الوراء، مع برطمةٍ، اشمئزازاً في جانبٍ منها وذعراً من جانبٍ آخر، مبتعدين كما لو أنني مصابٌ بالطاعون. خاطبني المقدّم، باقتضاب:

- غداً يصادف عيد ميلاد الملك. سمحت لكم الرباط أن تلتقوا بعضكم. ستُجمَعون في بداية فترة ما بعد الظهيرة في زنزانة البنات!

صُفِق الباب الأوّل الخشبيّ في ضجّة مخنوقة. ثم تلاه الباب الثقيل المصفّح وأخيراً الباب الثالث، باب الشرفة.

سيكون الأمر الأكثر فظاعةً هو الانتظار والاستعداد للقاء أهلي. لقد انقضت ثلاث سنوات لم أر خلالها وجوههم.

في الليل، نشرنا التجهيزات. أبلغتني أمّي وأخواتي، بصوتٍ يرتعشُ انفعالاً، لهفتهنّ. لم تكن فرحة لقائنا خالية من المخاوف. لم يفلح أيٌّ منا في أن ينام. حرمتُ نفسي من شرب الماء لتوفيره للاغتسال جيّداً. وددتُ أن أكون لائقاً وبمظهرٍ جيّد حينما أهمّ بالخروج من حفرتي لأعبر الممرّ الذي يؤدّي إلى زنزانة أخواتي. ستتطلّب بضعة الأمتار هذه بعض

الخطوات، ولكن بشكلٍ خاص ستتطلّب جهداً كبيراً أبذله على نفسي! لم أعد أعرف ماذا يعني التحرّك في الهواء الطلق. قد يتسبّب الظهور من جديد تحت الضوء بعد ثلاث سنوات قضيتها في قبرٍ باختلالاتٍ في التوازن والاتّجاه. وددتُ أن أتأكّد من أنني لن أضعف أمام جلاّدينا. سوف تتلقّى الرباط تقريراً مفصّلاً عن أدنى حركاتنا. وبعد ستّة وثلاثين شهراً في الزنزانة، يتوقّع جلاّدونا المعذّبون بالتأكيد أن نزحف أمامهم ونتذلّل لهم.

فتدرّبتُ في زنزانتي على لقاء اليوم التالي. شرعتُ في التفكير في التصرّف الذي عليّ أن أبديه أمام خفرائنا أكثر من التصرّف الذي سأبديه لدى عند لقائي بعائلتي. انتظرتُ منذ الفجر. استفدتُ من ذلك لتنظيف خراجي، وقمتُ بأفضل ما هو ممكن لئلا يصدم الورم الذي يشوّه وجهي أهلي كثيراً. لم آكل ولا الآخرون أكلوا. احتفظ كلٌّ منّا بجرايته المسائية من الخبز لكي نزيّن لقاءنا بوجبة خفيفة. أنهكني الجوع والأمراض وانعدام النوم. تقيأتُ أحشائي.

كانت أعصابي متوتّرة. هل سأكون بمستوى الحدث؟ كيف ينبغي أن أتصرّف حتى تكون هذه اللحظة أقلّ ما يمكن صعوبة على أهلي؟ لأتأكّد من أنني لائق المظهر، حاولت أن أشاهد صورتي في الغطاء الألمنيومي لعلبة معدنية. من المفروض أننا سنجتمع في بداية فترة ما بعد الظهيرة. وحين اقترب موعد اللقاء، لم أستطع منع نفسي من أن أكون مضطرباً وقلقاً:

- وإن لم يكن هذا سوى مناورة لا أكثر لتحطيم معنوياتنا؟ ربّما لن يأتي أحدٌ، ولن يُفتَحَ هذا الباب الهالِك أبداً!

أصبح الانتظار لا يُطاق. دُرتُ حول حشيّتي. مشيتُ، ولكن دون أن يكون لمشيتي الإيقاع والقوّة الاعتياديان. لم يتعلّق الأمر بارتعادي الاعتيادي الذي يُنهِك الجسد ليحرِّر الأفكار. لم أشأ أن أترشّح عرقاً. ولا

أن أفكّر في أيّ شيء غير لقائنا. اقترب الموعد. من تحت باب زنزانتهنّ المصفّح، تناوبت البنات على مراقبة نهاية الممرّ الذي يعبر الباحة، ومدخل الحجرة الفاصلة التي يصل منها سجّانونا إلى مربّع الضيوف.

بلغت الساعة نحو الثانية بعد الظهر. ودائماً لا شيء في الأفق. جُعلنا ننتظر عبثاً. بدأت أتحسّر لكوني قد أُزعجتُ في مغارتي وشوِّشَت وحدتي. لقد علّمتني سنواتٌ من العزلة المطلقة، مدفوناً في هذا السرداب، البقاء بعناد، ومقاومة الموت رغماً عن نفسي. والحالة هذه، كدتُ أستخدم ميّزاتي في مناظرة الأخوة هذه. في قلب الألم والحرمان والشقاء، قدّرتُ فقط أنّ نهاية احتضاري البطيء قد تكون انبعاثاً. ولاستخدام هذه الكلمات لهنري ترواريا، كنتُ «أموت لأولَد من جديد على نحوٍ أفضل»! هذا اللقاء، المرغوب فيه كثيراً من قبل الأخ، يزعج السجين المؤبّد الذي أصبحت؛ إنّه يحصل بينما لم يُنهِ «خيمياءُ الجحيم» عمله.

جعلتني ضرباتٌ على الحائط أنتفض. إنّه الرمز المتّفق عليه في حالة الإنذار. متهيّج الحواس، ممدّداً على ساقيّ مثل كلبٍ متربّصٍ، أصختُ السمع. استنشقتُ، بحاسّتي للشمّ المسنونة بالحرمان، الهواء بحثاً عن العلائم. سمعتُ أوّلَ ضجيجٍ، ثمّ ارتجاجات نصف دزينة من الحراس المتلازمين. بدأتُ أسمع بوضوح صليل حزمة المفاتيح. يا إلهي كم كرهتُ ذلك الضجيج الذي جعلني أفكّر في ضحكة الإبليس! المفاتيح المتلاطمة، وأنين المغاليق وشهقة الأقفال النقّالة وأزيز مفاصل الأبواب اعتصرت قلبي، وشنّجت فكّيَّ وكزّزت جسدي. مستجمعاً قواي، وقفتُ وسط زنزانتي أنتظر أن ينفتح باب زريبتي.

حينما دلف الضوء، اجتاحتني رعشة. كانت الأمتار الأربعة من الشرفة المسوّرة مغطّاة بالغبار وبعر الفئران. بخطوتين، وجدتُ نفسي في إطار آخر باب. توقّفتُ على درج المدخل. أربكتني ومضةٌ متوهّجة: إنّها زرقة السماء. استندتُ إلى الحائط. انغلقت عيناي في الحال. سالت

دموعٌ ناجمة عن الانبهار على خدّي. مسحتُها بحنق، غير راغبٍ في أن تُفسح مجالاً للتأويل. اجتاحت حرارة عذبة جسدي المبتلّ بالرطوبة حتى العظام. شعرتُ، مغمض الجفنين، وكأنني أحتضن الشمس. الحقُّ يُقال، لن أنسى أبداً المتعة الحسّية والجسدية التي غمرتني في تلك اللحظة. استمتعتُ بتلك اللحظة الهاربة من الزمن. أحسستُ بأنني أرفع الكلفة مع الأبدية. لا شكّ أنّ هذا ما يُشعَر به في الفردوس. حطّت يدٌ بين لوحي كتفيّ، لم تدفعني وإنّما دعتني إلى التقدّم. نزلتُ الدرجات الإسمنتية الثلاث واضعاً يدي فوق عينيّ. من خلال أصابعي، لمحتُ أطرافاً من الباحةِ وأذيال ألبسةٍ عسكرية، وأجزاءً من أشجار التين. شعرتُ أنني خلف كاميرا، تشوّه عدستها، التالفة، المشهد. منحني ذلك الهيئة واللاإكتراث اللذين يعاني منهما صحافيٌّ كبير يراقب أهوال العالم وعجائبه من خلال عين آلته السحرية. ساحرة لدرجة أنّها تُقنِعك بحياديّة واقية وتوهمك بأنّك معصومٌ وحصين. استجمعتُ كلّ قواي لأسيطر على ساقيّ اللتين لم تعودا تعرفان ما هو السّيرُ المستقيم. بدت لي الأمتار العشرين التي تفصلني عن زنزانة أخواتي بطول شارع شانزيليزيه. أحسستُ في كلِّ خطوة وكأنّ الأرض تتمايل مثل جسر مراكب. ترنّحت. فسندت يدٌ مرفقي. تخلّصتُ منها بقسوةٍ لم تخفِ لا سُخطي ولا احتقاري. وسحب الضابط في الحال سنَده. مع أنني كنتُ مبهوراً ومخنوقاً، جهدتُ لكي أثبت أنني ما زلتُ حيّاً. استفدتُ من ذلك التوقّف لبضع ثوانٍ، لأتيح الوقت لجسمي لكي يعيد استيعاب الثوابت الطبيعية التي نسيها منذ أمدٍ طويل. طوال الممرّ الذي يؤدّي إلى زنزانة البنات، رافقني السجّانون الثمانية، متردّدين، شبه متضايقين، متنبّهين لردود فعلي. الاندهاش هو ما سيطر في نظراتهم. لا بدّ أنّهم تساءلوا كيف استطعتُ أن أنجوَ خلال هذه السنوات الثلاث من الصّلب. فكّرتُ مليّاً، وتردّدتُ بعد ذلك، مثل طفلٍ يخطو أولى خطواته، ووثبتُ دفعةً واحدة. لم يشكُ مسار قفزتي، وإن لم يكن ثابتاً ومستقيماً، إلا من بعض التموّجات التي حاولتُ ضبطها دون

لجم اندفاعي. أردتُ بلوغ نقطة وصولي قبل أن تخور قواي.

عذّبني خراجي، وأنهكتني الحمّى. خشيتُ من حالات الغثيان الدائمة التي زاد منها سيلان القيح الذي تدفّق في فمي. أقلق الصداع النصفيّ أوقاتي. وخرّت رئتاي كرئتي مصابٍ بداء الربو متقدّم في السنّ. بذلتُ جهداً يفوق طاقة البشر لكي لا يتجلّى أيٌّ من هذه الأمراض أمام سجّانينا أو يُجازف برغبتي في الظهور بمظهرٍ لائق. كان بورو وضابطان على عتبة زنزانة أخواتي. أبقى المقدّم يده على مقبض الباب. أخيراً، أدركتُ، مرتاحاً، الهدف! نظر إليّ بحدّة. وراء اللامبالاة التي فرضتها الرباط عليهم، شعرتُ بحنانٍ دفين.

من وراء الباب، سمعتُ أهلي الذين يضجّون بالتلهّف ونفاد الصبر. طلب المقدّم من نقيبَي الخدمة أن يضبطا توقيت ساعتيهما:

- الساعة الآن هي الثانية والنصف، يحقّ لكم أن تجتمعوا حتى الساعة السادسة والنصف. ولأنكم لا تملكون ساعات، ستسمعون أحد الحرّاس في المراقِب يصفّر في الساعة السادسة والربع. وهذا سيمنحكم ربع ساعة لتستعدوا للعودة إلى زنازينكم!

أخيراً، فُتِح الباب لي. فكان الانفجار. وجدتُ نفسي بين ستّة أزواجٍ من الأيادي. قبّلتني أمّي وأخواتي وجسسنني وشممنني. ذرفت خدودهنّ المبلّلة، الموضوعة بحنانٍ على كتفيّ، دموعاً مريرةً، جرت، لامعةً، على عنقي. لاحتواء هذه الشدّة، ودون إدراكٍ منهنّ، انغرست أظافرهنّ في جلدي. غطّت قبلاتٌ مرتعشة جبيني وخدّيَّ ويديّ. لم أسمع سوى النحيب المختنق، وأنّات حيوانٍ جريح، وكلمات «ابني، ولدي العظيم، أخي العزيز!» تتخلّلها الشهقات. كان لقاؤنا أكثر من قاسٍ.

أربك المشهد بورو ورَهْطه. والحرّاس الأكثر قسوة تأثّروا بتلك اللوحة المحزنة. عند إعادة إغلاق الباب، همس بورو لزميله النقيب شفيق:

- فليسامحنا الله!

لا أعلم أين وجدتُ القوّة لئلاّ أفقد رشدي. كان التأثّر بالغاً إلى درجة أنني لو أطلقتُ العنان لنفسي، لما فكّرت في قدرتي على الاندماج بالعالم الواقعي مرّة أخرى. ولكنّ آليات البقاء التي علّمتني إياها العزلة أصبحت راسخة، متينة، لاحتواء الانقضاض الهائج لمشاعري.

نظر الجميع إليّ، مذهولين. رفعت أمّي يدها إلى فمها وهي تمسك بالحائط، وكأنّها تتضرّع إلى السماء لتعيد إليها ابنها الحقيقي، الذي تعرفه وليس هذا الهيكل العظمي المخلّع في مشيته ذا الوجه المتقيّح والمتضخّم.

بعد هذه الحيرة القاسية، تمالك كلٌّ واحد نفسه. وأصبحنا من جديد مقاومين. كان تمرّدنا قوياً وكأنّه يفلت من عقاله، ويغدو عُتهاً. بعد أن خمد انفعالنا، جلسنا جميعاً في كتلة، ممسكين بأيادي بعضنا كأننا كنّا نخاف من أنّ هذه اللحظة ستتلاشى مثل سراب. كانت حالتنا مؤثّرة جدّاً بحيثُ وحدها الفكاهة يمكنها أن تغطّي وجهها القبيح. أدلى كلٌّ بدلوه ليلطّف الجوّ. سخرنا من أنفسنا، من أخيلتنا الطيفية، من وجوهنا الشبحية. أفرغنا ويلاتنا في ضحكاتٍ مجنونة وحدها الأوضاع الشديدة يمكنها أن تحدثها. مع أننا كنّا نعرف تماماً بأنّ اجتماعنا سينتهي، لم يفكّر أيٌّ منّا في أيّ شيءٍ سوى الاستفادة من هذه الساعات القليلة. مستلقين جنباً إلى جنب، نسينا العالم أكثر مما هو نسينا. عشنا البرهة الراهنة دون التفكير في اللحظة القادمة. شكّلنا فقاعة حبٍّ، منيعة حتّى وسط نيران الجحيم!

إذا كانت الساعة الأولى مليئة بالغبطة والنشوة، فقد فزعنا جميعاً من الصمت الذي ساد والذي كاد يُغرق كلاً منّا في أفكاره. كان علينا أن نجتنب التفكير والتعمّق. والطريقة الوحيدة للتخلّص من ذلك، هو أن يتناسى كلٌّ منّا نفسه وألاّ يفكّر إلاّ في الآخرين، ويذوب وسط المجموعة كالبنيان المرصوص.

لتبديد تلك الحيرة وإحياء الحديث، قالت أمّي:

- مرّ ملاك.

- لا أظنّ أنّ هناك ملاكاً بهذا القدر من البلاهة، ليتنزّه هنا!

أنعش ردّي الجو. ضحكنا عن طيب قلب. ارتديتُ بعض الأسمال، وصفّقت أمّي وأخواتي وغنّين. وضعتُ غطاءً على عينيّ، بحيث تصنّعتُ نظرةً محتشمة وفزعة، وقلّدتُ الراقصات البدينات اللواتي يهززن بطونهنّ في الأحياء الشعبية للقاهرة. فانفجرت نوبة من الضحك الجنونيّ الشديد لدرجة أنّه بات موجعاً. رجَتني أمّي، وهي ترتجّ ضحكاً، أن أتوقّف. وأمسكت مليكة بخدّيها لتدارك تشنّجاتها. وتدحرجت أخواتي الأخريات على الأرض ضحكاً. بمن فيهنّ مريم الشاحبة كالموتى، والتي تعيش باستمرار ممدّدة، والمرهقة دائماً من شدّة الألم.

أخرج كلٌّ منّا ذخيرته من الخبز من تحت أسماله. أعدّت لنا مليكة مفاجأةً. كانت قد خزّنت، مع شقيقاتي، بصبر وأناة أوقيّة من الطحين، وزجاجة زيتٍ صغيرة، وبضع قطعٍ من السكّر! كانت أمّي والبنات قد حرمن أنفسهنّ من جرايتهنّ الشحيحة لأجل ذلك. وطهت حليمة وعاشورا هذا الطحين بنار الحطب. أضفنا إلى هذا المسحوق المسمرّ قليلاً من الزيت الحامي والسكّر وتناولنا هذا الدبس بشراهةٍ وتلذّذ. كنّا، جالسين متحلّقين ومتربّعين في وسط الزنزانة، في غمرة المأدبة، حين سمعنا فجأةً صوت باب الحجرة الفاصلة. صرخت سُكَيْنة:

- دخلوا! دخلوا!

اجتاح ضجيج الجزم العسكرية المسرعة الباحة، وهزّ الممرّ. وليزيدوا من رعبنا، صرخ بورو ورجاله. انقضّوا على الزنزانة التي كنّا مجتمعين فيها. حينما فتحوا الباب، نهضنا كرجلٍ واحد: وقف الكبار كدرعٍ أمام الأصغر من بيننا. لشدّة عنف الهجمة، بذلنا جهدنا لنبدي وقار مَنْ يتوقّعون الأسوأ. لم يصفّر أيّ حارسٍ من المراقِب كما كان متوقّعاً. والسبب: الساعة ليست إلاّ الرابعة. فمريم، حتى دون ساعة، لا تُخطئ الوقت، إنّها تقرأ الوقت حسب شعاع الضوء الذي يرسم، عبر القضبان، قطعاً إهليلجياً على البلاط. صرخ المقدّم:

- عودوا إلى زنازينكم فوراً!

أُخرِجتُ، ودُفعتُ بقوّة. نُقِلتُ إلى زنزانتي. أصمّ طبلةَ أُذني ضجيجُ الأبواب التي صُفِقت والسلاسلُ التي هسّت كألسنة الأفاعي والمغاليقُ التي صرّت والأقفالُ النقّالة التي ظلّت، بعد قفلها، تنوس على جدار الباب. كانت كلّ هذه الأصوات الحديدية العدّ العكسي الذي يسجّل عودتي إلى الظلمات. لقد دقّت ناقوس الجولات المرعبة التي تنتظرني. توقّف وقع الخطى والضجيج، وخيّم الصمت من جديد، وتلقّفني السواد والعتمة. جرى كلّ شيء بسرعة بحيث لم نستطع حتى أن نتعانق. لم أحتفظ سوى بصورة رؤوف وهو يتملّص من أيادي السجّانين ليحاول أن يلمسني بيده لآخر مرّة، ومليكة وهي تهمس لي قبل أن يقتادوني:

- كن قويّاً، نعتمد جميعاً عليك!

خائراً في ركنٍ من زنزانتي، تقوقعتُ على نفسي دون حراك.

كان الأسبوع الذي تلا اللقاء قاسياً، قاسياً للغاية. كان عليّ أن أستغرق في العزلةِ من جديد، وأن أستعيد بأسرع ما يمكن ردود الفعل التي تعلّمتها بصبرٍ وألمٍ في هذا الوضع العصيب للغاية. كان عليّ أن أكتم حالاتي النفسية وأكبحَ انفعالاتي وأتجاهل مشاعري. لم يكن عليّ سوى أن أعبّئ شراستي وخيالي وحنقي كي أنجو. لا مكان في هذه المعركة غير المتكافئة سوى للحزم والضراوة والمقاومة العنيدة. أمّا العطف فسيكون قاتلاً لي. أُضيف إلى كلّ هموم دفني الشكُّ المطلَق حول نهاية هذا الكابوس. ماذا سيحلُّ بنا؟ متى سنلتقي مرّة أخرى، هذا إن بقينا أحياء واستطعنا أن نجتمع ذات يوم؟ كلّما تراكمت السنوات، قسا نظام حياتنا. كم من الوقت أيضاً سنقاوم الجوع والعزلة والأمراض واليأس؟ وسط لامبالاة العالم، وتخلّي الجميع عنّا، والإرهاق الكلّي، من أين سنستمدّ القوّة المعنوية كي لا نموت في أغوار النسيان؟ أسئلة كثيرة مقابل

أجوبة قليلة جدّاً! مع ذلك، لا بدّ من المواجهة. لا يمكننا أن نعتمد إلاّ على أنفسنا. يمكننا أن نكون ألدّ أعدائنا، مثلما يمكننا أن نكون منقذينا الوحيدين.

أصبح اسمي، المعذّب، سبب معركتي، درعي ضدّ المحنة، وسلاحاً ضدّ حالات ضعفي الخاصّة. حينما أصبحُ على وشك الاضمحلال، أتذكّر كلمات إدريس وبوطويل: «قبل أن تُطلِق لنفسك العنان، فكّر في المتعة التي ستحدثها لأعدائك!» أصبحت صورة جلاّدينا المبتهجين جرعتي السحرية. لم أكن آستيريكس، ولكن في مغرب الحسن الثاني هذا، قاومنا كما قاومت القرية الولزية الصغيرة.

لزيادة الضغط علينا، أبلغنا بورو بأنّه، من الآن فصاعداً، سنخضع لثلاث حملات تفتيش أسبوعية. زار بورو وضابطان وضابط صفّ وثلاثة جنود زنازيننا، واحدة تلوى الأخرى، في أيام الاثنين والاربعاء والجمعة. أثناء تفتيش الزنازين، تجهّزوا بمصابيح الجيب، وسبروا الأرضية والجدران بضربات جزمهم العسكرية. استغرقت حملة التفتيش بضع دقائق ثم صفقت الأبواب، وابتعدت الخطوات وساد الصمت من جديد. عانينا في الأسبوع ثلاث مرّات القلق من أن تُكتَشَف مخابئنا تحت البلاط. الأمر الذي دفعنا إلى تيَقظٍ أهوس وإلى احتياطات مضاعفة.

استمرّ ضابطُ الصفّ الذي يساعدنا في المخاطرة بحياته ليرمي إلينا، كلّما أمكنه ذلك، ببعض البطّاريات والأقلام.

حافظنا بطريقة ما على الجهاز، الحبل السريّ الحقيقي. مزوّدين بشجاعتنا وبالوسائل البدائية، وضعنا علامات للأيام. وأصبح مقدّمو البرامج والصحافيون الذين استمعنا إليهم بشحٍّ في الراديو جزءاً من حياتنا. كانت تلك الأصوات من دون وجوه حاضرة أكثر مما يحيط بنا.

ذات يوم عثرتُ على برنامج لفيليب آلفونسي على إذاعة أوروبا واحد، مخصّصٍ لتاريخ الانقلابات العسكرية في المغرب، وسمعتُ

مقابلةً مع والدي، يعود تاريخها إلى 12 تموز (يوليو) 1971، أي بعد يومين من انقلاب الصخيرات. أثارني الاستماع إلى صوته في قاع تلك الزنزانة المشؤومة. ولكنّ سرعان ما استعادت ردود فعلي من أجل البقاء تفوّقها. لقد أغرقني صوته من جديد في شريط حياتي السينمائي. فتوالت المشاهد، وتدافعت.

الفصل الحادي عشر

حفلة المغضوب عليهم الراقصة

منذ الاستقلال، نشب صراعٌ لدود في سبيل الاستيلاء على السلطة. رهانه واضح: إنّه خيارٌ اجتماعي. إقامة الجمهورية الاشتراكية على النمط الشرقي من جهة، أو المَلَكية المطلقة، الموالية للغرب من الجهة الأخرى. والأولى والثانية تقصيان كلاهما الديمقراطية، وهما لا تقطعان، في هذا، مع المناخ الدولي السائد في تلك الحقبة. في غمرة الحرب الباردة، لم يكن أيّ من الكتلتين نموذجيةً في هذا المجال. عدا ديمقراطيات النصف الشمالي من الكرة الأرضية، كانت جميع بلدان العالم الثالث دولاً شمولية. وللأسف، لم يكن انتهاك حقوق الإنسان حكراً على المغرب وحده.

وإذا كانت الملكية لم تبخل في إيجاد الوسائل للقضاء على المعارضة، فإنّ هذه دافعت عن أفكارها الثورية ممتشقة السلاح، ساعيةً إلى اغتيال الحسن الثاني. وكان المهدي بن بركة قد صرّح، خلال تجمّع نظّم في 12 أيار (مايو) 1963: «إن الكفاح الذي نخوضه هو معركة ضدّ قلّةٍ من الخونة لا يتجاوز عددهم مئة أو مئتي شخص، سنستأصلهم حينما يمسك الشعب بإدارة شؤونه الخاصّة[1].» في سنوات السبعينات تلك،

(1) أوفقير، قدرٌ مغربي، مصدر سبق ذكره.

كسبت الملكية معركتها على نحوٍ حاسم ضد ألدّ أعدائها. فقد زوّد أوفقير النظام بجهازٍ قمعيٍّ رفيع الأداء والفاعلية. ولكن بين هذا وبين تصويره مهووساً يُشرف على التعذيب بنفسه، ثمّةَ بونٌ شاسعٌ قطعه البعض باستخفاف. كانت الغلطة ستكون غلطة والدي، لو أنّه أمسك بنفسه باللعبة. ربّما كانت رؤيته للناس وهم يتجمّدون لدى مروره تدغدغ ذاته العسكرية. وكان يجيب على أقاربه الذين يحذّرونه: «هذا هو الثمن الذي يجب دفعه لإعفاء جلالته من الانتقادات. لا بدّ أن ينصبّ حقدهم عليّ لكي يستطيعوا الاستمرار في تقبيل اليد التي تضربهم! فليحمّلوني قدر ما يشاءون، فأنا، بالمكان الذي أشغله، معَدٌّ لهذا الأمر؛ شريطة أن يجلّوا العرش وينحنوا أمام الملك.» كانت تلك هي الحال حينما كان أوفقير مؤمناً بمهمّته، حيث كان القَسَم المقطوع لمحمّد الخامس بتأمين دوام الملكية كهنوته. غير أنّ أوفقير، مع مرور السنين، حزِن وعانى المرارة، ولكنّه ما عاد باستطاعته أن يتصرّف. فات الأوان: انغلقت الشبكة التي نسجها بنفسه عليه. لقد منح للحسن الثاني جهازَ سلطةٍ مرعباً، وشرطةً فاعلة، وجيشاً محترفاً رفيع الأداء، ليجد نفسه في النهاية وقد أُزيح عن القرار من قبل ملكٍ يريد أن يحكم حسب هواه، ودون أدنى حدٍّ للعدالة الاجتماعية.

في سنة 1971 تلك، وبفضل أوفقير والعسكر، قمع الحسن الثاني معارضته وأخضع المملكة لسلطته. سُحِقَ اليسار المغربي. وحينذاك وجد العرش والجيش نفسيهما في مواجهةٍ مباشرة. أراد الحسن الثاني أن يكون «الملك-الشمس» لكي يتصرّف بالمغرب وثرواته حسب هواه. أمّا العسكر فأرادوا دولةً قويّةً مع مجتمعٍ متوازنٍ مستندٍ إلى الطبقة المتوسّطة. وإذا كانوا قد عرّضوا حياتهم للخطر لكي يدافعوا عن الملكية ويفرضوها، فقد أرادوا أيضاً أن يرشّدوا استخدام القوّة. فما لم يبرّروها بنجاحٍ اقتصاديٍّ واجتماعيٍّ، فلن يستبقي التاريخ من صنيعهم سوى القمع. اعتقد أوفقير وقادة الجيش أنّ المغرب، منذ اضطرابات الدار البيضاء في عام 1965،

قد فشل في امتحان الاستقلال. وقد عبّروا عن تبرّمهم وضجرهم: «لقد فوّتنا الفرصة المناسبة!» بدا الحسن الثاني، في سنة 1971 تلك، وقد كسب المباراة ضدّ الاشتراكية الثورية، وشرع بمباراةٍ أخرى ضدّ العسكر الأكثر قرباً منه، الذين خدموه، حتى ذلك الحين، بلا تبصّر، لأنّ همّهم الوحيد كان منح المغرب قاسماً مشتركاً: عرشٌ قويٌّ راسخ. وكصنّاعٍ لملكية مطلقة، أغاظهم على نحوٍ متزايد السلب والظلم الاجتماعي، معتقدين بأنّه يمكن للبلد أن يكون غير ديمقراطي دون تبديد واختلاس الأموال العامّة، وإحباط الطاقات البشرية أو نهب الثروات وإغراق الشعب في البؤس والفاقة. ارتكزت قناعتهم، احتذاءً بالنموذج الأقرب، على تونس بورقيبة، التي حقّقت، بنظام الحزب الواحد ومن دون ديمقراطية، بعض النجاحات في مجال التعليم والصحّة والاقتصاد والتنمية وحقوق المرأة. بل تجاسر أوفقير ذات يومٍ ليقول للملك:

- سيّدي، إن لم تصمّموا جلالتكم على وضع حدٍّ لشهوات هؤلاء الذين ينهبون الدولة، فلا تعتمدوا بعد الآن، إذا ما انتفض الشعب، على الجيش لإخماد هبّته. اطرد كلّ سارقي هذا البلد، إنّهم سيصبحون قريباً أكثر عدداً من الناس الشرفاء!

أقلقت انتقادات وزير الداخلية الحسن الثاني يوماً بعد آخر. وبعد أن قطعه عن صداقاته الفرنسية العديدة، وانتزع منه الاستخبارات الخاصّة مع إبقائه رسمياً على رأسها، أراد الملك أن يوازن التأثير الذي يحتفظ أوفقير به داخل الجيش.

لفترة من الوقت، اختير الجنرال المدبوح، سمير الملك ورئيس ديوانه العسكري لهذه المهمّة. فبعد تسريبه لمؤامرة المهدي بن بركة في عام 1963 لفضحها على نحوٍ أفضل للقصر، كان صعود المدبوح سريعاً ونجمه لامعاً. فبعد أن كان مقدّماً في عام 1963، رُقّي إلى رتبة جنرال في عام 1968. بل وأصبح أحد الرجال القلائل، مع مولاي حفيظ، الذين

سمح لهم الحسن الثاني بدخول حياته الخاصّة، والتردّد إلى محظياته والدخول إلى الحرم الملكي. بعد فقدان السيطرة على جهاز الشرطة، فقد أوفقير كذلك السيطرة على مؤسسة الجيش. فقد أدار الدليمي الأوّل، وتزايد نفوذ المدبوح على الجيش. تجاوز مولاي حفيظ كلّ شيء ولم يخضع سوى للحسن الثاني. مرّ كلّ شيء عبر الملك ولم يفته أيّ شي: كان جهاز SSS ورقته الرابحة، ورأس حربته. وظلّ المال أحد أسلحته المفضّلة. وإذا كان قد أثرى ثراءً فاحشاً، فذلك ليمتلك وسائل شراء خدمه وأصدقائه وحتى أعدائه. أمّا أوفقير فقد ردّ الملك كلّما أراد أن «يُكرَمه بكرمه»... وابتعد القائد العام، وإن احتفظ بعلاقاته المتينة وصداقاته العديدة في عالم الاستخبارات السرّية العالمية، المجال الوحيد الذي لم يستطع الحسن الثاني أن ينتزعه منه كلياً. فنشأت علاقة غريبة بين الملك ووالدي. بدّل الحسن الثاني رأيه. وكلّما ألحّ أوفقير على موضوع الفساد وفقدان هيبة العرش والدولة، أبدى الملك استياءه منه ليعود فيما بعد ويتودّد إليه بإفراط. وتفشّى في الدوائر المتنفّذة للسلطة امتعاضٌ خطير.

وإذ باتت ملفّات أمن الدولة تمرّ من وراء ظهره، ووحدهم الحسن الثاني ومولاي حفيظ والدليمي يتدخّلون فيها، قام أوفقير بـ«إضرابٍ عن الحماسة» وعكف على مهمّاتٍ عامّة: تنظيم الأراضي، تشييد المنشآت المدنية والعسكرية، بناء المدارس والمعاهد لتأهيل الكوادر المتوسّطة والرفيعة للدولة. والحال أنّه ما كان ينبغي أن يظهر أوفقير للسكّان سوى من خلال صورة الجلاّد المتعطّش للدم، والذراع المنقذة للعرش. ولذلك، أفشل الحسن الثاني بحذق، من باب الاحتياط، مشاريع المصلحة العامّة التي انكبّ عليها أوفقير.

وإذا ما حدث ورفض أوفقير الاستمرار في لعبة وظيفة تغدو، يوماً بعد آخر، أكثر افتراضية، فلن يبقى للحسن الثاني من خيارٍ سوى أن يأمر جهاز SSS بتصفيته جسدياً. لن يُبقى حيّاً رجلٌ مطّلعٌ على الأسرار

الملكية الأكثر دناءةً: لن يكون أوفقير متقاعداً أبداً. ارتسمت هذه الحقيقة يوماً بيوم. وقد جاءت مخاوف أقرباء والدي لتثبت لي ذلك. اجتمعت كلّ المقوّمات ليتجه المرء نحو مأساةٍ تهيّأ لها الحسن الثاني، المنتصر، غداة اغتيال أوفقير، بطريقةٍ شكسبيرية!

وكلّما اشتكى أوفقير للملك من الاختلاسات والدسائس التي تُضعف الفكرة التي كوّنها عن الدولة، عزّز الحسن الثاني صلاحيات العقيد الدليمي والجنرال مولاي حفيظ. وينبغي عدمَ مراعاة أيّ شيء في سبيل مراقبة الذين ينتقدون، وكذلك الأخطر، الذين يطرحون أسئلة. وبالتوازي مع ذلك، ازداد موقع الجنرال المدبوح قوّة داخل الجيش. فكلّما حيّد الحسن الثاني أوفقير وأضعفه، داهن المدبوح أكثر. وبإضعاف أحدهما لصالح الآخر، أمِلَ أن يدع أوفقير والمدبوح جانباً احترامهما المتبادل لكي يُضعف، بتنافسهما، أحدهما نفوذ الآخر. في السياسة كما في الفيزياء، القوّتان المتعاكستان والمتساويتان تلتغيان. كان الجنرال المدبوح، المفعم بالأمجاد، والذي أطنب الملك في مدحه، مغتبطاً في الفترة الأولى. ولكنّه حينما بدأ بدوره يتساءل عن النهب المنظّم الذي يميّز العهد، وبّخه الملك مع الإغداق عليه بالألقاب. أصبح المدبوح رئيس الديوان العسكري، ورئيس الاتحادين الملكيين لرياضتي الغولف والبولو... ولكن الملك أخطأ: لسوء حظّه، كان المدبوح نزيهاً وأدرك أنّ زوال الحظوة الخفي الذي أصاب أوفقير يعود جزئياً إلى محاولاته لمنع تفسّخ الدولة.

وستشعل قضيّة، تجاوزت في آثارها كلّ القضايا الأخرى، النار في البارود: إنّها قضيّة بان آم، التي سرعان ما باتت قضيّة بن مسعود. ليس ضخامتها المالية ما تسبّب بتفجّرها المحتوم، وإنّما صداها في الخارج والإجراءات الملكية التي سلّطت تدريجياً الضوء عليها.

كان عمر بن مسعود رجل أعمالٍ ثريّاً، وعضواً في الحكومة

الملكية، وزيراً حديث العهد، قيل عنه إنّه أحد رجال الملك البدلاء. قدّم بن مسعود لشركة الطيران بان آم، التي نوت أن تقيم فندقاً ضخماً في الدار البيضاء، أرضاً من أملاك الدولة لقاء مبلغٍ زهيد، شريطة أن تقبل بإيداع ستّة ملايين فرنك فرنسي في حسابه بسويسرا. لم يرفض الأمريكان ذلك ولكنّهم طالبوا بضمانات. أكّد لهم بن مسعود أنّه يتكلّم بالنيابة عن الحسن الثاني وارتكب خطأ إعطاء تقديم تلك الضمانات كتابياً. دفعت شركة بان آم كما هو متّفق عليه دون انتظار وأخطرت الاستخبارات الاتحادية المكلّفة بحماية مصالحها في الخارج. ارتأى أحد مسؤولي سي آي ايه CIA أنّه من المفيد إخبار أوفقير الذي كان الجميع لا يزالون يعتبرونه القائد العام، الذي يأخذ الملك برأيه. عمل وزير الداخلية، الذي كانت فترت همّته في مواجهة الفساد، بحيث يكون الملفّ الشائك على مكتب الجنرال المدبوح. أُسقِطت مسؤوليات الحسن الثاني عن الوثيقة طواعية، ولكنّها كشفت شبكة ضخمة تضمّ العديد من أعضاء الحاشية الملكية والحكومة. ابتزّ خمسة وزراء من حكومة العراقي المستثمرين الأجانب ونهبوا بدون ذمّة خزينة الدولة.

ما إن علِم بالأمر، ذُهِل المدبوح إلى درجة أنّه قاطع الملك خلال مباراةٍ للغولف، مقتنعاً بأنّ الحسن الثاني لن يقف لامبالياً إزاء هذه الاكتشافات. ولكنّه طلب من الجنرال الانتظار إلى أن يُنهي مباراته!

أراد الحسن الثاني أن يُشعِر المدبوح، مثلما فعل مع أوفقير، بأنّه هو السيّد، وأنه هو من يحدّد الحدود التي ينبغي له عدم تجاوزها.

لم يتراجع المدبوح وأعلم الملك بأنّه امتلك الدليل بأنّ خمسة وزراء قد تورّطوا في عصابة أشرارٍ وتقاسموا الأرباح المستوفاة التي أودعوها في حساباتٍ في الخارج. نبرةٌ اتّهام استفزّت محدّثه المهيب. ولأن هذا النقد يصدر عن المدبوح الذي يدين له بكلّ شيء، أغضب النقد اللاذع الحسن الثاني الذي انفجر ساخطاً، وأشبع الجنرال شتماً، مذكّراً إيّاه بأنّ وجوده مدينٌ بإرادته الملكية وأنّ لا مثيل لجحوده سوى صلفه. أحنى المدبوح،

المتكبّر جدّاً، رأسه أمام العاصفة ولكنّه لم ينكسر. استمع حتى النهاية، بلا اعتراض، إلى التوبيخات ومن ثمّ حاول بشدّة أن يُقنِع الملك بضرورة تنظيف البيت داخل إدارته للدولة. وقد عبّر المدبوح، مثله مثل أوفقير، بصوتٍ عالٍ ما كان الجيش يفكّر به بصوتٍ خفيض: «إذا ما استمرّت الأمور بهذه الطريقة، فسيحفر الفساد وتجاوز القانون والعسف الاجتماعي قبر النظام.»

لدى الخروج من الجلسة الملكية، كان الانكسار جليّاً. فكّر الملك في الطريقة الأكثر مباشرةً لقهر نفسية المدبوح. من جهته، أدرك رئيس الديوان العسكري الملكي أنّه بات يملك من المعلومات أكثر مما ينبغي له أن يعرف. وباتت كلّ دقيقة تمرّ تلعب ضدّه. كان يعرف الحسن الثاني بما يكفي لئلاّ يتوهّم قط بشأن مناورته القادمة: سيتقرّب الملك، مؤقّتاً، من أوفقير باستبداله، هو المدبوح الطامح والمتآمر الذي أراد أن يسلبه موقعه. عرف المدبوح أنّه بات معرّضاً لخطرٍ كبير. إذا ما راودت الرغبةُ العاهل لإقصائه فإنّ مشاكله القلبية وصحّته المعتلة ستجعل من اختفائه المفاجئ أمراً عادياً ما دام معقولاً. ولن تكون العملية إلاّ مواتية للقصر. لأنّه إذا ما ثار شكٌّ، فإنّ الأصابع كلّها ستشير إلى أوفقير!

لجأ المدبوح إلى حيّ السويسي السكني. ولكي يحمي نفسه، لم يبقَ لرئيس الديوان العسكري الملكي إلاّ حلٌّ واحد: إطلاع ضباط آخرين من الرتب العليا على الوضع. فإذا ما اطّلع العديد من الأشخاص، سيغدو من الصعب إقصاؤهم جميعاً في سبيل الحفاظ على سريّة الأعمال غير المشروعة. فكّر المدبوح في الجنرالات الرئيسيين في المملكة، قدماء الجيش الفرنسي من أمثاله، وبشكلٍ خاصّ الجنرال قائد المنطقة العسكرية لفاس، الخياري بوغرين، الصديق المفضّل لأوفقير منذ ثلاثين عاماً. من مقاعد الدراسة في المدرسة البربرية في أزرو إلى الأكاديمية العسكرية، من ميادين المعارك في أوروبا إلى حقول الأرزّ في الهند الصينية، سار بوغرين وأوفقير جنباً إلى جنب ونسجا صداقةً وطيدة. وإذا كان المدبوح قد فكّر

في بوغرين، فذلك لأنّه يعرف استقامته وشجاعته: فالرجل كان يسكن بيتاً من ثلاث غرف متواضعة، ولا يمتلك ثروةً، ولم يكن يتردّد إلى البلاط. ولكنّ المدبوح لم يستطع أن يسمح لنفسه بتحرّكٍ خارج العاصمة كان سيثير شكوك الحسن الثاني.

الحلّ الآخر هو مقابلة أوفقير قبل أن يسمّم الملكُ هذا الأخير بروايته الخاصّة للوقائع. فاختار الجنرال بلا إبطاء الاتصال بوزير الداخلية ووضع الأوراق على الطاولة. كان المدبوح يعرف أن ذلك ليس من دون مخاطر، ولكن ما يشترك فيه الجنرالان هو حبّ النظام وازدراء المال ورجال الأعمال، والتعلّق بالأنظمة والقيم العسكرية وطبعهما القاسي.

آثر المدبوح رسالةً شفهيةً وجيزة. وفي سبيل ذلك كان عليه أن يثق بالشخص الذي سينقلها. فتوجّه نحو خالي عز الدين. وكان هذا، الذي سيقضي في «حادثة» سيارة بعد أربعة أشهر من مقتل أبي، صديق ابنة المدبوح، في حبٍّ عابرٍ تقبّله الجنرال بكلّ إيجابية وشهامة. أُعجِبَ بثقافة هذا الشاب البالغ اثنين وعشرين عاماً، وبجسمه الرياضي وقوّته الهائلة وبنظرته البريئة ومصافحته القويّة، ولكنّه وجد عز الدين مضطرباً بعض الشيء، و«مطلعاً على آخر ما يهمّ الشباب» بشكلٍ كبير، ولم يكفّ عن حثّه على التطوّع في الجيش لمعالجة عيوب شبابه المؤسفة. منْ عساه يتخيّل اختيار رسولٍ كهذا في سبيل قضية هامّة تخصّ الدولة؟

فتحدّث المدبوح، بسرعةٍ، إلى عز الدين باقتضاب:

- أخبر عمّك[1] بأنني أريد مقابلته سرّاً وبأسرع ما يمكن. أعرف أنّك لن تقدم أبداً على ما قد يضرّه. سيعرّض ذلك أمنه وأمني للخطر. . . ومن المسلّم به أن تحتفظ بهذا الأمر لنفسك.

انطلق عز الدين نحو بيتنا، وصادفني في المرأب.

---

(1) هكذا كان خالاي عز الدين ووحيد يخاطبان والدي.

كنتُ متواطئاً جدّاً معه ومع خالي وليد، لكوني قد عرفتُ معهما أولى مغامراتي في عُلَب الليل، يوم فررتُ من البيت مختبئاً في صندوق سيارتهما.

- يجب أن أقابل عمّي في الحال... مَنْ معه؟

- إنّه في الصالون. ليس هناك الكثير من الناس، أصدقاؤه فقط.

- حاول أن تجعله يخرج خلسةً، وأخبره بأنني أودّ التحدث إليه.

فاجأني إلحاحه بحيث أردتُ أن أعرف المغزى من ذلك قبل أن أذهب وأُزعِجَ والدي.

- ماذا؟ تُريدُ أن يأتي لمقابلتك... ولكن سيكون من الأسهل بكثير أن أُدخِلَك إلى الصالون، ليس هناك اجتماع عمل.

- هيّا... افعل ما أقوله لك، سأشرح لك فيما بعد. اهمس له ببساطة: «يُريد عز الدين أن يقابلك، الأمر هامٌّ للغاية...»، أمرني، مربّتاً على ظهري.

سألتُ خالي محدّقاً في عينيه:

- أتمنى أن تعرف ما تفعله!

- لا تقلق... اذهب، هيّا!

ذهبتُ لأخبر والدي، وأنا غير مقتنع. لبرهةٍ، فوجِئ ثمّ طمأن أصدقاءه بابتسامةٍ. وأخيراً، همس إليّ:

- اصطحب عز الدين إلى غرفتي. وقل له أن ينتظرني هناك.

انضمّ والدي إلينا. قبل أن يتاح لعز الدين الوقت لكي يحيّيه، فتح والدي الباب الزجاجي وخرج إلى الشرفة. تبعه خالي. سمعتُ مقتطفات من حديثهما المهموس:

- ماذا، المدبوح... متى... احتفظ بهذا الأمر لنفسك... ابقَ على اتّصال... إن احتجتُ إليك، سيخبرك رؤوف بذلك... عُد الآن إلى بيتك... وكأنّ شيئاً لم يكن... أعتمد عليك...

غادر عز الدين الغرفة، ولحقت به، لكن والدي طلب منّي أن أبقى. أشعل سيجارةً، وأمرني:

- اطلب لي مولاي علي.

تحدّث إليه أوفقير باللغة البربرية، الأمر الذي دلّ على أنّ الوضع خطير. وختم بالطلب إلى الرجل محلّ ثقته أن يُعدّ سهرةً للطلبة[1]، تلك السهرات الدينية التي كانت تُنظَّم عادةً في البيت. لن يتعجّب أحدٌ لرؤية الفقهاء، علماء العقيدة، وهم يصلون في مجموعاتٍ صغيرةٍ، غارقين في جلابيبهم البيضاء، ثمّ يجتمعون في حجرةٍ خفيضةٍ، يجلسون فيها كتفاً إلى كتف، على شكل نصف دائرة، ويهتزّون إلى الأمام وإلى الخلف، في إيقاعٍ واحدٍ، ليتلوا آيات القرآن التي يرتّلونها لساعاتٍ حتى وقتٍ متأخرٍ من الليل.

كانت لغرفتي، وهي حجرة صغيرة بالكاد تتسع لسريرٍ ومكتبة، نافذة تطلّ على درج مدخل البيت. فكان كلّ زائر يدخل بيتنا مرغماً على المرور من أمام زجاج نافذتي. وبذلك أستطيع أن أكوّن فكرة عن إيقاع اليوم. إن كان الزوار أصدقاء أبي أو المساعدين المقرّبين جدّاً منه، يكون كلُّ شيء على ما يُرام. أمّا إذا كان هناك نشاطٌ كثيف للضباط وكبار الموظّفين، فتدبّ الحركة. وأخيراً، إذا ما تعلّق الأمر برجال القصر، فتكون هناك مسائل ساخنة وتدبّ الإثارة!

في الواقع، كان وجود مسؤولي الدولة في منزلنا أمراً شائعاً ومألوفاً. عمل والدي في كل وقت وبلا حدود، وكان البيت أشبه بوزارةٍ حقيقية. تكيّفت حياتنا العائلية مع ذلك، ولكنّ بعض الزيارات اكتست طابعاً خاصّاً: تعلّمتُ أن أكشف الرؤوس التي كان مجرّد حضورها يعلن حالةَ طوارئ، من بينهم، الجنرال مولاي حفيظ والعقيد الدليمي، المكروهَين

(1) الطُلبة، مجموعة رجال يقومون بإحياء جلسات لقراءة وترتيل القرآن.

منّا. كان مجيئهما باستمرار نذير شؤم.

في ذلك المساء، قمتُ بجولةٍ في المقسم، المكان الاستراتيجي في البيت. حينما عبرت الحديقة، صادفتُ بعض الطلبة. نظرتُ إلى ساعتي. كانت الساعة الواحدة فجراً. والسهرة الدينية متواصلة. سألتُ سليمان:

- ألا زال الطلبة هنا. ألا تعلم متى سيغادرون؟

- كلاّ، ولكنني أعتقد بأنّهم سيمكثون لبعض الوقت.

تُنقَل المعلومات بمعظمهما من خلال المقسم الهاتفي. ويتناوب أربعة رجالٍ مختارين بدقّة، جميعهم عيونيون، من البربر المنحدرين من منطقة والدي والذين انتقاهم شخصياً، عليه لأربع وعشرين ساعة متواصلة. ضمّت حجرتهم، علاوةً على المقسم، ثلاث محطات تحويل عسكرية وخزانتي أسلحة. وصُفّت مصنّفات سميكة، تضمّ ملفّات كلّ مَنْ لهم مسؤوليات في البلاد، في أدراجٍ معدنية. وكانت المفكّرات المدوّنة فيها الرموز السريّة، التي تتيح الاتّصال مع مختلف أجهزة استخبارات الدولة ومع القواعد والمناطق العسكرية وكذلك القصور الملكية، محفوظة في خزنةٍ تُغيّر طرائق فتحها بانتظام. وحدهم العاملون على المقسم يمكنهم الوصول إليها، ولكنّ رئيسهم سُليمان كان يدعني أتطفّل عليها من حينٍ لآخر. كان أحد الرجال الأكثر قرباً من والدي. وقد احتفظتُ بعلاقات صداقة حميمة معه ومع مولاي علي ولعربي. ولأنّه كان يتحدّث إليّ بحريّة وبكل ثقة، أمضيت سهرات بأكملها وأنا أستمع إلى الرسائل والتلكسات والبرقيات اللاسلكية الأكثر سريّةً. بل وحدث أن وقعتُ على تردّدات فائقة الحماية أو فتحتُ خزائن الأسلحة لأقضي ساعات في التلاعب بها. أخذ المسدس التعويذة لوالدي مكاناً خاصّاً في مستودع الأسلحة. كان ذلك المسدّس من طراز كولت، الذي صُنِع غمده من النسيج المخيّط على العقب الخشبي من قبل حرفيٍّ، يصبح بندقيةً صغيرة حينما يُخرَج الغمد من الحِمالة. كان والدي، الذي لم يولِ قط اهتماماً للأشياء المادية، يشعر بتعلّقٍ يكاد يكون رومانسياً حيال هذا المسدس

الذي حمله خلال حملة إيطاليا ووسط مفارز المغاوير في جنوب شرق آسيا. وقد نقش على عقبه: «من يتجرأ ينتصر!»

كالعادة، شربنا بتلذّذ شاياً لذيذاً بالنعناع ونحن نثرثر. انشغلت الخطوط الهاتفية بانتظام، وعلّقنا على المكالمات وما تعنيه وما قد تضمره. وكنتُ أسمع بالضرورة رجال والدي يكرّرون قلقهم ومخاوفهم التي أصبحت، في سنة 1971 تلك، معذّبة. طلبتُ من سليمان أن يحوّل إليّ محرَس المدخل.

- لماذا. بماذا تريد أن تخبرهم؟

- أنتظر صديقاً سيمرّ بي.

بدا سليمان متردّداً، بل ومتضايقاً، وحدّق في عينيّ:

- أنت تثق بي، أليس كلك؟ إذاً، لطفاً، أخبر صديقك بألاّ يأتي هذا المساء.

- لماذا؟

- من فضلك، اسمع كلامي... افعل ما أطلبه منك. في كلّ حال، لقد تلقّى المحرَس، منذ منتصف الليل، بعدم السماح لأحدٍ بالدخول.

ثُرتُ:

- ليست هذه المرّة الأولى التي يأتي فيها! إنّه صديقٌ مقرّب!

وضع سليمان يده على كتفي:

- أرجوك، اسمع كلامي... الأمر يسري حتى على أفراد العائلة.

نهضتُ متوثّباً:

- هذا ما سنراه، سأستفسر فوراً من والدي! كلاّ ولكن ما معنى هذا، نحن في يوم السبت! ويحقّ لي أن أستقبل أصدقائي في نهاية الأسبوع!

أصبحتُ على الباب، حينما دخل مولاي علي إلى المقسم.

- ماذا يحدث؟

شرح له سليمان الوضع. أغلق مرافق والدي الباب من خلفه وحاول

بدوره أن يقنعني. من جهتي، أفرطتُ عمداً في غيظي لأدفعهما إلى أن يفشيا لي بالحكاية كاملةً. عرِفا بأنّهما بإطلاعي على السرّ، يضعانني أمام المسؤولية:

- أنت رجلٌ الآن، وتحظى بثقة الجنرال، فأثبت جدارتك بذلك...

أمسك مولاي علي بيديّ وحدّق فيّ بحدّة، لكي يمنح مظهراً احتفالياً يليق بالكلام الذي يتهيّأ أن يبلغه لي:

- إنّه أمرٌ هام... أمرٌ هامٌ لوالدك... فغضّ الطرف، وتصرّف كأنّ شيئاً لم يكن.

عرفتُ أنّ كلمة «هامّ» في فم هؤلاء الرجال تُضمر مسألة حسّاسة، قضيّة تخصّ الدولة، وتعني أنّها تمسّ أمن والدي. فطمأنتُ مولاي علي وسليمان بإيماءةٍ من رأسي.

رنّ الهاتف. رفع سليمان السماعة. كان رئيس المحرَس. كان عز الدين على باب المدخل. سأل الحرسُ سليمان إن كان بإمكانه الدخول.

- ولكنّك أخبرتني بأنّ الأمر قد أُعطي بعدم السماح لأيّ شخصٍ بالدخول!

- لا تتظاهر بالسذاجة، لن أخبرك بأكثر مما شرحته لك للتوّ!

لدى خروجي من المقسم عبر الباب الذي يتّصل بالمرأب، فوجئتُ بالهدوء غير الاعتيادي الذي ساد المكان. الأضواء مطفأة. الأمر الذي حيّرني ولكنّه أيضاً لاءمني. وصلت سيارة. تعرّفتُ على سيارة الفيات 125 الزرقاء اللون، خاصّة عز الدين الذي اندفع نحو المطابخ. ما أثار فضولي، هو رؤية مولاي علي ولعربي يركضان إلى جانب المركبة. تلمّستُ بين السيارات والمعدّات الميكانيكية، بحثاً عن قاطع. أمسكت يدٌ بمعصمي، وهمس صوتٌ في أذني:

- مولاي، من فضلك، لا تبقَ هنا.

كان عيونياً. قرفصتُ إلى جانبه، بين السيارات. ولاشعورياً،

همستُ بدوري. قدّمتُ له سيجارةً. لم يرفضها، ولكنّه ظلّ كتوماً حيال أسئلتي.

لدى دخولي إلى البيت، صادفتُ أبي يعبر الممرّ ليذهب إلى المطبخ.

- اذهب إلى الصالون وتأكّد من أنّ لا أحد يخرج منه، أو ينزل من الدرج. قلتُ للأصدقاء الحاضرين بأنني صعدتُ لأستحمّ. كن حذراً. لو خرج أحدٌ ما بلا تحذير، اتّصل بسليمان في المقسم.

- وماذا أقول له؟

- لا شيء، عرّف عن نفسك، وأغلق السماعة. سأعتمد عليك، هيّا.

أمسكتُ بيد والدي وسألته إن كان كلّ شيءٍ على ما يُرام.

- لا تقلق، كلّ شيء على ما يُرام، عليّ أن أقابل شخصاً ما بكلّ سريّة وحسب.

خرج أوفقير إلى الحديقة ليتّجه نحو المكان الذي توقّفت فيه سيارة الفيات. رافقته إلى الخارج، ولكنني مكثتُ على درج المدخل. ومن هناك، لمحتُ رجلاً ببرنسٍ وجلبابٍ ينتظر في مركبته. استذكرتُ الحديث المقتضب الذي تبادله عز الدين مع والدي على شرفة غرفته. وحينذاك لم يعد لدي أدنى شكّ حول هوية الزائر الغامض: إنّه الجنرال محمد المدبوح. متخفياً في هيئة فقيهٍ، نهض، مختفياً تحت قبّعة جلبابه، وخطا بضع خطوات مع والدي في الحديقة الصغيرة على الجانب الآخر من البيت، بالقرب من تعريشةٍ[1].

سارت الحكاية. وستُثار الكثير من الثرثرة حول ذلك اللقاء الذي جمع المدبوح وأوفقير. حتى أنّه قيل، بعد مقتل والدي، إن أوفقير كان

---

(1) سأعرف فيما بعد، غداة انقلاب 1971، فحوى حديثهما. كاشف والدي بحضوري صديقَه وجارَه، الجنرال إدريس بن عمر بالأمر. وسأعود لاحقاً إلى الظروف التي جرى في ظلّها كلّ شيء.

قدساير المدبوح في انقلاب تموز (يوليو) 1971. وأدلى الانقلابيون الناجون بإثباتات نفيٍ دامغة، أكّدت للجميع أن أوفقير لم يكن متورّطاً. وقد أكّد ذلك على نحوٍ خاصّ الملازم أوّل الرايس[1] أحد المنفذين. ومع ذلك لا يزال يُكرّر أن أوفقير كان قد أبرم اتّفاقاً مع المدبوح: «إذا نجحتم، فسأسير معكم، وإن فشلتم فسأسحقكم»! الذين يسمحون لأنفسهم بهكذا تأكيدات، إمّا أنهم سُذّج وإمّا حمقى. لا المدبوح ولا أوفقير كانا كذلك.

بمكاشفة وزير الداخلية بخططه الانقلابية، لم يكن لرئيس الديوان العسكري الملكي أيّ ضمانٍ آنذاك سوى أنّ أوفقير لن يستغلّ ذلك ليشي به وينجذب من جديد إلى الأفضال الملكية. وكان والدي آنذاك، في غمرة أزمة الاختلاف التام مع الحسن الثاني، أكثر حذراً من أيّ وقت مضى، وكان يمكن للأطروحات الانقلابية الصادرة عن سمير الملك أن تخفي فخّاً ملكياً!

في الواقع، اقتصر ذلك اللقاء الشهير على التالي: جاء رئيس الديوان العسكري بشكلٍ عاجل لمقابلة والدي ليكشف له أنّ الملك يتغاضى عمداً عن الفساد المتفشّي وأنّه بات يعرف الآن لماذا كان الحسن الثاني قد حاول أن يوقع بينهما! بل روى لأوفقير وقائع مواجهته مع الملك، ذاهباً إلى حدّ القول:

- أتساءَل كيف استطعت القبول بتقديم كلّ هذا!

- لقد خدمتُ وأخدم العرش قبل الملك! أجابه والدي.

جملةٌ واضحة عرف محدّثه أن يُدرك كلّ مدلولها: «نعم للضغط على الملك، لدفعه إلى تنظيف البيت داخل حكومته وحاشيته، ولكن حذار من تجاوز الخط الأحمر والتفكير في اللجوء إلى القوّة!»

بعد أن طمأنه أوفقير على سلامته، منح المدبوح مهلة لنفسه. بقي له أن يواجه ردّ الحسن الثاني، وأن يحاول إيجاد وسيلة ليواجهه بها أو على

---

(1) الضابط محمد الرايس الذي أُدين في المحاولة الانقلابية. المترجم

الأقلّ أن يهدّئه. بل وعده أوفقير بأن يحاول تهدئة الملك، إذا ما التزم المدبوح، من جهته، بتهدئة اللعبة.

بعد بضعة أيام من تلك المقابلة السرية، فوجِئ المدبوح باللهجة المعسولة التي يتحدّث بها الحسن الثاني إليه. أقلقت تلك اللهجة الهادئة الجنرال، الذي لم يتأخّر في كشف ما كانت تخبّئه: أرسل الملك رئيس ديوانه الملكي ليُعالَج في مستشفى أمريكي!

خشي سمير الملك من خطر أن يُقصى في «العلاج الخيري» الذي يُقدّم له. فطلب من والدي التوصية عند أناسٍ يعرفهم هناك وأن يعتمد أيضاً على صديقه السناتور وليم روجرز ليتكفّل بضمان أمنه.

غادر الجنرال، في مطلع عام 1971، إلى واشنطن لكي يُعالَج في مستشفى والتر ريد حيث اتّصلت به وكالة المخابرات المركزية CIA سريعاً وأخبرته بكل أعمال الاختلاس الكبرى التي حصلت في المغرب. وهذه المرّة، لم يوفّر حتى الحسن الثاني. كانت البراهين واضحة ودامغة: النظام فاسد من رأسه. فبات الجنرال مقتنعاً بأنّ المصيبة عميقة وتتطلّب وسائل تعسّفية، لا بل وعنيفة. فقطع المدبوح علاجه، واستقلّ أوّل طائرة متوجّهة إلى المغرب حيث طلب مقابلة جديدة مع الملك.

حاول الحسن الثاني أن يلزم الهدوء. شرح المدبوح إذا سمح لنفسه بأن يعود إلى موضوع الفساد، فذلك لأنّه ينشر أصداءه في الخارج، ويُقلق مانحي الأموال الرئيسيين للبلاد. أراد الحسن الثاني أن يكسب الوقت، ووعده باتّخاذ إجراءات... ستبقى حبراً على ورق. فقرر المدبوح أن يُعلِم الجنرالات بوغرين وحبيبي[1] وحمو[2]. وقعت الصدمة ثقيلة على القادة المتنفّذين للجيش بحيث أقنعهم بالانتقال إلى الفعل

(1) الجنرال محمد حبيبي. المترجم

(2) الجنرال حمو الكتاني، يُعتبر من جنرالات جيل التأسيس مع إدريس بن عمر وعبد الحفيظ العلوي. المترجم

واقترح عليهم إزاحة الحسن الثاني لا أكثر ولا أقلّ لصالح ابنه الذي كان لا يزال طفلاً. وبرأيه، يجب إنقاذ البلاد قبل أن ينضمّ ضباط عسكريون شباب إلى العمل الثوري ويفعلوا بالغرب ما فعله القذافي بليبيا. سأله الجنرالات عن وضع والدي. أكّد لهم رئيس الديوان العسكري: «أوفقير يفكّر مثلنا جميعاً ولكنّه محاصرٌ من قبل الملك ولن يتحرّك. سنضعه أمام الأمر الواقع بعد الانقلاب. وفي كلّ حال، سيكون له بالطبع مكانه في مجلس الوصاية الذي سنوسّعه بحضورنا فيه.» كان يعتبر أن فقدان وزير الداخلية للحظوة الملكية فرصة يجب استغلالها. مثلما كان عدم إشراف أوفقير على أجهزة المخابرات فرصة. فقد فضّل المدبوح أن يخدع يقظة الدليمي ومولاي حفيظ مثل أوفقير الذي لم تعد خبرته وفاعليته بحاجة إلى برهان.

استمال المدبوح بالمبرّرات نفسها العقيد الشلواطي الذي سيكون بطريقةٍ ما ضامن مصالح أوفقير أثناء الانقلاب وبعده. كان الشلواطي من المخلصين الأوفياء لوالدي، واحداً من الذين لم يستطع الملك تغيير رأيهم بسهولة. ومشاركته في الانقلاب هي بالضبط ما سيغذّي غداة 10 تموز (يوليو) الإشاعات الأكثر كذباً.

أمّا الحسن الثاني، فسرعان ما يكون لديه أكثر من سبب للارتياب من وزيره للداخلية. في محاولةٍ أخيرةٍ لإسداء النصيحة إلى الملك، كان أوفقير قد حذّره قبل عام من أحداث الصخيرات:

- سيّدي، إذا ما ثابرتم جلالتكم على التساهل مع اختلاسات نخبةٍ ثريّة، فسنسير مباشرة إلى الكارثة. كلّ يوم يمرّ، يخلق انقلابياً محتَمَلاً إضافياً!

من جهتي، بدأت أسمع منذ فترة وسط المحيط الأقرب لوالدي كلاماً غير مطمئنٍ.

ذات يوم، رافقت أوفقير إلى قصر الصخيرات وأمرني بالبقاء في المرأب مع عناصر الحماية أثناء اجتماعه بالملك. انتظرت، جالساً في

السيارة، وأنا أتناقش مع مولاي علي والعربي. كانت وجوه المرافقين كئيبة.

شرح لي مولاي علي، متوتّراً:

- طالما لم يخرج الجنرال، فلن أرتاح.

منذ بضعة أسابيعٍ خلت، لم يعد رجال أبي الموثوق بهم يخفون مخاوفهم...

- ما بكم جميعاً متوتّرون كلّ هذا التوتر؟

- فليُعِنا الله. ألا ترى ما يحدث؟ إنّهم يتهجّمون على الجنرال بعنف...

ولأنني أردتُ أن أعرف المزيد عن ذلك، تصنّعتُ الاندهاش.

- ولكن مَنْ «هم»؟

- علي بابا والأربعون حرامي! قال لي مولاي علي بابتسامة خفيفة.

قهقهتُ ضاحكاً عن طيب قلب.

قاطعنا العربي:

- ماذا هناك؟ قلت له.

أجابني وهو يومئ لي بنظره إلى الممرّ المقطرن الذي يمرّ من خلف ظهري.

- حينما نذكر الذئب، نرى ذَنَبه.

التفتُّ إلى الوراء. وقفت سيارة مرسيدس كحلية اللون في المرأب. نزل منها العقيد أحمد الدليمي، مرتدياً بزّة سماوية اللون وقميصاً أبيضَ بلا ربطة عنق. كان يتوجّه نحو مدخل القصر حينما لاحظ حضوري وتوجّه نحوي. فذهبتُ بدوري للقائه. همس لي مولاي علي:

- بلا أخطاء، ابقَ طبيعياً، تمالك لسانك، وأوزن كلماتك.

تعانقنا.

- كيف حالكم، يا سيّدي العقيد؟

- بخير، بخير وأنت؟ ولكن هذا أمرٌ جديد، لماذا لم تعد ترفع الكلفة معي؟

- حينما أرافق والدي في عمله، يجب أن أخضع للبروتوكول.

- هذا جيد، ممتاز، ولكن أرجوك، ليس معي، لقد أخذتك بين يديّ وأنت رضيع! أنت مثل ابني، لا تنسَ ذلك.

سألني الدليمي عن حال أبي دائماً بالاحترام نفسه الذي كان يتكلّم به حينما كان تابعاً. أجبتُ مراوغةً كي لا أفشي للعقيد أيّ شيء. أشعل سيجارةً وقدّم لي واحدةً.

- تفضّل. خذ حريتك معي.

أجبت:

- بكل سرور، شكراً. ولكنني أدخّن أمام أبي، لا أخفي عنه شيئاً.

سرنا لبضع خطوات. لم يشح مولاي علي والعربي ببصرهما عنّا.

حينما مررنا بجانب سيارة العقيد، جاء مرافقه لامين لتحيّتي، وذكرنا ذكرياتي السويسرية، حيث كان لامين في عداد فريق الشرطة الذي جاء لإخراجي من مأواي السويسري. ما شغل بالي هو أنّ الدليمي لم يبادر إلى الدخول إلى حرم القصر. أهو يتجنّب والدي؟ تابعنا حديثنا الذي لا قيمة له.

وللأمانة، كان العقيد دائماً يحيطني برعايته. ومنذ أن كان الدليمي في ظلّ والدي، كان وزوجته جزءاً من عائلتنا. كان أوفقير ينادي ذراعه الأيمن الشاب «ابني» وكان الدليمي يُظهر شبهَ عبادة حياله. كما أحتفظ بذكرى رحلةٍ إلى فاس التي وجدنا فيها، أمي وأنا، الدليمي، المقدّم آنذاك، والذي كان ينعسُ، وسلاحه على وركه، مسترخياً في عرض باب غرفة والدي في الفندق. لكن الحسن الثاني حَمَلَه على تغيير رأيه تماماً.

كان الدليمي دائماً ودوداً حيالي. وقدّم لي العديد من الهدايا في صغري. وعندما كنتُ في سنّ المراهقة، ردّد باستمرار على مسامعي: «أعرف أنّ لك حاجات الآن، قد تتحرّج في طلبها من والديك. أريدك أن

تعرف أنّك تستطيع الاعتماد عليّ في كلّ الأحوال. إذا ما احتجت إلى المال أو أيّة خدمة كانت، تعالَ لمقابلتي. وإن لم تجدني، اترك رسالةً مع لامين. خذ حريتك!» وفي مناسباتٍ نادرة طلبتُ مساعدته. حتى أنّه عرض عليّ نقوداً رفضتها على الدوام؛ أوّلاً لأنّ والديّ ربيانا على هذا المبدأ، ثمّ لأنّني، مدركاً «التوزيعة الجديدة»، لم أستطع أن أتقبّل منه أيّ شيء، ولا حتى خدمة تافهة.

حينما خرج والدي من القصر، ارتبك الدليمي. أفرج حالاً عن ابتسامةٍ خبيثة وصفق كعبيه في حالةِ استعدادٍ مبالغٍ فيها.

- احترامي، سيّدي الجنرال!

حيّاه أوفقير، ببرودٍ، دون إبطاء وخاطبه وهو يدلف إلى سيارته:

- جلالته ينتظرك، أظنّ أنّ لديه أوامر هامّة لك.

ثمّ، موجّهاً كلامه لي:

- أمّا نحن، فسنذهب إلى الشاطئ!

انحنى الدليمي احتراماً، واضعاً يده على باب السيارة. قال لي:

- سِرْ.

واصل العقيد السير إلى جانب السيارة DS 21 وقام بحركاتٍ وكأنّه يفتح الطريق للمركبة. لدى نزوله الممرّ نحو مخرج قصر الصخيرات، راقب أبي من مرآة سيارته العاكسة شبح الدليمي الذي واصل التحيّة برأسه ويديه. وفي تكشيرة تقزّزٍ واشمئزاز، تمتم:

- مهرِّج، كلّهم مهرّجون!

في سنة 1971 تلك، أدركتُ أننا جالسون على قنبلة!

في نيسان (أبريل) 1971، ولمناسبة عيد ميلاد مليكة الثامن عشر، أقمنا حفلة استقبال. وفوجئنا جميعاً بضخامة تلك الحفلة. باطّلاعي على قائمة المدعوين، بقيتُ مشدوهاً. أثارت أهمية الشخصيات المدعوة وتنوّعها الأسئلة في داخلي. بعض الأشخاص لم يلتقوا منذ أشهر، لم

يكن جوّ متاهة السلطة مهيّأً لذلك. كان ذلك الجوّ المضطرب قد انتقل حتى إلى المرؤوسين الذين يخدمون المتنفّذين. فقد تأكّدتُ منذ وقتٍ قريب من التوتّر العصبي والهوس الأمني لأولئك الذين تجاسروا على إطلاق جرس الإنذار. ولعبة أخيلة الظلّ، التي انخرط فيها، منذ عام، أرفع شخصيات المملكة، لبّدت السموات الأشدّ إشراقاً للسلطة.

كانت دهشتي كبيرة ولاسيما أنّ والديّ لم يسقطا أبداً في المظاهر الاجتماعية. إنّهما كريمان، ككلّ البربر الكرماء، ويحبّان الإسراف، لا الأُبّهة. إنّها المرّة الأولى التي ينظّمان فيها لأحد أولادهما الكبار سهرةً اجتماعية.

لا بدّ أن هذه الحفلة الراقصة، مشفوعةً ببركةِ الملك، تحتفل بدخول فتاةٍ شابّة إلى الدنيا. منذ سنّ الرابعة، كبُرَت مليكة خارج بيتنا إلى جانب للاّ أمينة أصغر شقيقات الحسن الثاني. ولم تنضمّ إلى حياتنا العائلية إلاّ حديثاً. فنظر الملك بإيجابية إلى هذا الحشد الطائش الذي تركه يأمل أن العسكر سيرتبطون من جديد بحياة البلاط. وإذا كان الملك قد تظاهر بالاطمئنان، فإنّه ضاعف من الحذر والتيقّظ.

منذ الصباح، كان البيت في غليان وجَيَشان. في بداية السهرة، كان كلّ شيء جاهزاً. أُضيئَت الحديقة، وأُقيمَت الموائد، ووصل أوائل المدعوين. بدأت الحفلة الراقصة. بدت الليلة باذخة. وإذا كان جوٌّ خانقٌ يطغى على سراي السلطة، فالمطّلعين وحدهم عرفوا أسبابه الحقيقية، مع تصرّفهم وكأنّ شيئاً لم يكن، ولاسيما علانيةً. وبمجيئهم إلى هذه الحفلة، تصنّعوا التصرف بشكلٍ طبيعي؛ وذلك ليس من قبيل السذاجة، وعلى نحوٍ أقلّ من قبيل اللامبالاة.

كانت نخبة الرباط ونخبة الدار البيضاء حاضرتين: مستشارو الملك، والوزراء، والجنرالات، والمحافظون، ووجهاء المجتمع المدني.

كان الجوّ استثنائياً. من المطابخ وحتى الصالونات، ساد مزاج

احتفالي كما في الأعياد. وازدحم المرأب بسيارات الليموزين. نظمت الشرطة وقوف السيارات حتى في الشارع، وتحادث العشرات من السائقين ومن الموظّفين المدنيين مع بعضهم، جالسين على رفارف أو أغطية المركبات. نُصِبَت خيمة زعامةٍ على الأرض الخالية المجاورة للمرأب ليتمكّنوا من أن يشربوا ويأكلوا حسب رغبتهم.

استقبل أبي وأمي المدعوين عند درج المدخل أو في الباحة. طلبا منّي أن أبقى مع مليكة إلى جانبهما للترحيب بالفيض المتواصل من الشخصيات. غير أنني، إذ سئمتُ من المصافحات كإنسانٍ آلي، تواريتُ لكي ألجأ من خلال المقسم إلى المطابخ. طلبتُ من عناصر المحرَس أن يبلغوني بوصول مولاي عبد الله وزوجته للاّ لمياء. حرصتُ على استقبالهما لأحتفي بالمحبّة العميقة والعلاقات شبه البنويّة التي تربطني بالأمير والأميرة.

بلغت السهرة أشدّ نشاطها في الساعة العاشرة والنصف. لم يمرّ حضور الجنرال المدبوح من دون أن يفطن له أحد: فقد عاش العسكري، المعروف بشدّته وسريّته، حياتاً صارمة، بعيدة عن الأفراح والمناسبات الاجتماعية، ولكنّ ابتسامته أثارت التعليقات، التي زادت حينما انضمّ إلى الراقصين على الحلبة. وانخرطت الشخصيات الأكثر أهمية في البلاد في اللهو مثل طلبة الثانوية.

نحو منتصف الليل، سادت البهجة والغبطة الجو. قمتُ بجولةٍ على الأناس الذين كنتُ أكنّ لهم الإعجاب والتقدير أو الذين أرتبط معهم بعلاقةٍ متميّزة. ومن بينهم أندريه غُلفي، الملقّب بـ«ديدي سردين». الذي دعاني مراراً عديدة إلى نزهاتٍ على متن طائرته الخاصة التي يقودها بنفسه، وهي من طراز Cessna 414 توربو. حتى أنني أتذكّر إقناعه بالمشاركة في رالي المغرب والذهاب بصحبته إلى مرفأ الدار البيضاء لتسلّم سيارة بورش R 911 من المصنع. لحسن الحظ، ظلّ أندريه يؤكّد لي العلاقات القوية التي ربطته بوالدي والمحبّة التي يكنُّها لي، بعد تسعة

عشر عاماً من السجن، بالكلمات وعلى نحوٍ أقلّ بالأفعال. تناقشنا بحرارة مع ديدي وزوجته كادي، ابنة أخ الرئيس بومبيدو، وكذلك مايك مارشال، وابن ميشيل مورغان، أحد المخرجين، وبعض الأصدقاء الفرنسيين.

منذ أن افتتح مولاي عبد الله الحفلة الراقصة، لم تفرَغ الحلبة. وإذا كان حتى الجنرال المدبوح يلهو على الساحة، فهذا لأنّ الجو بات مسليّاً.

مرّ باتريس، ببرودته ورزانته المعتادتين، بجانبي ودون أن يتوقّف للحظةٍ همس لي، مستخدماً اللقب الذي أطلقناه على مولاي علي:

- جيرونيمو.

لم يكن بحاجة إلى أن يوضّح أكثر، انسللتُ إلى المقسم. لدى دخولي إليه، فاجأتُ جيرونيمو على الهاتف وهو يقول لرئيس محرَس الباب الرئيسي:

- أخبر العربي بأن يتّصل بي فوراً على الشبكة الداخلية! أخبره بأنّ PP خاصّته يتلفّظ بحماقات أو أوصل له بأسرع ما يمكن جهازاً آخر!

كانت تلك المرّة الأولى التي أرى فيها هذا الرجل الهادئ والرصين، المعروف بأعصابه الفولاذية، غاضباً. وإذا كان يرفع صوته، فلا بدّ أنّه شديد الانزعاج.

سألته:

- ماذا حدث؟

- لا شيء غير عادي، نريد فقط أن نتأكّد من أنّ كلّ شيء يسير سيراً حسناً. . .

- لماذا استدعيتني من خلال باتريس؟

أمسك جيرونيمو بمرفقي وسحبني إلى الخارج.

- اسمعني بانتباه. . . طلبتُ من باتريس ألاّ يغضّ طرفه عن كأس الجنرال. ولكن هناك الكثير من الأشخاص الذين يغدون ويأتون في

الصالون الذي ينبغي أن تتكفّلا أنتما الاثنين بالانتباه إلى أمره... وتلافي أن يسكب أحدٌ ما شيئاً في كأسه. الزمن رديء يا بني، الزمن رديءٌ جداً.. .أضاف مولاي علي وهو يربّت على كتفي وكأنّه يواسيني على حقيقة محزنة جداً.

ذهبتُ للالتحاق بموقعي. في الطريق، صادفني نادلٌ لاهث.

- بسرعة! إنّهم يطلبونك...

ونحن نجري، أوضح لي:

- الأمير مولاي عبد الله يبحث عنك منذ حوالي عشر دقائق!

وسط الحشد، أصلحتُ سترتي، ومرّرت يدي في شعري. في منتصف المسافة، أوقفني صوت:

- رويداً، سيختلّ هندامك...

بالتفاتي نحو الصوت، كشفتُ ظلّ رجلين جالسين تحت أشجار السرو. كانا إدريس وبوطويل اللذين يُفتَرض أنّهما في بيتهما. أقسمتُ لهما بشرفي على أنني لن أحاول القيام بأيّ شيء هذا المساء، ولكنّهما أجابا:

- يُسعدنا أن نكون هنا، لا تغتاظ للأمر. وإلى أين أنت ذاهب هكذا؟

- إنّه مولاي عبد الله مَنْ يطلبني.

جسّ إدريس لباسي واستعرض مظهري وألقى نظرةً على حذائي وقوّم نزول البزّة على كتفيّ كما أصلح عقدة ربطة العنق التي احتملتها لاستقبال المدعوين. أمّا الآن وقد بدأت السهرة، فلم تعد لي حاجة بها وبقي إدريس جامداً هناك، وبيده عصابة نسيجية مدعوكة!

كان مولاي عبد الله يتحدّث مع سكرتيره الخاص ومرافقه.

- آه! ها أنت هنا! أبحثُ عنك منذ بعض الوقت. عندي مفاجأة لك. ولكن قبل ذلك، هيا لنقابل والدك.

تقدّمته وانسللتُ إلى عمق الصالون بحثاً عن والدي الذي شاهدته إلى طاولةٍ لجنرالات يضحكون بأعلى صوتهم. مذ كنتُ طفلاً، عاشرتُ أولئك الرجال، وأعرف أنّ لا شيء يجعلهم أكثر فرحاً وسعادةً إلاّ حينما يلتقون بعضهم بعضاً ليتذكّروا الطُرَف «الغريبة» (والكلمة ضعيفة) لحملاتهم العسكرية العديدة. وكنتُ أستمع بالشغف نفسه لسرد بطولاتهم في مونت سيرازولو وغاريغليانو ومونت كاسينو ومعركة الرين وسهول الأسل ودلتا نهر ميكونغ. وازداد اهتمامي لحقيقة أنّ والدي قد رفض على الدوام أن يحدّثني عن ذلك. والتفاصيل الوحيدة التي تمكّنتُ من التقاطها جاءتني من رفاقه. ذات يومٍ كنتُ غاضباً فيه من والدي، حدّثني الجنرال حبيبي:

- اسمع جيّداً ما سأقوله لك، ومن ثمّ افعل ما شئت. أوفقير أخٌ بالنسبة لي. ذات يوم بينما كنّا في إجازةٍ في سايغون، وكنّا قد قبضنا رواتبنا. بعد زيارة ضاحيتين من المدينة، ذهبنا إلى حانةٍ. طلب والدك شامبانيا ودفع ثمنها؛ قبل أن تُقدَّم لنا، نهض أوفقير وخاطبنا: «فلنخلِ هذا المكان، إنّه لا يروق لي...» واعترضتُ سدى بحيث شدّني إلى الخارج. لم نمشِ لمئة مترٍ في الشارع حتى أوقعنا عصفُ انفجارٍ على الأرض. وانفجرت علبة الليل. فهذه نصيحة لك: اسمع دائماً كلمة والدك، لديه حاسة سادسة. وكلّما تكبر ستُدرك بأنّه لم يمنعك أبداً من أيّ شيء فقط رغبةً منه لأن يقول لك لا. إنّه يخشى مما قد يُصيبك. إنّه الثمن الذي ينبغي دفعه لممارسة السياسة، ولهذا أنا لا أمارسها!

ظلّت الفرحة عامرة في 2 نيسان (أبريل) 1971. أدلى كلّ جنرالٍ جالسٍ إلى المائدة برأيه في الحادثة المزعجة التي حصلت لواحدٍ منهم. فعلى المصاب بجرحٍ في الأجزاء اللحيمة من جسمه أن يواجه التفسيرات الخبيثة لنظرائه. أكّد أحد الجنرالات أن الطريقة الوحيدة لتلقّي طلقةٍ في العجيزة هي إدارة الظهر للعدو. دافع المعنيّ عن نفسه وأكّد أنّ لا أحد بمنجى عن انفجار قنبلةٍ تسقط خلف ظهره! حديثٌ شابَته ضحكاتٌ

راعدة. فشرب الجنرالات نخباً وهتفوا بالحماسة ذاتها شعار أفواج القنّاصة المغاربة في الحرب العالمية الثانية: «رغم أنّ سروالي ممزّق، لن يرى العدو مؤخّرتي!»

انضمّ إلينا مولاي عبد الله. ضمّه والدي من كتفيه وقبّله:

- آه! ها هو أميري المفضّل!

رفع مولاي عبد الله كأسه:

- لا أدري نخب ماذا تشربون، ولكن إن سمحتم أن ينضمّ إليه مدني!...

- نشرب نخب الماضي، ردّ أوفقير.

- معك حقّ، الماضي قيمة محقّقة. أمّا المستقبل، فبالأزمنة التي تمرّ...

هذا الردّ أضفى برودةً خفيّة. ردّ والدي على الأمير:

- لا ينتمي المستقبل إلى أيّ شخص. وخاصّة إلى رجال الماضي من أمثالنا. سنحاول فقط أن نواكبه كما نواكب عروساً إلى عتبة باب بيتها الجديد دون أن يكون لنا الحقّ في دخوله، ونتمنّى لها سعادةً جمّة!

انتظر مولاي عبد الله أن يصرف الحديث الانتباه عنّا كي يطلب منّا اللحاق به. معتقداً أنّ الأمير يرغب في الحديث إلى أوفقير وحده، شرعتُ في حركة لأنزوي، ولكنّ مولاي عبد الله طلب منّي البقاء.

- كلاّ، لا تنصرف، الأمر يخصّك.

بعينٍ برّاقة، والابتسامة الغامضة لمَنْ يُعدُّ لمفاجأةٍ سارّة، جعلنا الأمير ننتظر عبثاً. ثمّ توجّه إلى والدي، محدّقاً في عينيه:

- أوفقير، تعلم أنني أعتبر رؤوف بمثابة ابن. أعلم أنّك تكابر في ألاّ تؤمّن مستقبل أولادك. فقرّرت، خاصّة بالنسبة لرؤوف، أن أهتمّ بالأمر. أودّ أن أهديه إحدى مزارعي. غداً، سيأتي سكرتيري نصيري لإجراء الأوراق الثبوتية. وسأستمرّ في دفع رواتب المدير والعاملين فيها. والريع

السنوي لهذا المُلك وربحه الصافي سيودعان في حسابٍ مجمّدٍ، حتى يبلغ رؤوف سنّ الرشد.

حدّق والدي في مولاي عبد الله صامتاً، وأشار برأسه أن «كلاّ». لم يفاجئني ردّه، ولكنّ أسلوبه الفظّ في رفض الهديّة الأميرية ضايقني. أصر مولاي عبد الله:

– بماذا قد يسيء هذا الأمر لنزاهتك كرجل دولة؟ سيمكن للجميع أن يتأكّدوا من أنّك لم تختلس هذه المزرعة، ثمّ أنني أهديها لابنك، وليس لك!

خرج أبي عن صمته:

– مولاي عبد الله، أحبّك كثيراً، ولكنني لن آكل من ذلك الخبز. لم أتقبّل قط أيّ شيء، حتى من جلالته.

ذُهلتُ لجفاء الكلمات، بينما جُرِح الأمير بها إلى حدّ الانفعال. وصلت أمّي أثناء ذلك الصمت الثقيل.

– ما الذي يجري؟ يا صاحب السمو، يبدو وكأنّ هناك أمراً جللاً!

شرح لها الأمير الوضع وختم بأن سألها:

– وأنتِ يا فاطمة، ما رأيك في ذلك؟

– اسمح لي، يا سيّدي أن أكون صريحةً معك...

ابتسم مولاي عبد الله:

– إذا فعلتَ عكس ذلك، فلن تعودي أنتِ.

– أرى أنّ على أوفقير أن يعتذر منك على التشكيك في اهتمامك الصادق برؤوف، ولكنني متّفقة مع حقيقة أنّه في الموقع الذي يشغله، لا يمكنه أن يسمح لنفسه بتقبّل هديّتك. برغبتك إسداء خدمة لرؤوف، قد تضعه في الخطّ الأوّل للانتقادات المنحرفة والسفالات السياسية. أشكرك من أعماق قلبي، يا صاحب السمو، لأنّ مبادرتك حيال ابني أثّرت فيّ أبلغ تأثير.

نظر مولاي عبد الله وكأنّه يُشهدني على جنون والديّ. وأضاف:

- ممتاز، ما دمنا في لقاءٍ عائلي، فسأخبركم بما فكّرتُ فيه.

حدّق مولاي مباشرةً في والدي وقال:

- آه، السيد يريد أن يبقى نظيفاً، أليس كذلك! إنّك تحذر المال كما تحذر الطاعون، ولكنّك تدع نفسك تنجرّ في الوحل بلا اعتراض. تجعل أولادك يعيشون نمطاً خاصاً من الحياة، ولكن من بعدك، فليأتِ الطوفان! استفق يا أوفقير، استفق! أمِّن ما يمكن تأمينه بعد! من أجل مَنْ؟ وفي سبيل ماذا تقوم بهذا؟ من أجل مليكك؟

وتابع مقهقهاً:

- ولكنّك لم تفهم شيئاً، يا مسكيني! بدلاً من أن ألقي عليك المزيد من الخُطَب، سأختصر كلّ شيء في حكايةٍ صغيرة. إنّها حكاية أحد أسلافي. كان ذلك السلطان يجول في البلاد ليراقب تحصيل الضريبة. عَبَر مضائق في جنوب المغرب. ولدى عبوره لمجرى وادٍ، فوجئ مع حاشيته بالفيضان. تشبّث السلطان بلجام حصانه وحاول، كيفما كان، مقاومة هيجان الأمواج. جرفه النهر مثل قشّة تبن. وبينما كان يغرق، أُنقِذَ السلطان على آخر رمق من قبل راعٍ بربريٍّ من الجبل. لم يتردّد الراعي، حتى دون أن يعرف من يكون هذا الرجل الذي يتخبّط وسط الأمواج الهائجة، في أن يخاطر بحياته في سبيل إنقاذ المنكود الحظ. بعد أن خرج الملك سالماً معافى، حمّل إلى بيت منقذه كلّ أكياس الذهب التي كان يمتلكها. خرّ الراعي أمام الملك ليرفض هباته بلطف. فاستلّ جدّي سيفه وضرب عنق السيئ الحظ. ساد الوجوم وسط حاشية السلطان! لم يفهم أحدٌ مغزى هذا الفعل الطائش. توجّه السلطان إلى بلاطه: «نحن، العلويون، لدينا سرٌّ في طول عمرنا، وصفةٌ ناجعة لحفاظنا على السلطة: علينا ألا ندين أبداً لأحدٍ بأيّ شيء. تخيّلوا أنّ هذا الرجل الذي أنقذ حياتي، وجد نفسه ذات يوم في معسكر أعدائي، ووقع بين يديّ: سيكون عليّ أن أصفح عنه لأردّ دَيْني. في عالم السياسة، قد يكون الإنصاف

قاتلاً. فإن كنتَ مديناً فهذه عقبة خطيرة، وإن كنتَ متسامحاً فهذا قد يحرّض جرأة أعدائك!»

حاول أبي مقاطعته بقوله:

- مولاي عبد الله، لن نعود إلى ذلك الأمر، سنتحدّث في ذلك مرّة أخرى وحدنا.

ولكنّ الأمير تابع، بلهجة ارتسامية مفاجئة:

- اسمع يا أوفقير، أقول لك ذلك أمام ابنك الذي أعتبره مثل ابني، وأمام زوجتك: إنّك ترتكب خطأً بالتضحية بمستقبل أولادك من أجل غطرستك! تذكّر هذا اليوم، نحن في 2 نيسان (أبريل) 1971! لا نعرف مَنْ منّا سيرحل أوّلاً، ولكن تذكّر يا أوفقير ما سأقوله لك! فقط بسبب شكر مليكك، لن تخرج من القصر إلاّ على نقّالة!

كانت نبرة الأمير بليغة كنبرة عرّاف. وسيصبح حدسه نبوءة! فيما بعد، سأستعيد كلّ معنى الحكاية الأميرية في هذه الكلمات لالكسندر دوما: «إنّها لجمائل عظيمة تلك التي لا يمكن ردّها سوى بنكران الجميل.»

طوال حياتي، وأنا أفكّر في تلك الحفلة الراقصة الشهيرة، سأسمع مرّة أخرى كلمات مولاي عبد الله، وكم كانت صحيحة، وسأحتفظ بصورة تلك الوجوه التي ستختفي في الدم والعنف، في المأساة التي ستُمثّل في قصر الصخيرات الملكي.

طوال تاريخه، كان المغرب أرضاً للطبائع الحربية المتجذّرة عميقاً. في هذه البلاد، تُحبُّ الحياة، ولا يُهاب الموت. القتال ميزةٌ، والموتُ مجدٌ! المغرب بلد الممارسات السياسية المحيّرة. تُدفع الدبلوماسية فيه إلى مصاف الفنّ، والسرّ والمكيدة من قواعدها. في المملكة الشريفية، المماحكةُ تقليدٌ، وحريّة التعبير بدعةٌ، والعنف هو السبيل الأخير.

عنت لي تلك السهرة الوداع الفخيم لجيلٍ بأكمله من ضباطٍ كانوا قد خدموا في الجيش الفرنسي والأسباني والذين شكّلوا إلى ذلك الحين صلة الوصل بين الغرب والمغرب المستقلّ. عاشوا المجد والاندفاع، وسينتهون في عار وخزي المهزومين. هؤلاء الرجال الذين بنوا المغرب وعرشه منذ الاستقلال، سيصبحون منسيّ التاريخ.

الفصل الثاني عشر

ثمار الغضب

إذاً، اتّفق المدبوح وبعض الضباط من ذوي الرتب الرفيعة على ضرورة الشروع في عملٍ لإنقاذ البلاد. وللتغلّب على حيرة وتردّد نظرائه، بدأ الجنرال بوضعهم أمام مسؤولياتهم. إمّا أن يسكتوا ولا يتحرّكوا ويصبحوا شركاء في الانحرافات والاختلاسات، وفي تفسّخ الدولة والقهر الاجتماعي؛ وإمّا أن يتصرّفوا رغماً عن قناعاتهم المناصرة للملكية وعن قَسَمهم بالحفاظ على العرش ولكنّهم يفتحون بذلك باباً للأمل. بل وأفشى المدبوح أسرار القصر وتفاصيل حياة الحسن الثاني لآخر المعاندين. والتأثير الذي أحدثه تجاوز توقعاته وآماله. لقد كان أولئك الضباط الكبار رجالاً شرفاء خدموا الملك إلى ذلك الحين لأنّه كان يجسّد رمزاً موحّداً للأمّة. وإذ اكتشفوا فداحة المصيبة ومَلِكاً فشل في أداء دوره، ولم يعد ينتزع احترامه ولا يجسّد مبادئهم، اتّفقوا على أن يتصرّفوا.

وجّه الجنرال المدبوح برهاناً بالغ الأهمية: ما لم يتصرّف قادة الجيش في الوقت المناسب، فإنّهم يعرّضون البلاد لثورةٍ يقوم بها ضباطٌ من الجيل الجديد ، على غرار النموذج الليبي! أخيراً، تغلّب على آخر حالات التردّد بتأكيده على أنّ حياة الحسن الثاني ستُحفَظ: على الملك أن يتنازل عن العرش لابنه سيدي محمد البالغ ثمانية أعوام. وسيضمن مجلسٌ للوصاية، منصوصٌ عليه في الدستور، الشرعية. بضم الجنرالات

إليه، أراد المدبوح أن يجعل من CNR[1] هيئةً مقبولة ومحتَرَمة من قبل الحكومة.

بعد الاتفاق على الخطوة التي ينبغي اتّخاذها، فوّض كبار الضباط رئيس ديوان الملك العسكري تدبير الانقلاب العسكري. منذ ذلك الحين، انكبّ المدبوح على البحث عن الوسيلة التي ستنفّذ بها هذه الخطط. ولتنفيذ انقلابه، تحالف مع رجلٍ نشيط، المقدّم امحمد عبابو[2]، أصغر ضابطٍ رفيع سنّاً في الجيش المغربي، وصاحب أفضل الدرجات أيضاً. كان هذا الريفي المتحدّر من أكَنول، القرية التي وِلِدَ فيها المدبوح، مديراً لمدرسة ضباط الصفّ في هرمومو التي يُدرَّب فيها خيرة المشاة المغاربة.

في 3 آذار (مارس) 1971، وبمناسبة عيد العرش، نال امحمد عبابو، في الثالثة والثلاثين من عمره، رتبته كمقدّم. في اليوم ذاته، نال شقيقه البكر، مُحمد عبابو، الرتبة ذاتها. كان فارق السنّ بين الشقيقين أربعة أعوام. ومن سخرية القدر، أنهما ولدا الشيخ عبابو بن مسعود، الذي يحمل اسم رجل الأعمال نفسه الذي لحقت به الفضيحة، الذي ساوم شركة بان آم للخطوط الجوية. وإذا كانا، حسب القانون الغربي، أخوين غير شقيقين، فإنّهما، حسب الشريعة الإسلامية، شقيقان شرعيان.

كان لامحمد عبابو، الأصغر، نفوذاً أكيداً على شقيقه البكر. كان الأصغر أصهب، والأكبر لا شأن له. امحمد شخصٌ قاس، ومُحمد ضعيف. الأوّل رجلٌ قيادي، والثاني لم يكن قائداً ماهراً. أعجب مُحمد في أخيه الأصغر بالسطوة الفطرية والجرأة التي يفتقر إليها. وإذا كان امحمد عبابو يدين في الجزء الأكبر بهذه الترقية لكفاءته، فإنّ مُحمد، البالغ سبعة وثلاثين عاماً، يدين للظروف. مرّ ما يقارب عامين على

(1) المجلس الوطني للوصاية.

(2) للتمييز بين الأخوين عبابو، عمدنا إلى وضع ألف كما يحصل في المغرب M'Hamed ووضع ضمة للثاني Mohamed. المترجم

الإعداد للانقلاب. وبعد أن اتُّخِذ القرار من قبل المعنيين الرئيسيين بالانتقال إلى الفعل، أراد المدبوح أن يمنح لنفسه كلّ الوسائل لإنجاحه. لم تكن ترقية الأخوين عبابو منفصلةً عن هذا الموضوع، لكون رئيس الديوان العسكري للملك والجنرالات الانقلابيين من الأعضاء المؤثّرين في لجنة الترفيع. وبالرغم من أنّ الحسن الثاني هو الوحيد الذي يتّخذ القرار النهائي، فإنّ تقدير القادة الأكثر نفوذاً للجيش قد ساعد على توقيع الأمر الملكي بهذه الترقية.

كان امحمد عبابو ينتمي إلى الجيل الجديد الذي لم يخدم في الجيش الفرنسي، رغم أنّه نال شهادةً، مع تنويه، لدى تخرّجه من المدرسة الحربية في باريس. الأمر الذي جعله يستحقّ أن يلقّبه زملاؤه بـ«نابليون الصغير». يخاطبه الجميع «سيّدي العقيد» في حين أنّ عبابو الأكبر بقي يُلقّب برتبة المقدّم رتبته الفعلية. وهي ترجمة لهيبة أحدهما والانتقاص من شخصية الآخر. من جهة أخرى، كان مُحمد، بعد إدارته لمركز الحاجب لمجنّدي السَوْقيّات، الواقع على بعد حوالي ثلاثين كيلومتراً من مدينة مكناس، في عداد مدرسة الأركان في القُنيطرة[1].

كان امحمد عبابو مكتنزاً قويّ البنية. لم يكن العقيد، القصير والمتين الظهر، يطرح على نفسه أسئلة. كان يتصرّف. أسلوبه: مباشرةً إلى الهدف. قوانينه: كلّ الطلقات مسموحة، شريطة أن يُصاب الهدف. وإذ كان صاحب طموح جامحٍ، أدرك سريعاً أنّ طموحه من غير ثروة سيكون محدوداً. فاغتنى أيضاً. والمفارقة هي أنّه لم يكن رجل مالٍ ولا رجلاً برجوازياً كذلك. وإن لم يزدرِ الذهب، فإنّه لم يبجّله أيضاً. ومع أنّه كان يملك مزارع وفندقاً وأموالاً غير منقولة، بقي عبابو جندياً في النفس والروح. بحث في الثروة عن النفوذ الذي توفّره، وظلّ لامبالياً بالرفاهية

---

(1) مدينة على ساحل الأطلسي، تقع على بعد 30 كيلومتراً من الرباط، وتوجد فيها القاعدة العسكرية الأمريكية الرئيسية في المغرب.

التي لازمته بشكلٍ عام. وقد عاش، وهو الثري، حياةً قاسية لعسكريٍّ حقيقي. كان شجاعاً إلى حدّ التهوّر ومتسلطاً إلى حدّ الطغيان، يحب أن يقود ويأمر، وكان الجيش حياته. ولينجح في مهنته لم يكن ليتردّد في بيع روحه للشيطان. أيّاً كانت الأهداف، وبغضّ النظر عن الطريقة، منح العقيد نفسه الوسائل لرؤيتها تتحقّق. أتاح له رخاؤه المادي تأكيد سطوته على رجاله، وتحسين الإطعام المشترك للجيش، وتدليل ضبّاطه، وتنظيم حفلات عشاء غنيّة، وسهرات عامرة للضباط الكبار الذين كان يدعوهم إلى هرمومو أو إلى إحدى ڤيلاته. وتقول الإشاعة إنّه يدين برتبة المقدّم لعلاقاته مع أحد المقرّبين من الملك، مولعٍ بلعبة البوكر وعضوٍ مؤثّر في لجنة الترفيع. ربّما اعتقد حُماته آنذاك، إن كان لديه الكثير منهم، بأنّ هذا الضابط الشاب ذا الطموح الجامح ما كان يطمح سوى إلى أن يحظى بمكانٍ تحت الشمس. وأن يكون مهيّأً لأن يلعب لعبة النظام الحسني؛ وأن يقبل بأن يصبح خاضعاً للمال، وقريباً من البلاط وهباته. وهكذا، عُيِّن في بداية المهنة كمرافق للأمير مولاي عبد الله، الموقع الذي لن يُطيل هذا الرجل النشيط البقاء فيه. وسوف يقول البعض، غداة انقلاب الصخيرات، بأنّه قد ارتكِب خطأٌ جسيم بترك «الذئب يدخل إلى الحقل»؛ وبأنّه ما كان ينبغي إدخال رجلٍ مثله إلى عالم القصر لأنه كان ليُدرك الهوّة التي تفصل حياة البلاط عن الواقع المغربي. وهذا اختزالٌ لا آخذُ به. فإذا كان يُمكن التأكيد أنّ الخصال الأخلاقية واستقامة المدبوح دفعت الجنرال إلى الثورة ضدّ التبذير والابتزاز والاختلاس، أيمكِن قول الشيء ذاته عن عبابو؟ فمن وجهة نظره، ليست الفضيلة الطريقة المُثلى لارتقاء السلّم على أمل فرض سلطته: أَلم تُثِر النزاهة شبُهات القصر وارتيابه؟ أَلم يجرِ إقصاء وتحطيم وإذلال العديد من كبار الضباط المغاربة لرفضهم أن يبيعوا أنفسهم للنظام؟

سنح عيد العرش في 3 آذار (مارس) 1971 الفرصة لبعض الاتصالات السرية، والعديد من الاجتماعات لكوادر الجيش التي عُقِدَت في الرباط.

استغلّ امحمد عبابو الفرصة ليقوم بزيارة مجاملة للجنرال المدبوح. الذي كان طريح السرير، تمارضاً وسبيلاً وحيداً لإحباط المراقبة الملكية. تناقش المدبوح وعبابو لمدّة قصيرة ولم يُطيلا في الحديث. أبلغ الجنرالُ مديرَ مدرسة هرمومو بأنّ توقيت العملية قد حُدِّد في 14 أيار (مايو)، يوم عيد الجيش الذي يحتفل فيه بالذكرى السنوية لتأسيس القوات المسلحة الملكية FAR حيث تُنظّم سنوياً مناورات عسكرية في الحاجب[1]، يترأسها عموماً الملك. وبالتالي يُفترَض أنّ موكب الحسن الثاني سيسلك طريقاً جبلياً تمرّ منعرجاته بين حينٍ وآخر بأسواقٍ للّحم، ومقصوراتٍ خرسانية يأتي إليها فلاحو المنطقة في الأسبوع ليومين أو ثلاثة ليبيعوا منتجاتهم. الجنرال أمر عبابو أن يتأهّب، حيث تشارك مدرسة الضباط التلاميذ في هرمومو تقليدياً في تدريبات الحاجب وفي العرض العسكري الذي يختمها.

ارتكزت الخطّة النهائية على تدخّل العقيد ووحدة كوماندوس صغيرة، مكوّنة حصراً من رجال يتمتّعون بدرايةٍ قويّة بالقتال وبالأوضاع الطارئة. وعلى إخفاء هذه الوحدة في حوانيت اللحّامين المنتشرة على خط سير الموكب الملكي. علاوة على عنصر المفاجأة، سيمنح الكمين للكوماندوس موقعاً مثالياً لإطلاق النار. وإذا ما امتنع الأمن الملكي، كما يُفتَرض، عن تسليم الحسن الثاني، فسيكون لرجال عبابو التفوّق بسبب عنصر الأرض مع سلاحهم الحربي وميزة الرماية من جهات مختلفة. إذاً، تعليمات المدبوح واضحة: توقيف الموكب الملكي، وتحييد الحراسة القريبة بتجنّب إطلاق النار على سيارة الحسن الثاني الليموزين المصفّحة، ثمّ القبض على العاهل حيّاً وعزله مع الحفاظ على التقدير والاحترام الواجب لمكانته.

في اللحظة الأخيرة، ألغى الجنرال العملية. وقد أُثير الكثير من

---

(1) ضيعة صغيرة بين مكناس وايفران في الأطلس الأوسط.

الجدل حول ذلك التأجيل الذي عُزي إلى طوّافة للدرك الملكي كان يمكن لحضورها «الطارئ» أن يؤدي إلى اكتشاف فصيلة عبابو. ولم يكن ذلك إلاّ محض هذيان. لا يسرع الرجال هكذا أبداً في اختلاق حقيقةٍ إلاّ حينما تفوتهم. فالمراقبة الجوية للموكب الملكي تُتَخذ في كلّ تنقّلات الملك. والمدبوح يعرف ذلك جيّداً من خلال موقعه. الحقيقة هي أنّ الشك داخَلَ الحسن الثاني. وكرجلٍ مجرّب، اتّخذ تدابيره. غادر الموكب فعلاً القصر باتّجاه الحاجب، ولكن في الطريق، غادر الملك سرّاً سيارته الرسمية. خلف الزجاج الملوّن تلويناً خفيفاً لسيارة المرسيدس 600، كان رجلاً بديلاً يمثّل دور الراكب الرسمي، بينما سافر العاهل في مركبةٍ عاديّةٍ ولم يلتحق بسيارته الليموزين إلا قبل كيلومترين أو ثلاثة من موقع المناورات.

الطوّافات التي ترافق الموكب، وعادة ما يكون عددها طوّافتين غير مسلّحتين لكونها مخصّصة للاستطلاع، تبقى على اتّصالٍ دائم مع الأمن على الأرض، الذي يمكنه استباق أيّ هجوم إذا ما أُخبِر بأيّ حادثٍ كان. ما أقنع الجنرال بإرجاء إلقاء القبض على الملك هو أنّ عديد المرافقين كان قد ضوعِف هذه المرّة أربع مرات، وأنّ ستّ طوافات راقبت الموكب، مسلّحة ومليئة بوحدات الكوماندوس من الحرس الملكي، يؤازرها رجال جهاز SSS.

بالتأكيد كان بوسع المدبوح أن ينتظر نهاية مناورات الحجاب والعرض الذي يختمها. باستعراضه الجيش أمام الحسن الثاني، سيكون قد سهّل لعبابو وضباطه التلاميذ الهجوم على المنصّة الرسمية لإلقاء القبض على الملك، ولكن هذا جهلٌ بأنّ القوات التي تحضر أمام الملك مجرّدة من السلاح على نحوٍ منظّم. وإذا ما استعرضت الوحدات ببنادقهم الرشاشة على أوراكهم أو في حمالاتها، فإنّ القوادح تُكون مصادرة من قبل الحرس الملكي والمخازن مفرغة من طلقاتها.

إذاً، فشلت المحاولة. ولكنّ الجنرال أكّد لعبابو أنّ ذلك ليس إلاّ تأجيلاً للأمر، وأنّه سيعطيه، عمّا قريب، الإشارة.

أمر المدبوح العقيد بأن يكون متأهّباً في كلّ لحظة. كظم عبابو تلهّفه وواصل إخفاء دوافعه الحقيقية وعزمه على التخلّص من الحسن الثاني بطريقته الخاصّة. ارتكب المدبوح هنا خطأه الأوّل، الذي ستكون له عواقب وخيمة فيما بعد. اعتقد الجنرال أنّ عبابو ليس سوى أداة لتنفيذ قرار وبرنامجٍ لن يكون له تأثير عليهما، ومنفّذٍ لعملية مسلّحة، في حين كان لامحمد عبابو طموحات مختلفة عن مجرد إنجاح انقلاب ليعود لاحقاً بكلّ هدوء إلى ثُكنته دون أن يطمح إلى التأثير على سلسلة الأحداث. والاعتقاد بخلاف ذلك هو سوء معرفة بنفسيته.

حتى حلول الصيف، لم يكفّ الجنرال المدبوح عن ترقّب اللحظة المناسبة للانتقال إلى العمل. ولكن عبثاً.

في 14 حزيران (يونيو) 1971، بوشر في مراكش بقضية جديدة تمسّ أمن الدولة. وهذه المرّة، كان المتّهم هو الجناح العسكري للمعارضة الذي كان زعيمه الفقيه البصري يقود ذلك الاتّجاه الموالي لحزب البعث انطلاقاً من ليبيا أو سوريا أو مصر. كان الفقيه، العروبي، في المنفى منذ ثلاث سنوات، بضيافة حاميه وصديقه العقيد القذافي الذي قدّم له الأسلحة ومعسكرات التدريب وموارد مالية هائلة. كانت أيديولوجيته المستوحاة من الشرق مصدر الثورات العربية التي أطاحت بملكياتها. ممتشقاً السلاح، طالب الفقيه باستقلال بلاده، وواضعاً «السكين بين أسنانه» لم يكفّ عن الرغبة في الإطاحة بالحسن الثاني. لم تكن المسألة هي إن كان أناسٌ من أمثاله والمهدي بن بركة سيقيمون نظاماً أسوأ أو أفضل من نظام الحسن الثاني، وإنّما الاعتراف بالشجاعة والجدارة والعزم التي امتلكوها في الدفاع عن قناعاتهم! تلك المحاكمة التي بوشِر بها أنست لفترةٍ الوضع المتوتّر بين الملك وأقرب جنرالاته. أراد المدبوح أن يستغلّ ذلك لكي يجد الحلّ للأزمة التي تتآكل المملكة.

ففي شهر حزيران (يونيو) نفسه من عام 1971، ستمرُّ مناسبةٌ أخرى. نظّم الحسن بمناسبة عيد ميلاد ابنه الأخير، مولاي رشيد، البالغ بالكاد

عامه الأوّل، حفلةً مدهشة. بالقرب من إيفران، في مسبحٍ محاطٍ بغابةٍ من الصنوبر، على بحيرةٍ صغيرةٍ عامَ مسرحٌ كبير على صفحة الماء. هناك، وسط الطبيعة، قرّر الحسن الثاني أن يقيم سهرة لحوالي ألف مدعوٍ. نُصِب مخيّمٌ من خيم الزعامة مع جميع وسائل الراحة العصرية وسط دوحةٍ مخضوضرة. كانت المآدب باذخة، والمنظر خلاّباً. وسترقص فرقة باليه شهيرة **بحيرة البجع** على مستوى ماء البحيرة. ورصّعت مئات الطنافس حواف البحيرة. وحمل جنود الحرس الملكي، بالزي الرسمي، منتصبين كالأوتاد، المشاعل. زُيِّنَت الغابةُ بالشرائط المزخرفة، وبات المشهد فاخراً. وكان لا بدّ من إطلاق أسهم نارية لاختتام الحفلة. هذه النزوة الملكية «الصغيرة» عبّأت كالعادة وسائل الدولة ومالها. أمر الحسن الثاني بأن تكون المآدب لوحة جدارية بحرية وسط الجبل، فقد وصل ألف صنفٍ من الأسماك والأصداف وتلالٍ من الكافيار والكَرْكَند والإربيان في اليوم ذاته بطائراتٍ خاصّةٍ من الخارج. إنّ رؤية فرقة باليه تقوم بحركاتٍ على صفحة المياه وسط الطبيعة تخصّ الحكايات وحدها. لقد استحضرت تلك المراسم الاحتفالية وتلك المنبسطات المزيّنة بروعةٍ فائقة حكايات **ألف ليلة وليلة**.

عقد المدبوح النية في البداية على تطويق المكان بتلاميذ العقيد عبابو. وهذه المرة، لن يتدخّل بعض المغاوير من فصيلة خاصّة فحسب، بل مدرسة هرمومو برمّتها. ستتقدّم الوحدات تحت غطاء الغابة وتحت جنح الليل، ثمّ ستطوّق المسبح الذي تجري فيه حفلة الاستقبال. سُرَّ عبابو بالخبر. بعيداً عن المدن وعلى أرضٍ ملائمة للسطو، شعر بأنّه فعلاً في بيئته. حينما تكلّم المدبوح في الأمر مع العقيد الشلواطي والجنرال بوغرين، أرسل هذان الأخيران، كمقاتلَين محنّكَين، تحذيرات: فقد قدّرا أنّ هجوماً ليلياً في مكانٍ مفتوح يجتمع فيه المئات من المدعوين سيكون خطأً. فإذا ما أُطلقَت أوّل طلقةٍ من قبل مظليّ الحرس الملكي المنتشرين في الغابات، سيؤدّي هذا إلى حالة ذعرٍ شديدة بحيث سيكون من المتعذّر

تجنّب عواقب وخيمة وقد يتمكّن الحسن الثاني من استغلال الفوضى للهروب. وإذ رأى المدبوح أنّ مخاطر العملية تتجاوز كثيراً المجازفة المعقولة، استسلم لهذا الحكم.

مرّة أخرى، أُرجِئ الانقلاب. ومرّة أخرى كظم العقيد عبابو غيظه. ارتاب في أمر رؤوس المؤامرة وخشي أن تخونهم شجاعتهم معتقداً أنّ لهؤلاء الرجال الكثير من الذكريات المشتركة مع الملك تجعلهم يضعفون أمامه. ورأى أنّ قرارهم بالحفاظ على حياة الملك يُظهر ذلك لاشعورياً. أمّا العقيد، فلم يكن له سوى هدف وحيد: القضاء على الحسن الثاني ونظامه. وعقد النيّة على القيام بذلك بطريقته الخاصّة!

حلّت مناسبة جديدة بعد شهرٍ من ذلك، حينما كان على الملك أن يحتفل بعيد ميلاده. تردّد المدبوح مرّة أخرى: في الواقع، سيكون هناك حشدٌ غفير في هذا الاحتفال. وسيُدعى إليه العشرات من الرعايا الأجانب، وخشي الجنرال من حدوث انحرافٍ عن مسار العملية.

من جهته، لفت عبابو نظره إلى أنّ الوقت يُداهم وأنّ هذه الفرصة لن تُتاح في وقتٍ قريبٍ. أشار العقيد إلى أنّ دورة الضباط التلاميذ الذين درّبهم قد بلغت مراحلها الأخيرة وأنّ هؤلاء العناصر سوف يغادرون المدرسة بعد الصيف، وبالتالي سيكون عليه أن يدرّب دورةً جديدة من المجنّدين. وألحّ على وجوب التصرّف قبل أن يتفرّق الجنود المدرّبون في مختَلَف قطعات الجيش. إنّها الفرصة الأخيرة. الانقلابيون في طريقٍ مسدود.

في يوم الأربعاء 7 تموز (يوليو)، عُقِد في الرباط الاجتماع السنوي لمدراء المدارس العسكرية في المملكة الذي يسجّل نهاية كلّ دورة أكاديمية. حضره العقيد عبابو وشقيقه الأكبر مُحمد. الأوّل بصفته مديراً

لمدرسة هرمومو والثاني بصفته ضابطاً إدارياً في مدرسة الأركان في القُنيطرة، كان وجود الشقيقين في الرباط مبرّراً.

استغلّ امحمد عبابو ذلك ليلتقي بالجنرال المدبوح في بيته. كان رئيس الديوان العسكري طريح السرير، في تمارضٍ جديدٍ مرتبطٍ بمشاكل في الأوعية القلبية. وإذ يعدُّ توجيز الحديث أفضل ضمانٍ للسريّةِ، عرض المدبوح بعباراتٍ موجزة خطّته للعقيد. ثُبّت توقيت الانقلاب بشكلٍ نهائي في 10 تموز (يوليو) أثناء الاحتفالات بعيد ميلاد الحسن الثاني. وعلى قوات عبابو أن تشارك في مناورات جديدة تتزامن مع الاحتفالات الملكية. وستحدث هذه التدريبات بالذخيرة الحيّة في بن سليمان، التي تقع على بعد ثلاثة وثلاثين كيلومتراً بالضبط من الصخيرات، وتدخل في الإطار الروتيني للأعمال العسكرية. وقد استغل المدبوح والجنرالات الانقلابيين نفوذهم في هيئة الأركان بمهارة لكي تجري هذه المناورات بالضبط في الوقت الذي سيقيم فيه الحسن الثاني حفلته الساهرة التقليدية في قصر الصخيرات الملكي. وسترسل مديرية سوقيّات الجيش إلى هرمومو كلّ المعدّات الضرورية للعملية، مانحةً بذلك لتلاميذ عبابو ترسانة حربية حقيقية. كانت كمية المعدّات والأسلحة ومدافع الهاون والذخائر كافية في الواقع للاستيلاء على مدينة!

بعد أن غادر منزل المدبوح، التقى عبابو في المساء ذاته شقيقه الذي أخبره بيوم الهجوم، مؤكّداً له أن لا إرجاء هذه المرّة. قال له:

- كن مستعداً، سأحتاج إليك...

ترك العقيد شقيقه الأكبر يعود إلى القنيطرة حيث يعمل ويُقيم. كان على مُحمد ألا يبارح مكانه تحت أيّ ظرف، إذ أراد امحمد عبابو أن يستطيع الوصول إليه في أيّة لحظة. أمّا هو، فقد مكث في الرباط، إذ كان عليه أن يلتقي في اليوم التالي، 8 تموز (يوليو)، الجنرال المدبوح بغية وضع التفاصيل النهائية للعملية...

يوم الجمعة، 9 تموز (يوليو)، طلب امحمد عبابو من شقيقه الأكبر أن ينضمّ إليه في ڤيلاه في **الرمال الذهبية**، وهو منتجع فاخر يبعد عن العاصمة حوالي خمسة عشر كيلومتراً. وكان العقيد قد اشترى فيه منذ فترة قليلة منزلاً قُبالة فندق **لافلوك**، أحد أفخم وأغلى فنادق ومطاعم الشاطئ. قبل اللقاء بقليل، هاتف عبابو شقيقه:

- حصل تغييرٌ في الخطّة، انضم إليّ في بيت المقدّم فتوحي في تمارة[1]!

أثناء الغداء، طلب امحمد عبابو من المقدّم أن يهتمّ بنقل زوجته وابنته سميرة لتستقلاّ طائرة إلى الخارج في اليوم التالي. كان عبابو، الحَذِر بطبعه، الوحيد من بين الضباط الانقلابيين الذي نأى بعائلته عن الخطر. رغم القوة المسلحة الاستثنائية التي كانت بحوزته ليهاجم على نحوِ مباغتٍ قصر الصخيرات، وضع في الاعتبار احتمال الفشل! بعد مغادرة منزل المقدّم فتوحي، غادر الشقيقان الرباط بعد الظهيرة. توقّفا في القنيطرة، ثمّ توجّها إلى هرمومو، التي وصلا إليها نحو الساعة السابعة والنصف.

كانت مدرسة ضباط الصف تقع في الجبال، على بعد ثمانين كيلومتراً من فاس، تماماً بالقرب من دوّار العادين[2]. في هذا المركز التدريبي المعروف بقسوة تدريباته، تُدرّب قواتٌ من النخبة ووحدات كوماندوس مروّعة. تمتدّ الثُكنة، الجاثمة على قمّة صخرية، على ارتفاع ألف ومئتي متر على سفح جبل بويبلان، الطرف الشرقي الأكثر ارتفاعاً من الأطلس الأوسط، عماراتها الضخمة مطلية بالكلس. وهي تطلّ على وادي زلول الرائع الذي تسدّه في الأفق القمم المثلجة لأعالي الجبل البربري.

---

(1) منتجع سكني مجاور.
(2) موقع مقاومة التهدئة الفرنسية.

حالما وصل إلى هرمومو التي يحكمها كقائدٍ لها، دعا العقيد عبابو ضبّاطه إلى قاعة الاجتماعات الفسيحة. استمع النقباء الشلاط وغيلول وبلكبير وبندورو إلى رئيسهم في وضعية استعداد:

- غداً سنذهب لإجراء مناورات في بن سليمان (ثلاثون كيلومتراً إلى جنوب غرب الصخيرات). ستكون هذه التدريبات أكثر أهمية مما هو عليه في العادة. أرسلت هيئة الأركان خمس عشرة شاحنة من المعدّات.

حينما طلب الضباط المزيد من التفاصيل عن العملية، أكّد لهم عبابو:

- ستأتي الأوامر أوّلاً بأوّل ومن الأعلى... وسننفّذها في موعدها وحرفياً!

سُلِّم لكلِّ نقيبٍ بندقية رشّاشة، ومسدّساً أوتوماتيكياً، وستّة مخازن وأربع قنابل يدوية هجومية. ثمّ اجتمع عبابو بقادة اللواء الخاصّ وعُرفاء وحدات الكوماندوس الخمس والعشرين التي تضمّ الواحدة منها حوالي خمسين جندياً. واللواء الخاصّ مكوّن من حوالي ثلاثين ضابط صفّ مختارين بدقّة ويقودهم بعض الضباط الذين يثق عبابو بولائهم المطلق. تُستخدَم هذه الوحدة بمثابة ممثّل العدو[1] حينما تقوم مدرسة الضباط التلاميذ بمناورة. أوكل عبابو مهمّة استنفارها إلى النقيب بلكبير، وهو ضابط سابق في الدرك، وقد أصبح مدير التدريب في المدرسة. وأصرّ العقيد على ألاّ يُختار في صفوف هذا اللواء الخاص إلاّ أفضل التلاميذ: الأقوى ذهنياً، الأرفع درجات في التدريب، ولاسيما الأكثر تبعيةً لسلطته.

- أريد رجالاً لا يتراجعون أمام أيّ شيء ويمكن الاعتماد عليهم مئة بالمئة في حالة حدوث حادثٍ مؤلم...!

بعد إعداد رجاله للمناورات الاستثنائية التي تنتظرهم، غادر امحمد عبابو هرمومو ليلاً. رافقه شقيقه حتى مكناس. وقبل أن يفارقه أطلع

---

(1) وحدة محدودة تلعب دور الأعداء أثناء قيام القوات بالمناورات.

العقيد شقيقه الأكبر على أمر المهمّة الموقّع أصولاً من قبل السلطات العليا للقوات المسلّحة. عاد مُحمد إلى القنيطرة وذهب امحمد عبابو إلى إحدى ڤيلاته قرب الرباط. ثبّت العقيد الموعد لشقيقه في اليوم التالي، 10 تموز (يوليو) في الساعة السادسة والنصف صباحاً. قال له:

- تعال إليّ في بيتي في الرمال الذهبية.

دار قدرهم.

الفصل الثالث عشر

مجزرة الصخيرات

السبت 10 تموز (يوليو)، الساعة الثالثة فجراً. عمّ هرمومو هيجانٌ خاصّ. دوّت أصداء ضجيج الجزم في باحات الثُكنة، وهدير محركات المركبات. أدارت ستون شاحنة مرسيدس محرّكاتها، وجميع أنوارها مشتعلة. وشكّلت رتلين منفصلين، قوام كلّ منهما حوالي ثلاثين مركبة. تنقل خمس عشرة منها الأعتدة والذخائر، مرسلة من المكتبين الثالث والرابع (اللوجستي والعمليات) لهيئة الأركان التي يقودها العقيد العربي الشلواطي، وهو نقيبٌ سابق في الجيش الفرنسي، مُنِح العديد من الأوسمة وهو قائد العمليات اللوجستية في القوات المسلّحة الملكية. انطلق تلاميذ مدرسة ضباط الصفّ، معتمرين الخوذ ومسلّحين، بانضباطٍ وهمّة. عوّدتهم قسوة التدريب الذي تلّقوه على التنفيذ السريع للأوامر ومن دون نقاش. ضبطت أوامرُ معطاة بصوتٍ مرتفع إيقاع المناورة. هرع رتباء إلى سياراتهم الجيب، تحرّكت القافلة الأولى، وعلى رأسها النقيب الشلاط، البالغ ثلاثة وثلاثين عاماً، وهو بربري ينحدر من منطقة الجنرال بوغرين نفسها. وقد أمضى عشر سنوات في مدرسة هرمومو، وأتمّ تدريباً لتسعة أشهر في مدرسة الكوادر في القنيطرة. وبناءً على أمر وتدخّل امحمد عبابو أخذ هذا النقيب، في أواخر حزيران (يونيو)، أسبوعين من الإجازة ليلتحق بتخصصه الأوّل ويضع نفسه تحت تصرّف رئيسه السابق. وقد أوكل الكولونيل إليه مهمّة قيادة القافلة الأولى.

في الساعة الثالثة والربع فجراً، عَبَر الرتل الأوّل بوابة الثُكنة وتوجّه نحو الشمال الغربي. وعلى الطريق تُرِكت مسافة مئة متر بين الشاحنة والأخرى. إنّها أوامر عبابو. وسارت سيارة جيب تابعة للواء الخاصّ في مؤخرة القافلة.

في الرابعة والربع، انطلقت القافلة الثانية. وكانت بقيادة النقيب محمد غيلول، من اللواء الخاصّ، يساعده الملازمان الأوّلان المنصوري والغالو، المدرّبان القتاليان. سارت القافلة سريعاً على الطريق الدولي P1، باتّجاه العاصمة، وكان الرقيب أوّل أنيس سعيد سائقَ الشلاط. باشرت سيارتهما الجيب المسير. وسارت مركبة تابعة للواء الخاصّ في مؤخّرة القافلة.

نحو الخامسة صباحاً، طافت أولى الشاحنات بمدينة فاس عبر طريقٍ عرضيٍّ يشرف على المدينة القديمة. ولكونها مضطرّة لسلوك جادة الحسن الثاني للوصول إلى الطريق الرئيس الذي يقود إلى الرباط، أبطأت المركبات من سرعتها لتمرّ بأقصى ما يمكن من السريّة من الضاحية النائمة. لدى الخروج من المدينة، حادت القافلة عن الطريق الدولي P1 لتسلك P3 المارّ عبر سيدي قاسم والذي يصل إلى القنيطرة، المجاورة للرباط على بعد حوالي خمسة وثلاثين كيلومتراً. كان عليها أن تتسلّق فج زكوطة، بالقرب من الآثار الرومانية لمدينة وليلى. تحت رحمة ارتفاع القمم، لم يكن من الممكن التقيّد بالفسحة النظامية الفاصلة بين الشاحنات. فجمع النقيب الشلاط مركبات قافلته على قمّة زكوطة قبل الشروع في النزول إلى السهول الأطلسية. بزغ الفجر. وتقدّم بعدها أسطول المركبات بشكل مكشوف. وسيتساءل البعض في أعقاب الانقلاب، كيف أُتيح لألف وأربعمئة جندي وستين شاحنة أن تتمكّن من التقدّم من هرمومو إلى الصخيرات دون أن يُكشفوا؟ مع أنّهم عبروا منطقتين عسكريتين. الجواب أبسط بكثير من الشُّبهات الموجّهة من قبل البعض الذين يزعمون بوجود تساهل وتواطؤ من قبل وزارة الداخلية،

وبالتالي من قبل الجنرال أوفقير. لا بدّ أن نعرف أنّ القوات المسلحة الملكية، إلى ذلك التاريخ، 10 تموز (يوليو) 1971، كانت تُعتَبَر من قبل المراقبين والمحللين، المغاربة والأجانب، الجيش الأكثر احترافاً والأكثر ثقةً والأكثر إخلاصاً في أفريقيا وفي العالم العربي. لقد تميّز على الدوام عن حُرّاس الطغاة على النمط السعودي أو القوات سليلة الكفاح الشعبي كما في الجزائر واعتبرت هذه القوات على الدوام عماد الملكية وحاميها. بالإضافة إلى ذلك، كانت القوات المسلحة الملكية تجري على الدوام مناورات بالذخيرة الحيّة. وهذه التدريبات التي تحصل كلّ عام لمرّتين أو ثلاث مسموحٌ بها من قبل الملك وتحظى بكلّ الموافقات الموقّعة والمصدّقة من قبل أرفع مسؤولي الجيش.

في أوائل تموز (يوليو) 1971، كانت السماء مشرقة والحرارة شديدة كالمزاج المغربي. إلا أنّ عاصفة لا سابق لها تهيّأت لتُظلِم ذلك الصيف الرائع. وستُدخل فاجعة مرعبة المملكة الشريفية في الحداد. وستطبع الأحداث التي تتهيأ لأمدٍ طويل مشهدها السياسي. منذ سنتين، بدأت فكرة انقلابٍ عسكري تنبتُ في ذهن بعض القادة العسكريين من الصفّ الأوّل. وهذه المرّة، تحرّكوا.

في العاشرة، عبرت قافلة النقيب الشلاط الأولى القنيطرة. وبات يفصلها عن العاصمة حوالي عشرين كيلومتراً. يفصل الطريق الثلاثي الخطوط، بين الرباط والقُنيطرة، المحيط الأطلسي والذي يحاذيه مئة وخمسة وأربعون ألف هكتار من الأشجار الحراجية وبلوط الفلّين عن غابة معمورة. وعلى الطرف الغربي من هذه الغابة الكثيفة، بالقرب من ضيعة سيدي بوقناديل المشهورة بحاناتها التي تقدّم لحوماً شهيّة، لبدت القافلة وسط الأحراش. قُدّمت للقوات جراياتها الغذائية، ومن ثمّ قُدِّمَت لها قهوة ثقيلة. بانتظار أن تلتحق القافلة الثانية للنقيب غيلول والملازمين

الأوّلين المنصوري والغالو، التي انطلقت من هرمومو بفارق ساعة، بالوحدة الأولى للتلاميذ الضباط والتي توقّفت في مأمن.

أوقف النقيب غيلول قافلته بعد القاعدة الأمريكية في سيدي يايا. ولكنّ سيارة الجيب التابعة للواء الخاصّ التي تسير في مؤخرة القافلة أمرته بمواصلة المسير نحو القنيطرة حيث ينتظرهم الشلاط. ولم يصل بقية الرتباء واللواء الخاص الذي يقوده الملازم أوّل عبد السلام الحيفي إلا قبل عبابو بوقتٍ قصير.

في صباح ذلك اليوم، 10 تموز (يوليو) 1971، استيقظ امحمد عبابو مع بزوغ الفجر. وانتظر الجنرال المدبوح. كان الموعد قد حُدِّد عشية ذلك اليوم. وكان يُفترض برئيس الديوان العسكري الملكي أن يمرّ ببيت العقيد. لم يحدّد الجنرال ساعةً محدّدة، موضّحاً فقط أنه إذا ما تجاوزت الساعة السادسة والربع فلن يأتي بعدها.

في الخامسة وعشر دقائق، تلقّى عبابو مكالمةً. لم يجرِ تبادل أيّ حديثٍ مثيرٍ للشبهة. أمر المدبوح العقيد أن يلاقيه عند مخرج الرباط متذرّعاً بيومٍ مثقلٍ بالعمل. إنّه عيد ميلاد الملك. ومن الطبيعي جدّاً أن يرغب قائد الحرس الملكي ورئيس الديوان العسكري للملك في مراقبة جهاز الأمن المنتشر بهذه المناسبة! قفز عبابو إلى سيارته. ووصل وحيداً إلى الموعد. بينما وصل المدبوح مصحوباً بسائقه الأمين، وهو مساعدٌ محنّك من الحرب الهند الصينية. تحادث الرجلان باقتضاب. أخبر عبابو الجنرال بأنّ قافلة الضباط التلاميذ قد تجاوزت فاس. وإذا ما استمرّ كلّ شيء في السير على ما يُرام، فستكون الوحدات المنطلقة من هرمومو على مرمى الهدف في المُهَل الممنوحة. جدّد المدبوح للعقيد، دون الدخول في التفاصيل، أمره بمحاصرة القصر في الوقت الذي يلعب فيه الحسن الثاني الغولف. وألحّ على ألاّ يلجأ إلى السلاح إلاّ في حالة الضرورة القصوى. فالجنرال، بحكم مهامه، هر رئيس التشريفات لكلّ النشاطات

الملكية، وبالتالي تنظيم احتفالات ذلك اليوم. وكمنظّم للبرنامج، حدّد له بدقّة البروتوكول وتسلسله. عرف المدبوح بأنّ خطّة عمله ترتبط على نحوٍ حاسمٍ بوجود الملك على ملعب الغولف. وكان من المتوقّع أنّه إذا كان الحسن سيلعب، فإنّ الهجوم سيقع في الساعة الثانية عشرة وخمسين دقيقة تقريباً. وهذا هو الشرط الذي يؤمّن انعزال الملك عن ضيوفه. أصرّ الجنرال على أنّه «يجب تجنّب زجّ المدنيين في هذه القضية!» ولإلقاء القبض على الملك، لن يكون على عبابو وتلاميذه سوى تطويق ملعب الغولف دون الدخول إلى القصر. وستتوقّف شاحنات هرمومو في طريق الولوج إلى الصخيرات والذي يحيط بملاعب الغولف لكي تفرغ حمولتها من القوات وسرعان ما سيجد الملك نفسه وقد سقط في الفخّ وأُسِر بكلّ سهولة.

وإذ أراد الحسن الثاني أن يجري عيد ميلاده باطمئنان وبمشاركة جميع الضيوف في الشراب والطعام، استغلّ الجنرال المدبوح ذلك لكي يخفّف إجراءات الأمن في القصر. أمّن خمسة وثلاثون مظلياً من الحرس الملكي، تحت إمرة الملازم أوّل عبد الملك بلغيتي، حماية الملك وضيوفه. ولن يطرح مرافقو المفوّض بودريس ووحدة المظليين الصغيرة هذه أيّة مشكلة لألف وأربعمئة ضابط مجهّزين بأعتدة حربية هائلة! بل حرِص الجنرال على أن يستبدل الصبيان الذين يخدمون الملك أثناء ممارسته للغولف والذين عادة ما يكونون من العسكريين بمدنيين قادمين من ملعب آنفا للغولف في الدار البيضاء. وسيكون من المستحيل ألاّ يتغلّب كلّ هؤلاء الرجال المدرّبين على الحرب على ألف ضيفٍ يرتدون سراويل البحر. هذا الاختلال الصارخ لتوازن القوى أراح زعيم الانقلابيين: ما إن يُقبَض على شخص الملك، لن يكون هناك سوى اقتياده تحت الحراسة المشدّدة إلى مقرّ RTM[1] وجعله يعلن استسلامه

(1) راديو وتلفزيون المغرب.

عبر التلفاز. لأنّ قراراً مكتوباً بالتنحية قد يُثير الشكوك في بلدٍ يبقى التقليد الشفهي قوياً فيه. فعاد المدبوح إلى سياق المرحلة الأولى: مهاجمة قصر الصخيرات، وتحييد الملك، ومن ثمّ موته السياسي. ما إن يصبح الملك في ملعب الغولف، سيعطي الضوء الأخضر للعقيد. سيكون على عبابو محاصرة ملعب الغولف وعزل الحسن الثاني عن ضيوفه. وشدّد المدبوح على عدم فتح النار إلاّ في حالة الخطر الحقيقي، وفقط إذا ما ردّ الحرس. على عبابو أن يطوّق القصر، وسيتكفّل المدبوح بالباقي.

تظاهر العقيد بطاعة مطمئِنة. وإذا كان المدبوح قد قضى بتحييد الحسن الثاني دون المساس بحياته، فإنّ هذا السيناريو لم يكن على الأرجح جزءاً من نوايا عبابو. لم يخامر الجنرال والضباط الكبار الآخرين الذين كانوا على علمٍ بالخطّة الشكّ للحظة في أنّ هناك انقلاباً داخل الانقلاب. في الواقع، لم تكن هناك أدنى نية لدى عبابو بأن يكتفي بدور المنقّذ فقط: كان يريد التخلّص من النظام. هل كان قذافي آخر لم ينضج؟ هل كان دافعه فعلاً ثورياً؟ هل كان تعبيراً عن جيلٍ جديدٍ من الضباط راغبٍ في إصلاح البلاد، وفي إسقاط الملكية كما كان قد أراد المهدي بن بركة[1] في زمانه؟ من المحتَمَل أنّ زعيم اليسار كان يفكّر في ثورةٍ للضباط الصغار، في حين أنّ أولئك الضباط الذين وصفوا بأنّهم «منتجات خالصة للاستعمار» أي «عملاء فرنسا» هم من سيناهضون انحرافات السلطة وتبديدها للمال العام. وسيقول البعض فيما بعد إنّ ذلك بدافعٍ من الوطنيّة، وسيردّ آخرون بأنّه بدافعٍ من الطموح. وسيطيب للبعض أن يروا في ذلك رغبةً في استباق ثورةٍ للزعماء العسكريين والتي خشيت منها الدوائر الغربية، وبشكلٍ خاصّ فرنسا والولايات المتّحدة. أمّا بالنسبة للعقيد الشلواطي، فقد اعتقد الكثير من الناس بأنّه ما كان ليتصرّف

---

(1) ذكر ج.م. مينوديه في لوموند ديبلوماتيك، في آب (أغسطس) 1971: «هناك احتمال لا أن تتخلى عنه الركيزة (الجيش) التي يعتقد النظام أنّه يستند إليها فحسب، بل وتصبح خطراً على وجوده.»

إلاّ بدافعٍ من الازدراء الشديد الذي يكنّه للحسن الثاني، وهو الحقد الذي تزايد في الفترة التي كان يشرف فيها على ساحة الاستعراض العسكري في وجدة[1]. قبل أربع وعشرين ساعةٍ من القيام بزيارة رسمية إلى تلك المدينة، أرسل الحسن الثاني إليها وليّ عهده، محمد السادس المقبل. نزل الأمير الصغير، الذي كان يشارف آنذاك على عامه السادس، في القاعدة العسكرية التي أدّى فيها العقيد الشلواطي، القائد العسكري لمدينة وجدة، التحية من قبل حرس الشرف. وهو إجراء بروتوكولي طبيعي أغاظ الحسن الثاني الذي وبّخ الشلواطي كأسوأ السيئين، وأرعد: «قدّمت تحيّة الشرف لطفل! أعلم أنّ بعضاً من أمثالك يريدُ أن ينصّبه في مكاني!» توبيخٌ موجّهٌ للعقيد بحضور ضباطه. ومنذ ذلك الحين، كلّما ذُكّر العقيد بالحادث، أقسم لأصدقائه المقرّبين إنّه لو كان مسلّحاً، في ذلك اليوم الشهير، لقتل الملك تحت طائلة كرامته المُهانة!

بعد مقابلتهم القصيرة، افترق المدبوح وعبابو. عاد العقيد إلى ڤيلاه في الرمال الذهبية حيث وعد شقيقه مُحمد في السادسة والنصف. حينما وصل هذا الأخير، تعجّب من عدم وجود الجنرال هناك كما كان متوقّعاً. شرح له امحمد أنّ رئيس الديوان العسكري، المنشغل بواجباته، لم يستطع أن يُفرّغ نفسه، ولكن الأوامر على حالها. ركب الشقيقان السيارة ذاتها وغادرا إلى الرباط. حدّد امحمد عبابو وضع الأهداف التي ينوي الاستيلاء عليها، ما إن ينتهي الهجوم على الصخيرات. البريد الذي تأهّب لإبطال مفعول مقسمه بغية عزل العاصمة؛ وهيئة الأركان؛ ووزارة الداخلية. وبعد كشفٍ أخير، عادا إلى الرمال الذهبية. نحو الساعة السابعة والنصف، أمر امحمد عبابو شقيقه الأكبر بالعودة إلى القنيطرة:

---

(1) مدينة في شرق المغرب، تقع على الساحل المتوسّطي، مباشرة على الحدود مع الجزائر.

- التحق بي في تمام الساعة العاشرة والنصف في سيدي بوقناديل.

وعاد عبابو حينذاك إلى منزله ليتأكّد من أنّ زوجته وابنته سميرة ستكونان في الوقت المناسب في مطار الرباط-سلا للإقلاع نحو الخارج. طلب من شقيقه الأصغر عبد العزيز أن يكون هناك في الساعة الثامنة إلا ربعاً. وحصل هذا الأخير، الرقيب أوّل في هيئة الأركان في الرباط، على إجازةٍ لسببٍ عائلي. هو مَن كان عليه أن يرافق زوجة وابنة أخيه إلى المطار. أعطاه امحمد عبابو تعليماته سريعاً:

- رافق زوجتي وابنتي إلى الطائرة. سيسهّل المقدّم فتوحي سفرهما، لقد سبق أن تحدّثتُ إليه في الأمر. لا تتحرّك من المطار حتى إقلاع الطائرة... ومن ثمّ، ستمرّ لتأخذ الضابط المرشّح مزيرق. ستذهبان إلى مُحمد في القنيطرة وتأتيان معه إلى سيدي بوقناديل.

لم يكن العقيد عبابو يطلب، وإنّما يأمر. حتى عائلته كانت تنفّذ أوامره. أمّا الضابط المرشّح أحمد مزيرق، فلم يكن سوى نسيب الجنرال المدبوح، الذي كان يعمل آنذاك في الحاجب، في مركز جنود السوقيات الواقع على بعد حوالي ثلاثين كيلومتراً من مكناس. وقد خدم تحت إمرة امحمد عبابو حينما كان الآمر فيه.

بعد أن تأكّد من إقلاع الطائرة، مرّ عبد العزيز عبابو وأخذ مزيرق. وتوجّه الاثنان إلى القنيطرة. ما إن أصبحت زوجته وابنته في مأمن، انطلق العقيد عبابو بكل طيش نحو بوقناديل. توقّف لوقتٍ قصير في غابة معمورة ليتأكّد من أنّ القوات بأكملها موجودة هناك وأنّ اللواء الخاصّ موجود في مكانه. في العاشرة وعشرين دقيقة، وصل إلى الموعد وجلس إلى طاولةٍ في مطعمٍ ريفيٍّ صغير حيث يفترض أن ينضمّ إليه مختلف الضباط. وسرعان ما أُحيط بمقدّمين والعقيد العربي الشلواطي، قائد المكتبين الثالث والرابع في الأركان، المكلّفين بالسوقيّات. طلب الشلواطي من معاونه، المقدّم القادري (خريج دورة محمد الخامس، الدورة الأولى في المغرب المستقلّ)، أن يلتحق به بذريعة دعوة عادية إلى الغداء بين

الضباط الكبار. جلس الضباط إلى طاولةٍ وهم يحتسون مشروباً فاتحاً للشهية، ودار بينهم حديثٌ عاديّ غير ذي قيمة. دعا العقيد الجالسين إلى متابعة الاجتماع على شاطئ مهدية، استراحة على مصبٍّ خليجي على الأطلسي على بعد بضع مئاتٍ من الأمتار من القنيطرة. هناك، في ڤيلا شقيقه مُحمد، قُدِّمت وجبة خفيفة سريعة. عرض العقيد عبابو على الحضور مرافقته لزيارة مزرعة معروضة للبيع في تلك الأنحاء. استقلّت مجموعة الضباط ثلاث سيارات. أخذ العقيد عبابو القادري إلى جانبه. وسرعان ما حادت المركبات عن الطريق وسلكت طريقاً فرعياً رملياً، وغاصت في غابة معمورة. بعد أن سارت بحذر لبضع مئاتٍ من الأمتار، بدت أولى الشاحنات، التي رُفِعَت أغطيتها ليُتاح للضباط التلاميذ تناول وجباتهم دون كثير عناء من قيظ الصيف. قطع امحمد عبابو الاتصال، والتفت إلى المقدّم القادري الذي تعجّب لذلك الحشد وقال له:

- أنت عسكري... أنت من جماعتنا. عليك أن تُدرك... لا يمكن للأمور أن تستمرّ بهذه الطريقة. قرّر الجيش أن يتصرّف... يجب إنقاذ هذا البلد!

ذُهِل القادري، وأُصيب، وقد فَهِم تماماً، بصمت من سها عن الإجابة. تابع عبابو:

- لا يمكن لهذا إلاّ أن ينجح! العديد من الجنرالات يشاركون في الانقلاب...

كانت رؤية انتشار كلّ تلك القوات تنبئ طبيعياً بالنجاح. لاسيما وأنّه من عمل زعماء الجيش حسب عبابو. اقتنع العقيد بأنّ هذه المؤهلات لا يمكنها إلاّ أن تؤثّر إيجابياً على زميله. عرف عبابو أنّ المقدّم القادري لم يُعجب به قطّ، ولكنه اقتنع بأنّ محدّثه، أمام الطريق المسدود، لا يمكنه إلا أن يردّ إيجاباً. كان يُفتَرض أنّ الوضع الحساس الذي وجد القادري نفسه فيه سيملي على الضابط موافقة تنقذ رأسه. ولكن لم تأتِ تلك الموافقة.

- هل ستسير معنا أم لا؟ سأله عبابو بإلحاح.
كان ردّ فعل القادري، أياً كان الرأي أو القول فيه، ينمّ عن شجاعته. فرغم معرفته بطباع الرجل الذي يُحرّضه، أجابه:
- كلاّ، لقد أقسمتُ يمين الولاء، ولن أنكث بيميني.
وضع عبابو يده على مسدّسه، ثمّ عدل عن رأيه، قائلاً:
- يمكنني قتلك مثل الكلب الذي أنت! ولكنّ جوابك لا يستحق مصيراً مشرّفاً كهذا. أنت حبيسي! وسأهتم شخصياً بأمرك حينما ينتهي كلّ شيء...
نزل العقيد من السيارة، وبصق على الأرض وأمر أربعةً من الجنود:
- المقدّم في حالةِ توقيف. تكفّلوا بأمره حسبما تشاؤون!
رُفِع القاردي بعنف إلى ظهر إحدى الشاحنات. جمع امحمد عبابو من حوله بقية الضباط وأفراد اللواء الخاصّ.
- أيّها السادة، بناءً على أوامر القائد الأعلى، أُلغيت المناورات التي كانت من المفروض أن تُجرى في بن سليمان. وقد أوكَل إلينا مركز القيادة مهمّة طارئة. علينا أن نطوّق قصر الصخيرات ونحتله لكي نقبض فيه على «عناصر مخرّبة، مسيئة إلى الأمّة»...
أيّاً كان وقع هذه التعليمات، لم يجرؤ أحدٌ من الضباط وضباط الصفّ على طرح سؤال. لقد درّبهم العقيد على الطاعة دون نقاش. أدرك الكثيرون أنّ العملية التي يتهيأون للشروع بها خاصّة وغير اعتيادية بيد أن أحداً لم يجرؤ على النطق بكلمة «انقلاب». وحينما تحدّث العقيد عن الذهاب لقمع الخونة وأذناب الحكومة، ساد غموضٌ تام. رسم عبابو على الأرض، بغصنٍ، مخططاً بسيطاً لقصر الصخيرات.
- القافلة الأولى التي سأقودها شخصياً، ستحيط بالقصر من الشمال. وحينما ندخل إليه، لا بدّ من حبس كلّ مَن فيه... والقافلة الثانية، تحت إمرة أخي مُحمد، ستطوّق القصر من الجنوب.
رفع العقيد بصره للحظة إلى الرتباء الذين أحاطوا به على شكل

نصف دائرة. وإذ لم يشاهد اعتراضاً في وجوههم المنكمشة، واصل:

- اللواء الخاصّ وعرفاء وحدات الكوماندوس سيستجيبون لأوامري على الأرض. أطلقوا النار في الهواء كي يتجمّع الجميع في وسط القصر. اقتلوا بلا إنذار الذين لن يمتثلوا أو يحاولون الفرار.

رمى العقيد عصاه، انتصب واقفاً، وختم:

- الذين سيذهبون معي، اصعدوا إلى مركباتكم، ستلتحق بنا القافلة الثانية بعد ربع ساعة. أيّها السادة، إلى مواقعكم، التنفيذ مباشرةً!

ذهب الجنرال المدبوح، بعد أن افترق عن عبابو، إلى الصخيرات نحو الساعة السابعة. وهذا ما لم يفاجئ أحداً لأنّه يعيش عيشة صارمة، ينام باكراً، ويستيقظ فجراً. ويُعرف عنه أنّ لا أهواء لديه سوى شغفه بالرياضة وميله إلى العمل المتقَن. منذ أن منعه أطباؤه، بسبب مرضه القلبي، من ممارسة البولو، باشر هذا الفارس المحنّك المتقاعد بلعب الغولف. لا بل إنّه أحد أفضل لاعبي المملكة. وإذا كانت صحّته قد فرضت عليه صرامة في نمط معيشته وتقييداً للتمارين البدنية، فإنّها لم تقلّل في شيء ولم تؤثّر في قدرته على العمل. لم ينقض الجنرال سمعته كمتقنٍ لعمله، وتابع عمله عن كثب لكي يؤمّن حسن سير هذا اليوم الفريد.

وعلى غرار أعوام 1968 و1969 و1970، نُظِّمَت مباراة للغولف بمناسبة عيد الميلاد الملكي. منذ أن أحبّ الحسن الثاني هذه الرياضة، بات من المجاملة الاهتمام بها لإرضائه. ومع أنّ بعض الممالقين التقوا فجأة لتأسيس نادٍ دون أن تكون لهم أدنى علاقة بالغولف، كان أوفقير أحد الرجال النادرين ممن لم يمارسوا هذه الرياضة. عدا لاعبي الغولف الذين وصلوا حوالي الساعة الثامنة، لن يحضر أغلب المدعوين إلى الصخيرات إلاّ بدءاً من العاشرة. كان محترفون أمريكيون وإنكليز أوّل من احتشدوا في المروج الخضراء.

نحو الساعة الثامنة والنصف، أطلق المدبوح المباراة. وكان على

الفرق المشاركة لهذه السنة أن تضمّ ثلاثة هواة ومحترفاً أجنبياً. وإذا كان الجنرال قد أطلق ضربة الابتداء قبل وصول أوّل المدعوين، فذلك ليكون هناك متّسعٌ من الوقت لترحيل جميع المتبارين قبل موعد الغداء. كان الحسن الثاني سيشارك في المباراة، مثلما فعل ذلك في عامي 1968 و1969. وربّما سينطلق مع الفريق الأخير الذي يُتوقّع أن تكون انطلاقته بين الحادية عشرة والنصف والثانية عشرة. على الأقل، كان هذا ما يتمنّاه المدبوح. لم يستطع الجنرال أن يتجاهل احتمال انسحابٍ ملكي في آخر دقيقة، إذ إنّ الملك لم يكن قد لعب، في عام 1970، في اللحظة الأخيرة. وفكّر المدبوح، في هذه الحالة، أن يَدَعَ عبابو وضباطه يواصلون دربهم إلى بن سليمان للمشاركة في المناورات كما هو مفترض. وإن لم يقع الملك في المصيدة في اللحظة التي تقتضيها الخطّة، تحسّب الجنرال أن تنتقل القوات إلى تنفيذ العملية على طريق العودة، حيث يفترض بالتدريبات العسكرية المنظّمة في بن سليمان أن تنتهي في منتصف النهار. سيكون احتفال الصخيرات قد شارف على نهايته، وسيكون المدعوون قد غادروا القصر، وبقي الحسن الثاني وحيداً فيه أو يكاد. وأخيراً، إذا لم تكن الظروف مناسبة في نهاية النهار، فسيتمّ إرجاء محاولة الانقلاب إلى اليوم التالي، حيث سيكون على الملك أن يوزّع الميداليات أثناء مباراة غولف أخرى تُنظّم في دار السلام في الرباط. وحينها لن يشارك في العملية سوى العقيد عبابو وأعضاء فصيلته الخاصّة التي تضمّ حوالي ثلاثين رجلاً. بقي أن نعرف ما إذا كان امحمد عبابو سيمتثل لتأجيلٍ جديد.

في ذلك السبت، العاشر من تموز (يوليو) 1971، احتفل الحسن الثاني بعيد ميلاده الثاني والأربعين. فقد اعتاد، وهو المولود في 9 تموز (يوليو) 1929، ألاّ يستقبل ضيوفه إلاّ في اليوم التالي. ففي ذلك اليوم، استقبل ضيوفه «الذكور حصراً» في احتفالٍ في قصر الصخيرات الملكي.

وسيكون اليوم الحادي عشر مخصّصاً للإناث. اللواتي سيحظين هذه السنة بمفاجأة فرقة باليه سيرقص فيها جاك شازو، كاتب الحوليات الباريسي الشهير، وصديق الملك.

وأهمية الصخيرات، الواقعة على بعد خمسة وعشرين كيلومتراً إلى الجنوب من الرباط، ومقرّ الإقامة الأثير للحسن الثاني، تأتي من كونها منتجعاً صيفياً أكثر منها مقرّاً للعمارة الرائعة والمرهفة للقصور الرئيسية للمملكة. تخيّلوا مصطبة شاسعة مستطيلة الشكل مشرفةً على شاطئٍ من الرمل الناعم توشوش عليه أمواج الساحل الأطلسي. في وسط تلك المصطبة تقريباً، تقع العمارة الطابقية الوحيدة، مبنى مربّع الشكل يجاور قاعة العرش التي تطلّ شُرفاتها المزجّجة على البحر. وتتلألأ على امتداد البحر، كمرآةٍ عملاقة، صفحة مياه مسبحٍ أولمبيٍّ محاطٍ بحُجراتٍ لتبديل الثياب. نُصِبَت ثلاث موائد مذهلة، تكدّست عليها مآكل مغربية وفرنسية وإسبانية. وعُرِضَت عليها أهراماتٌ من الكافيار على شكل قوالب حلوى متفاوتة بكمياتٍ هائلة.

انتصبت الخيمة الملكية في الساحة التي توجد في نهايتها شُقق الملك مع مسبحها الخاصّ. ومن حولها جناح للاّ لطيفة، زوجة الحسن الثاني، وأجنحة أولاده، والأمراء والأميرات وحيّ المحظيات والملحقات.

إذاً، فالقصر سلسلة من المصاطب المرمرية مع بعض المباني على مستوى واحد وتيجان أعمدة بيضاء قبالة الأطلسي. وخلف المباني القليلة وغير المتناسقة يمتد ملعبٌ للغولف ذو ثمانية عشر حفرة مصونٌ بعناية دقيقة. وعلى تخومه، خيمة- حانة يتدفّق فيها الشامبانيا فائراً، وعربتان تعودان لعشرينات القرن العشرين ثابتتان، تُستخدمان كصالونات وحجرات تبديل ملابس للاعبي الغولف وتتيحان لمُطلقي إشارة بدء المباراة الإشراف المريح. والمساحة البالغة حوالي مئة متر الفاصلة بين هاتين العربتين وسور القصر مغطاةٌ بمرتفعاتٍ مزروعةٍ بالزهور وممرّاتٍ جُرِفَت بطريقةٍ مثاليةٍ. تنحدر المروج الملساء بانحدارٍ خفيف نحو طريق الرباط الذي

يحدّ ملعب الغولف الملكي من الشرق. وعلى حافة تلك الطريقة المعبّدة، ينتصب محرسا المدخلين الرئيسيين للقصر اللذين تفصلهما مسافةٌ تقارب مئتي متر. وسيتنزّه عمّا قريب ألف ضيف بين الخيمة-الحانة والمسبح وملعب الغولف الذي ستجري عليه المباراة.

والمباراة التي ستبدأ في الصباح ينبغي أن تنتهي نحو الساعة الواحدة والنصف. ولأنّ المذبوح تأكّد من أنّ الجهاز الأمني الذي ينتشر بالعادة حينما يلعب الملك الغولف قد سُحِبَ، فليس هناك مظليون لا في طرف الملعب ولا وسط الأيائك. وإذ حرِص الحسن الثاني على الجوّ التشاركي للحفلة وعلى ضرورة أن تكون الإجراءات الأمنية على أقصى درجة ممكنة من السرية، فقد خُفِّفَ عديد مظليي الحرس الملكي ولُطِّفَت إجراءات التدقيق في هويّة الداخلين في مدخل القصر. وجرت تغييرات مرتجلة لم يفطن إليها أحد ما دامت تتماشى مع الأوامر الملكية.

في هذه السنة، حضر كلّ وجهاء وأعيان المغرب: أقارب الحسن الثاني، ومستشاروه، والوزراء، وزعماء الأحزاب السياسية، والحُكام والقضاة، ورجال الأعمال. وما يقارب خمسين سفيراً يمثّلون السلك الدبلوماسي العامل في البلاد. كما حضر القادة العسكريون الرئيسيون للمملكة. وقد توّج كلّ شيء بحضور مجموعة هامّة من الشخصيات الأجنبية، حيث جلس مشاهير الطبّ الفرنسي مع نخبة باريس القادمة لتندهش بحسن الضيافة المغربية واللطف والذوق المغربيين اللذين لا يرقى الشكّ إليهما. في الواقع يعرف البعض من أقطاب الطبّ الفرنسي الحسن الثاني مذ كان أميراً. وإذا كان قِدَم هذه الصداقة كفيلاً بإخلاصٍ دائم بالنسبة لبعض هؤلاء الأطباء الفرنسيين، فإنّ المكافآت المدهشة والدّعوات المنتظمة للتمتّع بمفاتن المغرب شكّلت الدوافع الحقيقية الوحيدة لآخرين منهم.

أُتيحت لي شخصياً العديد من المناسبات لأتأكّد من علاقاتهم المثابرة بالسلطة، إذ إنّ هؤلاء الأساتذة الكبار كانوا يتردّدون إلى منزل أوفقير أيضاً

بقدر ما كانوا يتردّدون إلى القصر. أتذكّر خصوصاً غداءً في البيت حيث سألت أمّي البروفسور تورين، طبيب الأمراض الجلدية الشهير، عن الطريقة المثلى للحفاظ على بشرتها. ردّ: «تجنّبي الشمس، واشربي كثيراً، يا عزيزتي فاطمة». حتماً لم يكن يعرف إلى أيّة درجة ستعمَل أمّي بنصائحه، بفعل القدر على الأقلّ. فيما بعد، إبان اعتقالنا، ومن قاع زنزانتها حيث لم يكن لديها سوى الماء لتهدئة جوعها ولم يكن من بصيص ضوء سوى ابتسامة أخي الرضيع، ستقول ذات يوم: «على الأقلّ، هنا، يتم الالتزام بنصائح البروفسور تورين حرفياً...»

علاوة على الموسيقيين المغاربة، حضر نجوم الغناء العربي. انتقل فريد الأطرش، فرانك سيناترا المصري، من القاهرة مع اوركستراه لإحياء حفلة عيد الميلاد. كما تمّ الإعداد للتسالي: ألعاب نارية، ولعبة الكرة الحديدية، ورماية القوس، إلى آخره. وقد جمعت المقْذَفة المقامة على حافة أرضية ملعب الغولف العديد من المشاركين في المفرقعات.

وتحوّلت الصخيرات إلى عيدٍ سوقيٍّ صغيرٍ حقيقي.

أجّجت الشمس، وهي في سمتها، الزرقة الصافية للسماء المغربية. ضايقت الروائح الفائحة من المآكل الشهية، ومن المشاوي المزيّنة ومن الطاجن المطبوخ على نارٍ هادئة الحليمات الذوقية المتلهّفة. وألقت سماور، أشبه بأبراجٍ فضيّة صغيرة، في قرقرةٍ هادئة، بخاراً شفيفاً محمّلاً بالأريج اللاذع، الحلو، للنعناع الطازج وزهر البرتقال. وأحاط الخدم، وهم يرتدون ثياباً ناصعة البياض، ضيوف جلالته بالرعاية والاهتمام بمنتهى اللطف والظُرف.

شاءت الإرادة الملكية أن تكون الأجواء تلقائية ومريحة متحرّرة من البروتوكول. فارتدى المدعوون اللباس الصيفي: قميصٌ رياضي، سروال قصير، وصنادل. حتى الضباط كانوا بلباسٍ مدني. والملك هو الذي فتح الطريق أمام ذلك حينما ارتدى بنطالَ برمودا وبلوزة وقبّعة واقية. وفي حين كان الحسن الثاني على أناقة نادرة بالزيّ الرسمي، كان يبدو على

غرابةٍ وذوقٍ رديء لا يُضاهَيان عندما كان يرتدي ثياباً غير رسمية. وبقدر ما يعتني بلباسه الرسمي ويخصّص له مبالغ فاحشة - لم يرتدِ قط لمرتّين البزّة نفسها أو ربطة العنق نفسها أو الحذاء نفسه - بقدر ما كان يصدم بغرابته في الزي غير الرسمي.

في العاشرة وخمس وثلاثين دقيقة، قام الملك بأوّل جولةٍ وسط الضيوف. محاطاً ببعض أصدقائه المقرّبين وبطبيبه الخاصّ الدكتور فاضل بن عايش الذي لا يفارقه أبداً، وبوزيره الأوّل العراقي، وبمدير ديوانه إدريس السلاوي، سار متمهّلاً حول المسبح الكبير. كان رائق المزاج، يمزح ويحثّ كلّ واحدٍ ليكون أكثر تلقائية. بل وألقى في الماء، بمساعدة الدكتور بن عايش، بعض الأشخاص الذين يُعتَبَرون مغالين في اتّزانهم. فقهقهوا ورشّوا بعضهم بعضاً بالماء. أخذ مُزاح الممالقين مجرى سريعاً حول الحوض الجائش. قُدِّم للملك عبد الرحمن عرفة، الولد العبقري للطبّ المغربي، الذي أنهى، في سنّ الرابعة والعشرين، اختصاصه في أمراض القلب بتفوّق. وبهذه الصفة دُعي إلى عيد الميلاد الملكي. مشاركةٌ أولى سوف تكلّفه حياته. تلهّى الكثير من السباحين ومرحوا للتخلّص من قيظ الشمس، الذي لم يكن النسيم البحري يخفّفه إلا مؤقّتاً.

ما إن وصل سفير فرنسا كلود لوبيل، وبعد تبادل بعض المجاملات مع نظيريه الأمريكي والبريطاني، حتى غطّى رأسه أوّلاً. ارتشف ستيوارت روكويل سفير الولايات المتّحدة رشفاتٍ قليلة من كأس الويسكي الاسكتلندي المبرّد جيداً، وهو يتبادل بعض الأحاديث مع توماس ر. شاو، سفير المملكة البريطانية العظمى.

كان هناك حشدٌ من الناس في المسبح ومن حوله.

انضمّ الوزير الفرنسي السابق لوي جوكس إلى السبّاحين، وكذلك البروفسور هنري غارنيه، الصديق الحميم لأوفقير. أمّا دهاقنة الطبّ الفرنسي فقد اعتزلوا عن الحضور، وتناقش الأساتذة تورين وآمبير ودوجين مع الدكتور ديبوا روكبير، طبيب العرش منذ 1937، المتمتّع

بصحّة ممتازة وعافية تامّة في الحادية والثمانين من عمره. كان ذلك الصديق القديم للمغرب قد عارض عزل محمد الخامس من قبل فرنسا ولم يتردّد في مرافقة السلطان إلى منفاه المدغشقري، وفاءٌ نموذجيٌّ سينتهي بفظاظةٍ في الصخيرات.

كما أدلى الجنرالات بدلوهم. ارتشف حمّو، عم زوجة الحسن الثاني وقائد المنطقة العسكرية للرباط؛ وبوغرين قائد منطقة فاس؛ وحبيبي قائد منطقة مراكش، الويسكي حول طاولةِ بوكر. وسيعلّق البعض فيما بعد بعين الشك على تلك الطاولة المرتجلة التي جمعت انقلابيي المستقبل. ارتدى الجنرالات بلوزات شفّافةٍ من اللون نفسه. وسيُنظر إلى ذلك أيضاً بعد الانقلاب على أنّه كان علامة فارقة للجمع. كما وسيندهش الكثير من الشهود من التصرّف الغامض للجنرال المدبوح الذي ابتعد مع جاك شوميه، صائغ المجوهرات الباريسي، والمورِّد المعتَمد للحسن الثاني. في الواقع، تحدّث إليه المدبوح عن تذكارات الغولف التي ستقدّم للفائزين وشوميه هو مبتكرها. وفيما بعد سيقول العديد من المدعوين عن أوفقير: «كان يبدو شارد الذهن وقلقاً وكتوماً أكثر من أيّ وقتٍ مضى»، وهذا ما سوف يزيد عليه الحسن الثاني: «منذ بعض الوقت، لم نكن على وفاق». هذا أقلّ ما يمكن قوله.

كانت الساعة العاشرة وخمس وخمسين دقيقة، حينما طالع الملك السجلّ الذهبي للمدعوين ذلك النهار. وهذا يُتيح له أخذ لمحة عن الشخصيات الحاضرة. جلس المدبوح إلى جانبه. كان الجنرال، رفيع الحاجبين، مرفوع الجبين وشامخاً، بعينين واسعتين، وبشرة سمراء، وصدغين مشذّبين على نحوٍ خفيف، يرتدي بلوزة لاكوست بيضاء وبنطالاً أخضر داكن. حينما تصفّح الحسن الثاني صفحات السجلّ بارتياحٍ ظاهرٍ مصحوبٍ بابتساماتٍ، تناقضت برودة الجنرال مع البلاهة المفرطة للممالقين. بعد المجاملات والقبلات، انسحب الملك مع بعض الأصدقاء الحميمين إلى المربّع الملكي المجاور لمبانيه. هناك، حول

مسبحه الخاصّ، تحدّث محاطاً بشقيقه مولاي عبد الله وبورقيبة الأصغر وأوفقير والدكتور العراقي وإدريس السلاوي. شرب الملك كأساً بكلّ بساطة، بمنأى عن أعين الفضوليين، قبل أن ينضمّ إلى ضيوفه لتناول الغداء. من جهته، لم يتوقّف المدبوح عن متابعة واجباته. أشرف على كلّ شيء، ودائماً بالنشاط نفسه والنظام نفسه، ولكنّه قط لم يُطِل البقاء بعيداً عن الحسن الثاني. وأكثر رئيس الديوان العسكري من النظر إلى ساعته. لا شكّ أنّه كان قلقاً من تقدّم العقيد عبابو وقواته. فقد كان توقيت الهجوم قد حُدِّد بين الساعة الثانية عشرة والنصف والثانية عشرة وخمسين دقيقة، حين يُفتَرض أن يكون الملك في ملعب الغولف. مرّت الدقائق طويلة، وتحرّك المدبوح ذهاباً وإياباً بين ملعب الغولف والمربّع الخاص حيث يوجد الملك. شارف الوقت على منتصف النهار. اقتربت ساعة الهجوم، وما زال الملك لا يفصح عن نواياه. هل سيلعب أم لا؟ وكلّما مرّت الدقائق، استحوذ هذا السؤال على الجنرال أكثر.

وإذ لم يعد يحتمل، رجع من جديد إلى المسبح الخاصّ للملك. ومتظاهراً بالاهتمام بحسن سير الاحتفال، سأل الحسن الثاني بسذاجة:

- سيّدي، إذا كنتم جلالتكم تريدون البدء مع الفرق الأخيرة للمباراة، فسيكون من المستحسن فعل ذلك قبل الثانية عشرة والنصف، تحاشياً للتأخّر عن موعد الغداء في الواحدة والنصف.

أجاب الحسن الثاني بأنّه لا يرغب أن يكون متعجّلاً لأجل افتتاح المآدب وأنّه سيلعب بعد الظهيرة حين يكون الجو أقلّ حرارة. موقفٌ طارئ ستكون له أهمية أساسية في الأحداث المأساوية المقبلة.

بهذا الخبر، اكفهرّ وجه المدبوح أكثر ممّا في العادة. لم يجرؤ الجنرال على الإلحاح خشية أن يثير شكوك الملك. انحنى أمام الملك باحترام بارد، وانسحب ثمّ عاد مسرع الخطى إلى ملعب الغولف، ونظر إلى ساعته بتواترٍ أكثر من ذي قبل. ولكن بما أنّ رئيس الديوان العسكري مهووسٌ بالنظام وبالدقّة في المواعيد، فلم يتعجّب الذين يعرفونه لذلك.

استعلم الجنرال، مضطرباً، من المُطلقين عن عدد اللاعبين على المروج الخضراء. لم يكن لدى الجنرال إلاّ تخوّف وحيد: أن يَقدم عبابو و«عصابته» فجأةً. فقرّر تقديم موعد الغداء وطلب إلى العديد من الأشخاص المحتشدين في الخيمة-الحانة الانتقال إلى داخل المقرّ الملكي.

في الواحدة وخمس دقائق، توافد الضيوف على مركز القصر. رجع البعض من ملعب الغولف وآخرون من الخيمة-الحانة أو من الحدائق. واصل بعض اللاعبين مباراتهم. استغلّ الجنرال تلك الحركة ليتوارى عن الأنظار. كان على حشد الضيوف أن يعبر أحد مدخلي الجدار الخفيض الذي يفصل داخل القصر عن بقية البستان. واستخدم الجميع البوابة الصغرى، إذ كانت الكبرى خاصّة بالملك. بعبور ذلك المدخل، نفذ الضيوف إلى فناءات من المرمر، تتناثر فيها مبانٍ خفيضة، تنتصب بينها تيجان أعمدة بيضاء، مفتوحة على المسبح وعلى الأوقيانوس. وسيكفي تلاميذ هرمومو أن يغلقوا الشاطئ من الجنوب ويسدّوا منفذي الدخول، ليوقعوا نخبة مسؤولي البلد بأجمعها في الفخ... وبثياب البحر. في تلك الدائرة المحصورة، سيقع الملك ووزراؤه وجنرالاته ورؤساء أجهزة أمن الدولة وقادة أفضل وحدات الجيش تحت رحمة المتمرّدين.

حول مسبحٍ أولمبي مزوّدٍ بماء البحر، وفي الفناءات، اقتحم الحشد الخليط، الفَرِح والجائع، المآدب. التهم بعض المضيفين، المنكبين على أطباق الكافيار، هذا الغذاء النفيس بالمغرفة! فوجِئ الملك: فهو لم يُعطِ الأمر بالجلوس إلى المائدة. كظم غيظه، ومرّ بالقرب من ضيوفه بابتسامةٍ خدّاعة. ثمّ بدت على وجهه علامة سرورٍ حقيقية حينما توقّف أمام كاتو الميلاد الذي كان على شكل نجمة خماسية. انتزعت قطعةُ الحلوى المعبّرة، التي تمثّل الشعار الوطني، ابتسامةً صادقة منه. استعاد الحسن الثاني مزاجه الرائق تماماً حينما جلبت له المربّيات ابنه مولاي رشيد، البالغ من العمر عاماً واحداً. لم يكن حضور الأطفال الملكيين في

احتفالات كهذه أمراً معتاداً. والمدبوح هو الذي استقدمهم من الرباط في آخر لحظة. هل أراد جمع الملك وعائلته بقصد نفيهم إلى الخارج، كما سيُهمَس بذلك فيما بعد. على حدِّ علمي، لم يجد هذا السؤال قط الجواب الحقيقي. والملك بعد أن اندهش لمبادرة الجنرال، سُرَّ بها. وككل أب، انبهر بنمو وليده الأخير. قبّل الحسن الثاني الأمير الصغير، الأثير على قلبه، وعاد إلى الخيمة الملكية. يقتضي البروتوكول أن يتناول الغداء دائماً بمفرده على مائدته، بينما يجلس بعض ذوي الامتياز إلى مائدة أخرى، مستديرة وأخفض من مائدته. كان يجلس إلى المائدة تحت الخيمة الملكية الأمير مولاي عبد الله ونجل الرئيس التونسي بورقيبة الابن ولوي جوكس وأوفقير والوزير الأوّل العراقي[1] وإدريس السلاوي، مدير الديوان الملكي.

أمّا المدبوح، فانتهز فرصة الازدحام على الغداء ليذهب سرّاً مسرعاً بسيارته إلى لقاء عبابو. كان العقيد وتلاميذه الألف وأربعمئة متوقّفين في غابة تمارة على بعد خمسة أو ستّة كيلومترات من القصر. وكان يلزم رئيس الديوان العسكري ربعُ ساعة ذهاباً وإياباً. وأخبر الجنرال بسرعة العقيد الذي كان ينتظره بمفرده على قارعة الطريق بالتأجيل بسبب عدول الملك عن اللعب. وطلب إليه الانتظار قليلاً وأخبره بأنّه سيُعطيه الإشارة. شرح له:

- سيلعب الملك الغولف بعد الغداء.

عاد الجنرال بسرعة إلى قصر الصخيرات حيث لم يلحظ أحدٌ غيابه. كاد ضجيج الأطباق والأشواك أن يطغى على صوت الأوركسترا. تصاعدت الدوائر الحلزونية لأدخنة الشواء زوابعَ لتتلاشى سريعاً في النسيم البحري. أنهى سباحان رحلتهما في طول الحوض المائي. كان النهار

(1) رئيس الحكومة أحمد العراقي، من 6 تشرين الأوّل (أكتوبر) 1969 وحتى 6 آب (أغسطس) 1971. المترجم

مشرقاً والاحتفال بهيجاً والبطالةُ اللذيذة مناسبةً للاسترخاء. كان الملك بالكاد قد بدأ بتناول الغداء، حينما انهار أحد مدراء الخدم بين الخيمة الملكية وجدار المباني التي تستند إليها الخيمة. هرع أطباءٌ من بين الضيوف. نُقِل المريض إلى العيادة المجاورة للمساكن الملكية التي تطلّ نوافذها على ملعب الغولف. شخّص سيرج سافار، الطبيب الفرنسي المختصّ بالأمراض النفسية والعصبية، يعاونه الطبيب الشخصي للملك الدكتور فاضل بن عايش، الحالة على أنّها نوبة صرع.

تجاوزت الساعة الثانية من بعد الظهر. خرج مَنْ فرغ من الطعام من الضيوف من البوابة الصغيرة ليعودوا إلى الخيمة-البار. فمن هناك، يمكنهم أن يتلذّذوا بمشروباتٍ هاضمة وأن يشاهدوا من بعيد فرق الغولف التي لا تزال تتبارى.

بدا جوّ عصر ذلك اليوم جميلاً. فجأةً، شاهدوا رتلاً لامتناهياً من الشاحنات العسكرية يتوقّف على جنبات الطريق المحاذي لأرض ملعب الغولف. رأوا جنوداً يقفزون بحركاتٍ بهلوانية حتى قبل أن تتوقّف المركبات تماماً.

ابتهج الحضور:

- إنّها المناورات!

أضاف آخرون، وهم يستذكرون أنّ في عيد ميلاد السنة الماضية قد جرى إنزالٌ للمظليّين:

- إنّها مفاجأة ملكية! من المؤكّد أنّ الملك يريد أن يقدِّم لضيوفه استعراضاً عسكرياً.

كما سمع الضيوف فرقعاتٍ ضعيفة ومتقطّعة ولكنّهم لم يخافوا كثيراً. لا بل تلهّف البعض وافتتن بمشاهدة التدريب المختَلَق الذي أجروه. تواصل دويّ المفرقعات. سُمِع صوتها ولكن تعذّر تحديد مكانها عياناً.

ما فات الأشخاص الذين كانوا ينتعشون في الحانة هو أنّ العقيد عبد

القادر لوباريس، قائد مظليي الحرس الملكي، سقط أرضاً وقد حصدته رشقةٌ من الرصاص في بطنه. فعندما نزل قبل الهجوم بقليل ليشاهد اللاعبين الذين وصلوا إلى حفرة في أسفل ملعب الغولف تماماً بالقرب من الطريق الدولي، التقى وجهاً لوجه مع ضباط عبابو. وحينما تقدّم، ويده ممدودة، وحاول بنبرة عسكرية منعهم من الدوس على المروج... تلقّى جواباً على ذلك رشقةً من بندقيةٍ رشاشة. مُصاباً بنصف دزينةٍ من الطلقات على مستوى الإربية، سقط سابحاً في دمه. وحدهما إرادته وبنيته الإسبارطية ستتيحان له النجاة، مع أنّه لم يحظَ بالإسعافات الأوّلية إلا بعد ساعاتٍ من إصابته. والأمر المدهش هو أنّ لوباريس كان الصديق المفضّل للمدبوح!

منذ ظهورهم، أطلق رجال هرمومو النار عشوائياً. قُتِل نقيبٌ شاب، تقدّم بطريقة لوباريس نفسها، بإطلاق النار عليه عن قرب. كما لم يوفّر لاعبو الغولف. أطلق الجنود النار على كلّ شخصٍ لم ينبطح أرضاً. وما إن أعادوا تلقيم أسلحتهم، حتى ساروا بحزم وإقدام نحو سور القصر مطلقين النار على كلّ مَنْ بدا أنّه يريد قطع الطريق عليهم. استمرّت الفرقعات الخاطفة والمتقطّعة بشكلٍ متقطّع. استطاع شاغلو الخيمة-الحانة أن يسمعوها ولكن ظلّوا غير قادرين على تحديد مكانها! والأسوأ أنهم لم يفهموا سببها.

سرعان ما تبيّن لهم أشباح غامضة لجنودٍ اقتحموا ملعب الغولف. انتشر الجنود مستطلعين، وتقدّموا بأسلحتهم على أوراكهم في وضعية قتالية. بدا بعض لاعبي الغولف وكأنّهم يفرّون من هؤلاء الجنود الذين يتعقّبونهم. صفّق الضيوف الذين كانوا في الخيمة-الحانة، وصرخ أحدهم:

- أنا أيضاً، أنا أيضاً! أريد أن أُحتَجز!!

كانت الساعة الثانية وعشر دقائق من بعد الظهر، ولم تراود أحداً فكرة أن يكون هذا الانتشار للقوات انقلاباً عسكرياً. حينما شوهِد لاعبو

وصبيان الغولف يركضون في كلّ اتّجاه، ويسقط بعضهم أرضاً، تساءَل البعض، ولكن ظلّ التفاؤل هو الغالب.

هتف أحد المدعوين:

- أحسنتم! أحسنتم! حقّاً هذا عملٌ ناجح! إنّه لأمرٌ رائع إشراك بعض المدنيين في الأمر! هذا يجعله وكأنّه حقيقي!

حينما أصبحت لعلعة الرصاص مسموعة على نحوٍ أكثر وضوحاً، انسحب بعض الضيوف من الخيمة- الحانة نحو القصر بدافع الفطرة أو الحذر.

في الطرف الآخر من السور، في الصحن الواسع للقصر ومن حول المسبح، استمرّ الغداء الملكي. وكان الحسن الثاني لا يزال جالساً إلى المائدة تحت إفريزٍ، محاطاً بشقيقه وبورقيبة الابن ولوي جوكس وأوفقير وآخرين. سمع معظم المدعوين في الفناء في الوقت نفسه ما سمعه مَنْ في الخيمة- الحانة من الانفجارات الأولى. وكان صوتها يخفّ بفعل الأوركسترا التي واصلت أنشودتها المعذِّبَة، وبفعل السور المحيط بالفناء.

ما إن توضّحت أصوات الانفجارات، حتى توقّف الجميع عن تناول الطعام. ظنّ السفير الفرنسي كلود لوبيل، ككلّ الحاضرين، أنّ الأمر يتعلّق إمّا بمفرقعات أو بصخبِ مهرجانٍ بهيجٍ مقدّمٍ من الحسن الثاني لضيوفه. ماوراء جدار السور العالي البالغ مترين ونصف، اقتربت الانفجارات المتقطّعة. فجأةً دلف رجلٌ من البوابة الصغيرة وهو يعرج. كان موريس بيريه، مهندسٌ زراعي ملحقٌ بوزارة ايڤون بورج، الوزير الفرنسي للتعاون، يعرج لإصابته بطلقٍ ناريٍّ في كعبه الأيمن. ظنّ الضيوف أنّ ذلك حادثٌ يعود لقلّة الانتباه. رفع أحدُ الحضور، وقد فرغ من تناول الحلوى، رأسه بشرود وقال:

- بعد كلّ حساب، لم يعد هؤلاء صبياناً، لا بدّ من الحرص مع المفرقعات!

أضاف آخر:

- لا بأس، لا بأس! يا لها من مبالغة، كلّ هذا بسبب رصاصةٍ خلّبية!

اتّجهت الأنظار كلّها نحو الملك، بانتظار أن يُستدلّ، من خلال ردّة فعله، على الموقف الصحيح الذي يجب اتّخاذه. بدا جليّاً أن الحسن الثاني يسعى لأن يفهم ما يجري. حينما رأى الملك موريس بيريه يترنّح ثمّ يخرّ أرضاً، نهض وصرخ:

- ما الذي يحدث؟

لم يشح الحاضرون بأبصارهم عنه. وقف أوفقير إلى جانب الملك واحتدّ:

- لا يا سيّدي، هذه ليست طلقات خلّبية، إنّها حقيقية!

في الفناء، واصل الموسيقيون العزف. في اللحظة نفسها، اندفع نحو عشرين شخصاً من الباب الصغير. وبدأت أصداء الرشقات تُسمَع على نحوٍ أوضح. هرع أحد مرافقي الملك لإغلاق الباب الصغير. عُزِل الفناء وصحن القصر مؤقّتاً، ولكن سُرعان ما غصّ الممرّ بفارّين آخرين، لم يكن أغلبهم يعرفون بالضبط ما إذا كان انسحابهم الجامح من قبيل اللعب أم من قبيل الفرار. لاحظ البعض، قبل أن يقفزوا إلى داخل صحن القصر، آثار طلقاتٍ على الطلاء الأبيض للجدار الفاصل بين القصر وملعب الغولف. بالنسبة للأكثر خبرةً، لم يعد هناك شكّ، إنّه تمرّد!

وتعقّب جنودٌ آخرون مَنْ عبروا الباب الصغير مهدّدين. قذف أحد العسكريين بقنبلةٍ يدويّة داخل صحن القصر دون أن يدخل إليه. وقد سقطت تحت الخيمة الملكية. ألقى أحد المرافقين بنفسه عليها. هزّ انفجارٌ ضعيفٌ ومخنوق جسد الشرطي. نهض مرّة أخرى، ترنّح وسقط جثّةً هامدة. حينها أدرك الجميع ما يحصل.

دفع أوفقير الملك ومولاي عبد الله خارج الخيمة. أمسك وزير الداخلية بيد الملك متبوعاً بمولاي عبد الله، وسحبهما إلى الفسحة الفاصلة بين الخيمة الملكية وقاعة العرش. راقب الدكتور سيرج موراكس

المشهد عن بعد. تناقش الحسن الثاني وأوفقير والأمير باحتداد. ما أدهش الطبيب الفرنسي هو أنّ الرجال الثلاثة لم يحتموا في أيّ لحظة من الرصاص الذي بات يئزّ في كلّ الجهات. وإن كان يُسمَع صوت الرصاص ولكن لم يستطع أحد أن يحدّد مصدرها. احتمى بعض الخدم بصوانٍ فضيّة كبيرة وكراسٍ عادية استخدموها كدروعٍ مضحكة. قام مولاي عبد الله بمحاولة فرارٍ عبر الشاطئ. غاص بين حشد الضيوف المذعورين الذي توجّه بفوضى واضطراب نحو الكُوى المزجّجة المهشّمة لقاعة العرش. ولكن الأمير لم يصل إلى البحر. كان حاجز إطلاق الرصاص الكثيف الذي يَمنع الولوج منه قاتلاً: أُبيد العشرات من الضيوف في ذلك السباق اليائس نحو الأمواج. جُرِح مولاي عبد الله في ذراعه. تلقى رجلٌ يتقدّمه أغلبية الرشقة. تلقّى الأمير، في سقوطه، جثّة الرجل التعيس وتظاهر بالموت. الأمر الذي أتاح له، في نهاية ذلك النهار الرهيب، أن يُذكَر بين الناجين في الصخيرات.

كان أوفقير أحد القلائل الذين لم يهرعوا نحو الشاطئ، ولكن لم يسعفه الوقت لإقناع الأمير بذلك. فإذ بقي على الدوام إلى جانب الحسن الثاني، اصطحب وزير الداخلية العاهل نحو أحد مباني القصر. وصل سفير فرنسا قاصداً الخيمة الملكية في اللحظة التي جرى فيها المشهد. شدّته يدٌ من قميصه. قال له رجلٌ لا يعرفه:

- هذا خطرٌ، يا سيّدي السفير، اتّقِ الخطر فوراً.

عاد كلود لوبيل أدراجه ولجأ إلى إحدى الحُجرات المحيطة بالمسبح الأولمبي. ظنّ أن هذه الحجرات الإسمنتية هي المكان الأنسب للاتّقاء من الرصاص. قبل أن يغلق الباب على نفسه، رأى السيد دوبريه، نظيره البلجيكي، يقبل نحوه بخطى متعثّرة لينهار بين ذراعيه. سحبه السفير الفرنسي إلى الكوخ حيث تبيّن له أنّ هناك ثقباً صغيراً في صدر زميله على مستوى القلب. كان التعيس لا يزال حيّاً. طال احتضاره ولكنّه لم ينجُ في ذلك اليوم المأساوي.

وكما نصّت الخطّة، طوّق الرتل الذي يقوده امحمد عبابو القصر من الشمال، أي من جهة الطريق، ثمّ سار عبر ملعب الغولف دافعاً أمامه المدنيين المرهوبين. بعبوره للمحرَس الأوّل، لاقى مقاومةً ضعيفةً ولكنّها حازمة. تلت ذلك معركة غير متكافئة. وسرعان ما قضي على بضعة المظليين والشرطيين الذين كانوا يدافعون عن مدخل قصر الصخيرات. كان التراشق بالرصاص مرتبكاً وكثيفاً لدرجة أنّ العقيد امحمد عبابو أُصيب من قبل قواته الخاصّة: أصابته رصاصة طائشة في كتفه. لامبالياً بإصابته، ركب عربة القيادة خاصّته، وبإشارةٍ من يده أمر حوالي عشر شاحنات بأن تتبعه. فدخلت القافلة من البوابة الكبيرة لقصر الصخيرات وتوجّهت نحو سور القصر.

مشّط الرتل الثاني الذي يقوده شقيقه مُحمد الشاطئ من جهة الجنوب. والضيوف الذين حاولوا الفرار من خلال القناطر المدمّرة لقاعة العرش لم يركضوا طويلاً على الرمل. فقد نصّب المتمرّدون رشّاشات ثقيلة وبطاريات مدافع هاون على الكثيب الرملي. وأُبيد معظم الضيوف الذين فرّوا من ذلك الجانب بالرشقات الكثيفة التي نظّفت الجبهة البحرية. وحدهم بعض الناجين بأعجوبة سيجتازون ذلك الحاجز الناري.

واقفاً في مركبته السائرة في الطليعة، قاد امحمد عبابو رتل الشاحنات الداخل إلى القصر. أوقف العقيد وحدته على حافة صحن القصر وقفز الجنود كما لو أنّهم في تدريب. محاطاً بفصيلته الخاصّة، قفز عبابو من سيارته الجيب. صوّب المدفع الرشاش الثقيل لمركبته على الباب الصغير لمدخل الفناء. أصلى جنودٌ بنادقَ رشاشة على مناصبها. أمر العقيد قواته بأن تسدّ مداخل المصطبة الواسعة. ألقى جنودٌ، قبل القيام بالهجوم، قنابل يدوية من فوق جدار السور وأطلقوا الرصاص من خلال البوابتين. قبل أن ينقضّوا على صحن القصر، ساد ذعرٌ عام. جرى الضيوف في كلّ الاتجاهات. توجّه معظمهم نحو البحر وصادفوا رتل مُحمد. حاول البعض الفرار لطلب النجدة، ولكنّهم قُتلوا بمعظمهم. وانفجرت الكُوى

المزججة لقاعة العرش متطايرة. وتناثرت العشرات من الجثث على الأرض. وسقط عددٌ غفيرٌ من الجرحى. لم يعد الجنود يسمعون أوامر رئيسهم. تقدّموا مطلقين النار على الحشد، واستمروا في إلقاء قنابل يدوية، وأطلقوا حتى مدافع الهاون. كانت مجزرة رهيبة.

حشرج الجرحى في بُرَك الدم. البعض منهم قُتِل بدمٍ باردٍ برصاصةٍ. كانت عيون المتآمرين جاحظة، واللعاب يسيل من أفواههم، وأطلقوا النار على كلّ مَنْ يتحرّك. لم يوفَّر أحدٌ: لا المغاربة ولا الأجانب. انقضّت مفرزة من الجنود على المطابخ حيثُ قُتِل طُهاةٌ ومساعدوهم ومدراء للخدم...

في الخارج، تدفّقت أرتالٌ من المحتَجزين وأيديهم فوق رؤوسهم نحو الميدان المركزي للقصر، يصوّب جنودٌ غاضبون أسلحتهم عليهم. مُدّدوا بلا انتظام على الأرض المعشبة، تماماً أمام البابين الذين ينفذان إلى صحن القصر والفناء. حتى الجرحى لم يُستَثنوا. نزف الكثير منهم بغزارة دون أن يتمكّن جيرانهم من مساعدتهم. في الجانب الآخر من الجدار، على المصاطب المرمرية، كانت المجزرة. تناثرت عشرات الجثث الهامدة في برك الدم القاتم على الأرض. نُهبَت المآدب والموائد والأكشاك. التهم بعض الجنود، في طريقهم، أطعمةً لم يذوقوا طعمها من قبل. ونظر آخرون باعتباطٍ إلى البحر الذي لم يسبق لهم أن رأوه.

في غضون ذلك، لجأ الملك وأوفقير وحوالي اثني عشر شخصاً، بينهم أطباء ونواب فرنسيون، إلى حجرةٍ مجاورة لقاعة العرش حيث توجد في زاويتها مغاسل. ظلّ الملك وأوفقير يتحادثان باستمرار بالعربية العامية تتخلّلها الفرنسية. وإذ كان أوفقير العسكري الوحيد في المجموعة، لم يتوقّف الحسن الثاني عن سؤاله عن تقدير القوات والوسائل المستخدَمة. حاول الملك ووزير داخليته أن يقيّما الوضع، ولكنّ والدي كان منشغلاً فقط بالكوّة المفتوحة التي تُستَخدَم لتهوية الحجرة. وقف على طاولةٍ وتفحّص بلا انقطاع تلك الكوّة. لم تسمح له

خبرته كجندي أن يتجاهل الأضرار التي قد تسبّبها قنبلة يدوية، إذا ما مرّت من هذه النافذة وسقطت داخل هذا الكوخ. هذا النوع من المتفجّرات له أثرٌ نفسي أكثر من التأثير التدميري حينما ينفجر في الهواء الطلق، ولكن تأثيره مدمّر في حيّزٍ مغلقٍ. ظلّ يترصّد، متوتّراً، تلك الفتحة ولم يغضّ الطرف عنها لثانيةٍ. أمّا الحسن الثاني، فتقصّى من خلال ثقب القفل ما كان يجري في قاعة العرش المجاورة. كان الانتظار لا يُطاق. في الخارج، ظلّ إطلاق الرصاص يدوي، وتتالت الانفجارات. سُمِع الصراخ والعويل. وعمّت الفوضى. رشحت الرائحة اللاذعة للبارود حتى إلى مخبأ الملك. تصاعدت سحبٌ ملتفّة من الدخان في السماء وانسلّت تحت رحمة الرياح.

تسمّر الحسن الثاني فجأةً في مكانه. خلع حوالي خمسة عشر متمرّداً باب قاعة العرش ودخلوا إليها. في حجرة المغاسل المجاورة، دقّت القلوب مضطربةً، وحبس الكلّ أنفاسه. ساد الصمت المطبق. لم يبارح أوفقير موقعه. انحنى الحسن الثاني من جديد على القفل. فرأى الجنرال المدبوح يدخل القاعة وسمعه يقول للضباط التلاميذ:

- إنّه لا يجازف بالوجود هنا، ابقوا خارجاً! شدّدوا الحراسة أمام الباب الكبير، لا تدعوا أحداً يدخل!

وقف الجنود في وضعية الاستعداد وانصاعوا للأوامر. خرجوا وتموضعوا أمام قاعة العرش. وإذ يعرف أصغر زاوية في القصر، توجّه المدبوح، وقد بات لمفرده، مباشرة إلى الكوخ الذي يختبئ فيه الملك. أدار الجنرال مقبض الباب. كان مقفلاً. تراجع الحسن الثاني خطوتين إلى الوراء:

- إنّه المدبوح. . . ، همس لأوفقير.

قفز وزير الداخلية من على طاولته الصغيرة إلى الأسفل، أبعد الملك وفتح الباب. تبادل هو والمدبوح نظرات حادّة.

- عليّ أن أتكلّم إلى الملك. . . قال رئيس الديوان العسكري.

تقدّم الحسن الثاني الذي كانت كتفا أوفقير تغطّيانه.

قال له المدبوح:

- سيّدي، هذا ليس انقلاباً، هذا تمرّدٌ من جيشك. والمقدّم عبابو هو من يتزعّمه. أنا على قناعة لو أنّ جلالتكم وافقتم على الاستماع إلى مطالبهم لكان من الممكن تسوية كلّ شيء. إذا كنتم توافقون، سأُحضره فوراً.

ردّ الحسن الثاني:

- لن أتفاوض مع عبابو، فليوقف إطلاق النار، وسنرى بعد ذلك.

قطّب المدبوح، الشاحب، حاجبيه أكثر، استدار وخرج مسرع الخطى. وأقفل شاغلو الكوخ القفل مباشرة من ورائه.

عبر رئيس الديوان العسكري قاعة العرش، وخرج إلى المصطبة الوسطى فصادف عبابو وجهاً لوجه.

- يا عبابو، ماذا تفعل؟ أوقف في الحال هذه المجزرة! لماذا أمرت بفتح النار؟ هل جُنِنت؟ ليس هذا ما اتّفقنا عليه!

أجابه العقيد مع ابتسامة ساخرة:

- كان الشعب برمّته ينتظر هذه اللحظة، وخاصة رجالي، إنّها العدالة فحسب! اليوم يوم عيد، يا سيّدي الجنرال! يومٌ عظيم! ويجب أن نتفهّم الذين انتظروه طويلاً...

صرخ المدبوح ممتقع الوجه:

- أنت مجنون! لقد غدرتَ بي! وغدرتَ بالجيش! هؤلاء ليسوا سوى مدنيين! لو كنتَ قد أصغيت إليّ لما وصلنا إلى هنا!

ردّ عبابو بعجرفة:

- ما حصل قد حصل. نال كلّ هؤلاء الفاسدين ما يستحقّونه!

ثمّ سأل، وهو يقصد الحسن الثاني:

- أين ذاك الكلب؟

فكّر المدبوح أن يخفّف بجوابه شراسة العقيد الظاهرة:

- الملك في مكانٍ آمن، وقد وقّع على تنازله عن العرش.

- أوصلني إليه، يا سيّدي الجنرال، سنجد أرضيّة للاتّفاق. . .، ختم عبابو حديثه بسخرية غير خافية.

لم يعرف المدبوح بماذا يجيب. ولتفادي المزيد من الضغط، التفت نحو الضباط المحيطين بالعقيد:

- يجب البحث في المباني، لا بدّ أن يكون فيها، أوجدوه مهما كان الثمن!

ولأنّ المدبوح دعا إلى مواصلة البحث عن الملك، استنتج العقيد من ذلك أنّ تأكيد استقالة الحسن الثاني ينمّ عن كذبٍ، وحينذاك اعتبر بأنّه قد غُدِر به. وبتكشيرةِ اشمئزازٍ لا توصَف، أمر ضابطين من مرافقيه:

- اقتلوا هذا الخائن!

خرّ الجنرال برشقتين من رشّاشين على مرمر صحن القصر وهو ينخر كدابّة. في اللحظة ذاتها، خرج الطبيب الشخصي للملك، والذي أنزلته الأعيرة النارية، من مخبأه. قُتِل دون إنذار، وهمدت جثّته على بعد بضعة أمتار من جثّة الجنرال.

سمع شاغلو الكوخ الانفجارات، ولكن لم يتمكّن الحسن الثاني ولا أوفقير أن يخمّنا أنّ الرأس المدبّر للمؤامرة قد مات بفعل عناد مَنْ يُفترَض أنّه ليس سوى منفّذها. فتّش عبابو وفصيلته الخاصّة مباني الملك رأساً على عقب. أُفرِغَت مخازن بأكملها في الأبواب والأثاث والحواجز بين الحجرات. بَقَر الجنود الوسائد والأرائك بضربات الحِراب. كان العقيد أوّل من صبّ جام غضبه، ولكنّه سها عن تفتيش مغاسل قاعة العرش. ترك الملاحقة تستمر وعاد إلى حيث كان خارج صحن القصر، على المستديرة التي تجمّع الضيوف حولها. بسط المحتجَزون أيديهم فوق رؤوسهم، ووجوههم إلى الأرض. كان الجوّ حارّاً. والجرحى يئنّون. ومَنْ يطلب الماء يُضرب بأخمص بندقية. واستحالت الظهيرة الجميلة كابوساً.

على المستديرة، أذاع عبابو قائمة بأسماء. نهض أوّل شخص ذُكِر اسمه. عضوٌ في الديوان الملكي، قُتِل بدمٍ باردٍ بطلقةٍ خلف أذنه. استمرت المناداة. وطبعاً لم يردّ المحتجزون بعد ذلك.

خاطبهم عبابو:

- في كلّ الأحوال نحن نعرفكم! والذين لا يردّون لن يخسروا شيئاً بانتظارهم!

الساعة الثالثة من بعد الظهر. وها قد مرّت ساعة كاملة، وضيوف الصخيرات يعيشون رعباً حقيقياً. هذا الانقلاب ليس كأيّ انقلابٍ آخر. كان انغماساً في أقصى درجات اللامعنى اكتمالاً. لم تجرِ أيّة عملية استيلاء على السلطة بهذا القدر من الوحشية والدموية المجانية. لم تطمع أيّة قوة في العالم في السيطرة على مقدّرات بلدٍ من خلال الإقدام دون تمييز على قتل دبلوماسيين معتَمَدين، ومدنيين ليست لهم أيّة صلة بمسيرة النظام. لم يوفّر ذلك التمرّد لا سفراء القوى العظمى الغربية ولا سفراء البلدان الشيوعية. لوّح السفير الصيني، الذي استنتج أنّ إسقاط نظامٍ ملكيٍّ في العالم الثالث يفترض على الأرجح أن يكون القائمون به متعاطفين مع الأمم الثورية كأمّته، بجواز سفره:

- أنا سفير جمهورية الصين الشعبية!

فتلقّى جواباً على ذلك وابلاً من الضربات. وصرخ فيه أحد الضباط:

- اخرَس أيّها المغولي، ستتغوّط عليك وعلى الصين خاصتك!

لم يستند هذا الانقلاب إلى أيّ مرجعٍ أيديولوجي. كان بالأحرى غزوة لا رحمة فيها، حملةً قاسية ودموية، دون أدنى تماسكٍ سياسي.

بعيداً عن المحتجَزين الذين أبقوهم على الأرض، ظلّ رجالٌ مدنيون واقفين. بدوا غير مكترثين بالهيجان المحيط بهم. كانوا الجنرالات بوغرين وحبيبي وحمو وأمحراش. الثلاثة الأوائل هم نخبة الجيش المغربي، نظراء أوفقير، الأساطير الأحياء الذين يُضرَب بهم المثَل في الجيش. لم يكن ليخطر ببال أيّ ضابطٍ أن يرفع يده على هؤلاء

الجنرالات المهيبين الذين يُعتَبرون مرجعاً لكلّ المغاربة وللبربر على نحوٍ خاصّ. كان بوغرين وحبيبي أكثر من صديقين لأوفقير، كانا أخوين حقيقيين بالنسبة له. لقد درسوا معاً، منذ المدرسة وحتى الأكاديمية العسكرية. وقد خدموا معاً، طوال سبعة عشر عاماً، بألمعيّةٍ تحت الرايات الفرنسية. في حملات إيطاليا وفرنسا وفي الهند الصينية، تميّزوا ببسالةٍ وفاعليةٍ لا مثيل لها. وإذ نوّه بهم مراراً عديدة في الجيش، كانوا الأبطال الحقيقيين للحرب. وإن لم تكن لحمو علاقات شخصية مع أوفقير، إلاّ أنّ ذلك لم يحل دون أن يكون رفيقه في السلاح. وإذ عُيِّن في 5 حزيران (يونيو) 1971 ملحقاً عسكرياً في باريس، أرجأ حمو سفره. الأمر الذي سيعتبره الحسن الثاني دليلاً إضافياً على أنّه مذنب. أمّا العربي الشلواطي، الذي تطوّع في التاسعة عشرة من عمره في الجيش الفرنسي، والذي جُرِحَ مرّتين في الهند الصينية، والحائز على العديد من الأوسمة، فلا أحد يجهل صداقته العميقة مع وزير الداخلية.

إذاً مكثت هذه الرباعية من الرتب العليا التي تقود المناطق العسكرية الرئيسية للمملكة على مسافةٍ من المستديرة المغطاة بالمحتَجَزين. اقترب عبابو وتحدّث مع الجنرالات. وبدا هؤلاء غير مبالين بأحاديثه. خاطبه الجنرال حمو:

- عبابو، نحن لسنا موافقين... هذا عملٌ مشين... لا جدوى منه!

لم يتكلّم الجنرالات الآخرون كثيراً. كظم العقيد غيظه. متذرّعاً بأسبابٍ أمنية، طلب من الضباط الكبار أن يصعدوا إلى شاحنة:

- تحرّزوا، لا نعلم قطّ...

ثمّ ابتعد وطلب من أحد ضباط فصيلته الخاصّة، النقيب الرايس:

- راقبهم، إنّهم محتَجَزون لدي.

وسوف يؤكّد المدعوون الذين سمعوا هذا الأمر الأخير الفرضية القائلة بأنّ الجنرالات قد جُرّوا كُرهاً إلى هذا الانقلاب. وهذا جهلٌ

بهؤلاء الرجال. فحتى عبابو نفسه ما كان بمقدوره التأثير عليهم. والحقيقة أكثر تعقيداً. كان الجنرالات قد اتّفقوا مع المدبوح على تنحية الحسن الثاني من دون عنف. وقد أوكلوا إليه مهمّة تدبير الانقلاب، ولكن بعد أن قُتِل رئيس الديوان العسكري، وانقلبت العملية إلى مجزرة، لم يعد لديهم أية رغبة في تبنّيها.

حاول عبابو أن يضمّ ضباطاً كباراً آخرين من بينهم العقيد بوالهيمز، قائد الدرك الملكي، الضابط السابق في الجيش الفرنسي. حينما أخبره زعيم المتمرّدين بتشكيل وشيكٍ لمجلس قيادة ثورة، حدّق فيه بوالهيمز مع تكشيرة اشمئزازٍ وبصق أرضاً، شاتماً عبابو بألفاظٍ نابية.

فأمر امحمد عبابو القيّم على منزله، المساعد أوّل عقّة:

- اثقب هذا الانتفاخ!

وسقط بوالهيمز مخرّقاً برشقةٍ كاملة، ثم تدحرج إلى حفرةٍ.

فصرخ المتمرّد في نقيبٍ كان إلى جانبه:

- أجهِز على هذا الخائن!

وفي آخر حشرجةٍ، تلقّى بوالهيمز طلقتين في رأسه.

جرى المشهد بالقرب من الشاحنة تحت أنظار الجنرالات.

في الساعة الثالثة وعشرين دقيقة، أمر عبابو فصيلته الخاصّة بإجراء آخر تفتيشٍ للقصر. ومرّة أخرى، بحث التلاميذ حانقين عن الملك. لم يتحرّك الحرّاس الذين وضعهم المدبوح أمام قاعة العرش من موقعهم. تواصل البحث بالقسوة والفوضى نفسيهما. توقّف عناصر من الفصيلة الخاصّة أمام البوابة الكبيرة. وبينما كانوا يهمّون بالدخول إلى قاعة العرش، سدّ عليهم أحد ضباط الصفّ مدخلها وخاطبهم:

- لا يوجد أحدٌ في الداخل، لقد سبق وفُتّشت القاعة!

تقدّم ضابطٌ وأدخل جذعه في إطار الباب، وألقى نظرة على داخل

الحجرة ثمّ عاد وخرج دون أن يخطر بباله التوجّه إلى حجرة المغاسل في عمقها.

- حسناً، تابعوا البحث، لا بدّ أنّه ليس بعيداً من هنا!

توجّهت المجموعة مرّة أخرى نحو المباني والمطابخ والملحقات بها.

فقرّر عبابو مغادرة قصر الصخيرات مع معظم قواته لاحتلال الأهداف الإستراتيجية في العاصمة. ومن أصل خمس وعشرين وحدة كوماندوس تضمّ الواحدة منها حوالي خمسين رجلاً، ترك اثنتين منها في الصخيرات تحت إمرة شقيقه مُحمد. وقبل مغادرته المقرّ الملكي المدمّر، قال لشقيقه البكر:

- تركتُ لك حوالي مئة رجل، لا تتحرّك من القصر إلى حين عودتي!

وأضاف وهو يشير له إلى حشد المحتَجَزين الذين كانوا لايزالون منبطحين على الأرض:

- أوّل من يحاول القيام بأيّ شيءٍ كان، اقتله بلا إنذار!

وقبل أن يقفز إلى عربة القيادة خاصّته، مرّ بجانب قادة الأحزاب السياسية، ومنهم علال الفاسي، زعيم حزب الاستقلال، وتوجّه إليه مع ابتسامةٍ غامضة:

- إلى اللقاء القريب، يا علال...

على رأس قافلته المدهشة، زحف نحو الرباط، حريصاً على أن يصطحب معه الجنرالات بوغرين وحبيبي وحمو وأمحراش. تقدّم العقيد الشلواطي الرتل واقفاً في سيارته الجيب. كما أركب عبابو كرهاً طبيباً عسكرياً فرنسياً متعاوناً مع المغرب. أنذره بأن يستخرج الرصاصة التي تلقّاها في معمعة بداية الهجوم. تذرّع الطبيب بانعدام الوسائل والأدوات لإخراج المقذوف، فمدّ له العقيد خنجراً يستخدمه الكوماندوس سلاحاً أبيضَ:

- هذا سيكفي. . . هيّا، ارفع عنّي هذه القذارة!

تلعثم الطبيب:

- ولكن. . . لا يمكنني. . .

قاطعه عبابو والتفت نحو عقّة. ففهم المساعد أوّل: وضع سبطانة سلاحه في خاصرة الطبيب. وأمره عبابو:

- هيّا، وبلا أخطاء، وإلاّ ستموت. . .

وهكذا، أخرج العقيد المقذوف من كتفه وهو يسير، دون تخديرٍ ولا مطهّر.

كانت الساعة الثالثة وخمس وثلاثين دقيقة، حينما دخل رتل الشاحنات اللامتناهي إلى العاصمة.

في ذلك اليوم، السبت 10 تموز (يوليو)، كانت أمّي وأخواتي في شاطئ الرمال الذهبية على بعد بضع مئاتٍ من الأمتار من الصخيرات. شمّت أمّي، وأصدقاؤها الملتئمون إلى مائدة الغداء، الرائحة اللاذعة للبارود التي نقلتها الرياح إليهم، ولكن لم يخطر في بال أحد أنّ مأساةً فظيعة تجري على بعد كيلومترات قليلة منهم. ظنّوا ببساطة أنّ الأمر يتعلّق بالأنشطة الاحتفالية للمناسبة. إلى أن نزل سفير كندا، أحد المدعوين القلائل الذين استطاعوا الفرار في بداية الهجوم، ووصل وبنطاله مضرّج بالدماء. وإذ كانت ابنته زميلتنا في المدرسة، امتلك الدبلوماسي الكندي لباقة أن يأتي ويُخبِر والدتي بما جرى. فسألته بخصوص الملك ووالدي. أجابها الدبلوماسي:

- في آخر مرّة شاهدتهما، كانا على قيد الحياة، ولا يمكنني أن أقول لك المزيد عمّا جرى سوى أنّه مذبحة حقيقية. . .

قفزت أمّي إلى سيارة، رفقةَ صديقةٍ، وتوجّهت نحو القصر. ولم تذهب بعيداً، إذ أمرها حاجزٌ للعسكر المتمرّدين بأن تعود أدراجها. عادت وأخذت شقيقاتي وقصدت منزلنا في الرباط. حينما وصلت، قلقت لغيابي.

والواقع أنني استفدتُ من عطلة نهاية ذلك الأسبوع، لأقوم بجولةٍ على دراجتي النارية. لدى خروجي من منزل أحد أصدقائي، اجتزتُ شارعاً رئيسياً واسعاً، متعجّباً من رؤية الشوارع خالية تماماً. لدى سلوكي جادة النصر، صادفتُ القافلة العسكرية. طبعاً اعتقدتُ أنّ الأمر يتعلّق بحركة روتينية للجيش. صففتُ دراجتي على حافة الرصيف، ولكن برؤية العقيد الشلواطي، المألوف بالنسبة لي، وهو يقود هذه القافلة، داخلني شكٌّ. لوحّتُ له بيدي في إشارة مرتجلة، ولكنّه لم يلاحظني. كان يرتدي بزّة كحلية وقميصاً أزرق فاتح اللون، بلا ربطة عنق. تلهيّتُ بإحصاء الشاحنات قبل أن أصرف النظر سريعاً عن ترقيمها. كانت المركبات مكشوفة، ويتشبّث الجنود بتقويساتها. ما أذهلني هو المظهر غير الطبيعي، الجفل، للجنود. انتظرتُ ببساطة أن يمرّوا كي أواصل طريقي. عند وصولي إلى حيّ أدغال[1]، سمعتُ صوتاً صارّاً لمنبه سيارة خلفي. توقفت جانباً. كانا إدريس وبوطويل. كنتُ أظنُّ أنني قد تخلّصتُ من رقابتهما. أقبل إدريس، الذي كان مثالاً للهدوء والرصانة، نحوي راكضاً:

- هيا بسرعة، يجب أن تعود إلى البيت!

حاولت أن أجادل كالعادة، ولكنّ حارسي الملاك حدّق في عيني:

- أرجوك، لا تعقّد الأمور... تجري أمور خطيرة..

قلتُ له:

_ أَهو أبي؟

وضع إدريس يده على كتفي:

- كلاّ، ولكن الأمر خطير، تعالَ، سأشرح لك في الطريق...

بينما كان إدريس يتحدّث معي، كان بوطويل ممسكاً برشاشٍ قصير ويتّخذ وضعية الكمين إلى جانب السيارة. لم أحتَج إلى المزيد من

---

(1) الحي السكني للعاصمة.

البراهين. لم يكن من عادة «حاضنتيّ» إظهار هذا النوع من الترسانة. فكّرت من جديد بشاحنات الجيش وأدركت الخطر.

مع ذلك رفضتُ التخلّي عن دراجتي. وفي هذه الحالة الطارئة، وافق إدريس للمرّة الأولى أن يركب معي على الدراجة. تمسّك بي بيد وأخفى بالأخرى سلاحاً إلى فخذه. وأحسستُ خلف كليتيّ بمعدن قنبلتين يدويتين. حينما وصلنا إلى منزلنا، وجدتُ حالة استنفارٍ قصوى: العيونيون موزّعون في أركان الحديقة الأربعة، مدجّجين بالسلاح وفي المقسم، خزائن الأسلحة فارغة تماماً حيث وزّع محتواها من الأسلحة على كلّ رجال البيت.

في الصالون، كانت أمّي، محاطةً ببعض المقرّبين، تستمع إلى الإذاعات الأجنبية. أعلنت نشرة أخبارٍ في نبأ عاجل انقلاب الصخيرات ومقتل الحسن الثاني، فدوّى عويلٌ بين النساء الحاضرات. لم تفقد والدتي هدوءها. ظلّت صامتة تنتظر أخباراً أكثر تفصيلاً. وصلت شقيقتان للحسن الثاني، مذعورتين، واقترحتا عليها مغادرة البيت للجوء معهما إلى ضواحي العاصمة. أبت أمي أن تتحرّك ما دامت لم تعرف المزيد من الأخبار عن زوجها.

في الأثناء، حاصر امحمد عبابو وتلاميذه الضباط هيئة أركان القوات المسلحة الملكية حيثُ لم يُلاقوا سوى مقاومة ضعيفة. يبدو أن القليل من بين صفوف الجيش المغربي كانوا مستعدّين للموت في سبيل الحسن الثاني. ما إن احتلوا هيئة الأركان، توجّه المتمرّدون إلى مقر الإذاعة والتلفزيون الوطني وصادفوا وحدة من BLS[1] تحمي مدخله. جاء النقيب طايف لمقابلة عبابو:

- سيّدي العقيد أعلمكم بأنني ورجالي، رغم قلّة عددنا، سندافع عن

---

(1) لواء الأمن الخفيف: Brigade légère de sécurité. المترجم

المبنى بأيّ ثمن. فكّروا، لن يُجدي في شيء سفك المزيد من الدم. . .

أخرج عبابو مسدّسه وقتل النقيب بلا تحذير. حينها نشب تراشقٌ كثيفٌ بالرصاص. وخلال دقائق، أُبيدت عناصر BLS، وتمّ الاستيلاء على المقرّ. احتُجِزَ التقنيون والصحافيون في غرفة تصوير.

تجاوزت الساعة الخامسة وأذاع المتمرّدون بشكلٍ متعاقب بياناً عبر الأمواج. على وقع النشيد العسكري، أعلن متحدث: «لقد استولى الجيش للتوّ على السلطة، وأُطيح بالملَكية. ومنذ الآن، سيقود الشعب وجيشه مصير البلاد.» وسيتواصل بثّ هذا النص حتى الساعة العاشرة وخمسين دقيقة.

بعد الإذاعة، حيث ترك ما يكفي من الرجال للإبقاء على السيطرة عليها، توجّه عبابو مع ما تبقّى من قواته إلى وزارة الداخلية التي احتلها بسهولة. حينما عاد إلى هيئة الأركان، فوجِئ بوجود شقيقه مُحمد فيها:

- أبله! لماذا غادرت الصخيرات، مع أنني أمرتك بألاّ تتحرّك منها!

كانت الساعة تقترب من السادسة حينما اجتمع عبابو بالضباط والجنرالات الذين كان لا يزال يأمل بانضمامهم إلى ما آل إليه انقلابه. خلال ذلك الاجتماع المرتَجَل وزّع حتى مناصب حكومةِ ظلّ. منح لنفسه منصب رئيس الأركان؛ وعُيِّن العقيد الشلواطي رئيساً لمجلس قيادة الثورة؛ والعقيد فنري، المرافق السابق للأمير مولاي عبد الله، تسلّم وزارة الداخلية. بل ونجح عبابو في إقناع بوغرين وحبيبي وحمو وأمحراش بالانضمام إليه. لو عاد قادة المناطق العسكرية إلى أقاليمهم، لتبعهم الجيش برمّته. تؤكّد الرواية الأكثر شيوعاً حول درجة تورّط هؤلاء الضباط الكبار في هذا التمرّد أنّهم لم ينضموا إليه إلاّ مجبَرين ومكرَهين من قبل العقيد عبابو. وكان هذا الأخير، الذي احتجزهم في الصخيرات، قد أقنعهم خلال الاجتماع الذي عُقِد في هيئة الأركان بإعلان مقتل الحسن الثاني. وأعتقد أنّ هذا التفسير المختزَل للوقائع قد نُقِض في أعقاب الأحداث. فبعد الخروج من هيئة الأركان، عاد بوغرين وحمو إلى

منطقتهم العسكرية، في حين أنّ الجنرال حبيبي، قبل العودة إلى منطقته، عاد إلى الصخيرات، قائلاً:

- انتبهوا إلى الرأي العام العالمي! لقد أبقينا في قصر الصخيرات الدبلوماسيين الأجانب تحت حراسة رجالنا. يجب الذهاب إلى هناك وتحريرهم. لنقم بذلك فوراً، سأعود إلى الصخيرات لحلّ المسألة. فليستقلّ الجنرالات قادة المناطق الحوّامات والطائرات للعودة إلى مدنهم بسرعة. فلنبعث برسائل إلى الوحدات. بسرعة! بسرعة![1]

بمغادرة الصخيرات، لم يكن عبابو يجهل أنّه قد ترك وراءه الملك حيّاً. ولأنّ المقرّ الصيفي للحسن الثاني كان مطوّقاً، قدّر بأنّه من الملحّ أن يثق بالقادة المؤثّرين للبلاد. انقضّ على العاصمة تاركاً شقيقه مُحمد يواصل مطاردة الملك والبحث عنه في المكان. ولكن العقيد ارتكب خطأً بعدم إقامة محطة اتصال دائم بينه وبين شقيقه البكر ووحدتي الكوماندوس الباقيتين في القصر. لأنّه ما إن أخلى مُحمد موقعه، حتى تفرّق عددٌ من التلاميذ المكلّفين بحراسة المحتَجَزين في البريّة. وكان أكثر من ستين قتيلاً وحوالي مئتي جريح ممدّدين على مصاطب ومروج القصر. وكفّ مَن بقي من التلاميذ في المكان، وقد صحوا، عن ممارسة أيّ قسوة. وسمحوا للمدعوين بالجلوس.

شجّع هذا الهدوء المفاجئ شاغلي حجرة المغاسل على الشروع بالخروج من مخبئهم. كانت الساعة قد تجاوزت الخامسة، حينما ظهر الحسن الثاني وأوفقير والأشخاص الذين كانوا فيها. أوقفهم التلاميذ الذين كانوا في الحراسة أمام قاعة العرش. اقتيدوا، مرفوعي اليدين ومترالتين، نحو المستديرة وأُجلِسوا مع بقية الرهائن. فجأةً، اتّجه ضابط صفٍّ نحو الملك، وأمسك بياقة قميصه وأمره بأن يتبعه. أدرك جميع مَنْ يشاهد

(1) أقوال أدلى بها الحسن الثاني إلى ريمون تورنو، باري ماتش، تموز (يوليو) 1971.

المشهد أنّهم على وشك مشاهدة مقتل العاهل. محاطاً بمجموعةٍ من الجنود، توارى الملك في زاوية جدار. حبس الجميع أنفاسهم متوقّعين الصدى المشؤوم لإعدامٍ وشيك. كانت اللحظات التي تمضي مقلقة بقدر ما كانت مذهلة. ولكنْ بعد برهةٍ، وفي ظلّ ذهول الجميع، ظهر الحسن الثاني من جديد محاطاً بالجنود أنفسهم الذين كانوا، هذه المرّة، يقبّلون يده. وسيشرح الملك، بعد ذلك ببضعة أيام، في أعمدة باري ماتش لريمون تورنو تلك الخاتمة التي لا تُصدّق: «كانوا متوتّرين جداً لدرجة أنّ أسلحتهم كانت ترتجف بين أيديهم. فجأةً، وعلى نحوٍ مباغت، وقف سجانيّ في وضعية الاستعداد وقدّموا لي التحية العسكرية. أعطيتُ الإيعاز: استرِح! قدّرتُ أنّ شيئاً استثنائياً، غريباً، يحدث. لا بدّ من الخوض فيه إلى النهاية. عنّفتُ الرقيب: لماذا لا تقبّل يدي، هل جُننتم جميعاً، أنتم يا جنود الجيش الملكي، يا أولادي؟ توسّل إليّ ضابط الصفّ: يا سيّدنا، لا ترفعوا صوتكم، لا يزال هنا الكثير من الناس الذين يريدون بكم السوء. قبّل قدمي وعنقي وكتفي. وفي الطريق، أحاط بي جميع التلاميذ الضباط، وهم يقبّلون يدي. قرأتُ الفاتحة، الآيات الأولى من القرآن، التي ردّدها التلاميذ والحضور: بسم الله الرحمن الرحيم. الحمد لله ربّ العالمين. الرحمن الرحيم. مالك يوم الدين...»

لم يضيّع الحسن الثاني، وقد غيّر الوضع، الوقت واستدعى وزير داخليته، وأمره:

– الجنرال أوفقير، أفوّضك كلّ سلطاتي المدنية والعسكرية!

ثم التفت إلى الجمع:

– فليُطع جميع الجنود الحاضرين بدءاً من هذه اللحظة أوامر أوفقير بصرامة!

نزع وزير الداخلية ثيابه، فرمى البلوزة والبنطال الصيفي، وارتدى البزّة التي قدّمها له قبطان الحوّامة الملكية، المقدّم العلمي. أمسك والدي ببندقية رشّاشة قدّمها له أحد الجنود، واستدعى الجنرال إدريس بن عمر،

وأمره بالسهر على سلامة الملك، ثمّ قفز إلى سيارةٍ وانطلق إلى معسكر مولاي إسماعيل، موقع وحدة BLS. كانت وحدة النخبة هذه المشكّلة من قبل أوفقير، والتي لا تضمّ إلاّ الضباط وضباط الصفّ من ذوي الخبرة الرفيعة في الرماية، مخصّصة لردع أيّة محاولة للعنف. فعمد وزير الداخلية، الذي لم يستطع تقدير ولاء جميع الفيالق، إلى تعبئة هذه الوحدة دفعة واحدة. على الطريق الذي يقوده من الصخيرات إلى الرباط، صادف أوفقير رتلاً من حوالي عشرين مصفّحة يقوده نقيبٌ شاب، أحمد رامي. توجّه هذا الأخير، الذي كان على الدوام منتسباً لوحدة BLS، إلى الصخيرات مخفياً هدفه في مساندة المتمرّدين إن تحقّق بأنّ الانقلاب قد قطف ثماره. أوقف أوفقير الرتل، وتسلّق مصفّحة المقدّمة. أراد النقيب أن ينسحب من بُريج العربة ليترك مكانه للجنرال حينما ردّ هذا الأخير:

- كلاّ، يا أيّها النقيب، ابقَ حيث أنت، مكاني ممتاز في الخارج.

بعد أن أمره بتقسيم وحدته، وجّه الجنرال قسماً للرشاشات الأوتوماتيكية نحو الصخيرات. آمراً إياهم أن يخضعوا لأوامر الجنرال إدريس بن عمر بغية تأمين سلامة القصر. وترك قسماً آخر من تعزيزاته للجنرال بشير بوهالي، رئيس هيئة أركان القوات المسلحة الملكية، موضّحاً له أن يقوم بتطويق المقرّ العام للعمليات دون مهاجمته.

وصل بوهالي إلى هدفه بعد الساعة السادسة بقليل وأوقف سيارته أسفل درج مدخل هيئة الأركان. فجاء العقيد عبابو لمقابلته:

- ها! يا سيّدي الجنرال، أهلاً بك! انضمّ إلينا. الرئيس الشلواطي ينتظرك في قاعة الاجتماع!

أخرج الجنرال بشير بوهالي، الذي شعر بالإهانة لعدم قدرته على توقّع العملية من جيشٍ يقوده، سلاحه وأطلق النار على عبابو. ردّ المساعد أوّل عقّة وقتل الجنرال والرجلين اللذين كانا يرافقانه. تمدّد عبابو، الذي جُرِح جراحاً خطيرة، على درج هيئة الأركان. وطلب في الرمق الأخير من المساعد الأوّل أن يُجهِزَ عليه. تردّد عقّة. قال له العقيد:

- هذا أمر!

فأطلق عليه ضابط الصفّ رصاصةً في الرأس.

قفز شقيقه إلى سيارة أجرة وانطلق ليلجأ إلى بيت ابنة حميه. وحاول الوصول إلى تطوان، حيث عمّه الباشا هناك، ونفذ في المساء من حاجزٍ للشرطة، ونجح في الفرار ولكنّه أوقِف بعد بضعة أيام وسط البراري.

في الرباط، استمرّت استعادة المبادرة بقيادة الضباط الكبار الذين ظلّوا أوفياء للملك.

في الأثناء، عاد الجنرال حبيبي إلى قصر الصخيرات. عندما وصل إليه حوالي الساعة السابعة، وجد وضعاً مختلفاً عمّا كان قد تركه فيه. استعاد الملك، سليماً معافى، السيطرة على الوضع. جاء حبيبي لتحيّته:

- يا صاحب الجلالة، كم أنا سعيدٌ برؤيتكم حيّاً! تلقينا الأمر بالعودة إلى مناطقنا العسكرية. وقد جئتُ لأخبركم بذلك.

ثمّ غادر الجنرال الصخيرات ليعود إلى قيادته في مرّاكش دون أن يعرف أنّه سيُقبَض عليه مثل سائر الجنرالات لدى نزوله من الطائرة. إذاً، جاءت هذه الواقعة تكذّب القراءة المبهمة المعدّة عن التورّط الكامل للجنرالات. إذا كانوا، على ما يُزعم، لم ينضموا إلاّ عند إعلان مقتل الملك، فكيف حصل أنّ حبيبي، وقد تأكّد عياناً أنّ الحسن الثاني لا يزال حيّاً، لم يضع حدّاً لمشاركته «القسرية» في الانقلاب؟ كيف حصل وحاول هو وزملاؤه الاستمرار في زجّ وحدات جيش البلاد في انقلابٍ لم يعد انقلابها وانحرف انحرافاً خطيراً عن مساره؟

في الساعة الحادية عشرة، استُعيد النظام. قُبِض على العقيد الشلواطي والجنرالات المتمردين. بعد منتصف الليل، عرض أوفقير الوضع للملك. كانت الساعة تقترب من الواحدة فجراً، حينما توجّه الحسن الثاني بكلمةٍ مقتضبة إلى الأمّة. وبعد ذلك بساعات، صرّح الملك للصحافيين: «إنّه ليس إلاّ انقلاباً كما في البلدان النامية، قادته زمرةٌ من

المعتوهين الطامعين في السلطة، وأنا اليوم ملكٌ أكثر بقليل من البارحة!» وفي ليلة 11 تموز (يوليو)، أضاف: «غداً، على أبعد تقدير، سيُعدَم قادة هذا التمرد بالرصاص، لقد مُنِحوا تماماً الوقت ليرووا ما لديهم.» في الواقع، سيمنح الملك نفسه يوماً آخر، بقصد إتاحة الوقت للعقيد الدليمي لمواصلة استجواب العُصاة. كما تصرّف الملك بمهارة: بمنحه السلطات المدنية والعسكرية لأوفقير، وضعه في الخطّ الأوّل، ولكنّه تجنّب أن يدعه يستجوب هؤلاء الرجال الذين يقاسمهم الكثير من الأشياء. علاوة على ذلك، أراد أن يتأكّد من أنّ والدي لم يساهم في الانقلاب. ولن يتمكّن من معرفة ذلك إن كلّفه بالتحقيق. وإذا كان الحسن الثاني قد عجّل في إعدام الجنرالات، فذلك أخيراً لأنّه خشي من أن يدافع أوفقير، مع السلطات المطلقة المناطة به، في اللحظة الأخيرة عن رفاق دربه. لاسيما وأنّ الوزير قد صرّح، في 12 تموز (يوليو)، لفيليب آلفونسي على إذاعة أوروبا واحد: «سيُحاكم المتمرّدون أمام محكمة عسكرية حسب رتبتهم ودرجة مسؤوليتهم وسيكون لهم الحقّ في محاكمة عادلة.»

في ليلة 12 تموز (يوليو) تلك، سُرِرتُ أخيراً برؤية والدي حيّاً. في ثياب العمل، ومصحوباً ببعض الضباط الذين أذن لهم بالانصراف على عتبة الباب، بالكاد أتاح لي الوقت لأقبّله وصعد إلى غرفته. لحقتُ به لكي أستعلم عن حاله. كان وجهه مكفهرّاً أكثر من أيّ وقتٍ مضى: بدا واجماً، مهموماً، ساهياً. عرضتُ عليه أن يتناول طعاماً. أجابني بمشقّة، نظرته شاردة، وبقي غارقاً في أفكاره. رنّ الهاتف. رفعتُ السماعة. إنّه المقسم. أُبلغتُ بالوصول المفاجئ للجنرال مولاي حفيظ والعقيد الدليمي. أخبرتُ والدي بذلك:

- أدخِلْهما إلى الصالون، أخبِرْهما أنني قادم.

جعلهما أوفقير ينتظران قرابة ربع ساعة. حينما دخل عليهما، كان تصرّفه بمنتهى البرودة. لم يدعوهما للجلوس. نظر مولاي حفيظ

والدليمي أحدهما إلى الآخر، وترك كلٌّ منهما للآخر أن يفاتح والدي بكلامٍ بدا أنّهما يعتبرانه حسّاساً. أخيراً، توجّه مولاي حفيظ، متردّداً، إلى والديَ:

- يأمرك جلالته بأن تكون حاضراً غداً صباحاً في ميدان المنزل[1]، حيثُ سيُعدَم قادة التمرّد رمياً بالرصاص.

اتّخذ وجه أبي، الشاحب، هيئة قلّما شاهدته بها. مضموم الفم، ومشدود الفكّين، أجاب باقتضاب:

- أخبرا جلالته بأنني سأنفّذ، كالعادة، أوامره. والآن، إن لم يكن هناك ما تضيفانه، يمكنكما الانصراف.

وحتى قبل أن يتحرّك الدليمي ومولاي حفيظ، خرج من الصالون وتركهما جامدين هناك.

رافقت رسولَي الشؤم إلى الباب، ورجعتُ إلى والدي في غرفته. لن أنسى أبداً تلك اللحظة. جالساً على حافة سريره، أدار لي ظهره. وأخذ رأسه بين يديه، وكتفاه تهتزان. تجمّدتُ في مكاني قلِقاً. لم أره قط في هذه الحالة. بكى والدي كطفل. بحركةٍ من يده، طلب مني أن أتركه وحده. وإذ لم أستطع الامتثال لطلبه، أقفلتُ باب الغرفة بالمفتاح، وجثوتُ أمامه وأمسكتُ بيديه. لم أعرف ماذا أقول. وردّاً على قلقي، هزّ والدي رأسه في حركة نفيٍ يائسة. ذُهِلتُ لرؤية ذلك الوجه الحربي تسيل عليه دموعٌ غزيرةٌ عاجزة. وإذ لم أعد أحتمل رؤيته في تلك الحالة،

حاولتُ، بصمت، أن أقنعه واضعاً يدي على قفا رأسه. دُقّ الباب، ورحتُ أفتحه. كانت مليكة. أغلقت الباب من ورائها وانضمّت إلينا. برؤيتها والدنا يبكي، ذُعِرَت أكثر منّي. أحطنا به وحاولنا أن نضمّه بين ذراعينا، ولكن لم يتغيّر شيء. نهض وهمس إلينا:

- اتركاني وحدي، أرجوكما...

---

(1) ميدان تدريب على شاطئ البحر لسلاح المدفعية المغربي.

انسحبنا، بروحٍ مرهقة وقلبٍ ممزّق. مكثتُ لساعاتٍ جالساً على درج أمام ذلك الباب، قلقاً مما رأيته.

في اليوم التالي، 13 تموز (يوليو)، جاءت سيارة قيادة من طراز جيب في طلب أوفقير. أخذ مكانه فيها، مصحوباً بثلاثة ضباط كبار. اعتمر والدي خوذة. قبّلته. ردّ عليّ بمشقّة، وانطلقت المركبة. قرّر الحسن الثاني أن يُنقَل إعدام الجنرالات عبر الإذاعة والتلفاز لكي يتأكّد جميع المغاربة من المصير المقدّر لمن تجرّأوا على التمرّد ضده. وتلقّى المعلّق الرسمي والمصوّر أوامر صارمة: يجب أن يكون أوفقير في الخطّ الأوّل. لكي يشير إليه الشعب على أنّه جلاّد إخوته في السلاح.

على جرفٍ صخريٍّ من الشاطئ الأطلسي، على بعد بضعة كيلومترات من العاصمة، نُصِبَت عشرة أعمدة للإعدام. أوصلت مركبةٌ مدرّعة أربعة جنرالات وخمسة عقداء ومقدّماً واحداً إلى ميدان المنزل للرماية حيث ينبغي تجريدهم من رتبهم قبل رميهم بالرصاص.

كان أوّل من أُنزِل من العربة المدرّعة الجنرال حبيبي. كان وجهه المتورّم يحمل آثار الاستجوابات العنيفة التي خضع لها. كان هذا المقاتل، المنحدر من منطقة أوفقير نفسها، أقدم صديق له. تبعه الجنرال حمو، عم لطيفة، زوجة الحسن الثاني ووالدة محمد السادس المقبل. ولم تمتثل هذه لآراء محظيات القصر اللواتي نصحنها بأن تطلب من الملك العفو لعمّها: أجابتهنّ، رقيقة وبطبعٍ قاسٍ، باللغة البربرية:

– عندنا، الشرف الأرفع هو الموت كرجل، لو طلبتُ عفواً لعمّي، ما كان ليسامحني أبداً!

حينما جاء دور الجنرال بوغرين، احتاج أوفقير إلى جهدٍ يفوق طاقة البشر لكي يتمالك نفسه. التقت نظرتاهما. كم من الذكريات تربطهما! سار بوغرين، بهيبة قائدٍ روماني، بخطى نبيلة وثابتة إلى مصيره. أمّا العقيد الشلواطي، فقد نزل من العربة المدرّعة منتفخ الجذع مرفوع الجبين، ظلّت نظرته متمرّدة وثائرة. مربوط اليدين إلى ظهره، تلقّى ركلةً

من الوزير الأوّل أحمد العراقي:

- يا لك من قذر، أيها القاتل!

التفت الشلواطي، رابط الجأش وخاطبه:

- اعتبر نفسك سعيداً بكونك على قيد الحياة، يا قذر! كل ما أتأسّف عليه هو أنني لم أمتلك الوقت لاستئصالك أنت ومليكك! أفضّل الموت على أن أعيش للحظةٍ إضافيةٍ تحت حكم دميتك!

وختاماً، بصق الشلواطي على قدمي الوزير الأوّل.

آخر من أُنزِل من عربة مصفّحة كان «وزير الداخلية»، العقيد فنري. وإذ كان قد مات تحت التحقيق، كانت جثّته هي ما رُبِط على عمود الإعدام!

اقتيد الضباط المتمرّدون نحو أعمدة الإعدام. سدّدت الفصائل المكوّنة كلّ واحدة منها من اثني عشر جندياً بنادقها على المحكومين. راقب الحسن الثاني، مختفياً في عربة قيادة، المشهد بمنظاره المقرّب. طلب من قائد فصائل الإعدام أن يبصق على المعدَمين قبل إطلاق رصاصة الرحمة عليهم. رفض معظم المعذّبين وضع العصابة على أعينهم. كانت الرشقة الأولى مخصّصة للجنرال حمو. حينما جاء دور العقيد الشلواطي، خاطب أوفقير:

- أعرف أنّك تفكّر مثلنا! احذر، في المرّة القادمة سيكون دورك.

صرخ أحد المحكومين قبل الرشقة المقدّرة:

- عاش الملك!

استمرّ الإعدام وسط عاصفة من الانفجارات. وجعلتها المراسم المحيطة بها أكثر جهنميّة. رشقةً بعد رشقة، أشهر صوت المعلّق الرسمي الحدث بتعليقاتٍ خطابية تمجيداً للحسن الثاني ولعنةً تنزل على الذين خانوه!

في ذلك اليوم، 13 تموز (يوليو)، وسط إيقاعٍ قاسٍ وضجيجٍ قاتل وإخراجٍ وقحٍ، سقط أفضل قادة الجيش الواحد تلوَ الآخر. وإذ أنجزت

كارثة الصخيرات مهمتها، لم أكن الوحيد الذي بكى في ذلك الصيف المشؤوم من عام 1971!

خلال الأيام الثلاثة التي أعقبت الإعدام، لم يعد أبي إلى البيت. لجأ إلى منزل جاره وصديقه إدريس بن عمر لتبديد حزنه. رافقته إلى هناك كلّ مساء تقريباً. وسمعتُ هناك تعليقات حصرية وتفاصيل حول أسباب الانقلاب وما جرى في كواليسه، وحول سيره ونتائجه. منذ تاريخ تلك المأساة في 13 تموز (يوليو)، لن يعود أبي الرجل نفسه. فقد حطّمه إعدام هؤلاء الرفاق نهائياً. وستقول له أمّي هذه الكلمات التي لا يمكن أن يكون هناك ما هو أصحّ منها:

- أوفقير، لا يمكنك أن تكون مع الأموات والأحياء في آنٍ واحدٍ. . .

بعد ذلك، سيمنحني الانطباع بأنّه تائهٌ في وسطٍ ليس وسطه ولا يجد نفسه فيه. اعتبر أن مقتل هؤلاء بلا محاكمة هو إهانة للجيش ولشخصه. منذ ذلك الحين، دخل أبي في حالة حزنٍ وحداد، وكانت مأساة شخصية داخل بيتنا. تركت أحداث الصخيرات تحوّلاً مأساوياً في حياته وبالتالي في حياتنا. كانت بداية النهاية.

في الأيام التالية، استقبل أبناء الجنرال حبيبي، أصدقائي، الذين طُرِدوا من بيتهم، بناءً على أوامر الملك، من قبل رجال مولاي حفيظ والدليمي. وبحضوري، مدّ إلى الابن البكر صندوقاً صغيراً يحتوي على مبلغٍ من المال:

- كان والدك بمثابة أخٍ لي. مات حبيبي رجلاً، وأنا واثقٌ بأنّه قد خلّف رجالاً.

أمّا مينة، ابنة المدبوح، التي لجأت إلى بيتنا منذ ليلة الانقلاب، فقد أوصاني بأن أهتمّ بها. لم تستطع المسكينة أن تتعزّى بموت أبيها. ما مزّق قلبها أكثر هو أنّ الحسن الثاني قد أمر بأن تُحرَق الجثّة المتعفّنة للجنرال.

فبعد تركها تتفسّخ لثلاثة أيام تحت الشمس، على مدخل معرض الجثث، رُشّت جثّة المدبوح بالوقود وأُحرِقَت. وتحدّث والدي مطوّلاً مع مينة مؤكّداً لها مساندته الدائمة. ووفقاً لرغبتها، وضعها على متن أوّل طائرةٍ متوجّهة إلى باريس، آمراً الشرطيين الذين رافقوها إلى المطار بتجنيبها أيّ تفتيش. خشيت مينة من أن تُصادر منها صور والدها التي التقطتها في آخر ذكرى. استخرج لها والدي جواز سفرٍ، وسلّمها، عند توديعها، بعض المال.

مرّ حوالي خمسة عشر يوماً. بات أبي يتأخر أكثر من ذي قبل في منزل الجنرال إدريس بن عمر. ذات مساءٍ كنتُ برفقة أبي، نعت أحد الأشخاص الموجودين المساعد أوّل عقّة بالقاتل. ردّ عليه أوفقير بجفاء:

- كلاّ، عقّة لم يكن قاتلاً! لقد كان مقاتلاً حقيقياً والجيش في دمه!

وروى ذكرياته مع المساعد الأوّل. كان عقّة قد تطوّع في التاسعة عشرة من عمره في الجيش الفرنسي وتميّز خلال حملة إيطاليا في عام 1944 بشجاعةٍ أصبحت أسطورية. فقد كان، محروماً من الذخيرة، يواصل الزحف على مرابض الرشّاشات الألمانية مجهزاً على مستخدميها بضربات الحجر. أشاع ردّ أوفقير فتوراً وسط الحضور. ولكنّه أصرّ ولم يتبرّأ لا من أيّ شيء ولا من أحد.

أتذكّر يوماً آخر، بمناسبةِ عيدٍ للعرش، مرافقاً والدي في جولةٍ تفقّدية لمقرّ BLS في الرباط. خرج عقّة بصدارٍ وعلى كتفيه منشفة. عند رؤيته لأوفقير، ارتمى بين ذراعيه. قبّله والدي وقال له:

- كيف حالك، يا عفريت؟

ويُقصد بذلك المقدام إلى حد التهوّر.

كانت علاقة متينة تربطه بوالدي، العلاقة التي تربط إخوة السلاح لكونه قد خدم تحت إمرته في إيطاليا وفي الهند الصينية. كان عقّة ضابط الصفّ الوحيد الذي يعامله والدي على قدم المساواة خارج التراتبية

العسكرية. أتذكّر أنّهما سارا معاً لبضع خطوات وأنّ المساعد الأوّل صرّح لوالدي مبتسماً:

- سيّدي الجنرال، ليس لديّ الشيء العظيم لأقدّمه للملك بهذه المناسبة، ولذلك سأقدّم له هديّة في حدود إمكاناتي. . .

دخل عقّة إلى عنبرٍ للإمدادات وخرج منه وبيده رشّاشٌ وتتصالب على جذعه القويّ جعبتانِ للمخازن. وقبالة جدارٍ كبيرٍ أبيض اللون للثكنة، فتح النار. سددتُ أُذني وأنا أشاهد شظايا الجصّ تتطاير وتتناثر. حينما توقّفت لعلعة الرصاص، أبصرتُ، منذهلاً، بوضوح وقد كتبَ باللغة العربية، حفراً على الصخر، شعار القوات المسلّحة الملكية: «اللّه، الوطن، الملك». قهقه والدي وهمس للمساعد:

- يمكنني أن أقول لك إنّ إمكانياتك، مهما كانت متواضعة، ستُذهل مع ذلك جلالته! ومن الأفضل، لك ولي أن تحتفظ بهذا النوع من الهدية لنفسك!

بعد انقلاب الصخيرات ببضعة أيام، عيّن الحسن الثاني أوفقير وزيراً للدفاع وقائداً عامّاً للقوات المسلّحة. تعيينٌ تمّ خلال جلسةٍ لمجلس الوزراء عقدها الملك في الديوان الملكي بالرباط. في ذلك المساء، أخبرني إدريس وبوطويل بإمكانية أن يغادر أبي الوزارة. وإذ أُخبرت بذلك، لم أُبارح الوزارة على أمل أن يدعني أرافقه إلى الديوان الملكي. تحقّقت أمنياتي، ولكنّه أمرني بالبقاء في مرآب القصر مع الأمن. في اللحظة التي دخل فيها إلى قاعة المجلس، جاء أحد المرافقين يُبلِغ رئيس الأمن الملكي أنّ جهاز التفتيش قد رنّ. أجاب المسؤول:

- ماذا تريد أن أفعل، إذا كنتَ تتجرأ على أن تستجوب الجنرال، هيّا افعلْ!

ساد الاضطراب المجلس. صادف والدي، الذي، وصل متأخّراً بعض الشيء، الوزراء المختلِسين الذين لم يتّعظوا واقترحوا على الحسن الثاني

زيادةً لسعر السلع الضرورية للحياة. زايد كلُّ واحدٍ من هؤلاء الممالقين بالمجاملات والمدائح، وأكّد أن مجزرة الصخيرات هي فقط صنيع زمرةٍ من المرضى الذين استغلّوا سذاجة ضباط الصفّ تلاميذ هرمومو لتخديرهم وزجّهم في مهاجمة القصر. باختصار، جرى الإصرار وكأنّ شيئاً لم يكن على أرض الواقع. إلى حين ضرب أوفقير بقبضته على الطاولة ونهض وأخرج مسدّسه. شحُب الوزراء والملك أيضاً. لثانية أو ثانيتين، شلّ غموض الوضع الحضور. أهي محاولة اغتيالٍ جديدة للحسن الثاني؟ أم ببساطة غضبٌ جامحٌ من قبل الوزير؟ حينذاك، وضع أوفقير سبطانة السلاح على صدغه وصرخ في الملك:

- سيّدي! لقد أعطيتُ كلّ شيء وضحّيتُ بكلِّ شيء في سبيل العرش وفي سبيل جلالتكم! وذلك ليس ليصل بنا الأمر إلى هذه الحال! إذا أصررت على ألاّ تعتبِر ممّا حدث، أرفض الاستمرار. أرفض أن أتكفّل هذا الحطام! ينبغي أن تكون الملكية أفضل من الجمهوريات! إن لم تقدّر ذلك تقديراً حقيقياً، فإنّ المأساة التي وقعت للتوّ في الصخيرات لن تكون الأخيرة! أفضّل أن أنهي حياتي الآن على أن أُقتَل في لباس البحر.

لم يتحرّك الحسن الثاني. أصغى، دون مقاطعة، إلى أوفقير وهو يصبّ جام مرارته وحنقه. ثمّ قام بتهدئته وقاده إلى حجرة مجاورة حيث تفاهم الرجلان فيها لمدّة تقارب الساعة ونصف الساعة. منذ وقتٍ طويل وهما لم يتحادثا معاً بهذه الطريقة. أقرّ الملك بالذنب ووعد بإجراء تغييرٍ وشيك. طرح أوفقير شروطاً ولم يقبل باستلام الجيش ما لم يمنحه الملك الوسائل الحقيقية لذلك. كما طالب بمضاعفة راتب العسكريين، والاعتمادات الكافية لبناء البنى التحتية والمنشآت والمساكن للجيش. بل وانتزع وعداً بالملاحقات القضائية ضدّ الوزراء المتورّطين في أعمال الاختلاس وحصل على تخفيض بنسبة تقارب ثلاثين بالمئة لأسعار السلع الضرورية للحياة. وأخيراً، اقترح على الملك عفواً عن تلاميذ هرمومو: بدءاً من 16 تموز (يوليو)، أمر الحسن الثاني بإيقاف التعذيب المفروض

على متمرّدي الصخيرات، وأمر الدليمي ومولاي حفيظ بتسليمهم إلى الشرطة الرسمية. ونفّذ جهازا SSS والكاب ما أُمِرا به. ومنذ ذلك الحين، تواصلت استجوابات المتمرّدين دون عنف. كما منح الحسن الثاني آخر امتيازٍ لأوفقير عبر السماح له بتسمية أعضاء المحكمة العسكرية المكلّفة بمحاكمة الألف ومئة تلميذاً من تلاميذ مدرسة ضباط الصف. الأمر الذي لم يمنعه من أن يفاجأ بالمرسوم الذي سيصادف في 29 شباط (فبراير) 1972. وحده النقيب الرايس، الذي أقرّ بإقدامه على قتل أحد الأشخاص بناءً على أوامر عبابو، حُكِم عليه بالإعدام. وقد حصل أوفقير على العفو عنه. وحُكِم على مُحمد، شقيق العقيد عبابو، والمساعد أوّل عقّة بالسجن مدى الحياة. وسيصدر خمسة وسبعون حكماً، تتراوح بين عام واحد وثلاثين عاماً من السجن، بحقّ كوادر هرمومو. وسيُبرأ معظم التلاميذ بلا قيد أو شرط.

لم يستطع الحسن الثاني، المحصور في وضعٍ حرج، سوى الانضمام إلى سياسة أوفقير التوفيقية، الأمر الذي لن يمنعه غداة الانقلاب الثاني الذي قاده هذا الأخير في عام 1972 من إلغاء ذلك المرسوم المتسامح زاعماً أنّه كان قد «وضِع أمام الأمر الواقع من قبل أوفقير وبأنّه لم يكن لديه من خيار آخر سوى أن يكتم ذلك». وبالتالي سيُسجَن المحكومون في قضية 1971 في جحيم مأوى المحتضرين في تاماتاغت طوال تسعة عشر عاماً. وسينضمّ إليهم طيّارو 16 آب (أغسطس) 1972. ولن ينجو سبعة وعشرون منهم من ذلك السجن وسيحتضرون في موتٍ بطيءٍ ومرعب، مدفونين أحياءً في حفرٍ ضيّقةٍ وغير صحيّة.

بعد أسابيع من الصخيرات، استقبل والدي أكثر أصدقائه وفاءً، الجنرال إدريس بن عمر برفقة رضا أكديرة وإدريس السلاوي، الموجّهين الخفيّين للقصر. أكديرة صديقٌ للحسن الثاني، والسلاوي صديق أوفقير. طلب منّي والدي أن أخدمهم وهم مجتمعون في الصالون. شعرتُ

بوضوح بأنّه يقرّبني منه على نحوٍ متزايد. علّق الرجال الأربعة على الأحداث. دام النقاش لساعات. استُعرِضت أدقّ التفاصيل. لم يتوقّف الهاتف عن الرنين. كنتُ أردّ لأختار المكالمات التي لا تستطيع الانتظار إلى حين أعلن عامل المقسم قدوم المفوّض إدريس البصري، الصدر الأعظم للحسن الثاني في السنوات التي ستلي. جعله أوفقير يصعد إلى الصالون. أدخلته. استمع إدريس، في وقفة احترامٍ، إلى إعلان أوفقير تعيينه في إدارة مدرسة الكوادر:

- إدريس، لقد عُيّنتَ على رأس مدرسة الإدارة. لقد سمح لي جلالته أن أمنحك هذا المنصب.

بعد بضع كلماتٍ مناسبة، انسحب البصري. دُهِشتُ من سماع أبي يناديه «ابني». ولم يكن بن عمر وأگديرة والسلاوي أقلّ دهشةً لرؤية أوفقير يستقبل مفوّض شرطة في اجتماعٍ بين شخصيات المملكة:

- مَنْ هذا الشخص، يا أوفقير؟

ردّ الجنرال بلا تردّد:

- الوزير المقبل لداخلية المغرب. إنّه هو مَنْ سيستردّ الكوخ. لقد فصلته لكي يتابع دروسه في القانون إلى أقصى حدّ. لقد كنّا الرواد. بنينا الدولة بالوسائل المتاحة. بالتأكيد ارتكبنا أخطاء، ولكن عن حسن نيّة. أشعر، أكثر من أيّ وقت مضى، بأننا قد أكملنا عهدنا... في مرحلة أولى، كان لا بدّ من إعمال القمع ووضع عسكريٍّ في وزارة الداخلية. وستأتي مرحلة ثانية ستكون مفصلية، وستتطلّب وزيراً في الداخلية يعتمر القبّعتين: قبّعة الخبير في مجال أمن الدولة وقبّعة رجل القانون. ثمّ ستأتي مرحلة ثالثة حيث لن يكون وزير الداخلية سوى رجل قانون. ربّما سيعيش أولادنا تلك المرحلة.

منذ الهجوم على قصر الصخيرات، نقل الحسن الثاني مقرّاته إلى الڤيلا الملكية، في جادة الأميرات، المجاورة لمنزلنا. كان على والدي أن

يقطع في الأكثر بضع مئات من الأمتار ليقابل الملك. رافقته خلال إحدى زياراته. لم يكن والدي قد تخلّى عن لباس العمل الذي ارتداه منذ بداية الأحداث. لم يُبرز أيّ وسام ولا أيّ إشارة ولا حتّى رتبه. قطعنا المسافة مشياً. استقبله الملك على حافّة المسبح. حيّيتُ جلالته، الذي استفسر بودٍّ عن أحوال العائلةِ كلّها، وأنّبني بلهجة أبوية على إفراطي في السرعة بالدراجة. بدأ الحسن الثاني ووالدي بالسير معاً لبضع خطوات، ثمّ دعاه الملك إلى أحد الصالونات. بقيتُ على حافّة المسبح بانتظار أن تنتهي الجلسة. رفرفت ستائر رقيقة من الحرير خارج النوافذ المزجّجة التي تُرِكَت مفتوحة. سُرعان ما سمعتُ النبرة ترتفع. أصختُ السمع. لم أسمع من بداية ذلك النقاش سوى مقتطفات منه، ومع ذلك أدركتُ جوهره: رفض الحسن الثاني حضور مراسم دفن الضباط الموالين التي ستجري في ثُكنة وحدة BLS في الرباط. خشي الملك من الذهاب إلى معسكرٍ للجيش. ولم يكن ذلك مثيراً للاستغراب أمام ما عاشه في الصخيرات. مع ذلك حاول أبي ثني جلالته عن حركة قد تُغضِب أُسر المتوفّين والجيش. ولكن دون جدوى على ما يبدو. اقتربت لأسمع على نحو أفضل. ألحّ أوفقير:

– ولكن يا سيّدي هؤلاء الرجال ماتوا من أجلك، ومن الضروري حضور مراسم تشييعهم؛ أنت مدينٌ لهم بهذا...

منذ إعدام أولئك الضباط بدون محاكمة، كان الجو مكهرباً بين الحسن الثاني ووالدي. والحال أنّ هذه الكلمات الأخيرة تجاوزت الحدّ. احتدّ الملك هائجاً:

– لا أدين لهم بشيء! أنا واثقٌ أنّهم لو بقوا أحياء لانضمّوا إلى الآخرين!

صبّ عاهل المغرب جام الانفعالات والمخاوف التي كظمها منذ الصخيرات. تجاوزت كلمات الملك، الغاضب، حذقه السياسي المعتاد. استشاط غضباً وخاطب والدي:

- أجل! أجل! أنا واثقٌ من ذلك! ماذا تتصوّر، يا أوفقير، تتصوّر أنني ساذج؟ يريدون رأسي!

وإذ فقد تماماً السيطرة على نفسه، أضاف:

- كلّهم هكذا، هؤلاء العسكر. مَنْ يظنّون أنفسهم، إنّهم مدينون لي بكلِّ شيء، نعم، بكلِّ شيء، وكلّهم مثلك!

أطلق الحسن الثاني، في احتداده، عبارات محمّلة بالمعاني:

- هؤلاء البربر يظنّون أنّهم سيملون عليّ قانونهم! ماذا يعتقدون أنفسهم، دولة داخل الدولة!

أوحى لي الخوف بأن أبتعد، ولكنّ الفضول جعلني أخاطر بأن أكون متطفّلاً.

أفلتت من الحسن الثاني، وهو أسير غضبه، ألفاظ لا يمكن تجاهل مقاصدها أو عكس معانيها. فقد قال أيضاً:

_ أنتم العسكر، تتصوّرون أن أوسمتكم مع الفرنسيين تؤهّلكم لأن تتدخّلوا في السياسة! كلاّ! أنتم لا تعرفون شيئاً فيها، وأنا الملك، أنا السيّد! والذين يشكّكون في ذلك، سأبيدهم، هل تسمع يا أوفقير! سأبيدهم حتى آخر واحدٍ منهم؛ معك أو من دونك. فأنا أنصحك يا أوفقير، اختر معسكرك!

وإذ استشعرتُ أنّ المواجهة بلغت نهايتها، ابتعدتُ على أصابع رجليّ. لم يتأخّر والدي في الخروج. في طريقنا إلى البيت، صادفنا الملك حسين عاهل الأردن الذي جاء لتحية الحسن الثاني تضامناً. ما إن علِم بمجزرة الصخيرات، حتى جاء العاهل الهاشمي مباشرة ليساند «أخيه وصديقه» في هذه المحنة ويؤكّد له تضامنه. كانت مبادرة نبيلة ولا ينقصها الاندفاع. كان حُسين بالزيّ العسكري، مشمّر الساعدين، ومسدّسه على حزامه. بعد أن حيّيته، ابتعدتُ عنهما. تحادث هو وأبي حوالي عشر دقائق. كان الرجلان يتبادلان التقدير. أخبر أوفقير العاهل الأردني بأسباب «استيائه» وبدأ بالتعبير بإيجاز عن امتعاضه حيال الإعدام المتعجّل لرفاقه.

ثمّ توقّف عن آخر سببٍ لسخطه، مبلغاً الملك حسين بأنّ الحسن الثاني يرفض أن يرأس مراسيم جنازة الضباط الموالين الذين قُتلوا في الصخيرات. وعد الحسين أبي بأن يأخذ ذلك الأمر على عاتقه وبأنّه سيستغل الآن لقاءه لكي يُقنع الملك. لم يشأ الملك، المصدوم، أن يترأس احتفالاً عسكرياً في معسكرٍ للـ(BLS). كان بعض انقلابيي الصخيرات، مثل العقيد الشلواطي، قد قادوا في الماضي وحدة النخبة هذه. توجّس الحسن الثاني من هذا الجيش الذي أراد أن يفرض عليه أراءه بالقوة ومن لواءٍ مثل BLS الذي قد يرغب في الانتقام لقادته الذين أُعدموا دون محاكمة. اقترح الحسين على ملك المغرب أن يرافقه إلى تلك المآتم. ضمن العاهل الأردني، بجسده أمن الحسن الثاني. ولكن نظراً لما عاشه للتوّ، داخل الملك شكٌّ قويّ في أن يرتبك جنوده، «أبناؤه في الجيش الملكي» كما يسمّيهم، بحضور رئيس دولة غريبة إلى جانبه، بينما لم يحترموا حتى الحصانة الدبلوماسية لضيوف الصخيرات. أخيراً، وبعد مماطلات، رضخ للأمر: كي لا يعطي الانطباع بأنّه خائف قرّر أن يحضر الاحتفال.

في مطلع آب (أغسطس) 1971، أعلن الملك عن تدابير اعتبرها تنازلاً أقصى. زيدَت الرواتب المتدنية بنسبة 25%، وخُفِّضَت أسعار السلع الأساسية بنسبة 20% ووزِّع أكثر من ألفي هكتار من الأراضي على صغار الفلاحين.

في البداية، أجرى الحسن الثاني «تعديلاً دستورياً» حرص فيه على أن يحتفظ بامتيازاته وسلطاته المطلقة. ظلّ دستور المملكة الشريفية أكثر من أيّ وقتٍ مضى نموذجاً للحكم الفردي. استعاد الحسن الثاني ألاعيبه السياسية: استأنف الحوار مع المعارضة وأوهمها، كالعادة، «بانفتاحٍ سياسي» وشيك. وطبعاً لن يحدث ذلك. وكالعادة، حمّل مسؤولية ذلك التراجع الذي حصل لمرات لا تُحصى إلى أوفقير الذي يمنع التغيير.

والواقع أنّ الملك، في الوقت الذي كان يهدّئ خصومه «بحوارٍ» عقيم لا نهاية له، لم يُرخِ للحظةٍ قبضته الحديدية التي يمسك بها البلد. بالتوازي مع ذلك، ورغم وعوده بالانفتاح، تواصلت قضية مراكش. حمّل مدّعي عام الملك مناضلي اليسار الجالسين في قفص المتّهمين مسؤولية انقلاب الصخيرات. وزعم الادّعاء بأنّ مرافعتهم ضدّ النظام انتهت بإشعال حريقٍ. صدر الحكم في أيلول (سبتمبر) 1971: بضعة أحكام بالإعدام من بينها حكم على الفقيه البصري، غيابياً، وهو المنفيّ في ليبيا؛ وبضعة أحكام بالأشغال الشاقّة المؤبّدة متبوعة بالعفو العام أو العفو الشامل الملكي.

وعد الملك أوفقير بمحاكمة الوزراء المختَلسين من قبل محاكم مدنية. وقد جرت المحاكمة، وحُكِمَ على المخلّين بالوظيفة بعقوبات تتراوح بين عامين واثني عشر عاماً من السجن. ولكن سيُطلَق سراحهم سريعاً بعد وفاة أبي. رسمياً، قُدِّم أوفقير أكثر من أيّ وقتٍ مضى على أنه القائد الكبير، اليد المسلّحة للنظام، الشخصية الثانية في المملكة، ولكن في الواقع، تمّت مراقبته وتحجيمه. وباتت علاقاته بالحسن الثاني غامضة ومحفوفة بالحساسية على نحوٍ متزايد. وبات الملك يحيط نفسه بالعديد من الاحتياطات الأمنية.

أحزنت مجزرة الصخيرات المجتمع المغربي وجرحته. وقُطِع رأس الجيش. أُعدِم عشرة ضباط كبار بالرصاص خمسة منهم جنرالات. يُضاف إليهم الضباط الموالين، الذين قُتِلوا بينما كانوا يتناولون الغداء بأمان في الصخيرات. من بينهم الجنرال انميشي، قائد سلاح الطيران، والجنرال الغرباوي. هذا الأخير، قائد الفرقة المدرّعة، وأحد الجنرالات الأكثر احتراماً في الجيش المغربي، استولى بشجاعة على رشّاش أحد ضباط الصف ليقتل العقيد عبابو الذي كان يحاول ضمّه إلى التمرّد. وسرعان ما أصابه قائد المتمرّدين وقتله عن قرب. تقبض أرملته اليوم راتباً بخساً مقداره ألفا درهم: هكذا كوفِئ الذين سقطوا دفاعاً عن مليكهم!

سواءٌ ماتوا مع الحسن الثاني أو ضدّه، فإن المغرب خسر، بهؤلاء

الرجال المهيبين، خيرة ضباطه، نخبةَ جيشه. سواءٌ كانوا أجانب أو مغاربة، جاءوا بدافع المصلحة أو المتعة، من أهل بيت الملك أو من أصدقائه الحقيقيين، فإنّ الأبرياء الذين قُتِلوا في الصخيرات والعسكريين الذين أُعدموا رمياً بالرصاص دون محاكمة سيلطّخون إلى الأبد سمعة البلاد. ولكن المسؤولين الحقيقيين، الذين قادتهم أخلاقهم المافيوية إلى «انقلاب الغضب هذا»، ظلّوا في مواقعهم. اكتفى الملك بإحداث إجراءات تجميلية في حين كان الأمر يتعلّق بسدّ شرخ عميق. عرّى الانقلاب النظام وهدم حاجزاً نفسياً وحده اليسار الثوري كان قد تجرأ على تجاوزه: الطعن في شرعية سلطة لا تستند سوى إلى القوة، والفساد وشبكات نظامٍ فرديٍّ يكاد يكون لامبالياً بالشعب وبحاجاته الأساسية.

استغرقني برنامج فيليب الفونسي المخصّص لتمرّد الصخيرات ثانيةً في شريط أحداثه الدموية. منذ ذلك الحين، مرّ الزمن ولكنّ ألمي استمرّ؛ بل وتفاقم. وإن كان الاستماع إلى الصوت الأبوي سبّب لي انفعالاً طبيعياً ولاإرادياً، فإنّ ردود فعل البقايا التي رسّخها الشقاء في ذهني جعله قصيراً. وبدل الاستماع إلى ذلك الصوت كصوت شخصٍ عزيزٍ لن نراه مرّة أخرى، فسرته تفسيراً منحازاً: لم أرغب أن أسمع فيه سوى رسالة محاربٍ مهزوم، مات بشرف، يتوسّل إليّ وهو يبتعد: «لا تدعهم يقتلونني مرّة ثانية! قاوم لكي تعيش! لا تسعدهم بموتك، لا تمنحهم فرحة اقتلاع اسمي من وجه الأرض!»

باطنياً، أقسمتُ صامتاً على ذلك. أيضاً، ورغم جراحي وآلامي وضيقي وإنهاك جسدي، هل أُثيرت حميّتي بذلك الوعد الذي أعطيته، من قاع تابوتي الحجري، لشبحٍ!

الفصل الرابع عشر

قاع البئر

تعاقبت السنوات، معذِّبةً ولا تُطاق، غثّةً كالعدم، أكثر قسوةً من الموت. مُنزَلاً إلى حالة الحيوان، دُرتُ، أشعث، في قفصي، مكرِّساً نفسي للحلم كَمَن يستبقي إلهامه. وإذا كان كلُّ يوم مرّ أثقل العبء الذي يسحقني، فإنّ كلّ لحظة من صراعي من أجل البقاء قوّت عزيمتي وكوّنتني.

نحن في بداية 1983. كنتُ منهكاً. جسدي متألّم وروحي ممزّقة. ها قد مرّت خمس سنوات وأنا محرومٌ من مخالطة غيري. لعجز سجّانينا، بقيتُ حيّاً. حيّاً أكثر من أيّ وقتٍ مضى لأنني بُعثتُ من جديد. أتلفت المحن الخيوط التي كانت نسيج المراهق المدلّل الذي كنت، خيطاً بعد خيط. أعاد العذاب تكوين رجلٍ عُجِنَ من الألم، ونضج بنيران الجحيم، أكثر صلابةً وأكثر ثباتاً وتماسكاً. كلّما غصتُ في العذاب أكثر نمت مقاومتي أكثر. كانت الزنزانة التي رُميتُ فيها ضيّقة جدّاً بحيث كنت كلّ يوم أخاف أن تنطبق جدرانها وتسحقني. مع ذلك، احتوى ذلك المكان المعتم والرطب والموحش على كلّ حكمة العالم والدروس العظيمة للحياة. كان الحسن الثاني محقّاً حينما قال لصديقه جاك شانسيل إنّ «الألم هو أعظم جامعة»!

في ذلك الجُحر، خفتُ من الشتاءات وخشيتُ أكثر منها الصيف. جائعاً، منهكاً بالأمراض والصراصير والجرذان، كافحتُ بكلِّ طاقةٍ لئلاّ

أغرق. كان يمكن لأدنى تهاونٍ أن يلتهمني! في العزلة العميقة، العدو الأسوأ هو الجنون. لو لم أحافظ باستمرار على معالم راسخة، مثل مدينة محاصرة تقوّي أسوارها، لتعرّض عقلي لخطر الهلاك.

حينما تخلّت عنّي قواي وهجرني الأمل، حثّتني الغطرسة ودفعتني إلى الأمام. وإذا كان هذا الشعور خطيئة مميتة في الحياة، فإنّه درعٌ واقية في المصائب. أمّا الكرامة، السلاح الأمضى في المحن، فلا يتعلّمها المرء وإنّما هي طبعٌ فيه.

واصل ذلك الموت على نارٍ هادئة، الذي أعدّه لنا القصر، غرضه الدنيء والعضال. ولكن ما فات المنطق الانتقامي لجلاّدينا هو القدرة التي يمتلكها الظلم على تشجيع المقاومات؛ وإذ لم تكن القدرة التي واتتنا قليلة، كشفت لي أوّلاً نفسي، ثمّ أظهرت لي وسط الأسى طاقةً قتاليةً غير منتظرة. ألا تحرق النار المدمّرة الأرض؟ ألا تعذّبها بشدّة لتجعلها في النهاية خصيبةً؟ تلك كانت حالتي تماماً. الحريق الذي أتى على حياتي الماضية زرع بذرة إنسانٍ جديد. اكتشفت خلال درب الآلام هذا إدراكاً جديداً للأمور. وإذا كان هذا العذاب الذي لا نهاية له قد حرمني من الأفضل، فقد علّمني أيضاً كيف أقاوم الأسوأ. أيّاً كانت الأوضاع التي ينبغي على إنسانٍ أن يواجهها، فإنّ اجتيازها يبدأ بتجاوزٍ للذات.

منذ أن عُزِلت في عام 1978، وعدا اللقاءات الأليمة التي جمعتنا لبضع ساعات بعد ظهيرة أحد الأيام من عام 1981، لم تُفتَح أغطية سراديب دفننا. انكبّ علينا الجوع والأمراض والإهانات والانحطاط الجسدي. لقد مزّق كلّ ذلك آمالنا ولكنّه جبر وحدتنا بملاطٍ متين. أرهقتنا الإسهالات. وتجاوزنا بأعجوبة أنواع الحمّى. أُصيبت أمّي ومريم وسُكَينة بفقر دم شديد. وأُصيبت أخواتي بأخماجٍ بولية. كانت سبع نساء مدفونات في ذلك السجن، منعت الرباط عنهنّ المحارم الصحيّة. . . شابت المسكينتان حليمة وعاشورا وتقوّس ظهراهما. وتشقّقت أياديهما وأرجلهما جراء البرد بتشقّقات دامية. وقد ضعفنا ووهنّا جميعاً لدرجة أنّ

المشي بات صعباً علينا. ومع ذلك أرغمنا أنفسنا على ذلك التمرين لئلاّ نستسلم للموت. أثقلت رطوبة الساحل القريب تلك الحفر الخفيّة المقفلة بعذابٍ إضافي. نخر الروماتيزم عظامي. وارتعبنا مع كلّ مرضٍ أصاب أخي الصغير. منذ أن سُجِن في الثالثة من عمره، لم يحظَ عبد اللطيف أبداً بتلقّي لقاحاته المناعية. تمسّكنا أكثر من أيّ وقتٍ مضى بحبّنا وتضامننا لكي ننجو. فأوّل مَنْ يَخضَع من بيننا سيجرّ معه الآخرين في سقوطه. كنّا كمجموعة متسلّقين يتسلّقون واجهات المستحيل. لو زلّت حلقةٌ من السلسلة لأفلت الرتل كلّه وسقط. ومع أننا بلغنا القاع، لوّحنا بالفكاهةِ والسخرية الذاتية كدرعٍ واقية وسط مآسينا. العقوبة التي نمضيها في قاع هذه الزنازين لم تُثبّت علينا من قبل أيّ محكمة. كم من الوقت سنبقى فيها أيضاً؟ هل سنخرج منها ذات يوم؟ لا أحد يعرف نهاية كابوسنا، سوى شياطين الانتقام الذين يسكنون الملك. الخطأ الذي من أجله نخضع لعقاب مهذا ليس مدوّناً في أيّة شُرْعَةٍ في العالم، اللّهم إلاّ في شُرْعَة الحقد. لا ذنب لنا في الاضطهاد المفروض علينا سوى الاسم الذي نحمله. إنّها جريمة يمكن تسميتها «جريمة نسب!»

صارعتُ يائساً للاحتفاظ ببعض المعالم البشرية. تشوّش مفهومي للزمن بمرّ الأعوام. كانت كلّ ثانية قضيتها في مأوى المحتضرين هذا ردحاً من الزمن. تمازج النهار والليل. تَلُفَ جسدي. آلمني خرّاجي ألماً مبرّحاً. أفرغت منه يومياً نصف زجاجةٍ من القيح.

أشرتُ على جدران زنزانتي إلى كلّ يومٍ من تلك المعاناة اللامتناهية. كانت الشطبات المتناثرة على جدران زنزانتي عبارة عن الكثير من الأماني القديمة والأحلام المصلوبة. فآثرتُ، بمرّ الأعوام، التخلّي عن تلك المفكّرة القاسية التي لا نهاية لها. ما الجدوى من حساب الوقت إذا كان يتجاهلك ويضعك على الهامش ويلغيك؟ لم يعد لكشف حساب كلّ طلوعٍ ومغيبٍ للشمس من معنى بالنسبة لي. فهو لا يقرّبني من شيء، ويبعدني عن كلّ شيء، ما دمتُ لستُ في أيّ مكان! لم أعد أستمع سوى

لساعتي البيولوجية ولغريزتي. انعكست دورات حياتي. فأنام في النهار و«أحيا» في الليل. لا أطيق النهار لأنّه، في حياةٍ طبيعية، مرادفٌ للأنشطة. وعلى العكس من ذلك، يهدّئني الليل على نحوٍ غريب. يبقى مناسباً للتأمّل ولأعمالي السرية.

لم أكفّ عن صقل بلاطي. اكتشفتُ إمكانية فتح ممرٍّ بين زنزانتي وزنزانة حليمة وعاشورا. في البداية، ولأننا لم نكن نمتلك وسائل إخفاء بقايا الحفر، اكتفيتُ بتهيئة الأرض. شغلني ذلك وأدرتُ قدر المستطاع ذلك العذاب الطويل، محاولاً أن أستمدّ قوّتي من التصبّر عليه.

ظلّ جهاز الاتّصال يعمل. كلّفَنا الحفاظ عليه، كما الحفاظ على وسائل بقائنا، تضحيات جساماً. كان إمدادنا بالبطاريات والأقلام إلى حدٍّ ما منتظماً. فقد ظلّ ضابط الصفّ الشجاع الذي يساعدنا معرّضاً حياته للخطر عازماً على القيام بذلك كلّما استطاع. أقلقنا احتمال تبديل مهمّته بأخرى. كنّا ننتظر كلّ شهرين، قلقين، عودته، ونعيش تحت وسواس الفقدان المفاجئ لمحسننا. كان الراديو و«شبكة اتّصالنا» حيويين بالنسبة لنا. لم يعد هناك أهمية لأيّ شيء في نظرنا سوى تلك الأصوات الصديقة التي تُريحنا، لمدّة من الزمن، من النفي والنسيان اللذَين فرضهما العالم علينا. فكّرتُ غالباً في كلّ أولئك الذين، في المغرب كما في الخارج، كان باب بيتنا مفتوحاً لهم وكانوا يتباهون بصداقة أوفقير. لقد تنكّروا لنا الآن، منهم إرضاءً للملك، ومنهم تهرّباً من انتقامه. عرف الملك أنّ اليسار المغربي قد شارك في انقلاب أوفقير، وأنّ أعضاء من حاشيته الأقرب، ومن مستشاريه قد مدّوا يدهم للجنرال للإطاحة به. وللتقليل من مصيبته الشخصية، سيبقي الحسن الثاني حوله الذين «خانوه». ومن خلال التلميحات إلى ذنْبهم المؤكّد، ومن خلال التهديدات المبطّنة بعقابٍ قد يعرّضهم له ولكن بشكلٍ خاص من خلال مثالنا، أسكت الملك كل مَنْ حوله وأخضعه لتعايشٍ صلِفٍ وقسريٍّ. وللجسورين الذين تجرأوا على أن

يطلبوا منه العفو عنّا، استحضر أمير المؤمنين بصراحة قاسية العقد الذي يربطهم به: «أعرف أنّكم قد تآمرتم مع أوفقير، وتعلمون أنني قد أزلتُ المهدي بن بركة، لقد نسيتم، صديقي العزيز ومدرّس الرياضيات، وأغفلتُ انحرافاتكم مع رجل ثقتي! في الأوّل، دعوني أعتني بحديقتي السرية؛ بعد كلّ شيء، انتقامي من الجيش يُريحكم تماماً مثلما يُريحني من منافسٍ خطِرٍ، والعنف ضدّ اسم أوفقير وعائلته يجبّ أخطاءكم كما أخطائي!» هذه هي خلاصة الأسلوب الجاف والفظّ التي يمكنني تكوينها عن الاتفاق الضمني الذي عقده الملك مع معارضته. أمّا بالنسبة لرجال السراي المتّهمين بالتواطؤ مع أبي، فقد أمسك بهم الملك من خلال العطاءات المفرطة وأسرارٍ غامضة، واتّفاقٍ ضمنيٍّ واضح: «مَنْ تسول له نفسه مقاومتي، فلن يدفع حياته ثمناً لذلك فحسب، بل وستقاسي ذريّته، مثل أولاد أوفقير، تعذيباً رهيباً وعذابات لا نهاية لها!» بالنسبة لشقائنا، لم يعد يمتلك أصدقاؤنا الحقيقيون، الذين حزنوا حقّاً من أجلنا، لا السلطة ولا الوسائل ليهبّوا لمساعدتنا. أمّا بالنسبة للسياسيين، حتى الأكثر إشفاقاً على حالنا، فقد ضحّوا بنا من أجل ما يسمّونه «منطق الدولة»، والذي هو في الواقع ليس سوى وسيلة لشطب ديونهم الثقيلة إزاء الملك. وهذا ليس موقفاً مجيداً ولكنّه مفهوم... وهكذا سوف نجمع بين التعذيب والخزي. أوفقير الذي عيّنه الملك في حياته بدور الشرير، لا يزال كذلك وأكثر في مماته. كان النشّاف الذي يُلاشي به الحسن الثاني أدرانه؛ والآن وقد توفي، بات الممسحة التي تمسح به المعارضة كما السلطة أخطاءها من الذاكرة الجمعية المغربية. حتى وهو تحت الأرض بعمق ستّة أقدام، لا يزال أوفقير يفيد في شيءٍ ما.

لو أنني نظرتُ إلى الإهمال الذي غرقنا فيه، عائلتي وأنا، فقط من وجهة النظر العاطفية لكنتُ قد تهتُ في دوّامة الحقد الأبله والعنيد. بالحقد على الدنيا برمّتها، كنتُ سأجانب معنى الأشياء، وربّما لما كنتُ وصلتُ إلى الهدف الغامض الذي تمتد نحوه تجاربي. حتى يحاول المرء

فهم قَدَره، لا بدّ أوّلاً من القبول به. وللتصميم على ذلك، يجب التنبؤ بأنّ الشقاء يجلب لك، فيما وراء قناعه المرعب، وسائل نفيسة للنجاح في المغامرة المريرة والرائعة للحياة، شريطة امتلاك الجرأة على التفرّس في ذلك. وإذا كان المجد والثراء بلا أهلية يفسدان غالباً الروح، فإنّ المأساة والمحنة تكادان تقوّيانها على الدوام. حينما لا يفعل المرء سوى أن يضحك، يحلّق فوق الأشياء. حينما لا يفعل المرء سوى أن يبكي قَدَرُه، يقع في شُرْكِه. ولكن حينما عقدنا العزم على المقاومة، لم نعد نعطي للأشياء القيمة التي لا تملكها، ولا على الأقل التي تستحقّها. حينما تعذّبنا حقّاً، لم يعد أيّ شيء جوهرياً، وأصبح كلّ شيء مهمّاً. إنّ قوّة الذين خسروا كلّ شيء هي أنّه لم يعد هناك أيّ شيء ليربحوه، إلاّ سلام الروح. والذين شعروا، ذات يوم بأنّهم وحيدون إلا درجة لم يعد لديهم صاحب سوى أنفسهم يعرفون على الأرجح الألم الذي يسببه ذلك. وحدهم الأقوى عزيمةً على سبر أغوار الشدّة وأعماق ذاتهم، استطاعوا الانتصار عليها والقفز منها! لقد علّمتني تجاربي على الأقل أنّ الانفعالية غالباً ما تحثّ على حلٍّ خاطئٍ لطلاسم أكثر الأوضاع ابتذالاً، بالأحرى حلّ رموز الاضطرابات الكبرى. فهي قد تكون حاجةً ولكنّها قلّما تكون حليفاً موثوقاً أثناء الضربات القاسية. فأعدْتُ التفكير باستمرار في حياتي وفي الوقائع المهمّة لتاريخ المغرب سعياً لأن أجد لطفرات قدري تفسيراً مجرّداً من كلّ مجاملة، من كلّ مرارةٍ أو ضغينة مدمّرةٍ للذات. إذا كان من الممكن أنّ ترعرعي في حضن مؤسسة المَخْزن قد هيّأني لأن أميّز العاطفيّ من العقلي، والشخصيّ من منطق الدولة، فإنّ الألم وحده علّمني الوضوح. هو وحده وهبني القوّة على أن أتحمّل من حياتي الأسوأ كما الأفضل. بالفحص الدقيق للوحدات التصويرية للفيلم الذي عرضته لنفسي من جديد، بذلتُ جهدي لأجد فيها أجوبة، وإن كانت قاسية، أردتها واقعيّة ومنطقية. وحاولت أن أسندها إلى تحليل الوقائع والشخصيات التي أشرفت عليها، بعيداً عن تحيّز المشاعر. وحده الألم

أتاح لي غربلة المزيج المعقّد للأحداث والصور والذكريات والمعلومات الذي استعرضته وأعدتُ استعراضه في عزلة زنزانتي. فالتصبّر الذي أخضعني له أتاح لي الذهاب إلى قاع الأشياء دون أن أبقى فيه. ولكن ليس هناك أيّ تعليم عفوي. ويتطلّب أيّ تدرّب تضحيات. لدى الدخول إلى متاهات الشقاء، تشعر في البدء بنفسك مسحوقاً، مذعوراً. فتتقدّم تلمّساً. كلّ خطوة هي درب الصليب وكلّ نَفَسٍ هو استغفارٌ. لا يعود هناك مَن يأخذ بيدك ويدلّك على المخرج. كلّ مرحلةٍ من محنتك جرحٌ وكلّ ثانيةٍ من حياتك جحيمٌ. ثمّ ولأنكم تسيرون إلى جنبه أوّلاً بأوّل، يكشف لكم الألم ببخلٍ حقيقةً أخرى للعالم، الحقيقة الوحيدة الصالحة والتي تمرّ عبر المواجهة مع الذات. لا توجد حقيقة مطلقة، وإنّما حقائق مركّبة تتعلّق بالزاوية التي من خلالها نكتشفها. الحقيقة الوحيدة الصالحة في الدنيا هي حقيقتها الخاصّة.

هناك حكاية شعبية مغربية مثالية بهذا الصدد: ذهب رجلٌ، يرافقه ابنه الشاب، إلى السوق. ركب الأب حماره وسار الطفل بجانبه. في الطريق، مرّوا أمام مجموعةٍ من الأشخاص . تعجّب أحدهم:

- انظروا، يا لها من وقاحة! يمتطي المسنّ الدابّة، وهذا الصغير المسكين يكلّ في اللحاق به!

مضى المسافر في سبيله وتوقّف ليُركِب ابنه على الحمار ويتبعه مشياً. ومرّ الاثنان بعد مسافةٍ أمام مجموعةٍ أخرى:

- انظروا، أيُّ جنونٍ هذا، رجلٌ مسنّ يمشي راجلاً، ويتبختر ولدٌ قويّ على ظهر الحمار! لم يعد يُحتَرَم الكبار!

أنزل الأب ابنه وواصل الاثنان طريقهما خلف الحمار. بعد أن قطعا مسافةً، صادفا جماعةً من قاطفي العنب:

- انظروا، انظروا! لا بدّ أن يكون المرء أحمق حتى يقود أمامه حماراً، دون أن يمتطيه!

فقرّر الأب أن يكمل بقية الطريق متقاسماً ظهر الحمار مع ابنه.

باقترابهما من السوق، صادفا جمعاً آخر. تأسّف أحدهم لدى مرورهما:

- يا لها من قسوة في تحميل هذه الدابة المسكينة! ألم يمكنهما السير خلفها للتخفيف من حملها!

استخلص الأب المتنوّر عبرةً من ذلك:

- لا يمكن إرضاء جميع الناس، فلنحاول إذاً أن نرضي أنفسنا وحسب!

بات سماع صوت أهلي من الطرف الآخر «للهاتف» تعويضاً عن أحزان النهار. كنّا نتواصل مع هبوط الليل. بعد تفقّد أحوال اليوم وتقييم الحالة المعنوية التي تكتنفها، كنا نستمع لساعةٍ أو ساعتين إلى مختلف المحطات. عزّتنا برامجها بعض الشيء. كانت المخدّر الذي يخفّف مؤقّتاً آلامنا. ولتوفير بطاريات الترانزستور، استمرّت مليكة في سرد حكايتها. واستمرّت الأسطورة. متقوقعين على حشياتنا، مرتعدين شتاءً ومختنقين صيفاً، لجأنا إلى روسيا القياصرة. الجسد منهار، والروح واهنة، امتطينا سهوباً من سيبيريا إلى جبال الأورال. كان قلبنا متلهّفاً إلى الرومانسية، فعشنا قصص حبٍّ مثيرة وحكايات عاطفية جميلة بقدر ما هي مأساوية. بأسمالنا البالية وأجسادنا الناحلة المتّسخة، أصبحنا أصدقاء الساحات الأوروبية الكبرى. زرنا موسكو وسان بطرسبرغ وڤيينا وبودابست ولندن وباريس! ركضنا في أروقة القصور، وأصغينا إلى أبواب غرف الانتظار، وتألّقنا تحت ثُريات المراقص الإمبراطورية. اهتززنا بصوت المدافع وقرقعة الأسلحة وشراسة المعارك، واستسلمنا لزهو الانتصار. ابتهجنا لنجاحات هذه الشخصية وأشفقنا على تلك في شقائها، وإن كانت الأكثر شرّاً من بينها. بات تورّطنا في الحكاية كبيراً بحيث لم يعد لمليكة الحقّ في قتلِ أيٍّ كان من الشخصيات الرئيسية. واضطرّت مراراً، تحت طائلة التمرّد عليها، لأن تَبْعَثَ من جديد وفوراً الشخصية التي كانت للتو قد أنزلت بها مصيراً مأساوياً... كانت مصيبة أيّة شخصية حتى وإن كانت

الأكثر شناعة تزعجنا. خلال حكايتها المُلهَمة، باتت مليكة تدفع ضريبة نجاحها. لم يترك لها المستمعون راحةً.

إذا كنتُ من بين الجمهور العائلي الأقلّ مواظبةً على حلقات الحكاية، فإنّ المشاعر التي ولّدتها عندي لم تكن أدنى مما كانت لأخواتي اللواتي كنّ يستمعن إليها بإذنٍ نسائيةٍ وشبابية. ولكنّ لعزلي قوانينه، وفرضت عزلتي قواعدها عليّ.

وكما غنّى جورج موستاكي: «عزلتي، كدتُ أتّخذ منها صديقةً، عادةً لطيفة...» كانت كاسحة ولم تغفر لي أن أهجرها. احتجتُ دائماً لأن أستعيدها. فهي مرشدي الوحيد في محنتي. حينما يلفّكم الصمت، يمكنكم تحطيمه بالصراخ، وسيكون له الحقّ على الدوام في مونولوجاتكم. كانت تلك هي الحالة بالنسبة للعزلة المحيطة بي: الأصوات القليلة التي شغلتها بطريقة جد ارتجالية لن تكفي أبداً لأن تزيل عنها النتائج القاسية ولا أن تعوضّها عن الحرمان الأبدي والجراح التي لا يمكن إزالتها.

قلّما أتاح لنا حجم الطاقة أن نستمع إلى الراديو لأكثر من ساعتين خلال أربع وعشرين ساعة. أظهرتُ، مثلما أظهرت مليكة، حرصاً إدارياً شديداً على الجهاز في سبيل إدارة مدّخراتنا الشحيحة من المؤن!

في 25 كانون الثاني (يناير) 1983، انتزعنا حدثٌ من وهننا. بينما كنّا نستمع من الإذاعة الوطنية نشرة آخر أخبار الليل، علمنا بوفاة الجنرال الدليمي. عزت الرواية الرسمية مقتله إلى حادث سيرٍ مأساوي ومشؤوم. ولم أشكّ للحظة في أنّ الدليمي قد تمّت تصفيته. ما حاولت أن أحزره هو لماذا وفي أيّة ظروف. ولن أعرف ذلك إلا بعد عشر سنوات من ذلك من خلال الاستفسار من بعض مساعدي والدي السابقين والذي عملوا معه أيضاً.

أخبروني بالتفصيل أسباب اختفاء الجنرال والظروف التي حدثت

فيها. بعد أن تعرّض لانقلابين عسكريين في عامي 1971 و1972، وجد الحسن الثاني نفسه متوحّداً وضعيفاً. وبشكلٍ عاجل، أبعد جيشه. أرسله ليقاتل إلى جانب المصريين والسوريين في حرب كيبور[1] عام 1973. في السنة نفسها، وبمناسبة عيد العرش، حاولت معارضته في المنفى تدبير انتفاضة شعبية مسلحة. تسلّل خمسة آلاف رجل عبر الحدود الجزائرية. لم يقتل الملك الجميع. ووقعت البلاد تحت ضغطٍ عنيف. حضر الحسن الثاني في كلّ مكان، وضغط عليه الوقت. بات نظامه مهدّداً من العسكر ومن اليسار. وكان أسوأ السيناريوهات قد حدث عام 1972 حينما تحالف الطرفان للإطاحة به. ولكنّه لم يعترف بهزيمته. زاد من قسوته بذكاء وضاعف من مناوراته السياسية بصلفٍ نادرٍ وفاعليةٍ كبيرة. وإذا كان قد أعطى الانطباع بأنّه يعتمد على الدليمي، الساعد الأيمن السابق لأوفقير وخليفته، فذلك لأنّه لم يستطع أن يفعل خلاف ذلك. كان لا يزال بحاجةٍ إلى ستارٍ، إلى شخصٍ يرتدي قناع شروره. ولا أحد كان يعلم أفضل من الملك بالخطر الذي يمثّله ذلك. انتهى الأمر بأوفقير إلى التمرّد، وقد يفعل الدليمي بدوره ذلك. ولكنّ الرجل كان مفيداً آنذاك ليتحمّل مسؤولية الأوامر الملكية المتطرفة في المعركة الضارية التي تجابه الحسن الثاني مع الثوريين. لاسيما وأنّ الملك قد تهيّأ للعب ورقته الرابحة: استعادة الأقاليم الصحراوية المحتلة من قبل إسبانيا إلى ذلك الحين. وبالتالي كان الحسن الثاني في أمسّ الحاجة إلى الدليمي ليقود الجيش إلى رمال الصحراء التي سيغوص فيها نهائياً. وحينما سيحقّق الحسن الثاني الوحدة الوطنية من حوله في سبيل القضية المقدّسة لوحدة التراب المغربي، فسيوقع بهذه المناورة البارعة أغلبية خصومه، كي لا نقول أعداءه، في الشرك. بمطالبته في العام 1975 بسيادته على الصحراء الاسبانية السابقة، أعطى الملك نظامه نفساً غير متوقَّع. أصاب هدفين برمية واحدة: أوّلاً،

---

(1) حرب تشرين. المترجم

حيّد معارضته، المضطرّة لأن تعطي الأولوية للقضية الوطنية، التي وجب عليها أن تخفّف من غلوائها الثوري. والذين رفضوا صفقة المغبونين تلك، مثل ابراهام السرفاتي، وجدوا أنفسهم مرميين في السجون بتهمة الخيانة العظمى. ولن يعود يعتمد سوى على الدرك الملكي والشرطة لفرض النظام في البلاد. فأراحه النزاع لفترة من الدليمي، الذي رُقّي إلى رتبة جنرال وعُيِّن قائداً للمنطقة الجنوبية. وإذا كان الملك قد أعطى المزيد من السلطات للدليمي، فذلك لأنّ شهية الجنرال اللامحدودة للمال طمأنته. بأيّة حجّة سيدّعي الجنرال الرغبة في تغيير النظام ما دام هو إحدى حلقاته الأكثر شُبهةً؟

مهما يكن من أمر، ظلّ الملك متيقّظاً. وأكثر من أيّ وقت مضى، اعتمد حصراً على جهاز SSS وأجهزة استخبارات البلدان الصديقة. حتى جهاز أمنه الخاص، نُظِّم سرّاً من قبل خبراء غربيين، فرنسيين وأمريكيين. ما حيّر الملك هو أنّ الدليمي، المتّصل بالجيش الحقيقي، أبان عن ردود فعلٍ حرجة. هل سيبقى العبد عبداً أم أنّه سيقف ضدّ سيّده مثلما فعل المذبوح وأوفقير؟ وبدأ الحسن الثاني يقلق شيئاً فشيئاً من النجاحات العسكرية التي يحقّقها الدليمي في الصحراء. خشي الملك من أن تُكسِبَ رجلَ ثقته شعبية وسط الجيش والشعب، في حين أنّ لديه كلّ المصلحة في إطالة أمد هذه الحرب التي تريحه من جيشه، وتُسكتُ معارضته. ومنذ ذلك الحين، وإن كان الملك يزوّد قواته بالقدرات والموارد فذلك فقط من أجل احتواء الطموحات الجزائرية وليس بهدف كسب الحرب. فإنّ نصراً يُعقَد للعسكريين قد يُطلِق شهيّتهم للسلطة!

أكثر ما أقلق الحسن الثاني هو العلاقات الممتازة التي احتفظ بها الدليمي مع المسؤولين الجزائريين على الرغم من النزاع الصحراوي. تعرّف الدليمي عليهم حينما كان مساعداً لأوفقير. كما كانت لقائد المنطقة الجنوبية صداقات متينة، موروثة من أوفقير، في إسرائيل وداخل وكالة المخابرات المركزية الأمريكية CIA وجهاز الاستخبارات الفرنسي

DGSE. كان الحسن الثاني يعلم بأن الغربيين قد راهنوا أحياناً على حصانٍ سواه، خاصّة في آب (أغسطس) 1972. ولكنّ الملك عرف منذ ذلك الحين أن يقنعهم بضرورته لهم وبألاّ يتخلّوا عنه. وإذ تُعدّ العلاقات الدولية شأناً من شؤون الدبلوماسية الخفية والاتفاقيات السرية التي تتطلّب البراعة والمهارة، سيُظهر الملك، في وسطه، أقصى ما بوسعه. وبانخراطه في عملية السلام في الشرق الأوسط، استعاد في الخارج الميدان الذي فقده في الداخل. وبطرح نفسه كرجل حوار وتسامح، سيتحوّل بمهارة إلى محاور لا غنى عنه للتقريب بين الإسرائيليين والفلسطينيين. وبفضل أجهزة المخابرات السرية للدول الصديقة، زوِّد الحسن الثاني بمعلوماتٍ موثوقة. وإذا كانت الأجهزة الاستخبارية العديدة المتنافسة التي شكّلها في مملكته قد تفشل، فإن الملك كان يعرف أنّ الموساد وجهاز الاستخبارات الفرنسي DGSE والسي آي ايه سوف تسدّ الفجوة.

عام 1983، قرّر الجنرال الدليمي، الذي خدم إلى ذلك الحين مَلِكَهُ وأطاعه طاعة عمياء، أخيراً إقصاءه.

وحسب ما يعتقد البعض، ارتأى قائد المنطقة الجنوبية أن ينتقل إلى الفعل لأنّه كان قد فقد الأمل برؤية الملك يضع حدّاً للنزاع...

ولكن بخلاف المدبوح وأوفقير، فضّل الدليمي ضربة منفردة. أجرى القليل من الاتصالات السياسية ولم يقدم على أيّ اتّفاق أو تحالف للحكم بعد الحسن الثاني. لم يشأ الدليمي توفير حياة الملك: أراد أن يقتله، نقطة وانتهى. وقد رأى أنّ كلّ التحالفات ممكنة ما إن يُقصى الملك. وليكون متأكّداً من ألاّ يُخطِئ الحسن الثاني، آثر الجنرال محاولة الاغتيال. وسيكفي قناصٌ دقيق لقتله. الطريقة صعبة ولكنّها تحظى بميزة أنّها لا تتطلّب سوى أقلّ عددٍ من الأشخاص الذين يتم إطلاعهم عليها. والحال أنّ الدليمي عرف أنّه مُراقَبٌ من قبل SSS ومهدّدٌ في أية لحظة بنقمة ملكيّة قاتلة. وبالتالي فمن مصلحته ألاّ يخفق في قضيته، حيث بدا

الحسن الثاني عديم الشفقة أكثر من أيّ وقتٍ مضى. ولن يلقى الدليمي، الذي يعرف مثله مثل المدبوح وأوفقير أسرار الملك، أيّة صعوبة في إقناع الذين يسيرون معه بأنّ الأخلاق السياسية والشخصية للملك تستدعي إزاحته.

أعدّ الجنرال خطّة دون أن يبالي كثيراً بالنتائج السياسية والدبلوماسية التي قد تسفر عنها. وليضع كلّ فرص النجاح إلى جانبه، أراد أن تحصل محاولة اغتيال الحسن الثاني أثناء الزيارة التي يُزمع فرانسوا ميتران القيام بها إلى المغرب. كانت الخطّة طائشة ولكنّ الدليمي اعتبرها الطريقة الوحيدة لمباغتة الملك، المرتاب جدّاً بحيث أحاط نفسه باحتياطاتٍ هستيرية لتأمين أمنه. ولم يعهد بأمنه، كما سنرى، سوى لجهاز SSS وخبراء الاستخبارات السرية الصديقة الذين ينظّمونه. كما جنّد الحسن الثاني في القطّاع الخاصّ فريقاً من الكورسيكيين لتأمين أمنه داخل القصر. واللحظات الوحيدة التي يخفّض فيها درجة الحراسة هي فقط أثناء زيارات زعماء الدول.

وبدوره أحاط الدليمي، الذي يعرف أدقّ الحيل، نفسه بحرس طاغية، يقوده مرافقه النقيب الطوبجي. أطلعه الجنرال على الخطّة، وكذلك العقيد بوعطار، قائد مظليي كوماندوس الحرس الملكي، وأحد الضباط الكبار القلائل الذي أُطلعوا على الأمر. وهو الذي كُلّف بتفاصيل محاولة الاغتيال. كان على قائد مظليي كوماندوس الحرس الملكي أن يجنّد ضابطاً موثوقاً وخبيراً بالأسلحة وقناصاً ممتازاً. ينبغي أن يُنفّذ اغتيال الملك من قبل رجلٍ منفرد. وقع الاختيار على مقدّمٍ شابّ من مظليي الحرس الملكي. في اللحظة التي سيستقبل فيها الحسن الثاني فرانسوا ميتران في المطار، ستقدّم جوقة شرف الأسلحة للزعيمين. والحال أنّ التقليد يقضي بأن تكون أسلحتها خالية من قادحيها ومن كلّ ذخيرة. وستكون السرية التي ستنتظر وصول الرئيس الفرنسي قد دُرِسَت بالتفصيل من قبل جهاز الأمن الملكي، قبل ساعاتٍ من هبوط طائرته. ولن تبارح

الطريق المُسَفْلتة حتى يستقبل الملك ضيفه ويغادر معه المطار. أراد الدليمي أن يتفادى هذه العقبة. وفي اللحظة الأخيرة، عدّل خطّته قليلاً: لن يُستَخدَم سلاحٌ ناري.

حينما يستعرض الملك، صحبة فرانسوا ميتران، الجُند، سيسير مقدّم الحرس الملكي، الذي يقود الفرقة، على بعد ثلاث خطوات منهما. وقبل أن يتوجّها نحو قاعة الشرف، على الضابط، وفق البروتوكول، أن يحيّي الملك وضيفه. وأن يصافح، وبيده السيف، الرئيس الفرنسي وأن يقبّل يد العاهل المغربي. أراد الدليمي أن يستغلّ المقدّم تلك اللحظة ليطعن الحسن الثاني بسيفه. وطلب الجنرال من الحرس الخاصّ والموثوقين بهم أن يطلقوا النار في اللحظة نفسها، إن دعت الحاجة. وسيكون على المرافق الطوبجي، من جهته، أن يُلقي قنبلة دخانية كي يزيد من الفوضى والارتباك ويُطلق على الحماية القريبة لكي يُشغلها. ولن يحمل الدليمي، المراقَب بشدّة، سلاحاً ولكنّه فكّر أن يتجهّز بسترةٍ واقية من الرصاص. علاوةً على ذلك، سيأخذ في راحة يده محقنة. في حال لم يمت الملك الجريح، سيتمكّن وسط البلبلة من أن ينجده... وبالانحناء فوقه للاستعلام عن حالته وإجلائه عن المكان، سيحقنه بسمٍّ مميتٍ مخصّصٍ للإجهاز عليه.

بعد أن تمّ التخطيط للاعتداء، أجرى الدليمي اتصالات حذِرة وضرورية. أخبر بعض الضباط الكبار. ووضع الجنرال الحجرة الأخيرة في مشروعه من خلال قيامه ببعض الرحلات إلى باريس التقى خلالها الجزائريين لإبرام اتّفاقٍ معهم على تسوية قضية الصحراء في حال وصوله إلى قيادة البلاد. كما تباحث الجنرال سرّاً مع أصدقائه في جهاز DGSE، جهاز استخبارات التجسّس الفرنسي، مبدياً لهم بإشاراتٍ مضمرة قلقه بخصوص الهيمنة المتنامية للولايات المتّحدة على المغرب. فقد اعتبر أن الأمريكيين يلعبون لعبة مزدوجة ويمنحون الجزائر امتيازاً ليسيطروا على نفطه وغازه. أراد الدليمي، من خلال إظهار قلقه لفقدان فرنسا نفوذها في

بلدان المغرب، أن يجسّ النبض لكي يعرف ما إذا كان أصدقاؤه في فرنسا سينظرون نظرةً إيجابية إلى «تطوّرٍ في المغرب سوف يعزّز المصالح الفرنسية في المملكة...» أخيراً، قابل الدليمي نائب مدير السي آي ايه... والذي توجّه إليه بخطابٍ مختلف! ركّز الدليمي هذه المرّة على خطر استيلاء ضباط يساريين أو إسلاميين على السلطة. ولم يحصل، من الجهتين، على رأي صريح وواضح. ففي هذه الأوساط وعلى هذا المستوى، ليس هناك أيّ شيء واضح ما لم يُقرأ ما بين السطور.

قبل بضعة أيام من وصول فرانسوا ميتران إلى المغرب، ألقى جهاز SSS القبض على العقيد بوعطار والمقدّم الذي كان عليه أن «يطعن بالسيف» الحسن الثاني. كان الدليمي في مقرّه في الصحراء. استدعاه الملك إلى مرّاكش. تُرى هل راوده الشكّ في تلك المرحلة بأنّه قد تم توقيف المتعاونين معه؟ لا أعتقد أنّ الحسن الثاني قد ترك له الوقت لذلك. جرى كلّ شيء بسرعة. اعترف بوعطار ورفيقه، اللذان عُذِّبا حتى الموت، بكلّ شيء. وصل الدليمي إلى مرّاكش بعد ساعات من ذلك. واستُقبِل من قبل الملك. بدا الملك بشوشاً وممتنّاً للجنرال على تضحياته والعمل الفعّال الذي ينجزه لخدمته. في القصر، كان كلُّ شيء معدّاً لاستقباله. وتماماً مثلما كان الدليمي، قبل عشر سنواتٍ خلت، قد أشرف على استعدادات اغتيال أوفقير، سيُجهَز عليه هو الآخر. أطال الملك من أجواء السرور والبهجة. وكما لو أنّ شيئاً لم يحصل، بحث مع الجنرال الوضع في الصحراء. وأخذ الحسن الثاني الوقت لطمأنة الدليمي الذي، نظراً للمخطّط الذي يُعدّه، كان لا بدّ ألاّ يشعر فعلاً بالراحة. كانت طرفة مهرّج للحسن الثاني ذات أهمية تاريخية، فقد كان يقول: «القصر، لا نعرف أبداً لماذا ومتى ندخل إليه، ولكننا نكاد نكون متأكّدين من الطريقة التي سنغادره بها...» كان الدليمي في وضع يمكّنه أفضل من أيٍّ كان ليعرف إلى أيّة درجةٍ لا يواتي جوّ القصر الجنرالات المغاربة! تماماً مثلما يظهر حضورهم غالباً كجليس سوءٍ في سبيل هدوء وانشراح صاحب الجلالة!

وبصبر القطّ المستمتع باللعب مع الفأر الذي يتهيأ لالتهامه، استمتع الحسن الثاني بانتصاره الألف على عدوٍّ قبض عليه بسرعة. في نهاية المقابلة، طلب من الدليمي أن يرافقه إلى قاعةٍ يستخدمها كمركز قيادة PC للتنسيق بين الجيوش. قال إنّه يريد أن يشرح له الجنرال على خرائط هيئة الأركان سير العمليات العسكرية في الصحراء. ولكن ما إن دخل إلى الحجرة، حتى طوّق المديوري، قائد الأمن الملكي، الدليمي بذراعيه، بمساعدة رجالٍ من جهاز SSS. قاد الجنرال مولاي حفيظ المناورة ووجد الدليمي نفسه يُقادُ مباشرةً إلى أقبية القصر.

بدأ الاستجواب. لم يحضره الحسن الثاني مباشرةً، مفضّلاً الذهاب إلى قيلولةٍ في جناحه. فقط أمر، كالعادة، كبير خدمه الرحّال بألاّ يفوّتَ كلمة واحدة من اعترافات «الرجل القويّ» السابق. لم يبارح الجنرال مولاي حفيظ للحظة الحجرة التي يخضع الدليمي فيها للتحقيق بحضور طبيبٍ يوغسلافي يعمل في القصر. كانت أوامر الحسن الثاني واضحة وحازمة: أمام جهاز SSS بضع ساعات لينتزع من الجنرال كلّ ما يعرفه. يجب الإحاطة بأسرع ما يمكن بتشعّبات المؤامرة، وتوقيف جميع المشتركين فيها وإخلاء المكان قبل وصول ميتران. حينما انتهى الدليمي من قول كلّ ما يتعلّق بالتمرّد، نزل الحسن الثاني لرؤيته. كان الجنرال قد حُقِن بعقاقير مجرّبة بفاعليتها في إطلاق الألسن، وقابله الملك لأقلّ من ربع ساعة. وقبل مغادرته، سيكون قد بثّه غضبه واحتقاره بهذه العبارات:

- دليمي، أنت لست إلا مغفّلاً مسكيناً! كنت تعتقد بأنّك ستنجح حيث فشل آخرون من أمثالك!

بالكاد وجد الدليمي، العاجز عن الرؤية، القوّة في نفسه ليتوسّل إلى الملك بألاّ ينزل العقاب بعائلته. قبل الملك توسّله ووعده بذلك. وذلك حرصاً منه على تجنيب نظامه فضيحة تمرّدٍ جديد وليس بدافع الشهامة. وبالتالي سيبقى أقارب الدليمي في حضن القصر.

أيّاً كان الثمن الباهظ الذي دفعناه، أحترم أمّي وأشكرها على

اختيارها العذاب لا الجحود. سيُدرك الذين ليست الكرامة بالنسبة لهم كلمة عبثية أنني أفضّل ألف مرّة آلام حياتي على الخزي الدائم لكرامةٍ ضُحّيَ بها لقاء مركزٍ اجتماعيٍّ وماليّ رفيع. أُفضِّل أن أُعاقَبَ ظلماً وبُهتاناً على شيءٍ لم أفعله على أن أُحتَقَر وأُهان حتى في سبيل ما كان بوسعي أن أفعله. ولمعرفة الحسن الثاني جيّداً، يمكنني التأكيد أنّه رغم ظلمه لنا قد حمل لنا من التقدير أكثر مما يكنّه لليرقانات التي باعت نفسها لقدرته الكلّية!

بعد الاستماع إلى تمتمات الدليمي الذي كان على حافة الغيبوبة، أمر الحسن الثاني بالتخلّص منه. ثمّ أمر الجنرال مولاي حفيظ بالانتقال إلى «بقيّة الخطّة». استقبل الحسن الثاني العريضي، المرافق المزعج للجنرال، ثمّ صرف ذلك الممالق ملقياً عليه أوامره بالصمت المطلق.

كان ينبغي أن يخرج الجنرال من القصر كما دخله، أي بسيارته. قُتِل سائقه بدمٍ بارد، وحلّ محلّه رجلٌ من SSS في قيادة سيارة المرسيدس. وُضِعَ الدليمي، المخدّر تماماً، في السيارة. اتّخذ العريضي مكانه إلى جانبه لتشهد المحارس خارج القصر بصدق برؤية الجنرال يخرج سليماً معافى بصحبة صديقه. ما إن دخلت السيارة إلى الزواريب الضيّقة بين بستان النخل، وُضِع الدليمي في سيارة رباعية الدفع 4×4. وكُلِّف فريقٌ من جهاز SSS بإيداعه سرّاً في ڤيلا تابعة للمخابرات قريبة جدّاً من المكان. انتظر العريضي، قلقاً، نهاية المناورة. أُمِرَ للمرّة الأخيرة بأن «يبقى مخلصاً لملكه» وتركوه يتوارى. وسيسافر المنكود الحظ فوراً في رحلةِ حجٍّ مديدة إلى مكّة! وإلى يومنا هذا، لا يزال العريضي، الذي لم يكن قط نموذجاً للشجاعة، يَشحَب ويتوارى عند أدنى تلميحٍ إلى «حادثة السير المحزنة» تلك.

على طريقٍ ضيّقٍ في بستان مرّاكش، أركَن عملاء SSS صهريجاً وسيارة الدليمي المرسيدس وجهاً لوجه. ووضعت في السيارة جثّةُ سائقه، وجثّةُ حجمها بحجم الدليمي، لا أحد يعرف هويّتها إلى اليوم. فُجِّرَت

ذخائر موضوعة في المركبتين عن بُعِد. ودوّت عدّة انفجارات في دائرة قطرها كيلومتر واحد. وهذا ما سيغدو «الاصطدام المشؤوم بين مرسيدس الجنرال والصهريج الطائش». دمّر الانفجار المركبتين وأحرق ما يقارب هكتاراً من أشجار النخيل. أثناء العملية برمّتها، أوقفت صفوفٌ من الدرك سرّاً أيّ تدخّلٍ في المحيط المباشر «للحادث». لم يستغرق العمل المنجَز من قبل محترفين بكلّ تفاصيله سوى بضع دقائق. وسيُعثَر بأعجوبة على طاقم أسنان الدليمي سليماً بين أغصان شجرةٍ. . . ولا غرابة، إنّه حادثٌ وقع بسرعة كبيرة!

في اللحظة التي تلت خروج الدليمي من القصر، وُضِع الجيش في حالة التأهّب القصوى وتمّ توقيف حوالي عشرين ضابطاً. كانت محاولة الدليمي، برأي الحسن الثاني، أكثر ضرراً وإزعاجاً من محاولة المدبوح وأوفقير.

بعد هذا السرد، الشهادة المستعمَلة التي أجهد لكي أعيدها بأمانة، ثمّة سؤالٌ يطرح نفسه: كيفَ وممّن أُخبِرَ الملك بما كان الدليمي يعدّه؟ وإن فشل المدبوح وأوفقير في انقلابهما، فقد أحاطا نفسيهما بما يكفي من الاحتياطات لئلاّ يُكشفا قبل الانتقال إلى مرحلة التنفيذ. كيف يمكن تفسير أنّ الدليمي، الذي لم يعد يحظى بعنصر المفاجأة، استطاع أن يقوم بمحاولةٍ ثالثة للتمرّد دون أن يكون قادراً على إحكام سرية مطلقة حول مخطّطه؟

سيفكّر البعض في وشاية أمريكية لأنّ الدليمي لم يكن يخفي تعاطفه مع فرنسا. وسيُنسب آخرون الدسيسة للجزائريين. إذ سيكون جيراننا قد شجّعوا الجنرال على الاستيلاء على السلطة ليغدروا به لأنّ ما يكسبونه من الحسن الثاني أكثر مما سيكسبونه من العسكريين المغاربة. وأخيراً، سيُتّهم جهاز الاستخبارات الفرنسي DGSE وعلى نحوٍ أخصّ آلكسندر دي مارانش، الصديق الكبير للملك، بإخبار الملك بالخيانة.

يبقى أنّ جهاز SSS قام، بعد الإجهاز على الجنرال مباشرةً، بموجة

اعتقالات. اقتيد الضباط المعتَقلون إلى ثُكنةٍ للدرك الملكي في الرباط وعُزِلوا في زنازين انفرادية. وكان الطوبجي، مرافق الدليمي في عدادهم. بعد ذلك ببضعة أشهر، حلّ، بمعجزة مدهشة، في فرنسا، وفي مقابلةٍ مع إحدى الإذاعات، صرّح باقتضاب:

- بعد موت الدليمي، تمّ توقيفي مع حوالي عشرين ضابطاً. سُجِننا في ثُكنة الدرك الملكي في الرباط. هربتُ منها ووصلتُ إلى فرنسا حيث أتمنّى أن أحظى بحقّ اللجوء. ليس لديّ أيّ شيءٍ آخر لأُضيفه.

ومن ثمّ سيُنسى الطوبجي تماماً. في التسعينات، وجِد من جديد في الحياة المدنية، يعيش في الرباط في حيٍّ راقٍ من العاصمة، منخرطاً في عالم الأعمال، يعيش عيشةً باذخة ولكن بمظهرٍ متواضع. أيكون هو من أخبر الحسن الثاني عن طريق المديوري، رئيس جهاز الأمن الملكي؟ يدّعي بعضهم ذلك، ولكن يبقى هناك ستار ينبغي إزاحته.

بعد موت الدليمي، تواصلت عملية التطهير. تمّ إلقاء القبض على مساعديه المقرّبين، مثل مفوّض المقاطعة هبي الطيب، وعُزِلوا لأكثر من سنة ونصف. كان هبي الطيب، رجل أوفقير الذي طرده الدليمي نفسه، قد جُنّد في الاستخبارات السرية ليصبح الرجل الثاني في الإدارة العامة للدراسات والتوثيق[1] DGED. وإذ وجد هبي الطيب نفسه لمرّتين مساعداً للذين تمرّدوا على مليكهم، فهو سعيدٌ جداً اليوم بكونه لا يزال على قيد الحياة. وقد أصبح عامل مطبعة في حياته المدنية.

أمّا العقيد بوعطار وشريكه، المقدّم الشاب الذي كان يفترض به طعن الحسن الثاني في المطار، فلن يراهما أحد على قيد الحياة. من جهته، مات دوكالي، رجل الأعمال المقرّب جدّاً من الدليمي، بطريقةٍ غريبة في حادث سيارة. ولكنّه من المعلوم للجميع أنّ طرق المملكة قد أصبحت، بالنسبة لمن سلكوا «السبيل السيئ»، خَطِرة ومميتة!

---

(1) استخبارات التجسّس المغربية.

في مطلع عام 1983، حاز موت الدليمي لفترةٍ على تعليقاتنا. ثمّ استعاد الروتين تفوّقه. وأخبار العالم التي بلغتنا لم تُخفِ لسوء الحظ الواقع المحيط بنا. واستعاد الكفاح من أجل النجاة حقوقه باستمرار. كرّت الأشهر مكملة طوافها الكئيب والمحزن، جاذبة في محورها الذي لا يُطاق موكباً من الآلام والأمراض. ولكن أسوأ مصائبنا كان ضنك الروح. غمرتُ أصدقائي موسى وايما والآخرين باعترافاتي الخاصّة. مهما كان وجودهم خياليّاً، فقد أصبح بالنسبة لي واقعياً أكثر من أيّ وقتٍ مضى لأنّه بات ضرورة لي. حينما تُحرَم من الحياة ومن تبادلاتها، لا يعود لديك إلاّ سبيل واحد هو أن تبتدعها لنفسك.

اقترب الصيف. ازداد قلقي وضيقي. خشيتُ ذلك الفصل الذي يحوّل زنزانتي إلى قِدر ضغط ويُثير بؤر الأمراض ويُضيّق عليّ الفضاء والمكان. تهيّأتُ نفسيّاً لثلاثة أشهر من رُهاب الانغلاق الشديد. عند اقتراب أيّة مناسبة رسمية، كان يخالجنا الأمل في رؤية الملك يقدم على مبادرة. وللأسف، كنا نحتاج في كلّ مرّة إلى جهدٍ يفوق طاقة البشر لكي ننجو من خيبة الأمل.

في 9 تموز (يوليو) من عام 1983، احتفل الحسن الثاني بعيد ميلاده الرابع والخمسين. بعد خمس سنوات قضيتها في الزنزانة، واحتفاءً بذكرى ميلاده، أدّى لنا أمير المؤمنين خدمةً غير منتظرة. منحنا الحقّ في الخروج إلى الباحة ساعةً كلّ يوم. ولكن بالمناوبة: أمّي وأخي الصغير أوّلاً؛ بعد ذلك أخواتي مليكة ومريم وماريا وسُكَيْنة؛ ثمّ يأتي دور حليمة وعاشورا؛ وأخيراً دوري. نلتُ «امتياز» تنشيط ساقيّ تحت شمس الظهيرة. كان علينا أن نسير دائرياً بمحاذاة جدران المعسكر لنبقى تحت أبصار الحرّاس الجاثمين على مَراقِبهم، الذين كان عليهم ألاّ يتكلّموا معنا تحت أيّ ظرف. حينما كنّا نرفع رؤوسنا لدى مرورنا من تحتهم لننظر إليهم، كانت نظراتهم تبقى فارغة، هاربة. مسمّرين كتماثيل متجمّدة، لم نغرب عن بالهم. كان خروجي الأوّل نشوةً وألماً في آن واحد. فرؤية السماء من

جديد سعادة ما بعدها سعادة! ولكنّ كان كشف كلّ بؤسنا للجميع نكئاً للجراح. أسكرني الهواء النقي. أعمتني زُرقة السماء. أثملتني إعادة اكتشاف فسحةٍ على نحوٍ مفاجئ. ترنّحتُ على ساقيّ لأنهي جولةً حول الباحة. لامست الجدار بكتفي باستمرار لأبدو محافظاً على توازني. سكبت أمّي وأخواتي قليلاً من الماء من تحت الأبواب لتتشكّل بركة صغيرة، وبالتمدّد على أرضية الزنزانة، كان بوسعهنّ أن يلمحن على تلك المرآة المصطنعة الانعكاس المبهَم لشبحي عند مروري أمام أبوابهنّ. تحدّثنا مع بعضنا بشكلٍ متقطّع وعلى إيقاع دوراتي. صفّر أحد الحراس، لثلاث مرّات، من مِجثَمه، ليشير لي بأنّه قد بقي عشر دقائق قبل أن أعود إلى زنزانتي. حينما يدخل بورو وزمرته إلى مربّع «الضيوف»، عليّ أن أكون بعتبة زنزانتي.

لسوء الحظ، سرعان ما أصبحت نفحة الهواء اليومية التي مُنِحَت لنا غير منتظمة لأنّها ارتبطت بمشيئة قائد المعسكر. كانت تلك إستراتيجية جديدة لتحطيمنا. بورو يستفزّنا ونحن نقاوم. كان جلاّدونا يأملون أننا بعد أن أصبحنا معرّضين لخسارة ساعتنا اليومية من الخروج إلى الباحة سنصبح أكثر خضوعاً. منذ ذلك الحين، دخلت بين حرّاسنا وبيننا يدٌ حديدية نفسية. وبسببِ نعمٍ أو لا، حُرمنا من الباحة لثمانية أو عشرة أيام، بل ولأسبوعين.

الدناءات التي جعلت نزهاتنا احتمالية، بما أنّها مرتبطة بخضوعنا، لم تمنعنا من الاستفادة من المنافع والإمكانيات التي قدّمتها لنا. وأخيراً، خدمت فترات الخروج القصيرة، التي كنّا نمضيها بالدور في الباحة، خططي.

منذ أن أعددتُ مخبأً تحت البلاط، اكتسبتُ معرفةً «معمّقة» بباطن الأرض. الرصّة التي بُني عليها المبنى L الذي يضمّ زنازيننا، مكوّنة من أحجار بأحجامٍ مختلفة موضوعة ببساطة فوق بعضها. كان تنضيدها يوفّر

فراغاً كافياً بين الكُتل يتيح لي التلاعب بها. «عملتُ» بصبرٍ وأناة على مربّعاتٍ أخرى من الأرضية ووقع اختياري على تسع بلاطاتٍ في الزاوية المقابلة للبلاطة التي أطمر فيها مجموعة خلاصي. كانت مهيّأة لأن تُزال في أيّة لحظة. بعد أن فتحتُ حفرة تنقيبية، أدركتُ أنّ الجدار الفاصل بين زنزانتي وزنزانة حليمة وعاشورا ليس إسمنتاً مسلّحاً. إنّه حاجزٌ لا تتجاوز ثخانته ثلاثين سنتمتراً. أحجار زاويته مبنية على الأرض مباشرةً. وبالتالي، الجدار بأكمله موضوعٌ مباشرةً على الطبقة الإسمنتية الرقيقة، التي تقع تحتها الرصّة وأحجارها. إذن، سيكون من السهل المرور من تحت ذلك الجدار ما دام لا أساس له. وقد مرّت فترة طويلة وهذه الفكرة تشغلني. ولكنّها ستبقى غير قابلة للتنفيذ ما لم أجد حلاً لمشكلة أساسية: كيف سنخفي مخلّفات الحفر؟ جاء السماح بالتنزّه في أوانه. مرّرتُ الأوامر إلى جارتيّ طالباً منهما السرية المطلقة. أردتُ في البداية أن أشرع بالأعمال وألاّ أخبر بقية العائلة إلا بعد أن أتأكّد من النجاح بنسبةٍ معقولة. لنقل التراب وبعض الحصى، شرعتُ في البداية بتسريبها بواسطة «مبولتي» ثمّ من خلال حفرة الشرفة التي كنتُ أستخدمها كمرحاض، وذلك بعد أن استطعتُ الوصول إليها. وأزيل الباقي من قبل حليمة وعاشورا. أخفت رفيقتانا في البؤس آخر مخلّفات العملية السرية في الباحة. أنجزتا وظيفتهما بشجاعة أثناء قيامهما بجمع التراب الصلصالي أو جزّ بعض الأعشاب لوجبة الطعام. أبقينا فقط التراب والأحجار الضرورية للإغلاق.

كلّما خرجنا إلى الباحة، أنجزنا عملاً كالنمل. أعددتُ في جيب بنطالي طريقةً «للتصريف»؛ بسحب خيطٍ، كان قاعه المثقوب يدع حمولة الرمل تنساب على طول فخذي. وإذ كانت الباحة المهمَلة مليئة بالحصى والأعشاب السامقة، استفدنا من تلك الميزة. اقتضى الحذر أن ننفق مخلّفات الحفر بشحٍّ وبكمياتٍ قليلة. يتطلّب انتهاء هذا المشروع السيطرة على الذات والصبر.

بعد عدّة أسابيع، أصبح الممرّ جاهزاً. انتزعت حليمة وعاشورا من

جهتهما تسع بلاطات وشرعن بالعمل نفسه الذي قمت به. اتّخذ الأخدود الذي فتحناه بين الزنزانتين شكل حرف U مارّاً من تحت الجدار الفاصل. أتاحت لي نحافتي أن أنسلّ في أبعادٍ أكثر من كافيةٍ. تطلّب المضيق تنظيفات أقلّ مما كنتُ أتصوّر. وأخيراً حانت ليلة التدشين. جلستُ في حفرةٍ عمقها يقارب خمسين سنتمتراً ممرّراً ساقيّ من أسفل الجدار. شعرتُ أنني أنزلق في سيارة سباقٍ في فورمولا واحد. من الجانب الآخر من الحاجز، أمسكت حليمة وعاشورا بعقبيّ وجرّتاني بكلّ ما أوتيتا من قوّة نحوهما. انسلخ جسدي بالجدران الضيّقة للنفق. وضرب وجهي الطبقة الخرسانية الرقيقة التي تسند الأرض والجدار. اضطررتُ لأن أستعين بكمية كبيرة من الخِرق حتى لا يُخدَش وجهي حينما تسحبني حليمة وعاشورا ، وأن أغطّي ظهري وساقيّ بقطعٍ من جلد النعال وأن ألصق ذراعيّ بفخذي. كان عليّ أن أشكّل قوساً طَرياً ورشيقاً لتنتزعني جارتاي كحلزونٍ من قوقعته. تدفّقتُ من تحت الأرض ومن الجانب الآخر للجدار، رأسي إلى الأسفل وقدماي في الهواء. أمسكت حليمة وعاشورا، واقفتين، بربلتي ساقيّ بشدّة وألقتا بي على الأرضية اللزجة لزنزانتهما. نجح الاختبار: والآن ينبغي عبور هذا النفق الضيّق وإعادة إغلاقه بعناية. ولكن قبل ذلك، هرعتُ وضربتُ على جدار زنزانة أخواتي. كانت حفرة مجاري تربط بين شرفة حليمة وعاشورا وشرفتهنّ. حينما انحنت، معتقدةً بأنّها ستكلّم إحدى رفيقتينا في الشقاء، ذُهِلَت مليكة لدى اكتشافها لي. بقينا، أخواتي وأنا، لأكثر من نصف ساعة نتحدّث بعضنا مع بعض، مقرفصين أمام تلك الفوهة المقزّزة، محاولين بيأس أن نرى أو نلمس بعضنا بعضاً.

ضاق الوقت، ووجب عليّ العودة إلى جُحري. أعدنا إغلاق الممرّ بعناية. أنعشني الانتهاء منه. إنّه انتصار إضافي على ضراوة جلاّدينا. رغم الظروف المرعبة، اللاإنسانية، ورغم حملات التفتيش الثلاث أسبوعياً، نجحنا في تسجيل نقطة عليهم. ومع أن هذا الممرّ لا يقود إلى الحرية،

إلاّ أن تحقيقه رفع من معنوياتي. إنّه، في أقلّ تقدير، العمل الذي استحوذ على أيامي ولياليّ منذ سنوات. لقد أدركتُ منذ أمدٍ طويل أنّ الإمكانية الوحيدة لمحاولة فرارٍ لا يمكنها أن تتمّ إلاّ من خلال نفقٍ. ولكن حتى الآن لم تجتمع جميع شروط نجاح هكذا مشروع. فلكي نفتح نفقاً يتجاوز جدار سور المعسكر، لا بدّ من الحفر على مستوى أعمق بكثير، يتيح المرور من تحت أساسات المبنى. كما ينبغي معرفة التركيب الدقيق لمختلف طبقات الأرض المطلوب حفرها. كما يتطلّب ذلك التحسّب بأغطيةٍ خشبية لدعم الأخدود إن كان بنيانه هشّاً. وعلى نحوٍ خاصّ، لا بدّ من توفّر إمكانية إخفاء كمية كبيرة من التراب، الأمر الذي لا تسمح أدواتنا الحالية بالقيام به.

سددنا ذلك الممرّ حينذاك محتفظين به كورقة رابحة ثمينة في كفاحنا المرير من أجل النجاة.

نحو نهاية عام 1983، وقع حدثٌ سيؤكّد، إذا ما اقتضت الحاجة، كلّ تعقيد حياتنا الماضية واضطراب حاضرنا المأساوي. . .

في 20 كانون الأوّل (ديسمبر)، علمنا بوفاة الأمير مولاي عبد الله. كدّرنا الخبر. ذرفنا، أمّي ومليكة وأنا، دموعاً لم نكن نعتقد بأننا قادرون على ذرفها. لم يستوعب الصغار أننا قادرون على التعبير عن كلّ هذا الحزن. إنّهم يعلمون بأننا لم ننزل إلى درجة الخلط بين مسبِّب أو مسبّبي اضطهادنا والأمراء والأميرات الذين تقاسمنا وإيّاهم علاقات كادت تكون عائلية، ولكنّهم اندهشوا لمدى حزننا. والأنكى من ذلك أنّه بلغ بنا الأمر أن نذكر بشيءٍ من الودّ الحسن الثاني الذي عرفناه لطيفاً وودوداً وعطوفاً مع عائلتنا. وإذا كنّا نثور بعدل ضدّ الطاغية الذي يضطهدنا ظلماً، فإننا نتكلّم بشيءٍ من الحنين عن الملك الشاب الفتّان والذكيّ والأبويّ والجذّاب الذي لاقيناه. كانت حياتنا معقّدة جدّاً بحيث إنّها حرمتنا، في محنتنا، من الحقد العنيف والجامح الذي يصبّه المضطّهدون على جلادٍ مجهول. صدف أن كان جلاّدنا جزءاً من عائلتنا ومن أفضل ذكرياتنا ومن

مشاعرنا العفوية حينما كنّا أطفالاً. وصدف أن فاجأنا أنفسنا مراراً باعترافنا للحسن الثاني بالاهتمام الذي أولانا إياه والمكانة التي منحنا إياها، لفترةٍ، في قلبه. مع أنّ مليكة تألّمت لترعرعها بعيداً عنّا، فإنّها حينما تذكر حياةً كاملةً قضتها إلى جانب للاّ أمينة، الشقيقة الصغرى للملك، تشهد بعدل الحسن الثاني ونزاهته في محبّته وتربيته لهما. لم نتنكّر قط لعلاقاتنا مع مَنْ أعزّنا في الماضي البعيد. تماماً مثلما لم نتوقّف عن الدفاع عن أنفسنا بعنفوان وحزم الأبرياء في مواجهة الطاغية عديم الشفقة الذي أمر بهذا العقاب العجيب. وعلى الذين سيتساءلون بحقّ: «أهذا تناذر ستوكهولم؟» سأجيب: «كلاّ، هذا بالأحرى تناذر القصر!»

غداة موت مولاي عبد الله، زار بورو ومعاونوه زنازيننا في واحدة من حملات التفتيش الثلاث أسبوعياً التي أمرت بها الرباط. بينما فتّش معاونوه جدران وأرضية زنزانتي، اقترب منّي المقدّم، الذي أراد على الأرجح أن يصون المستقبل من خلال استعادة سمعته لديّ، وهمس إليّ:

- الله كبير، الله كبير... لقد فُني شقيقه بالسرطان... الله كبير، لقد انتقم لكم... كان ردّ فعلي غير متوقّع.

صعد الدم إلى رأسي، وأبهرتني ومضةٌ وفتنني غضبٌ قاتل. لا شكّ أنّه أُضيف إلى حزني الصادق اليأس الناجم عن رؤيتي بموت مولاي عبد الله غياب الرجل الوحيد الذي لم يكفّ قط عن المطالبة باستعادتنا للحرية. انقضضتُ على المقدّم. ونجمت عن ذلك زوبعة من الأيادي التي فصلت بيننا. وانهالت عليّ بضع ضربات بشكلٍ عفويّ أكثر منه بتبصّر. تقهقر بورو، المشدوه من ردّ فعلي، مع زمرته. صفق الباب المصفّح. وتبع ذلك ضجيج مفاتيح متعجّلة. سمعتُ بورو الذي لم يكفّ عن الترديد، وهو يبتعد:

- إنّه مجنون! انتهى الأمر، لقد فقد صوابه!... إنّه مجنون، أقول لكم! مجنونٌ تماماً!

صدّقه معاونوه دون دليل. كان لدى شخص بورو المسكين ما يكفي

للاعتقاد بأنني قد جُنِنت. فهو الذي أراد، ربّما إشفاقاً، أن يرفع من معنوياتي بإبلاغي «الخبر السعيد»، وجد نفسه يُهاجَم ويُعتدى عليه. ولا بدّ أنّه سيكون قد فكّر كيف لي ألاّ أبتهج بموت شقيق مَنْ كان يعذّبني بقسوةٍ شديدة. والحال أنّ هذا النوع من المنطق لطالما أسخطني وظلّ كلّ حياتي يثير اشمئزازي.

توالت السنوات لا تُطاق أكثر فأكثر. وبات الجحيم لا يُحتَمَل يوماً بعد آخر. استمددنا مما وراء قوّتنا الطاقة لنحافظ على رباطة جأشنا ولئلاّ نغرق. لاسيما وأننا كنّا بلا راديو منذ نهاية 1983 وحتى بداية 1985. فقد لفظ الراديو أنفاسه الأخيرة. وبقينا هكذا مقطوعين عن العالم إلى حين قدّم لي محسنُنا الشجاع القطعة التي بسببها صمت الترانزستور. بقي أن نصلحه بالوسائل المتاحة. وأخذت العملية منّا بضعة أيام قبل أن نتمكّن من الاستماع مجدّداً إلى الأصوات المسكِّنة لأصدقائنا المعلّقين والصحافيين. كانت تلك الشهور الثمانية عشر التي قضيناها من دون أخبار العالم قاسية ومرعبة. وجب علينا أن نغترف من مراجع كنا نجهل أننا قادرون عليها. كانت تلك الفترة قاسية على نحوٍ خاص بالنسبة لي. ولحسن الحظ كان قد بقي لنا «الهاتف».

ها نحن في صيف 1985. باستثناء بعض الفترات الموجزة من الاستماع إلى الراديو أثناء النهار، خفّفنا من الاستماع إلى أخبار العالم بغية توفير بطارياتنا. علِمنا بزيارة يوحنا بولص الثاني إلى المغرب. استقبل أمير المؤمنين زعيم الكنيسة الكاثوليكية بأبّهةٍ تليق بمقامه. كان الحسن الثاني في أوج مناوراته. لقد عرف بمهارة أن يجعل من نفسه مقبولاً تماماً من قبل الغرب، كرجل سلام وكصلة وصل بين الثقافات والحضارات. عرف أن يطرح نفسه كنموذج للتوفيق بين الحداثة والتقليد، كمثالٍ للتسامح، ينشد الحوار السلمي. ولم يكن ذلك صحيحاً تماماً ولو أنّه ليس خاطئاً بالكامل. قوّة الحسن الثاني تكمن في زرعه للغموض بمهارةٍ تامّة. عرف هذا العاهل ذو الألف وجه أن يسحر الأوروبيين. وقد ساهمت شخصيته

المعقّدة ومهارته وتناقضاته الصارخة في خلط الأوراق. كما ساهمت حداثته المعلنة وطغيانه وإقطاعيته المنظّمة في صورته المتكلّفة التي لا يمكن إدراكها.

ولّدت زيارة البابا في داخلي مشاعر مختلطة. كنتُ فخوراً بصورة التسامح التي يعرضها المغرب للعالم. وجدتُ أنّ هذا اللقاء الأخوي بين الإسلام والمسيحية شيئاً مؤثّراً. كان الرمز قويّاً خاصّة وأنّه زامن التنامي المقلق لنفوذ الفكر المتشدد. ولكنّه لم يمنع من أنّ معانقة قداسة البابا للحسن الثاني أشعرتني بأنّ غطاء قبورنا قد أُقفِل إلى الأبد. فأغرقتني زيارة يوحنا بولص الثاني تلك أيضاً في المرارة والحزن: كانت بنظري نوعاً من الضمانة المعنوية، شهادة للأخلاق الرفيعة ممنوحة لملكٍ ذكيٍّ بالتأكيد، مستنيرٍ أحياناً، سياسيّ محنّك، ولكنّه رغم ذلك طاغية!

فانتهت سنة 1985 وسط الإحباط. شعرنا أكثر من أيّ وقتٍ مضى بأننا مهمَلون ومنسيون. أشعرني كلُّ يومٍ يمرّ بأن قاع البئر الذي يطوينا في جوفه ينزل أكثر نحو أعماق الأرض. أين سيمكنني أن أجد الكلمات لتبديد كلّ هذه الكآبة وهذا الألم وهذا الضيق؟ كان علينا أن نذهب لنستمدّ من قلب أنفسنا سبباً للمزيد من المقاومة. في هذه المرحلة، وحدها قناعة قويّة يمكنها أن تُبقيك على قيد الحياة. بالنسبة لنا كانت تلك القناعة أوّلاً براءتنا ودفاعنا عن هويّتنا.

في 3 آذار (مارس) 1986، احتفل الحسن الثاني بالذكرى السنوية الخامسة والعشرين لجلوسه على العرش. وقد مرّت أربع عشرة سنة ونحن محبوسون، وتسع سنوات ونحن منفصلون، ومئة وثمانية أشهر وأنا معزول. نظراً لكثرة المناسبات التي تعبّئ البلاد بأسرها، استسلمنا للأمل في أن يضع الملك أخيراً نهايةً لمحنتنا. ألم تكفِ أربع عشرة سنة من الانتقام لإخماد أحقاده؟ بمناسبة ربع قرن من الحُكم الذي احتُفِل به بأبّهة كبيرة، تأمّلنا إطلاق سراحٍ لم يحصل. بسخائها، قررت الرباط فقط أن

تشركنا في الاحتفال. . . دخل بورو والضباط فجأةً ليخبرونا بأنّه من الآن فصاعداً سيكون لنا الحق في أن نجتمع من الساعة الثالثة وحتى الثامنة والنصف في زنزانة البنات، مغلقة الباب؛ إلا أنّ هذا الإجراء لم يصبح فعلياً وساري المفعول إلاّ بعد أسبوعٍ من ذلك. كانت الأيام السبعة التي فصلتنا عن لقائنا تعذيباً. حينما التقينا من جديد كان المشهد مؤثّراً. لم نعد نتعرّف على بعضنا. كان كلّ منّا مرآةً لا تُطاق للآخر. بلعنا دموعنا، واخترنا أن نضحك من أنفسنا لا أن نستدرّ الشفقة على مصيرنا.

شدّت تلك الساعات من الاجتماع اليومي عزيمتي بقدر ما أضرّت بالسلاح الذي أعددته لنفسي بجدّية فائقة. أقلعتني سنوات العزلة تلك عن بعض العادات. كانت رؤية الأهل لمشاهدة بؤسهم والانغماس ثانيةً في العدم تمريناً قاسياً. ولكن في مأوى المحتضرين هذا، كما في الحياة، الطريقة الوحيدة للنجاة هي التكيّف. حاولنا ما بوسعنا أن نتبادل المساندة. وزادت كلّ ضربة توجّه لنا تضامننا بعشرة أضعاف. وغدت الدعابة والضحك طوق نجاتنا أكثر من أيّ وقت مضى. حافظنا على السخرية مهما كلّف الثمن. كتم كلٌّ منّا جراحه لنفسه ورمى بالطاقة التي بقيت فيه للمساعدة في خلاص المجموعة.

«الجميل» الذي أسداه لنا القصر كان قصيراً جدّاً. لم نحظَ طويلاً بتلك اللقاءات التي كنّا نتكدّس فيها عصراً في زنزانة أخواتي، والتي استثنيت منها حليمة وعاشورا. في تشرين الثاني (نوفمبر) 1986، أي بعد ثمانية أشهر من ذلك «التلطيف»، فُصِلنا من جديد عن بعضنا بقسوة.

منذ أن تمكّنت من لقائه، كرّست نفسي لأخي الصغير، كحضور ذكوري وحيد بالنسبة له. كان بأمسّ الحاجة إلى تبادل الحديث مع ذكرٍ ليجد المعالم الأساسية التي حُرِم منه. فقد كبُر عبد اللطيف، منذ الثالثة من عمره، في السجن. وقد بلغ السابعة عشرة من عمره، ولا يعرف عن الحياة أيّ شيء سوى السجن في ظروفٍ لاإنسانية. إنّه صبيٌّ ذكيّ ومحبّ للمعرفة. لا يكلّ من طرح كلّ الأسئلة التي تستحوذ على ذهنه. وحاولت

أن أجيب عليها بأفضل ما يمكن، ولكنّ كلّ سؤال من أسئلته كان يفطر، سرّاً، قلبي. عبّر كل ذلك الكبت والحرمان بسؤالٍ متلهّفٍ لا يكلّ من طرحه:

- كيف هو التلفاز؟ ماذا تشبه السينما؟ كيف تعمل آلة تصوير؟ كيف هو البحر؟ الجبل؟ الغابات؟

ما أحزنني أكثر هو سماعه يسألني:

- أيّ طعم للسمك؟ الدجاج؟ الشوكولاه؟ الجُبن؟ المثلّجات؟ المياه الغازية؟ إلخ.

كان أمراً لا يُطاق بالنسبة لي رؤية طفلٍ محروم من الأشياء الأكثر شيوعاً في الحياة. عبثاً رسمتُ له بالوسائل المتاحة الأشياء التي شغلت ذهنه، لم يستطع أيّ شيء أن يُشبع حاجته للواقع. ذات يوم ألحّ عليّ بالسؤال:

- رأيتُ ما هي البقرة. ولكنني لا أستطيع أن أتصوّر حجمها بدقّة من خلال صورتها التي رسمتها لي... هل يمكنني المرور واقفاً من تحت بطنها؟

ستنقصني الكلمات على الدوام لأعبّر عن واحدٍ من الآلام التي لم أستطع، في حياتي، التغلّب عليها وتجاوزها. الجُرح الأكبر الذي لا يمكن لا للزمن ولا الإرادة أن يشفياه، هو الحياة المدمّرة لهذا الطفل ذي الثلاثة أعوام والذي أمضى تسع عشرة سنة في ظروفٍ نادراً ما فُرِضَت حتى على بالغين مسؤولين ومتورّطين. نحن الكبار بدورنا كنّا أبرياء وضحايا مثله، ولكنّ تجارب حياتنا الماضية وهبتنا معالم قويّة غذّت أسبابنا في المقاومة.

ذات يوم، استغلّ عبد اللطيف ساعات لقائنا ليتوسّل إليّ أن أساعده على فتح ثقبٍ ضيّق في كوّة صغيرة ليرى «السماء والعشب والأشجار».

لم أتردد كثيراً حتى أخذتُ أعمل. كانت الفوهة بقطرها البالغ عشرة سنتمترات مسدودة بقضبان متصالبة وزجاجٍ مصبوغ وغطاءٍ من الخشب

المعاكس وشبكة مزدوجة من الحلقات المعدنية المتراصّة. اخترتُ أن أفتح ثقباً بمقدار رأس دبّوس في الإطار الخشبي الذي ليّنته الرطوبة. بعد ساعتين من العمل، كدنا نصل إلى هدفنا. كان عبد اللطيف متلهّفاً. فجأةً، سمعنا صوت باب الحجرة الفاصلة ينفتح بسرعة. انقضّ بورو وزمرته على الزنزانة التي كنّا متكدّسين فيها. توجّه المقدّم مباشرةً إلى الثقب الذي كنا على وشك الانتهاء منه، والذي لم يكن أوسع من قطر قلم.

- محاولة فرار! صرخ بورو متّخذاً من الضباط المحيطين به شهوداً.

استدار المقدّم نحونا وهو يشير إلينا بإصبعه بهيئةٍ مهدِّدة:

- ما كان عليكم أن تفعلوا هذا!... هيا! فليعد الجميع إلى زنازينهم!

تمرّدنا على أوامره ولكننا فُرِّقنا باستخدام الشرطة. أُغلِقَت أبواب زنازيننا من جديد. واستغرقنا من جديد في اليأس المطلق. في اليوم التالي، وصل بن عايش ولكنّه لم يواجهنا. كُدِّسنا في زنزانتي. وسنبقى فيها لساعتين، الوقت اللازم لكي يقوم العقيد «المقدام» بجولته التفتيشية. شممتُ رائحة عطره وسيجارته الصهباء. وبدت لي تلك الروائح مثيرة للاشمئزاز تماماً مثل شخصيته.

بعد أن زار زنازيننا واحدة بواحدة، عدا زنزانتي التي كنّا نشغلها، أعطى أوامر الرباط الجديدة:

- يُستأنف نظام العزل التام، وتُلغى النزهة التي كانت تُمنح بين فترة وأخرى نهائياً.

أمر العقيد بأن يُبنى سورٌ إضافي خلف ظهر المبنى L، حيث تطلّ جدران زنازيننا من تلك الجهة على حقلٍ. ضاعف ذلك السور بعرض متر وثلاثين سنتمتراً جدار المبنى وارتفع أعلى منه. ونُصِبَت مراقِب إضافية. كانت توجد علّية في زنزانة أمّي وعبد اللطيف. كوخٌ مساحته ثمانية أمتار مربّعة له سقفٌ خفيضٌ جداً ويتمّ الوصول إليه بسلّمٍ خشبيٍّ مثبتٍ على

الجدار. وهناك كان أخي الصغير يدور من حوله حينما كان يختلي بنفسه. أمر بن عايش برفع السلّم وسدّ مدخل العليّة الصغيرة بجدار. انهارت أمّي. بدت مساحة زنزانتها المحصورة بالأساس قد ضاقت أكثر بإعدام الكوخ. علاوة على ذلك، قلِقَت بشأن عبد اللطيف. فهناك كان يسير ذهاباً وإياباً لتزجية الوقت.

وسط الغضب العاجز الذي أرهقني، راودتني فكرة وحيدة: أخيراً قدّم لنا القدر إمكانية إخفاء التراب الذي سيمكننا حفره من نفقٍ محتَمَل! سارعتُ في إرسال رسالةٍ إلى الزنازين. طلبتُ إلى والدتي بألاّ تضيّع لحظة لتنتزع واحدة من القراميد التي سُدّت بها العلّية. قامت أمّي مع أخي الصغير بعملٍ مدهش. ولأنّ السلّم كان قد حُطِّم، كان على والدتي أن ترفع عبد اللطيف على كتفيها وتتحمّل وزنه حتى نهاية العمل. خلال بضع ساعات، انتهى العمل وأُنجِزَ بدقّة. أُخرِج حجرُ الزاوية من مكانه، ونُزِعت عن أوجهه الفواصل الإسمنتية الطرية بعد. فبات من الممكن سحب القرميد في كلّ لحظة مثل دِرجٍ. كان على عبد اللطيف أن يتمكّن من الانزلاق من تلك الفجوة ومن ثمّ النجاح في الخروج منها. رغم ما كان عليه من الهزال والنحافة، اضطرّ أخي، للوصول إلى الداخل، لأن ينسلّ إليها عارياً. علّمته الظروف التي كَبُرَ فيها الجَلَد والفاعلية. أصبح عبد اللطيف، مثلنا جميعاً، خبيراً في التمويه. أوهم الرماد والتراب، المعالَجان بدراية، تمام الوهم بجدارٍ متّسقٍ ببقع رطوبته. ووضع الطحين ومسحوق التايد[1] المسحة الأخيرة على الجدار. بمناسبة حملاتهم التفتيشية الثلاث أسبوعياً، لم يكلّف بورو ومساعدوه أنفسهم عناء مجرّد رفع أبصارهم إلى العلّية التي أُعدِمَت نهائياً. لاسيما وأنّها تطلّ على طرف الثكنة، وحدّثتهم نفسهم: ليس هناك خطر رؤيتنا نفرّ من ذلك الطريق.

إذاً، لم يدم الحق في أن نرى بعضنا بعضاً سوى ثمانية أشهر. ارتبط

---

(1) Tide: ماركة مسحوق للغسيل. المترجم

خلالها بمزاج جلاّدينا. وإذ كنا نأمل أن سنوات المحنة تلك ستكون قد انتهت إلى تهدئة حقد الملك، تأكّدنا من أنّ درب آلامنا بعيدٌ عن أن ينتهي. كنّا محكومين بالغرق في جحيم لا يني يتجدد. كنا نأمل في إطلاق سراحنا بمناسبة اليوبيل الفضّي للَحسن الثاني، ولكننا لم نتلقّ سوى موجة من التعذيب. اشتدّ ألمنا. خارت قوانا. وأصاب أجسادنا الضنى والإنهاك، وصارت معنوياتنا مسحوقة. تشبّثنا، مع طاقة اليأس، بالأشياء الوحيدة التي كانت لا تزال تبقينا على قيد الحياة: «حبّنا، كرامتنا، فُكاهتنا!» وإذا كنّا لم ننهار، فذلك لئلاّ نمنح جلاّدينا تلك المسرّة.

في 13 تشرين الثاني (نوفمبر) 1986، بعد 5110 أيام من السجن، انصبّ علينا غضب القصر من جديد. فقررنا أن نبدأ إضراباً جديداً عن الطعام. مع فرضنا على حليمة وعاشورا عدم المشاركة فيه لئلاّ نعرضهما للعنف والقسوة. حاول الكبار إقناع الأصغر والأشدّ هزالاً بألاّ يقلّدونا، ولكن دون جدوى. عبد اللطيف النحيف، الناحل؛ ومريم التي لم تعد تقوم من حشيّتها؛ وسُكَينة المصابة بفقر دمٍ شديد؛ لم يرد واحدٌ منهم أن ينفصل عن ذلك الكفاح الأخير.

في نهاية الأسبوع الأوّل، أرغمنا أخي الصغير على أن يضع حدّاً لصيامه، وكذلك مريم التي غرقت منذ اليوم السادس في وضعٍ غير طبيعي. تعرّضنا لكلّ التهديدات والضغوطات من قبل حرّاسنا لكي يُطعمونا، ولكننا صمدنا. لم يعد لدينا أيّ شيءٍ نخسره إلا وقد سُلِب منّا.

في اليوم العاشر من إضرابنا عن الطعام، قرّرت سُكينة، خفيةً، ألا تشرب ماءً بعد الآن. اعتقدت أنّ بتضحيتها تسرّع الأمور. وسرعان ما وقعت أختي الصغيرة في غيبوبة. طوال ثمانٍ وأربعين ساعةٍ، خشينا على حياتها. أنقذتها مليكة وماريا على آخر رمق، بإعادة السائل إلى جسدها

باستخدام ماءٍ مملّحٍ مضافاً إليه بضع قطعٍ من السكّر. أنقذ استبسال أختَيَّ سُكَينة. نحن الآخرين، واصلنا إضرابنا. جرّب بورو والمسؤولون كلّ التهديدات لتحطيم مقاومتنا، محاولين في الوقت ذاته إغراءنا بوعود عن «مزايا». وقد أُعطيت لنا ورقةٌ لنكتب إلى الحسن الثاني. أعاد بورو الكرّة:

- الآن وقد ذهبت رسالتكم إلى الديوان الملكي، تعقّلوا... لا تثيروا حفيظة الملك.

ولكن لم يغيّر ذلك في شيء. كنّا مصرّين على أن ننتهي إلى حل، أن نمضي حتى النهاية! الموت أفضل من الاستمرار في العيش بلا حقوق، بلا أمل. بعد عشرين يوماً من الصيام، أبلغَنا بورو بنتائج رسالتنا إلى الملك وردّ الرباط:

- لدينا الأوامر بدفن أوّل مَنْ يموت منكم في الباحة!

وللتأثير علينا، حفر جلاّدونا قبراً «شاهداً». أعلنت الرباط عن توجّهها بوضوح، لقد نُسينا، وتُركنا نموت ببطء على حشيّاتنا.

مع أننا اعتدنا أن نكون جائعين، كانت الأيام العشرة الأولى قاسية، قاسية للغاية. ثم انتهى الأمر بالجسد الخاوي والروح المغشاة إلى الحصول على هدوءٍ، نوع من العوم، لامبالاة بالألم الجسدي والعذاب المعنوي. وكلّما تقدّم إضرابنا، تراجعت رغبتنا في الطعام، وتلاشى قلقنا. وكلّما ضعفنا وصلنا إلى صفاءٍ غريب، إلى هدأة الروح. لا شكّ أنّه الشعور الغامض الذي ينبئ بأنّ الراحة الأبدية ليست بعيدة.

في 27 كانون الأوّل (ديسمبر) 1986، وبعد 44 يوماً من الإضراب عن الطعام، تأكّدنا تماماً من أنّ لا مشكلة عند القصر في موتنا. قادنا هذا الإثبات إلى منطقٍ محتوم: ما دمنا سنموت، آثرنا أن نموت بطريقة مختلفة عن أن نحتضر ببطء. قررنا أن نتغذّى من جديد. بدا جلاّدونا، أمام ما اعتبروه هزيمة نكراء، أكثر طغياناً وغطرسةً من ذي قبل. ولكنّهم لم يرتابوا بما خطّطنا له. اتّخذنا بهدوء قراراً رهيباً: لا بدّ أن يُضحّي أحدنا بنفسه لوضع الملك أمام الأمر الواقع. إذا ما مات أحدنا، سيضطرّ

الحسن الثاني، محرجاً، أن يبتّ في وضعنا. سواء سيُطلق سراح الآخرين، أو، على الأرجح، سيقتلهم. في كلّ الأحوال، سيضطرّ الملك لاتّخاذ قرار حازمٍ. استرددنا صحّتنا لبضعة أيام. استمرّ عزلنا. لم يعطنا إنهاء إضرابنا عن الطعام الحقّ في أن نلتقي. وحُظِرَت علينا باحة المعسكر. وباتت زنازيننا أكثر إحكاماً في إغلاقها من ذي قبل وذلك بناءً على أوامر الديوان الملكي. حلّت اللعنة على مربّع الضيوف أكثر من أيّ وقتٍ مضى.

وسندلي قريباً بالردّ الوحيد الممكن على هذه الضراوة العنيفة. تناقشنا في أولوية الأضحية. أرادت أمّي أن تكون أوّل مَنْ ينتحر. ومن ثم أتبعُها، وهكذا إلى آخر واحدٍ منّا. صمّمنا أشدّ التصميم على أن نجعل من بير-جديد مذبحنا. تهيّأنا لأن نعيش الرعب الأسوأ لهذه السنوات الأربع عشرة من الكابوس.

ذات ليلة، قطّعت أمّي شرايينها بعد أن ودّعتنا بالهاتف وأدلت بوصاياها الأخيرة. ساعدها الصغير. شاهد العزيز المسكين تلك الفظاعة بشجاعةٍ فائقة. بيدين ملطّختين بالدم، انحنى عبد اللطيف، شاحباً، على حفرة مجاري الشرفة التي تفصله عن أخواته ليخبرهنّ بتحرّك والدتنا. لن يكون بوسع أيّ ندمٍ أو تعويضٍ أن يمحو تلك المشاهد المرعبة وتلك الليلة الفظيعة. لا شيء في الدنيا سيمكنه أن يصحّح ما شعرنا به في تلك اللحظات التي لا توصف. ولن تسدّ أيّة ضمادة جراحاً كهذه.

نزفت أمّي، ثم أُغمي عليها. وكذلك أُغمي على عبد اللطيف المحموم والجائع والواهن. لم يحتمل مشهد أمّه المحتضرة وسط دمها فأغمي عليه. ظلّت البنات ينقرن على الحائط. ولأنّهنّ لم يتلقّين جواباً، أخبرنني فوراً. هجمنا على الأبواب المصفّحة لزنازيننا وطرقناها بقبضاتنا كالممسوسين. أطلقنا صيحات استغاثة يائسة. تحطّم صمت الموت الذي يغلّف المعسكر بصرخات حيوانٍ يُحتضر. غمزت بعض مصابيح الجيب

للحظةٍ على المَراقِب. ظلّ المسؤولون لامبالين لوقت طويل. بعد ساعتين، دخل بورو ومعاونوه إلى الباحة. توجّهوا نحو زنزانة أمّي. ألقوا نظرةً فيها، ثم خرجوا منها. حينما شاهد أمّي وعبد اللطيف محتَضنَين ومغميين، كلّف العقيد نفسه فقط مشقّة التحقّق من حالتهما وخرج ليعرض الأمر مباشرةً على الرباط. ولكنّ الديوان الملكي ظلّ غير مكترث، وأكّد على أمره:

- أذلّوهم! وأوّل من يموت، ادفنوه في محلّه!

انسلخت أيادينا ونحن نطرق بكلّ قوانا أبواب زنازيننا. تهشّم أحد أصابعي دون حتى أن أشعر به. في تلك الحالة من الغضب واليأس والثوران، كنتُ سأبقى لامبالياً بالألم الجسدي حتى ولو اقتُلِعَ قلبي. استعدنا أنفاسنا. واستفاق أخيراً عبد اللطيف. اعتذر التَّعِس لكونه قد ضَعُفَ. طمأنته أخواتي:

- الجميع فخورون بك، لقد كنت نموذجياً، ليس هناك ما تأخذه على نفسك، على العكس...

طلبنا من أخينا الصغير أن يلفّ معصم والدته بضمادة ويحاول أن يجعلها تشرب. سهر عليها عبد اللطيف، وحيداً، وسط ظلمات حفرتهما. لم أجرؤ على أن أتخيّل ما يمرّ في خاطره كطفل، بعد أن عاش رعباً كهذا. هل سيكون لديه مكانٌ لتخزين كلّ تلك الصدمات والرضوض؟

لم تتأخّر أمّي أكثر من صباح اليوم التالي حتى انبعثت. عند حلول المساء، أخبرتُ الجميع، بأنّه قد جاء، كما هو متّفق عليه، دوري. تكلّمنا للمرّة الأخيرة مع بعضنا عبر الهاتف. وودّعنا بعضنا. وبطقس جنائزيٍّ، بذلنا بسخرية ما تبقّى لنا من فكاهة. عزمنا على أن نبقى أباةً أثناء الموت. جعلتُ أهلي يقسمون ألاّ تُذرَف دمعةٌ أمام جلاّدينا. كان عليّ الدور الأسهل. إنّ الذين سينقذونني هم الذين عليهم أن يكونوا الأكثر شجاعةً. الفكرة التي قاربناها عن خلاصٍ للجميع أنزلت الطمأنينة

في نفوسنا. سوف نلتقي عمّا قريب في العُلى... لقد تعذّبنا، وبكلّ الطرق الممكنة، بحيث بدا لنا الموت خلاصاً عذباً.

في عزلة زنزانتي، تهيّأتُ بهدوء وصفاء لفعل الموت. بذلتُ جهداً يفوق طاقة البشر لئلاّ أفكّر في ما سيخضع له الباقون في حياتهم. أرغمتُ نفسي على أن أفكّر فقط في الفرصة الزهيدة في إطلاق سراحهم التي قد يوفّرها لهم موتي. بكت حليمة وعاشورا، اللتان ظلّتا باستمرار وفيّتين وشجاعتين ومستعدّتين للتضحية بنفسيهما، بكاءً مريراً، وعرضتا أن تضحّيا بنفسيهما بدلاً عنّا، ولكنني شرحتُ لهما، دون أن أقصد تجريحهما، أنّ موتهما لن يكون قادراً على إزعاج القصر. أعطتني رفيقتانا في الشقاء عبر أنبوب الغاز عصيدةً تناولتها بمشقّة. إنّها وجبة المحكوم بالموت. بل وحظيتُ بقليلٍ من الماء الساخن لأغتسل. أردتُ أن أكون نظيفاً قبل أن أقضي. كما أظهرت أخواتي عنايتهنّ الرقيقة بإرسالهنّ حفنة تبغٍ إليّ. كانت حليمة وعاشورا تلتقطان، حينما يمكنهما ذلك، أعقاب السجائر التي يرميها الحرّاس في الباحة.

«لففتُ آخر سيجارة» وشججتُ معصمي بعمق، ممزّقاً بلا تردّد اللحم بقطعة من علبة معدنية قاطعة. بقيتُ لامبالياً تماماً بالألم. انبجس الدم. انهرتُ على ركبتيّ. سال الدفق الفاتر على فخذيّ. كلّما تقدّم النزف أكثر شعرتُ براحة أكثر. شعرتُ وأنا أفرغ دمي بأن شقاءنا هو ما أُخليه، وأن مأساتنا هي التي تسيل من أوردتي. وسط ذلك السيلان القاتم، كان كلّ حلكة مصيرنا المحزن هو ما يتسرّب. وكلّ الشرّ الذي انصبّ علينا هو ما أطرده. وابتلّ وجهي في الحال بقطراتٍ ناعمة من العرق. تصبّبتُ عرقاً مدراراً، وأُصِبتُ بارتعاشٍ وتعرّقٍ باردٍ. جفّت شفتاي وأصبحت سحنتي الممتقعة باهتة. استلقيتُ وأغمضتُ عينيّ. سجّلت دمعتان كبيرتان لحظة وعيي الأخيرة. فكّرتُ من جديد في حياتي. لم أتألّم سوى لما سيحلّ بأهلي. تمنّيت بكلّ ما تبقّى لي من القوّة أن تضحيتي ستنقذهم. كتبتُ بدمي على جدار زنزانتي رسالةً إلى

الملك. أرغمني قلقي على مصير عائلتي أن أكظم الغضب الذي أردتُ أن أحمّله لكلماتها الموجّهة للحسن الثاني. حرمتُ نفسي من هذه المتعة الأخيرة ملطّفاً رغماً عنّي هذا التصريح الأخير:

«سيّدي، أيّاً كانت سلطتكم على الأرض، فسيأتي اليوم الذي سيكون عليكم أن تقدّموا فيه الحساب أمام الله وأمام شخوص هذا الظلم. أتوسّل إليكم للمرّة الأخيرة أن تعفو عن أهلي. أتمنّى من كلّ قلبي أنّ موتي سيروي نهائياً حقدكم علينا.»

وكلّما استفرغتُ دمي، غلّفني سلامٌ وصفاء. أُصبتُ بالغثيان والدوّار، وزاغ بصري، وتلاشت جدران زنزانتي وابتعدت. سأكون قد رغبتُ للحظةٍ أخيرةٍ أن أرى من جديد سماءً مرصّعة بالنجوم، وأن أموت في الهواء الطلق! ولكن هناك الكثير من الأشياء التي كنتُ أردتُ لو أنني عشتها أو أنجزتها... الكثير من الأحلام الظميئة! الكثير من الآمال الخائبة والحرمانات العصية على التعويض التي ليس تبديدها بين هذه الجدران إلاّ حلماً إضافياً من تلك الأحلام. تلاشت قدرتي على التميز، واحتجب كلّ شيء وبات غامضاً. وغرقت في غيبوبةٍ عميقة.

ما لم أعرفه، هو أنّ سُكينة كانت، في اللحظة ذاتها، تُقطّع من قبل أخواتها. وسط ضحكاتٍ هستيرية، حاولن بعد الشجّة الأولى النيل من أوردتها. وأخيراً، نجحن في تمزيق أحدها، وتفكّهت سُكينة قبل أن يُغمى عليها:

- سنسبقكم، رؤوف وأنا، كي نرتّب ركناً صغيراً من الجنّة، بانتظار قدومكم. أتمنّى ألاّ نجد فيها عنصراً من الديوان الملكي...

سهرت أخواتي عليها، بصمت، بانتظار أن تقضي. أدّى الانحطاط الجسدي والإضرابات المتتالية عن الطعام إلى ألاّ يكون ضغط الدم قويّاً بحيث لا يتوقّف النزيف. وإذ شاهدت أخواتي نضوب السيلان، استأنفن العملية على سكينة، التي ظلّت مغمياً عليها. سال الدم مرّة أخرى، ثمّ نضب من جديد. وإذ علمن من خلال حليمة وعاشورا بأنّ محاولتي أكثر

نجاحاً وبأنّهما شاهدتا الدم يسيل من تحت الباب ويصل حتى الشرفة، قررت البنات أنّ لا حاجة للمجازفة بحياتين. وضمّدن، بالوسائل المتاحة، معصم أختهنّ الممزّق وتناوبن على السهر عليها ليقطّروا باستمرار قليلاً من السائل في فمها. عند مطلع النهار، انبعثت سُكَيْنة. هاجت وماجت ضدّ نفسها، ضد هذا الجسد الذي يمنع، حتى وهو منهار، عنها الراحة.

أتخيّل ما كانت عليه تلك الساعات الجهنّمية؛ ما كانت عليه تلك الليلة المرعبة بالنسبة لأهلي. معذّبين بشدّة، مسحوقين الظلم، وقد فتك بهم ألف مرض، وتخلّى الجميع عنهم، عاشوا الألم النهائي: ألم أن يشاهدوا، عاجزين، منعزلين بجدرانٍ سميكة، احتضار أخيهم.

ستبدي عائلتي، في تلك اللحظات العصيّة على الوصف، شجاعة لا مثيل لها. لقد وفت بوعدها. ولن تستعطف، في أيّة لحظة، أحداً. جريحةً إلى حدّ الموت، ممزّقة القلب حزناً، لن تُظهر لحرّاسنا سوى الرصانة والكرامة والحزم. ولن أعلم بما جرى بعد أن مزّقتُ أوردتي إلا عند استفاقتي من الغيبوبة التي دامت أربعة أيام.

في صبيحة اليوم التالي، عاد حرّاسنا فجأةً. زاروا الزنازين. حينما وصلوا إلى زنزانتي، أخذهم هيجانٌ غير اعتيادي. تقصّتهم أمّي مع أخي وأخواتي من تحت أبوابهم المصفّحة، مستخدمين بركةً من الماء كمرآةٍ عاكسة. أمّا حليمة وعاشورا اللتان قضتا الليل بالبكاء، فلم تبارحا الثقب الضيّق الذي تمكّنتا من خلاله سماع ما قيل في زنزانتي. سأل بورو ضابطاً:

- ألا يزال على قيد الحياة؟

- لا أدري، لا أستطيع أن أحسّ بنبضه...

- افحصه من الرقبة، لا من المعصم.

- هذا مذهل، سيّدي المقدّم، لقد فقد الكثير من الدم... انظروا إلى البُركة، لقد بلغت الشرفة!

فشاهدتهم عائلتي يخرجون مسرعين. مسح بورو ومعاونوه جزمهم المبلّلة بالدم على الأعشاب السامقة في الباحة. وعبروا جرياً الممرّ. صفق باب الحجرة الفاصلة. وساد الصمت من جديد مربّع «الضيوف». واستمرّ انتظار أهلي وقلقهم. هرع سجّانونا إلى الخارج لتبليغ الرباط. ولكنّهم لن يُعلِموا عائلتي في أيّة لحظة بحالتي. مرّت ساعتان، قبل أن يدخل حرّاسنا من جديد. مكثوا حوالي عشر دقائق. لم يمسّوا أيّ شيء. اكتفوا بإلقاء نظرةٍ على داخل زنزانتي، ومن ثمّ خرجوا وهم يقفزون من فوق البركة القاتمة، التي تمدّدت جداولها حتى الشرفة. ودون أن يتفوّهوا بكلمة، رتجوا الأبواب وانصرفوا. لم تغمض لوالدتي وأخواتي، اللواتي أنهكتهنّ تلك الساعات الثماني والأربعين المرعبة، عينٌ بعد. تناوبن على استراق النظر من تحت الباب لتلقّي إشارةٍ. وسيبقين هكذا إلى حين حلول الليل. واستمرّت برودة أعصاب حرّاسنا ولامبالاتهم. عاد بورو ومعاونوه كلّ ساعتين ليتحقّقوا من أنني لم أمت بعد. وواصلت حليمة وعاشورا التجسّس عليهم... أدخلتا طرف أنبوب الغاز في الثقب الضيّق المفتوح في الجدار الفاصل بيننا. ولكنّهما لم تدخلا الأنبوب إلاّ حتى منتصف الأخدود، دون أن تظهر نهاية ما استخدمتاه بوقاً في زنزانتي، وتجنّبتا تماماً تفتيت السدادة المصنوعة من الصلصال والرماد التي تسدّ الثقب من جانبي. وكان ذلك كافياً لتتمكّنا من سماع ما يُقال في زنزانتي.

نحو الساعة الواحدة فجراً، انسلّ حرّاسنا بخطوات صامتة إلى «مربّع الضيوف». لمحت أخواتي اللواتي لم يتوقّفن عن التناوب على الأبواب حضور طيف شخصين مدنيين وسط المجموعة. الأرجح أنّهما من رجال SSS، مرسلين من قبل القصر لإعداد تقريرهما عن الحالة. مصحوبين ببورو ومعاونيه، توجّها نحو زنزانتي. دخلا إليها بحذر حريصين على ألاّ يلوّثا أحذيتهما الجميلة. ووضع الجميع أيديهم أو منديلاً على أنوفهم قبل أن يدخلوا إلى تلك المغارة المتعفنة. لم يتجرأ أحد على تحريك أيّ شيءٍ كان في زنزانتي. لوّث الدم القاتم المتخثّر الأرضية وحمل الهواء رائحة

عفونة لا تُطاق. ظلّ جسدي يرقد في المكان ذاته. وتنغّم سربٌ من الذباب بجوّ الموت ذاك. ترصّدت حليمة وعاشورا النزر اليسير من التعليقات التي صدرت عن الزوّار. وأخبرتا أمّي وأخواتي بالغرض من تلك الزيارة. لقد جاء مبعوثو القصر لالتقاط الصور وإعادة نسخ الرسالة المكتوبة على الجدار كاملةً لأجل الملك. وقد مرّت نحو عشرين دقيقة قبل أن يخرجوا من زنزانتي. توارت الجماعة الصغيرة. واستسلمت عائلتي. إذا كان مبعوثون من الرباط قد جاءوا ليتحقّقوا من حالتي دون أن يتمّ نقلي أو حتى تقدّم لي المساعدة، فذلك لأنّ الأوان قد فات. ساند الأكثر تفاؤلاً الآخرين: «إذا كان بورو والحرّاس يدخلون كلّ ساعتين، فهذا يعني أنّ رؤوف لا يزال على قيد الحياة. . . وإلاّ لما تحمّلوا هذه المشقّة».

استمرّ الانتظار الجهنّمي. واصلت أخواتي، منهكات القوى، ناعسات، حراستهنّ القلقة. نحو الساعة الثالثة صباحاً، سمعن صوت باب الحجرة الفاصلة وهرعن منبطحات يترصّدن من تحت الأبواب. توجّه بورو وزمرته من جديد نحو زنزانتي. وخرجوا منها القهقرى. أخذ أربعة مخزنيّين كلٌّ من طرف بطانية عسكرية حملوا فيها جثماني. وإذ شاهدتُهم ينقلونني بتلك النقالة المرتجلة، استعادت عائلتي الأمل للحظة: «أيكون حيّاً؟ ربّما سينقلونه إلى مكانٍ آخر لمعالجته؟» ولكن حينما شاهد أهلي الخفراء يضعونني وسط الباحة على الأرض الجرداء، بكوا بصمت. وضع كلٌّ جبينه على تصفيح الأبواب، ممدّداً أنامله بيأس تحت الصدوع، وكتم نحيبه. استنتجت أمّي وأخواتي من ذلك بأنّ كلّ شيء قد انتهى، وأنني قد توفّيت، ويتم التحضير لدفني في الباحة. خرج بورو والضباط مرّة أخرى. ولدى مرورهم في الممرّ، توجّه النقيب شفيق إلى رئيسه:

- هل يمكن أن ينجو إن أعطيناه الأوكسجين؟

- إذا شاء الله معجزةً. . . لِمَ لا؟

أخذ المخزنيّون الأربعة مكانهم من حولي، كلٌّ في زاوية.

وسيحرسون طوال الليل جسدي الهامد، الملفوف في بطانية قديمة بالية. كنّا في فصل الشتاء، والجوّ بارد. وبدأ المطر يهطل. كلّ نصف ساعة، ينحني حارسٌ فوقي ويعود من جديد ويتّخذ مكانه في الحراسة في الموقع الذي حدّده المقدّم له. أحيت هذه المناورة بريقاً من الأمل عند أهلي. مع مطلع النهار، رُفعتُ مثل صرّة إلى زنزانتي. رموني فيها مبلّلاً، ملطّخاً بالطين، تماماً في المكان نفسه الذي عُثِر فيه عليّ.

ولم أستفق من غيبوبتي إلا في نهاية اليوم الرابع. كانت ليلة ظلماء حينما فتحتُ للحظةٍ عينيّ. ماذا أقول عن تلك اللحظة؟ وسط غشاوة كثيفة، لم أعد أعرف أين أنا، وما أفعله هنا... بعد لحظةٍ، تحققتُ بمرارة من أنني لا أزال حيّاً: «حتى الموت لا يرغبنا!» فكّرتُ، متقززاً. حاولت أن أتحرّك. ولكنني كنتُ ضعيفاً للغاية. لمجرّد أن أدرتُ رأسي نحو جدار جارتيّ فقدتُ وعيي. ولا أدري كم من الوقت مضى قبل أن أستفيق مرة ثانية. حاولتُ أن أسحب نفسي نحو جدار حليمة وعاشورا لأخبرهما. لكنني لم أمتلك الطاقة على ذلك. أغمضتُ عينيّ ثانيةً واسترخيت، دون أن أقوى حتى على أن أفكّر أو أغتمّ. كانت زنزانتي مليئة بالدم، من الأرض حتى الجدار. لا شيء حُرِّك، ولا نُظِّفَ. كانت الرائحة لا تُطاق. كان جوربٌ متّسخ يضمد معصمي. وكانت تلك المبادرة الخيرية الوحيدة التي بذلها سجانيّ من أجلي. نزعه أحد المخزنيّين من قدمه ليضمّد به جرحي. كان معصمي مشوّهاً. أدّى الالتهاب إلى تورّم مذهلٍ للحم الفاغر. تنطنطت أشباحٌ صغيرة في الزنزانة وهي تسقسق. إنّها الجرذان التي تتنازع على الوليمة... أثارتها رائحة العفن والدم ومنحتها الجسارة. إن هاجمتني، فلن أقوى على الدفاع عن نفسي. محاولاً تحريك ساقيّ، اكتشفتُ ألماً في الوجه العلوي لقدميّ. وفي كلّ مرّة دخل بورو ليتحقّق من أنني ما زلتُ في الغيبوبة، رضّ لحمي بقَرْصه بكل ما أوتي من قوّة بين إبهامه ومفتاحٍ ضخم. ولأنني كنتُ منهوكاً، نمتُ. استيقظتُ بالزيارة المنتظمة لحرّاسي. سمعتُ صرير

المفاتيح تدور في الباب الأوّل للشرفة. تلكّأ بورو والنقيب شفيق والمخزنيّون المرافقون لهما لبرهةٍ قبل أن يفتحوا الباب الثاني، باب زنزانتي. التقطتُ حديثهم. كشف النقيب شفيق لرئيسه وصديقه عمّا في قلبه:

- سيّدي المقدّم، أنا شديد الإرهاق. هذا الوضع يتجاوز الفهم. لم أعد أنام. ضميري يعذّبني. لم تعد لدي حتى الجرأة للجلوس مع أولادي، وأنا أعلم ما نفعله هنا بأولاد أوفقير... كيف سيسامحنا الله ذات يوم... لم أعد أحتمل رؤية امرأة وأطفالٍ في حالةٍ كهذه. إذا كان يجب قتلهم هنا، فأنا لا أريد مشاهدة ذلك...

وبّخه بورو:

- أنصحك، إن كنت تريد رؤية أطفالك ثانيةً، أن لا تتذاكى... لست وحدك تطرح على نفسك هذه الأسئلة. ولكن لا خيار لنا، أن يعذّبك ضميرك أفضل من أن يعذّبك العقيد بن عايش... في كلّ الأحوال، أولاد أوفقير موتى. لقد أقسم الملك على أن يبيد ذريّة الجنرال؛ لا يريد أن يبقى أدنى أثر منه؛ ولا مثقال رائحة!

دخل بورو ومعاونوه زنزانتي. وجّه المقدم مصباحه عليّ. انحنى على قدمّي ليقرص لحمي بمفتاحه. توتّر جسمي تحت تأثير الألم. فصرخ بورو:

- الله أكبر! الله أكبر!

حينما فتحت عينيّ، لمحتُ أحد الحرّاس يُخفي خلسةً زجاجةً صغيرة من الحليب وقطعةً كبيرة من القطن. طوال فترة غيبوبتي، كان سجّانيّ يبلّلون شفتيّ بقليلٍ من الحليب الساخن. والآن وقد استعدتُ وعيي، لا يريدونني أن أعرف ذلك. قبل أن يخرج، استسلم بورو في قوله:

- الله كبير، إذا كنت ما زلت في هذه الدنيا فذلك لأنّ كلّ شيء ممكن، ويمكنه أن يحدث...

وضعني حرّاسنا على حشيّتي، وملأوا لي صفيحة الماء وانصرفوا. عند الفجر، وجدت بعض القوّة لأنقر بوهن على جدار جارتيّ. وهرعت التعيستان باكيتين لتخبرا بقية العائلة. ومع أنّه لم يعد يعمل، انهَرتُ لفقداني للراديو. فنظراً لقرارنا بأن نقضي جميعاً، تركته خارج البلاطة، فقط لأُغيظ بورو وأبرهن له بعد وفاتنا بأننا قد نجحنا مع ذلك في مخادعة تيقّظه الصارم.

خلال الأيام الخمسة عشر التالية، كان وضعنا مزرياً للغاية. ضاعفت الرباط من قسوتها وغطرستها. قدّر جلاّدونا أنّ هزيمتنا كاملة. واقتنعوا بأننا، من الآن فصاعداً، سنكون أذلاّء ومحطّمين ومهيّئين لأن نخضع لمشيئتهم وطغيانهم. أوحت لي العودة من ذلك البعد الذي عدتُ منه بقناعةٍ راسخة وحاسمة: «إذا كان القدر قد قرّر أن يبقيني على قيد الحياة، فذلك لأنني منذورٌ لكي أظلّ أقاوم وأكثر من أيّ وقتٍ مضى في سبيل الحياة! ذلك لأنّ الطريق لم ينتهِ ولأنّه لا تزال هناك أمور عليّ إنجازها!»

نحن الآن في شباط (فبراير) 1987. نجحتُ أخيراً في إقناع أمّي وأخواتي بإمكانية فرارٍ. لم يصبح مشروع النفق الذي فكّرت فيه لسنوات ممكناً إلا من خلال إعدام تلك العلّية الصغيرة في زنزانة أمّي. منذ أن وصلنا في عام 1977 إلى مأوى المحتضرين هذا، لم أكفّ عن تخزين الملاحظات والمراقبات الضرورية لمشروع كهذا. عرفتُ مواعيد تغيير الحراسة والزوايا الميّتة للمَراقِب وطبوغرافية المعسكر التي خزنتها في ذاكرتي حينما دخلناه. ولكن إلى تلك اللحظة لم تكن جميع شروط تنفيذ مشروع كهذا قد توفّرت بعدُ.

مع أنّهم لم يستطيعوا أن يعبّروا عن ذلك صراحةً، غالباً ما أظهر لنا سجّانونا بصمت تقديرهم لمقاومتنا اليائسة ولكن الشرسة. بل جازف بعضهم بأن همسوا لنا، حينما أُتيحت لهم الفرصة في ذلك، بتشجيعهم

الصادق. لقد اعتقدوا لفترة وجيزة بأنّ الحسن الثاني لن يذهب إلى حدّ الرغبة في موتنا. والآن وقد أصبحوا مقتنعين مثلنا بعكس ذلك، ذُعِروا من ضراوة وشراسة كهاتين. وأكثر من أيّ وقتٍ مضى، تسلّطت عليهم فكرة: «إذا كان الملك قد خصّ ضيوفه بمصير كهذا، فماذا سيحلّ بأوّلِ واحدٍ من بيننا قد يساعدهم شفقةً؟» أفقدت الأشهر الأخيرة الكابوسية حرّاسنا توازنهم. ما عادوا يؤمنون قط بما يفعلونه. تسرّب الشك إلى دواخلهم. أتكون نوبة ضمير؟ أم أنّهم يقلقون لمصيرهم؟ في كلّ الأحوال، أدركوا أنّ، أيّاً كانت النهاية، سيكونون ضحايا مثلنا. إن متنا هنا، فمن المستبعَد أن يُترَك أحياءً الذين شاهدوا إبادتنا. كان بورو ومعاونوه مدركين أنّنا من الآن فصاعداً في سجن الأشغال الشاقّة نفسه. أيّاً كان القناع الذي يرغمهم على عملهم، فقد ترك سجّانونا أحياناً اشمئزازهم يظهر أمام وضعٍ مؤلمٍ إلى هذا الحدّ. ولكن الإرهاب الذي يوحي به لهم مولاي حفيظ وبن عايش، والذعر الذي يستبدّ بهم لمجرّد ذكر اسم الحسن الثاني، يسترعيانهم على الدوام للنظام!

جعلتني الأسابيع الأخيرة التي قضيناها أتساءل أكثر فأكثر عن الأسباب المعقّدة التي قادتنا إلى قلب الجحيم. دفعتني الحاجة إلى معرفة السبب الذي من أجله نعاني ونتعذّب إلى الغوص في ذكرياتي لأعيد بدقّة سير وتسلسل الأحداث التي كلّفتنا مصيراً مرعباً للغاية.

الفصل الخامس عشر

1971-1972 :

السنتان المحفوفتان بالمخاطر

سجّلت نهاية عام 1971 تحوّلاً حاسماً. لم تنتهِ موجة صدمة انقلاب الصخيرات أبداً، وكان الهدوء الهشّ لوضع استُعيدت السيطرة عليه خادعاً. وإذا كان الخطاب الرسمي أراد لنفسه أن يكون مطمئناً، فإنّ القلق تفاقم في كواليس مؤسسة **المَخْزن**. واستمرّت لعبة الأقنعة بين الحسن الثاني وأوفقير. وكزوجين قديمين لم يعد بينهما حبٌّ منذ أمدٍ طويل، ووحدها العقود ترغمهما على التعايش، حاولا الحفاظ على المظاهر. ولعدم افتراقهما، تحمّل كلٌّ منهما الآخر. وخلف البروتوكول المألوف والضغوط السياسية، استمرّت لعبة لوي الذراع الخفية بينهما. لعبةٌ بذيئة ناوبت بين المراعاة والاستياء: بين المجاملات والتهديدات.

بعد أقلّ من شهر على مذبحة الصخيرات، زارنا الحسن الثاني على نحوٍ مفاجئ. وصل إلى بيتنا، وحيداً، وهو يقود سيارة عادية. تحدّث بغاية اللطف مع أبي وأمّي ومليكة ومعي. واقفاً في بهو المنزل، سأل باهتمام عن أحوال كلٍّ منّا. أراد أن يعبّر لنا عن محبّته من خلال الاهتمام الذي أظهره بنا. سألنا الملك عن دراستنا، واهتمّ بمستقبل مليكة بشأن الزواج، ثمّ أبدى قلقه من جديد من إفراطي في السرعة بدراجتي النارية.

حثّ والدي على أن يعتني بنفسه. بعد الانتهاء من تلك المجاملات الاجتماعية، دعا الحسن الثاني والدي لأن يتبعه إلى الصالون.

- تعال، علينا أن نتكلّم...

جاء الملك ليخبر وزيره بأنّ شائعات تذكر تواطؤه مع الانقلابيين. وهذا ما ردّ به والدي:

- إذا كان لجلالتكم أدنى شكٍّ في ذلك، أقلّ ريبة، فأنا أنصحك نصيحة نصوح: اقتلني... اقتلني بأسرع ما يمكن!

تظاهر الحسن الثاني بالاستياء:

- ماذا! أنا يا أوفقير... أنا، أشكّ في ولائك! أبداً، حتى ولو وضِعت الأدلّة على ذلك تحت ناظريّ!

وقبل أن يتركه، داهنه الملك، وكرّر له تقديره وثقته ومشاعره الطيّبة تجاهه وتجاه عائلته. استمرّت لعبة المخدوعين.

وإذا كان تعيين أوفقير في منصب وزير الدفاع والقائد العام للجيش يعبِّر ظاهرياً عن ثقةٍ من الملك، إلاّ أنّه في الحقيقة كان نوعاً من إستراتيجية أكثر تعقيداً بكثير من ذلك. فإذ كانت مسألة استعادة السيطرة على الجيش ملحّة، كانت الصلاحيات الجديدة لوالدي تذهب في هذا الاتّجاه. ومع ذلك لم يكن الحسن الثاني يجهل أضرار ذلك إن لم نقل مخاطره: اهتدى أوفقير إلى موهبته، ولكن أُضيفت إليها الخبرة السياسية. باتّصاله بعالمه الأصلي، قد يتمكّن من إيجاد «أرضية خصبة» لانتقاداته، والمضخّم القادر على تحويل تحفّظاته، على تحمّل مسؤولية تجاوزات النظام والتعدّي عليه، إلى تمردٍ ملموس. مع ذلك لم يكن للملك من خيار. إذ فقد جيشه تسعة من جنرالاته الخمسة عشر، وما لم تُعاد الثقة إليه، قد يسعى إلى الانتقام لنفسه. إذاً كان الخطر مدروساً. بالتأكيد أعطى الحسنُ الثاني أوفقير جيشاً، ولكنّه جيشٌ ضعيف، مصدوم بعمق وغير مستقرّ، جيشٌ تحفّظ على تسليحه، بحيث وُضِعت جميع مستودعات ذخيرة القوات المسلحة الملكية تحت إشراف محافظي

الأقاليم، أي تحت مسؤولية وزارة الداخلية. اعتبر أوفقير والجيش هذه «الرعاية» للعسكريين من قبل الشرطيين إهانةً إضافية. مع ذلك، لم يعتبر الملك هذا الإجراء كافياً لكي يحيّد نهائياً العسكر وأوفقير الذي تزايدت شعبيته يوماً بعد آخر وسط الضباط الشباب. وبمنتهى السرية، عزم على أن يطلب من فرنسا أن تكلّف ضباطاً قادرين على المساهمة في تنظيم هيئة الأركان العامّة في الرباط.

وبهذا الخصوص، سوف يكتب الصحافيان جان بيير جولان وجوزيت آليا في أعمدة **لو نوڤيل اوبزيرڤاتور** في عددها الصادر في 21 آب (أغسطس) 1972، أي بعد خمسة أيام من الانقلاب الجديد: «ولكنّ الملك كان محترساً هذه المرّة. إلى درجة أنّ مشكلة أمنه كانت الغرض الأساسي من زيارته إلى فرنسا. [...] كان قد حاول أثناء زيارته في باريس أن يمدّ جيشه بهذه المعونة الفنية الغريبة. وطلب أن يوضَع مستشارون عسكريون في المواقع الرئيسية من هيئة أركانه ووحداته، نظرياً من أجل تغيير بنية الجيش وإعادة تنظيمه، ولكن فعلياً من أجل منع كلّ تكتّل انقلابي. وكان الإليزيه قد تمهّل في الردّ: فالعملية ستستغرق مدى أكبر. وعلى الرغم من التماسات وزارة الدفاع الوطني، المهتمّة باستعادة موطئ قدم في جيشٍ مغربيٍّ كانت إعدامات الصخيرات قد حرمته من جنرالاته المناصرين لفرنسا، استمرّ الحذر في باريس. بعد عشرين يوماً من الانتظار، كان الملك قد اقتنع أخيراً بالعودة». يضيف الصحافيان: «علاوة على ذلك: أوفقير، الذي كان خصماً لدوداً حتى الأمس لـUNFP، أظهر نفسه بوضوح مؤيّداً لعودته إلى السلطة، برفقة حزب الاستقلال. ويعترف بعض زعماء الحزبين اليوم بأنّهم لم يكونوا غافلين عن المواقف الأخيرة لوزير الدفاع ويُضيفون: كان قد نجح مؤخراً في إظهار وجهٍ معيّن وكانت لدينا أسباب وجيهة للاعتقاد بأنّه لم يكن معادياً».

إذاً، أراد الحسن الثاني، في أعقاب الصخيرات، إعادة ما هو أشبه بالوصاية على جيشه. وسوف يُعلم أصدقاء أوفقير في فرنسا الجنرال

بذلك. الأمر الذي سيسرّع، إلى جانب أمورٍ أخرى، في الإعداد للانقلاب الثاني. وقد سمعتُ والدي في بيت إدريس بن عمر وهو في ثورة غضب جامحة:

– قل لي إنني أحلم يا إدريس! يريد الملك أن يضع الجيش تحت إمرة ضبّاط أجانب! أقسم بشرفي إن ذلك لن يتمّ ما حييت!

عرف أوفقير أنّ الملك يُعدّ، من وراء الثقة التي يُعلنها رسمياً، لإقصائه التامّ والنهائي، ربّما تمهيداً لتصفيته جسدياً. بعد أن استخدم عامله المخلص في ترسيخ أجهزة أمنية تنافسية، عمل الملك بدهاء لكي ينزع تدريجياً إشرافه عليها، محتفظاً له في الوقت ذاته بوضع البعبع، «الجلاد الأوّل» و«الوزير الفظّ». منذ قضية المهدي بن بركة، استعاد الملك الدليمي، المساعد السابق لأوفقير، والذي غيّر رأيه بمهارة، وقد رفعه منذ عام 1970 إلى رتبة عقيد وعيّنه على رأس إدارة الأمن الوطني. كان دور الدليمي ومهمّته مراقبة أوفقير وإضعافه بكلّ السبل وإبطال كلّ تأثير حقيقي للجنرال في جهاز الدولة. أراد الحسن الثاني أن يعيد المخطّط نفسه تقريباً. ما إن يستعيد أوفقير ثقة الجيش، سينبغي إزاحته بطريقة أو بأخرى عنه. ولو أنّ فرنسا وافقت على الاقتراح الذي قدّمه لها الملك برئاسة القيادة العليا، لكان قد تخلّص من وزير دفاعه. ومثلما سينبغي عليه أن يجد في أوفقير بديلاً في دور واقية الصواعق، كذلك بدا أنّ الدليمي قد اختير تماماً ليكون بندقية أخرى للفصل بين القصر ومعارضيه.

أحدثت نتائج مذبحة الصخيرات، أبعد من انعكاساتها السياسية، اضطرابات واضحة لدى والدي. واستطعتُ أن أتأكّد يومياً من ذلك. طغى على أوفقير الحنين المتعاظم إلى ماضيه. استحضر في كلّ مناسبة ذكرياته في الجيش الفرنسي، ولم يكفّ عن استذكار ما تقاسمه مع إخوته في السلاح. حينما كان يتحدّث عن الجنرال بوغرين والجنرال حبيبي والعقيد الشلواطي، كانت عيناه تغرورقان. وكلّما ذكر رفاقه الذين أُعدِموا

بلا محاكمة، غرق في حزنٍ وكآبةٍ يُصيبان بالعجز. شعرتُ فيه برجلٍ متألّمٍ، متقزّزٍ، متعبٍ من الحياة. حتى أنّه قال ذات مساءٍ في بيت صديقه إدريس بن عمر، الضابط السابق في فرقة لوكليرك:

- حسرتي الوحيدة هي أنني لم أمت في الوقت المناسب... ليتني متُّ في إيطاليا أو في الهند الصينية بشرف وأنا أحمل السلاح في يدي. كان عليّ أن أموت هناك لا أن أتلوّث مع السياسيين... ما أعيشه اليوم أسوأ من كلّ المنايا!

تغيّر الجوّ في بيتنا جذرياً. شغل العسكريون الأمكنة. وساد نشاطٌ كثيف لكبار الضباط والمرؤوسين. شعر والدي بالراحة في الاتّصال بأهوائه الأولى، بيئته الطبيعية التي ما كان عليه أن يغادرها قط، بهذا الجيش الذي وُلِد عملياً على يديه. استعاد ردود فعله كجندي، قسوة العيش وحاشية أكثر ملاءمة لعاداته. ضاعف من جولاته حتى في الثُكنات الأكثر بعداً في المملكة. حرص أكثر فأكثر على أن أرافقه، ولم يكفّ عن مدح الجيش أمامي ليحثّني على أن أمتهن العمل في صفوفه. من جهة أخرى فكّر أن يضمّني إلى المدرسة الخاصّة بأبناء الضباط وأبلغني بأنني لن أخرج منها إلاّ بعد نيل شهادة البكالوريا، قائلاً:

- بعد ذلك، لك الحرية في أن تختار المهنة العسكرية أو المدنية.

للمرّة الأولى، اتّخذ والدي ضابطاً مرافقاً بشكلٍ دائم، وهو نقيبٌ من الدرك يُدعى التيباري. عشنا نتيجة لذلك في بروتوكولٍ ملزمٍ كدّر علينا عاداتنا التشاركية. تمّ تعزيز الإجراءات الأمنية من حولنا. ووصل الأمر بالنقيب إلى حد مرافقتي مسلّحاً في تنقّلاتي. ولكن الأكثر استهجاناً هو أنّني وجدتُ نفسي مُرافَقاً بمربٍّ هو ملازم أوّل شاب من BLS. وقد مهّد والدي الطريق قبل أن يقدّمه إليّ. خمّن أنّ تعيين مربٍّ رسمي سيبدو مضحكاً لي إلى حدٍّ فاحش، لكوني لستُ لا أميراً ولا وريثاً لأيّ شيء كان. قدّم لي أوفقير الملازم أوّل أحمد رامي، وروى لي كيفية الالتقاء به:

- إنّه الضابط الشاب الذي استقبلني على دبابته. كان يقود كتيبة المدرّعات التي صادفتها لدى خروجي من الصخيرات. أودّ أن تتّخذه صديقاً لك، إنّه صبيٌّ نزيه ومثقّف. . . لديه الكثير من الأمور ليعلّمك إياها. . . سيكون من الآن فصاعداً أستاذك للغة العربية الكلاسيكية.

كانت لرامي، وهو رجلٌ قصير ورقيق، أفكارٌ ثورية. كان متعصّباً للعروبة ومغرماً بجمال عبد الناصر، ويقرأ كثيراً، ولطيفاً جدّاً ومتواضعاً. تعلّمنا أن نعرف بعضنا، بل وأصبحنا صديقين. تركني بطيبة خاطر أقود سيارته. هزأنا ببعضنا وقمنا بنزهاتٍ معاً وتناقشنا كثيراً. تعوّدتُ أن أقدّره. غالباً ما تجادلنا في الوضع السياسي. لم يخفِ الملازم أوّل آراءه قط: روى لي بالتفصيل لقاءه بوالدي، وكيف فكّر لأوّل وهلة أن يقتله.

- كنتُ قد كوّنت لنفسي فكرة عن الجنرال بحيث فكّرت أوّلاً في قتله حينما كان على متن عربتي. ثمّ قوّت شجاعته ورباطة جأشه احترامي له. خلال الأيام التي أعقبت الانقلاب العسكري، راقبته واستمعتُ إليه وذُهِلتُ بتعليقاته الخالية من المجاملة حول وضع البلاد وتفسّخ الدولة. وشاهدتُ كيف كافح ليُعامل الانقلابيون معاملة حسنة. كيف أنّه صُدِم وتأثّر لإعدام رفاقه بلا محاكمة. وتحقّقت كم أرهقته الإشاعات التي تقول عكس ذلك. . . وقد استخلصتُ من ذلك بإنصاف أنّه إذا كان تزييف الأمور التي شاهدتها شخصياً ممكناً، فإنّ كل ما كان يُقال عن الجنرال كان ينبغي تقبّله بحذرٍ وتبصّر. الكثير من الاتّهامات لم تكن قد أُثبتت يوماً بدقّة.

ثم أفلت أمامي هذه الجملة الغامضة:

- الأمر الجوهري بالنسبة لنا نحن الضبّاط الشباب هو أن يبقى نزيهاً. ألاّ يغتني ويتقاسم التمرّد مع أولئك الذين يتصادمون مع وضعٍ مافيوي! صدّقني لا أقول لك هذا لأرضيك، ولكنّ الجنرال هو الشخص الوحيد الذي لا يزال بإمكانه إنقاذ هذا البلد. . .

كلمات رامي هذه أقلقتني أكثر من أن تلاطفني. ومع أنني كنتُ على

فكرةٍ إيجابية عن الملازم الأوّل إلى ذلك الحين، فإنّ الاحترام الذي أكنّه لوالدي لا يتعلّق بالمدح الذي أبداه أمامي، وإنّما بالرأي الشخصي الذي كوّنته عنه، مثبتاً بالأدلّة. استمرّ تفاهمي مع ذلك الضابط الشاب إلى حين أدركتُ أنه لا يمكننا التفاهم على العديد من النقاط. فقد قال لي: «كان على هتلر أن ينجِز عمله إلى النهاية.» منذ ذلك الحين نظرتُ إليه نظرةً أخرى، مدركاً مع أيّ نوعٍ من الأشخاص أقيم علاقةً. تباهى رامي بمسؤولياته لدى أوفقير، مانحاً نفسه صفة مرافق الجنرال. أخبرتُ والدي بذلك وسألته بسذاجة إن كانت النشاطات التي يدّعيها معلّمي صحيحة. أجابني:

- دعه يحلم، هذا لا يُسيء لأحدٍ بشيء. ما دام يؤدّي ما هو مُعيّنٌ من أجله على أكمل وجه...

وهذا لم يمنع أحمد رامي حتى يومنا هذا من أن يدّعي مسؤولية كبيرة في انقلاب 16 آب (أغسطس) 1972 وأن يقدّم نفسه على أنّه المرافق السابق لأوفقير.

منذ تمرّد الصخيرات، أصبح والدي أكثر تصلّباً بشأن نزاهة حاشيته. بات يسخط على كلّ بذخٍ فاحش ولم يعد يخفي رفضه للنظام. نالت كلّ ملاحظة من ملاحظاته بقسوة من مجتمع السلطة ولم يفوّت فرصةً ليثور على الفساد وتجاوز القانون والثراء الفاحش للطبقة الحاكمة.

ذات يوم، وبينما كان جالساً يشرب الشاي مع بعض الوزراء، فاجأ والدي الجميع بردّ فعلٍ فاجأني أيضاً. ردّ على أولئك السادة الذين طلبوا سكّراً:

- ولكن أين تظنّون أنفسكم؟ إذاً لم تفهموا أيّ شيء! هذه البلاد مريضة على نحوٍ خطير، وهي على حافة الانفجار، وكلّ ما تفكّرون القيام به هو الاستمرار في تصرفاتكم البذيئة والمستفِزّة! اذهبوا وقوموا بجولةٍ في المغرب الحقيقي! ليس مغرب المدن الامبريالية التي ترافقون الملك إليها،

دون أن تخرجوا من قصوركم وفنادقكم، وإنّما مغرب الأرياف!... الناس جائعون ويفتقرون إلى كلّ شيء وأنتم تسمّنون أنفسكم بالحرص على وضع السكّرين في شايكم!

لم ينبس الحاضرون ببنت شفة، ولكنّ أقلّ ما فكّروا فيه هو أن أوفقير قد جنّ حتى يجاهر صراحةً بازدرائه ويتحدّى بطريقةٍ خطيرة الملك. في المساء ذاته، تحدّث إليه الجنرال إدريس منفرداً ومطوّلاً. وأنا أخدمهما، سمعتُ صديقه يقول له:

- أوفقير، ماذا جرى لك؟ لقد فقدت رشدك! كلّ الذين تكلّمت معهم ينقلون كلامك إلى الملك. ما تفعله هو انتحارٌ حقيقي! إن أكملت هكذا فستموت لا محالة!

ردّ والدي:

- ربّما، ولكن قبل ذلك سأفعل ما كان ينبغي أن أفعله.

في إشارة تلو الإشارة، لم أعد أستطيع تجاهل أخطار تلك السنة المشؤومة. ورغم تنبيهات أصدقائه، تشبّث الوزير بموقفه.

من جهةٍ أخرى، أُثيرت الكثير من الإشكالات بين الملك وحاشيته وصار أوفقير عنيداً أكثر من أيّ وقتٍ مضى. حتى نحن لم نسلم من هجومه. وللمرّة الأولى عاتب أمّي على المصاريف غير الضرورية. بالمقابل، كان فخوراً برؤيتي أقدّم له أصدقائي في فريق كرة القدم المنحدرين جميعهم من الأوساط الفقيرة، الذين استقبلهم بحضور وزراء وأولاهم اهتماماً خاصّاً. وقد أراد ذات مرة أن يرسل ابن بستانيٍّ في رحلة علاجٍ عاجلة على متن إحدى طائرات ميستير 20 الملكية. وحينما أُجيب عليه بأنّ الطائرة محجوزة مسبقاً لتقلّ عشرين محظيّة من محظيات الملك إلى مركزٍ للتنحيف في إيطاليا، صرخ عبر الهاتف:

- لا أبالي بذلك! إن حياة طفلٍ في الثامنة من عمره في خطر! هذا أمر! أمّا القصر، فأنا سأهتمّ بأمره!

من جهته، تحمّل الحسن الثاني ما اعتبرها تجاوزات على سلطته. استمرّ في مداهنة أوفقير على مضض... مع اعتقاده بتعذّر إعادة «خادمه الوفيّ» إلى بيت طاعته.

بعد سنواتٍ من الخدمات المشروعة، تخلّى والدي عن بوشعيب، السائق الوفي والمرافق المضحّي، حينما علم بأنّه قد اشترى سيارة مرسيدس مستعملة ومخبزاً. وفي حين لم يكن هناك ما يدعو لافتراض أدنى سوء سلوكٍ، استدعاه فوراً وقال له:

- بوشعيب، لقد علمتُ بأنّك تقوم بممارسة أعمال، ولكن عليك أن تختار. لا يمكنك أن تتبرجز وتعمل في الوقت ذاته بخدمتي. قد يكون من المشروع أن تؤمّن مستقبل أولادك، ولكنني آسف، عليك أن ترحل. يبقى بيتي مفتوحاً لك ولن يتغيّر امتناني لك، ولكن عليك أن تدرك أنّ سياق الأحداث السابقة والقادمة لا يترك لي خياراً آخر غير الافتراق عنك...

حاول بوشعيب، وقد استبدّ به الحزن العميق، أن يُقنِع والدي:

- سيّدي الجنرال، لم أكن أقصد الأذيّة... هذه ليست مشكلة، أنا على استعدادٍ لأن أتخلّص من سيارتي ومخبزي إن كان من شأن ذلك أن يغيّر رأيك. ولكن في الأيام القادمة ستحتاج أكثر من أيّ وقتٍ مضى إلى أناسٍ مثلي؛ أنت تعلم بأنني على استعدادٍ لأن أضحّي بحياتي في سبيلك.

لم يفلح مسعى بوشعيب، ورغم تأثّره، ختم أوفقير:

- أعرف، أعرف يا بوشعيب، لا أشكّ في ذلك البتة. ولكن، كما قلتَ، لقد بات الزمن رديئاً... وربّما يكون هذا أفضل لك... بل بالتأكيد أفضل لك. اعتنِ جيّداً بنفسك وبعائلتك. يمكنك الاعتماد على محبّتي وصداقتي.

حتى آندريه غيلفي دفع ثمن هذه الصرامة، مع أنّه أحد أخلص أصدقاء أوفقير وهو الذي يعرفه منذ أن كان مرافقاً لمحمد الخامس. وقد وِلد في المغرب، ركوّن ثروةً في أغادير قبل أن يخسر كلّ شيء حينما

دُمِّرت المدينة بشكلٍ مأساويٍّ جراء زلزالٍ ضربها عام 1960. أقام في موريتانيا وأعاد تكوين ثروته من خلال الصيد، إذ كان أوّل مَن طرح فكرة تجميد السمك على متن السفن نفسها. ومن هنا جاء لقبه «ديدي سردين». بعد استقلال موريتانيا الذي جعله يخسر مرّة أخرى كلّ شيء، انطلق ديدي، المكافح الحقيقي، من الصفر وأصبح من جديد مليارديراً في السبعينات. وكوسيطٍ دوليٍ كبير، قبض عمولات ضخمة جداً. وإذا كان والدي وغيلفي قد حافظا دائماً على علاقة لا يشوبها الغموض - لم يجازف آندريه قط بطلب أيّة خدمة منه والعكس بالعكس-، فإنّ ديدي ارتكب في بداية 1972 هفوةً: فقد نقض هذا الشرط المضمَر بمحاولته الحصول على دعمه للظفر بصفقة طائرات نقل عسكرية. عندما قال غيلفي، بلهجة ممازحة، إنّ متعهّداً كندياً قدّم عمولة مقدارها ستّة ملايين فرنك فرنسي، أبدى والدي ردّ فعلٍ قاسياً جدّاً. الأمر الذي دعا آندريه غيلفي للقول:

أتحدّى أيّاً كان أن يثبت لي أنّه قد استطاع أن ينجز عملاً واحداً مع أوفقير! كان من المستحيل حتى مجرد عرض المسائل المالية معه... كان يسخر بشغف من المال!

ظهر من حول والدي على نحوٍ متزايد ضباطٌ شباب يجهلون عالم القصر. الأمر الذي أثار الهمس حتى في غرفة انتظار الملك: «لقد تغيّر أوفقير على نحوٍ خطير. لم يعد يحيط نفسه إلاّ بالضباط التقدميين... يجب إيقافه قبل أن يحصل للحسن الثاني ما حلّ بالملك فاروق، ملك مصر!»

لم يعد أوفقير يتوانى عن التعبير عن نفوره أمام مساعديه في وزارة الدفاع وهيئة الأركان. شبّه الشرطة ببركةٍ عكِرة، «شرٌّ لا بدّ منه»، وشبّه الجيش بسيلٍ نقيٍّ منذورٍ لتنقية قاذورات حكم استبدادي لا حدّ له. وإذا كان يتحمّل مسؤولية الخيار الذي تبنّاه بعد الاستقلال لتغليب الملكية على

الاشتراكية الثورية، فلم يقلّل ذلك من مرارته. فقد قال أمامي لمجموعة من الضباط الجالسين إلى مائدة الغداء:

- لسوء حظّ المغرب، لم تفد كلّ المخاطر التي تعرّض لها الجيش والتضحيات التي قدّمها سوى في حماية اللصوص والمرابين... اليوم تحكم الوقائع لأولئك الذين حاربناهم. نحن من كنّا سذّجاً وبسطاءَ.

لو أنني استطعتُ حينذاك أن أدرك كلّ مغزى هذه الجملة الأخيرة، ربما لنجحتُ في توقّع الأحداث المقبلة. مع ذلك كانت تلك الأحكام القاسية والمتكررة، الجماعية كما الفردية، تكفي لتجعلني أشعر بالخطر المتزايد والوشيك.

ذات يوم، فاقم اكتشاف رسالة على مكتب والدي من حيرتي. فبينما كان يستحمّ، وأنا أرتّب أشياءه، ألقيتُ نظرةً خاطفة على رسالةٍ غير مكتملة. وتعرّفت على خطّه. باشر أوفقير بكتابة رسالة، لم يُنهِها، إلى الجنرال بيير جورج بوييه دو لاتور، المسمّى «موحا أو لاتور» في إشارة إلى معرفته باللغة البربرية وحبّه للثقافة الأمازيغية. كان هذا الرجل، الذي تزوّج بامرأة بربرية من الأطلس الأوسط أنجبت له ولداً، ثمّ من فرنسية رُزِق منها ستّ بنات وصبيّاً، وأخيراً من امرأة ثالثةٍ عاشت معه في باريس، الرئيس السابق لأوفقير. كان بمثابة عرّابٍ ومرشدٍ له. وسط الحزن الذي أغرقه فيه إعدام رفاقه، أحسّ والدي بالحاجة إلى أن يكشف عن خفايا قلبه للرجل الذي درّبه، والذي يحترمه ويقدّره إلى أرفع درجة. تغلّب الفضول على الحشمة، فأمعنتُ النظر في تلك الورقة التي خطّ والدي ثلثها. والخوف من أن أُباغَت في حالة تلبّس بالتطفّل جعلني أسجّل رقماً قياسياً في السرعة. الأسطر التي قرأتها بسرعة جعلتني أكتشف رجلاً غارقاً في معضلةٍ عميقةٍ يستنجد بمعلّمه ومربّيه ليساعده على حلّها. قدّم والدي في تلك الرسالة تقييماً للوضع في المغرب ولعلاقته مع الحسن الثاني، ولخيبة أمله واستيائه منذ حادثة الصخيرات. لم يعد يدري إن كان عليه التمسّك بالمبادئ التي رسّخها لديه رجال مثل بوييه دو لاتور:

«الواجب والاستقامة». لقد تحيّر بين البقاء وفياً للقسم الذي قطعه لمحمد الخامس على الدفاع عن العرش وتوطيده الدائم، وواجب التغيير اللذين يوحيان له بانهيار الدولة في الحالة الأولى وفقدان ثقة الملك في الثانية. كتب إلى بوييه دو لاتور: «البلاد على حافة الكارثة. ولم نعد نتأمّل من الملك القيام بالتغيير. الفساد يتآكل الدولة، وقد وصل إلى كلّ مكان حتى داخل القصر! والملك يرتضي بهذا الانحلال الذي ينهش في المغرب. يعتقد بأنّه في مصلحته، وأنّه الوسيلة الوحيدة لضبط بطانته. وتجازف الاستبدادية المطلقة للملك في كلّ لحظة بتشجيع انقلابٍ عسكريٍّ يقوم به ضبّاطٌ شباب ثوريون». ثمّ أضاف جملةً رهيبة: «إن تحويلي إلى جلاّدٍ لإخوتي في السلاح أمرٌ أكثر من أن أحتمله!»

بعد ذلك ببضعة أيام، تلقّى أوفقير بريداً. سلّم أحد رجاله، وقد سافر إلى باريس، الرسالة إلى بوييه دو لاتور وعاد برسالةٍ جوابية. فتح والدي، جالساً على طرف سريره، الظرف وأخرج منه بطاقةً بريدية. وبعد أن قرأها بسرعة، همّ بإعادة قراءتها. انحنيتُ من فوق كتفه، وتركني، بفضول، أكتشف الكلمة القصيرة لـ«موحا أو لاتور»: «محمد لقد قرأت رسالتك. إلى حين أن نتحدّث حديثاً مسهباً، لا تنسَ ما علّمتك إياه: الخدمة بإخلاص. سآتي لرؤيتك في المغرب، أريد أن أودّعك قبل أن أموت.»

بعد أقلّ من أسبوع، جاء الجنرال بوييه لتناول العشاء في بيتنا. استقبله والدي بالتأثّر والحفاوة التي تليق به. قام الجنرال المقْعد في كرسيٍّ متحرّك، ورغم تقدّمه في السنّ، بالانتقال من باريس. نقل والدي بنفسه كرسيّه المتحرّك لعبور درجات المدخل. لم أرَه قط يتصرّف بهذه الطريقة، وكان تلميذاً أمام أستاذه. حضرتُ عشاءً مؤنساً ومؤثّراً. يا لها من ذكرياتٍ مجيدة ذُكِرت خلاله! رافق بوييه دو لاتور العقيد الذي كان مدرّب والدي حينما كان لا يزال في الأكاديمية العسكرية. ألقيت على «القديمَين» وابلاً من الأسئلة لكي أعرف كلّ شيء عن والدي الشابّ

وسنواته السبع عشرة تحت الرايات الفرنسية. بعد العشاء، انزوى الجنرال بوييه دو لاتور وأوفقير وتناقشا مطوّلاً. وإذ بقيتُ أترقّب حديثاً محتملاً قد يجلب ماءً إلى طاحونتي، قنِعتُ بكلمات الوداع التي تبادلها الرجلان، وعيونهما مغرورقة بالدموع. قال والدي لعرّابه، وهو يساعده في ركوب السيارة:

- آه، يا سيّدي الجنرال، كم كان مهماً لي لقاؤك... شكراً... شكراً لقدومك، ولإصغائك إليّ... والآن، توكّلنا على الله.

قبّل «موحا أو لاتور» تلميذه لآخر مرّة، وقال له، ويده على كتفه، بصوتٍ كصوت مارلون براندو في فيلم «العرّاب»:

- لقد فهمت الأمور على نحو أفضل. كان لا بدّ من أن نلتقي. لقد أوضح هذا الكثير من الأمور. أبارك لك خطوك يا أوفقير. الأولوية لواجبك تجاه المغرب. وداعاً يا أوفقير، وحماك الله.

لم يكن من الصعب عليّ أن أدرك، غداة 16 آب (أغسطس)، أنّ والدي كان قد أراد أن يريح ضميره قبل الانتقال إلى مرحلة التنفيذ. لقد استشار مَنْ كان بوسعهم تحريره من القسَم المقطوع لمحمد الخامس. في الواقع، كان رفع الوساوس الأخيرة لأوفقير تدين على نحو كبير لبوييه دو لاتور ولبعض أفراد العائلة المالكة. وكان من الواضح للجميع أنّ المقصود لم يكن تقويض العرش، وإنما الأحرى حمايته من نفسه!

وباتت تهكّمات أوفقير وانتقاداته موضوع كلّ التعليقات والقلاقل وسط حاشية الملك. وتنصّت الحسن الثاني، الذي لطالما اعتمد على مهرّجيه للتعرّف على حالة الشارع، أكثر من أيّ وقت مضى على ما يُقال عن وزيره. وقد نُقِل إليه أنّه يُحكى عن أوفقير في المقاهي الشعبية بطريقة مختلفة عمّا سبق؛ ويُعتَرَف بنزاهته: «إنّه أقلّ الوزراء كلفةً علينا»، «كان قاسياً مع المعارضة ولكنّه ليس لصّاً»، «الآن وقد استلم الجيش، سيُعيد إليه هيبته ويمنحه المكانة التي يستحقّ»، «سيمكنه القيام بترتيب البيت وتنظيفه». والكثير من الأحاديث التي أقلقت العاهل.

عِلم بذلك وتهيّأ لكلِّ احتمال. زيدَ عددُ المستشارين التقنيين الذين نظّموا جهاز SSS. وعُزِّزت «أجهزة الاستخبارات الخاصّة لجلالته» بوصول مختصّين أجانب جدد، وكان رئيسهم يُدعى «الكولونيل مارتان» ومعاونه «الميجور ويلسون». وإذا كان الأمريكيون قد أسهموا في جهاز SSS، فإنّ الفرنسيين كانوا أيضاً في عدادهم: فقد وصل إلى المغرب ريمون ساسيا، مفوّضٌ في الشرطة الفرنسية كان، في الماضي، في عداد مرافقي الجنرال ديغول، وهو الفرنسيّ الوحيد الذي حصل على ميدالية الرماية لـ FBI - لاسيما وأنّه مؤسس طريقة الرمي الفطري، التي تُعلّم اليوم في كلّ أجهزة الأمن في العالم-. لدى استلامه لوظيفته، قدّم لوالدي ميداليته الأمريكية الشهيرة، وأهدى لي بعباراتٍ لطيفة المجلّدين المصوّرين لكتابه عن مختلف تقنيات الرماية السريعة. وصل الحارس المرافق السابق للجنرال مع فريقٍ من الكورسيكيين والبلجيكيين. وضع الملك تحت تصرّفهم ڤيلا وخدَم وسيارات. كانت رواتبهم باهظة، ولكنّها لا تساوي شيئاً مقارنة بالهدايا التي تلقّوها بوفرة. رسمياً، كان يفترض بساسيا أن يُعيد إصلاح جهاز الأمن الملكي، الذي كان قد أخفق خلال هجوم الصخيرات. ولأنّه كان مكوّناً إلى ذلك الحين بشكلٍ أساسيٍّ من البربر، ولأنّ الحسن الثاني بات يكنّ منذ التمرّد ضغينةً دفينةً للأمازيغيين[1]، سيُختار المنتسبون الجدد على أساس مراعاة مختلف الأصول.

في فورة غضبه، قام الملك بخلطٍ جائر. فإذا كان معظم الانقلابيين من البربر، فذلك لأنّ الجيش المغربي، منذ عهد الحماية الفرنسية مع طريقة التجنيد فيه التي استمرّت حتى السبعينات، كان بغالبيته الساحقة بربرياً. لم يكن لانقلاب 10 تموز (يوليو) أيّ اتّجاه سياسي ولا أيّة دلالة إثنية! ومع ذلك لم يكفّ الملك شخصياً عن التعبير عن حقده، وبدل أن

(1) الأمازيغ هي التسمية الصحيحة للبربر، والتي تعني: «الرجال الأحرار.» وحرصاً على راحة القارئ، اخترتُ في هذا الكتاب استخدام العبارة الأكثر شيوعاً.

يقول: «ولكن ماذا يريد هذا الجيش منّي؟»، صرخ الحسن الثاني: «ولكن ماذا يريد هؤلاء البربر منّي؟» وسوف يذهب الملك أبعد من ذلك في عقابه بحظر استخدام اللغة البربرية وسط حاشيته وداخل أسوار القصر. وبذلك منع زوجته ومحظياته من التكلّم بلغتهنّ الأم. بل وصل به الأمر، بتأثيرٍ من الجنرال مولاي حفيظ، إلى التفكير في اغتيال الزعيم البربري محجوبي أحرضان. وكان يُفتَرض أن تهاجم وحدة كوماندوس منزله، الجناية التي كانت ستُنسَب إلى المتمرّدين الذين لا يزالون يختبئون تقريباً في كلّ مكانٍ من العاصمة بعد حادثة الصخيرات. وإذ أُعلِم بذلك من قِبل والدي الذي كان أحد أقدم أصدقائه، ذهب أحرضان، المعروف بالتعبير عن رأيه بصراحة، لمقابلة الملك وتحدّث إليه بوضوح:

- سيّدي، لقد أسّس البربر الملكية، ودافعوا عنها على الدوام، وضحّوا بحياتهم في سبيل حمايتها من أعدائها. وكلّ ما كان يطمحون إليه من ذلك هو منع مَنْ يستغلّونها للإساءة إلى العرش من خلال أعمالهم الشائنة...

في أيلول (سبتمبر) 1971، قام والدي برحلة إلى طنجة لثمانٍ وأربعين ساعة واصطحبني معه فيها.

خلال تلك الزيارة، تعرّفتُ على المقدّم أمقران الذي رافقنا وهو ريفيٌّ من شيشاون يبلغ السادسة والثلاثين من عمره، أكمل دراسته في الأكاديمية العسكرية في طليطلة، ثمّ تدريبه كطيار مطارد في الولايات المتّحدة التي قام فيها بتدريباتٍ على حاملة الطائرات يو اس نيڤي. زوجته ألمانية، وهو يتكلّم البربرية والعربية والفرنسية والانكليزية ولغة غوته[*]. كان أمقران مساعد رئيس هيئة الأركان للقوات المسلّحة الجوية، ويقود القاعدة الجوية في القنيطرة. كان هذا الرجل النزيه بشكلٍ مثالي يتمتّع بسمعةٍ ممتازةٍ بين أقرانه.

(*) المقصود الألمانية- المترجم

قدّمني والدي إلى الكولونيل بهذه العبارات:

- ها هو رؤوف، ابني. يحلم بأن يصبح طياراً مطارداً. أتمنّى يا أمقران أنّك ستُحسن إقناعه بأنّه من دون بذل جهدٍ في الرياضيات، سيبقى ذلك أمنية صعبة التحقق...

وبينما انهمك والدي في الحديث مع ضيفه عبد السلام جسّوس- صديقه وصِلَة الوصل الرئيسية مع علال الفاسي وحزب الاستقلال، تماماً كما كان عبد القادر بن بركة محسوباً على أوفقير وواحداً من صلات وصله مع UNFP وعبد الرحيم بوعبيد-، تحدّثنا، المقدّم وأنا، بشغف عن مهنته كطيار. حتى أنّه قدّم لي ساعته الخاصّة بالطيران. وسوف ألتقيه بعد ذلك مراراً أثناء تردّده إلى بيتنا، وطبعاً لم أكن أتوقّع أنّه هو من سيكون مكلّفاً بتنفيذ انقلابٍ عسكريٍّ ثان!

لدى العودة إلى الرباط، تبيّن لي يوماً أنّ ملزمةً خفيةً تضغط على والدي. لم يمنع الوضع المتفجّر بينه وبين الحسن الثاني الهذيان الأمني. لم يخشَ والدي قط على حياته ولكنّه انشغل بأمننا. وبذلك وجدتُ نفسي أُمنَع بلا سببٍ كافٍ من الخروج في عطلة نهاية الأسبوع بدراجتي. ورغم الجهود التي بذلتها لإقناعه، أصرّ على رفض طلبي. فانفجرتُ، كما يمكن لمراهقٍ محروم من مُتَع سنّه أن يفعل، وصببتُ بعنف جام غضبي. سألته بلهجة حادّة لماذا لا يحقّ لي أن أعيش حياةً طبيعيةً؟ لماذا لا أستطيع أن أفعل ما يفعله زملائي؟ بعد أن كان هادئ الأعصاب في البداية، أصبح والدي حزيناً، وبدا مرهقاً مما قلته. نهض بهدوء من سريره، وتوجّه نحو مكتبه، وأخرج منه ظرفاً وأجلسني إلى جانبه:

- منذ بضعة أشهر، قرّبتُك منّي. لأنني كنتُ أعتبر أنّ ذلك كان ضروريّاً لتدرك بعض الحقائق. وإذا كنتُ قد تركتُك تسمع وترى الأمور إلى جانبي، فلهذا الغرض. لقد تردّدت مطوّلاً في أن أكون المسؤول عن نضجك المبكر. كنت أخشى أن تلومني ذات يوم على أنني سرقت طفولتك. ولكن إذا كنتُ قد فعلتُ ذلك، فلأنّ الأحداث أرغمتني عليه،

ولأنني تحققت من أنّني، في كلّ الأحوال، لم أستطع أن أحميكم من نتائج حياتي. وما دام الأمر كذلك، فسأكون صريحاً معك. لن أموت في سريري، ولا أتمنّى ذلك، والعياذ بالله! الدعاء الوحيد الذي أتضرّع به إلى السماء، هو أن أموت كجندي وبالرصاص.

وبينما صُدمتُ بذلك الشؤم، وضع والدي يده على كتفي وجعلني أسكتُ بنظرةٍ منه:

- اسمع جيّداً ما سأقوله لك. لقد غيّرت الصخيرات كلّ شيء، وستغيّر كلّ شيء. . . والمستقبل لا يحمل لنا سوى أمور خطيرة. أحتاج إلى إدراكك؛ إذا كنتُ أحرمك من الخروج، فليس رغبةً منّي، وإنّما خوفاً عليك. أنا لا أهاب الموت، أخشى ما أخشاه هو خزي الجبناء. ولكن إن مُسّت شعرةٌ من أحدكم، فسأُقتَل ألف مرّة!

مدّني والدي على ذلك بالظرف الصغير الأبيض الذي اكتشفتُ فيه كلمة صغيرة مكوّنة من رسائل مقتطعة من صحيفة:

- أيّها القذر! لقد قتلتَ إخوتك، وسننتقم منك بابنك!

استسلمت وتحمّلتُ المصائب بصبر، دون أن أغفل في الوقت ذاته أن أستغلّ الوضع بخزي، وأعترف بذلك، قلتُ لوالدي في ختام حديثنا:

- أفضّل أن تشرح لي كما فعلت، بدلاً من رفضٍ بلا سبب. الآن فهمت. ولكن ما دمتُ مهدّداً، فلي الحقّ في أن أتعلّم الدفاع عن نفسي.

وحصلتُ أخيراً على الإذن بالذهاب لتلقّي دروسٍ في الرماية في مركز دلتا، الحقل التدريبي للأمن الخاصّ بالملك. مع تقييدٍ أبويٍّ وحيد: ينبغي أن يحيط بي مولاي علي والعربي، وألاّ نذهب إلى المركز إلاّ حينما يكون خالياً.

في نهاية كانون الأوّل (ديسمبر)، رافقتُ أبي إلى المستشفى العسكري في الرباط لزيارة المقدّم أمقران الذي كان يخضع فيه لغسيل الكلى. كان الكولونيل يعاني من مرضٍ خطيرٍ في الكلية. قال له أوفقير:

- سأرسلك إلى فرنسا لتتلقّى العلاج. ستقلّك طائرة ميستير 20 إلى باريس. استرد صحّتك وتعال لمقابلتي، فور عودتك.

انقضى عام 1971. ونُسيتْ مأساة الصخيرات وسط مجتمع السلطة. وتمّ التحضير لاحتفالات رأس السنة ببذخ وبلا حياء. تمارض والدي لئلاّ يحضر سهرة سان-سيلفستر التقليدية التي يقيمها الملك. لم يجد والدي، المكتئب أكثر من أيّ وقتٍ مضى، ما يكفي من الكلمات القاسية ليعبّر عن اشمئزازه. وقد بدا في حياته الخاصّة أكثر حزناً وكآبةً. وإذ عثرتُ عرَضاً فوق طاولة مكتبه على محفظةٍ مقشّرة، سألته عن مصدرها.

- هذه محفظة حصلتُ عليها في الهند الصينية، هدية من الكابتن دي ڤاتير.

لقد خدما معاً في جنوب شرق آسيا. كان ڤاتير، خادع الموت، الكريم، المحارب بالمعنى الأكثر نبلاً للكلمة، من أولئك الرجال الذين يعيشون فقط بشجاعة وشرف ولا يموتون إلاّ باندفاعٍ ومرح. لقد تلقّى أوفقير دروسه مع هذا الجيل من الضباط وصاغ تكوينه كجنديّ. حينما وقع ڤاتير في كمين في الهند الصينية، بكى أوفقير كطفل، تائهاً طوال أيامٍ وسط خطوط العدو، مع اثنين من أخلص قنّاصيه، لاسترداد جثّة رئيسه وصديقه.

ورغبة منّي لمعرفة المزيد عنه، استسمحته بإلقاء نظرة على الجُيبب المصنوع من الجلد القديم. حينما فتحته، قرأتُ شعاراً محفوراً في شارةِ وسامٍ من النحاس: «مجد القتال، شرف الخدمة»، ووجدتُ صور الجنرال بوغرين والجنرال حبيبي والعقيد الشلواطي. سألته لماذا يحتفظ بها. أجابني:

- تخفّف عنّي وحدتي. . .

وإشارة تلو الإشارة، أصبحت أقول في نفسي إنّ قنبلة الصخيرات لم ينتهِ انفجارها بعد.

بعد الاحتفالات، رافقتُ الأمير مولاي عبد الله إلى قصر دار السلام في الرباط. أراد شقيق الملك أن يلقي التحيّة على جلالته قبل مغادرة الرباط إلى المحمدية المجاورة للعاصمة على بعد عشرات الكيلومترات. صادفت الزيارة وقت الغداء الملكي. في الحديقة البهيّة، على حافة بركةٍ مظلّلة، تحت خيمة بيضاء عالية، كان الملك يحتسي القهوة. وكان يستضيف رضا أكديرة وإدريس السلاوي، أحد مهرّجيه المفضّلين، والفقيه القندوسي، ومولاي حفيظ الذي لا مفرّ منه. حيّينا الأمير وأنا جلالته والحضور. أردنا أن نغادر في الحال ولكنّ الملك استوقفنا. تبادل الحسن الثاني، رائق المزاج، الطُرَف مع أصدقائه ومعاونيه. بقيتُ واقفاً على بعد مترين من المقعد الذي كان يشغله. انضمّ مولاي عبد الله إلى الحديث. في لحظةٍ، التفت الملك نحوي، ووبّخني على طول شعري، وسألني عن دراستي ثمّ خاطبني:

- لا تغادر قبل أن ترى والدك، لن يتأخّر في الوصول، لقد طلبتُ إليه أن ينضمّ إليّ.

في اللحظة نفسها، ظهر أوفقير في آخر الممرّ. في التراث المغربي، حينما نذكر شخصاً ويحضر فجأةً، هذا يدلّ على أنّ حياة ذلك الشخص ستكون طويلة. حينما اقترب والدي، خاطبه الملك:

- عمرك طويلٌ يا أوفقير! كنتُ للتوّ أذكرك!

- إذا راق ذلك لجلالتكم. ردّ الوزير، بجوابٍ يضمر من المكر أكثر منه الاحترام.

عكس الملك، حاضر البديهة، الكرة لصالحه:

- لم يراودني الشكّ قط في أنّك مستعدٌّ للموت من أجلي، يا أوفقير!

استمر الحديث بالنبرة نفسها، بين الفكاهة واللذْع. روى المهرّج نكتةً. قهقه الجميع. طلب الملك من ظريفه أن يروي آخر نكتة شعبية تُقال عن أوفقير. صرخ المهرّج بأعلى صوته أنّه يقبل بأن يقاسي أشدّ

غضبٍ لجلالته بدل أن يجازف بإغاظة الجنرال. ضحك الملك بطيبة خاطر، وقد أحبّ أن يُظهِر لوالدي الخوف الذي يوحي به هذا الأخير، على النقيض من الحب الجليل الذي يثيره جلالته. قرّر الحسن الثاني أن يروي بنفسه النُكتة لوزير دفاعه:

- ألا تعرف النكتة الأخيرة، يا أوفقير؟ يُروى أنّه بعد اكتشاف مومياء في المملكة، دعوت، أنا عاهل المغرب، أفضل اختصاصيّي العالم ليخبروني من أين أتت هذه المومياء. وفي نهاية ستّة أشهر من الأبحاث المتواصلة، أعلن لي الاختصاصيّون: «للأسف يا صاحب الجلالة، ولكننا لم ننجح في تحديد أصل أو مصدر هذه المومياء...» فأجبتهم: «أعطوها لأوفقير، وستخبره من أين جاءت!»

انفجر الحاضرون ضحكاً حينما استطرد والدي:

- ولكن يا سيّدي، هذه ليست آخر نُكتة دارجة، إنّها النكتة قبل الأخيرة التي نُقِلَت إليك... إذا سمحت جلالتكم لي...

- طبعاً، طبعاً، يا أوفقير، شريطة أن تكون أجمل من نُكتتي! أجاب الملك ضاحكاً.

- ها هي يا سيّدي، تروي النُكتة أنّه بعد حياةٍ مديدة وهانئة، وعندما قضى الله ذلك، وجدت جلالتكم - أطال الله عمركم- نفسها في السماء في نوعٍ من المطْهَر مخصّصٍ لزعماء الدول. هناك، صادفتم الكثير من نظرائكم العرب والأفارقة. جاء ملاكٌ. أخطر جميع الملوك والرؤساء بأن يتبعوه. لدى الوصول إلى ضفّة نهرٍ كبيرٍ من البراز، أمرهم بعبوره في رتلٍ وأعلمهم بأنّهم ما إن يصلوا إلى الحافة الأخرى، سيشهد رئيس الملائكة جبريل درجة تلوّث كلّ واحدٍ قبل أن يوجّهه إلى جهنّم أو الجنّة. نفّذت الشخصيات الشهيرة الأمر. بعد عبور النهر، كان رؤساء الدول جميعهم مطليين بالغائط من قمّة الرأس حتى أخمص القدمين، وحدك يا صاحب الجلالة لم تكن ملطّخاً إلاّ حتى ركبتيك. فسألك زملاؤك مذهولين: «ولكن ماذا فعلت حتى لا تتلوّث بالغائط إلاّ حتى ركبتيك؟» فخاطبتهم

جلالتك: «كنتُ على كتفيّ أوفقير!»

خيّم الصمت على الحضور. انتظر الجميع أن يضحك الملك قبل أن يفعلوا مثله. بدا الحسن الثاني بارد الأعصاب وتظاهر بأنّه قد أُعجِبَ بالمزحة.

قبل أن نغادر قصر دار السلام، سعى الملك أن يُسعِد والدي. مدركاً إصرار أوفقير على رفض الهدايا الغالية الثمن، وجد الحسن الثاني هديّة فريدة. أهداه شبلاً. شكره والدي وقبل أن يغادره قال إنّه سيسمّي السنّوري الصغير . . . «صخيرات». كزّ الحسن الثاني على أسنانه، وأفرج عن ضحكة صفراء، لم يُخطئ الرسالة، ولكنّه استمرّ في لهجته الفكِهة:

– لماذا هذا الاسم، يا أوفقير؟

– أوّلاً لأنّ جلالتك سمّيت محلّ إقامتك المفضّل به، ثمّ حتى لا ينسى كلُّ وزيرٍ من وزرائك يزورني مأساة العاشر من تموز (يوليو).

بعد أن انتهت تلك «الدُعابات» اللاذعة، ودّع والدي والملك بعضهما.

بدأت سنة جديدة وسعيتُ في التصوّر بسذاجة أنّها ستكون فأل خيرٍ وستزيل كلّ نُذر الشرّ تلك. ولكن للأسف، لم يناقض أيّ شيءٍ من حولي انطباعاتي الأولى. على العكس، بات الجوّ في حلقة السلطة ومن حول والدي ضاغطاً على نحوٍ متزايد.

في كانون الثاني (يناير) 1972، سافرت أمّي إلى فرنسا لتُقيم مع مليكة في باريس، حيث كان يُفتَرَض بأختي أن تكون في إحدى مدارسها لتقديم البكالوريا. حاول الملك، في بادئ الأمر، أن يُعارِض ذلك، متذرّعاً بأسبابٍ أمنية. منذ قضية بن بركة، أراد الملك أن يوهم أوفقير بأنّ اسمه غير مرغوبٍ فيه في كلّ مكان.

ولكن، هذه المرّة، تصرّف والدي. صرف النظر وطمأن الملك:

– لا تقلق، يا سيّدي، تكفّل أصدقاءُ لي بأمنها . . .

كلماتٌ أثارت عند الملك قلقاً سياسياً أكثر منه شخصياً. كانت أدنى إشارة إلى ردّ الاعتبار إلى أوفقير في فرنسا تعني بالنسبة له خطراً داهماً، إذ إنّ كلّ إستراتيجيته أُقيمَت على شيطَنة الوزير وعزله على المسرح الوطني والدولي. تجرّع الملك الإهانة وترك مليكة، مصحوبةً بأمّي، تسافر إلى باريس. بقينا، والدي وأنا، وحيدين. وترسّخت صلاتنا منذ أن أراد منحي شرف ثقته بي. أبهجني ذلك، ولكنّ الفائدة الحقيقية التي جنيتها من ذلك هي انضباط ذاتي وجهودٌ مستمرة لأبقى جديراً بها.

في بداية عام 1972، حصلتُ على دليلٍ إضافيٍّ على تلك الثقة. ذات مساء، طلب إليّ والدي أن أمنح إجازةً لكلّ الموظّفين، باستثناء مولاي علي والعربي، وأن أستعدّ للقيام بالخدمة. قال لي:

- سأتلقّى زيارة مهمّة للغاية، وينبغي أن تتمّ في سريّة تامة. احرص على أن تكون أنوار الحديقة مطفأة وأن تكون هناك صينية من الشاي والقهوة في الصالون الصغير.

نحو الساعة الواحدة فجراً، وصلت سيارة. سارت إلى الوراء واصطفّت بالقرب من المكتب، ونزل منها عمر عكوري، زوج ابنة عمّي. كان مصحوباً برجلٍ غارقٍ في جلبابٍ وبرنسٍ سميكٍ تغطّي قبّعته رأس الرجل إلى حدّ العينين، الأمر الذي منعني من التعرّف على هويّته. أنزل عمر الراكب الغامض وذهب ليصفّ سيارته في المرأب، الذي لم يغادره، فراقبه جيرونيمو سرّاً. قاد والدي ضيفه إلى الطابق العلوي. شاهدتهما من الخلف يدخلان إلى قاعة الجلوس. وقبل أن يغلق الباب على نفسه طلب منّي أن أحرسه. فجلستُ على درجات السلّم منتظراً بتلهّف أن يستدعيني لخدمة ما. مضت ساعة، ولم يبدر منه شيء. فجأةً، فُتِح الباب وتركه والدي موارباً. بذهابي إليه، لمحتُ الرجل الذي استقبله: إنّه علال الفاسي، زعيم حزب الاستقلال. لم تكن تلك المرّة الأولى التي أراه فيها إذ إنني كنتُ قد رافقتُ والدي إلى زيارته لدى دخوله إلى المستشفى جراء إصابته بنوبة قلبيّ. دون أن يدعني أدخل إلى الصالون، همس لي أوفقير

بأن أجلب له حقيبته من غرفة نومه. حينما أعطيته إياها، أغلق الباب من جديد على نفسه مع ضيفه. بعد أن تناقشا لساعتين ونصف، خرج علال الفاسي وأوفقير. مرّ الاثنان بالمكتب، ودّعا بعضهما في الحديقة معانقةً، وغادر زعيم الاستقلال مثلما جاء وسط سريّةٍ مطلقة. عدتُ إلى والدي. كان جالساً إلى مكتبه ويكتب. ومع أنّه كان غارقاً في التفكير ومنشغلاً، لمحتُ فيه ابتهاجاً مفاجئاً. ماذا قال أحدهما للآخر؟ تساءلتُ في نفسي.

قبل أن نُنقَل من منزلنا في الرباط بالضبط، بعد انقلاب آب (أغسطس) الفاشل، سيُعزَل عمر عكوري لأكثر من سنة في ڤيلا تعود لجهاز الاستخبارات الخاصّة. ومن ثمّ سيدّعي أنّه قد حُبِس فيها بأمرٍ من الدليمي، دون أن تُشرَح له قط أسباب ذلك الاحتجاز. رواية أقلّ ما يُقال عنها أنّها مريبة. ادّعى البعض بأنّه هو من أخبر، خلال الاستجوابات التي تلت 16 آب (أغسطس)، بزيارة علال الفاسي لأوفقير. ولاحقاً، سنراه يعتاش على أموال والدتي، فاطمة التي كانت ثريّة قبل الاستقلال وحتى قبل أن تعرف أوفقير، ولم تكن تتعاطى قطّ مع الدولة، مكتفيةً بالإيرادات الوفيرة التي يدرّها إرثها العقاري. مع ذلك كانت أمّي صاحبة الفضل الأولى عليه وعملت على أن يصبح زوج ابنة عمّي كلثوم في حين لم يكن عمّي يوافق عليه! ولكن صحيحٌ أنّه بعد إقصائنا، لم يعد اسم أوفقير يستحق شرف الاهتمام به. في مغرب الحسن الثاني، كان البزنس أكثر أهمية من عرفان الجميل. ولكن فلنُغلِق هذا القوس، ولنعُد إلى تلك السنة المشؤومة، 1972.

دشّنت الزيارة السرية لعلال الفاسي بالنسبة لي سلسلةً من المواقف والوقائع المقلقة، الواحد منها أكثر مفاجأةً من الأخرى، ولكنني حينذاك لم أكن قادراً بعد على استخلاص حصيلتها الدقيقة. وسيتواصل تعاقب تلك الملاحظات الفريدة حتى انقلاب 16 آب (أغسطس). شعرتُ بأنّ الجوّ قد فسد على نحوٍ خطير. لمستُ كلّ يوم لدى والدي ووسط المقرّبين منه غضباً خفيّاً. ولاحظتُ التوتّر المتصاعد بين الملك وبينه.

وتبيّنتُ القلاقل ذاتها عند مرافقَيه. حينما طلبتُ من إدريس وبوطويل أن يوضّحا لي بعض الأمور، لم يفيداني سوى بنزرٍ كثيبة:

- الله يسترنا، ما أحوجنا إليه... لا يمكن لهذا الوضع أن يستمر هكذا، لا بدّ أن يتصادم الملك والجنرال، عاجلاً أم آجلاً.

وإذ ألححتُ على إدريس أن يفصّل في انطباعاته، اكتفى بأن ذكر لي حكمةً مغربية قديمة: «حينما يتجابه ثوران فإنّ العشب الذي يدوسان عليه هو أوّل من يعاني من ذلك». بوضوح، سنكون نحن الضحايا الأوَل لمبارزة كهذه.

في شباط (فبراير)، سرّع حدثٌ آخر ذلك التدهور: حلّ الجنرال مولاي حفيظ والعقيد الدليمي في بيتنا فجأةً. أرسلهما الملك ليخبرا أبي وأمّي بأنّ الرئيس الليبي القذافي يتهيأ لاختطاف مليكة في باريس. شرح الدليمي:

- يأمر جلالته بعودتها الفورية، لقد تلقّى سفير المغرب في فرنسا العون الكامل من السلطات الفرنسية. وهي تضمن لكما، مذ أُخبِرَت بذلك، السلامة الكاملة لابنتكما... علاوة على ذلك، سارع العملاء المغاربة في الحال إلى إعادتها. لم يعد هناك ما يقلقكم، سيّدي الجنرال، لقد تمّ تلافي الخطر.

لاحظتُ انقباضاً خفيفاً على وجه والدي، تمالك نفسه:

- أخبرا جلالته بأنني أشكره على اهتمامه بعائلتي. أعلم أنّه يسهر على أمنهم بكثيرٍ من العطف. وخيراً فعل حينما أخبرني لأنني أريد أن أعرف نهاية هذه القصّة وإذا مسّ القذافي شعرةً من أحد أولادي، فسوف يموت!

لا أعرف لماذا، ولكن كغيري من الحاضرين، بدت لي هذه الكلمات الأخيرة موجّهة بالأحرى للملك. كما أنّ الجملة أشاعت بروداً

لم يفعل والدي شيئاً لتبديده. أذِن لمولاي حفيظ والدليمي بالانصراف. رافقتهما. وبصعودي إلى الصالون، وجدتهما غارقَين في أفكارهما. طلب منّي أن أتركهما وحيدين. حينما كنتُ أهمّ بالانسحاب، استدعاني، صَمَت، حدّق في عينيّ، وقال لي:

- كن حذراً، أرجوك...

أدهشني حزنه ونبرته الرسميّة.

- ولكن يا بابا لماذا تقول لي هذا؟ لسنا في حرب!

همهم:

- نكاد...

ثم أضاف بصوتٍ أعلى:

- لا أمزح. أعطني وعد شرف بأنّك لن تتسلّل من البيت.

أنا الذي كنتُ أعتقد أنّ والدي يجهل مغامراتي، انسحبت وأقسمتُ بأنني لن أحاول القيام بأيّ شيء. ولقاء حريتي كمراهق التي ضحّيتُ بها، قدّم لي والدي، وأنا أشكره على ذلك، هديّة عظيمة: ثقته بي وامتياز العيش إلى جانبه، وعملي كسائقٍ له، وهي أمورٌ عاشها القليل من الشبان في عمري.

بعد ثمانٍ وأربعين ساعةً من زيارة المبعوثَين الملكيين، عادت مليكة من باريس. أبدت والدتي قلقها:

- ألا ترى يا أوفقير أنّه كلّما حاولتَ التقاط أنفاسك، يشدّد الملك الخناق عليك؟ هذه المسألة برمّتها خديعة! إنّها مختَلَقة تماماً! لا أصدّق للحظةٍ أنّ القذافي يريد اختطاف ابنتنا. تماماً مثلما لم أصدّق قط أنه كان يمكن للمعارضة المغربية أن تهاجم أطفالاً! وإلاّ ما كانت لتتكوّن من رجالٍ شرفاء وشجعانٍ ليهاجموا والأسلحة في أيديهم! إلى متى ستترك نفسك يتلاعبون بك بهذه الطريقة؟ آه، يا أوفقير، لو أنّك فقط رضيت الاستماع إليّ. منذ زمنٍ طويل، لم تعد أنت والملك تتفاهمان. كان

الشرف والوفاء يفرضان أن تخبره بذلك بصراحة وتهجر السياسة. اطلب وظيفة عسكرية أو سفارة، ولكن اترك اللعبة واخرج من هذه الدوّامة، قبل أن يفوت الأوان.

رغم إلحاح فاطمة، انتظرت مليكة في الرباط أن يتّخذ والدي قراراً. ذات مساء، طلب إليّ أن أحضر سيارته. في اللحظة التي همّ مولاي علي، المعروف بجيرونيمو، أن يغلق بابها، قلتُ بكلّ عفوية:

- هل يمكنني مرافقتك؟ هل يمكنني أن أقود السيارة؟

- يمكنك أن تأتي، ولكن أن تقود، لا. أجابني.

فتركتُ المقود للمساعد أوّل حمو، وجلستُ في المقعد الخلفي. كان مولاي علي جالساً في المقعد الأمامي. لم أطرح أيّ سؤال، مكتفياً بالطلب من جيرونيمو أن يشغّل الراديو. سرنا لحوالي عشر دقائق قبل أن نقف أمام بوابة مقر عمل مدير الأمن الوطني. كان الدليمي، منذ تولّيه الإشراف على الشرطة، قد حوّله إلى مكان «عمل»، إذ كان العقيد يتوفّر على كل ما قد يحتاج إليه من وسائل السكن في الڤيلا الفخمة التي كانت قد بُنيت في حيٍّ سكنيٍّ بالعاصمة. أثار المبنى، الذي يعود إلى عهد المستوطنين الفرنسيين، سيلاً من الذكريات بالنسبة لي. فقد أمضيتُ قسماً من طفولتي في ذلك البيت ذي الطابقين الذي يتميّز بكونه بيضويّ الشكل. وتحيط بالطابق الأوّل شرفةٌ واسعة. استقبلنا الدليمي. كنتُ أتهيّأ للبقاء مع جيرونيمو والمساعد حمو حينما أشار لي أبي أن أتبعه. صعدنا درج المدخل. لحق بنا مولاي علي. قال له أوفقير كلمتين باللغة البربرية. لم يكن الدليمي يفهم الأمازيغية. عاد جيرونيمو، متردّداً ومغتاظاً، ونزل السلالم ورجع إلى سيارته : كان حضور الدليمي يستفزّه على الدوام. حينما أصبحنا في الردهة، فتح العقيد الباب الزجاجي للصالون الوسيع. كان رجالٌ، يقتعدون أريكةً نصف دائرية، يتناقشون وهم يشربون. حينما دخل والدي إلى الغرفة، وقف الجميع. تقدّم أحدهم نحوه وقبّله. تعرّفتُ على العقيد زرقيني، رئيس الأمن العسكري

الجزائري، والصديق الكبير للعائلة. سبق وقضت ابنته ثريا مع ابنه ياسين العطلة الصيفية في بيتنا. صافحت الشخصيات الأخرى الوزير. كان اثنان منهم معاوني العقيد زرقيني، والثالث مبعوثاً ليبياً. حينما انتهت المجاملات وبدأ النقاش الجدّي، طلب منّي الدليمي بلطف إن كنتُ أريد القيام بجولةٍ في منزل طفولتي. فتنني ذلك الاقتراح. استغللتُ ذلك لأذهب وأدخّن سيجارة. ولكن قبل ذلك، حاولتُ أن أتلمّس إشارة قبول من والدي. قبِل بإشارة غير ملحوظة من رأسه. فانضممتُ إلى جيرونيمو والمساعد حمو. لم يكفّ مولاي علي، المترصّد، عن طرح الأسئلة عليّ عن الرجال الموجودين في الصالون: مَنْ هم؟ كم عددهم؟ هل الليبي جالسٌ قبالة والدي أم إلى جانبه؟ هل معه صندوقٌ صغير؟ هل كانت سترته مزرّرة أم مفتوحة؟ وضعتُ حدّاً لذهانه الهذياني وطمأنته شارحاً له أنّ حضور الجزائريين والليبيين يتعلّق بالتأكيد بمسألة «الاختطاف» تلك. حثّني مولاي علي بعد كلّ حساب على أن أعود إلى هناك بأسرع ما يمكن لكي أخبره بما يحدث. صعدتُ الدرج ثانيةً ولكنني لم أعد إلى الصالون، مفضّلاً أن أحاذي الشرفة إلى ارتفاع واحدة من نوافذ الصالون الذي يجري الحديث فيه. كانت ستائر حريرية رقيقة ترفرف بين زجاج النوافذ المواربة. تقدّمت مفرشخاً ورحتُ أجلس تحت النافذة. وصلتني الأصوات بوضوح. علمتُ من خلال ذلك الحديث أنّ والدي طلب من الرئيس الجزائري بومدين أن يكون وسيطاً بين القذافي وبينه. وكان الوفد الصغير قد حضر لينقل إلى أوفقير نتائج تلك المساعي الحميدة. ما إن علِم القذافي ما كان يُتَّهَم به أرسل مبعوثاً شخصياً، وتحت الحصانة الجزائرية، إلى والدي. فنقل المبعوث الأقوال التي جاء من أجلها.

- يعدك الرئيس القذافي وعد شرف بأنّه لم يفكّر قط أن يمسّ واحداً من أولادك. ويرى أنّه من المهين أن يُشكّ فيه في ذلك. ويُخبرك يا جنرال أنّه لو علِم بأدنى تهديدٍ يحيق بأولادك لجنّبهم ذلك في الحال وبكلّ صدق.

بعد أن أصغيتُ إلى ما هو جوهريّ من المقابلة، اعتبرتُ أنّه من الأسلم انتظار والدي في سيارته.

بعد تلقّي تلك التطمينات، غادرنا مقر مدير الأمن الوطني. صَحِبنا الدليمي إلى المركبة، بادي الانزعاج من نتيجة ذلك الاجتماع:

- لا تصدّق كلامهم، سيّدي الجنرال! القذافي أفعى! أتمنى ألاّ ترسل ابنتك مرّة أخرى إلى باريس.

عكس والدي أسئلته وأجابه وهو يدلف إلى البرلينية:

- شكراً لإتاحتك لهذا اللقاء بأن يُعقَد في بيتك. أبلغ احترامي وولائي لجلالته. عمت مساءً.

في الطريق، سألته حول المحادثات دون أن أعترف له بأنني أعرف فحواها. مرّة أخرى، تأثّرت لثقته بي. لم يخفِ عنّي أيّ تفصيلٍ عما قيل فيها. ورغم الدفاع عن قضية أختي، سألته إن كان ينوي إرسال مليكة من جديد إلى باريس.

- ربّما. لا أدري... لن أتّخذ قراري إلا حينما أحصل على ضمانات مطلقة.

لدى العودة إلى بيتنا، ذهب والدي مباشرةً إلى غرفته. طلب منّي أن أُصعِد له صينية مع قدحٍ من شيشة، وهي نوعٌ من حساء الشعير المغربي، مع بيضة نمبرشت وبِلحٍ. احتفظ والدي، الذي لم يكن أكولاً قط، بالأذواق البسيطة لأهل الصحراء وبساطة الجنديّ. حينما وضعتُ طعام العشاء على زاوية من الطاولة، خاطبني من حمّامه:

- انتبه إلى الهاتف، أنتظر مكالمة هامّة.

انقضى أكثر من ساعة بقليل قبل أن يرنّ الجرس. إنّه آلكسندر دو مارانش، رئيس المخابرات السرية الفرنسية. سمعتُ والدي يقول له:

- آلكسندر، أريد باسم صداقتنا أن تكون صريحاً معي: هل يمكنك ضمان السلامة المطلقة لابنتي في باريس أم لا؟

لم أسمع الجواب ولكنّ عبارة والدي تركتني أخمّن المعنى:

- هل أنت واثقٌ من ذلك يا آلكسندر؟

ثمّ، بعد برهةٍ من الصمت، تابع أوفقير:

- أعرف، أعرف، هذه خديعة، القذافي أكّد لي ذلك. ولكن ما يهمّني هو أن يعلم الذين يضغطون عليّ بأنّ هناك حدّاً لا يمكنهم تجاوزه. عِدني بأنّ زوجتي وابنتي ستكونان محميتين في باريس. لا أطلب منك المستحيل، قل لي فقط هل تتكفّل شخصياً بالسهر على ذلك أم أنّك لست قادراً على فعل ذلك.

صمت والدي واستمع إلى ردّ صديقه. استراح وجهه، وبدا راضياً تماماً.

- شكراً، آلكسندر... نعم... بالتأكيد... شكراً، إلى اللقاء.

في شهر شباط (فبراير) نفسه، عاد المقدّم أمقران إلى المغرب. وتردّد من جديد إلى بيتنا. أنهى علاجه في مستشفى نيكر وجاء، كما وعد، لمقابلة والدي. مع عنايته اللطيفة بجلب هديّة لي. عبارة عن تصميم طائرة مطاردة، نسخة مصغرة من طائرة F5 Northrop Freedom Fighter !

منذ بداية آذار (مارس)، استطاعت مليكة أن تعود إلى باريس. أبدى الملك استياءه من القرار ولكنّه لم يسعَ جدّياً إلى ثني والدي عنه. خلال ذلك الشهر، لاحظتُ الزيارات المتكرّرة والمفاجئة التي يقوم بها أوفقير للكولونيل أمقران في القاعدة الأمريكية في القنيطرة. ورافقته إلى هناك مراراً عديدة. بل جلنا في كلّ أنحاء القاعدة. غالباً ما تكلّم والدي بشكلٍ ثنائي ومطوّلاً مع ضباط الصفّ والجنود. وما إن نصعد إلى السيارة، يبدأ بتدوين ملاحظات بحماس في مفكّرة. وتُلبّى أقلّ تظلّم وأصغر شكوى. رفض والدي أن يقدّم قادة المئات من الثُكنات التي جال عليها وجبة خاصّة له: تناولنا الطعام في الندوة مع الجنود. خلال تلك الجولات، لم تتوقّف شعبية أوفقير عن النموّ.

في 9 نيسان (أبريل)، عاد أمقران إلى مستشفى ابن سينا في الرباط. زاره والدي وأرسله من جديد إلى باريس. وسيبقى الكولونيل في مستشفى نيكر إلى نهاية أيار (مايو). عاد لفترة وجيزة إلى المغرب وعولِج في بادن-بادن[1]، ثمّ رجع إلى فرنسا حيث سيبقى حتى 17 تموز (يوليو). كما التقى خلال إقامته في باريس، بناءً على تعليمات أوفقير، بالمعارضة. اتصالات أظهرت للكولونيل أنّ الانقلاب الذي يُعدّ له يحظى بمساندة الأحزاب السياسية. لم يكن بوسع الاتحاد بين الجيش واليسار سوى أن يثير حميّته.

ما كادت الأزمة التي تسبّبت بها المحاولة المزعومة لاختطاف شقيقتي أن تُذلّل، حتى طرأت أزمة أخرى أكثر خطورةً.

لدى وصولي إلى بيت صديقينا ڤيرونيك وساندرين بن عاير اللتين كان والداهما مناضلَين تروتسكيين، شعرتُ بجوٍّ من العَتب من طرف زملائي. سألتُ أحدهم عن الفتور المكتنف، فأجابني:

- اختطف والدك موريس السرفاتي.

أثّرت عليّ تلك الكلمات، بل وجرحتني. لم أقل شيئاً وغادرت بهدوء الاجتماع. فوجِئ والدي بالموضوع حينما أُخبر به. أحزنه أن أتّهمه بأمرٍ كهذا. لم تكن لديه قط عادة تبرئة نفسه، وتركني على الدوام حرّاً في بناء رأيي الخاصّ، ولكنني لمحتُ فيه حزناً حقيقيّاً. تغلّبت رصانته وطرد تلك الكآبة الصامتة بعبوسٍ حانق. فرفع السماعة بحضوري وطلب إدريس حصّار، معاون مدير الأمن الوطني. وببساطة، منحه ربع ساعة ليحضر أمامه. منذ وصوله، دعاه أوفقير بفتور للجلوس في أريكة. وبدون لفٍّ ولا دوران، حدّق في عينيه وسأله فجأةً:

- أين موريس السرفاتي؟

---

(1) وهنا التقى أمقران للمرّة الأولى الفقيه البصري وأحد معاونيه، إبراهيم أوشلا.

ارتبك إدريس حصّار، الرجل النحيل الضامر، وتلعثم:

- أنا... لا أعلم يا سيّدي الجنرال...

- تعتبرني مغفّلاً! انفجر والدي. إلى متى ستستمرّ هذه القذارة؟ لقد وضعتم هذا البلد وسط الفوضى وتصرّون على إغراقه!

دافع حصّار عن نفسه كما استطاع:

- موريس السرفاتي ليس عندي، سيّدي الجنرال، رجال الدليمي هم مَنْ يحتجزونه...

أمسك والدي بالهاتف وطلب أن يوصَل فوراً بالعقيد الدليمي. حينها، أصبحت لهجته الحازمة مهدِّدة. بعد أن فتح مكبّر الصوت، أراد أن يواجه حصّار بأقوال الدليمي. حاول العقيد، مرتبكاً بكلماتٍ محترمة ومخفّفة، أن يهدّئه:

- هذا ليس إلاّ أمراً روتينيّاً، سيّدي الجنرال، نريد فقط أن يخبرنا موريس السرفاتي أين يختبئ والده.

- يا لها من فوضى! صرخ أوفقير. الأب هو الأب وليس للابن أيّة علاقة بالمكان الذي يختبئ فيه!

حاول الدليمي أن يتحجّج:

- ولكنّ يا سيّدي الجنرال، هؤلاء مناهضون للملكية ونشطاء خطِرون...

- قلتَ أعداء الملكية؟ إذاً فلِعلمِك، يا سيّد، إنّ أسوأ أعداء العرش لن يهدّدوه أبداً بقدر مَنْ يستغلّونه ويزعمون الدفاع عنه!

راوغ الدليمي:

- سيّدي الجنرال، نحن لم نؤذه قط، لقد أسكناه في بيتٍ مريح ولا ينقصه شيء، بانتظار أن يخبرنا أين يختبئ والده.

- ولكن هل أفلستم؟ اتّقوا الله، موريس السرفاتي ليس أبراهام! ولو كنتَ تقوم بعملك بشكلٍ صحيح لما احتجت إلى احتجاز الابن لتعرف مكان والده!

أراد الدليمي أن يواصل ولكنّ أوفقير منعه وبهدوءٍ أخطر من الغضب وبّخه:

- اسمعني جيّداً يا أحمد، أُمهِلك نصف ساعة، بالدقيقة، لإطلاق سراح موريس. وإلاّ فأقسم لك برتبتي كضابط إنني شخصياً سآتي لآخذه...

غمغم الدليمي:

- ولكن يا سيّدي الجنرال أنا لا أقوم سوى بتنفيذ أوامر جلالته...

بهذا الاعتراف، سادت لحظة من الصمت الثقيل، ثمّ أجابه والدي بصوتٍ مخنوق:

- منذ وقتٍ طويلٍ لم أعد رئيسك. ولكن هذا أمرٌ أعطيك إياه. لقد مرّرتُ لك الكثير من الأمور. إن لم تنفّذ أمري هذه المرّة، لن أكون مرناً معك بعد الآن... سأذهب حتى النهاية.

شرع الدليمي في آخر تهرّب:

- وجلالته، يا سيّدي الجنرال؟

- جلالته، أنا سأتكفّل بالأمر معه. عاود الاتصال بي بعدما تُطلق سراح موريس السرفاتي...

على ذلك، أغلق والدي السماعة.

حاول إدريس حصّار، الذي بدا غير مرتاح، أنّ يلطّف الجوّ ولكن دون جدوى. لا شكّ أنّ والدي تركه يستمع إلى حديثه الصاخب مع الدليمي بغرضٍ وحيد هو أن يُنقَل إلى الملك غضبه الشديد.

على أيّ حال أُطلِق سراح موريس السرفاتي وظلّ صديقاً حميماً لنا. أكثر ما أغاظ الحسن الثاني، والذي غالباً ما عاتب والدي عليه، هي الزيارات المتكررة لأولئك الأولاد لنا. هذه الوثبة الجديدة عند أوفقير أغاظت الملك أكثر من ذي قبل. وأحصى الملك بدقّة حالات الرفض من قبل وزيره، وإن احتملها. وكانت بالنسبة له مقياس الأحداث المقبلة...

بانتظار أن يصدر الحكم بانتهاء أوفقير، استمرّ الملك في مداراة «رجل ثقته». رسمياً أكثر الملك من الشواهد على الامتنان حيال «الذراع المسلّحة للعرش»، ولكن مَخْزِنه، في الظلّ، اجتهد بنشاط في «تسوية وضع» «وزيره»... وكانت الكثير من الإشارات المقلقة تدفعه إلى ذلك. فقد بدأت فرنسا منذ بعض الوقت بمداهنة أوفقير. وجرى الحديث في أروقة الدواوين عن رد اعتباره في قضية بن بركة. بل ردّدت الصحافة الفرنسية أصداء تلك الرغبة في الإليزيه. ذكرت الصحف الفرنسية نيّة جورج بومبيدو العفوَّ عن الجنرال وأثارت تساؤلات غريبة: لماذا فرنسا متعجّلة إلى هذا الحدّ في تسوية قضية بن بركة؟ أيمكن أن يكون ذلك لأنّ الجنرال محمد أوفقير في وضعٍ يجعله الشخصية الأهمّ في المملكة الشريفية؟

من جهتي، لاحظت الزيارات المتكرّرة التي يقوم بها السفير الفرنسي لوالدي. وحضر الدكتور بلعباس، السفير السابق في باريس، بعضاً من تلك الاجتماعات. وقد تميّز هذا الأخير، وهو دبلوماسيٌّ وصديقٌ لوالدي، على الدوام بالإلحاح والإصرار لإقناع والدي بالدفاع عن نفسه في قضية بن بركة. ومع أنّ التعاون الفرنسي المغربي لم ينقطع أبداً حتى في أشدّ فترات الخصام بين باريس والرباط، فإنّ رغبة الإليزيه المفاجئة في تسوية «القضية» نهائياً أقلقت الحسن الثاني إلى أقصى درجة. لِمَنْ ستميل الدولة الاستعمارية السابقة، له أم لأوفقير؟ إذا كان الفرنسيون قد ردّوا الاعتبار لوزير الدفاع، فإنّ الملك سيكون قد قرأ هذه المبادرة السياسية لأنّه ما دام أوفقير محكوماً غيابياً بالسجن المؤبّد من قبل القضاء الفرنسي، فلن يكون بإمكانه أن يطمح إلى السلطة. بالمقابل، عمل الحسن الثاني، الحاذق، باستمرار على أن يتم تصديقه بأنّه يرغب بصدق أن يرى أوفقير وقد بُرّئ. بل جعل من نفسه محامياً لـ«عامله الأكثر إخلاصاً»، معتبراً أنّ هذه هي الطريقة المثلى لسبر النوايا الفرنسية الحقيقية ومدى طموحات أوفقير. وقد عقد الملك النيّة أكثر من أيّ وقت مضى

على القيام بزيارةٍ لباريس راغباً في مقابلة بومبيدو وإقناع الجمهورية بمواصلة دعمه. في الواقع، كان الغرض الأساسي من تلك الزيارة هو الحصول على قبول أن يرأس الفرنسيون بصفة شبه رسمية القيادة العليا للقوات المسلّحة الملكية. حينذاك، عاين الملك بدقّة شهر العسل بين أوفقير وباريس.

ولكن ما كان الملك يجهله ويعرفه الفرنسيون، هو أنّ أوفقير قد أقام اتّصالات مثمرة مع المعارضة المغربية... سرّب الجنرال كلمة حول ذلك إلى صديقه ألكسندر دو مارانش. كانت تلك وسيلة بالنسبة له لتحديد الاتّجاه: إذا ما أزاح الملك، فذلك ليس للاستمرار في طريق النظام الشمولي، وإنّما لمنح البلاد نظاماً يحظى بالمصداقية. بإشراكه للمعارضة في مشروعه للانقلاب، أراد أوفقير أن يثبت أنّه لا ينوي إقامة حكمٍ عسكري. بتحقيق التحالف بين اليسار والمقرّبين من الحسن الثاني والعسكر في محاولته، اكتسب أوفقير بالطبع اهتمام الغربيين الجدّي. وما كانت لتستاء فرنسا والولايات المتحدة من رؤية استقرارٍ سياسيٍّ ينبثق من نوعٍ من الإجماع الوطني. فقد أصبح لا بديل عن أوفقير، من خلال تكافل المعارضة والجيش وعددٍ مهمٍّ جداً من أعضاء السراي الملكي. بالمقابل، كان على وزير الدفاع أن يضمن لجميع الأطراف المنضوية في المؤامرة بأنّه لن يستغلّ طرفٌ منها النجاح لاستبعاد الأطراف الأخرى. وبهدف جعل هذا التشابك المعقّد من المصالح المتباينة قابلاً للحياة، كان لا بدّ من إعطاء كلّ طرف من الأطراف المشكّلة له ضمانات صريحة حول بقائه بعد الانقلاب. والمؤسسة الوحيدة التي يمكنها إقناع جميع الجهات بأنّها لن تكون «الضحيّة»، هو الإطار الملكي. ولكن يبقى خيارٌ واحدٌ مفتوحاً: وهو أنّ المجلس الوطني للوصاية أو CNR، يمكنه في أيّة لحظة أن يتحوّل إلى المجلس الوطني للثورة، إذا ما اختلّ تجديد استمرارية السلالة الملكية. كان أوفقير ينوي، مثل المدبوح، أن يجعل من مجلس الوصاية القاعدة التي يرتكز عليها برنامج سياسي مقبول من

الحكومة. مع فارق أنّ الأوّل لم يتحالف سوى مع بعض كبار الضباط في حين أنّ الثاني حصل على تشكيلةٍ تمثّل أوسع قدر ممكن من الرقعة الفريدة جدّاً للبلاد. كان الاتحاد الوطني للقوى الشعبية وجناحه المسلّح في المنفى وحزب الاستقلال والنقابات والجيش وأقرب مستشاري الحسن الثاني وحتى أعضاء من عائلته على استعدادٍ لإقصاء الملك. أخذ اليسار المغربي درس الصخيرات بعين الاعتبار: من الأفضل التعاون مع أوفقير بدلاً من المجازفة بأن يُقضى عليها بالقوّة من قبل قذّافيين... علاوة على ذلك، كانت العلاقات بين وزير الدفاع والمسؤولين الجزائريين متينة. دون الأخذ بالحسبان علاقات الأمريكيين الدافئة والمتجددة مع أوفقير. فقد كان وزير الدفاع يحتفظ بعلاقاتٍ وثيقة مع صديقه ريتشارد هلمز، مدير CIA، والكولونيل بلانكو، رئيس المخابرات السرية الاسبانية، ورئيس جهاز MI 5 البريطاني. كما كان أوفقير صديقَ آلكسندر دو مارانش، رئيس جهاز SDECE.

كل هذه العلاقات المتميّزة، سواءٌ كانت سياسية أو أمنية أو شخصية، عمد الملك إلى مراقبتها وتحليلها بدقّة متناهية. وسرعان ما أدرك الحسن الثاني أنّ الزيارات العديدة التي يقوم بها وزيره إلى الجزائر ليست فقط بغرض تسوية مشكلة الصحراء الغربية. وخشي من أن يُبرَم من خلف ظهره اتّفاقٌ قد يشتمل أو يحثّ على إقصائه من السلطة. وإذ يعرف روابط التقدير والمودّة التي تربط بومدين وأوفقير، خشي الملك من أن يتوصّل الرئيس الجزائري ووزيره إلى أن يقرّرا بالفعل بناء مستقبلٍ مشترك... كما نُقِل إلى الحسن الثاني أنّ أوفقير، خلال مؤتمر قمّة منظمة الاتحاد الإفريقي OUA الذي عُقِدَ في الرباط، سأل بومدين وهو يرافقه في سيارته:

- متى سننجز هذا المغرب العربيّ الموحّد؟

الأمر الذي ردّ الرئيس عليه:

- متى ما شئتَ، ولكن مغرب الرجال.

الأمر الذي عنى للملك: «نعم لتعاون، ولكن بيننا نحن. استبعد الحسن الثاني أوّلاً». كلّ دعم داخلي أو خارجي يؤمّنه أوفقير سيرفعه بفعل الواقع إلى مصاف زعماء الدول وكالةً. والحال أنّ الغربيين سيكونون قد سارعوا إلى الاستفادة من نتائج ذلك... وكسياسيٍّ حاذق، لم يشكّ الحسن الثاني للحظة في أنّ هذه النتائج ستكون غير مواتية له. فلماذا إذن ترك المحادثات بين أوفقير والجزائريين تستمرّ؟ لأنّه فضّل الاستفادة منها بذكاء على أن يعرقلها أو يمنعها. على العكس من ذلك، شجّعها وتابعها باهتمام وحرص. لم يعارض الحسن الثاني في شيء الاقتراحات التي قدّمها أوفقير باسم المغرب وباسم الملك لأنّ العاهل أوصى بالخطأ ليعرف ما هو الصحّ. وانضمّ تماماً إلى رأي أوفقير حول الموضوع، ولكنّه ترصّد أدنى إشارة قد تدلّ على أنّ وزير دفاعه يؤمّن لنفسه سرّاً نطاقاً دولياً. تقصّى الملك كلّ «وسيلة» محتَمَلة قد يبتنيها أوفقير للإيقاع به.

وستعجّل إشارةٌ أكثر إثارةً للقلق من تكتيك الحسن الثاني. فقد رأى، وهو الذي كان قد فعل كلّ ما من شأنه إظهار وزيره كدرعٍ للنظام، أنّ وسائل إعلام المعارضة المغربية الرسمية وشبه الرسمية تبدو أكثر ليناً مع أوفقير ولا تتوانى في الإشارة إلى انتقاداته ضدّ الفساد. بالتأكيد لم يكن الملك يتوقّع ولا يشكّ أنّ هذا الأمر قد يفضي إلى تحالفٍ بين اليسار ووزيره، ولا شكّ أنّ براعته وضراوته في تشويه سمعة أوفقير وشيطنته قد استبعدتا نهائياً إمكانيةَ تقاربٍ بين «الوزير الشرير» واليسار «النقيّ» و«الشرعوي» و«غير العنيف». ولكن تلك الإشادات الملبّدة أثارت ظنونه.

كلُّ يوم يمرّ كان يُقنع الحسن الثاني بضرورة التخلّص من أوفقير قبل أن يفوت الأوان.... ولكن كان لا بدّ له من تخدير الجيش أوّلاً. كانت الرواتب شبه المضاعفة والقروض المرفوعة وحرية التصرّف المتروكة للجنرال لكي يكسب شعبية صادقة في صفوفه هي البنج. وستوجّه الضربة القاضية حينما يحصل الملك على ما يأمله من الفرنسيين: أن يوافقوا على

ممارسة الرقابة، من خلال إرسال المعاونين العسكريين، على القيادة العليا للقوات المسلحة الملكية!

بانتظار ذلك، تسلّح الملك وكذلك وزير دفاعه. واستمرّت لعبة القطّ والفأر. بانتظار مَنْ سيطلق النار أوّلاً.

في 6 أيار (مايو) 1972، تعرّضت أختي مليكة لحادث سيارة خطير وسط باريس. كادت تفقد حياتها فيه. تشوّه وجهها بالندوب العديدة والعميقة. بعد حوالي عشرة أيام وثلاث عمليات جراحية كبيرة، نجح الأطباء في إنقاذ عينها التي أُصيبت إصابةً خطيرة.

ما إن علِم الملك بالخبر، منع بشكلٍ حازم إخبار والدي بذلك. حرص أوّلاً أن يهتمّ شخصياً بالتدابير الفورية التي ينبغي اتّخاذها. حرص الحسن الثاني على أن يسهر خيرة الأطباء على مليكة. تكفّل الملك بكلّ النفقات وتحادث شخصياً، ساعة بساعة، مع كبار الأطباء الذي عالجوا أختي. وكان الأمير مولاي عبد الله أوّل مَنْ استقلّ طائرة للذهاب إلى زيارة مليكة. واقتدى به الكثير من أعضاء الحاشية الملكية وسافروا. وقد أخبرت أمّي، لدى عودتها إلى الرباط، والدي كم تأثّرت للشواهد التي لا تُعدّ ولا تُحصى على المحبّة:

– كانت باقات الزهور موجودة حتى في بهو المستشفى!

ردّ عليها أوفقير بتقزّز:

– فاطمة، في اليوم الذي أموت فيه، لن تَجِدي أحداً من هؤلاء الأشخاص ليقدّم لكِ حتى ولو بتلة وردة...

أصاب حادث مليكة والدي معنوياً. ولكن فيما وراء مضاعفاته الودّية، كان ذلك الحدث، الذي أقلقنا جميعاً، مناسباً لإرسال إشارات سياسية واضحة. سفير فرنسا، الذي زار والدي، نقل إليه رسالة شفوية من جورج بومبيدو:

– يخبرك الرئيس بأنّك لو أردت زيارة ابنتك، ستكون على الرحب

والسعة في فرنسا. يعدك السيّد بومبيدو بأنّك ستُحمى وتُستَقبَل كما يجب. وبأنّه إذا كان يمكنه أنّ يساعد في أيّ شيء كان للشفاء العاجل لابنتك، سيقوم بذلك بطيبة خاطر.

شكر أوفقير السفير بحرارة، وأخبره كم أثّرت فيه هذه المبادرة النبيلة ولكن، لسوء الحظّ، تلزمه مشاغله بالبقاء في المغرب.

لم يغفل القصر عن ذلك الانفتاح الفرنسي. وأجّج قلق العاهل. في اللحظة التي وقعت فيها حادثة أختي، قام الحسن الثاني بجولةٍ رسمية في المملكة. في أواسط أيار (مايو)، وجد الملك نفسه في أغادير في جنوب غرب البلاد على شاطئ الأطلسي. كان والدي يرافقه. كان يفتَرَض بالحسن الثاني أن يلتقي في عاصمة السوس[1] وفداً جزائرياً رفيع المستوى، بقيادة وزير الخارجية الجزائري، عبد العزيز بوتفليقة، الرجل الثاني في النظام الاشتراكي المجاور. كان المفترض أن تنصبّ المباحثات على الصحراء الغربية، التي كانت لا تزال تحت السيطرة الاسبانية، وأن تُنهي المفاوضات الطويلة والشاقّة التي أجراها أوفقير خلال ما يقارب عامين مع بومدين. ولكن حادثاً حرم والدي من حضور اللقاء.

بقيتُ في الرباط مرافَقاً بالكابتن التيباري، الذي ظلّ بروتوكولياً، والملازم أوّل رامي، معلّمي الكاذب. كانت لديّ دروسٌ في اللغة العربية عليّ مراجعتها. جمعنا الملازم وأنا النافع واللذيذ. بعد الدرس، غالباً ما ذهبنا إلى ثكنة BLS حيث علّمني رامي، بصبرٍ ومنهجية، الكثير من الأمور حول الجيش، وتسليحه بالمعدات، وعمل وحدته المدرّعة. في 14 أيار (مايو)، أي بعد حادثة مليكة بثمانية أيام، وقعت حادثة أخرى موجعة...

---

(1) منطقة جنوب غرب المغرب التي عاصمتها أغادير، المقابلة على الساحل الأطلسي لجزر الكناري.

بينما كنتُ أتحدّث مع عامل المقسم ونحن نحتسي كوباً من الشاي، رنّت مكالمة. من بين الخطوط الأربعة للمقسم، كان الأحمر مخصّصاً للمكالمات المهمّة. كان محمياً بأجهزة نصبَت من قبل أصدقاء من رجال الشرطة الفرنسيين منذ وضع المقسم في الخدمة. حينما يرنّ «الأحمر» ويومض، لا يكون المتّصل على الأرجح سوى أبي أو الملك. قفز سليمان من مقعده وخفّض تماماً صوت الراديو. وبوضع سبابته على شفتيه ، أشار لي بأن أصمت ورفع السماعة:

- نعم... نعم سيّدي الجنرال... ممتاز سيّدي الجنرال...

انحنيتُ على كتف عامل المقسم سعياً لأن ألتقط مقتطفاً من الحديث، ولكنّ سليمان حاول إبعادي دون أن يدرك والدي ذلك. استمرّ الحوار باللغة البربرية. بدا لي سليمان جديّاً أكثر فأكثر. عابساً، جدّياً، أجاب:

- نعم سيّدي الجنرال...اعتمد عليّ يا سيّدي الجنرال.

نظراً للسياق وللوضع المتفجّر، لم أستطع أن أمنع نفسي من القلق. همستُ بإلحاح لسليمان:

- أعطني إياه... أعطني إياه، أخبره بأنني أريد أن أكلّمه.

انتظر عامل المقسم بصبر لكي ينهي والدي كلامه ليخبره أخيراً:

- سيّدي الجنرال، رؤوف إلى جانبي ويرغب في التحدّث إليك.

- الو... بابا... هل أنت بخير؟ ماذا حدث؟

- لا شيء... لا شيء... تعرّضنا، عمّك إدريس وأنا، لحادث طائرة مروحية، ولكن الحمد لله، كلّ شيء بخير... عدا بعض الجروح الطفيفة.

ودون أن يدعني أستغرق في القلق، تابع والدي:

- أعطيتُ سليمان الأوامر... ما إن يجمع العربي ما يلزمه، ينبغي أن يلتحقا بي إلى أغادير. لا تقلق. مولاي علي معي.

سألته إن كان يمكنني الانضمام إلى الرحلة.

- اتّفقنا، ولكن شريطة ألاّ تؤخّرهم. كن مستعداً للانطلاق خلال ثلاثة أرباع الساعة... أقبّلك... إلى اللقاء قريباً.

ما إن أغلق سليمان السماعة، تغيّر موقفه. اتّخذت حركاته هيئة جديّة، رسميّة، وعسكرية. استدعى فوراً العربي ومصطفى ونقل إليهما بالبربرية الأوامر التي تلقّاها. وخلال نصف ساعة، أصبح العربي وسليمان وتسعة عيونيين، جميعهم من قبيلة والدي، جاهزين للانطلاق في ثلاث سيارات مرسيدس. أفرغنا خزائن ومساند الأسلحة في الحجرة الصغيرة المجاورة للمقسم. وحمّلت تلك الترسانة والذخائر في صندوق السيارات. كنتُ منفعلاً: لم أرَ قط تعبئة كهذه حول والدي. استفدتُ من اللحظة الطارئة لأجلس خلف مقود سيارة المرسيدس الأولى. غيّر العربي وسليمان سيارتهما، غير راغبين في تركي. شرحتُ بإيجاز لإدريس وبوطويل وعرضتُ عليهما المرور بعائلتيهما لإخبارهما بالسفر المفاجئ. واقترحتُ عليهما أن يلتحقا بي لاحقاً في أغادير. رفضا بإصرار، وأجابا بألاّ أنشغل بأسرتيهما، وذكّراني بأنّهما جاهزان لمرافقتي في أيّ مكانٍ كان وفي كلّ لحظة. وختاماً، أوصاني إدريس، قبل أن يعود إلى مركبته، بأنْ أسير بتعقّل.

أقلعنا بسرعة فائقة. وضغطت السيارات المحمّلة ثقيلاً على محركاتها. أسرعنا نحو أغادير دون أن نتوقّف سوى مرّة واحدة للتزود بالوقود. ما إن وصلنا إلى مقصدنا، حتى هرعتُ أطمئنُّ على والدي. كان في السرير وقد كسرت ثلاثة من أضلاعه وإصبعٌ، وانخلعتْ كتفه، إضافة إلى رضٍّ صدريٍّ شديد. رفض البقاء في المستشفى وفضّل الراحة في بيتٍ على شاطئ البحر. أدّى حضوري في غرفته إلى تنشيطه وتقويته. نهض بصعوبة ليظهر لي بأنّه معافى، وسألني إنّ كان كلّ شيء بخير في الرباط، وحتى قبل أن ألقي عليه وابلاً من الأسئلة، قال لي:

- وقع لنا حادث طائرة مروحية، عندما كنّا نحطّ في فسحة من

غابة. لحسن الحظّ، أُتيحَت لنا، عمّك إدريس وأنا، الفرصة لنتمكّن من فكّ أحزمتنا والقفز قبل الاصطدام.

لم أقاوم السؤال:

- هل هذا مجرّد حادث أم محاولة اغتيال؟

- لن أتأخّر في معرفة ذلك، هناك أصدقاء يعملون على ذلك. الآن، افتح عينيك وكن حذراً. لا تذهب إلى أيّ مكان دون أن تخبرني بذلك، مفهوم؟

سألته:

- هل أنت في خطر؟

صمت لبرهة قبل أن يجيبني:

- ليس أكثر من العادة.

رنّ الهاتف في اللحظة نفسها. رفع والدي السماعة، وضع يده على لاقط الصوت، وهمس لي:

- سنتحدث في ذلك فيما بعد، دعني الآن. إنّه الملك.

جرجرت قدميّ كما أذنيّ، آملاً أن ألتقط بعض الكلمات التي قد تعطيني إشارة. لسوء الحظّ، لم أسمع سوى إجابات والدي الرتيبة:

- نعم سيّدي... شكراً سيّدي... نعم سيّدي... أشكر جلالتكم على اهتمامكم...

لم أتأخّر أكثر وخرجت من الغرفة لأتحرّى كل جوانب المكان.

حينما وصلت إلى الشرفة، خلب جمال الأوقيانوس لبّي. كان الهواء لطيفاً، والنسيم عليلاً والأمواج هادئة بغرابة. اندهشتُ، وأنا أجول في البيت الصغير وحديقته المنحدرة، لرؤية الإجراءات الأمنية غير المعتادة التي تسوده. كان حضور رجال والدي دائماً وإن كان سرّاً ومتخفّياً وسط الناس. كانت هذه المرّة الأولى التي يحيط به انتشارٌ بهذا الشكل. لم يبارح جيرونيمو درجات غرفة النوم. كان جميع العيونيين مدجّجين بالسلاح. وبخلاف تحفّظهم الأسطوري، كانوا يحتفظون بالمسدّسات

والبنادق الرشاشة في أيديهم، ومخازنها معبأة. وككلّ البربر كانوا يشربون الشاي بإفراط. ولكن في أغادير، كانت ترامس القهوة هي التي تتجدّد باستمرار. كان رجال والدي يتناوبون في فرق من ستّة عناصر ليسهروا عليه ليلاً ونهاراً. قام قسمٌ منهم بالحراسة في الحديقة، وآخر في المبنى. فذهبتُ وانضممتُ إليهم على الشرفة المطلّة على الشاطئ. احتمينا من الضباب والرطوبةِ البحرية تحت إفريزٍ. ولم يتحرّك جيرونيمو من أريكته الموضوعة في ممرّ غرفة النوم. كان بين الحين والآخر يتناوب مع العربي ويأتي للانضمام إلينا على الشرفة. دخنّا هناك وتحادثنا بمرح في العراء والأضواء كلّها مطفأة. ولم نكفّ عن التعليق على الأحداث المستجدّة. استثمرتُ ذلك لأسأل جيرونيمو:

- هل كنت معهما في المروحية؟

أجابني مغتاظاً:

- كلاّ، طلب منّا الجنرال أن نسبقه، السائق وأنا، برّاً.

إلاّ أنني علمت بالتفصيل ما جرى في يوم «الحادث». في 14 أيار (مايو)، قرّر الحسن الثاني إقامة حفلة غداء مفاجئة على بعد بضعة كيلومترات من أغادير. ولم يُخبِر والدي بذلك إلا في آخر لحظة. أرسل له الحسن الثاني طائرة مروحية. قبل ربع ساعة من هبوط الطائرة الملكية على الشاطئ، تلقّى والدي اتّصالاً من الحسن الثاني طالباً منه الانضمام إليه في ذلك الاجتماع الطارئ.

- أوفقير، انضمّ إليّ لتناول الغداء، لقد احتفظت بذلك مفاجأةً لك، هذه هديّتي بمناسبة عيد الجيش. إدريس بن عمر في طريقه مع مروحيّتي لكي يصحبك إلى هنا. إلى اللقاء القريب.

أثارت هذه الوجبة الريفية ظنون رجال والدي. تشكّى العربي وجيرونيمو على الدوام من استهانة أوفقير في مواجهة الخطر. قالا لي:

- وضع الجنرال حدّاً لمخاوفنا.

لم يكن وجود الجنرال إدريس بن عمر على متن المروحية إلا ضماناً

هزيلاً. بالتأكيد لم يكن للملك أيّة مصلحة في القضاء على جنرالٍ إضافي، والذي علاوة على أنّه ذو خبرة رفيعة يحظى بالحكمة الكافية لئلاّ يتحداه أبداً، ولكن مَنْ يدري! صرف والدي النظر عن ملاحظة جيرونيمو حول خطر ركوب طائرة مرسَلَة من قبل الملك.

اختار الحسن الثاني أن يخيّم على بعد حوالي أربعين كيلومتراً من أغادير. وكانت أشجار قد قُطِعَت وسط الغابة لفتح فرجةٍ كبيرةٍ مغطاةٍ بالسجاد وخيَم الزعامة. وبالقرب منها تماماً، على بعد أقلّ من كيلومتر، فُتِحَت فرجةٌ أخرى كمهبط للمروحية الملكية، مباشرةً على طرف البيت الصغير لحارسِ الغابة. كان يُفتَرض أن تحوم المروحيّة التي تقلّ الجنرال إدريس ووالدي، لدى اقترابها، على مستوى أشجار الرابية وتهبط عملياً بشكلٍ عموديّ. فُرِشَت تلك الدائرة التي هُيِّئت على عجلٍ بطبقة سماكتها ثلاثون سنتمتراً من الرمل الناعم المغربَل بعناية. لدى هبوطها نحو الفُرجة، أثارت المروحية زوبعةً من الغبار بحيث فقد الطيار، لانعدام الرؤية تماماً، السيطرة عليها. ارتطمت شفرات المروحة بمدخنة البيت الصغير المختفية بين أوراق الشجر، فاشتعل المحرّك، تطايرت المروحيّة للحظة معلّقة ثمّ هوت كصخرةٍ إلى جانب المبنى الصغير. خلال تلك الثواني القليلة، فكّ والدي، الذي كان يسافر والبابان الجانبيان مفتوحان، حزامه، طالباً من إدريس أن يفعل مثله. أمسك بيد صديقه وسحبه في قفزةٍ مجنونة. ولم يُخفِّف سقوطهم من علوّ حوالي ستة أمتار سوى أغصان الشجر. شاهدهما جيرونيمو يقفزان على بعض الأغصان ويتقصّف بعضها الآخر تحتهما، وينحدران كدميتين مخلّعتي الأوصال ليهبطا على الأرض مع العديد من الرضوض والكسور.

قطع الملك اجتماعه الريفي ليذهب إلى مكان الحادث.

روى لي جيرونيمو:

- كنا ننتظر، المساعد حمو وأنا، وصول المروحية. حينما شاهدتُ المروحية تتطاير والجنرال يقفز، هرعتُ نحوه. كنت على قناعة بأنّه لن

ينجوَ. حينما وصلتُ إليه وجسسته، كان فاقداً للوعي تملأ الدماء أنفه وفمه. هرع المساعد نحو الجنرال إدريس الذي كان يرقد على بعد أمتارٍ منه. ظلّ والدك يترنّح لخمس دقائق. كنتُ أخشى من نزيفٍ داخلي. كانت الصدمات بالأغصان عنيفة وكثيرة. ما إن استعاد وعيه، استند الجنرال على مرفقه وسألني وهو يتقصى بحركةٍ من رأسه حوله: «كيف حال إدريس؟» ثمّ نهض مقوّس الظهر وقال لي، وهو يتجّه نحو بن عمر: «حاول أن تجد لي لباساً بديلاً، تكفي بزّة عسكرية بسيطة. لا أريد أن أحضر أمام الملك بهذه الحال.»

وشرح لي جيرونيمو أنّه حاول أيضاً أن يقنع والدي بالمغادرة الفورية للمكان ليعود إلى أغادير وتجنّب طرق الغابة الرئيسية المراقَبة من قبل جهاز الأمن الملكي. رفض والدي ولكن الجنرال إدريس نجح في إقناعه وهو يدفعه دفعاً إلى داخل السيارة:

- انصرف يا أوفقير... تفوح رائحة عمليّة مدبّرة! لا تقلق بشأن الملك، سأذهب للقائه!

حينئذ أمر الجنرال بن عمر المساعد أوّل حمو بالإقلاع.

كنّا لا نزال نعلّق على الحادث حينما أُعلِمنا عبر الجهاز اللاسلكي بوصول سيارتين. جرى الاستعداد للقتال. وسرعان ما همس جيرونيمو والعربي أوامرهما. تبدّد العيونيون، الهادئون الصامتون، كمثل السحر. كلٌّ اتّخذ موقعه. توقّفت السيارتان أمام المدخل. نزل منهما الجنرال مولاي حفيظ والكولونيل الدليمي، يتبعهما جبّارٌ ذو شعرٍ كستنائيّ ضارب نحو الأخضر، مشذّب، إنّه الطبيب اليوغسلافي للقصر. ذهبتُ لملاقاتهم لكي أفتح الباب الصغير الذي يفصل المدخل عن الدرج. وقف جيرونيمو خلفي، وجاء إدريس وبوطويل ليفتحا البوابات. عانقتُ الدليمي ومولاي حفيظ ثم أدخلتهما إلى الصالون وهرعتُ أخبر والدي. قال لي:

- قدّم لهما شيئاً ليشرباه ودعهما ينتظران.

حوّلت الأمر إلى المطابخ حينما جاء أحد رجال والدي مسرعاً يبحث عنّي:

- تعال بسرعة، هناك مشكلة على الباب.

هرولت في أعقابه ووجدتُ جيرونيمو ولامين، مرافق الدليمي، على وشك أن يشتبك أحدهما مع الآخر. وجد لامين، الذي أراد أن يلحق بمعلّمه إلى الداخل، نفسه يوقَف بجفاء من قبل مولاي علي. رأى المرافق في ذلك تعمّداً للإهانة ولم يتحمّله. فأمسك جيرونيمو بالباب الصغير الذي يبلغ ارتفاعه حتى خصره وأغلقه بقوّة، بينما تشدّ يده الأخرى على مقبض مسدّسه 38 Smith & Wesson.

- أنت مسلّح، إذاً ابق حيث أنت، لا تتجرّأ على عبور هذه البوابة، وإلاّ سأقتلك!

فوصلت في الوقت المناسب لتلافي حادثٍ. تباكى لامين معبّراً لي عن غيظه وذكّرني بأنّه عرفني مذ كنتُ طفلاً . وأعاد إلى ذاكرتي سويسرا ومشاركته في الموكب الذي أعادني إلى المغرب. حاولت أن أهدئ جيرونيمو ليكظم عدوانيته ونبّهتُ لامين ألاّ يتقدّم خطوة أخرى بانتظار أن أعود إليهما. اندسستُ في الصالون وشرحتُ باقتضاب وبنبرة عتب الموقف للدليمي. لحق بي في الحال وخرج يعنّف مرافقه بصوتٍ مرتفع وبإفراط. وكاد الدليمي يعتذر من جيرونيمو. أمر لامين بألاّ يبارح سيارته. لدى عودتنا إلى الداخل، نحى بي الدليمي جانباً وطلب أن أتكرّم عليه بألاّ أخبر والدي بهذا الحادث.

في الصالون، أبدى الجنرال مولاي حفيظ نفاد صبره بتهذيب، توجّه إليّ:

- سيّدنا، حفظه الله، ينتظر بتلهّف أخباراً عن أوفقير. هلاّ ذهبت لترى إن كان بوسع والدك أن يستقبلنا؟ يجب أن يراه الدكتور ليقدّم تقريره إلى جلالته.

تمهّل والدي في ارتداء ثيابه والجلوس في أريكةٍ قبل أن يلتقي

بالمبعوثَين الملكيين اللذين استعلما عن أخباره ونقلا إليه تمنيات الملك له بالشفاء العاجل. استطرد مولاي حفيظ:

- لقد حضر طبيبٌ لكي يفحصك. يريد جلالته أن يتأكّد من أنّك سليمٌ معافى وأنّ كلّ شيء بخير.

امتثل والدي. قال له الطبيب اليوغسلافي المتمرّس بصوته الأجشّ:

- سأحقنك بمسكّنٍ للألم، سيّدي الجنرال، وسيمكنك بذلك أن ترتاح.

أجابه أوفقير:

- يخجلني أن أسرّ إليك بهذا، يا دكتور، ولكنّ الشيء الوحيد الذي يخيفني في هذه الدنيا هو حقن الإبر... فأعطني قدر ما تريد من الأقراص واحتفظ بمحاقنك.

نفّذ الطبيب الأمر. لم يتأخّر الزوار، فالملك بانتظارهم. حالما خرجوا، طلب مني أبي استدعاء مولاي علي. وبحضوري، أفرغ ثلاثة أرباع الأقراص في المرحاض، وسلّم البقية لرجل ثقته. خرجنا، جيرونيمو وأنا، لندعه يرتاح. ولم يكن من الصعب عليّ أن أفهم أنّ على مولاي علي إجراء تحليلٍ لذلك العقار.

صبيحة اليوم التالي، سمعنا صخب موكبٍ رسميٍّ مع درّاجين وصفارات إنذار يقترب من البيت الريفي. عاينتُ باحتراسٍ وانتباه لأرى إن كان الملك هو القادم. ما إن لمحتُ الدرّاج الأوّل والسيارة الأولى، تأكّدتُ من أنّه ليس هو. طبعاً لم يكن للموكب الحجم والأبّهة اللذان يصاحبان الطلعات الرسمية للحسن الثاني. ومن خلال العلم الصغير المنصوب على إحدى سيارات الليموزين، هرعتُ أخبر والدي بأنّ وفداً جزائرياً يزوره. ومثلما سبق أن ذكرت، أجرى والدي منذ وقتٍ طويل مفاوضات سرية ومتواصلة مع جيراننا. مسمّراً في السرير، لم يستطع حضور الجولة الختامية لما تفاوضّ عليه بضراوة. في نهاية رحلته إلى المغرب، خرق الوفد الجزائري، بقيادة عبد العزيز بوتفليقة، البروتوكول. لدى خروجهم

من المباحثات الختامية مع الحسن الثاني، غادر الجزائريون القصر الملكي في أغادير وطلبوا في الطريق أن يُؤخَذوا إلى حيث أوفقير. استقبلتُ بوتفليقة ومَنْ معه ورافقتهم إلى الصالون. انضمّ إليهم والدي، الذي لبس كيفما كان، وهو يمشي بمشقّة. كان المزاج رائقاً. كرّر العقيد زرقيني، رئيس الاستخبارات الخاصّة، دعوته لي إلى الجزائر. ضحكنا وثرثرنا إلى أن علِمَ والدي من الجزائريين بأنّ كلّ ما كان قد تفاوض عليه مع بومدين قد دُفِن من قبل الحسن الثاني. فطلب والدي مني أن أغادر الصالون، الأمر الذي لم يمنعني، بتواطؤٍ من جيرونيمو، من استراق السمع. وإذا كان فضولي طبيعياً، فإنّ فضول المرافق لم يكن له سوى غرضٍ وحيد وهو أمن رئيسه. ما فهمته هو أنّ الملك تنصّل من الاتفاق الذي كان الجزائريون على استعدادٍ لتوقيعه. الأمر الذي أثار ضغينة والدي تجاهه.

وسأحصل على المزيد من التفاصيل بعد ذلك بحوالي خمسة عشر يوماً بحضوري للسهرات الطويلة التي أمضاها والدي عند الجنرال إدريس. ولأنّه كان يشعر بالحاجة إلى أن يكشف قلبه لصديقه، طلب منّي أن أقوم بالخدمة. وذات ليلة، سمعتهما يعودان إلى أحداث أغادير. اتّهم الملك بالتضحية بالمصالح الوطنية لصالح بقائه الشخصي من خلال التوقيع على اتفاقيات أمنية سرية وتشكّى إلى صديقه:

- طوال عامين، يا إدريس، وأنا أفاوض بومدين خطوة بخطوة وبهدوء. وكنّا قد توصّلنا أخيراً إلى اتّفاقٍ كان من شأنه أن ينزع بشكلٍ دائم خطر كلّ نزاعٍ بين بلدينا. قلتُ لبومدين إنّه إذا كانت الجزائر تطمع في الصحراء الغربيّة فذلك لكي تحقّق حلمها القديم في أن يكون لها منفذ على الأطلسي لصادراتها من الغاز والحديد والنفط. وبموافقة الملك، اقترحتُ عليه تعاوناً اقتصادياً موحّداً لمصالحنا المتبادلة. كان يُفتَرَض أن نتشارك في بناء خط سكك حديدية يربط الجزائر بمدينة العيون[1].

---

(1) ميناء وعاصمة الصحراء الغربية.

والمقصود من ذلك هو الاستثمار المشترك في البنى التحتية للتنمية الخاصّة بالموانئ، والسماح للسفن الجزائرية بالدخول إليها لقاء رسوم معيّنة. كما اتّفقنا على الاستثمار المشترك لمناجم الحديد في جبيلات ولقسم من مناجم الفوسفات، شريطة أن تتخلّى الجزائر عن أطماعها في الصحراء وأن تبيع لنا الهيدروكربورات بسعرٍ مستقرٍّ وتفضيليٍّ. ولكنّ الملك شطب كلّ هذا! فقط مقابل منافع أمنية مبتذلة محل حساب المصالح الحيوية للبلاد!

الآن فقط يمكنني، بالرجوع إلى الوراء، أن أكشف عن دوافع الحسن الثاني حول هذه النقطة. في الوضع الذي تركه انقلاب الصخيرات فيه، كان عليه أكثر من أي وقتٍ مضى أن يبدي الريبة والخديعة، بل والعنف لكي يفرض نفسه. لم تكن له أيّة مصلحة في أن يتّحد الجزائر والمغرب ويتعاونا بصدق، في حين أنّ اتفاقاً كهذا قد يقود نحو «المَخْرَج». كان يرى أنّه يجب أن تبقى ورقة الصحراء جوكر الملكية! فبهذه الورقة الرابحة سيتمكّن الملك من إعادة خلق الوحدة من حوله فيما إذا وجد نفسه يقع في ضيقٍ شديد. لو كانت المسألة الترابية قد سوّيت في عام 1972، لما عاد الملك يحظى بشبكة الحماية القادرة على إنقاذه من السقوط الحرّ الذي كان السادس عشر من آب (أغسطس) قد تسبّب به.

بعد ثمان وأربعين ساعة من «حادث» المروحية، كنّا ما نزال في أغادير. نحو الساعة الثانية فجراً، تلقّى والدي زيارةً غريبة. جالساً في الشرفة تحت الإفريز، شاهدتُ ثلاثة رجال يصعدون من الشاطئ نحو البيت. ساروا رتلاً ليجتازوا منحدر الحديقة. فتح لهم جيرونيمو الطريق. حينما وصلوا إليّ، دُهشتُ لاكتشاف ثلاثة أوروبيين يرتدون سراويل البرمودا وصدارات هاواي. كانوا فرنسيين، مندوبين للنادي المتوسّطي المجاور. تعرّفت على واحدٍ منهم، إذ غالباً ما شاهدته في البيت. كان ووالدي يعرفان بعضهما منذ الحرب في الهند الصينية. لم أكن أعرف

سوى اسمه، وهو بالتأكيد مستعار: مسيو هنري. إنّه سمكة، كما كنّا، جيرونيمو والعربي وأنا، ندعو رجال SDECE، في إشارة إلى «المسبح»، اللقب شبه الرسمي لجهاز الاستخبارات السرية الفرنسية. استقبل والدي بحرارة صديقه والرجلين المرافقين له. توقّعت، وأنا أخدم الضيوف، أن يطلب منّي والدي الخروج. حتى أنّ مسيو هنري توقّف عن الكلام. ولكنّ أوفقير أشار له بمواصلة الحديث، وبالتفات إليّ، قال:

- لا مشكلة... الأمر يعنيه أيضاً.

في الواقع أخبره الفرنسيون بأنّ المروحية التي كانت تقلّه قد خُرِّبت بالكثير من المهنية وبأنّهم مقتنعون تماماً بأنّ «الحادث» كان مدبّراً. كيف يمكن أن نفسّر بخلاف ذلك واقع أن الرمل الناعم الذي فُرِشَت به الفُرجة قد أُرسِل خصيصاً من شواطئ أغادير؟ بالمقابل، لم يكن مسيو هنري متأكّداً من أنّ الزوبعة المثارة كانت سبب سقوط المروحية. حسب ما استطعت فهمه، لم تتمكّن لجنة التحقيق المرسلة من قبل الشركة الفرنسية المصنّعة الوصول إلى حطام المروحية. السبب الرسمي الذي ذُكِر: أتى حريقٌ على المحرّك وحجرة الطيار. لدى مغادرته والدي، عانقه مسيو هنري بصدق وهمس له:

- اعتن بنفسك، يا أوفقير، إلى اللقاء القريب!

وتوارى «سوّاح» النادي المتوسّطي بالطريقة التي أتوا بها.

في اليوم التالي، استدعاني والدي:

- من المفترض أن يقوم الملك غداً برحلة إلى تافراوت[1]. ولن أتمكّن من الذهاب إلى هناك. يدعوك جلالته لمرافقته. اذهب وشذّب شعرك. ومن ثم ستذهب مع مولاي علي لتختار بزّة عسكرية. غداً، ستشغل سيارتي الرسمية في الموكب الملكي. وسيرافقك الجنرال إدريس. وسيذهب معك مولاي علي والعربي وسليمان وإدريس

---

(1) مدينة مغربية تقع في الجنوب.

وبوطويل. غداً، اجلس جيّداً وتكلّم قليلاً واسمع ما سيقوله لك عمّك إدريس.

ذُهِلت. لم يطلب منّي والدي قط تمثيله لدى الملك، ولا أن أرتدي بزّة عسكرية، فسألته:

- ولكن لماذا علي أن أرتدي لباساً عسكريّاً؟

أجابني:

- لأنّك ستجد نفسك على متن سيارة اللواء وهي خاصّة فقط بنقل العسكريين. لا أريدك ان تلفت الانتباه بالزيّ المدني لدى مرور الموكب. والآن كفّ عن طرح الأسئلة، ثق بي وافعل ما أقوله لك.

فقمتُ برحلة تافراوت مع الملك. في طريق العودة، أوقف الحسن الثاني موكبه في أرضٍ مكشوفة لينشّط ساقيه. في المملكة الشريفية، حينما يتنقّل العاهل على الطريق، يتم إغلاق الطريق الذي يسلكه، والذي قد يكون لمئات الكيلومترات، أمام حركة المرور. حينما ترجّل الملك من السيارة، حذا الجميع حذوه، ولكن لم يبتعد أحد عن سيارته الخاصّة. وحدهم رجال الأمن الخاصّ رافقوا الحسن الثاني في مشيته. فطلب مني الجنرال مولاي حفيظ أن أرافقه لتحية جلالته. تحدّث الملك معي للحظات وهو يواصل مشيته. وبدا ودوداً وظريفاً وأبوياً. سألني عن صحّة أوفقير وطلب مني أن أنقل إليه تمنياته بالشفاء.

ما إن وصلنا إلى أغادير، قابلتُ والدي الذي كان ينتظرني. أراد، وهو لا يزال في السرير، أن أروي له تفاصيل الرحلة. ألحّ على ألاّ أفوّت حرفاً من حديث الحسن الثاني. في الأيام التالية، غادرنا أغادير لنعود إلى الرباط. ولن أعرف السبب الحقيقي لذلك القرار الغريب والشاذ تماماً إلاّ بعد موت والدي. فقد كشف لي جيرونيمو أنّ والدي كان قد خطّط، بعد اعتداء المروحية، أن يعتقل الملك خلال رحلته إلى تافراوت. وأنّ مسيو هنري الشهير كان قد سلّمه خلال زيارته عتاداً خاصّاً ضرورياً للعملية. وكان جيرونيمو والعربي ومصطفى وسليمان قد كلّفوا بالقيام بإلقاء القبض

على الأمن الخاصّ للحسن الثاني. ولكن الملك الذي كان قد فشل في القضاء على أوفقير والذي كان يتحسّب لردّ أوفقير على «مجاملة المروحية»، كان قد اتّخذ، باستضافتي، عربون أمنٍ مطلق. نوعٌ من أخذ رهينة سيغضب والدي ويعلن نهاية شكوكه. وتلاشى في الحال ما تبقّى من الاحترام الذي كان لا يزال يكنّه لمليكه.

منذ ذلك الحين، بدأت المبارزة، والأسرع منهما في توجيه الضربة القاضية سيحظى بفرصٍ قويّة للنصر. في نفس يوم تنفيذ الإعدام بدون محاكمة بحقّ رفاقه المتورّطين في حادثة الصخيرات، قرّر أوفقير إقصاء الحسن الثاني. من جهته، عقد الملك النيّة، منذ تمرّد جيشه، على أن يقطع، في أقرب فرصة، الرأس الوحيد المؤثّر سياسياً الذي تبقّى. وإذا كان يحتاج مؤقّتاً إلى أوفقير لسدّ الثغرة التي فتحها الانقلاب العسكري، فإنّ الحسن الثاني لم يعدم النية الحازمة على أن يتخلّص من وزير دفاعه، ما دام الدليمي على أتمّ الاستعداد لخلافته. كما أبقى الحسن الثاني، كملكٍ مجرّب، تحت يده «بديل البديل»، إدريس البصري، وزير داخليته المقبل. لقد نسب الجميع، وأنا أوّلهم، وبغاية السهولة، إلى أوفقير «الأبوّة» السياسية الأمنية لإدريس البصري، ولكن التاريخ سيُثبت أنّ أيّة وظيفة رفيعة أو ثانوية، أيّ قدرٍ وطنيّ، ما كان ليتمّ دون الإرادة الصريحة للحسن الثاني، ملك الحقّ الإلهي.

منذ الصخيرات، دخلنا في حلقة سريعة وخطِرة. وإذ أصبحتُ قريباً من والدي بشكلٍ متزايد، تفاقمت دهشتي كشاهدٍ يوميٍّ على لعبة أخيلة، وتتابع تطوراتٍ لم أنجح بعد في التنبؤ بغايتها.

قبل مغادرة أغادير، شاهدتُ واقعة مدهشة جدّاً وحافلة بالمعاني لدرجة أنّه كان عليّ أن أتأكّد منها بنفسي لكي أصدّقها. في اليوم التالي لرحلة تافراوت، وبينما كان البيت الريفي هادئاً، جاء جيرونيمو، حوالي الساعة الواحدة فجراً، يبحث عنّي في الشرفة:

- الجنرال يطلبك.

ثمّ توجّه مولاي علي بالبربرية إلى سليمان ومصطفى والعربي. تحيَّرت. كان باقي العيونيين في عطلة. قال لهم جيرونيمو:

- لقد أُرهِقتم بالعمل هذه الأيام، يمكنكم الانصراف لترتاحوا، وكونوا هنا غداً عند العاشرة صباحاً.

خلا البيت الريفي. ذهبتُ أدقّ الباب على والدي. كان جالساً على سريره، يتصفّح بعض الملفّات والصحافة العالمية. كانت تحيط به أكداسٌ من المقالات التي تعلّق على الرغبة الفرنسية في العفو عنه. جلستُ لبرهةٍ على حافة السرير، ثمّ طلب إليّ أن أساعده على النهوض وعلى ارتداء بنطالٍ وقميص. قال لي:

- أرغب في المشي لأنشّط ساقيّ.

لم أقتنع بأنّ هذا هو دافعه الحقيقي. بالتأكيد لم يكن في وضعٍ مثاليّ للتنزّه! ولكن منذ وقتٍ طويل، تبدو لي الأشياء الأكثر لامنطقيّة طبيعيّة...

كانت الساعة الواحدة والنصف فجراً. خرج والدي إلى الشرفة، جلس على كرسيٍّ ودخّن وهو يرنو إلى الأوقيانوس. كان الليل مقمراً والسماء مرصّعة بالنجوم. نظر أوفقير مرّات عديدة إلى ساعته. اقترب منه جيرونيمو، الذي لم يكن بعيداً عنه، وانحنى عليه. لم أسمع كلامهما. امتثل مولاي علي بإيماءةٍ من رأسه، وتوارى. وبينما كنتُ أتحدّث مع والدي عن أمورٍ مختلفة، تعقّبت جيرونيمو بنظري. غاب لبضع دقائق ثمّ عاد ووقف باستعداد على بعد عدّة أمتار خلف رئيسه. فلمحتُ شبح شخصٍ ينحدر نحو الشاطئ: إنّه العربي. لا شكّ أنّه بعد الحديث المقتَضَب بين جيرينيمو وأوفقير ارتدى معاونه ثوباً فضفاضاً فوق بزّته وتوجّه نحو الشاطئ. ماذا سيفعل هناك؟ افترضتُ أنّه ما دام ارتدى جلباباً وترك يده اليمنى مدسوسة تحته، فذلك لأنّه يحتفظ سرّاً على فخذه بسلاحٍ طويل السبطانة. ربّما قد كُلّف من قبل جيرينيمو بتفتيش الجوار. ولكنَ

لماذا أُعطيت إجازة لغالبية العيونيين حتى الساعة العاشرة من صباح اليوم التالي؟ كنتُ لا أزال أتساءل حول ذلك، حينما نهض والدي:

- سأتغيّب للحظة. إذا كنت تريد الذهاب إلى الكاسبا، عند عمّك فريدمان، خذ معك إدريس وبوطويل وسليمان.

عمّو هنري، مثلما كنتُ على الدوام أخاطبه، صديقٌ قديم للعائلة. هو ناجٍ من المعسكرات النازية، وأحد وجهاء مدينة أغادير التي يمتلك فيها فندقاً صغيراً لقضاء العطلة. كنتُ سأبدّل طواعية أفكاري في الكاسبا، ولكنّ ميولي كمراهق تلاشت شيئاً فشيئاً بانغماسي في قلب مؤسسة المَخْزن. إنّ الولادة والنموّ في سراي الحسن الثاني بمثابة انغماسٍ في عالمٍ غير واقعيّ ذي تناقضاتٍ صارخة، قويّ جدّاً بحيث يبدو أن حياةً طبيعية باهتةً تختبئ خلف رفاهية العيش ولباقات المَلَكية دسائسُ شكسبيرية وعنفٌ قروسطي. كان عهد الحسن ثانياً مزيجاً من الحداثة المختلقة والممارسات الإقطاعية. كان الملك نفسه مثالاً واضحاً على ذلك. فهو يرتدي على آخر دُرجةٍ، ويُدهش محدّثيه بذكائه وبراغماتيته وثقافته الواسعة وسحره المؤكّد ولكن ما إن يلج من باب قصره الباذخ، يغرق في عالمٍ ذي أخلاقٍ جاهلية. ما وراء الجدران المقدّسة للمباني الملكية، يعود «الملك المتنوّر»، كما يحلو لوسائل الإعلام الغربية وصفه، خليفةَ الحقّ الإلهي الذي له حقّ الحياة والموت على رعاياه. منذ أن أطلعني والدي على بعض الأسرار، وجدتُ أنّ الحياة التي أعيشها إلى جانبه أكثر إثارةً من اهتمامات سنّي. كما رفضتُ بلطف اقتراحه الرقيق وقلت له إنني أفضّل البقاء لفترةٍ مع إدريس وبوطويل في المرآب قبل أن أذهب للنوم. راقبني ليتحقّق من صدقي:

- حسنٌ، كما تريد. . . ربّما سأذهب لأتمشّى قليلاً على الشاطئ. ليلة هانئة.

وإذ لم يَدْعُني لمرافقته، امتنعتُ عن الإلحاح عليه. قبّلته وغادرتُه لأذهب إلى المرآب.

شرعنا، إدريس وبوطويل وأنا بلعبة ورق. على كلّ حال، بالكاد مضت عشر دقائق حتى عدتُ، لا أدري صدفةً أم فضولاً لاشعورياً، إلى البيت أبحث عن سجائر. من خلال نافذة الغرفة المطفأة النور، شاهدتُ والدي ينزل بتعجّل الدرج الحجريّ الذي يقود إلى الشاطئ. فتحتُ النافذة فطرياً لكي أراه على نحوٍ أوضح. كان الليل واضحاً بما فيه الكفاية لكي أتمكّن من رؤيته، متبوعاً بجيرونيمو، يبتعد على الرمل. جاءهما شبح رجلٍ. يسير في إثره ظلٌّ آخر على بعد مترين. تعانق والدي والرجل المجهول. وبقي جيرونيمو والشخص الآخر كلّ في مكانه. ذرع أوفقير والزائر الغريب الشاطئ جيئةً وذهاباً. جريتُ إلى المرأب. تساءل إدريس وبوطويل إن كان العفريت في أثري. تخطّيتهما لأتناول منظاراً مقرّباً بالأشعة تحت الحمراء، وخرجتُ ثانيةً كالسهم. قال لي إدريس بلا مبالاة:

- اهتم بأمر مَنْ يراك...

لكنني كنتُ قد ابتعدت. حينما ضبطتُ العدستين، كشفتُ وجه الرجل. حبستُ أنفاسي... إنّه العقيد الدليمي!

لم أعد أفهم شيئاً... منذ قضية بن بركة، كان الوسط المباشر لأوفقير يُعدُّ الدليمي خائناً، وسبباً لحلول الخطر. ودلّت الحادثة بين جيرونيمو ولامين على توتّر العلاقات بينهما. وها هو في أوج «التضارب الخفيّ» بين الحسن الثاني وأوفقير تحدث هذه المقابلة الغريبة... تحادث والدي والدليمي معاً بحماسةٍ بحيث بدا لي أنّهما شريكان. أذهلني ذلك! تدافعت الأسئلة في رأسي لدرجة أنني سهوتُ للحظة عن المشهد الجاري تحت أنظاري. استمر ذلك الموعد الليلي حوالي عشرين دقيقة. تعانق والدي والدليمي كما كانا يتعانقان حينما كانت علاقاتهما متينة، ثمّ افترقا. سلك كلٌّ منهما متبوعاً بمرافقه طريقاً معاكساً. غاص الدليمي ولامين نحو الكثيب الرملي؛ وصعد والدي وجيرونيمو نحو البيت. جهدتُ لأعود إلى المرأب. ولج والدي غرفته. حينما عاد مولاي علي إلى أريكته في

الممرّ، لم أقاوم رغبتي في استدراجه إلى الكلام. بدا على وجهه، وهو الكتوم جدّاً وهادئ الأعصاب، قلقٌ شديد. لا بدّ أنّه كان يطرح على نفسه الأسئلة نفسها التي طرحتها على نفسي. وردّاً على غاراتي المتكرّرة، اكتفى بأن أجابني:

- اطرح هذه الأسئلة على الجنرال. . . وإذا لم يجبك فلأنّ لديه بلا شك أسباباً وجيهة.

لم ألحّ. ذهبتُ لأنام.

بعد ذلك ببضعة أيام، غادرنا أغادير إلى الرباط. وظلّت العديد من الأسئلة تلحّ عليّ. فحدثت واقعة أخرى عقّدت تأملاتي أكثر.

سيحضر الملك استعراضاً عسكرياً مع قفزٍ ليليٍّ للمظليين. كان يفترضُ أن يجري الاحتفال في مطارٍ يقع خلف فندق هيلتون الرباط. تردّد الحسن الثاني في البداية في الذهاب إلى هناك. وخشية من أن يفسّر هذا التملّص من قبل أوفقير كدليلٍ على أنّ الملك حاول قتله في أغادير، عدل العاهل عن رأيه متّخذاً في الوقت ذاته احتياطات. قبل ساعةٍ من بدء الاستعراض العسكري، طلب من الأمير مولاي عبد الله أن يصطحبني معه. فوجدتُ نفسي في المنصّة الرئيسية خلف الملك وشقيقه مباشرةً. وفي حين رأت الحاشية في حضوري دليل رعاية، وحظوة إضافية من الملك تجاه أوفقير وعائلته، كنتُ أُستخدَم، دون أن أعرف ذلك، مرّة جديدة كترسٍ ودرع حماية. كان مولاي عبد الله غاضباً ولكنه لم يذكر لي سبب ذلك. . . تلقّى والدي تلك الضربة الوضيعة بصمت. بيد أنّه فاتح بها الجنرال إدريس أمامي، دون أن يجد الكلمات القاسية بما يكفي لوصف تصرّف الحسن الثاني. في ذلك المساء، كانت كلماته قويّة جدّاً بحيث انطبعت في ذاكرتي وبثّت فيّ قلقاً بارداً:

- إدريس، هذا الملك ليس محمد الخامس. لا يحبّ بلاده. لا يحكم سوى من أجل رغباته. ولا يعاقب سوى لإرضاء عجرفته وحقده

الشخصي، ولكنّه لا يفعل ذلك في سبيل المصلحة العامة! طوال سبعة عشر عاماً وأنا أخدم بإخلاص العرش كما أقسمت على ذلك لصاحب الجلالة المرحوم محمد الخامس. في اللحظة التي ينفصل فيها الملك عن شعبه، لا يخلّ بوظيفته فحسب بل وبواجباته أيضاً!

كانت المباراة بين الملك وأوفقير في ذروتها. تظاهر الحسن الثاني، الذي ظلّ محيّراً، تارة بالثقة، وزار، وحيداً وفجأةً، والدي؛ وتارةً بالتحدّي من خلال استقباله بحضور المرافقين المختبئين خلف الطنافس. في أسوأ التقاليد الفلورنسية، تابع السيد المطلق وتابعه الموشك على التمرّد «لعبة الاستغماية» القاتلة خاصتهم . . .

انهمك والدي في المزيد من العمل. لاحظتُ أنّ المواعيد السرية تتزايد وكذلك الاحتياطات المحيطة بها. كان مسرح تلك الاجتماعات السرية والمغلقة بيتاً صغيراً يقع قبالةَ منزلنا في جادة الأميرات بالرباط. كان القبو ومخزن الغلال فيه يُستخدمان للمهملات، وكان صالونه ضيّقاً وحديقته صغيرة جدّاً، ولكنّه امتاز بكونه متواضعاً وبالتالي سريّاً. يحرسه أربعة عيونيين ليلاً ونهاراً.

ذات ليلة، رافقتُ والدي إليه. كانت الستائر مسدلة في قاعة الجلوس الوحيدة. ويتربّع على طاولةٍ خفيضةٍ جهاز تسجيلٍ ضخم أسود اللون. وفي ركنٍ منها، طاولةٌ صغيرة عليها آلة كاتبة وعلبة كرتونٍ تحتوي على شرائط ممغنطة غير مستعملة. الحجرة مضاءةً بقنديلي سريرٍ فقط. وهناك مشروبات وشطائر على المكتب. أقنعتني كلّ تلك التفاصيل بأنّه يتم التحضير لاجتماعٍ مديدٍ وأنّ الليل سيكون طويلاً. شكرني والدي وطلب منّي المغادرة. وإذ لم أجرؤ على الإفصاح عن رغبتي في البقاء، عرفت كيف أنال ما أريد:

- سأدعك. إن احتجت إليّ، فإني لستُ بعيداً.

- سأنزل مع المرافقين إلى المرأب.

توقّعتُ أن يعرض عليّ العودة إلى البيت، ولكنّه تمتم وهو يرتّب ملفاته:

- نعم، نعم، اتّفقنا. إن احتجتُ إليك فسأدعوك.

خرجتُ أنضمّ لجيرونيمو والعربي، اللذين ظهر عليهما بوضوح أنّهما غير ميالين للإصغاء إليّ. تركاني أدخّن سيجارةً معهما، ثمّ حثّاني على الذهاب إلى وراء البيت لمشاهدة التلفاز مع العيونيين. تجاوزت الساعة العاشرة، وجلستُ إلى طاولةٍ لألعب الورق.

نحو الساعة الحادية عشرة والنصف، خرجتُ من المرأب لأذهب وأخفّف عن مثانتي. في ممرٍّ ضيّقٍ معتمٍ ومسدودٍ بخمائل شجرةٍ مثمرة، توقّفتُ لأرتكب «إثمي». حينما سمعتُ فجأةً، من الطرف الآخر للحديقة، صريراً خفيفاً لجرسٍ، والضجّة المخنوقة لبابٍ أُغلِق. من المكان الذي كنتُ فيه، لمحتُ مجموعة من الرجال تصعد الدرجات الثلاث للشرفة ليدلفوا إلى البيت. استقبلهم والدي على درج المدخل. لم أميّز وجوههم ولكنني أحصيت أربعة زوّار. نهشني الفضول ولكنّ الواجب دعاني للتعقّل. وكلّما أطلعني والدي على سرّ، حرصت على ألاّ أخون ثقته. فعدتُ بتعقّل إلى المرأب، محاولاً عبثاً أن أتسلّى لأُسكتَ الأسئلة التي كانت تنقضّ عليّ. نحو الساعة الواحدة فجراً، جاء جيرونيمو راكضاً في طلبي:

- الجنرال يطلبك.

بلمحة أصبحتُ في بهو البيت. سحب والدي درفتي الباب وأمسك بهما مفتوحتين قليلاً وهو يسندهما بكتفيه. الأمر الذي لم يمنعني، وقد حدتُ لبضعة سنتمترات، من أن ألمح الضيوف المقيمين في الصالون. كان هناك إدريس السلاوي، أحد أهمّ مستشاري الملك، ورضا أگديرة، العقل المدبّر للحسن الثاني وشخصيتان أخريان. حينما اكتشفت سيماءهم، تحيَّرتُ للغاية! إنّهما عبد الرحيم بوعبيد، زعيم الاتحاد

الوطني للقوى الشعبية، وعبد القادر، شقيق المهدي بن بركة! سبق أن زار هذا الأخير أبي، ولكن في سياق كهذا! لم يحدث أبداً. ماذا عساهم أن يفعلوا بوعبيد والسلاوي وأگديرة وعبد القادر بن بركة معاً عند أوفقير، في ساعةٍ متأخّرة من الليل، وفي السرّ؟ قال لي والدي الذي لم يفته فضولي وكأنّ شيئاً لم يكن:

- تفضّل، ها هو مفتاح خزنتي. اذهب إلى غرفة نومي، واجلب لي ظرفاً كبيراً والمفكّرتين الموضوعتين فوقه. احرص على أن تعيد إغلاق الخزنة بعناية. قل لمولاي علي أن يرافقك. وأن لا يبارحك إلى أن تجلب لي ما طلبته منك. آه، اجلب سجائر أيضاً!

امتثلت في الحال. ما إن أصبحتُ في الحديقة، دعوت جيرونيمو من بعيد وأخبرته. خرجنا من البيت الصغير، وعبرنا الشارع وذهبنا إلى منزلنا. نفّذ جيرونيمو الأوامر بدقّة. انتظرني أمام غرفة والدَيّ. حينما خرجتُ منها، لحق بي جيرونيمو وركضنا ونحن نحمل الظرف الكبير وكذلك المفكّرتين. دخلتُ إلى البهو، نقرتُ خلسةً على باب الصالون، وانتظرت أن يفتح أبي الباب. ظهر تاركاً درفتي الباب الجرارتين مفتوحتين بعض الشيء. انتهزت فرصة ذلك، وأنا أؤدّي مهمّتي، لكي أثبّت بنظرة مقتضبة ما رأيته في المرّة الأولى. لم أكن مخطئاً. كان الأشخاص الذين تعرّفتُ عليهم لا يزالون موجودين. وبدا أنهم يتناقشون بحدّة. كانت الغرفة تعجّ بالدخان، والستائر لا تزال مسدلة، وياقات القمصان مفتوحة والأكمام مشمّرة. رغم جوّ العمل الملبّد، تناقش المشاركون بصوتٍ خفيض، وأبدوا شعوراً ودّياً. لم يتغافل أبي عن نظراتي المستقصية... قبل أن يغلق الباب على نفسه وضيوفه، توقّف والدي لبرهة بصمت وهو يحدّق في عينيّ، ثم همس إليّ:

- لم ترَ شيئاً... أنت تعلم بأنني أثق بك، فلا تخيّب أملي بك أبداً...

عاد والدي إلى الصالون، وعدتُ إلى المرأب. علاوة على الارتياح

بإشباع فضولي، كنتُ متأثراً للثقة التي جدّدها بي والدي. لم يكن تسلسل الأحداث التي شاهدتُها منذ الصخيرات عرضياً. فلأنّ والدي كان يعلم بأنّه يخاطر بحياته في المؤامرة التي يعدّها، أرادني أنّ أتحقّق من الأمور كما هي في الواقع، لا كما سيزوّرها الحسن الثاني ودعايته فيما لو فشل الانقلاب. فرؤية الاتصالات العديدة بين أقطاب المعارضة ووالدي، ورؤية رجال مثل علال الفاسي وعبد الرحيم بوعبيد على طاولته في البيت، لا تتوافق مع صورة «الوزير الطاغية» التي يشنّعه بها اليسار المغربي. إذا كان، على المسرح، يتم تمثيل النص المفروض من قبل الملك، فإنّه، في الكواليس، كان يتم التواطؤ لعزله. رسمياً، كان أوفقير «قاتل المهدي بن بركة»، ولكن بشكلٍ شبه رسمي، كان شقيق المرحوم زعيم اليسار يزوره (وهذه ليست المرّة الأولى...) وكان أرفع زعماء المعارضة في بيته للحديث عن مستقبل البلاد!

رضخ الجميع لحقيقة أنّهم كانوا مخدوعين من قبل الحسن الثاني. والأمر الذي لم يتوقّعه الملك، محرّك الدمى، هو أنّ خصوم الأمس يمكنهم أن يحافظوا على ما يكفي من الاحترام المتبادل لعقد تحالفٍ ضدّه. ولذلك كان لا بدّ أن يكون أوفقير قادراً على أن يُطلع علال الفاسي وعبد الرحيم بوعبيد على الدلائل القاطعة بأنّ العديد من الاتّهامات التي أُسنِدَت إليه كانت باطلة، وخاصّةً اغتيال المهدي بن بركة. لحسن الحظّ أنّ والدي قد منحني الفرصة لأن أطّلع على هذه الحقيقة التي تُحجَب اليوم بمهارةٍ فائقة، كغيرها الكثير من الحقائق... وليس إلاّ بفضل الوقائع التي شاهدتها إلى جانبه استطعتُ أن أفرز الحنطة عن الزؤان، أن أميّز بين الخير والشرّ وأن أحمل بفخر اسمه. بعد 16 آب (أغسطس)، سأجري حساباً، باستعادة الماضي، لكل ما رأيته وسمعته وسأفهم أموراً جوهرية.

في بداية صيف 1972، لم أعرف لحسن الحظّ المصير الذي كان

يرتسم. تأكّدتُ فقط من أننا نجتاز مرحلةً مفصلية من المباراة الصعبة جدّاً بين الحسن الثاني ووالدي. في أغادير، أطلق الملك النار أوّلاً وأخفق في ضربته. تحطّمت المروحية، ولكن أوفقير ظلّ حيّاً. في تافراوت، فكّر الوزير في اعتقال العاهل، ولكن هذا الأخير أفلت من ذلك بدعوتي إلى القيام بالرحلة معه. بعودته إلى الرباط، كرّر الملك، كما رأينا، الحيلة باصطحابي معه إلى استعراضٍ عسكري. بدا واضحاً أن الملك يخشى ردّ «رجل ثقته». في الواقع، قلّل من استقباله لأوفقير، واتّخذ كلّ الاحتياطات حينما يضطرّ للالتقاء به. وكذلك الأمر بالنسبة لوالدي. فهو الذي لم يتسلّح قط، بات يخرج الآن وهو يحمل مسدّسه الهندو صيني الذي يدسّه مخفياً تحت حزامه. ألغى الملك الاجتماعات الأسبوعية لقادة الجيش التي تُعقَد برئاسته في هيئة الأركان في الرباط. فضّل جلسات العمل داخل قصوره الموضوعة تحت حماية المرتزقة البلجيكيين والكورسيكيين والجنوب أفريقيين. ومع ذلك، قام الملك، كلاعب بوكر كبير، ببعض الزيارات المفاجئة لمنزلنا والتي ذكّر خلالها أوفقير في كلّ مرّة وبمختلف الصيغ بالقسم الذي قطعه لمحمد الخامس. كما عرف أنّ والدي لن يمسّ به تحت سقف بيته. وربّما لهذا السبب، ورغم اللوحة القاتمة التي رسمها عنه، ترك الحسن الثاني أن تفلت منه، في كتاب **ذاكرة ملك**، هذه العبارة: «كان أوفقير رجلَ شرف».

وفي ظلّ الانتظار، تزايدت الحركات المحيّرة والمتناقضة. في العلن، داهن الحسن الثاني والدي، وعلى نحوٍ خاصّ ضاعف من لطفه ورقّته حيالنا، وفي الخفاء، أعدّ نهاية «عامله الوفيّ».

لدى العودة من أغادير، كُلِّف أوفقير من قبل الملك بالذهاب لتسليم رسالة شخصية إلى الرئيس بومدين. كان يفترض به القيام بالرحلة على متن طائرة القصر فالكون 20. رافقته حتى الطريق المفروش المؤدّي إلى سلّم الطائرة في القاعدة الجوية الأولى في سلا، على بعد بضعة

كيلومترات من الرباط. طارت الطائرة ليلاً. شاهدتُ الطائرة تبتعد. وبعد قليل لم أعد أرى سوى بدنها الأبيض. تعاقبت ومضات أضوائها. توقّفت الطائرة النفّاثة في نهاية المدرج. تصاعد صفير نفّاثاتها. كانت طائرة ميستير 20 تتهيأ للإقلاع حينما، فجأةً، انخفض ضجيج المحركات. واقفاً إلى جانب السيارة، شاهدتُ، قلِقاً، الطائرةَ ترجع القهقرى وتتّجه نحو منطقة التوقّف. ما إن توقّفت، هرعتُ متبوعاً بإدريس وبوطويل والعربي. ما كاد باب الطائرة ينفتح حتى دلفتُ إليها. شاهدتُ، ذاهلاً، والدي ممدّداً في الممرّ الفاصل بين المقاعد وجيرونيمو منحنياً فوقه. فكّرتُ في أسوأ الاحتمالات. تلوّى أوفقير ألماً، واشتكى من ألمٍ لا يُطاق في الكليتين. كنا على وشك نقله بشكلٍ عاجل إلى مستشفى سلا، حينما خاطب المساعد أوّل حمو:

- كلاّ، سنذهب إلى البيت.

ثارت ثائرتي واستشطتُ غضباً وصرختُ بأنّ كلّ هذا ليس طبيعياً، حينما همس إليّ:

- لا تقلق. أنا بخير، وأتمتّع بصحّة تامّة. إنّه تمارض!

بعد أن اطمأنّ بالي، طرحتُ عليه سيلاً من الأسئلة. في البيت، لزم سريره وطلب منّي أن أستدعي طبيباً صديقاً له. أرسل الملك، المستنفَر، والدته، للاّ عبلة، لتجرّع بنفسها الأدوية لوالدي. وتلقّى الحسن الثاني بنفسه وبانتظام عبر الهاتف الأخبار عن «المريض». قال له:

- اعتنِ بنفسك، يا أوفقير! خذ كلّ وقتك. أعرف أنّك لا تحبّ الأدوية، ولكن يجب أن تتناولها.

هكذا كان مغرب الحسن الثاني، يُدلّل المرء قبل أن يُطعَن...

وسأعلم بعد ذلك بوقتٍ قليل أنّ مخبراً سرّياً كان قد حذّر والدي قبل رحلته: كانت فالكون 20 تحمل على متنها قنبلة موقوتة، كان يُفترَض أن تنفجر أثناء الطيران. ولضمان أمن الشخص الذي كان قد أخبره، لجأ والدي إلى خدعة «الأزمة الكلوية» الحادّة والمفاجئة، إذ يجب أن يعتقد

الملك بأنّ هذا الفشل كان يعود للصدفة وحدها. ولن أعرف هويّة المخبر إلاّ بعد 16 آب (أغسطس).

في نهاية حزيران (يونيو) 1972، كانت أمّي لا تزال تقيم في باريس، مشغولة بنقاهة مليكة. طلب والدي منها الذهاب لزيارة ضباط مغاربة يُعالجون في مشافي العاصمة الفرنسية. كانت، وهي محمّلة بباقات الورود وعلب الشوكولاه، ستنقل إليهم تمنيات القائد العام للجيش بالشفاء العاجل. وكان أوّل من عادته هو العقيد لوباريس، قائد المظلّيين، الذي كان قد تلقّى رشقةً في أسفل بطنه في الصخيرات وهو يحاول إيقاف عبابو وتلامذته. كان من بين الضباط الآخرين المقدّم أمقران، نائب قائد أركان القوات الجوية، الذي كان يُعالج في مستشفى نيكر من سرطانٍ في الكلية. لم تكن أمّي تعرفه. كانت تلك المرّة الأولى والأخيرة أيضاً التي تراه فيها. ومع ذلك ستُستَثمَر تلك الزيارة التي قامت بها بسلامة نيّة، بسوء نيّة ضدّها بعد 16 آب (أغسطس). لدى دخولها إلى غرفة أمقران، وجدت رجلاً شاحب الوجه هزيل الجسد، تخترقه الأنابيب، وشخصين يجلسان على كرسيين في ركنٍ من الحجرة. حيّتهم فاطمة بحركةٍ من رأسها ونقلت تمنّيات والدي إلى أمقران. ولن تعرف والدتي هويّة الشاهدين إلاّ خلال الاستجوابات التي أعقبت انقلاب 16 آب (أغسطس)، الفقيه البصري، قائد الجناح العسكري، في المنفى، للمعارضة وأحد مساعديه. ومع ذلك ستُستخدم صدفةُ ذلك اللقاء القصير جدّاً وستُزوّر بمكر للإضرار بنا. لماذا ذلك اللقاء بين الفقيه البصري وأمقران؟ لا شكّ لأنّه كان ضرورياً لأوفقير لكي يبرهن لليسار الثوري أنّ مشروعه يجمع كلّ الجيش بما فيه الضباط الشباب التقدميون مثل أمقران. كما كان الغرض منه الإظهار للمقدّم أنّ هذا الانقلاب نابعٌ من توافقٍ وطنيٍّ سرّي ولكنّه حقيقي.

وقد أخفت السلطة بمهارة الأهمية الأساسية لذلك اللقاء بين الفقيه

البصري وأمقران، لا بل وزوّرتها. وحاول الحسن الثاني، بعد 16 آب (أغسطس)، أن يخفي المكوّنات المشاركة في الانقلاب عن الرأي العام. والحال أنّ زيارة الفقيه البصري هي مفتاح اللغز الذي يكتنف حتى اليوم ما يُسمّى «هجوم البوينغ أو بركة أمير المؤمنين». لأنّ ذلك الاجتماع في غرفةٍ من مستشفى نيكر هو خط توجيه انقلاب 1972. فكما حدث إبان مؤامرة الصخيرات، أُعدَّ انقلابٌ داخل الانقلاب حتّى قبل تنفيذه.

إنّ عبد الرحيم بوعبيد وعلال الفاسي هما مَنْ أقنعا الفقيه البصري بالانضمام إلى التحالف المبني مع أوفقير والمقرّبين من الملك، للإطاحة بالحسن الثاني. ولكن بعد كلّ هذه السنين من الكفاح، لم تناسب هذه «العبرة بالخواتيم» الفقيه. إذ يتقدّم بوعبيد وعلال الفاسي، الزعيمان اللذان لم يعرفا المنفى، عليه في المغرب بدرجة كبيرة. لم تعد شعبيتهما بحاجة إلى برهان، بينما شعبيّته في تدهور. علاوةً على ذلك، لم يكونا دائماً متّفقين مع أسلوب الفقيه في تلقّي الأموال من الجزائر أو سوريا أو العراق أو مصر. كما وجدا أنّ إدارة هذه المبالغ الطائلة من قبل البصري ليست سليمة... وكانت ضغوطات العمل السرّي تبدو لهما حجّةً غير كافية. كما أنّه صحيحٌ أنّ تمويل معسكرات التدريب لا يتم ببطاقة ائتمان أو بحوالة مصرفية. وقد عبّر الفقيه البصري، في اتّصالٍ مع بوعبيد وعبد الرحمن اليوسفي[1]، والذي تناولته الصحافة المغربية بإسهاب في عام 2002 حينذاك، عن شكوكه في صدقية أوفقير. ولم يكن من قبيل تهدئته واقع أنّ بوعبيد قد طمأنه قائلاً: «نظراً للمباحثات التي أجريتها معه، لدي الثقة الكاملة بالجنرال... إنّه الشخص الوحيد الذي لا يزال بمقدوره إنقاذ البلاد». وفي حال تحقّقت المصالحة الوطنية بين الجيش واليسار، سيبدو رجالٌ مثل بوعبيد وعلال الفاسي واليوسفي على أنّهم الممثلون

---

(1) رئيس وزراء حكومة التناوب التي «شاركت» اليسار في السلطة منذ نهاية التسعينات وحتى 2003.

الأكثر مصداقيةً. سيقفز الفقيه إذاً في القطار السائر، ويكتفي في المرحلة الأولى بأن يكون في «الصفّ الثاني»، مع أمل أن يصبح، إن لم يكن القاطرة، أحد الذين يقودونها على الأقلّ.

بدأ الفقيه البصري بطلب الضمانات الملموسة. فأعطاها أوفقير في الحال: تلقّى الجناح المسلّح في المنفى الأموال وحصل على كلّ وسائل الرفاهية في الجزائر من أجل الإعداد لما سيحصل في 3 آذار (مارس) 1973، الأمر الذي سيتيح لليسار مواصلة الكفاح ضد الحسن الثاني في حال فشل محاولة 16 آب (أغسطس). ووافق وزير الدفاع على أن يقول كلمةً في ذلك لصديقه الكبير العقيد زرقيني رئيس جهاز الاستخبارات الخاصّة الجزائرية. كما سيحصل أوفقير على أن «تريح» أجهزة الاستخبارات الغربية الفقيه، الذي سيتمكّن بذلك من التحرّك بحريّة. إلا أنّ البصري، الذي التقى إدريس السلاوي، أراد أن يقابل العسكريين المشاركين في الأمر. بالتأكيد، ظنّ أنّ أوفقير لن يرسل إليه جنرالات، مثل إدريس بن عمر أو الصفريوي، لكنّ وزير الدفاع انتهز الفرصة ليبرهن للفقيه أنّ ضبّاطاً من الجيل الجديد مرتبطين بقوّة باليسار مثل أمقران هم مَنْ يشاركون في العملية. لكنّ الفقيه حمل المقدّم على تغيير رأيه بسهولة. وأسرّ له بألاّ يثق بأوفقير. لماذا لا يرغب أوفقير في قتل الملك؟ لماذا يريد تنحيته لصالح ابنه البالغ تسعة أعوام، إن لم يكن ذلك من أجل الاحتفاظ بالبنية الملكية؟ أقنع البصري أمقران بأنّه يجب سحب البساط من تحت أوفقير لأنّه إذا استولى على السلطة على نحوٍ شرعي، فلن يعود بوسعهم التخلّص منه. منذ ذلك الحين، وبهدف إرغام الجنرال على الانتقال إلى شيءٍ آخر يختلف عن خطّته، أقنع الفقيه البصري أمقران بأنّه يجب إقصاء الملك بأيّ ثمن. وبدل إجبار البوينغ على أن تحطّ في القاعدة العسكرية بالقنيطرة، كما هو متّفق عليه، حيث ستحتجز وحدة مدرّعة الحسن الثاني، قرّرا أن يقصفا الطائرة الملكية. وحيال تحفّظات أمقران، بذل الفقيه كذلك الحجّة بأنّ القضاء على الملك، ينسجم مع ما

يتمنّاه أوفقير لاشعورياً ولكنّه يمتنع عن القيام به لأسبابٍ سياسية وعاطفية ناتجة عن علاقاته السابقة مع الحسن الثاني ووفائه لمحمد الخامس. ولإزالة آخر تحفّظات أمقران، أضاف الفقيه أنّ أوفقيراً قاتلاً للملك سيكون أكثر طاعةً من أوفقيرٍ ضامنٍ، مع CNR، للاستمرارية السلالية في ملكية دستورية حقيقية! هذه الكثير من المعطيات التي تتيح فهماً أفضل لما حصل حقّاً في يوم 16 آب (أغسطس) ذلك.

في بداية تموز (يوليو)، رافقتُ والدي إلى ميناء الدار البيضاء. قدتُ السيارة. ولحق بنا جيرونيمو والعربي وسليمان بسيارة أخرى. كان إلى جانبي العقيد حسن اليوسي، رئيس أركان سلاح الطيران. كان والدي، باللباس العسكري، يجلس في المقعد الخلفي وإلى جانبه شخص يخاطبه الجميع بلقب «أستاذ». كان ذلك المصري، الذي شاهدته مراراً عديدة مع أبي، رجلاً طيّب القلب، مرحاً وبشوشاً دائم الابتسام، مريحاً في معاملته. كان يتحدّث إحدى عشرة لغة ويُظهر معرفةٍ نادرة. كان تفسيره للقرآن، وهو الخبير في الفقه، متعةً للروح. كما وكان يُهمَس وسط حاشية أوفقير بأنّه «صلة وصل» مع CIA.

كان والدي قد دُعي بصفته قائداً للجيش لزيارة حاملة طائرات أمريكية راسية في المغرب. وكان يفترض أيضاً أن يلتقي بالعميد البحري واطسون من الأسطول الأمريكي في البحر الأبيض المتوسّط. لحظة وصولنا، استُقبِلنا من قبل قائد أركان البحرية الملكية المقدّم البارودي. استقبلنا أسفل عبّارة سفينة القيادة خاصته: ابن بطوطة، التي كان من المقرر أن يُقام الغداء على متنها مع قيادة الأسطول السادس الأمريكي وضباطه. شاركتُ في وجبةٍ ممتعة للغاية. بعد احتساء القهوة، أبحرنا بزورقٍ لنخرج من الميناء ونقترب من الجنبات العملاقة لحاملة الطائرات. استعرض والدي موكباً مدهشاً من المارينز. كانت مراسم البروتوكول والثلل التي أدّت تحية الشرف جديرة برئيس دولة. حينما شكر والدي الأميرال الأميركي، قال له هذا الأخير بلكنته اليانكية الفريدة:

- إنّك تدين، يا جنرال، بهذه المعاملة التكريمية البسيطة لوسامك سيلفر ستار[1].

فردّ والدي ممازحاً:

- يا للخسارة، الملك لا يملكه!

في نهاية محادثات مغلقة بين الوزير والأميرال والعقيدين اليوسي والبارودي، عدنا إلى الرباط.

وسأعلم فيما بعد بأنّ الغرض من ذلك الغداء كان في الواقع الحصول على «مساعدة تقنية» أمريكية للانقلاب العسكري قيد التحضير. خلال تلك الزيارة، لم يكن والدي يعرف بعد إن كان الحسن الثاني سيسافر إلى باريس بالطائرة أم بالسفينة، الأمر الذي تجنّب الحسن الثاني أن يكشفه له. في الحالتين، سيحتاج توقيف الملك إلى تدخّل البحرية أو الطيران الملكي. والحال أن الحسن الثاني كان قد حرص، منذ الصخيرات، على تجريد قواته من السلاح. ولأنّ القوات المسلّحة الملكية تحت الرقابة الدقيقة جدّاً، وتسليحها الهجومي تحت الإشراف المباشر لجهاز SSS، وبالتالي الملك، فإنّ عملية الاعتراض سواءٌ كانت ستجري في البحر أو في الجوّ ستتطلّب حتماً مساندة الأمريكيين. فكان قد تمّ الاتفاق على أن تقوم واحدةٌ من غواصاتهم في المتوسّط بتعقّب أثر سفينة الحسن الثاني منذ خروجها من ميناء طنجة لإعطاء موقعها الدقيق للبحرية الملكية لكي تتدخّل. في الواقع، ستُلغى المناورة في اللحظة الأخيرة، لكون الملك قد اتّخذ احتياطات بأن نقل على متن سفينته أسلحة مضادّة للطائرات ومدافع دفاعية وحوالي مئة جندي من المغاوير المظليين من الحرس الملكي!

أمّا بالنسبة لاعتراضٍ جوّي، فلن يكون من الممكن مواجهته إلاّ إذا وافق الأمريكيون على أن يمنحوا للمغاربة الطائرات العملياتية الوحيدة

(1) أحد أرفع الأوسمة الأمريكية.

لكلّ المملكة، الموجودة بعهدتهم. سيكون عليهم إذاً أن يغضّوا الطرف عن إقلاع طائرات F5 المسلّحة من قاعدة القنيطرة، التي تتقاسم مدارج إقلاعها وعنابرها مع سلاح الجوّ المغربي. وستُكلّف طائرة رادار أمريكية بإعطاء الموقع الدقيق لطائرة البوينغ الخاصّة للحسن الثاني[1]. علاوة على ذلك، سيذهب الأفراد الأمريكيون الأربعمئة في القاعدة في إجازةٍ في يوم 16 آب (أغسطس) بدءاً من الساعة الثانية ظهراً، وسيبقى فقط بعض التقنيين الكتومين المكلّفين بتجهيز طائرات F5 وتقديم المساعدة لها في حال واجهت صعوبة.

تراكمت أمام أنظار الملك الإشارات المقلقة: فقد باتت سُمعة أوفقير على الكثير من التبجيل برأيه. وأثارت المجاملة المفاجئة للمعارضة حيال «الوزير الشرير» الريبة لدى الحسن الثاني. وأقلقت حماسة فرنسا لتبرئة الجنرال في قضية المهدي بن بركة العاهل. وأرّقته الشعبية الحقيقية لوزيره في صفوف الجيش. وأشغله الاهتمام المجامل الذي أبداه الأمريكيون بقائده العام والودّ المعلن للجزائريين على نحوٍ متزايد يوماً بعد يوم. لاسيما وأنّ مشروع ردّ الاعتبار هذا كان يتمّ في وضح النهار.

في 4 تموز (يوليو)، دُعيَ والدي رسمياً إلى سفارة الولايات المتّحدة في الرباط. واستُقبِل فيها بمراسم بدت للحسن الثاني متجاوزة للحدود، واستاء منها.

في 14 تموز (يوليو)، كان الحدث المفاجئ: دُعي أوفقير رسمياً إلى سفارة فرنسا! أمام ذهول العشرات من الضيوف الفرنسيين والأجانب، حضر أبي وأميّ احتفال العيد الوطني. استطاع الجميع أن يشاهدوا أنّ

---

(1) لكون قاعدة القنيطرة الأمريكية تحت إمرة القيادة الجوية الإستراتيجية Strategic Air Command، فهي بالتالي تحت سلطة قاعدة روتا في اسبانيا. هي نظرياً تحت السيادة المغربية، ولكن فعلياً، كان كلّ نشاط في القاعدة موضوعاً تحت الوصاية والرقابة الصارمة للأمريكيين.

أوفقير، المحكوم غيابياً في باريس، قد استُقبِل بحفاوة في السفارة، وبالتالي على الأرض الفرنسية! في لحظةٍ، توارى أبي في مكتب السفير، برفقة موريس شومان، وزير جورج بومبيدو للشؤون الخارجية. والذي شرح له الرغبة العميقة لدى الحكومة في إيجاد حلّ لقضية بن بركة. وبناءً على طلب الإليزيه، عكف قانونيون على المسألة: اقترحوا على الرئيس بومبيدو الاستفادة من مادّة تجيز لرئيس الدولة «العفو عن كلّ شخص أسدى خدمات استثنائية لفرنسا». الأمر الذي يناسب تماماً السنوات السبع عشرة من الخدمة العسكرية تحت العلم الثلاثيّ الألوان والعديد من التنويهات ببطولات الوزير المغربي.

قبل شهرٍ من الانقلاب، جاء موريس شومان شخصياً ليبلغ والدي بأنّ العفو عنه سيُعلَن رسمياً أثناء الزيارة المرتقبة للحسن الثاني إلى باريس.

ولكنّ أوفقير رفض بهذه العبارات:

- سيّدي الوزير، أنا ممتنّ لمبادرة فرنسا، وإن جاءت متأخرة، أن تذكّرت أخيراً السنوات السبع عشرة التي قضيتها في جيشها. ولكن لا يتمّ العفو إلاّ عن المجرمين. أنا لم أقتل المهدي بن بركة والتاريخ سيُثبِتُ ذلك.

سببٌ آخر دفع والدي إلى رفض العفو: سيعني عفوٌ كهذا للحسن الثاني بوضوح: «أوفقير يُعدّ لانقلاب، إنّه يتهيأ لاستلام السلطة». لعبت باريس الدور ببراعة. بعد أن جاهرت بأنّ القاتل المزعوم لبن بركة سيتمكّن من الاستفادة من عفوٍ، فإنّ هذا العفو، إذا ما تزامن مع استيلاء الجنرال على السلطة، لن يكون مفاجأةً. بالإضافة إلى ذلك، في حال نجاح الانقلاب، فأيّة إعادة اعتبارٍ لوالدي أجمل من رؤيته وهو يعمل مع زعماء المعارضة الذين يطالبون بكشف مصير بن بركة! في الواقع، أراد أوفقير أكثر من عفو، أراد إعادة اعتبار كاملة. ولهذا، أراد أن يبسط على الساحة السياسية الأدلّة على إثم الحسن الثاني وجهاز SSS في اغتيال بن

بركة، الأدلّة التي استطاع بها أن يقنع المعارضة بالتحالف معه ولكن وحدهما عبد الرحيم بوعبيد وعلال الفاسي اطّلعا عليها.

من جهة أخرى، وحسب عميلٍ سريٍّ اسباني، معروف باسم غونزاليس ماتا، سيكون أوفقير قد حوّل، قبل 16 آب (أغسطس) 1972، ملفّات سرّية للغاية إلى سويسرا. في كتابٍ صدر في فرنسا عام 1976[1]، أكّد ماتا، مدعماً بالوثائق، تلقّيه أمراً من رؤسائه بأن يواكب الأرشيفات السريّة للجنرال إلى سويسرا. والتي كانت تضمّ تسجيلات جميع مباحثات أوفقير مع المعارضة والفرنسيين والأمريكيين ولكن أيضاً وخاصّة معلومات جوهرية حول قضية بن بركة وتشعّباتها الدولية العالمية. وحسب العميل السرّي، سيكون التاريخ السرّي للمغرب منذ الاستقلال وحتى عام 1972، بعد أن مكث في بنكٍ مدريديّ، قد نُقِل في خزنةٍ إلى جنيف! ادّعى غونزاليس ماتا أنّ الدليمي قد اتّصل به بعد خمسة عشر يوماً من الهجوم على البوينغ لاستعادة تلك الوثائق. وبما أنّ ورثة المودّع وحدهم يمكنهم الحصول عليها، حاول ماتا، مصحوباً برجال الدليمي وفاطمة أوفقير مزيّفة، إقناع موظّف البنك بتسليمه المستندات التي نحن بصددها. هل استطاع الدليمي استعادتها؟ هل سبقه الحسن الثاني إليها؟ كما يضيف العميل الاسباني: «عرفتُ إلى أيّة درجة كان أوفقير مرتبطاً بمختلف أجهزة الاستخبارات السرية الغربية: CIA أو SDECE أو الاستخبارات الاسبانية. لكنّه لم يكن يتصرّف لا كمخبر ولا كمراسلٍ محتَرم. كلاّ، كان يناقش على قدم المواساة، وكان يُحتَرَم.»

لأنّ الأسبان، في شهر تموز (يوليو) 1972، لم يكونوا مدينين... باتت زيارات «عمّو» سيمانكاس متكرّرة أكثر فأكثر. هذا الرجل المتميّز، الكتوم جدّاً، عقيدٌ في الاستخبارات السرية الأيبيرية. كنتُ أناديه عمّو لأنّه صديقٌ قديم لوالدي ولأنني أعرفه منذ طفولتي. والحال أنني شاهدتُ

(1) البجعة، مذكّرات عميل سريّ، غراسيه، 1976.

فعلاً، ذات يوم، بمساعدة جيرونيمو والعربي وسليمان، والدي يفرز ملفّات هائلة وعشرات الأشرطة الممغنطة ومغلفات بقياسات مختلفة، تحتوي على مئات الصور. وتحت نظرته الثاقبة، صففناها بعناية في صندوقٍ معدنيٍّ صغير كحليّ اللون. كانت الساعة حوالي الثانية فجراً، وأضواء الحديقة مطفأة. وكنتُ أعلم ما يعنيه ذلك. حينما أعلن المقسم عن زيارةٍ، لم أُفاجَأ. خرج والدي إلى درج المدخل، ولحقتُ به. توقّفت شاحنة قبالتنا. أبهرت أنوارها أبصارنا. وظلّ محركها يعمل. متبوعاً بالعيونيين الذين كانوا يرفعون الصناديق، حضر والدي تحميلها عبر الباب الجانبي للشاحنة الصغيرة. وإذ مكثتُ على درج المدخل، والأنوار تبهر أبصاري، لم أرَ أيّ شيء آخر. غادرت الشاحنة مباشرةً. وصعد والدي إلى غرفته لينام. أمّا أنا، فبقيتُ في صراعٍ مع أسئلةٍ لا تنتهي وقلقٍ غامضٍ يعتصر قلبي.

لفت حدثٌ مهمّ آخر انتباهي. استقبل والدي سرّاً عدداً من أعضاء العائلة الملكية. لماذا التقى بالتناوب الأمير مولاي الحسن، قريب الملك، والأمير مولاي علي، زوج إحدى شقيقات الملك، والسيد الشرقاوي، نسيب الحسن الثاني؟ وهل كان ذلك في سياق اللقاءات نفسه مع «المتآمرين» الآخرين؟ مولاي الحسن علويّ، وقد تزوّج شقيقة محمد الخامس، للاّ مينا. وهو الوجيه المدنيّ والديني لمكناس ومحافظها. أمّا السيد الشرقاوي فهو وطنيٌّ طليعيّ يحمل أفكاراً ليبرالية وذو شخصية قوية. وبزواجه من إحدى شقيقات الحسن الثاني، ابتعد عن الالتزامات السياسية الكبيرة، ولكن لم يقلّ اهتمامه بها. كما كان على الدوام وقوراً وأبيّاً أمام الملك. وكان وأبي يتبادلان التقدير والاحترام. واحتفظ الشرقاوي كذلك بعلاقات طيّبة مع المعارضة. كيف يمكن تفسير تزايد تلك المحادثات غير الاعتيادية؟ مع الزمن، وبتحقيقاتي الشخصية، أدركتُ الأمور جيّداً.

كلما كانت المؤامرة التي تضمّ مستشاري الملك واليسار والجيش تتقدّم، كان يجب وضع تفاصيلها الأخيرة. كان المجلس الوطني للوصاية المرتَقَب سيضمّ مدنيين وعسكريين وأعضاء من عائلة الملك. من بينهم الأميران مولاي عبد الله ومولاي الحسن، والسيد الشرقاوي، وذلك حسب مصادر لم يتسنَّ لي شخصياً التحقق منها. وسيكون مولاي عبد الله، شقيق الملك، قد حرّر بنفسه أوفقير من آخر وساوسه ومن قسم الولاء للعرش الذي قطعه لمحمد الخامس في الأراضي المقدّسة بمكّة قائلاً له:

- أوفقير، أنا أيضاً ابن محمد الخامس مثل أخي، وأنا أحلّك من قسمك... آخذه على عهدتي أمام الله والمغاربة، ولكن لا بدّ من إنقاذ البلد.

وستكون المناصب الأكثر أهمية لحكومة الإنقاذ الوطني قد وزِّعَت كالتالي: رئيس الوزراء، عبد الرحيم بوعبيد من الاتحاد الوطني للقوى الشعبية؛ وزير الداخلية، رضا أكديرة؛ وزير العدل، علال الفاسي من حزب الاستقلال؛ وزير الخارجية، إدريس السلاوي؛ وأخيراً، وزير الدفاع وقائد الجيش، محمد أوفقير.

في تموز (يوليو) 1972، أصبحت الاجتماعات السرية في البيت الصغير المجاور لبيتنا أكثر تواتراً. عادت أمّي إلى المغرب. للمرّة الأولى، ظهر والدي في احتفالٍ مقام في هيئة الأركان في الرباط ومنقولٍ تلفزيونياً. طلب أوفقير من كلّ الضباط الذي حضروا حفل العشاء الساهر أن يأتوا مصحوبين بزوجاتهم. أثار ذلك غضب الملك. فقد منع الحسن الثاني، الذي لديه حرمٌ ولا يُظهر زوجته أمام العموم، وزراءه من الحضور بصحبة زوجاتهم في الاحتفالات الرسمية. اعتبر الملك ذلك الخرق لأوامره إهانةً. وفيما بعد، فسّر حتى هذه الحركة كآخر بروفة لأوفقير وفاطمة قبل أن يلبسا ثياب رئيس الدولة والسيّدة الأولى.

في الأيام التالية، زرنا، أبي وأمّي وأنا، الغزاوي، سفير المغرب في

باريس. كان هذا الرجل القريب من حزب الاستقلال، والذي شغل منصب أوّل رئيس للأمن الوطني بعد الاستقلال، واحداً من أكبر أثرياء المملكة. استقبلنا في منزله الكبير جدّاً الذي يُعتَبَر قصراً أكثر منه ڤيلا. تناولنا الغذاء في الحديقة بصحبة مضيفنا وزوجته وجاك فوڤيه، مدير صحيفة لوموند. عند احتساء القهوة، تناقش معه أوفقير وهما يتنزّهان في ممرّات الحديقة. ماذا كانا يقولان لبعضهما، أجهل ذلك. ربّما كانا يعرضان لقضية بن بركة والرغبة الفرنسية في العفو عن والدي. ولكنني أتذكّر أنّ الغزاوي قبل أن يستأذن بالانصراف، جعلنا نقوم بزيارة شاملة لقصره. وصادفنا مهنيّين يذوّبون الذهب لتزيين الأسقف الباذخة. وفي حين بدا جاك فوڤيه متحفّظاً أكثر منه مندهشاً، انتهزت الفرصة لأهمس إلى أبي:

- ولكن هذا قصر ڤرساي!

فهمس لي بدهاء:

- وإذن، عمّا قريب، سيؤمّم ڤرساي...

في 10 تموز (يوليو) 1972، احتفل الحسن الثاني بأعوامه الثلاثة والأربعين. وكأنّه يتحدّى القدر، أقام حفلةً في الصخيرات. فاق البذخ وعدد المدعوين ما كان عليه في السنة السابقة. ذهب الملك إلى حدّ تكريم الناجين من مذبحة 1971. حضر والدي عيد الميلاد يعتصره الحنق والغضب. فهناك حيث، قبل عام، كانت جثثُ أبرياء تفترش الأرض وآثار الطلقات تغربل الواجهات، شاهد أوفقير احتفالاً بروتوكولياً يحتفل به بلا حياء باستعراضٍ عرضيٍّ بالثراء. لم يتغيّر شيء.

بعد سبعة أيام من ذلك، عاد المقدّم أمقران من فرنسا. في 21 تموز (يوليو)، استقبله والدي في البيت برفقة ضابطٍ آخر هو الرائد كويرة، وهو ريفيٌّ صادقٌ، فاضلٌ ونزيه. وأنا أصافحه، لم أتخيّل قط أنّه هو الرجل الذي، بعد شهر، سيقود عملية اعتراض طائرة البوينغ الملكية. وسأشاهد مراراً أمقران وكويرة في صالون أوفقير. عادة كان والدي يستقبلهما

وحدهما، ولكن حدث أن استقبلهما أحياناً بحضور العقيد حسن اليوسي، بل وفي مرّة أخرى، بحضور الجنرالين بن عمر والصفريوي.

من جهة أخرى، وفيما يخصّ الأوّل، سيراود ذاكرتي، بعد 16 آب (أغسطس)، مشهدٌ شاهدته. كان ذلك بعد الصخيرات ببضعة أشهر، كان والدي وأمقران واليوسي، المجتمعون في الصالون، يناقشون «القضية الليبية» الحديثة، شائعة محاولة أخرى لاغتيال الحسن الثاني. كانت أجهزة الأمن في المملكة قد أعدّت، بأوامر من القصر، عمليات تهدف إلى معاملة القذافي بالمثل. قدّم والدي بنفسه خطّة عمل للملك. شملت الحصول على خطّ طيران طائرة زعيم الثورة الليبية، واعتراضها بطائرة مطاردة مغربية وإسقاطها[1]. بعد بضعة أيام، سمعتُ والدي واليوسي وأمقران يذكرون الموضوع. اليوسي، الصديق القديم لأوفقير وقائد أركان القوى الجويّة والمغرم بسلاح الطيران، قال له:

- سيكون شرفاً لي، سيّدي الجنرال، إن سمحت لي أن أشارك في الهجوم على القذافي... ليس عليك سوى أن تعطيني طائرة F5، وإملاء مدافعها وأنا أتكفّل بالأمر!

ردّ عليه والدي بطريقةٍ نكّدته:

- حسن، ألا تدري أنّ مدافع طائرة F5 قد لا تكفي للقضاء على طائرة بوينغ 727؟ فبقليلٍ من الحظّ، وطيّارٍ ماهر، قد تلغي الطلقات سويّة ضغط قمرة القيادة، وقد تحدث أضراراً، وربّما توقع قتلى، ولكن تبقى الطائرة قادرة على أن تحطّ. كلا، كلا، إذا أعطى الملك الأمر بالقيام بذلك، فينبغي أن تكون هناك F5 وحيدة ودون شارة تميّزها. ستطلق صاروخاً من بعيد وعلى ارتفاع... أو، عند الاقتضاء، إذا ما اقتربت قليلاً من هدفها، ستطلق عليه قذائف.

---

(1) في مؤتمره الصحفي في 23 آب (أغسطس) 1972، روى الحسن الثاني أيضاً وبالتفصيل تلك الخطّة للهجوم الجوّي ضدّ القذافي.

أكّد أمقران هذه الأقوال وأدلى بتحليله كمتخصّص في هذا المجال. قال لليوسي:

- الجنرال محقّ، لطائرات F5 مدافع ثابتة، الأمر الذي لا يجعل منها المعترضات النموذجية. هي مناسبة لمهاجمة أهداف على الأرض، ولكنّها تبدو مطاردات بلا قيمة في الجوّ. ولتحقيق نجاحٍ مؤكّد لا بدّ من استخدام الصواريخ؛ لن تكفي الطلقات من عيار 20ملم.

وأوضح لنا الكولونيل علاوةً على ذلك أنّ طائرة البوينغ بتخفيض سرعتها إلى أدنى حدٍّ ممكن، وتسريع هبوطها، سترغم طائرات نورتروب F5 على القيام بانعطافات واسعة لتحكِم خط تسديدها الثابت. وستفقد المطاردات بذلك الكثير من الوقت والوقود لقيادة هجومٍ فعّال.

وختم:

- كلاّ، إنّ عملية كهذه قائمة فقط على طلقات المدافع ستكون عملياً محكومة بالفشل.

وهذا ما أضافه والدي وهو يغيظ اليوسي:

- قبل اقتحام مشروع، لا بدّ من التزوّد بالوثائق...

ثمّ فتح حقيبته وأخرج منها كتاباً، وقدّم لحسن اليوسي كتاباً عن تاريخ الاعتداءات الجوية، من الاعتداء ضدّ هتلر إلى الهجوم على طائرة الملك حسين عاهل الأردن من قبل طائرات الميغ السورية.

بعد 16 آب (أغسطس) ومقتل والدي، لن يكفّ ما شاهدته وسمعته في ذلك اليوم عن ملاحقة ذهني. كيف نفهم أنّ أوفقير هذا نفسه سيسعى، بعد بضعة أشهر من ذلك النقاش وحسب الشائعة، إلى ضرب طائرة الحسن الثاني رغم أن طائرات F5 مسلّحة بطلقات تدريبية، وحسب آخرين بطلقات خلبية؟ بالإضافة إلى ذلك، خافضاً عددها إلى خمسمئة، الأمر المثير للسخرية، ومقلّلاً كمية وقود الطائرات! وهذا للهجوم على طائرة بوينغ 727، المماثلة لطائرة القذافي. تُرى هل حقّاً حصل ذلك؟

قرّر الحسن الثاني، الذي كان يستعد للقيام بزيارة خاصّة إلى فرنسا، أن يذهب لقضاء عطلته في قصر بيتز خاصته بالقرب من سنليس، في مقاطعة واز. ولكن في الحقيقة، وكما رأينا، جاء يطالب بالوصاية الفرنسية على جيشه. دعا الملك، المحترس، والدتي لتكون في عداد حاشيته. رفضت ذلك بلطف، متذرّعة بغيابها منذ ثلاثة أشهر عن المغرب، وهي الحجّة التي ستؤخَذ عليها بعد المحاولة الانقلابية. مرّة أخرى، اقترنت صدفٌ مشؤومة لتوصم قدرنا...

أعلم الحسن الثاني فرنسا بقدومه فقط عشيّةَ مغادرته. تاركاً الخيارين مفتوحين: في طنجة، أعدّت السفينة الملكية للإبحار؛ وفي مطار الرباط–سلا، استعدّت طائرته البوينغ للإقلاع. ولزيادة الغموض، ضلّل الملك أفراد حاشيته التي سترافقه. أسمع بعضهم بأنّه سيسافر بالطائرة، وذكر لآخرين ولعه بالبحر. أمر أوفقير أمقران بأن يستعدّ لاعتراض الملك إن كان سيقلع من الرباط. قرر الحسن الثاني في اللحظة الأخيرة السفر بالسفينة.

في 26 تموز (يوليو)، ذهبنا إلى طنجة مع والدي لكي نحيّي الملك قبل مغادرته إلى مرسيليا. أحاط الحسن الثاني نفسه بكلّ الاحتياطات. استقلّ قطار الرباط إلى طنجة. ولم يكفّ عن التوصية بالاعتناء بأوفقير وألحّ على والدتي قائلاً لها:

– إنّني أعتمد عليك يا فاطمة، يجب أن يرتاح أوفقير، يجب أن يأخذ عطلة! وأن يفرغ رأسه قليلاً من كلّ هذه المشاغل.

بعد بضعة أيام من مغادرة الملك، قام والدي برحلة خاطفة إلى لندن. كان سفير المملكة في باريس، الغزاوي، بانتظاره هناك. وقد نظّم، بتوجيهٍ من وزير الدفاع، آخر موعدٍ قبل الانقلاب مع آلكسندر مارانش، رئيس جهاز SDECE. وكما ذكرنا ذلك سابقاً، كان الغزاوي استقلالياً رائداً. كما كان صديقاً لعلال الفاسي وأوفقير. الأمر الذي جعل منه إحدى القنوات المتميّزة في الاتصالات بين الجنرال والزعيم الوطني.

هل كان الغزاوي قد أُطلِع على الأمر؟ ربّما كان قد حضر إلى هناك لأنّ المعارضة أرادت أن تتأكّد عياناً من مباركة القوى الغربية للانقلاب. فمَنْ يدري، ربّما يكون أوفقير، لإغراء الأطراف، قد بالغ في تقدير المساندات الدولية الحقيقية التي تحظى بها العملية؟ على كلّ حال، كان الغزاوي مع أوفقير في العاصمة البريطانية لمقابلة مارانش. التقيا أوّلاً في تورف كلوب لاحتساء كأس من المشروب ثمّ ذهبا إلى *Simpson on the Strand*[1].

كل ما بوسع المرء أن يعرفه عن ذلك الاجتماع اللندني هو ما أراد آلكسندر مارانش أن يزعمه لكريستين أوكران. ففي كتاب مقابلات مع الصحافية الشهيرة، بذل رئيس SDECE جهده لكي يمحي علاقاته القديمة والمنتظمة مع أوفقير. لقد تعارفا خلال حملة إيطاليا في عام 1944، ولكن مارانش أقسم بأغلظ الأيمان إنّه لم يلتقِ ثانية بأوفقير منذ الحرب العالمية الثانية! ما الذي يُضحكني إن لم تكن الكذبة كبيرة جدّاً. كم من مرّةٍ شاهدتُ في الواقع عمّو آلكسندر في صالون بيتنا. حتى أنّ والدي كان يردّد:

- إذا حصل لي مكروه، فسيمكنك الاعتماد على آلكسندر.

برهن لي المستقبل بأنّ والدي لم يكن معصوماً عن السذاجة...

عن لقائه في لندن، قال رئيس SDECE لكريستين أوكران: «حينما أوشكنا على الفراغ من الطعام، توارى الغزاوي وبقيتُ وحدي مع الجنرال أوفقير. بدأ يروي لي أموراً مزعجة عمّا كان يجري في المغرب، عن الحكومة وعن الطريقة التي كانت البلاد تُدار بها. استمعتُ إليه ولم آخذ على محملٍ خاص الجملة التي أطلقها لحظة مغادرته للمائدة: ستصلك أخباري في الأسبوع القادم. في الأسبوع التالي، وقع الهجوم الجوّي الشهير على طائرة الملك. في تلك اللحظة، عاودت جملته ذاكرتي.» وأترك لفهم القارئ الشروحات «الأمينة» لعمّو آلكسندر، الصادقة قدر ما

---

(1) يؤكّد س. سميث ذلك في كتابه، أوفقير، قدرٌ مغربي، مصدر سبق ذكره.

يمكنها أن تكون تصريحات رئيسٍ سابقٍ للاستخبارات السرية.

الجدير بالملاحظة هو أنّ الحسن الثاني قد أعطى الضوء الأخضر لتلك الرحلة إلى لندن. كان حسابه بسيطاً: إذا كان أوفقير خارج الحدود فهذا لأنّه لا يعدّ لهجومٍ مخاتل في المغرب. ولكن حينما علم الملك بعد ذلك بأسبوع بأنّ وزيرهَ قد تناول الغداء مع رئيس SDECE، لم يحتج لأن تُعدّ له خطّة. أمام الحالة الطارئة، قدّم موعد عودته إلى البلاد. علاوة على ذلك، ترك عدم قبول الإليزيه لطلبه بالتعاون العسكري الواسع مرارة لديه.

لدى العودة من بريطانيا العظمى، قرّر والدي أن يأخذ بضعة أيام من العطلة. أراد أن ينضمّ إلى أمّي وكلّ العائلة في مصيف شاطئ قبيلة، شمال البلاد. عشية ذلك، طلبني إلى الصالون. قال لي:

- أنتظر اليوسي وأمقران. هل يمكنك الإشراف على أن يُعدّ لنا عشاءٌ خفيف؟ اذهب لاستقبالهما على الباب لتصحبهما إلى الصالون واحرص على ألاّ يزعجنا أحد.

كنتُ أهمّ بالانصراف، حينما دعاني:

- ستسبقني غداً إلى قبيلة برّاً.

ثُرت:

- كلاّ، أفضّل الانتظار إلى حين أن نذهب معاً، أنت ومليكة وأنا، بالطائرة.

بنظرةٍ منه، أدركتُ أنّ الأمر يتعلّق بأمورٍ هامّة.

ألحّ:

- أودّ أن تصعد إلى قبيلة بالسيارة مع مولاي علي والعربي.

- حسناً، كما تشاء. . . ولكن هل تسمح لي بقيادة السيارة؟

- نعم، إذا وعدتني بأن تكون حذراً.

في 10 آب (أغسطس)، غادرتُ فجراً الرباط إلى قبيلة. ووصل والدي في الضحى. وذهبتُ لاستقباله حين نزوله من الطائرة.

إذاً، في بداية آب (أغسطس) كان كلّ شيء قد أُعدّ بدقّة. ومنذ ذلك الحين، انتظر سياسيو المؤامرة أن ينتقل العسكريون إلى العمل من أجل عزل الحسن الثاني. وحدهم أمقران وكويرة وأوفقير يعرفون تفاصيل الخطّة الجوية. والضباط الذين يُفتَرَض بهم التدخّل على الأرض لاحتجاز الملك، لم يُخبروا سوى بالجزء الذي يقع على عاتقهم من العملية. بدأ العدّ العكسي للتاريخ نهائياً.

الفصل السادس عشر

16 آب (أغسطس)، الهجوم على طائرة البوينغ

ماذا حدث في ذلك السادس عشر من آب (أغسطس) 1972 الشهير؟ في الذاكرة الجمعية، يُعرَف أنّ مجموعة من الانقلابيين حاولت اعتراض بوينغ الحسن الثاني بواسطة طائرات مطاردة، وأنّ أحدهم قد أطلق النار على طائرة الملك، ولكنّه، مرّة أخرى، نجا من الاعتداء. كيف يمكن ذلك؟ يعتبر كثيرون أنّ هذه البركة هي لغز. والواقع، لفهم أفضل لـ«نجاة أمير المؤمنين بأعجوبة في السماء»، لا بدّ من التدقيق في أسباب ذلك، البشرية بشكلٍ عاديّ، و«الدنيوية»...

أسبابٌ تعود أوّلاً إلى نفورٍ هائل. فالصخيرات و16 آب (أغسطس) هما حصيلة النفور والغضب. وكلاهما انبثقا عن ركيزة العرش: الجيش. وكان على رأس هذين الانقلابين رجالٌ من القصر، ضباطٌ مقرّبون من الملك. بفارق عام واحد، انتفض المدبوح وأوفقير لأنّهما لم يعودا يحتملا رؤية الاستهانة بمكتسبات حقّقها الجيش بضراوة في سبيل ترسيخ الملكية. من وجهة نظرهما، لو أنّهما تركا الفساد يواصل فعله في انحلال الدولة، فإنّهما يجازفان بأن يُكنسا معه. ولو رفضا القيام بمسؤوليتهما، فإنّ قذافيين غير ناضجين أو ضباطاً متطرفين مثل عبابو لن يتردّدوا أبداً في الاستيلاء على هذه السلطة بأسوأ الوسائل.

مع ذلك، هناك فارق جوهري يميّز الصخيرات عن 16 آب

(أغسطس): كانت عملية المدبوح محض انقلاب عسكري، لا تحالف ولا مشروع سياسي لها، بهدفٍ وحيد هو عزل الملك وحكم البلاد من خلال عسكريين بانتظار «تطورِ الأحداث». لم يكن هناك انسجامٌ حقيقي ولا رؤية شاملة بخلاف ما أُريدَ تسميته «مؤامرة أوفقير»، الانقلاب الحقيقي الذي ضمّ في مشروعٍ واحدٍ المعارضة والجيش والمقرّبين من الملك. وقد رأينا ذلك: فقد عقد علال الفاسي وعبد الرحيم بوعبيد وأوفقير، المهندسون الرئيسيون لذلك العمل للإنقاذ الوطني، العديد من الاجتماعات السرية في الرباط والدار البيضاء وفاس وطنجة، والتي تمّ خلالها الاتفاق على برنامجٍ سياسيٍ ممكنٍ للحكم بعد إقصاء الحسن الثاني. كان من المقرّر أن يضم المجلس الوطني للوصاية زعماء المعارضة وعسكريين ونقابيين وأعضاء من الأسرة الملكية وعلماء دين. ووحدهما التيار الإسلامي السنّي والمذهب المالكي المنفتح والمتسامح سيتمتعان بحقّ الحضور في CNR.

التقى إدريس السلاوي، المحرّك الأساسي للانقلاب والناطق باسم أوفقير لدى الأحزاب السياسية، لمراتٍ عديدة في فرنسا وبلجيكا واسبانيا، المعارضة في المنفى، وقد أظهر موهبته الكبيرة في التفاوض وشخصيته كرجل دولة في سبيل الوصول إلى اتفاقٍ صارم ونهائي بين كلّ الأطراف المتعاقدة. ومثّل CNR ضمانةً وأداة الشرعية الضرورية لوضع دستورٍ جديد وإرساء أسس نظام تمثيلي للطموحات الشعبية.

في أواسط آب (أغسطس) 1972، كان قد أعدّ كلّ شيء لتغييرٍ في النظام تحت راية استمرارية الملكية.

أمّا الحسن الثاني، فقد غادر إلى فرنسا باحثاً عن حلٍّ نهائيٍّ للمشكلة التي يطرحها عليه جيشه. إذا حصل من باريس على أن «تجدّد وصايتها» على القوات المسلّحة الملكية، فسيكون بمقدوره العودة إلى البلاد سالماً وقوياً. في 31 تموز (يوليو)، تناول الملك العشاء مع جورج بومبيدو الذي أخبره بأنّ وزير الدفاع الفرنسي يعدّ ملفّات المشروع الذي يستدعي،

نظراً لأهميته، تحليلاً معمّقاً قبل أيّ قرارٍ نهائيّ. فعاد الحسن الثاني ينتظر في قصره في بيتز. حينما انقضى النصف الأوّل من آب (أغسطس)، عيل صبره. وإذ يعرف جيّداً القول المأثور «مَن يذهب للصيد يفقد مكانه»، عرف أنّ بقاءه في فرنسا محفوفٌ بالخطر، خاصّة في ظلّ المبارزة الناشبة مع أوفقير. بعد بضعة أيام، وإذ لم يعد يتمالك نفسه، مع شعوره برفضٍ منهجيّ من قبل باريس، فضّل العودة إلى البلاد. ولأنّه سمع حديث العفو عن أوفقير من قبل فرنسا، وعلِم كذلك بأنّ الجنرال كان قد تناول الغداء مع رئيس SDECE في مطعم لندنيّ، سرعان ما أدرك الحسن الثاني أنّه يُحمَل على الانتظار وشكّ أنّ شيئاً ما يجري الإعداد له.

أخبرت المخابرات السرية الفرنسية أوفقير بالمغادرة الوشيكة للحسن الثاني. وأكّد له ذلك بعض الأعضاء من الحاشية الملكية، من بينهم إدريس السلاوي، قبل بضع ساعات من إقلاع البوينغ. قرّر أوفقير الانتقال إلى التنفيذ. وأطلق المرحلة العسكرية والعملياتية للمؤامرة.

في الساعة السابعة والنصف من مساء 14 آب (أغسطس)، ذهب المقدّم أمقران إلى منزل الجنرال. أخبره وزير الدفاع بأنّ عليه أن يكون على أهبة الاستعداد لعودة الملك. أُقرّت الخطّة حينذاك نهائياً: إرسال طائرة F5 تعترض البوينغ لترغمها على الهبوط في قاعدة القنيطرة العسكرية، الواقعة على بعد حوالي عشرين كيلومتراً على خطٍّ مستقيم من الرباط. هناك، ستقوم وحدة مدرّعة وقوات محسوبة تماماً على أوفقير باحتجاز الحسن الثاني. ومن ثمّ، سيُنادى بمحمد السادس ملكاً. وما إن يتمّ تشكيل مجلس الوصاية وحكومة الإنقاذ الوطني، سيُرسَل إلى قصره في بيتز. وافق الفرنسيون على استقباله و«منعه باحتشام من القيام بتجاوزات» في منفى ذهبي. وسيُمنَح فقط، تماماً كما مُنِح آلفونس دي بوربون، والد خوان كارلوس ملك اسبانيا، تعويضاً هو رؤية ابنه يحكم في نظامٍ ملكيٍّ دستوريٍّ حقيقي. وهو وضعٌ بالتأكيد أكثر استمرارية

وتقديراً وأقلّ خطورةً من وضع الحاكم المستبدّ!

ولاعتراض البوينغ، خُصِّصَت مبدئياً طائرة مطاردة واحدة فقط. وكان يُفتَرَض أن تكون مسلّحة بطلقاتٍ تدريبية، الأمر الذي يعرفه أوفقير فقط. كان أمقران يجهل الأمر، وسأذكر أسباب ذلك لاحقاً. لن تحمل طائرة F5 لا صواريخ ولا قذائف ولا قنابل لأنّ أوفقير لم يودّ في أيّ ظرفٍ كان أن يُفاجأ بتجاوزات من مرؤوسيه مثلما كان قد حدث للمدبوح قبل عام. فقد لاحظ أوفقير، منذ أن تحدّث أمقران مع الفقيه البصري، الإلحاح الذي كان يبديه المقدّم حول فرص نجاح المهمّة دون قذائف أو أسلحة ثقيلة. والحال أنّ أوفقير أراد أن يعطي للطائرة المطاردة المكلّفة بإرغام الحسن الثاني على الهبوط فقط الوسائل الكفيلة بتدبير خديعة. غير أنّه نسي أنّ الملك هو الآخر لاعب بوكر عظيم!

لم يرد أوفقير أن يُسقِط الطائرة وركابها البالغ عددهم حوالي العشرين: كان هدفه تصفية الملك سياسياً لا جسدياً. ولو كان أوفقير قد أراد، على ما زُعِم، أن يستولي على السلطة بمفرده وبالقوّة، لكان قد قتل الملك بلا تحفّظ. ولما تحيّر في نسج تحالفات أو انخرط في مشروعٍ معقّدٍ مثل الهجوم على طائرة بوينغ بطائرة مطاردة مزوّدة بخمسمئة خرطوشة خلبية، وبالتالي غير متفجّرة! ثمّ إذا كان هدفه كما يُزعَم، فلماذا آثر تلك المناورة الجوية في حين كان لوزير الدفاع العديد من الفرص لقتل الملك؟ فقد جاء الحسن الثاني إلى بيته لمرّاتٍ عديدة دون أيّ حراسة. حتى أنّ الملك قد زارنا قبل خمسة عشر يوماً من مغادرته إلى فرنسا! لماذا لم ينتهز الشيطان «الوزير الفظّ الذي ليس له من همٌ سوى أن يصبح خليفة في مكان الخليفة» فرصةً كهذه لينقضّ على ضحيته ويغتالها؟ في الواقع، جرى السعي إلى الانتقاص من أهمية البعد الحقيقي للسادس عشر من آب (أغسطس) من خلال اختزاله في أن أوفقيرِ تصرّف بمفرده، يساعده طياران أو ثلاثة طائشون منبهرين بـ«الرجل المرعب ذي النظارة السوداء»! وسوف تساعد تصريحات أحمد رامي، الذي سينسب لنفسه،

فيما بعد، دوراً وأهميةً لم يكن يحظى بهما لا لدى والدي ولا في هجوم 16 آب (أغسطس)، في تمرير الكذبة. . . حيث سيختلق النقيب سيناريوهات عجيبة وغريبة، زاعماً أنّه كان ووالدي ينويان قتل الملك أثناء الاجتماع في هيئة الأركان.

الحقيقة هي أنّ أوفقير لم يفكّر قط في تصفية الحسن الثاني جسدياً. الأمر الذي سيأخذه عليه البعض قبل وبعد 16 آب (أغسطس). بل إنّ أحد المقرّبين من الملك قد أثار شكوكاً جدّية، محذّراً: «لا يسع الملك أن يكون الرجل الذي يغادر إلى المنفى دون أن يحاول العودة إلى السلطة». ولكن أوفقير، لدوافع سياسية رفيعة وبدرجة أقلّ لأسبابٍ عاطفية، لم يشأ أن يمسّ شعرةً من ابن محمد الخامس. أراد أن يعزله فحسب. أضف إلى ذلك أنّ التحالفات المعقودة لم تكن ممكنة إلاّ على أساسٍ من تغيير النظام في إطارٍ من الشرعية الملكية!

الكثير ممن شاركوا في هذا التحالف، ما كانوا ليؤسّسوه أو ينضموا إليه إلاّ لأنّه كان يضمن لهم ثورةً في الدولة ضمن استمرارية المؤسسة الملكية. وكانت تلك خاصّة حالة الجنرالات والمقرّبين من الملك من أمثال إدريس السلاوي أو رضا أكديرة. حتى بالنسبة لحزبي الاتحاد الوطني والاستقلال، كان ذلك الشرط مهمّاً. فبقاء العرش بالنسبة لهم هو الضمان الوحيد لئلا يستأثر أوفقير بفوائد العملية. . . قدّم وزير الدفاع أدلّة على حسن النية لطمأنتهم من خلال التأكيد لبوعبيد وعلال الفاسي بأنّه لن يترأس مجلس الوصاية. واقترح أن يقوم الأمير مولاي عبد الله بذلك وأن يكون في الوقت ذاته وصيّاً على محمد السادس إلى حين بلوغه سنّ الرشد. وكان يُفترض أن يجسّد الدور الرمزي واللاسياسيّ للأمير ملكية دستورية. وإذ لم يُطلَع الأمير على ذلك، كان سيوضَع أمام الأمر الواقع. كان كلُّ شيء معدّاً: وبما أنّ مجلس الوصاية سيعمل بمبدأ التصويت بالأغلبية، فقد ناقشت كلّ الأطراف بضراوة تمثيلها فيه. سيكون النائب الأوّل للرئيس إدريس السلاوي، والثاني عبد الرحيم بوعبيد، والثالث

علال الفاسي، إذا سمحت صحّته بذلك، وإلاّ فأحد معاونيه في حزب الاستقلال. وطُرِح نائبٌ رابع للرئيس في شخص الجنرال إدريس بن عمر أو الجنرال الصفريوي. وسيُعدّ تصويت نواب الرئيس مضاعفاً، ولن يكون من الممكن تحديد حقّهم في النقض سوى بأغلبية المقترعين في استفتاء. وسيمتلك كلٌّ من باقي الأعضاء في مجلس الوصاية، من عسكريين ومدنيين ورجال دين، صوتاً واحداً. أمّا المهمّة الأولى للمجلس، فستكون إعداد الأسس المفضية إلى جمعية شعبيّة تأسيسية. وسيمكننا أن نقرأ في عدد نوڤيل اوبزرڤاتور الصادر في 28 آب (أغسطس) 1972، بقلم جوزيت آليا: «عُثِر في بيت زوجة وزير [. . .] على خطّة حكومة، تتألّف من مؤسسة CNR (المجلس الوطني للوصاية . . . أو الثورة) وجمعية شعبية غير واضحة المعالم»!

لنعد إلى 14 آب (أغسطس) 1972. إذاً، أعطى أوفقير آخر تعليماته لأمقران. اعتبر المقدّم، الذي لم يكن يعلم بالطلقات التدريبية، أنّ المهمّة قد تفشل بالقذائف المتفجّرة من عيار 20 ملم؛ لاسيما إذا كان قد افترض بأنّ الطلقات قد تكون غير متفجّرة. لو كان يعلم لترسّخت مخاوفه أكثر. في الواقع، أدرك أوفقير أنّ لدى أمقران طموحات أخرى تتجاوز الخطّة. فقد كان صديقه آلكسندر دي مارانش قد أبلغه بالأحاديث المتشدّدة التي تبادلها أمقران والفقيه البصري في مستشفى نيكر! وليحرز ضربة استباقية، قرّر أوفقير أن يلعب مباراة بليارد ثلاثية الجوانب. فبما أنّ الهدف هو إرغام البوينغ على أن تحطّ في القنيطرة، فلماذا لا يستثمر فظاظة المقدّم من خلال التأكّد من أنّ الذخيرة التي يتوفّر عليها لن تتيح له أن يحقّق تلك الفظاظة؟ فما الأفضل من طيارٍ مقتنعٍ وراغبٍ بلا قيد وشرط في إسقاط طائرة الملك، لإيهام الحسن الثاني بأنّ المتمرّدين لا يخادعون وأنّ من مصلحته الامتثال إن كان يريد البقاء على قيد الحياة؟ غير أنّ لعبة المغفّلين هذه اقتضت احتياطات بالغة. وضمن أوفقير من الأمريكيين أنّهم سيضعون

تحت تصرّف الطيارين المغاربة فقط الطلقات الخلّبية في صناديق مختومة بختم «طلقات حقيقية». علاوة على ذلك، سيجهل الطيارون والعاملون المغاربة على الأرض ذلك. والوحيدون الذين سيُخبرون بذلك الاستبدال هم ضابطٌ من الـ CIA، العقيد «جونسون» وفريقه المكوّن من مقدّم مختصٌ في التسليح الجويّ وستّة تقنيين و«مخصتصّين». كُلِّفَ «جونسون»، واسمه الحقيقي روبرت اتوود، بإعداد مستودع الذخائر الذي ستتزوّد منه طائرات F5. عشية يوم الهجوم، بدّل هو وفريقه الطلقات المتفجّرة بأخرى تدريبية، أي خلّبية. وضعوها في صناديق، مع إشارةٍ خاطئة، ولم يتركوا بين الذخيرة سوى صواريخ جو-أرض، دون أيّ صاروخ جو-جو. لماذا؟ يبدو لأنّ أمقران لن يتمكّن من استخدامها ضدّ البوينغ، ولأنّه من المناسب امتلاك بعضها في حال أثارت وحدة موالية محتملة، على قلّة هذا الاحتمال، مشكلة للطائرات.

هذا هو ما يفسّر شهادات الطيّارين أثناء محاكمتهم التي قالوا فيها عن حسن نية إنّ هدفهم كان يشتمل على إسقاط طائرة البوينغ الملكية، ولكنّ سوء الطالع و«بركة» الحسن الثاني أحبطا مخططهم. وظنّوا أنّ خطأً قد ارتُكِب على الأرض في تبديل الصناديق! وإذا كان هناك أناس يعتقدون بأنّ طيشاً كهذا ممكن على هذا المستوى من المؤامرة، فذلك لأنّ الدعاية لا تزال تفعل فعلها. كيف يمكن التخيّل أنّ مؤامرة محبوكة جدّاً، أفلتت من التيقّظ الرهيب للحسن الثاني المتربّص، يمكنها أن تفشل بسبب خطأ بسيط ناجم عن الإهمال؟ يصعب عليّ رؤية الرائد كويرة يتأهّب للإقلاع لضرب البوينغ الملكية دون أن يفكّر في الإشراف بنفسه على تعبئة مدافع طائرته F5. يصعب عليّ التصوّر أنّ هذين الضابطين الرفيعين، المدركين لمجازفة هذه المهمّة، قد تركا «جنوداً» بسطاء يقومون بالعمل كما لو أنّ الأمر كان يتعلّق بتحليقٍ عاديٍّ! لم يستطع أمقران وكويرة، النموذجان للاحتراس والنظام والصرامة، ألاّ يشرفا على أدقّ تفصيلٍ من التحضيرات لغارةٍ كتلك. وللخلط بين صندوقٍ من الطلقات المتفجّرة ومقذوفات

خلبية، لا بدّ أن يكونا أمّيين أو فاقدين للوعي ثمالةً. والحال أنّهما لم يكونا كذلك! بالنسبة لي، وقد يبدو هذا غريباً جدّاً، كانت بركة الحسن الثاني تُدعى أوفقير...

خلال ذلك الاجتماع مع أمقران، سيطر سؤالٌ وحيد على ذهن والدي: كيف يمكن ضمان ألاّ يتمكّن المقدّم، تماماً مثل عبابو قبل عام، أن يفسد عملاً قد يغدو عمله هو أو على الأقلّ عمل الفقيه البصري؟ فأخبره وزير الدفاع بأنّه يريد المشاركة شخصياً في العملية...

وسيشرح فيما بعد المقدّم أمام المحكمة العسكرية: «في الساعة المحدّدة، ذهبتُ إلى أوفقير في بيته. وأكّد لي أنّه يرغب أنّ تتم العملية بطائرة واحدة فقط أقودها بنفسي، والتي سيُصاحبني على متنها. كنتُ لأضحّي بحياتي في سبيل الشعب المغربي، ولكنني شرحتُ للجنرال أنّ حالتي الصحية لا تسمح لي بقيادة الطائرة. فطلب مني أن آتي له بكويرة. اتّفقنا على أن نلتقي في اليوم التالي في الدار البيضاء. ففي 15 آب (أغسطس)، انضمّ إلينا أوفقير نحو الساعة العاشرة وخمس عشرة دقيقة في فندق بيل ڤيو، ومن هناك ذهبنا إلى بيت آسيا الأزرق، التي، على ما يبدو، كانت معلّمة اللغة الإنكليزية أو الجغرافيا. قدّمها لنا أوفقير على أنّها صديقة لزوجته وطلب منها أن تعدّ لنا طعاماً. ودخل أوفقير مباشرةً في صميم الموضوع:

- يلزمنا 150 فرصة من أصل 100.

فشرحتُ له أنّ هذا صعب التحقيق بطائرة F5، لأنّ مصوّب هذه الطائرات ثابت. لم يبدُ أن ذلك يعيقه في شيء:

- لا تقلقوا، سأنال من الملك بكلّ الوسائل. قال لنا ذلك، ملمّحاً إلى الكتيبة المدرّعة.

وقبل أن يُنهي، أعلمنا بأنّه علينا ألاّ نتلقّى الأمر من أيٍّ كان سوى منه أو من الجنرال الصفريوي (خليفة المدبوح على رأس الديوان العسكري).

وأضاف أمقران في المحكمة: «كنّا أمام رجلٍ كان يفهمنا. كنّا نشعر بأن علاقات جديدة قد ولدت بين مختلف شُعَب الجيش وأن صفوفنا تُرصّ من حول وزير الدفاع.»

وأكّد المقدّم أنّ أوفقير قال له: «هناك اتفاق بين الجيش والأحزاب السياسية، وسيتمّ الانقلاب باسم الشعب». وهنا أيضاً سيكشف تشكيل CNR: «الذي كان يفترض أن يضمّ قادة الجيش، ومن بينهم الصفريوي وحتى العقيد الدليمي صهره، وشخصيات مدنية، وإدريس السلاوي وعبد الرحيم بوعبيد[1].»

وسأعلم فقط فيما بعد، من خلال جيرونيمو، بأنّ الدليمي كان مشاركاً في الأمر. وأنّه هو المخبر الذي كان قد أخطر والدي بأنّ الطائرة التي كانت ستقلّه إلى الجزائر كانت مفخّخة! أمّا في أيّ وقتٍ تحالف الدليمي مع أوفقير، فهذا ما لم أستطع معرفته.

في ليلة 15/16 آب (أغسطس)، بعد آخر اجتماعٍ للتعليمات مع أمقران وكويرة، غادر والدي الدار البيضاء. ووصل إلى منزله في الرباط نحو الساعة الثالثة فجراً. لم ينم، بل جلس إلى مكتبه وقرأ بعض المستندات. كتب على ورقةٍ كرتونية قائمة أسماء، الورقة التي أخرجناها، وصيفته كوكو وأنا، من جيب آخر بزّة ارتداها قبل أن يلبس زيّه العسكري، والقائمة التي احتفظتُ بها بموافقة أمّي بعناية فائقة قبل إتلافها عندما اعتُقلنا.

حوالي الساعة الرابعة والنصف، ذهب والدي إلى شاطئ تمارة، على بعد حوالي خمسة عشر كيلومتراً جنوب العاصمة. وحدهما جيرونيمو والمساعد أوّل حمو رافقاه.

---

(1) أُعيد نشر مقتطفات من الدعاوي في جون أفريك، عدد 25 تشرين الثاني (نوفمبر) 1972.

عقد أوفقير اجتماعاً سرّياً في خيمة بحرية. وحينما سألت، فيما بعد، مرافقه عن ذلك اللقاء، قال لي:

- دخل الجنرال إلى الكوخ، حيث كان أناسٌ ينتظرونه، على ما يبدو. ما كان بوسعي أن أسأله مَنْ هم. لاحظتُ فقط أنّ سيارتين كانتا واقفتين في المرأب لحظة وصولنا؛ إحداها مسجّلة في الدار البيضاء والأخرى في الرباط. بقي الجنرال هناك حتى الساعة العاشرة والنصف، ثمّ عُدنا إلى البيت.

في 16 آب (أغسطس)، عاد إلى منزله نحو الساعة الحادية عشرة. بعد منتصف الظهيرة، تلقّى زيارةً أخيرة من المقدّم أمقران، الذي لم يتأخّر في مغادرة الرباط للذهاب إلى قاعدة القنيطرة. حوالي الساعة الثانية، جلس أوفقير إلى مائدةٍ في كوخٍ على شاطئ تمارة لتناول وجبة غداء سريعة بصحبة المقدّم حسن اليوسي، قائد أركان القوى الجوّية، والعقيد الدمناتي، مدير مكتبه في وزارة الدفاع، والمقدّم عروب، ذراعه الأيمن في هيئة الأركان. ومع أنّه لم يكن قد غمض له جفن بعد، بدا أوفقير مرتاحاً. أنجز ملفّات روتينية. وبعد ذلك، أخذ قيلولةً لنصف ساعة. الأمر الذي سوف يثير دهشة اليوسي، بعد الانقلاب: «كيف يمكن، قبل ساعتين من موعد انقلابٍ عسكري، الخلود إلى نوم عميق!» شهد كلّ الضباط الذين عاشوا إلى جانب والدي خلال تلك الساعات بهدوئه ورباطة جأشه.

في غضون ذلك، قرّر أمقران، العائد إلى القنيطرة، بمبادرته الخاصّة أن يرسل لملاقاة الملك ستّ طائرات F5، بدل طائرةٍ وحيدة يقودها كويرة، كما أمره أوفقير بذلك. لا شكّ أنّ المقدّم أقدم على مبادرة اللحظة الأخيرة هذه لتعويض التسلّح الزهيد للمطاردات. في ذلك الأربعاء 16 آب (أغسطس) 1972، قُطِعت القاعدة الجوية في القنيطرة عن العالم بدءاً من الساعة الثانية والدقيقة العشرين. وقد تلقّى الأربعمئة إلى الأربعمئة والخمسين من الموظّفين والطيارين والتقنيين الأمريكيين الأمر

بمغادرة المواقع منذ الساعة الواحدة والنصف. وسيقرّ السفير ستيوارت روكويل، بُعيد 16 آب (أغسطس)، بأنّ هذا الإخطار قد أُعطي تماماً لموظّفي القاعدة الأمريكيين. وسيُعلّل الدبلوماسي ذلك بالتوقيتات الصيفية.

ولكن لفهم أفضل لسير الانقلاب، ها هي الرواية، المصاغة بعد الانقلاب، للمقدّم أمقران شخصياً، أمام المحكمة، والتي نُشِرَت في جون أفريك: «لدى عودتي إلى القنيطرة، طلبتُ من الكابتن حشاد تشكيل سربٍ من ستّ طائرات، ستكون ثلاث منها مسلّحة. ولكنني لم أشرح لهم شيئاً. ومن ثمّ استدعيت النقيب ليازيد لأخبره بأنّ مصيره مرتبط بمصيري وأنّ أحداثاً جساماً ستجري. ثمّ طلبتُ منه إعداد سلسلة حراسة. نفّذ الأمر دون أن يطرح أسئلة. حوالي الساعة الثانية والنصف، التقيت كويرة؛ كان بادي الإرهاق؛ كانت القهوة التي احتساها ليلاً مع أوفقير قد منعته من النوم. لا بدّ لطيّار F5 من أن ينام على الأقلّ ثماني ساعات ليحسن القيادة. بعد قليلٍ من إقلاع الطائرات في الساعة الثالثة وخمس وخمسين دقيقة، اتّصل بي الجنرال هاتفياً ليستعلم عن الوضع ويقول لي إنّه سيبقى على اتّصالٍ معي. في الساعة الرابعة وعشر دقائق حلّقت الطائرات فوق طنجة وفي الرابعة وخمس وعشرين دقيقة جعلتني عبارة "Taleho"[1] التي أطلقها أحد الطيارين أُدرِك أنّ الطائرة قد أصبحت مرئية. الغريب أنّ الطيارين جميعهم شاهدوا الطائرة في الوقت نفسه، في حين أنها عادةً لا تُكتَشَف إلاّ حينما تكاد تبلغ مقصدها![2]... ثمّ سمعتُ الرائد قبّاج (قائد طائرة البوينغ الملكية) يصرخ: أخبروا F5 أن تبتعد، إنّها تقترب كثيراً من الطائرة».

---

(1) تعبيرٌ مستخدَم من قبل الطيارين الأمريكيين للإشارة إلى أنّ الهدف في متناول النظر.

(2) سها أمقران عن القول إنّ ذلك كان بفضل الوسائل التقنية للقيادة الإستراتيجية الجوية، وبالتالي لقاعدة روجا الأمريكية في إسبانيا، التي تتبع لها قاعدة القنيطرة.

الخلاصة، في الساعة الرابعة وخمس وعشرين دقيقة، وحسب أقوال أمقران، فإنّ طائرات المواكَبة الملكية F5 الستّ «أدركت هدفها» فوق تطوان، وأحاطت بالبوينغ كتشكيل شرف. طلب الرائد قبّاج من المطاردات ألاّ تقترب كثيراً من طائرته. ماذا سيحدث بعد ذلك؟ تزعم الرواية الشائعة منذ ذلك الحين أنّ «مهمّة المطاردات كانت إسقاط طائرة البوينغ؛ وأنّها فتحت النار دون سابق إنذار، وأنّه بمعجزة وبفضل بركة أمير المؤمنين، لم تنفجر البوينغ 727!» تفسيرٌ يدحضه الواقع. لأنّه، بعيد الانقلاب الفاشل مباشرةً، وليس بعد ثلاثين سنةً من الدعاية المضادة من قبل مؤسسة المَخْزِن، كانت للصحافة المكتوبة آنذاك رؤية أقلّ تشوّهاً في الزمن وفي الأسطورة... ففي عام 1972، رأت بعض وسائل الإعلام غرابةً في الرواية الرسمية. كانت صحيفة لوموند، في عددها الصادر بتاريخ 22 و23 آب (أغسطس)، أوّل من نشرت شكوكاً، مشيرةً إلى العديد من النقاط الغامضة والتناقضات الفاضحة للرواية الملكية. ومن ثمّ حذت بعض المؤسسات الصحافية حذوها، من بينها أسبوعية أفريقيا-آسيا في عددها من 18 أيلول (سبتمبر) إلى الأوّل من تشرين الأوّل (أكتوبر) 1972، والتي ذكرت في أعمدتها الهجوم بالعبارات التالية: «تتّخذ الأحداث منحى آخر يختلف على نحوٍ ملموس عن السيناريو المضبوط من قبل الحسن الثاني وحاشيته والذي لا بدّ أنّه قد خدع معظم الصحافة العالمية، حول الهجوم على طائرة البوينغ والطريقة التي تمّت بها تصفية أوفقير. إذ لم تكن لدى الرائد كويرة، الذي كان يقود طائرة النورتروب F5A ، أيّة نية مسبقة في إسقاط طائرة الملك. كانت التعليمات التي أُعطيت له واضحة ودقيقة: إرغام الطائرة الملكية على الهبوط في قاعدة القنيطرة الجوية، حوالي أربعين كيلومتراً من الرباط. وفقط في حال رفضت الطائرة الهبوط في القاعدة كان ينبغي أن تُسقَط بأيّ ثمنٍ كان. حينما دخلت البوينغ في المجال الجوي المغربي، أطلق كويرة طلقات إنذارٍ باتجاهها، طالباً من الطيّار، الرائد قباج، النزول في القنيطرة. وإذ

أُخطر الحسن الثاني بالأمر، دخل إلى قمرة الطيار، وأمره بمواصلة طيرانه إلى الرباط. وحينها أُطلِقَت أولى رشقات المدافع الرشاشة والمدفع عيار 37 لطائرة النورتروب، ورأى كويرة أنّ الطائرة تواصل هبوطها في الرباط، قامر بكلّ شيء. انطلق بمطاردته باتّجاه البوينغ مشغِّلاً المقعد القاذف لطائرته، قبل ذلك بثوان.»

تتابع أفريقيا-أسيا: «ماذا كانت خطّة أوفقير؟ وأيّ دعم استطاع أن يتوفّر عليه، وبأيّة شروط؟ هذا ما نبذل جهدنا في سبيل توضيحه. كان أوفقير يريد، بإجبار البوينغ الملكية على النزول في القنيطرة، إرغام الملك على التنحّي لصالح ابنه. وكان يفترض بالبوينغ نفسها التي أتت به إلى الرباط أن تعود به إلى باريس، إلى قصر بيتز... ما إن يكون قد وقّع صكّ تنحّيه».

دون أن نعيد هنا نسخ كامل المقالة، سأنهي مع هذا التحليل الأخير الذي قدّمه المحرّر: «ثمّة تفصيلٌ آخر يوضّح الأمور: في فجر 17 آب (أغسطس)، أي في اليوم التالي للمؤامرة، كانت خمس طائرات أمريكية تُقلِع من قاعدة القنيطرة وعلى متنها سبعة ضباط أمريكيين وثمانية ضباط إسرائيليين [...] ولكن هل كان الأمريكيون وحدهم يريدون أن يستلم أوفقير السلطة في المغرب؟ إنّ الخلاصات التي توصّل إليها مراسلون تشير، استناداً إلى دلائل رصينة، إلى أنّ قوى غربية أخرى، وكذلك إسرائيل، كانت لها مصلحة في رؤية انهيار نظام الحسن الثاني وأنّ شخصياتها الرسمية كانت قد وطّدت مؤخّراً علاقاتها مع أوفقير.

اسبانيا: سيكون أوفقير، الذي كان يحتفظ بعلاقات وثيقة مع وزير الداخلية الاسباني الحالي، قد بيّن لأصدقائه الأسبان أنّه لولاه لكان قد أُبرِم سريعاً اتّفاقٌ بشأن الصحراء الاسبانية. وأكّد لهم أنّه يمتلك وسائل تحييد موريتانيا.

فرنسا: ظلّ الموقف الرسمي ودّياً حيال الملك، ولكنّ أوساطاً فرنسية، وخاصّة داخل الجيش، كانت تفضّل سياسةً للتقارب مع أوفقير.

لم تكن تلك الأوساط، المدركة لهشاشة نظام الحسن الثاني، وخاصّة بعد الصخيرات، تريد أن تُفاجأ في حال نجح العسكريون المغاربة في انقلابهم، لاسيما وأنّهم كانوا يعلمون بأنّ الأمريكيين كانوا قد انتهوا إلى استمالة أوفقير وأصدقائه. كما أنّ جون واتربوري[1]، الباحث الأمريكي المختصّ بشؤون شمال أفريقيا، أطلق، بعد ذلك بقليل، جرس الإنذار، مشدّداً على استئثارٍ ملكيٍّ بالمعلومات!» فيما يخصّ أي تورّط القوى الخارجية، سيكتفي الحسن الثاني بالإجابة، في كتابه الحواري مع إيريك لوران، بأنّ الرغبة الفرنسية في ردّ الاعتبار لأوفقير في قضية بن بركة والغداء في لندن بين الجنرال ورئيس SDECE، كانا قد أثارا ظنونه. ولكنّه آثر ألاّ يكشف المزيد عن ذلك: «ما قد أخبرك به سيثير جدالات طويلة جدّاً!»

الحكاية التي تُصاغ اليوم عن الهجوم على البوينغ، يمكنها في الواقع أن تختصر في ما كتبه ستيفان سميث[2]:

«كانت الساعة الرابعة والربع. لحقت طائرات النورتروب بهدفها، ليس بعيداً من تطوان. ما إن أصبحت البوينغ 727 في مرمى الرمي، أمر الرائد كويرة ثلاث طائرات غير مسلّحة بإخلاء المنطقة. واتّخذت المطاردات الأخرى الوضعية القتالية. أراد كويرة أن يفتح النار، ولكن لم تخرج أيّة طلقة من مدفعه الرشاش. انضمّ النقيب بوخلف إلى الهجوم وأصاب أحد محركّات البوينغ الثلاثة. انحدرت الطائرة إلى ما يقارب الألف متر قبل أن ينجح الطيار في إعادة التوازن إليها. اخترقت عشرات الطلقات حُجرة الطيار [...] بدوره، هاجم النقيب زياد. ولأنّه رام فاشل، أهدر ذخيرته. أصاب بوخلف، الذي كان قد تزوّد ثانية بالوقود، محرّكاً ثانياً».

---

(1) كتب جون واتربوري كتاباً هامّاً جداً عن المملكة الشريفية بعنوان: أمير المؤمنين.
(2) ستيفان سميث، أوفقير، قدرٌ مغربي، مصدر سبق ذكره.

إذاً، يبدو كلّ شيء واضحاً ومنطقياً. بيد أنّ عقلاً مجرّباً لا بدّ أن يلاحظ بعد التغييرات التي لا يُستهان بها في هذه الرواية الحديثة: لم يعد يجري الحديث خاصّة عن إنزال البوينغ الملكية في القنيطرة. الخلاصة، إنّ أيّ شخصٍ كان، بقراءته لما قيل في التسعينات، سيخلص إلى أنّه كان يُفتَرَض أن تُدمّر طائرة الحسن الثاني تماماً بقسوة وبدون سابق إنذار!

أعتقد بأنّه، من أجل البتّ في هذه الروايات المتناقضة بعض الشيء، يجب الرجوع إلى صفحات المعنيّ الرئيسي، الحسن الثاني نفسه، الذي كتب في كتابه التحدّي[1]، قبل أن تهجره «ذاكرته الملكية» بعد سنوات من ذلك: «شكسبير محقٌّ تماماً في أن وضع على فم إحدى شخصياته هذه الشكوى: -اعصفي، اعصفي يا ريح الشتاء، فلستِ قاسية كجحود البشر. هذا الجحود لا حدّ له وبهذا المعنى، يمكن القول إنّ أوفقير شخصية شكسبيرية. كنتُ قد وضعتُ فيه كلّ ثقتي؛ وقد خانها بالطريقة الأكثر رداءةً وهذه الطريقة في التصرّف من قبل رجلٍ كنتُ أظنّه وفياً ومضحيّاً وأظهر لي أدلّة قاطعة على الولاء أحزنتني وأنا أعترف بذلك. لم أستطع أن أصدّق هذا القدر من الخداع والغدر. وجب عليّ الرضوخ للحكم، لأنّ الواقائع، هنا كما في الصخيرات، تتحدّث عن نفسها. مع بداية عصر يوم 16 آب (أغسطس)، عدنا من باريس حيث كنّا قد دعينا إليها من قبل الرئيس بومبيدو. حينما أصبحت طائرتنا، البوينغ 727، فوق تطوان، أحاطت بها طائرات مطاردة مغربية من طراز نورتروب F5. مباشرةً، بدا لي ذلك العمل غير مألوفٍ: لماذا هذه المواكبة المباغتة؟ حينذاك، أعطى الرائد كويرة، قائد سرب طائرات F5، الأمر عبر الراديو لقائد طائرتنا بالتوجّه مباشرةً إلى قاعدة القنيطرة. فاستلمت قيادة الطائرة في الحال وقررت بألاّ ننزل في القنيطرة وإنّما في الرباط كما هو مقرّر. في تلك اللحظة، أُطلقت علينا رشقة من الطلقات: كان الموت يحيط بنا. فبات

---

(1) نُشِر في فرنسا في نيسان (أبريل) 1976 عن دار آلبان ميشيل.

واضحاً أنّ القنيطرة هي الكمين الذي لن يخرج منه أحدٌ منّا حيّاً. فبات علينا لا أنّ ننزل في الرباط وحسب، بل وأن نضايق، بتحرّكاتنا، إلى أقصى حدّ طياري F5. فإذا حرِموا من الوقود، سيضطّرون لإعادة التزوّد به، وفي هذه الحالة سنملك الوقت الكافي لنبلغ الرباط. ولأنّني بنفسي طيّار مطارد[1]، لا أجهل أنّ على طائرة F5 أن تحلّق على مستوى منخفض لثلاثين أو أربعين كيلومتراً بعد الإقلاع قبل أن تتمكّن من اتّخاذ الارتفاع المطلوب والقيام بالانعطاف. ولأننا رفضنا الامتثال، أطلقت المطاردات النيران علينا. ورغم مناورتنا، لم نستطع أن نجنّب البوينغ من أن تُصاب إصابات مباشرة. جُرِح بعض الركاب. طلبتُ أن تقدّم لهم أفضل خدمات إسعافية ممكنة. وبمعجزة، لم تُصَب خزانات الوقود مع أنّ قذيفةً قد وقعت قريباً جدّاً من الهدف. ولحسن حظّنا لم تشتعل فينا النيران. وإذ بات وضعنا فعلاً سيئاً، هبطنا بالطائرة إلى مستوى خطرٍ. ومع ذلك، تابعنا تحليقنا نحو الرباط. يبدو أنّ الطيارين المعتدين الذين كانوا يدورون من حولنا قد فقدوا كلّ رباطة جأشهم. حاول كويرة، الذي نفدت ذخيرته، أن يصدمنا بطائرته المطاردة. ارتمى في عرض الرباط، وقفز بالمظلّة، وأُلقي القبض عليه وروى كلّ شيء.»

في هذه السطور، يمنح الحسن الثاني لنفسه الدور السهل إلى حدّ تحريف الوقائع لصالحه. يتحدّث عن قذائف في حين أنّه ثبت بوضوح، خلال المحاكمة، وبين الطيارين في سجن تاماتاغت للأشغال الشاقّة، أنّ الذخيرة الوحيدة التي استُخدِمَت كانت طلقات تدريبية من عيار 20 ملم. كما استخدم الملك، في الكتاب نفسه، عبارات «أمير المؤمنين» و«معجزة» بغرض إظهار «بركته كسليلٍ للنبيّ» أمام أنظارنا نحن المساكين ولكي يبرهن أنّ حظّه ناجمٌ عن تدخّلٍ إلهيّ، والذي لا بدّ أن يجعل منه ملكاً اليوم أكثر من البارحة.

---

(1) من المعلوم للجميع أنّ الحسن الثاني لم يكن أبداً طياراً مطارداً.

ويختم الملك حديثه بهذا الخصوص: «غالباً ما قرأتُ في الصحافة الأجنبية الأحاديث التالية: ”بضربةِ حظّ لا تُصدّق، ملك المغرب...“ أو أيضاً ”الحسن الثاني، بصدفة عجيبة... الخ.“ لم يستخدم الشعب المغربي كلمتَي الحظ والصدفة هاتين. بكلّ بساطة، اعتقد وقال بأنّ الخالق قد شاء أن يمتحننا وأن ينقذنا في حين بدا وكأنّ كلّ شيءٍ قد ضاع. أودّ الآن أن أبدي كم يستحقّ هذا الشعب الوفي أن يواجه ملكه الأخطار في ممارسته لمهامه.»

مع ذلك وحتى وهو يروي الأحداث لصالحه ويحمل على أوفقير، أقرّ الحسن الثاني بأنّ كويرة وطائرات F5 أبلغوه أمر الهبوط في القنيطرة! ثمّ، بإضافته أيضاً بأنّ كويرة قفز بنفسه بالقرب من الرباط، يثبتُ أنّ البوينغ كانت قريبة من مقصدها ومن إجرائها لعملية الهبوط التي جرى التمهيد لها منذ وقتٍ طويل! فلنُضفْ إلى هذه المعطيات العتاد التدريبي لطائرات F5، وسنستنتج أنّ «بركة أمير المؤمنين» ليست إلٓهية وحسب...

بعيد الانقلاب، صرّح لي أحد الضبّاط العاملين على أرض قاعدة القنيطرة بأنّ النقيب بوخلف والطيارين قد أخبروه: «بأنّه كان من المستحيل أن تنجح مهمّة كتلك بخمسمئة طلقة خلبية من عيار 20 ملم لكلّ واحدة من الطائرات F5 الثلاث المسلّحة. وأنّه، حتى من دون صواريخ، كانت رشقة وحيدة من الطلقات الحقيقية المتفجرة ستكفي لإنجاز المهمة.» وأوضحوا: «علاوة على ذلك، لم يكن لدينا ما يكفي من الوقود، إذ انطلقنا دون أن تكون خزاناتنا ممتلئة تماماً. لو أننا كنّا قد أخبرنا بذلك، لجرى الأمر بشكلٍ مختلف.» لأنّ الحقيقة تكمن هنا: لم يُخبَر الطيارون بما كان كويرة يريده منهم إلاّ حينما شوهِد هذا الأخير يُبعَد، بعد أن ألحّ على قائد البوينغ 727 ليهبط بها في القنيطرة.

الآن وقد عرف كلّ واحدٍ ما قيل وما كُتِب حول ذلك السادس عشر

من آب (أغسطس) الشهير، سيُتاح لي أن أنهي قصّة الهجوم على البوينغ انطلاقاً مما أعرفه أنا عن ذلك.

في الساعة الثالثة وخمس وخمسين دقيقة من بعد الظهر، أقلعت طائرات النورتروب الستّ من قاعدتها. في الرابعة وعشر دقائق، حلّقت فوق طنجة. في الرابعة وخمس وعشرين دقيقة، سمع أمقران، الذي كان يتابع العملية من برج المراقبة، عبارة «Taleho» التي تشير إلى أنّ البوينغ الملكية أصبحت في مدى الرؤية. فدخل كويرة، قائد السرب، في اتّصالٍ عبر الراديو مع طيّار الملك وأبلغه الأمر بأن يحطّ مباشرةً في القنيطرة. لأجل ذلك، لم يكن على الطائرة الملكية أن تغيّر الاتّجاه ما دام خط مسار تحليقها يمرّ فوق القنيطرة لتحطّ في الرباط، المدينة المجاورة التي تقع على بعد أقلّ من أربعين كيلومتراً. هذا الأمر مفصلي، لأنّ البوينغ أعطت للمتمرّدين الانطباع بأنّها قد امتثلت في حين أنّها واصلت التحليق نحو العاصمة، متّخذةً الاتجاه ذاته! وفقط في اللحظة الأخيرة، في آخر أربعين كيلومتراً الفاصلة بين المدينتين، أدرك كويرة أنّ البوينغ تفلتُ منه.

منذ اللحظة التي شاهد فيها الحسن الثاني الطائرات المطاردة، ذهب إلى قمرة القيادة ليفهم أسباب هذه الحماية غير المنتظرة. أخبره طيّاره، الرائد قباج، بالوضع وبالإنذار. لم يتردّد الملك: بالنسبة له، كان من المستبعد تماماً النزول في القنيطرة حيث ينتظره المتآمرون. بين خيارين أحلاهما مرّ، قرّر بكلّ منطقية أن يجرّب حظّه. لم يكن أحدٌ على متن البوينغ يعلم بعد بأنّ طائرات F5 مسلّحة فقط بطلقات خلبية لكونها لم تكن قد فتحت النار بعد. خمّن الحسن الثاني أنّ هناك خديعة ملعوبة لاسيما وأنّ طيّاره أعلمه بأنّه لا يرى أيَّ صاروخٍ مثبتٍ تحت أجنحة المطاردات. أيمكن أنّهم يخادعون؟ أيمكن أنّهم ليسوا مسلّحين بكلّ الأسلحة؟ قد يكون الحسن الثاني، الذي خبّأ ترسانة جيشه منذ الصخيرات، اقتنع بذلك. المهمّ أنّ الملك أمر الرائد بأن يصمّ أذنيه ويتابع طريقه نحو الرباط. وفي حين لم يكفّ كويرة عن الترديد بلهجة تزداد

تهديداً: «لديكم الأمر بالهبوط في القنيطرة... إن لم تمتثلوا سنفتح النار!»، لزم طاقم البوينغ الصمت حيال الراديو. ظلّ الحسن الثاني يكسب وقتاً ثميناً.

والوقت، في هكذا حالة، يكون حاسماً. لأنّه بين الساعة الرابعة وخمس وعشرين دقيقة، اللحظة التي اعترِضَت فيها البوينغ فوق تطوان، والساعة الرابعة وخمسين دقيقة حيث حطّت في الرباط، انقضت خمس وعشرون دقيقة وبضعة كيلومترات تبيّنت أنّها، بالنسبة لطائرة نفّاثة، مسافة قصيرة للغاية.

حينما لحقت F5 بالبوينغ، شرعت هذه الأخيرة بالهبوط، وقد غادرت منذ وقتٍ طويل الارتفاع الأقصى البالغ عشرة آلاف أو اثني عشر ألف متر الذي كان سيجعلها أكثر هشاشةً. أطلق كويرة، الذي لم يعد يحتمل الصمت حيال إنذاراته، رشقةً تحذيرية. وانقضت دقائق ثمينة أيضاً. في كلّ كيلومترٍ قطعته البوينغ نحو مقصدها، كسبت أفضليةً على طائرات النورتروب. وكلّما اقتربت البوينغ 727 أكثر من الرباط راسمةً خيوطاً من الدخان في السماء، ضايقت أكثر الـF5 في تحرّكها؛ فقد أثقل ارتفاعها وسرعتها ووقودها المحدود الكمية ومدافعها الثابتة عبئها الإضافي في كلّ ثانية. علاوة على ذلك، كان الرائد قباج، الطيّار المطارد السابق والمتحوّل إلى الطيران المدني، يعرف تماماً نقاط ضعف النورتروب F5، فهي قاصفة ممتازة للأهداف الأرضية ولكنّها معترِضَة رديئة في الجوّ. وخاصّة بدون صواريخ جو-جو ولا طلقات متفجّرة!

كطيّارٍ خبير، أنزل قباج، منذ الطلقات التحذيرية الأولى، ستائر الأكسجين للبوينغ 727، وألغى سويّة الضغط في طائرته. الأمر الذي لم يمنع فيما بعد عبارات من نوع: «البوينغ التي ألغيت فيها سويّة الضغط فجأةً، السقوط من ارتفاع أكثر من ألف متر»، الخ. عبارات تقليدية جذّابة وبليغة بالنسبة للجمهور الكبير، ولكن في ذلك السادس عشر من آب (أغسطس)، كانت حقيقة الأمر أقلّ غرابةً.

بعد الرشقة التحذيرية، طلب كويرة من المطاردات غير المسلحة إجلاء المنطقة ومرّ على مقربة كبيرة من البوينغ للتأثير عليها. ولكنّ الـ 727 ظلّت صامتة وواصلت هبوطها نحو الرباط. قام الرائد كويرة بمرورٍ آخر، هذه المرّة وهو يفتح النار، ثمّ وهو يجلي سريعاً طائرته، مقتنعاً بأنّ طلقة متفجّرة واحدة ستكفي لإشعال الطائرة الملكية. ولكنّه رأى، مذهولاً، أنّ هدفه ما زال يطير. وليتأكّد من أنّه لا يحلم، أطلق النار من جديد. أُصيبَت حجرة الطيار في عدّة أماكن منها، ولكن لم تنفجر أيّة نافذة من نوافذها، ولم يشتعل أيّ حريقٍ على متنها. في المرور الثالث، لم تخرج أيّة طلقة من مدافعها. حسب الرواية الشائعة، سيكون المدفع الرشاش لكويرة قد تعطّل. في الحقيقة، استنفد الكمية الزهيدة من الخراطيش!

واصلت البوينغ هبوطها. ولتبقى في خطّ تسديد مصوّبها الثابت، كان على النورتروب أن تقوم بانعطافات واسعة تستهلك الكثير من الوقود، المحدود الكمية أصلاً.

قلّلت كلُّ ثانيةٍ مرّت فرص الـ F5. أمر كويرة، الغاضب، النقيبين زياد وبوخلف بأن يطلقا بدورهما النار على طائرة الملك. بدأ زياد بالإطلاق. لم تصب أيّة قذيفة من قذائفه الهدف. انضمّ بوخلف إلى الهجوم وأصاب الطائرة. وسيُكتَب أنّه أصاب محرّكين من المحركات الثلاث، والتي كانت ستشتعل فيها النيران لولا أنّ البوينغ قد نجحت في الهبوط بمحرّكٍ واحد! ولتقويض هذا «التدخّل الإلهي»، أدعو المتشكّكين إلى النظر بانتباه إلى الصور الوحيدة للطائرة[1] مباشرةً بعد هبوطها في الرباط، صور ملتقطة من قبل لهين، المصوّر الشخصي للملك الذي كان

(1) قبل أن تُعرَض للصحافة، ستكون البوينغ قد «رتِّبَت» من قبل جهاز SSS. وسيصل السيناريو إلى حدّ إرسال الـ 727 إلى مكّة لمباركتها. ولدى عودته، منح الحسن الثاني البوينغ أرفع وسامٍ في البلاد. راجع الملحقات.

بين الركاب. لا يحمل أيٌّ من المحرّكات آثار حريقٍ. كما أُقسِمَ إنّ طائرة الحسن الثاني كانت قد حطّت بإطاراتٍ مثقوبة. والحال أنّنا نرى في الصور العجلات سليمة، حتى أنّه قد وضِعت سندةٌ تحتها.

حينما أدرك طيارو الـ F5 أنّهم مسلّحون بذخيرة خلبية، فات الأوان. قرّر الرائد كويرة، بعد أن أدرك لافاعلية لذلك العتاد التدريبي، أن يصدم بمطاردته البوينغ. غيّر كويرة، الذي شاهد طائرة الملك على وشك بلوغ الرباط، اتّجاهه كوسيلةٍ أخيرة ليسلك مسار البوينغ في الاتّجاه المعاكس. أوصل طياره الآلي وقفز من مسافةٍ معقولةٍ من الـ 727. ولكنّ البوينغ انحدرت ومرّت الـ F5 على مسافةٍ من تحتها دون أن تصيبها ثمّ تحطّمت.

هنا، أيضاً، نجا الحسن الثاني بسبب غريزة بقاءٍ منطقية جدّاً... لم يكن كويرة طياراً انتحارياً في شيء. لو أنّ قائد سرب طائرات النورتروب بقي جاثماً في مقعده، لا أعتقد بأنّ بركة الحسن الثاني كانت لتنقذه. أواصل خدش الأسطورة بالتأكيد على أنّ كويرة لم يكن ينوي أبداً الانتحار. وقد كُتِبَ أحياناً أنّه في اللحظة الأخيرة، وبينما كان سيضحّي بنفسه، صرخ به زياد: «لا تفعلها سيّدي الرائد! ما زالت لدي بعض الطلقات!»، وأنّ كويرة، في ردّ فعلٍ أخير، سيكون قد مرّ من أسفل البوينغ، وفجّر قبّة قمرته تحت بطن الـ 727، وخرج سليماً ليقفز من طائرته. وأترك للقارئ الحكم إن كان طيارٌ يفجّر قبّة طيارته بهذه السرعة في اصطدام مع طائرة بوينغ يستطيع أن ينجو دون خدشٍ وسالماً وصاحياً بما يكفي ليقذف بنفسه من الطائرة. دون أن نأخذ بالاعتبار أنّ طائرة الحسن الثاني لم تحمل أيّ أثر لصدمة على بطنها.

ومع أنّه لم يعد لديهما أيّ وهم بشأن لافاعلية طلقاتهما، فقد تهيّأت الطائرتان الأخريان من طراز F5 لإطلاق ما تبقّى لديهما من طلقات. ولكنّ الحسن الثاني أملى، بمهارة، على الميكانيكي رسالةً لتوجيهها إلى طيّاري الـ F5: «حبّاً بالله، أوقفوا الرمي، الملك يحتضر، لقد أُصيب في رأسه! مات الطيار! والطيار المساعد جُرِح جراحاً خفيفة، وسيحطّ

بالطائرة، بمساعدة فردٍ من الطاقم. . . أكرّر، الملك يشارف على الموت، جراحه بليغة! أوقفوا الرمي! لن تقتلوا سوى الأبرياء!» مع ذلك لم تعد لبضع الدقائق التي كُسِبَت بتلك الحيلة الأهمية ذاتها: لم تعد تمتلك الـ F5 ذخائر- إذ سمع أمقران النقيب زياد يصرخ عبر الراديو: «لا نملك ذخيرة! أرسلوا بسرعة تعزيزات مسلّحة، لا نملك ذخيرة!».

ما إن قفز كويرة، عادت المطاردات الأخرى إلى قاعدة القنيطرة العسكرية. أمّا البوينغ فحطّت في مطار الرباط-سلا. خروجها إلى نهاية المهبط لم يكن بسبب إطارات العجلات المثقوبة كما زُعِم، بل تحسّباً، طلب الملك من طيّاره أن يهبط في أقرب ما يمكن كي لا يقترب من الطريق المفروش والشخصيات الرسمية التي تنتظره. لم يكن يعرف إن كانت لجنة الاستقبال ستستقبله بالبلح والحليب أم بالقنابل اليدوية والرصاص. كان كبح الرائد قبّاج شديداً بحيث سكنت الطائرة جانبياً بعض الشيء وخرج أنفها على العشب. ما إن توقّفت الطائرة، نُشِرَت مزالق النجاة. وانزلق من خلالها الملك وحاشيته. انتظر الحسن الثاني، مصحوباً بالدليمي وقابضاً على مسدّسه الكولت، تحت ذيل البوينغ، لا يدري إن كان عليه أن يفرّ عبر الحقول أم يتّجه نحو الرسميين وقاعة الشرف.

أسرعت سيارة على المهابط وتوجّهت نحوهم. صوّب جميع أفراد الحماية الملكية أسلحتهم نحوها. البعض منهم تجمّعوا خلف عجلات الهبوط واتّخذوا وضعية الرمي. توقّفت المركبة عملياً تحت الطائرة. وخرج منها الجنرال إدريس بن عمر. ما إن حيّا الملك، سأله الحسن الثاني: «أين أوفقير؟» شرح بن عمر للملك أنّ وزير الدفاع كان ينتظره مع بقية الشخصيات، حينما جاء مَنْ يطلب منه الذهاب إلى برج المراقبة. ومن ثمّ غادر المطار. وأضاف إدريس:

– لا شكّ أنّه قد علم بما جرى لجلالتكم، وذهب ليلتحق بمقرّه في هيئة الأركان ليتأكّد من أنّ بقية وحدات الجيش في البلاد تلتزم الهدوء.

وصل الحسن الثاني إلى قاعة الشرف، وحيّا، أشعث الشعر وبشكلٍ عاجل، الوزراء الذين كانوا ينتظرونه. منذ اللحظة التي خرج فيها كويرة من اللعبة، لم يعد للعملية من يقودها. لأنّه وحدهما هذا الأخير وأمقران كانا يعرفان توجيهات أوفقير. والحال أنّ الأوّل، وقد قفز من طائرته، قد حُدِّد مكانه وتمّ توقيفه، وغادر الثاني إلى جبل طارق. في هذه المرحلة من التآمر، ستكون الأحداث غير متوقّعة، وخارجة عن تسلسلها وعن سيطرة أوفقير.

أقلعت حوالي عشر طائرات F5 من قاعدة القنيطرة. هذه المرّة، بخزانات مليئة وصواريخ جو-أرض. ظهرت المطاردات فوق مطار الرباط-سلا، ورأت البوينغ مع أشخاصٍ منهمكين من حولها، وشاهدت تجمهراً أمام قاعة الشرف. وإذ لم يعرف الطيارون إن كان الملك يغادر حينها الطائرة أم أنّه قد وصل إلى قاعة الشرف، استهدفوا الاثنتين معاً. ويكفي رؤية هياكل السيارات المحترقة في المرائب لإدراك الفرق بين الطلقات عيار 20 ملم الخلّبية والصواريخ جو-أرض! ما كانوا يجهلونه هو أنّ الحسن الثاني قد ابتعد عن المكان. متبوعاً بمولاي حفيظ والدليمي وبعض المقرّبين، استعار الملك سيارة أحد موظّفي المطار وتاه وسط حركة المرور في العاصمة. وصل إلى قصر الصخيرات حيث اتّخذ مباشرة إجراءات أمنية مشدّدة. وضع مظليّو الحرس الملكي في حالة استنفارٍ قصوى. وكُلّف أولئك المرافقون البلجيكيون والفرنسيون والسنغاليون بتطويق المباني الملكية والدفاع عنها. في الميناء الترفيهي لقصر الصخيرات، كان يختان جاهزين للإقلاع. وكان كلّ منهما يتوفّر على مهبط لمروحية. عقد الملك اجتماعاً عاجلاً مع مولاي حفيظ والدليمي لمعرفة ما هي المكالمات التي من الأنسب إجراؤها. اتّصل الحسن الثاني أوّلاً بالكتيبة الأولى للمظليين من الحرس الملكي وأمر العقيد لوباريس، الذي كان بالكاد قد تماثل للشفاء من الجرح الذي أُصيب به قبل سنة في

الصخيرات، بأن يجمع القوات والعربات ويُحاصِر قاعدة القنيطرة. ومن ثمّ سعى لأن يتّصل بأوفقير في هيئة الأركان ولكنّه لم يجده فيها.

من جهتها، بعد الهجوم على الرباط-سلا، عادت طائرات الـ F5 إلى القنيطرة لتتزوّد بصواريخ جو-أرض وتقصف، كقتال شرف، عشوائياً القصر الملكي في الرباط.

أمّا الحسن الثاني، فقد اتّصل بوحدة BLS، وحدة النخبة هذه المشكّلة من قبل أوفقير والمخصّصة لقمع انقلابٍ محتَمَل. كان من الطبيعي أن يريد الملك التحرّي عن وفائها. وقد قيل له إنّ كلّ شيء على ما يُرام وإنّ الجنرال في موقعه في الثُكنة. طلب الحسن الثاني أن يُحوّل إليه في الحال وزير الدفاع. تحادث الرجلان عبر الهاتف، ولكن لن يعرف أحد ما قاله أحدهما للآخر. بعد الحديث مع والدي، أعطى الملك الأوامر لوحدة BLS: «محاصرة قاعدة القنيطرة في الحال وإلقاء القبض على جميع الانقلابيين». وكعادته، حرص الحسن الثاني على مضاعفة الاحتياطات. فحتى قبل الاستنجاد بوحدة BLS، أرسل عربات ومظليّي العقيد لوباريس نحو القنيطرة.

ماذا فعل والدي منذ اللحظة التي حطّت فيها البوينغ؟ ماذا كان موقفه وتصرفاته؟

أثار استثماره للوقت ونواياه فرضيات. ذهب التفسير السائد على الدوام في اتّجاه كاريكاتير «الوزير الفظّ العديم الذمّة». سارع البعض إلى الجزم بأنّ أوفقير، بعد متابعته للأحداث من برج المراقبة في الرباط وتأكّده من فشله، قرّر الالتحاق بهيئة الأركان بغية إرسال قوات لإبادة المتواطئين معه في القنيطرة ليخفي جرمه.

فكتب ستيفن سميث[1]: «غادر الجنرال أوفقير برج المراقبة في مطار

(1) سميث ستيفن، أوفقير، قدرٌ مغربي، مصدر سبق ذكره.

الرباط-سلا الذي كان يتابع منه مباشرةً العملية وبالتالي إخفاقه. بقي لديه خياران. في نهاية المدرج، وضع مدرّعات خفيفة لوحدة BLS، تحت قيادة رجل مخلص له، العقيد ميمون أويجا، وهو بربريٌّ من الشرق. فكانَ بإمكان أوفقير أن يعطي الأمر بتصفية الملك وحاشيته لدى نزولهم من البوينغ أو، إذا فات الأوان على ذلك، الهجوم على جناح الشرف مجازفاً بحمام دم. حتى إذا لقي الحسن الثاني حتفه في ذلك، فلن يكون المسؤول عن مذبحةٍ كهذه مقبولاً كخليفة في الحكم. ولكن الخيار الآخر كان أيضاً محفوفاً بالخطر البالغ: بعد قيادة الانقلاب العسكري، يمكن لأوفقير أن يقوم بانقلابٍ مضاد لإزالة الآثار التي تكشف عن تورّطه. وهذا ما قرّر القيام به. كان الجنرال المدبوح، الذي أرعبته المجزرة التي تسبّب بها هجوم الصخيرات، قد لجأ إلى المراوغة. فإذ لم يعد يجرؤ على احتجاز الملك، ذهب لمقابلته في مخبأه ليعرض عليه مفاوضة عبابو. ولمّا وقع بين نارين، هلك. قرّر أوفقير، هو الآخر، أن يغيّر تماماً معسكره وأن يبيد، لإخفاء مسؤوليته، بطريقةٍ دموية المؤامرة التي دبّرها. مع ذلك، لم يذهب إلى نهاية منطقه، مجتنباً مواجهة الملك والدليمي[1]. وبدل الذهاب إلى قاعة الشرف، توجّه مباشرةً إلى هيئة الأركان العامّة لاستعادة زمام الأمور. حقّاً كان هناك استنفار. يجب تدمير قاعدة القنيطرة وقتل أمقران وكذلك جميع الطيّارين الذي أُطلعوا على الأمر قبل أن يتمكّنوا من الوشاية به. في هيئة الأركان، التقى أوفقير بمعاونه الجنرال عبد السلام بن عامر، الملقّب نيغرا. أمره بمحاصرة القاعدة الجوية وقتل جميع مَنْ فيها. وضع تحت تصرّفه وحدة المدرّعات التي يقودها العقيد لوباريس، الذي شُفي للتوّ بعد عامٍ من النقاهة. بالتوازي مع ذلك، وتحاشياً لأيّ خطر، طلب أوفقير من العقيد الدمناتي الذهاب إلى القنيطرة

(1) وحدهم الذين يعرفون أوفقير جيّداً يعلمون بأنّه لم يكن الرجل الذي يخشى مواجهة الملك فما بالكم بالدليمي.

مع رجاله وإعدام جميع الطيارين الذين أقلعوا بعد الظهيرة.»

برأيي، الحقيقة مختلفة تماماً. أوّلاً، ليقيني أنّ أوفقير ما كان ليعطي أبداً أمراً كهذا. مهما كان رأي مَنْ يجمّدونه في صورة «الدنيء»، كان أوفقير بالتأكيد قاسياً، ولكنّه قبل كلّ شيء محاربٌ صرف ورجل شرف. في اليوم الذي سيتيح فيه تطوّر المغرب ذلك، وحينما ستتمكّن شهادات النفي من الإفصاح عن نفسها، سيجازي التاريخ كلاً بجزائه العادل. . . ومن ثمّ، لأنّ العديد من المعطيات تناقض هذا التفسير.

منذ الساعة الرابعة وخمسين دقيقة، أي منذ أن حطّت البوينغ الملكية، امتنع أوفقير عن تدخّل مدرّعات ميمون أوبجا في المطار «خشية أن لا يكون مرتكب مجزرةٍ كهذه خليفةً مقبولاً»، يمكن قراءة ذلك بطيبة خاطر. إذاً كيف يمكن أن تُنسَب إليه النيّة في إسقاط البوينغ بركّابها، ومن ثمّ قتل المتواطئين معه؟

إذا سلّمنا برغبة محتَملَة بقتل هؤلاء الأخيرين، لماذا مرّ أوفقير، حتى قبل الذهاب إلى هيئة الأركان، بوحدة BLS ولم يُعطِ أيّ أمرٍ بهذا المعنى؟ لدى مغادرته لثُكنة BLS، تكلّم مع الملك وعلم أنّ الحسن الثاني قد اتّخذ تدابير من أجل «استعادة زمام الأمور». وبالتالي، لا يقنعني منطق هذه الرواية. ثمّ، لماذا لم يقفز وزير الدفاع إلى أوّل عربة متوفّرة ليذهب بنفسه إلى القنيطرة دون أن يضيّع ثانية واحدة من الوقت؟ يمكنني التأكيد أنّه لو كان أوفقير قد فكّر في هذا الخيار، لقام به شخصيّاً، على رأس مدرّعات وحدة BLS التي كانت موالية له تماماً، لحظةَ ذهابه إليها.

ثمّة ملاحظة أخرى. في الساعة الرابعة وخمسين دقيقة، حطّت البوينغ في الرباط، وكان الملك وحاشيته سليمين ومعافين. في الساعة الخامسة وعشر دقائق، بدأ الحسن الثاني «بتقويم الموقف». وأخيراً حينما وصلت طلائع القوات، في الساعة السابعة والربع، إلى قاعدة القنيطرة وحاصرتها بهدوء، دون إطلاق طلقةٍ واحدة، لم يكن كويرة وأمقران فيها منذ وقتٍ طويل. ماذا كان سيفيد أوفقير قتل طيّاري وتقنيي قاعدة

القنيطرة؟ لا أحد منهم يعرف أيّ شيءٍ كان. وحدهما أمقران وكويرة تلقّيا أوامره المباشرة. والحال أنّ الأوّل، على متن مروحية، كان على وشك الهبوط في جبل طارق واقتيد المطّلع الثاني بمروحية للدرك الملكي إلى قصر الصخيرات حيث أراد الملك أن يستجوبه بنفسه. لم يكن أوفقير، الذي تابع العملية من برج المراقبة، يجهل شيئاً من كلّ هذا. ونسب نيّة الرغبة في قتل جميع طيّاري القنيطرة إليه، هي إهانة لذكائه كما لخبرته. كيف يمكن التصوّر أنّه استطاع أن يبقى مكتوف اليدين في مكتبه بهيئة الأركان تاركاً الحسن الثاني يأخذه بسرعة بينما يملك الورقة الرابحة المتمثّلة في مساندة الجيش برمّته؟

الحقيقة مختلفة. وهي بسيطة جدّاً. وبشرية لا إلهية...

بمقتل والدي ومنذ أن أُطلِقَ سراحنا، كرّستُ نفسي لإعادة جمع عناصر الأحداث البارزة للمغرب الحديث وخاصّةً أحداث انقلاب 16 آب (أغسطس). سألتُ وزراء وجنرالات ومرافقين وسائقين ووصيفات... أردتُ أن أعرف بدقّة متناهية ما فعله والدي من الساعة الرابعة وخمسين دقيقة، في يوم 16 آب (أغسطس)، وحتى الثانية عشرة والنصف من بعد منتصف تلك الليلة، اللحظة التي قُتِل فيها في قصر الصخيرات، بحضور الملك... كانت مساعدة جيرونيمو لي نفيسة. أعاد لي دقيقةً بدقيقة استخدام الوقت من قبل أوفقير الذي لازمه كظلّه خلال ذلك اليوم المشؤوم.

بوصوله إلى المطار، صافح وزير الدفاع بعضاً من الشخصيات التي كانت تنتظر الملك. تحدّث مع الجنرال إدريس بن عمر وذرع مع صديقه القديم الطريق المفروش من المدرج، متكلّماً معه همساً. أخبرني جيرونيمو أنّ ضابطاً رفيعاً جاء يحيّي والدي وهو يعرج، متّكئاً على عكّازه. قال له أوفقير:

- ما بك يا كولونيل، كيف حالك؟

- كما ترى سيّدي الجنرال. . . أعاني من آلامٍ شديدة في الورك! ولكن لم يسعني إلاّ أن آتي لتحيّة جلالته.

وأجاب على ذلك بنبرة غامضة، تكاد تكون ساخرة:

- لست الوحيد الذي تعاني بشدّة من المذلّة. . . ولكن يبدو أننا على وشك إيجاد دواءٍ ناجع. . .

كان العقيد لا يزال يحاول فهم أحجية الجنرال حينما ابتعد أوفقير ليتبادل بضع كلمات مع موظّفين كبار آخرين من بين الحضور. وكما هو متّفقٌ عليه، جاء العقيد اليوسي يقاطع القائد العام للجيش ليخبره:

- سيّدي الجنرال، إذا أردتم متابعة حسن سير وصول الملك، فقد أعلن برج المراقبة للتوّ بأنّ طائرة جلالته قد دخلت المجال الجوّي الوطني.

اعتذر أوفقير من بن عمر والصفريوي وأخذ كلاً منهما بمرفقه، وتحدّث معهما لبضع ثوانٍ، ثمّ توجّه نحو مباني المطار وبرج المراقبة، مسبوقاً بالعقيد اليوسي ومتبوعاً بجيرونيمو. هناك، كما شوهِد، تابع العملية مباشرةً بواسطة الراديو: من اعتراض البوينغ إلى قفز كويرة وحتى اللحظة التي عادت فيها طائرات F5، التي أدركت أنّ عتادها خلّبي، لتتزوّد بالصواريخ والوقود.

حسب جيرونيمو، لم يُبدِ أوفقير أيّة علامة توتّر. فغادر الوزير البرج، وعاد إلى المدرج وتبادل حديثاً مقتضباً مع إدريس بن عمر. ثمّ ذهب إلى سيارته. لم تفهم الشخصيات التي كانت تنتظر الملك أيّ شيء.

كان أوفقير على وشك أن يغادر المطار، برفقة اليوسي، قائد سلاح الطيران، حينما لاحت بوينغ الحسن الثاني في الأفق.

صرخ العقيد:

- سيّدي الجنرال، سيّدي الجنرال، إنّها هي. . . إنّها طائرة الملك! إنّها تحطّ!

أجابه أوفقير:

- قلتُ لإدريس بن عمر أن يشرح سبب غيابي. . . اذهب لاستقبال الملك معه، وأنا سأذهب إلى هيئة الأركان.

أقلعت السيارة. لم تكن قد غادرت مدخل المطار بعد حينما تلقّى جيرونيمو مكالمةً عاجلة على الجهاز المرسِل/ المستقبِل العسكري المركّب في سيارة الليموزين. أعطى السماعةَ مباشرةً لوالدي. كان التردّد سرّياً للغاية ومحمياً. أدرك المرافق، كما روى لي ذلك، في الحال أنّ تلك المكالمة كانت على أهمية فائقة.

ظهرت البوينغ، مفتوحة المصراعين وعجلات الهبوط، على مصافة المدرج. كانت محطّة DS 21 صاخبة والتشويش الذي يشوب الاتّصال معتاداً من راديوهات الميدان ومحطات الإرسال العسكرية. استطاع جيرونيمو أن يسمع ما قيل. جرى الحديث باللغة البربرية. كان المتّصل العقيد ميمون أوبجا، معاون قائد وحدة BLS، الضابط السابق في الجيش الفرنسي، ورجل ثقة أوفقير وأوفى الأوفياء له. أوقف وحدته المدرّعة على حافة مدارج الطيران التي يتقاسمها مطار الرباط-سلا مع أوّل قاعدة جوية تقع قبالته تماماً. ما إن باتت البوينغ مرئية، اتّصل العقيد مباشرةً مع وزير الدفاع:

- سيّدي الجنرال، الهدف في مدى النظر. إنّه يهمّ بالهبوط. أنتظر أوامركم للتدخّل.

أجابه أوفقير بصوتٍ ثابت:

- كلاّ، لم تعد هناك حاجة لذلك. سيكون الأمر صخيرات أخرى.

وأضاف:

- كلاّ، يا ميمون، لا تتحرّك، هكذا أفضل. . .

بعد بعض الأزيز في الراديو، أصرّ العقيد:

- سيّدي الجنرال، لا تحمي أيّة قوّة المدرج وقاعة الشرف. دعوني على الأقلّ أضع مصفّحاتي على المدرج. . . سيضطّر لأن يعود ويحطّ في

القنيطرة. سيّدي الجنرال... سيّدي الجنرال...

- كلاّ! يا ميمون، لا تتحرّك.

أعاد والدي السمّاعة لجيرونيمو، الذي نظر إليه، حذراً. روى لي المرافق أنّه رغم التحفّظ الذي تتطلّبه وظيفته منه، لم يستطع أن يمنع نفسه من أن يقول لوالدي:

- سيّدي الجنرال، دعني في المطار، دعني أهتمّ بالأمر... أقسم لك إنني سأفقد حياتي فيه، ولكن الأمر سيُنجَز!

فوضع أوفقير يده على كتفه ليشكره على وفائه وإخلاصه. ثمّ، ومع ابتسامةٍ مترفّعة، قال للسائق أن يواصل طريقه إلى الرباط. في اللحظة التي خرجت فيها سيارة DS 21 من المطار وسارت على طول الطريق المحاذي للمدرجات، لامست بوينغ الحسن الثاني الأرض.

عرج أوفقير على وحدة BLS ثمّ ذهب إلى هيئة الأركان العامّة. هناك، في مكتبه، عقد اجتماعاً عابراً مع العقيد الدمناتي، رئيس ديوانه في وزارة الدفاع، وكذلك بعض الضباط الكبار. ظلّ جيرونيمو واقفاً، منزوياً في ركنٍ من الحجرةِ. استدعى أوفقير واحداً بواحد القادة الرئيسيين لوحدات المملكة. استعلَم بهدوء عن الوضع في المدن والأقاليم وحثّ قادة الجيش على الهدوء.

وسيروي لي المرافق بعد الانقلاب كيف أنّ والدي بقي هادئاً أمام التماسات الضبّاط الذين كانوا يحيطون به وأمام ما تلقّاه عبر الهاتف. وسيخبرني جيرونيمو بنبرةٍ يائسة بأنّه لم يفهم قط لماذا لم يوافق على انتفاضةٍ شاملةٍ للجيش. وسيؤكّد لي إلحاح الضبّاط والصرامة التي رفض بها وزير الدفاع طلبهم. حسب كلمات جيرونيمو: «كان الجنرال يبدو أكثر تحفّظاً من العادة». كان نوعٌ من الصفاء المتعب المعاكس لخطورة الأحداث، على حدّ قوله، قد استحوذ عليه. أمام تلهّف وقلق ولاسيما غضب العسكريين، أبدى أوفقير برودةً صارمة. وقد ردّد جيرونيمو عليّ حتى الكلمات الشكّاكة لبعض الضباط الحاضرين:

- لا يمكنكم القيام بهذا، سيّدي الجنرال... قريباً جدّاً من الهدف... ليس عليكم سوى إعطاء أمر وتعلمون علم اليقين، سيّدي الجنرال، أنّ الجيش برمّته سيطيع!

ما الذي دار في رأس أوفقير؟ هذا ما حاول الكثير من المراقبين الإجابة عليه بنجاحٍ أكثر أو أقلّ وكثيرٍ من التخيّل. الجواب أكثر بساطةً، أكثر إنسانيةً من كلّ الفرضيات المعدّة بمبالغة لتكون مرضية.

في الواقع، وكما رأينا ذلك، كان أوفقير، منذ انقلاب الصخيرات، رجلاً محطّماً. ولإنقاذ البلاد من الفساد، وإنقاذ الملكية التي ضحّى بكلّ شيء في سبيلها، لم يكن له من خيار سوى التحرّك ضدّ ملكه. لقد كرّس حياته وعرّض نفسه لكلّ المخاطر في سبيل حماية العرش، ولكن أن يضطرّ لرفع يده على ملكه فتلك ليست خطوةً تُخطى بسهولة. أقسم أوفقير في مكّة، عند الكعبة المشرّفة، يميناً للمرحوم صاحب الجلالة محمد الخامس حينما طلب منه هذا الأخير: «أوفقير، أقسم لي هنا، في هذا المكان المقدّس، بأنّه أيّاً كانت الاختلافات في الطبائع أو في الآراء التي تعارضك أو ستعارضك بابني، ومهما حصل، أقسم لي إنّك ستحميه كما حميتني وإنّك ستخدمه بالتفاني نفسه الذي أبديته في خدمتي». وأقسمَ. والحال أنّ هذا الوعد سيلاحقه باستمرار ويتحكّم بكلّ قراراته.

فيما مضى، وللتجرّؤ على القيام بانقلابٍ أبيضٍ ضدّ الملك، كان عليه أن يتحلّل من يمينه من قبل أفرادٍ من عائلة الحسن الثاني. ولكن الآن وقد أدرك أنّ ذلك قد فشل، وأنّ ثمّة خطر أن يسيل الدم الملكي إن هو ذهب أبعد، أبى ذلك. لا شكّ أنّه رأى في ذلك القرار المصيري عقاباً على حنثه، كرجل سياسي، ليمينٍ عسكري. فضلاً عن ذلك، كيف سيمكن للرجال المتحالفين معه والذين كانوا على متن البوينغ أن يثقوا بحسن نيّته؟ سيعتقد الجميع بأنّه قد غدر بهم. كان أوفقير يعرف الحسن الثاني بما فيه الكفاية لكي يعلم بأنّ هذا الأخير سينجح في إيهام العالم بأنّ «الوزير الفظيع» قد أراد إسقاط طائرته مع حاشيته! لم يعد أوفقير،

المشمئزّ منذ الصخيرات، والمتعب من العيش من موت رفاقه في السلاح، يؤمن لا بنفسه ولا بما يفعله. أراد أن ينسحب، أن ينتهي، أن يستريح. . . ولكن ردّاً على سوء اختياره في الحياة، أراد أن يتقن موته!

إذن، بقي أوفقير من الساعة الخامسة والنصف وحتى العاشرة والربع في هيئة الأركان. بعد أن تأكد من أنّ كلّ شيء هادئ في المملكة، خلد إلى هدوءٍ تأمّليٍّ، غير آبهٍ بتعليقات الضباط من حوله.

وصفه لي جيرونيمو مدخّناً بصمت، ساهياً، مترفّعاً. «من حينٍ لآخر، وهو ينفث سيجارته، كانت تبدر منه ابتسامةٌ مريرة.» كما سيروي لي المرافق بالتفصيل مكالمات مولاي حفيظ والدليمي. وكيف أنّ والدي ردّ عليهما بلا مبالاة:

- أخبرا جلالته بأنّ النظام قد استتبّ، وأنّ الوضع هادئ في عموم البلاد وأنني سآتي لمقابلته في الصخيرات.

جملةٌ أخيرة دفعت جيرونيمو إلى أن يخطو خطوةً إلى الأمام وكأنّه يريد منع رئيسه من الذهاب للارتماء في شدق الذئب. كما اتّصل القصر لمرّات عديدة بهدف تحديد مكان وزير الدفاع باستمرار. في آخر مكالمة، أمسك بالهاتف وصرخ في مولاي حفيظ:

- قل له أن يوقف المهزلة! إذا كان لا يجرؤ على القدوم لرؤيتي، طمئنه، أنا سآتي لمقابلته ووحدي!

وأغلق السماعة بعنف. وسيؤكّد لي جيرونيمو أنه بعد ذلك المشهد، لم ترد أيّة مكالمة من القصر.

قبل العودة إلى البيت، اتّصل بنا أوفقير في منتجع قبيلة. رفعتُ السماعة:

- آلو، بابا، كيف حالك؟ لم نتوقّف عن المحاولة للاتصال بك، يبدو أنّ. . .

قاطعني والدي:

- لا شيء، استتبّ النظام.
ساد صمتٌ، فألححت:
- هل أنت متأكّد، كلُّ شيء على ما يرام؟ هل أنت سليم معافى؟
فشعرتُ بحزنٍ مفاجئ في صوته.
- نعم... نعم، يا بنيّ... أنا بخير.
ثمّ أضاف توصية لم أفسّرها إلاّ بالعودة إليها فيما بعد:
- أعرف أنّك ستكون جادّاً. أعتمد عليك، وأثق بك.
أردتُ أن أسأله ممازحاً عن وقاره المفاجئ، ولهجته التفخيمية، ولكنّه لم يتح لي فرصة ذلك:
- أقبّلك يا ابني الكبير، أعطني أمّك، ليس لدي الكثير من الوقت.
هذه الجملة الأخيرة لم تزد من قلقي: كانت مسؤوليات والدي ترغمه دائماً على إيقاعٍ متواصل فلا مجال لتضييع الوقت.
ذهبتُ في طلبِ أمّي في الصالون المزدحم. هرعت كلّ قبيلة إلى الأخبار. كان كلّ أصحاب الامتيازات حاضرين. لم أسمع سوى ثناءات على أوفقير: «لا تقلقوا، الجنرال موجود، لا يمكن أن يحصل شيءٌ لجلالته وللمملكة...». كانت للاّ فاطمة الزهراء، الأخت غير الشقيقة للحسن الثاني، أوّل مَنْ أشاد بوالدي.
ما إن أخبرتُ أمّي، هرعت إلى غرفة النوم حيث يوجد الهاتف. لحقتُ بها. جالساً على حافة السرير، ألصقتُ أذني على سماعة الهاتف لأسمع حديث والديّ. ردّ والدي على مخاوف أمّي بالهدوء ذاته:
- كلّ شيء على ما يرام يا فاطمة، لا تقلقي.
- هل أنت متأكّد من ذلك؟ الإذاعات الأجنبية تتحدّث عن انقلابٍ عسكري.
- لا شيء، لا تقلقي، لقد استتبّ النظام.
قالت له فاطمة:
- جاء أصدقاؤنا من آل بينيت مع سفينتهم إلى حافة الشاطئ، ورغم

الأمواج الهائجة، يلحّون على أن أذهب مع الأولاد إلى سوتا. ولم أرد أن أقوم بأيّ شيء قبل أن أعرف أخبارك.

شعرتُ حينها بنوعٍ من السخط عند والدي. ردّ:

- كلاّ، إذا خشيت من أيّ شيءٍ على سلامتك وسلامة الأولاد، اذهبوا إلى بيت محافظ تطوان.

لم تلحّ أمّي. قبل أن يودّعا بعضهما، أنهت جملة أخيرة غامضة مكالمة والدي:

- اطمئنّي يا فاطمة، كلّ شيء على ما يرام...

ثمّ أضاف، بعد برهةٍ من الصمت، بصوتٍ يكاد يكون حزيناً:

- اعتنِ جيّداً بنفسك وبالأولاد. هذه مشيئة الله. أقبّل كلّ واحدٍ منكم وأضمّكم.

بقينا أمّي وأنا متحفّظين في البداية، ثمّ طردنا الأفكار السوداء وعدنا إلى الصالون حيث استمرّ الناس بالتوافد عليه، وهم يكيلون المديح لترس العرش، الذي أنقذ، للمرّة الثانية في غضون عام، الملكية من تمرّد جيشها!

بعد أن اتّصل بنا، غادر أوفقير هيئة الأركان، وعاد إلى منزله في جادة الأميرات[1]. حسب الوصيفة كوكو، منذ وصوله إلى البيت، صعد والدي بخطى بطيئة إلى غرفته. استحمّ وحلق ذقنه، ثمّ خرج إلى الشرفة يدخّن سيجارة. حسب أقوالها، لم يبدُ لها أيُّ شيءٍ في تصرّفه مشكوكاً به. ومع أنّ بعض تصرفاته لم تكن معتادة، إلا أنّها لم تدهشها ولم تلفت انتباهها كثيراً حينها.

«كان الجنرال أكثر هدوءاً مما هو عليه في العادة، قالت لي، كان مظهره هادئاً وحالماً. طلب منّي أن أعدّ له زيّه العسكري. الأمر الذي

---

(1) لإعادة تمثيل تلك اللحظات الأخيرة من حياة والدي، سألتُ كوكو، الوصيفة، ولكن أيضاً جيرونيمو والعربي والسائق المساعد أوّل حمو وآخرين سواهم.

حيّرني هو طلب علبته الخاصّة بالأوسمة والمخبّأة في غرفة المهملات. . .»

صحيحٌ أنّه منذ قضية بن بركة، رفض وضع أوسمته الفرنسية العديدة، كردٍّ لائقٍ وصامت، في نظره، «على جحود فرنسا». . . بإعادة إخراج استشهاداته الحربية، حتى وسام سيلڤر ستار الذي منحه إياه الأمريكيون في إيطاليا بمونت كاسينو، لا شكّ أنّ والدي، قبل بضع ساعاتٍ من إطلاق سهمٍ على حياته، أراد رمزياً أن يُخرج من تحت الأرض مجده الغابر كجنديٍ ليغسل به فشله كرجل سياسة وضلالات الخادم الملكي.

أحرق والدي بعض الأوراق في الحمّام، وكذلك أسطوانة ممغنطة ضخمة، وهي الأسطوانة التي سُجّلَت عليها الكلمة الرسمية لتنحّي الحسن الثاني لصالح ابنه، وكذلك مداخلات زعماء المعارضة وناطقٍ باسم القوات المسلّحة.

وأردفت كوكو: ومن ثمّ عاد الجنرال إلى الغرفة. أخرج من خزانته مسدّسه الهندوصيني، وسحبه من غمده. نظّفه بقفا كمّه ووضعه على السرير، مداعباً بإصبعه الأخمص حيث كُتِب عليه شيءٌ ما. . .

ولأنّها لا تجيد الفرنسية، لم تعرف الشعار «مَنْ يجرؤ سوف ينتصر»، ولكنّها أكّدت أنّ والدي ذهب إلى الصخيرات بدون سلاح، وبقي مسدّساه الشخصيان في البيت، في خزانته: «ومن ثمّ طلب مني الجنرال أن أحرق بخوراً. اعتقدتُ أنّ ذلك كان بسبب رائحة الورق المحروق في الحمام. سألته إن كان يريد تناول القليل من الطعام، فابتسم لي، ولا أدري لماذا قال لي: "نعم، كوكو، من فضلك. أعدّي لي كأساً من الحليب وبلحاً". ولأنني قلتُ له إنّ هذا غير كافٍ، وإنّ عليه أن يتغذّى، أجابني الجنرال: "أهل بيتي لا يعيشون إلاّ بالبلح والحليب والحبوب وهم أصلب وأشدّ ناسٍ أعرفهم. . ."

«وعلى هذا، تضيف كوكو، نزلتُ إلى المطبخ لأعدّ صينية. عند

عودتي إلى الغرفة، وجدتُ الجنرال يؤدّي الصلاة على سجّادة صغيرة مفروشة في ركنِ الحجرة. حينما أتمّ الصلاة، نهض وقبّل القرآن، ثم جلس على طرف السرير ليثبّت على صدر بزّته العسكرية كلّ أوسمته. ثمّ ارتدى الجنرال ثيابه. كانت بزّته على بريقٍ خاصّ. وطلب إليّ أن أُخرج طاقيّة ورتباً جديدة من أغلفتها البلاستيكية. كانت النجوم وأغصان الغار والحاشية المذهّبة لطاقيته وأوسمته تشيع مهابة. قام بنفسه بمسح حذائه لأنّه، كما قال لي، وحدهم العسكر يجيدون تلميعه. أخذ زوجاً من القفازات كستنائية اللون، وعصا القيادة خاصّته، وأصلح ثيابه للمرّة الأخيرة أمام المرآة. وهنا، وعلى نحوٍ غريب، حيّا الجنرال انعكاسَ صورته في المرآة تحيّة عسكرية وبطريقةٍ رسميّة... ثمّ نزل إلى الصالون وطلب منّي إحضار علبة مجوهرات زوجته. قبل أن أخرج من الصالون، أضاف الجنرال: إذا أُعلن عن وصول عمر عكّوري[1]، دعيه يصعد إليّ. حينما عدتُ بعلبة المجوهرات، كان عكّوري قد حضر. وبحضوري، سلّمه الجنرال العلبة وقال هذه الكلمات الغريبة التي لم أفهمها إلاّ بعد الحادث: عمر، أعطِ هذه لفاطمة بيديها شخصياً... وقل لها أن تعتنِ بنفسها وبالأولاد...»

حينما نهض ليستأذن من عكّوري، سمعت الوصيفةُ الجنرال وهو ينبس: «إنّها مشيئة الله...» وحسب كلامها، أعاد والدي على عمر بينما كان هذا الأخير ينزل الدرج، قائلاً له: «بيديها شخصيّاً يا عمر، أعتمد عليك...» ولم تُحتَرَم تلك الأمانة لرجلٍ ذاهبٍ إلى الموت من قبل عكّوري.

تابعت كوكو، والدمع في عينيها، سردها لي. «حينما غادر عمر، جال الجنرال في البيت، غرفةً بغرفة، وزاويةً بزاوية. كان ينظر إلى كلّ

(1) زوج ابنة شقيق أوفقير، والذي قام بدور سائق علال الفاسي في زيارته السرّية إلى منزل الجنرال.

شيء بكآبةٍ حالمةٍ غير معتادة. بل أحياناً شعرتُ أنّه حزين. حينما مرّ بالبهو، توقّف أمام الصورة الكبيرة المؤطّرة لصاحب الجلالة محمد الخامس. حدّق فيها بحدّة ثمّ قبّلها وخرج إلى الحديقة. سار الجنرال حتى المسبح. لم يكن يكفّ عن معاينة كلّ ما كان يحيط به دون أن يبدو أنّه ينظر إليه فعلاً...»

لاحظ جيرونيمو هو الآخر هذه الحقيقة، فقد أكّد لي: «كان الجنرال يبدو وكأنّه يودّع جدرانه» «مذ أن وصلنا من هيئة الأركان، وصعد الجنرال إلى غرفته، جمعتُ جميع العيونيين. لم أتوقّف عن الاستماع، من خلال المقسم العسكري، إلى الاتصالات بين القصر ومختلف قطعات البلاد. أخبرتُ الجنرال مباشرة عبر الهاتف الداخلي للمنزل بأنّ أمقران أصبح في جبل طارق وأنّ كويرة بات في قصر الصخيرات منذ وقتٍ طويل. بدا لي الجنرال لامبالياً بكلّ شيء. أجابني بكلّ بساطة بصوتٍ منهك: «ممتاز...»، ثمّ أغلق السماعة. وقبل ذلك، حينما وصلنا إلى الأركان، كان قد اطّلع على الاتصالات المتبادلة من قبل قاعدة القنيطرة والدرك وفيما بعد من قبل القصر. وعلِم في لحظتها بفرار أمقران وإلقاء القبض على كويرة ثمّ نقله بمروحية إلى قصر الصخيرات، «أمام قدَمي» الملك... لم يعد لديّ شكوك حول بقية الأحداث. كنتُ أتوقّع أن أرى بين لحظةٍ وأخرى البيت وهو يُطوّق أو يُهاجَم؛ ولذلك جمعتُ بأسرع ما يمكن العيونيين.»

يتابع جيرونيمو: «حينما همّ الجنرال بركوب السيارة، أعددتُ ثلاث مركبات أخرى لمواكبته. ولكنّه عارض ذلك بشدّة: كلاّ، لا ترافقوني. لا تقلقوا، الوضع هادئ، وانتهى الاضطراب. عودوا إلى بيوتكم، في صحرائكم وسط عائلاتكم، الهواء أنقى فيها من المدينة... وعانق العيونيين فرداً فرداً وشكرهم على وفائهم وتفانيهم. طمأنهم وشرح لهم أنّه-لا يصرفهم إلا لبضعة أيامٍ في إجازة. ثمّ رفع الجنرال لآخر مرّة نظره

إلى البيت واستقرّ في المقعد الخلفي لسيارة الـ DS. حاولتُ إقناعه بأن نأخذ معنا العربي على الأقلّ، ولكنه رفض ذلك أيضاً. مدّ لي العربي، المَغيظ، من خلال نافذة السيارة جُعبةً جلدية مع ستّة مخازن وأربع رمّانات يدوية. أوقفنا الجنرال بحركة آمرة: «كلاّ، لا داعي لذلك!» فغادرنا المنزل وسلكنا الطريق الساحلي باتّجاه قصر الصخيرات. في منتصف الطريق، طلب الجنرال من المساعد أوّل حمو أن يوقف السيارة بجانب جرفٍ صخري. نزل راجياً أن نبقى في السيارة ودخّن وهو يرنو إلى البحر. ثم استأنفنا طريقنا نحو القصر. ظلّ الجنرال صامتاً ومصغياً طوال المسافة.»

سألتُ بلهفة غداة مقتل أبي سائقه ومرافقه. ألححتُ عليهما ألاّ يهملا أيّ تفصيل. أكّد لي كلاهما أنّهما ذُهِلا لبرودة أعصابه. أوضحا لي: «أنزل الجنرال فقط زجاج نافذة السيارة ليدع الهواء الرطب والمنعش للشاطئ ينساب إليها، وهو يدخّن سيجارة تلوَ سيجارة.»

«حينما وصلنا إلى الصخيرات، أضاف جيرونيمو، كان التفتيش على المدخل مقتضباً ولكنّه أكثر تدقيقاً مما هو في العادة. أضاء رجالٌ من الأمن الملكي بواسطة مصابيحهم اليدوية داخل السيارة، متظاهرين للوهلة الأولى بأنّهم لم يتعرّفوا على الجنرال. ثمّ اعتذروا، وسلكنا الممرّ العريض الذي يؤدّي إلى مبنى القصر. شاهدتُ، كلّ عشرة إلى خمسة عشر متراً، شبحَ رجلٍ يحمل جهازاً لاسلكياً أمام فمه ليبلغ عن تقدّمنا. ودون أن يراني الجنرال، دسستُ خفيةً بين فخذيّ مسدّساً صمام أمانه مرفوع. نظر إليّ المساعد أوّل حمو وقام بردّ الفعل ذاته، مفكّكاً زرّ سترته ليتأكد من أنّ حزامه لا يعيق سلاحه. منذ أن أوقفنا السيارة أمام المدخل الكبير، وحتى قبل أن تتوقّف السيارة، فتحتُ البوابة لأكون أوّل المترجّلين منها. أمسكني الجنرال من كتفي: «كلاّ، أنت والسائق لا تتحرّكا من السيارة...» حاولتُ أن ألحّ، ولكنّ الجنرال صافح المساعد أوّل حمو. لم يستطع المسكين، المذهول والمتأثّر، أن ينبس بكلمة واحدة. كما

أمسك الجنرال بيدي أيضاً وصافحني بقوّة تاركاً يدي بيده لبضعة ثوانٍ. لم أعد أعرف ماذا أفعل ولكنني رغبتُ أن آمر حمّو بأن يندفع بالسيارة لكي نخرج بأسرع ما يمكن من القصر! مع احتمال إزعاج الجنرال، كنتُ أريد أن أنتزعه من تلك الأحبولة، وإن كان رغماً عن إرادته! ولكنني كنتُ أعرفه جيّداً، ما كان ليغفر لي أن أفقده مكانته بعملية فرار... كلاّ، لقد كان قد اتّخذ قراره، وما عاد أحدٌ يمكنه فعل أيّ شيء...»

خافضاً رأسه باحتشام، ممسكاً به بين يديه، وذارفاً دموعاً غزيرةً ومريرةً، وهو يتذكّر آخر لحظاته إلى جانب والدي. نظرته على الأرض، وينتابه إحساس بالذنب، تابع:

«ما إن توقّفنا في المرأب، أقبل نحونا مولاي حفيظ والدليمي. بعد أن صافحنا الجنرال، قال لي باللغة البربرية: أن يعيش المرءُ يوماً واحداً أسداً، خيرٌ له من أن يعيش طوال حياته ابن آوى... إن كنتَ حقّاً تكنّ لي الودّ، افعل ما قلته لك، لا تتحرّك من السيارة... ثمّ ربّت على كتفي بخفّة. لم أستطع سوى أن أُنزِل زجاج نافذة السيارة وأتابعه يائساً بالنظر. بالكاد خطا ثلاث خطوات، حينما جاء مولاي حفيظ يحيّيه: ها! يا سيّدي الجنرال، بفضل الله، مرّة أخرى أنقذت لنا الوضع! حينما أراد أن يعانقه، أوقفه الجنرال بحركة واضحة، وفتح شقّتي سترته وقال بصوتٍ جهوري: لا تُلعَب هذه الحركات مع من كان بها خبيراً... وبانزعاج، سأل مولاي حفيظ والدليمي: أين هو؟»

أكّدتُ على الشاهدين. هل قال: «أين جلالته؟» أم «أين هو؟»

وأكّد الاثنان بشكلٍ قاطع: سأل والدي عن الملك وكأنّ الأمر كان يتعلّق بعامّة الناس. بل سيذهب جيرونيمو في تأويله الشخصي: «لقد سأل الجنرال عن الملك بلهجة راشدٍ يبعث في طلب طفلٍ لتأديبه... ثمّ دخل إلى القصر وبقينا نحن ننتظره. جاءت سيارة للأمن الملكي واصطفّت إلى جانب سيارتنا. حاول أربعة شرطيين أن يتكلّموا معنا باستمرار. وإذ رأوا أنّنا لا نستجيب لأحاديثهم، اكتفوا بفتح نوافذ مركبتهم ورفع صوت

المذياع لمنعنا من سماع أيّ صوتٍ أو ضجيجٍ قد يرشح من خلف جدران القصر».

ما إن دخل والدي إلى المباني الملكية، تمّ الفصل الأخير بشكلٍ سريّ ومغلق. كان حاضراً الملك ومولاي حفيظ والدليمي ورجالٌ من جهاز SSS. في نهاية مشاحنة من نصف ساعة، قُتِل أبي بخمس رصاصات. أُطلِقَت بمعظمها في الظهر. أصابته الطلقة الأولى في الترقوة، والثانية في ذراعه. فاستدار أبي، من دون شكّ، ليواجه قاتله أو قتلته، طلقة ثالثة أصابته في القلب ورابعة في الكبد. الطلقة الأخيرة، رصاصة الرحمة، أُطلِقَت عن قُرب على قفا رأسه وخرجت من عينه اليسرى. كلّ ما يسعني تأكيده هو أنّه كانت لوالدي «محادثة» صاخبة مع الملك، وأنّه خلال الدقائق الثلاثين تلك، أطلق أوفقير مكبوتاته، معبّراً للحسن الثاني عنّ كلّ ما كان في قلبه والذي لم يكن أحدٌ قد تجرّأ على أن يواجهه به. انتهت ساعة الحقيقة تلك بمقدّمة دامية! فرقعت خمس علاماتٍ جنائزية للكثير من طلقات المسدّسات. فتح راميان النار. كانت لآثار الطلقات على الجسد أقطار مختلفة. تزعم الشائعة أنّ الحسن الثاني أجهز بنفسه على قائد جيشه. كنتُ طوال حياتي ضحيّة ذلك الشيء الخسيس الفاسد الذي هو الشائعة، لكي لا أنهل منها. اليقين الوحيد الذي يمكنني إدّعاؤه هو أنّ أوفقير قُتِل بحضور الملك.

ومع ذلك ستأتي شاهدة حاسمة لترفع زاويةً من الستار الذي يغطّي تلك المأساة التي سيصفها الحسن الثاني، المنتصر، كما رأينا، بالشكسبيرية. قبل أن نوضَع تحت الإقامة الجبريّة، بانتظار أن نُرسَل بعد أربعة أشهر إلى الجحيم، تلقّينا على مدى ثلاثة أيام التعازي. جاءت صديقةٌ لأمّي، آسيا العلوي، زوجة مولاي أحمد العلوي، الصديق الحميم للملك والوزير الدائم في كلّ الحكومات منذ اعتلاء الحسن الثاني العرش، وأفشت لنا حكاية موت أوفقير.

في 16 آب (أغسطس)، كانت في قصر الصخيرات في جناح زوجة الملك. حينما وصل أوفقير، صاحبه مولاي حفيظ والدليمي إلى غرفة الأمير الصغير مولاي رشيد، الابن الثاني للحسن الثاني.

لماذا اختير عالمٌ طفوليّ لإقصاء الوزير؟ هذا لغز. ولكن هذه الغرفة منفصلة عن جناح للاّ لطيفة. في تلك الليلة، كانت آسيا جالسة في صالون زوجة الحسن الثاني بصحبة للاّ عبلة، أمّ الملك، وثلاث محظيات من الحرم الملكي. وسمعت ما دُبّر. روت لنا: «كنّا نعلّق على الأحداث حينما سمعنا الصيحة الأولى. اعتقدنا لأول وهلة أنّ الملك يوبّخ مرّة أخرى عبداً في القصر. عند استرسالنا في أحاديثنا، بلغنا ضجيجٌ آخر، وهذه المرّة أكثر وضوحاً. فتوقّفنا عن الكلام وأصخنا السمع بانتباه. وصلتنا أصداء غضبٍ شديدٍ جدّاً بما يكفي لأن يقلقنا. لم يكن ذلك صوت الملك، وإنّما صوت الجنرال. لم نكن نسمع سواه. ودون أن نتمكّن من فهم الكلمات، صُدِمنا جميعاً باللهجة المحتدّة والإيقاع العنيف والمتواصل لحديثه. لم تكن شدّة صيحات الجنرال تدع أيّ شكٍّ بشأن فحواها! استغرقت تلك العاصفة لما يقارب نصف ساعة. ثمّ سمعنا دويّ خمس أو ستّ طلقات متتالية، أعقبتها فرقعة أخيرة. . . بعد بضع دقائق على الطلقة الأخيرة، فتح الملك رتاج الباب الذي يوصل بين مسكن الأمير مولاي رشيد وجناح للاّ لطيفة. توقّف صاحب الجلالة، شاحباً مثل كفن، أشعث الشعر، ذقنه يرتجف، شارد النظر، يكاد يكون مذعوراً، وسط الحجرة وخاطبنا وكأنّه يلهث: انتحر أوفقير! انتحر أوفقير! ثمّ خرج الملك مسرعاً من جناح زوجته ليعود إلى جناحه. كان يرتدي جلباباً من الحرير الناعم الكاشف: وكانت ثلاث أو أربع بقع صغيرة من الدم تلطّخ أسفل طرفٍ منه. بعد ربع ساعةٍ من الذهول، نهضت والدة الملك، ولحقنا بها. راحت بهدوء تستعلم من ابنها. رافقناها، للاّ لطيفة وأنا، حينما وصلت إلى حافّة المسبح الكبير، وجدت للاّ عبلة جلالته مستلقياً على حافة الحوض. حاولت أن تعرف المزيد عمّا جرى ولكنّ الملك

صرفها، قائلاً لها إنّه يريد أن يستريح، ويستردّ هدوءه، وأنّه سيكلّمها فيما بعد. فانسحبت للاّ عبلة، وعدنا للاّ لطيفة وأنا إلى جناح النساء.»

في الساعة الواحدة والربع فجراً، توقّفت سيارةُ إسعافٍ تقلّ جثّة والدي أمام منزله. وبما أنّنا كنّا في عطلةٍ بمنتجع قبيلة، كان البيت عملياً فارغاً، عدا الحرس وبعض الموظّفين. ركنت العربة البيضاء أمام مرقَب الخفير. نزل منها رجل وطلب أن يتكلّم إلى مسؤول مركز الحرس. تقدّم المساعد أوّل موسى، وهو محاربٌ قديم في حملات إيطاليا وrين والهند الصينية، محاطٌ بكميّة مدهشة من الأوسمة. قدّم ممرّضٌ نفسه إليه على أنّه عنصرٌ من الشرطة:

- افتحوا بوابة السور، أعدنا جثّة الجنرال... لقد مات.

صُدِم المساعد الأوّل الذي كان، كما قال، «قد خاض الكثير من المعارك المشرّفة إلى جانب الجنرال»، أخرج سلاحه من قرابه وخاطب «الممرّض»:

- أعيدوه إلى حيث مات. أو الأحرى حيث قُتِل! أشرار! اهربوا من هنا قبل أن أعطي الأمر بفتح النار!

كان لا بدّ من تدخّل رقيبٍ لتهدئة الحرّاس الذين صوّبوا أسلحتهم نحو سيارة الإسعاف وركّابها.

غادر الممرّض، منذ أوّل تهديد، قائلاً للسائق أن يُسرِع في الفرار. اتّصل الفريق، الحائر، بقصر الصخيرات. فأمر مولاي حفيظ مسؤول النقل بأخذ الجثّة إلى بيت العقيد شنّا، حمو أوفقير.

ظلّ جيرونيمو والمساعد أوّل حمو في مرآب قصر الصخيرات حتى الساعة الواحدة والنصف، حينما جاء الجنرال مولاي حفيظ يخبرهما:

- عاد الجنرال إلى البيت مع صديقٍ كان يخرج في الوقت نفسه من عند صاحب الجلالة. وهو يطلب إليكما اللحاق به. لقد غادرا من الباب الثاني، قبل حوالي ربع ساعة.

في الساعة الثامنة من صباح 17 آب (أغسطس) 1972، أيقظني مرافقٌ وهو يلطم صدره بعنف ويبكي:

- مات الجنرال، مات الجنرال! قتلوه، قتلوه!

حينما هرعتُ إلى الشرفة، وجدتُ أمّي شاحبة ولكن وقورة. جمعتنا بهدوء وقالت لنا:

- مات والدكم. يجب أن نبدو أقوياء وأن نتكاتف. لمّوا أغراضكم، سنعود إلى الرباط.

وسرعان ما انطلق موكبنا المؤلّف من أربع مركبات نحو العاصمة. كنتُ في سيارة إدريس وبوطويل. كانا غارقين في حزنهما ولزما الصمت طوال الطريق. حينما علِمَ بالخبر، ضمّني إدريس بشدّة بين ذراعيه، وترك بضع دمعات تجري من عينيه وهمس لي:

- مرّت فترة حاولنا فيها إعدادك. الآن، عليك ألاّ تعتمد إلاّ على نفسك. لقد بدأت حياتك أنت. مهما حصل، تذكّر أنّ والدك مات واقفاً.

أمّا بوطويل، الذي هزّه البكاء كثيراً، اكتفى بأن ضمّني إليه بشدّة.

مسنداً جبيني إلى زجاج السيارة، شاهدتُ منظر الطبيعة ينساب أمام ناظري. بدت لي الحياة فجأةً رتيبة، لا طعم لها ولا نكهة. بكيت. تزاحم كلّ شيء في ذهني. الصور والمشاهد والأحاديث والوقائع والمؤامرة وما هو مضمَر وأدقّ تفصيلٍ للأشهر التي سبقت ذلك اليوم السادس عشر من آب (أغسطس) وموت والدي، مرّ كلّ ذلك ثانية باتّجاهٍ عكسيٍّ مثل شريطٍ سينمائيٍّ يتم إرجاعه بسرعة كبيرة. قلتُ في نفسي إنّ حياته القليلة التكرار كانت تستحق أفضل من أن تنتهي وسط بركة دم... تمالكتُ نفسي، محاولاً أن أتهيّأ ذهنياً لما ينتظرني عند الوصول إلى البيت. كان الطريق من تطوان إلى الرباط مليئاً بالحواجز. منذ موت الجنرال، وضِعَ الجيش وقوات حفظ النظام في حالة الاستنفار القصوى. وفي كلّ نقطة تفتيش، قدّم العسكريون لنا تعازيهم. هتف نقيبٌ شاب، بينما كنّا نعيد الإقلاع بسياراتنا: «لقد نالوا منه، الأقذار!»

فقط في الرباط تأكّدنا حقّاً من وفاة والدي، من خلال مواكب العزاء والزيارات التي سبق وتكلّمت عنها. بانتظار اكتشاف أنّ كلّ نهاية تخفي تجديداً، تقوّضت الدنيا من حولي. وبأكثر المآسي رعباً، وبأكثر الخسائر ألماً، سأولَد؛ وستبدأ فعلاً حياتي؛ وسيخصّني القدر بمدرسةٍ خاصّة دخل إليها الكثير من الناس ولكن تخرّج منها القليل جدّاً منهم. بالطبع لم أعرف بأنّه في نهاية الظلمات التي تراءت ودرب الآلام اللامتناهي، سينبثق النور الحقيقي، النور الذي يكشفك لنفسك!

سيسأل صحافيان، كوليت بولييه وجان-كلود دوتش، الحسن الثاني عن موضوع موت أوفقير و«انتحاره البهلواني».

ردّاً على السؤال القائل بأنّ هذه الفرضية موضع جدلٍ كبير، أجاب الملك:

- أنا أعرف أوفقير. يوجد حتى عند قطّاع الطرق الكبار مفهومٌ للشرف. سيؤكّد لكما جميع الشهود أنّه حينما غادرتُ المغرب بالسفينة، جاء يسلّم عليّ باكياً. وفيما بعد قال لي الكثيرون إنّه كان يبكي بالتأكيد لفكرة أنّ تلك كانت المرّة الأخيرة التي كان يراني فيها.

ألحّ الصحافيان:

- ثمّة رواية أخرى، بخصوص موت أوفقير، والتي تقول إنّه سيكون قد قُتِل من قبل أحد المقرّبين منكم، وهو السيد الدليمي.

علّق الحسن الثاني:

- يمكنني أن أؤكّد لكما أنّ الأمور قد جرت فعلاً كما رويتها لكما. كنتُ أعرف أوفقير. هو الذي كان يقدّم نفسه كأوفى الأوفياء، وأخلص الخلصاء، ما كان ليتحمّل أن يُحاكم من قبل أقرانه، أمام محكمة عسكرية، ثمّ يُقاد أمام فصيلة الإعدام بعد أن يُجرّد من رتبته. لم يكن أوفقير من ذلك النوع.

- أما كنتَ لتصفح عنه؟

- كلاّ. سأموت حينما يشاء الله ذلك ويعتبر بأنني قد أنجزتُ

مهمّتي. ولكن هنا، في عام 1972، في بيئة أكثر اضطراباً بكثير في المغرب، بخلاف مما هو عليه اليوم، كان تنصيب طفلٍ في التاسعة من عمره على العرش وإقامة مجلس وصاية مغامرةً طائشة كانت ستقود البلاد إلى الحرب الأهلية وإلى التشظّي. ما كان أحدٌ ليقبل بذلك الوضع المفروض اللاقبلي واللاإثني. يجب ألاّ ننسى أنّ المغرب إمبراطورية، وأنّه ينبغي التعامل معه فقط من خلال قاسمه المشترك الوحيد وهو النظام الملكي ذو الطابع الديني.»

وستكون للملك، الشهيد الحيّ، فرصٌ عديدة وثمانيةٌ وثلاثون عاماً من الحكم المطلق لفرض «حقيقته». من أوفقير الذي «سلّم عليه قبل انطلاقه من طنجة باكياً» إلى طائرته «البوينغ المدمّرةِ تماماً، والتي وحدها يد الله حفظتها في السماء»، مروراً «بانتحار قائد جيشه، بثلاث طلقات في الظهر»، لم يكن من الممكن إلاّ أن يكون الحسن الثاني، المنتَصر، محقّاً! صاحب الجلالة معصومٌ من الخطأ. لاسيما حينما يكون الكذب هو السائد.

مع ذلك، ارتفعت بانتظام أصوات أخرى بغية إحداث فوارق وملاحظات مخالفة «للحقيقة الملكية». ففي عدد **نوفيل اوبزيرفاتور** الصادر بتاريخ 28 آب (أغسطس) 1972، حلّلت جوزيت آليا بوضوح أسباب ونتائج 16 آب (أغسطس). وذكرت كذلك عسكريين مغاربة أكّدوا: «أكثر من محاولة الاعتداء على جلالته، ما أقلقنا بعمق هو التفسير الرسمي المعطى لموت الجنرال أوفقير». شرح ضابطٌ رفيع للصحيفة: «لم تكن هيبته وسلطته ناجمتين، كما هو حال ممالقين آخرين، عن صلاته بالملك. كلاّ. كان واحداً منّا، وكان قد قاتل، وكان جندياً يتفهّم مصاعبنا ويتقاسم معنا خيبات أملنا». زاد ضابطٌ شاب على ذلك: «لم أكن أحبّ أوفقير، الذي أعرف ماضيه جيّداً. ولكن عليّ أن أقول إنّه في السنة الماضية، حينما استلم وزارة الدفاع، ساد الارتياح بيننا: أخيراً سنُقادُ من قبل شخصٍ فعّال. أو ببساطة أكثر، من قبل شخصٍ متماسك وكُفء.

الحقّ يُقال، مع كلّ عيوبه، كان العسكريّ الوحيد في المغرب القادر على أن يحظى باحترام جيلنا». وفي ختام مقالتها، كتبت الصحافية: «النتيجة ثقيلة إذاً. بعد الصخيرات، انقسم الجيش وكان الملك قد فقد هيبته، ولكن كان من الممكن إنقاذ كلّ شيء بردٍّ سياسيٍّ جريء. اليوم، الجيش عبارة عن حطام، والملك وحيدٌ بشدّة، وأزمة الثقة شاملة لدرجة أنّها تمنع - إلاّ بمعجزة- إعادة إقلاع الحياة السياسية. ويشير الجميع في المغرب إلى المسؤول عن هذا الوضع: الحسن الثاني. اتّهم ضابطٌ الحسن الثاني: إنّه هو من أقصى عمداً الشخصيات القويّة، وأفرغ حياتنا السياسية من محتواها، وتسبّب بهذه الورطة من خلال إصراره على إدارة كلّ الأمور بمفرده- في حين أنّه لا يهتمّ، سوى في حالة الخطر، بشؤون الدولة. سكت الشعب، الأقلّ عنفاً والأكثر حيرةً، ولم يتّهم بصراحة، ولكنّه قارنَ: بالنسبة له، لم تعد صورة الملكية هي الحسن الثاني وإنّما والده محمد الخامس، الملك العفيف والعادل، الزاهد والمتقشّف. لعب الملك كثيراً، وأهان كثيراً، وأفسد كثيراً، وأهمل النصائح كثيراً، وأنكر الحقيقة. ومثل فرعون، عاقب حاملي الأخبار السيئة: فلم تعد تُنقَل إليه سوى السارّة منها. ولكن اليوم وقد استُهدِفَ مباشرةً، وكاد يُصاب مباشرةً، فإنّ عالمه قد تشظّى للتوّ مثل فقاعةٍ. فسواءٌ أمام جيشه أو أمام القوى السياسية، أو المعارضة، أو حتى أمام البلاد برمّتها، لم يجد سوى الفراغ. فراغٌ يبعثُ على الدوار».

في الوقت الذي علّقت جوزيت آليا على تلك الأحداث، لم تكن تعلم بعد لا هي ولا أحدٌ سواها بأنّ الحبل الذي سينقذ «الملك البهلوان» سيكون الصحراء الغربية! لأنّه أيّاً كان ولاء المغاربة السياسي، فإنّهم، وأنا أوّلهم، وطنيون. ومرّة أخرى سيحظى الحسن الثاني بموهبة اللعب على الوتر الحسّاس. . . ولكن في صيف 1972، لم يكن الملك في وارد ذلك بعد. فقبل أيّة مناورة سياسية هادفة إلى استعادة عافيته السياسية، رتّب الملك حساباته.

في 17 آب (أغسطس)، في اليوم نفسه الذي تلا «الهجوم على البوينغ»، سُلِّم المقدّم أمقران ورجاله، الذين طلبوا اللجوء السياسي إلى بريطانيا العظمى، بلا قيد ولا شرط مكبّلي الأرجل والمعاصم إلى الحسن الثاني لإشباع انتقامه. وخلافاً لأبسط القواعد الإنسانية وللقانون الدولي، أرسلت حكومة صاحبة الجلالة البريطانية إلى التعذيب ومن ثمّ الموت ضبّاطاً مغاربة مقابل خضراوات وماء! انتهت المفاوضات إلى اتّفاقٍ بين سفير المغرب في لندن ووزير الدولة للشؤون الخارجية م. ج. غودبير. ظلمٌ دفع نوفيل اوبزيرفاتور في عددها الصادر بتاريخ 21 آب (أغسطس) 1972 إلى أن تكتب: «مَنْ الذي استطاع أن يدفع حكومة السيد هيث إلى رفض منح الضباط الملتجئين إلى جبل طارق الحقّ التقليدي في اللجوء؟ بالنسبة للرأي العامّ البريطاني يُعدّ هذا الفقدان للإحساس أكثر من جريمة: إنّه إثم. وأكثر من ذلك: إنّه نكثٌ للأعراف البريطانية المُقدسة. إنّ وجود هؤلاء الرجال في جبل طارق كان مناقضاً للمصلحة العامّة، صرّح الناطق باسم وزارة الخارجية، بكلّ بساطة. خلف هذه المصلحة العامة هناك صخرة ضخمة: جبل طارق. جبل طارق، الخاضع حالياً للحصار الاسباني، الذي ما كان ليستطيع العيش تحت حصارٍ ثانٍ، مغربيّ: التموين مقابل الضبّاط العصاة، كانت، على ما يبدو، هي الصفقة المقترَحة من قبل السفير المغربي في لندن. تمّت الموافقة على الاتّفاق، ولكنّ السيد هيث جازف بأن يدفع ثمنها غالياً جدّاً ذات يوم. اليوم تُؤوي بريطانيا العظمى أسوأ المتطرّفين الدينيين، متذرّعة بتبجّح بالحقّ المُقدس في اللجوء السياسي وبحرية التعبير المصونة! كم تمنّيتُ لو أنّ هذا الإنصاف شمل الضباط المغاربة الملتجئين إلى جبل طارق! للأسف، يُظهر التاريخ لنا أنّ الدفاع عن المبادئ مرتبطٌ كلّ الارتباط بالمصالح... سيكون على الذين يسارعون إلى إعطاء الدروس في الأخلاق السياسية أن يتأمّلوا في هذا المثال الصارخ على ازدواجية المعايير...»

لم يكن الحسن الثاني يتوقّع كلّ ذلك. فها هي واحدة من أمم أوروبا

هذه التي تريد توبيخه على عدم احترامه لحقوق الإنسان تسلّم إليه أعداءه على طبقٍ من ذهب.

ومنذ ذلك الحين، سيمثل 220 طياراً أمام محكمة عسكرية. في مؤتمرٍ صحفيّ، شرح الملك في الحال أنّه سيحاكم أوّلاً «الذين أعادوا التزوّد بالعتاد» ثمّ الذين أعادوا تزويد طائرات F5 بالوقود. في فجر 13 كانون الثاني (يناير) 1973، صُفَّ 11 ضابطاً وضابط صفّ أمام حائطٍ رماديّ اللون لسجن القنيطرة العسكري وأُعدِموا بالرصاص. أودّ أن أذكر هنا أسماءهم ورُتَبهم. فقد أُعدِم رمياً بالرصاص: المقدّم أمقران، الرائد كويرة، النقيب العربي الحاج، الملازمان أوّلان عبد القادر زياد وحميد بوخلف، الملازم ليازيد ميداوي، المساعد أوّل مهدي عبدالعلي، المساعد بلقاسم، والرقباء أوّلون كمون وبحراوي وبينوا.

وسينال النقيب حشّاد، أفضل طيّار في سلاح الجوّ، والملازم أوّل طويل، والملازم أوّل زيموري، والنقيب العوّافي، وخمسة وأربعون عسكرياً آخر من الصخيرات و16 آب (أغسطس)، مصيراً أسوأ من الموت: ثمانية عشر عاماً في جحيم مأوى المحتضرين في تاماتاغت.

أُعطي أمر إعدام الطيّارين من قبل الملك، عشية العيد الأكبر عند المسلمين، العيد الكبير[1]. وردّاً على صحافيٍّ سأله عن هذا التوقيت الرمزي، أجاب أمير المؤمنين: «هذا ليغفر الله لهم إثم رفع يدهم على ملكهم!»

في ذلك اليوم المشؤوم 13 كانون الثاني (يناير) 1973، للمرّة الثانية خلال عام، عوقِبَت القوات المسلحّة الملكية وحُرِمَت من خيرة عناصرها. بالنسبة للصخيرات، معظم ضبّاط المدرسة الاستعمارية هم مَن دفعوا حياتهم ثمناً لتمرّدهم.

---

(1) عيد الأضحى، احتفالاً بتضحية إبراهيم.

بالنسبة لـ 16 آب (أغسطس)، أُصيبت نُخبة الجيش وسلاح الطيران بالضرر، وأُعدِم ضبّاطٌ من الجيل الجديد.

بُعيد مقتل أوفقير، كتب جورج مونان في **باري ماتش**: «وحدها السياسة استطاعت أن تقتل المقاتل أوفقير». وروى: «كان أسطورة حيّة. ربّما الأخيرة بالنسبة لمغربٍ: أسطورة الروّاة العرب، وملاحم المكتبة الحيّة. لقد مات على طريقتها. وفاءً لمملكته، ولكن وفاءً لشخصه قبل كلّ شيء. شخصيةٌ عصيّة على الوصف في أيامنا: مع أوفقير، كانت الريشة تستهوي الرسم كما تستهوي واقية الصواعق الصاعقة. بمشيةٍ سنّورية، وبقناعِ إنسانٍ فظّ، ساحر بغموضه بقدر ما هو محيِّرٌ بأعماله، كان هذا السيّد البربري الأكثر صدقاً من الطبيعة يشبه شيخاً له أكثر من لون، وكانت حياته أكثر غرابةً من أكثر السيناريوهات السينمائية تخيّلاً. طلقةٌ واحدة، هي الأخيرة، جعلت شظايا متطايرة كلّ تلك الخردوات المطلية بالأسود والذهبي. ها قد حانت ساعة التجلّي. وها قد ظهرت خلف الشخصية، الشرهة أو البطلة، الشخص، بمصائبه، وويلاته، وشكوكه. رجلٌ، مثيرٌ للاهتمام وهو ميّت أكثر مما كان وهو حيّ.»

ويضيف مونان: «كان الحلم والطموح الوحيد لأوفقير هو اتّحاد العرش والشعب. أدّى أوفقير مهمّته بكلّ إخلاص: فالزواج البربري يتمّ بالقبول المتبادل. وها هوذا أوفقير المقيم في شخصيته الحازمة، الشرس، في خدمة ملكه، خلف قناع نظارته السوداء. [. . .] تلك الحياة التي كانت حياته، المكلّلة بكلّ المجد والشرف، تلك الحياة المكرّسة بكاملها لرفعة المغرب وعرشه- تلك الحياة المليئة صخباً وصمتاً مريعاً، أما كانت لتنتهي في المحصّلة على غير ذلك؟»

أيّاً كانت المراجعات، والأحكام التي أُطلِقَت على نتائج انقلاب 16 آب (أغسطس)، يبدو أنّ اختزاله في مؤامرة محدودة، تخدم طموحاً شخصياً، هو بكلّ بساطة استمرارٌ لإخفاء الحقيقة والوقائع. وفي السياسة

أكثر من أيّ شيءٍ آخر، يصنع كلام المنتصرين اليقين ويكتب التاريخ، بينما يكون صمت المهزومين في عداد صفحاته الناصعة البياض وذاكرته الحالكة. وإذ أعفته فضائل النصر من بعض التبريرات المحرجة طوعاً، سوف يُطلق الحسن الثاني العنان للتزوير. وهكذا جرى السعي إلى نسيان الكثير من الأمور حول 16 آب (أغسطس)، وحتى الأقوال التي أدلى بها الطيّارون أمام محاكمهم مع أنّها غنيّة بالمعلومات. وها هي بعض المقتطفات منها والتي نُشِرَت في الصحافة الأجنبية آنذاك. فقد نشرت **جون آفريك**، في 25 تشرين الثاني (نوفمبر) 1972، أقوال أمقران أمام المحكمة العسكرية في القنيطرة. أكّد فيها المقدّم المشاركة في العصيان كوطنيّ، قائلاً إنّ يمين ولائه للملك قد أُلغي منذ أن انتهك الحسن الثاني شروطه. وأضاف أنّ البصري، زعيم الاتحاد الوطني للقوى الشعبية في المنفى، قد زاره أثناء إقامته في الخارج، ليُعلمه بأنّه قد أُسِّسَ «مجلسٌ لقيادة الثورة» وأنّ القادة الرئيسيين للجيش في عداده.

أوضح أمقران: «إنّ إدريس السلاوي، المدير السابق للديوان الملكي، هو مَنْ أوصل هذه القائمة إلى عبد الرحيم بوعبيد من UNFP»، وأضاف: «لقد تصرّفتُ كوطنيّ، لم تكن لديّ أيّة فكرة عمّا كان سيُقام: جمهورية، دكتاتورية، أوليغارشية. [. . .] لم نستخدم سوى طلقات عيار 20 ملم. لم تكن هناك لا صواريخ ولا قنابل ولا نابالم. لقد وجدنا صواريخ جو-أرض ولكن ليست جو-جو. [. . .] أنا وطنيٌّ ولستُ سياسيّاً. حينما روى لي الجنرال أوفقير ما يجري في البلاد ولاسيما في القصر الملكي، صُدِمت. يمكنني أن أؤكّد لكم لو أنّ الأمر كان يتعلّق بوالدي، لكنتُ قد تآمرتُ عليه.»

تختم جون آفريك: «قال المقدّم أمقران هذا أوفقير، ولكنّه كان على حقّ.» تتابع الأسبوعية بخصوص محاكمات القنيطرة: «كان من الصعب للوهلة الأولى إثبات صدق ما كشفه المتّهمون. كلّ ما يُمكن قوله هو أنّ الحسن الثاني كان قد سبق وذكر تواطؤ البصري مع أوفقير. اكتفى قرار

الاتّهام بالحديث عن بعض عناصر المعارضة. ويبدو أنّ الغرض من ذلك هو عدم المجازفة بفرص تعاونٍ محتَملٍ مع UNFP.»

تضيف المقالة: «صحيحٌ أنّ أمقران سيتراجع عن هذا التصريح، ولا شكّ لأنّه تم إقناعه بأنّ عليه ألاّ يجازف بحياة رفاقه. ولكن هذا لم يمنع أن تكون المرافعة التي تقدّم بها مهيّأة لأن تُنسى.» لاسيما أنّه كشف أيضاً تركيبة CNR: «كان يفترض أن يضمّ قادة الجيش، ومن بينهم الصفريوي وحتى نسيبه الكولونيل الدليمي وشخصيات مدنية، إدريس السلاوي وعبد الرحيم بوعبيد[1].»

شخصياً، وكما رأينا ذلك، لن أعلم إلاّ فيما بعد، من جيرونيمو، بأنّ الدليمي كان أيضاً مشاركاً في الأمر. تناقشنا في ذلك مطوّلاً، دون أن نتمكّن من أن نحدّد متى بالضبط انضمّ الدليمي إلى والدي. ولكي ينجو بحياته، كان عليه أن يساعد الحسن الثاني في قتل أوفقير، ولم يتح له الملك الوقت ليتحقّق إن كان والدي قد أراد أن يغدر بكلّ شركائه بإسقاطه للطائرة أو إن كان هو بنفسه قد غُدِرَ به. ولهذا السبب تمّ الإعدام في الصخيرات وفي عُجالة.

هناك أمرٌ هام آخر لا بدّ من الإشارة إليه: كان المحامون المدافعون عن الطيّارين من المعارضة. والذين فعلوا كلّ شيء لإقناع أمقران بالتراجع عن تصريحاته لأنّه بكشف الحجم الواسع للمؤامرة كان يخاطر بحرمان البلاد من كلّ القوى القادرة على مقاومة الملك. بالنسبة لهم، كان من الأولى الشهادة ضدّ رجلٍ ميّت، وهذه حالة أوفقير، وتأمين السلامة للجميع.

غداة دفن والدي، في 19 آب (أغسطس)، أعلن الحسن الثاني

---

(1) مقتطفات من الدعوى في صفحات جون أفريك في تشرين الثاني (نوفمبر) 1972.

للضباط الكبار في القوات المسلّحة الملكية بأنّه ألغى منصب وزير الدفاع والقائد العام[1]. كانت إرادته واضحة: أن يمسك شخصياً بزمام الجيش. . . أرسل إليه جميع رؤساء الدول العربية رسالة دعم وتهاني، باستثناء الرئيس المصري السادات. أغاظ صمت المعارضة الملك إلى أقصى درجة، إذ إنّها لم تندّد بالاعتداء ولم تدنه. والأسوأ، أن وسائل إعلامها اتّهمت عناد القصر واستبداديته بكونهما المسؤولين الوحيدين عن هذا التفجّر الثاني لغضب الجيش.

في 20 آب (أغسطس)، توجّه الملك بخطابٍ إلى الأمّة. واتّهم المعارضة. في اليوم نفسه، أحال إلى التقاعد المبكر الضباط الذين كانوا جزءاً من هيئة المحلّفين في قضية متمرّدي الصخيرات. وهكذا سُرّح الجنرال بن عامر، والعقيدان الفاسي والنعيمي والمقدّم العايدي. في اليوم التالي، كرّس يومه للإعداد للمؤتمر الصحافي لوسائل الإعلام العالمية الذي سيتيح له أن يروي روايته عن «الهجوم على البوينغ» وتحليله للوضع. بعد ذلك بيومين، منتشياً بالصورة الفوق بشرية التي منحته إياها وسائل الإعلام، فصّل الحسن الثاني لنفسه السيناريو على مقاس «البطل المبارك من الله» منتصراً على «أوفقير، شيطاناً طموحاً، غبيّاً. . .» بل، وفي حماسته، أفصح أمام حشد الصحافيين بأنّه غير نادم على موت المهدي بن بركة. في اليوم نفسه، صودِرت صحيفتا المعارضة **الرأي والعالم**.

أمام رفض المعارضة تقديم يدها له، جرّب الحسن الثاني مناورةً أخرى. في 24 آب (أغسطس)، وخلال مقابلة مع أوروبا واحد، وجّه دعوةً للأجيال الشابّة في الأحزاب لكي تتجاوز تعليمات قادتها وتنضمّ إليه. في اليوم التالي، وكردٍّ على ذلك، أشار زعيم UNFP، السيد عبد

---

(1) في عام 2002 كان هذان المنصبان لا يزالان ملغيين في المغرب. كان أوفقير آخر وزير دفاع وقائد عام للقوات المسلّحة الملكية.

الرحيم بوعبيد، عبر AFP، إلى الفراغ السياسي في البلاد وطالب بانتخاب جمعية تأسيسية. بعد ثلاثة أيام، صودِرَت صحيفة الرأي مرّة أخرى.

تسارعت وتيرة القمع. وساد البلاد رعبٌ لم يسبق له مثيل. رعب لم يوفِّر أحداً. من عام 1972 إلى 1975، وإلى أن أعاد إليه الاتحاد المقدّس حول الصحراء الغربية اعتباره في المغرب كما في الخارج، حافظ الملك على حكمه بواسطة الرعب. رتّب حساباته، بما في ذلك مع القوى الخارجية التي ظنّ أنّها كانت متورطة في انقلاب 16 آب (أغسطس). مقتنعاً بأنّ فرنسا قد راهنت على أوفقير، تحيّن الحسن الثاني فرصة الانتقام منها. فبينما احتفظ، منذ عام 1962، الأربعمئة ألف من الرعايا الفرنسيين المقيمين في المغرب بأراضيهم وحقوقهم، قرّر الحسن الثاني، في عام 1972، مَغْرَبَة الثروات الأجنبية. وكان يجب أن تعود ستة آلاف مسكن ومليونان ونصف هكتار من الأراضي الزراعية التابعة للفرنسيين إلى الدولة المغربية. ولم تسلم المشاغل والمشاريع والمتاجر الصغيرة من تلك «المغْرَبة» التي تتعلق في الواقع بـ«الخصخصة الملكية»، وبـ«استحواذ القصر على اقتصاد المملكة». تصرّف الحسن الثاني على هواه بهذه الهبة السماوية، مكتفياً بتوزيع الفتات منها... وتعاظمت ثروة الملك الهائلة بالأساس. وكذلك ثروة كبار موظّفي النظام. وتمّت بشكلٍ خاصّ مجاملة الضباط من ذوي الرتب الرفيعة. عند موته، سيترك الحسن الثاني المليارات من الدولارات، وكلٌّ من مولاي حفيظ والدليمي حوالي مئة مليون دولار، ورضا أكديرة ستين مليون دولار... وبالرجوع إلى الوراء، أفهم غيظ والدي حينما خاطب وزراء مختلسين بحضور الملك:

- تتشدّقون من وراء ظهري بخصوص قضية المهدي بن بركة. تحلمون برؤيتي في السجن لقضية سياسية لم تُثبَت بعد. أمّا أنتم، يا سادة، فسوف تذهبون بالتأكيد إلى خلف القضبان في قضايا مبتذلة للحقّ العام!

ربّما سيرى البعض، من فرط الرغبة في إقامة البرهان ضدّ البرهان بأنّ أوفقير لم يكن بالرعب الذي يُصوّر به، أنني أبالغ في الدفاع عنه. وأنني أسعى لتدوين: «كان أبي الأجمل، والأقوى!» بفضل الله، تضعني تجربتي الشخصية ومسيرتي القاسية، ولكن المفيدة، بمنأى عن الحماسة العاطفية البنويّة، على الأقلّ آمل ذلك، التي غالباً ما تجعل كلّ تدليلٍ إمّا باطلاً أو نابعاً من العواطف. لم يكن والدي ملاكاً، ولكنّه لم يكن إبليساً كذلك. كان جندياً، ورجلاً حقيقيّاً. مع ما ينطوي ذلك على سجايا ومثالب.

في كتابه **كش ملك**[1]، يكتب فرانسوا بيدرون: «كان أوفقير في الحقيقة خادم الدولة، والدولة، بالنسبة له، في الوضع الراهن للأحوال السياسية المغربية، تتمثّل بالملكية. ولكن بدءاً من اللحظة التي لم تستطع الملكية، الواهنة رغم استبداديتها، أو بسبب استبداديتها، تأمين نظام حيوي، كان عليه أن يفرض حلاً آخر لتبقى الدولة. لقد بولِغ في التركيز على الفولكلور المحيط بالزعيم البربري والصحراوي الفظّ. لم يكن أوفقير مرتزقاً بدويّاً! إنّه عسكريٌّ متحدّر من وسطٍ لا رحمة فيه، وغالباً ما ضرب بقسوة. لا بهوسٍ ساديٍّ، وإنّما حرصاً على الفاعلية. إلاّ أنه قد أدرك أخيراً أنّ للقمع حدوداً، وقد أظهر ذلك مباشرةً بعد انقلاب 1971، حينما أخرج مسدّسه وسط مجلس الوزراء، مهدِّداً بأنّه سينتحر ما لم يُغيّر شيئاً في هذه التصرفات المشؤومة (كانت المساومات قد استعيدَت)، متنبّئاً بصخيراتٍ جديدة ومؤكّداً عزمه على ألاّ يدع نفسه تُطلَق عليه النار وهو بلباس البحر!»

ويضيف بيدرون: «هل أُقصي لأنّه بالضبط لم يعد يريد أن يلعب

---

(1) فرانسوا بيدرون، كش ملك، من انقلاب الصخيرات إلى انتحار أوفقير، لاتابل روند، 1972.

اللعبة؟ ألأنّه تعب من القمع وسعى إلى الإصلاحات الحقيقية؟ لقد ضُرِبَ أوفقير، المقاتل الرائع، في الظَّهر، ويبدو أنّ اختفاءه أضعف الموقف الملكي. ألغى الحسن الثاني منصبَي وزير الدفاع والقائد العام، مثلما كان قد ألغى منصب مدير الديوان العسكري بعد الصخيرات. سيعمل لساعاتٍ إضافية. هذه هي النتيجة الأكثر مفاجأةً والأكثر وضوحاً لهجوم المطاردات المتمرّدة: يرقد أوفقير الآن في المقبرة الصغيرة في الطاوس، هذا القصر الأخير من تافيلاليت قبل الصحراء الكبرى. أوفقير، رمز قوّة الإخلاص، دُفِن بطريقة شبه سرّية، وهو الذي كان يبدو خالداً لا يُفنى. طارحاً مشكلةً أخيرة، وليست أهون المشاكل، للذين يريدون محاولة فهم الحقيقة. وإذ يستعصي على التحليل مرّة أخرى، ربّما كان واحداً من آخر دهاقنة الحلبة السياسية [...]. من السهل جدّاً التلاعب بالتماثلات الشكلية بين جسده ومزاجه. هناك جلاّدون لهم رأس صبيّ المذبح! مع ذلك هذا مغر وسوف أتذكّر صورةً: أثناء موسم تان-تان (وهو الاجتماع السنوي الأكبر للرحّل)، كان أوفقير، الذي بدا أطول بفعل الثنيات الفضفاضة للباس «الرجال الزرق»، وأقرب إلى السواد لفرط الزرقة، أطول من أولئك الرجال الطوال القامة، وأكثر نحولاً من أولئك العدّائين وسط الكثيب الرملي، وكان مظهره الشبيه بمظهر كاسرٍ، البارز باللثام الأسود، أكثر كآبةً من تلك الوجوه الخشنة ذات الطراز الشرس جدّاً. هذه ليست سوى صورة. ما يهمّ، بالنسبة للتاريخ وبالنسبة للمغرب، هو أنّه بعد عامٍ من مقتل الجنرال المدبوح، قُتِل الجنرال أوفقير، الدعامة الثانية للسلطة، مثله في الصخيرات، ومثله بعد مجادلةٍ طويلةٍ لا نعرف شيئاً عنها، ومثله للأسباب ذاتها».

يأتي سؤالٌ في الحال بعد هذه الصورة المخالفة للرواية الرسمية. هل عذّب أوفقير، و«باستمتاع» كما قيل غالباً؟ أُطلِقَت هذه المزاعم من قبل مومن ديوري وخلقت أسطورةً. أولَمْ يُطلَق سراحه، مع أنّه كان محكوماً

بالإعدام؟ كما أنّ وزير الدفاع السابق المحجوبي أحرضان أكّد لي دوره الغامض. أمّا عائلة ديوري، فقد نأت بنفسها عنه. ولكنّ الضرر قد وقع للأسف. وافتراءات ديوري التي سبق ونُشِرَت بالريشة الموهوبة وعديمة الذمّة لجيل بيرو الذي خفّف، منذ ذلك الحين، حكمه، متحلّياً بصدق الإقرار بأنّه قد كتب عمله **صديقنا الملك** بتحامل ودون أن يكون حريصاً على بعض النقاط التي كانت تبدو له أمراً ثانوياً. ولأنّه كان قد طُلِب منه المساهمة في توجيه ضربة قاسية للنظام الدكتاتوري للحسن الثاني، فقد استخدم هذا الصحافيّ الكبير كلّ الوسائل دون أن تردعه نوعية الوسيلة.

نأى آخرون بأنفسهم عن حكايات مومن ديوري الذي زعم، حتى لا نأخذ سوى نموذج واحدٍ، أنّ أوفقير قد اقتلع له شخصياً أسنانه الأمامية سنّاً بعد آخر، الأمر الذي يُدهش حينما نفكّر أنّه خلال الدعوى المذكورة، عبّر عن رأيه بتفاصح دون أن يكون سنٌّ واحدٌ من أسنانه الأمامية ناقصاً! وكذلك، كتب ستيفان سميث[1] بهذا الخصوص: «العديد من الملاحظات تطرح نفسها. إذا شعرنا بالحاجة إلى ذكر هذه الفقرات بحرفيتها، فذلك بسبب التأثير الذي مارسته منذ نشرها[. . .] والحال أنّ كلّ شهادةٍ، خاصّة حينما تكون الوحيدة، لا تُقدَّر إلاّ من خلال الشاهد الذي يدلي بها. بهذا الشأن، ودون دراسة الدعوى الشخصية، لا بدّ من إبداء بعض التحفّظات. فالديوري رجل مستقلّ عن وسط المعارضة المغربية. ومثل الكثير من مناضلي اليسار، أثار أبراهام السرفاتي، الذي تعرّض بنفسه لتعذيبٍ فظيع، ولكن بعد موت أوفقير، شكوكاً حول مصداقيته، وقد كتب عن ذلك في عدد نيسان (أبريل) 1986 لشهرية **تان موديرن**[2].» يكشف الكاتب أنّ منشورات مومن ديوري وكُتبه تعجّ بمعلومات مثيرة للجدل. ويوضّح: «مستخدماً كلّ الوسائل لبلوغ هدفه،

---

(1) ستيفان سميث، أوفقير قدرٌ مغربي، مصدر سبق ذكره.

(2) Temps Modernes: الأزمنة الحديثة. المترجم

مومن ديوري ليس شاهداً نزيهاً، وحكايته عن دار المقري[1] تبقى مشبوهةً. ربّما ذات يوم، تتيح تعددية الشهادات، بمقارنة الأحداث والتحقيق فيها، تحديد التورّط الشخصي لأوفقير في قاعات التعذيب.»
وبانتظار ذلك، يكشف سميث أنّ السيّد أحمد بن جلول، «المعارض لأمدٍ طويل، والمقيم في المغرب والذي يحظى باحترام وتقديرٍ واسعين» قد «وافق على الإدلاء بشهادةٍ ثانية على الأقلّ» ويصرّح بخصوص أوفقير: «لم أسمع صوت أوفقير ولا يسعني أن أؤكّد أنّه قد حضر جلسات التعذيب التي كنتُ أخضع لها، مع أنّه من حينٍ لآخر، كنتُ أشعر بأنّ هناك شخصية مهمّة جدّاً في قاعة التعذيب. لأنّ الجلاّدين كانوا يغيّرون لهجتهم. وكانوا يصبحون أقلّ مجوناً في شتائمهم، وأكثر دقّة في أسئلتهم.»

ولأنّ الافتراء بلا أدلّة، فقد استخدمه أعداء أوفقير حتى أرهقوا المستمعين إليهم. ودائماً كانعكاس لاجتناب الإساءة للحسن الثاني. وهذا هو السبب الذي من أجله غالباً ما ستتيح تعليقاتي المجال لتعليقات أشخاصٍ آخرين مؤهّلين أفضل لإضاءة بعض جوانب شخصية والدي. أمّا بخصوص الصورة الايبينالية عن «الجلاّد المتعطّش للدم الذي كان يستمتع وهو يلعب بالخنجر»، فلا تستحق سوى بعض الإيضاحات الدقيقة. وقد يُقال إنّه من الطبيعيّ جدّاً أن يدافع ابنٌ عن أبيه. وسوف يكون الأكثر تساهلاً مجاملين، والآخرون الذين رسّخت لديهم الدعايةُ بداهةً مقذعة سيضحكون. لا أقصد الدفاع عن والدي، فأنا أعرف مَنْ كان ولستُ أنا المطلوب منه إثبات ذلك. كان أوفقير جنديّاً، عسكريّاً حقيقيّاً. لا أعدم الانتقادات لرجل الدولة، ولكنّ تقديري له ثابتٌ وأكيد. كما أنّني، بإكثاري من الاستشهادات والتحفّظات التي أبداها آخرون حول الميل الساديّ المزعوم لوالدي إلى التعذيب، لا أسعى إلى إعفائه من كلّ شيء

(1) دار المقري: مركز استجواب.

وإنّما إلى فرز الخير عن الشرّ، والافتراء عن الحقيقة. أجل، لقد منح أوفقير، بذهنية فاعلة، عسكرية تماماً، للملكية نظاماً قمعياً. نعم، لقد تحمّل، بصفته وزيراً للداخلية، تماماً نتائج صرامته وسوف يتحمّل مسؤولياته أمام التاريخ. ولكن أيضاً من المفروض أن تحدّد بتجرّد ونزاهة درجة تورّطه في جهازٍ مرتبطٍ كلّياً بالملك. ثمّ الأخذ بالحسبان، دون موقف مسبق، السياق المغربي والعالمي لتلك الحقبة. ولكن شتّان بين هذا واتّهامه بالتعذيب بنفسه! والواقع، سيكون من الممكن حصول نقاشٍ حقيقيٍّ حوله فقط حينما لن يعود كلّ الذين يعرفون أموراً جوهرية يخشون من ضربات جهاز المَخزِن ولا يستسلمون لإغراء فساده ومنافعه. والآن، لا يزال من المبكر جدّاً على ذلك. والدليل على ذلك هو أنّ في مغرب محمد السادس، لا يزال يُمنَع بيع الكتب التي تتكلّم على عائلة أوفقير أو التي تكشف جوانب ووجوه جديدة عنه. في حين أنّ الكتابات التي تمرّغه في التراب تعرف نجاحاً وشعبية.

إنّ جعل والدي جلاّداً دموياً كان يمارس التعذيب هو في الواقع وسيلة مخادعة لإبعاد الشبهات عن الحسن الثاني. لا شكّ أنّ أوفقير كان قاسياً في دفاعه عن الملكية التي كان مؤمناً بها، ولكنّه لم يكن بتلك الصورة التي أراد أعداؤه، وعلى رأسهم الملك، أن يقنعوا الناس بها. وأدعو الذين يرغبون في معرفة حقيقته إلى الاطّلاع على ملفّه العسكري في الجيش الفرنسي، المنشور حصريّاً في نهاية هذا العمل. بالعودة إليه، ستنهار الكثير من الأساطير. لأنّ رأي القادة الفرنسيين النافذين سيعيد طرح الكثير من الأفكار المتلقاة للنقاش. فغالباً ما نقرأ أنّ أوفقير ووحدته الكوماندوس، المحاصرين من قبل الفيتناميين، في الهند الصينية، رفعوا الراية البيضاء واستسلموا لخداع خصومهم.

وبعد أن وثق هؤلاء الأخيرون، ألقوا أسلحتهم فقُتلوا، ولذلك سيكون الفيتناميون قد لقّبوا أوفقير بـ«القاتل». الحقيقة مختلفة تماماً. حينما وقعت وحدة الكوماندوس «او» (اسمها الرسمي في الجيش

الفرنسي) تحت نيران متعدِّدة الجوانب لكمين، قاومت حتّى استنفدت معظم ذخائرها واضطرّت للاستسلام. فطلب النقيب أوفقير من خيرة قنّاصيه في الوحدة تعليق مسدّساتهم بسلسلة لوحتهم العسكرية، ودسّ الأسلحة خلف ظهرهم مع تجويفه جيّداً مع لوحي الكتف عند رفع اليدين في الهواء. أخفى ثلاثة رجال شفرات حلاقة في أفواههم. حينما استسلمت وحدة الكوماندوس «او»، فتّش الفيتناميون الضبّاط ومن ثمّ الجنود. دون أن يكتشفوا أفراد الكوماندوس الثلاثة المسلّحين، وأوفقير واحدٌ منهم. كُبِّلَت أيادي الأسرى خلف ظهورهم بحبالٍ من قشّ الأرزّ. بعد مسيرٍ لعدّة ساعات في الأدغال، كانت الاستراحة. ترك الفيتناميون أربعة حرّاس حول مجموعة الأسرى، ولكنّ الحرّاس، تحت تأثير التعب والجوع، سهوا عن الرقابة. حينذاك، لفظ الأسرى الشفرات سرّاً، وأسندوا ظهورهم بعضها إلى بعض وقطعوا الحبال في زمنٍ بدا لهم لامتناهياً. حينما بات كلّ شيء جاهزاً، أعطى أوفقير الإشارة لرجاله. قُتِل الحراس المباغَتون في الهجوم وجُرِح أفرادٌ من وحدة الكوماندوس. وأُسِر الفيتناميون الناجون بدورهم. وسينال أوفقير وساماً على هذا العمل البطولي. ومن ثمّ سيجري السعي إلى تزوير حتّى مجده العسكري[1].

الأمر ذاته بالنسبة لحرب الريف. فقد زُعِم أنّ أوفقير ارتكب خلالها أعمالاً وحشية دموية. مرّة أخرى، أفضّل إيراد خلاصات غير خلاصاتي صادرة عن أشخاص، لا يمكن اتّهامهم بالمحاباة حيال والدي. هكذا كتب ستيفان سميث: «هل تميّز أوفقير في هذه الحرب بتجاوزات فردية، وأعمال وحشية مجّانية؟ المعارض ديوري يؤكّد ذلك [...] ويعطي

(1) في نفس قائمة الافتراءات الكاذبة المروّجة باستخفاف، يمكن أيضاً إيراد النُكتة التي تقول بأنّ وجه أوفقير قد احترق بقاذفة لهب في مونت كاسينو، الأمر الذي يفنّده ملفّه العسكري. أو أيضاً «المعلومة» التي تزعم أنّ عينيه قد أُصيبتا إصابة بالغة. الأمر الذي لم يمنع أولئك الناس أنفسهم من وصفه بأنّه كان قنّاصاً ممتازاً.

مثالين: سيكون العقيد قد جزّ عنق قنّاصٍ كامنٍ، بعد أن استسلم، وأهدى رأسه المقطوع هديّة لولي العهد؛ وأثناء تجمّعٍ لمجموعة من المناضلين الريفيين الراكعين أمام الملك المقبل الحسن الثاني، سيكون قد دسّ قنبلةً يدويّة في غطاء الرأس لجلبابِ أحدهم. ودون أن يشير إلى مصدره، يكتب جيل بيرو في **صديقنا الملك**، بعد عشرين عاماً من ذلك: «إنّ السجلّ الأسود لأوفقير يغتني ببعض الطرائف. ذات يوم، ركعت مجموعة من الأسرى المقدّمين إلى الحسن أمامه. وحينما نهض التعساء بعد العفو عنهم وابتعدوا، مزّقهم انفجارٌ. دسّ أوفقير، الفكِه، قنبلة يدوية نُزِعَ صمام أمانها في غطاء الرأس لجلبابٍ. في مرّة أخرى، أطلق ريفيٌّ النار من بندقيّته على الحسن وأخطأه: أقدّمه لك، يا مولاي الأمير! هي حكاية غير مؤكّدة! ولكن ما يُنسَب للمرء يصدر عن سمعته، ويُزعَم أنّ أوفقير، مذ كان يعمل لحساب فرنسا- وأيضاً في وادي زِم، في آب (أغسطس) 1955- كان يهوى تنفيذ هذه الإعدامات العلنية المشهدية التي كان خنجره يحظى بالأفضلية في ممارستها.» قد يحصل التساؤل حول احتمال مشهدٍ لتجمّعٍ حيث حمّله قائد كتيبة مسؤولية تفجير سجناء نالوا عفو الأمير، الذي كان على بعد مترين منه ودون ضمان بأنّ الضحية قد ابتعدت في الوقت المناسب. كما يمكن إبداء ملاحظة أنّ لا أحد يصبح، وإن كان مقتنعاً بجريمة، مسؤولاً عن كلّ ما يُنسبون إليه دون أدلّة. كما يمكننا أن نبيّن بأن لا الملف العسكري لأوفقير ولا أيّ شاهد من تلك الحقبة يؤكّدان عمليات قتل بالخنجر. أخيراً، لم يُزعَم إطلاقاً أنّ أوفقير أجهز على مواطنين في وادي زِم، مكان المذابح الفرنسية المغربية المروّعة، لسببٍ وجيه هو أنّ أوفقير كان يتواجد، في 20 آب (أغسطس) 1955، بين باريس وكوبلانس. . .»

من جهته، يختم الجنرال كليمان، الذي خدم مرّتين في المغرب، روايته الخاصّة عن حرب الريف في 1958-1959 بهذه الطريقة: «ولكن علينا أيضاً أن نحطّم أسطورةً: أسطورة الأعمال الوحشية لأوفقير في تلك

المناسبة. فقد التقينا بشهودٍ جديرين بالثقة، وهذا ليس تدبيراً شكلياً، تابعوا العمليات إلى جانبه. ونفى الجميع الفظائع المجّانية التي تُنسَب إليه. يؤلمنا أن نحطّم أسطورةً رائعة كانت تتوّج بهالةٍ شخصيةً ذات بريقٍ شيطاني».

وكذلك سمعتُ حول والدي بخصوص الصخيرات: بأنّه عذّب بنفسه الانقلابيين، رفاقه، وأسندهم إلى عمود الإعدام مبتهجاً... في حين أن لا شيء أكثر خطأً من هذا. بل إنّ أوفقير رفض أمر الحسن الثاني باستعادة المباني العامّة من المتمرّدين باستخدام الأسلحة الثقيلة!

بعض العسكريين الناجين، الذين امتلكوا ما يكفي من الشرف والشجاعة لئلاّ يزوّروا الوقائع ويحمّلوا أوفقير كلّ الآثام إرضاءً للقصر، كتبوا بخصوص تلك الأحداث، التي عاشوها بأنفسهم، وليس انسياقاً للاستيهام، جالسين بهدوء في مكتبٍ، لا يسعون سوى إلى إعداد ورقة مليئة بالتفاصيل الفاجرة... أحد الناجين من سجن تاماتاغت للأشغال الشاقّة، أحمد مرزوقي، المشارك السابق في انقلاب الصخيرات، يصف الاستجوابات التي خضع لها في تموز (يوليو) 1971 بهذه العبارات[1]:

«لحسن حظّنا، حدثت ظاهرة غريبة منذ نهاية اليوم الثاني. أحد رفاقنا، الطالب الضابط محمد الريّس، الذي كان في مكتب الجنرال أوفقير، منهوكاً تماماً، تجرّأ على أن يطلب من هذا الأخير ماءً لإرواء عطشه منذ عدّة أيام.

- كيف هذا؟ لم يُعطَ لك ما تشربه؟

- كلاّ سيّدي الجنرال، لم نحصل على أيّ شيءٍ من شرابٍ أو طعام منذ ثلاثة أيام!

أصبحت نظرة الجنرال أكثر سواداً، روى لنا الريّس. استجوب بجفاء مدير الشرطة، الدليمي، الذي كان بصحبة العقيد اليوسي، قائد المكتب

---

(1) أحمد مرزوقي، تاماتاغت، الزنزانة 10. 2000، منشورات باريس ميديتيرانيه.

الثاني، والمقدّم أرزاز، قائد الدرك الملكي وكالةً:

- ماذا أسمع؟ هلاّ شرحتم لي لماذا تعاملون الناس بهذه الطريقة؟

أخفض الرجال الثلاثة رؤوسهم. استطرد أوفقير:

- ستبعثون حالاً في طلب ما يشربونه وما يأكلونه، وأريد أن يُعاملوا بلياقة ما داموا في هذا المكان!

وهكذا تمّت بقية استجواباتنا من قبل الشرطة دون تعذيب وأصبح لنا الحقّ، مرّتين يومياً، في شطائر من لحم الدجاج وكبد العجل، تأتي من مطعم ليل ونهار، الواقع وسط الرباط والذي يبقي أبوابه مفتوحة على مدار أربع وعشرين ساعة متواصلة. وكانت زجاجة من الكوكا كولا وقطعة من جبن مثلّث القشدة ترافق تلك الولائم بفضل أوفقير!

أثارت الأحداث السياسية المهمّة للمغرب تحليلات عديدة، أُجريت بمعظمها من قبل أناسٍ جدّيين، حينما يُخطِئون، يكون ذلك عن حسن نيّة. والأكاذيب التي نشروها في الرأي العام هي قبل كلّ شيء نتيجة لإفسادٍ منسّقٍ أصولاً، تغذّيه السلطة ومجموعات الضغط الموالية لها في فرنسا، ولكن أيضاً تغذّيها المعارضة التي، كلّما تمكّنت من إخفاء تلوّثاتها مع القصر، لم تتردّ أمام أيّة وسيلة. لسوء الحظّ، الكتابات الأكثر انتشاراً عن البلاد والطبعات الأكثر رسوخاً في الذاكرة الجمعية هي نتاج عقول موالية للسلطة نصّبوا أنفسهم خصماً وحكماً في الوقت نفسه. قدّم آباء هذه المواجيز والنسخ أوفقير دائماً على أنّه الخادم الشرّير الذي منع الحبّ الكبير الطبيعي الأبدّي بين المعارضة والملك، العاهل المسكين الذي حوِّل إلى دميةٍ لا شخصية لها مسحوقة من قبل قائد جيشه الطموح. على قولهم، أوفقير هو الذي اختلق المؤامرات، وهو الذي قتل بن بركة، وهو المسؤول الوحيد والأوحد عن القمع.

باختصار، كان الملك الفعلي للمغرب! قال ونستون تشرشل: «في الوقت الذي ترتدي فيه الحقيقة جزمتها، تلفّ كذبةٌ مئة مرّة حول العالم.»

ولكن ما يزعجني حقّاً ليس الافتراءات، المبالغ فيها لحدٍّ يجعلها مضحكة. سوف يكشف التاريخ عنها، يوماً ما، ويجيد الفرز بين الكاريكاتير والأسطورة والوقائع الحقيقية. ما لا أفهمه هو أنّ هذه الستارة الدخانية وهذا التهريج يدومان في حين تختبئ خلفهما حقائق دقيقة ينتظرها المغاربة نساءً ورجالاً بتلهّف. إذا كانت هذه هي الطريقة الوحيدة للطبقة السياسية المغربية والقصر في سبيل الحفاظ على استقرارٍ قد تزعزعه بعد الحقائق، فإنّ أوفقير، حتى وهو ميّت، سيكون قد استمرّ على هذا النحو في خدمة بلده وتأمين سلامة المملكة.

من بين المشاركين، رغماً عنهم، في هذا الانتهاك للحقيقة، يوجد عددٌ من المثقّفين الباريسيين. ولطالما فوجئتُ وأنا أرى كم استسلم بعض الشخصيات الفرنسية من الإعلاميين والسياسيين لبذخ الملكية ولسحر الثراء الفاحش للحسن الثاني. إلى ماذا يُعزى هذا الضلال؟ ربّما إلى واقع أنّ الحنين إلى الملكية محفورٌ في اللاوعي الجمعي الفرنسي. تحت القلنسوة الفريجية تموج الحسرة على زهرة الزّنبق[1]. حينما يتعلّق الأمر بفرنسا، يبدو بعض أفراد الأنتلجنسيا الفرنسية جمهوريين بحماس، متمسّكين بضراوة بمبادئ الحرية والمساواة والإخاء. ولكن حينما يتعلّق الأمر بالمملكة الشريفية، فإنّ هؤلاء أنفسهم، الضعفاء أمام مفاتن المغرب، المسحورين بساحر التزوير، الحسن الثاني، يبدون أكثر تسامحاً حيال «الملك المتنوّر» مما هم عليه مع دكتاتوريين آخرين لا يُجيدون الاستقبال ولا يملكون فندقاً مثل قصر المامونية. يبقى أن نتخيّل أنّ تحت السماوات الواسعة للمغرب وبتأثيرٍ من «عبقرية» الملك وسخائه ستكون القريحة النقدية قد اختفت، والصرامة الذهنية قد امتنعت فجأةً عن العمل! هل كان يتعيّن على المرء، ليكون متسامحاً مع الملك، أن يسيء إلى

---

(1) القلنسوة الفريجية، نسبةً إلى مقاطعة فريجيا، وقد غدت رمزاً للحرية مع الثورة الفرنسية، أمّ زهرة الزّنبق فكانت شعار فرنسا الملكية. المترجم

أوفقير ويُشيطنه، أكثر من أن يدافع عن نفسه؟ لا أعتقد ذلك.

والأسوأ أنّ أوفقير والدليمي والبصري، كلّ هؤلاء الأشخاص الذين أُشيرَ إليهم في وقتٍ ما على أنّهم «الرجال الأقوياء» للنظام، كانوا أدوات لإطلاق المكبوتات من الجبن أو الخوف أو المصلحة التي أجاد الحسن الثاني إثارتها. والحال أنّ الحسن كان السيّد الوحيد والحقيقي للبلاد. والطبقة السياسية المغربية تعرف ذلك لأنّها كانت ضحية ذلك. إنّ التملّص من المسؤولية العليا للملك على مصير بلاده من خلال إعطائه المهمّة السهلة هو في الحقيقة أمرٌ مضحك كإنكار تورّط الذين كانوا في خدمته. وكان أوفقير أوّلهم. لن أسقط إذاً في معادلة «إمّا كلّ شيء أبيض أو كلّ شيء أسود». غالباً ما تكمن الحقيقة في الألوان المعتدلة، في الدرجات اللونية الموضوعية. بالتأكيد، خدم أوفقير نظاماً قمعياً، ولكنّ التاريخ هو مَنْ يحدّد حدود مسؤولياته، بتحليل مسيرته، والسياق السياسي الذي اختار ضمنه، كزملائه العسكر، ملكية قويّة، لا جمهورية اشتراكية قائمة على نظام حكم الحزب الواحد. كانت **نيويورك هيرالد تريبيون** تكتب في عددها الصادر في نهاية كانون الثاني (يناير) 1966: «ما دام الجنرال أوفقير مسؤولاً عن الأمن الداخلي للمغرب، فسيبقى هذا القطاع الحيوي من شمال غرب أفريقيا بمنأى عن المعسكر الشرقي».

ليس لديّ الطموح، كما سبق وقلت ذلك، في أن أحلّ في محلّ المؤرّخين، ولكنّني أودّ التركيز على ضرورة وضع المواقف المختلفة في الإطار الدولي لتلك الحقبة، في وقتٍ لم يكن التطرّف «الديني» قد فرض إيديولوجية عصيّة على كلّ تصنيفٍ أخلاقيٍّ أو سياسيّ. في عام 2003، يفسح التحالف مع الغرب المجال للتفسير بأسبابٍ سيطول عرضها هنا والتي وصفها البعض بأنّها «صدام الثقافات»، ولكن في الستينات كان له تفسيرٌ مختلفٌ تماماً. لم يكن يُتّهم المتحالف مع الغرب بخيانة جذوره وثقافته ودينه. على العكس من ذلك ، كانت الاشتراكية هي التي تعني

الإرتداد والكفر. وكان اختيار معسكر الغرب، لا معسكر الشرق وأتباعه العرب
مثل مصر والعراق وسوريا وليبيا، يبدو حينذاك، على الأقل مُشرفاً مثل فريق الثورة
.الاشتراكية العالمية الذي كان قد اختاره المهدي بن بركة وأتباعه
في عام ١٩٥٩، منعت حكومة رئيس الوزراء عبد الله، المرتبط بنفسه بالإتحاد
الوطني للقوى الشعبية بقيادة المهدي بن بركة، المغاربة اليهود من الهجرة،
وحظرت المراسلات البريدية بين اليهود المغاربة وإسرائيل. كان أوفقير بين من
: عارضوا ذلك. وقال علناً لمن حوله
لقد قمتُ بالحرب على الألمان. وأرى من المخجل، ومن المسيء جداً لسمعة -
بلدنا في العالم، أن نأخذ رعايانا رهائن! هذه إهانة لصاحب الجلالة محمد
الخامس، صاحب التحرير! عاهل المغرب ليس ملك فيشي! كان صاحب الجلالة
على الدوام ضامن المغاربية الواحدة التي لا تتجزأ. لم يسلّم اليهود حتى لهتلر!
والطاقة التي نوظّفها في إبقائهم بالقوة، من الأولى بنا أن نكرّسها لبناء بلدٍ ! قد
.يرغبون البقاء فيه بملء إرادتهم

فسّرت" ألسنة السوء ذلك قائلةً : "هذا لأن لأوفقير أخاً يهودياً بالرضاعة، "
بنحمو، وصداقة قوية، شبه أخوية مع إيلي تورجمان، الذي يعرفه منذ الطفولة".
وسيقول آخرون بكل بساطة : "أوفقير رجل للموساد، وينسى واجبه اتّجاه الأمة
العربية !" سعى قليل من الناس إلى تفسيرٍ واقعي، ارتبط جزئياً حتى بأصول
.والدي، وتربيته والبيئة التي نما فيها
كان جدي لوالدي، الباشا، هو الآخر سليلاً للنبي. واسم أوفقير يأتي، لا كما كتب
البعض، من الفقير (المحتاج)، وإنما من أفقيه، التحوير البربري لكلمة الفقيه
العربية التي تعني " علّامة في الدين". كان الناس يعتبرون الباشا لاهوتياً، رجلاً
فاضلاً، مُتسامحاً، منفتحاً، مسلماً حقيقياً. والحال كذلك، لم يكن صديقه الوفي
سوى الحاخام الأكبر بابا

صالح، القديس الأكبر بالنسبة لليهود. بعد التعميد الإسلامي لوالدي حرص الباشا على أن ينال ابنه محمد بركة بابا صالح، لأنه منذ أسحق عهود التاريخ تتعايش القبائل البربرية في إخاء مع اليهود. لقد نما والدي في وسطٍ حيث لا يُعد العداء للسامية إثماً فحسب بل وعاراً أيضاً، مثل كل الذين يحترمون حقاً تعاليم السلام والإخاء للإسلام الحقيقيّ والعديد من الآيات القرآنية التي تأمر باحترام الأديان التوحيدية الأخرى. لأن البربر يعتبرون الدفاع عمن يعيش تحت السقف نفسه مقدساً، بخلاف ما جرى في الكثير من البلدان الأوروبية، لم يُسلم المغرب قطّ اليهود لصروف التاريخ.

لقد رفض أوفقير دائماً معاداة السامية. فبينما لم يكن بعدُ سوى ضابط تلميذ شاب، وهو يستقل عربةً للذهاب إلى منطقته الأم، قفز من المركبة وهي تسير لكي يدافع عن حاخام كان ثلاثة سكيرين يحاولون سلب أمواله. يمكن اتّهام والدي، رجل الدولة، بأنه لم يكن لديه سوى ميول عفوية في تعاونه مع الموساد، ولكن لا يمكن نكران أنّ كرهه لمعاداة السامية كان مبدأً وليس حساباً سياسياً، أو زيفاً للاستمتاع المادي لم تكن العنصرية ببساطة جزءاً من تربيته أو مبادئه. والعرش الذي كان يخدمه لم يكن معادياً للسامية البتة، بل العكس من ذلك تماماً.

هذا بخصوص الدوافع الإنسانية لأوفقير. الأمر الذي لا يمنع الانكباب على أغراضه السياسية. بالتأكيد، كانت له صلات وثيقة بالموساد، ولكن تلك الصلات كانت كغيرها التي كانت تربطه بأجهزة الاستخبارات الخاصة الفرنسية أو الإسبانية أو البريطانية أو الأمريكية أو الجزائرية. لم يكن أوفقير أبداً "مراسلاً مخلصاً" أو عميلاً مأجوراً لأي بلد كان. في الحلقة المغلقة للجاسوسية الدولية، لم يكن تابعاً وإنما شريكاً قديراً. وإذ فتح له ماضيه العسكري أبواباً ودّية وسط الدوائر العليا لأجهزة الاستخبارات السرية الحليفة للمغرب، كان يحظى بتقدير وبكلمةٍ مسموعة : كان أوفقير يعاملهم معاملة الندّ للندّ، بخلاف حال بعض

المسؤولين العرب الذين استفادوا من مكافآتٍ سخية لقاء علاقاتهم السرية بإسرائيل. . . ولكن نالوا القليل من الاحترام!

علاوة على ذلك، اختارت الملكية، المحاصرة بالجمهوريات العربية الاشتراكية وبالناصرية الجديدة، غير الراغبة في السقوط في حقل جاذبية القوى العظمى، عمداً التعاون مع الموساد بهدف كسب الحرب الأكثر جوهريةً في رأيها، ألا وهي حرب الاستخبارات.

في كتابه **الحسن الثاني واليهود**، يؤكّد اينياس بن سيمون أنّه حوالي نهاية كانون الأوّل (ديسمبر) 1959 وإلى بداية كانون الثاني (يناير) 1960، نظّم الموساد العديد من اللقاءات في باريس بين أوفقير ودبلوماسي إسرائيلي يعمل في باريس[1]. وأصبح ذلك اللقاء ممكناً بفضل يهود مغاربة، كان للعقيد أوفقير علاقات جيّدة معهم. وكان المقصود، حسب بن سيمون، داڤيد عمار، رئيس مجلس الطوائف اليهودية، وروبير الصرّاف، مساعد وزير الداخلية آنذاك، ورضا أكديرة وبشكلٍ خاص إيلي تورجمان، أخ أوفقير بالرضاعة.

فيما بعد، سيقدّم الموساد لأوفقير معلومات عن متآمري شباط (فبراير) 1960، ويحذّر القصر من انقلابٍ عسكريٍّ كان يتمّ الإعداد له. ويعتبر معظم الباحثين أنّ مؤامرة شباط (فبراير) استُخدِمَت أيضاً كذريعة من قبل القصر لمعاقبة خصومه السياسيين بغية الاستئثار بالسلطة. وبناءً على أوامر محمد الخامس، سيكون أوفقير قد زار آنذاك إسرائيل لتحديد أحكام التعاون بين الاستخبارات السرية للبلدين. وهكذا بدأت، حسب بن سيمون، الاتصالات المثمرة بين أوفقير والموساد.

ودائماً حسب بن سيمون، كان الوسطاء الذين استخدموا جسوراً

---

(1) أ. بن سيمون، الحسن الثاني واليهود، تاريخ هجرة سرية، ص129-131-161-162.

لإقامة المفاوضات بين الملك وتل أبيب هما روبير الصرّاف وسام بنزراف العضو في الحزب الديمقراطي من أجل الاستقلال PDI والمدير السابق لمكتب عبد القادر بن جلّول حينما كان هذا الأخير وزيراً للمالية، في عام 1956، والذي كان يشغل في عام 1961 منصب وزير العمل والمسائل الاجتماعية. وبفضل هذين الصديقين الحميمين، على ما يشرح بن سيمون، علِم الملك بأنّ إسرائيل كانت تقدّم له عروضاً جديرة بالاهتمام بقصد التفاوض حول رحيل الطائفة اليهودية. وجرت المرحلة الثانية بين أوفقير والناطق باسم الجالية الأنسب للظرف، إيلي تورجمان.

ولكن حسب المؤرّخ الإسرائيلي إيغال بن نون، لا يمكن للعلاقات بين السلطات الإسرائيلية والقصر المغربي، في أيّ حالٍ من الأحوال، أن تكون قد حصلت في كانون الأوّل (ديسمبر) 1956. في تلك المرحلة، كان أوفقير مرافقاً لمحمد الخامس ومحمد الغزّاوي هو مدير الأمن الوطني. ولم يكن من الممكن أن يتمّ لقاء بين رئيس الموساد والشين بيت إيسر هاريل والعقيد أوفقير بخصوص الهجرة في ذلك التاريخ. وإلاّ، كيف يمكن تفسير استمرار العمليات السريّة للموساد في مجال الهجرة وكذلك غرق الباخرة السريّة بيس، وحملة الاعتقالات التي أسفر عنها ذلك.

مزوّداً بمصادره، يؤكّد إيغال بن نون أنّ الاتّفاق بين البلدين لم يُبرَم إلاّ في آب (أغسطس) 1961، مع مجيء الحسن الثاني. وقد سبقت «اتّفاق التسوية» ذلك مهمّة بنسالم جسّوس في القدس للقاء وزيرة الخارجية غولدا مائير في آذار (مارس) 1960 والمحادثات التمهيدية بين مولاي الحسن وآلكسندر ايسترمان وجو غولان، بمندوبَي المؤتمر اليهودي العالمي في آب (أغسطس) من السنة ذاتها[1].

---

(1) ا. بن نون، «البحث عن تسوية لنقل يهود المغرب»، عن طرد اليهود من البلدان العربية، بارد العدد 34، (بريس ايديشن 2003).

في 27 شباط (فبراير) 1961، كان إيسر هاريل قد وجّه إلى رجل ثقته في باريس، أفرايم رونيل، رسالةً يذكر فيها هجرة يهود المغرب وموقف القصر حيال ذلك: «ختاماً، أعتقد أنّه من المستحبّ والمأمول إيجاد صلة مباشرة مع العاهل الجديد. إذا أقمنا هذه الصلة، فسنحتاج أوّلاً إلى أنّ نقدّم له كلّ الأخبار والمعلومات الضرورية التي تهمّه معرفتها. لن يبدِي أعداؤه الرئيسيون، فيما لو استولوا على السلطة، موقفاً إيجابياً حيال اليهود بمبادرتهم. بل وسيخلقون العقبات. اليوم، لا ندين لهم بأيّ شيء.» ويشرح بن نون أنّ هذا الموقف دلّ على تبدّلٍ في سياسة الإسرائيليين، التي كانت إلى ذلك الحين تحتفظ باتّصالاتٍ متواصلة مع بن بركة، بعد أن طلب هذا الأخير، عبر وساطة مندوبٍ من الموساد في باريس، مساعدةً عسكرية ومالية من إسرائيل للاستيلاء على السلطة في المغرب بقوّة السلاح.

في تلك الفترة، كانت هجرة يهود المغرب تثير تحفّظاتٍ قويّة. فقد كتبت صحيفة الاستقلال في 10 أيار (مايو) 1961:

«يجب أن تكون عقوبة هجرة اليهود المغاربة إلى إسرائيل الإعدام لأنّها توازي الخيانة العظمى. إنّ العقوبة المفروضة على عشرين يهودياً تمّ توقيفهم بينما كانوا يحاولون مغادرة البلاد بصورة غير شرعية والذين تمّت إدانتهم مؤخّراً بالسجن لثلاثة أشهر من قبل محكمة الناضور غير كافية.»

رُدِّدَ ذلك التاريخ أوكتوبر- ديسمبر 1959، في العديد من المنشورات، منها كُتب رونيه فاليغو وريمي كوفير وجاك ديروجي،

ج. ديروجي وهـ. كارميل، قرن إسرائيل (1895-1995). أسرار ملحمة، ص538.
أ. بخاري، السرّ، بن بركة والمغرب، عميل سرّي سابق يتكلّم، ص 53-54، ص 103-105.

وهيزي كارميل، وستيفان سميث وآخرين، والذين استشهدوا جميعاً بكتاب اينياس بن سيمون دون تسمية مؤلفه[1]. ولكنّ إيغال بن نون يجزم، حسب مصادره، أنه لم يُبرَم «اتّفاق تسوية» بخصوص الهجرة إلاّ في أغسطس .1961 علاوة على ذلك، لم تكن لروبير الصرّاف وإيلي تورجمان أيّة صلة بهذا الاتّفاق الذي أُنجِزَ بوساطة شخصيتين يهوديتين محليّتين: اسحاق كوهين اوليفر وسام بنزراف وبمساعدة الشخصيتين القريبتين من القصر: ابن عمّ الملك مولاي علي، ووزير العمل عبد القادر بن جلّول.

في فندقٍ بجنيف، سلّم سفير إسرائيل في باريس، ڤالتر ايتان، يرافقه مندوبٌ للموساد وممثّلٌ للوكالة اليهودية، مبلغاً من نصف مليون دولار نقداً لمولاي علي وبن جلّول وتعهّدوا بأن يدفعوا للمغاربة مبلغ 250 دولاراً مقابل كلّ مهاجر يُسمَح له بمغادرة المغرب بدءاً من 28 تشرين الثاني (نوفمبر) 1961. وهكذا بدأت عملية ياخين التي أجلى الإسرائيليون في إطارها إلى إسرائيل، حتى عشيّة حرب الأيام الستّة، بجوازات سفر جماعية موقّعة من قبل وزير الداخلية أوفقير، حوالي 80000 يهودياً.

عَلِم أبي متأخّراً بالعواقب المالية لهذا الملفّ. وقد صُدِم بذلك. كان يتفهّم أن يتمكّن المغرب من الانتفاع من العملية ولكن فقط إذا استُخدِمَ ذلك في تطوير البلاد. أقول هذا لأنني أرى أنّ موقف الحسن الثاني حيال اليهود لم يكن، في سياق تلك الحقبة، براغماتياً فحسب بل وجريئاً أيضاً. أيّة خسارة في أن تكون هذه الحركة السياسية القوية قد لوِّثت بمنافع بخسة. مع ذلك إذا كان هناك شيءٌ يمكن أن يُحسَب للحسن الثاني، فذلك بالتأكيد سياسته الخارجية، التي كانت مثالاً للذكاء والحدس

---

(1) اينيس بيل ايبا، ويونس العلمي، وعلي عمار، وأبو بكر جامي، ملفّ «المغرب والموساد»، في الصحيفة الأسبوعية، العدد 167، (الدار البيضاء، 3-9 تموز (يوليو) 2004).

والواقعية. خلال السنوات الثماني والثلاثين من حكمه، حافظ الملك بدهاءٍ وموهبة نادرين على علاقات دولية حصيفة. . . ومثمرة على نحوٍ رفيع. كانت مفتاح عمره السياسي المديد الاستثنائي.

أمّا العلاقات الدبلوماسية بين إسرائيل والمغرب، فلم تبدأ، حسب بن نون، إلاّ في بداية شباط (فبراير) 1963. وقد نجح المؤرّخ في تحديد الشخص الذي عمل كوسيط بين أوفقير والساعد الأيمن لإيسر هاريل. إنّه المفوّض الفرنسي إيميل بنحمو، صديق أوفقير منذ فترة الجيش الفرنسي، والذي سيمثّل فيما بعد بلاده في الأنتربول. جرى ذلك اللقاء في منزل عائلة بنحمو في شارع فيكتور هوغو، بباريس. وفقط منذ ذلك التاريخ بدأ تعاونٌ وثيق ومتواصل بين القصر المغربي وإسرائيل، في مجالاتٍ شتّى: تدريب الحرس الخاصّ للملك، وتقنيات الاستخبارات، وتدريب الضباط، ومشاريع الري والتعاون الريفي، الخ.

كما يؤكّد المؤرّخ الإسرائيلي إيغال بن نون أنّ الزيارة الأولى لأوفقير إلى إسرائيل لم تتمّ إلاّ في 3 كانون الأوّل (ديسمبر) 1964. والوثائق الإسرائيلية الصادرة عن الحكومة والموساد مجمعة على التأكيد: «كان أوفقير نزيهاً»، وهو ما لم يكن حال الكثير من الوزراء وكبار الموظّفين المغاربة الذين عملوا مع المبعوثين الإسرائيليين. أمّا هاريل، فلم يقم بأيّة زيارة مصرّح بها إلى المغرب ولم يلتقِ قط بأوفقير، بما أنّه كان قد عُزِل عن مهامه في آذار (مارس) 1963. وبالمقابل، كان قد قام بالفعل برحلةٍ - سرية - إلى المغرب في تشرين الأول (أكتوبر) 1959، سبقتها ثلاث زيارات أخرى، هي الأخرى سرية. لم يكن الهدف منها سوى التحقّق من أمن طرقات الرحلات السرية من شمال المغرب[1].

(1) إ. بن نون، العلاقات السرية بين المغرب وإسرائيل، 1955- 1967، مخطوطة ودورة مؤتمرات في المركز المشترك في باريس، 2004.

في عام 2003، وبينما ألقى التطرّف اللعنة على العلاقات الدولية والإنسانية، حيث نجح التعصّب في الخلط بين السامية والصهيونية لكي يجعل من مشكلة سياسية نزاعاً دينياً، عُدّت هكذا عقلية انفتاحية من قبل المتطرفيين خيانةً. في عام 1969، خلال غداءٍ، قال أوفقير لصديقه سفير مصر:

- سوف يستغرق هذا الأمر الوقت الذي يلزمه، ولن تغيّر حروبٌ عديدة شيئاً فيه، ولكن سيأتي يوم سوف يجلس فيه العرب والإسرائيليون حول طاولة واحدة وسيتبادلون الاعتراف ببعضهم!

المؤسف أنّه بالنسبة للكثير من العقول البليدة والسيئة النيّة، فإنّ فهماً كهذا للتاريخ يغدو ارتباطاً بالموساد. وللردّ على هذه التلميحات المسيئة التي لا أساس لها من الصحّة، تراود ذهني مقولةٌ لوالدي: «إنّ القوميين العرب هم أكثر مَنْ أضرّوا بالقضية الفلسطينية!» والحال أنّ والدي ساند هذه القضية بطريقته.

ضمن برنامجٍ على فرانس2، في 16 أيلول (سبتمبر) 2001، روى عضوٌ بارز في منظّمة التحرير الفلسطينية، زكريا بلعوشة، تاريخ قوى الأمن الفلسطينية. روى هذا الضابط الفلسطيني بالتفصيل أصول قوّة 17، جهاز مخابرات منظمة التحرير، وكشف كيف شُكّلت نواة هذه الاستخبارات الخاصّة. كان على منظمة التحرير، التي لم تكن لديها دولة، أن تطلب آنذاك المساعدة من الدول التي تمتلك الخبرة ووسائل تدريب ضباط المستقبل الفلسطينيين. وكان الأمر يتعلّق بانتقاء رجالٍ بدقّة واختيار دقيقٍ للذين سيكلّفون بتدريبهم. وللقيام بذلك، يؤكّد بلعوشة أنّ ثلاث مجموعات أُرسِلَت إلى العراق وسوريا، والأهمّ، إلى المغرب. حيث تمّ تدريبها من قِبَل أوفقير، لا أكثر ولا أقلّ. هل كان عميلٌ للموساد سيقوم بذلك؟ أشكّ في ذلك، طبعاً. على أيّ حال، مرّة أخرى، تقدّم الافتراء، زوراً، على الحقيقة التاريخية.

طبعاً، حقدَ أنصار العروبة وطوباويو «الأمّة العربية العظيمة»، التي قد

يكون مركزها القاهرة أو بغداد أو دمشق، على أوفقير بكلّ قوّتهم. لأنّه كان من الذين اعتقدوا بثبات بأنّ الأمّة المغربية القديمة المرتبطة بإسلامها المتسامح، المتآخي، لها شخصية وخاصّية وتاريخٌ ألفيّ لا يندمج في كيانٍ أقلّ ما يُقال فيه بأنّه غير متحقّق. كان يدافع عن مغربٍ متعدّد الثقافات يتعايش فيه البربر والعرب والأندلسيين واليهود في انسجام وبحقوقٍ متساوية. وغالباً ما كان يقول: «ليس لأنّ قاسمنا المشتركَ والمقدّس هو الإسلام، يبرّر المشرق لنفسه غزواً أيديولوجيّاً وثقافياً للمغرب! المغرب كان دولة، في حين لم يكن الكثيرون ممّن يريدون تغيير حضارته بعد سوى جنينٍ سياسي. جغرافياً، وحتى في اللغة العربية، المغرب هو نقيض المشرق. أحدهما في مشارق الأرض والآخر في مغاربها. المشرق هو جزئياً عربي، والمغرب بغالبيته بربري. كنّا على الدوام منفتحين على العديد من الثقافات، بينما العقيدة العروبية تعظّم ثقافتها فوق جميع الثقافات الأخرى ولا تفكّر سوى في تحجيمها لتقويضها أفضل تقويض».

هل كان أوفقير مخطئاً أم مصيباً؟ التاريخ سيفصح عن ذلك. ولكن برأيي المتواضع، حملت أحداث الحادي عشر من أيلول (سبتمبر) 2001 المأساوية بدايةً للجواب...

تمنحني تجربتي، على الأقلّ هذا ما أتمنّاه، البصيرة والفسحة الكافية لكي أستخلص، دون أن أحتجب، خلاصاتي الخاصّة حول أبي. وهي خاصّة بي وشخصية وينبغي ألاّ تدخل في حساب البرهان الذي أقمته. بيد أنّ هذين العقدين من المحنة لا يخيفانني من أيّة حقيقة عنه، شريطة أن تصدر عن قضاءٍ نزيهٍ ومستقلّ. والحال أنّ الصورة التي جُمِّد أوفقير فيها هي حصيلة التحالف الضمني بين العرش ومعارضيه. وهي صورة مشوّهة أتاحت لممثّلي المسرح السياسي المغربي أن يُبقوا سرّاً الرواية الحقيقية لتاريخ المغرب وهذا في مصلحة «الجميع».

وكما قال الصحافي فيليب هيرمان، كان أوفقير أحد نماذج النظام الحسني: «كان على الدوام الدرع الواقية للنظام». ما زال تساؤل ذلك الصحافي، بعيد موت أوفقير، يردّ أصداءه حتى اليوم، كنبوءة. كان يتساءل: «هل سيُجعَل من أوفقير تدريجياً كبش المحرقة لجرائم أخرى وتجاوزات وفضائح وقعت في هذه السنوات الأخيرة؟»

ويضيف ستيفان سميث: «منْ هو محمد أوفقير؟ يتوقّف هذا كثيراً على الشاهد وعلى الحقبة الزمنية وطبعاً الظروف [...] في المغرب، مُحيَت ذكرى أوفقير. على نحوٍ أدقّ، جُعل في البداية كبش المحرقة، وأُسيء إليه بكلّ الشرور التي لم يُجرأ على نسبها إلى الحسن الثاني. خرافة الملك الصالح والوزير الفاسد. ثمّ آثر المغاربة النسيان. بعد موت أوفقير، شغل آخرون مكانه. واستمرّ كلّ شيء، التعذيب وقضايا زائفة، وإعدام المعارضين، وهيجانات شعبية سُحِقَت بدموية، وانتخابات مزوّرة. ولكنّ ضُبِط فقدان الذاكرة الشامل: «لم يمت الملك، عاش الملك!»

اليوم، مات الملك، ولكنّ مهزلة الأكاذيب ما زالت متواصلة. فقط في مغربٍ ديمقراطيٍّ حقّاً، حيث يتمكّن الشهود، شهوت الإثبات والنفي، أن يعبّروا بحرية عن آرائهم، سيفرز التاريخ بين الصحيح والخاطئ، بين الشائعة والحقيقة، بين القرائن والمزاعم السطحية والمجانية. أتمنّى أن أبقى حياً إلى حين رؤية ذلك. وبانتظار ذلك، لا أبرّئ والدي من مسؤولياته في النظام القمعي، طالما تُحدّد موضوعياً وفي سياقها.

في الواقع، قُتِل أوفقير عشية السير نحو الإجابة الأكثر جلاءً على كلّ الشتائم والشبهات والأساطير والافتراءات. لو كان انقلاب 16 آب (أغسطس) قد نجح، لكان تحالفه مع المعارضة المغربية واليسار الثوري قد ظهر في وضح النهار. وكان أوفقير سيُبرّأ حينذاك علانية في قضية المهدي بن بركة، غير مكتفٍ بالطبع بالعفو من قبل فرنسا. لو كان 16 آب (أغسطس) قد نجح، لبدا أولئك الذين حملوا كثيراً على الوزير أكثر اعتدالاً. ولكن لا يمكن إعادة صنع التاريخ. وللأمم، كما للأفراد،

قدرها. كان خطأ والدي الأكبر هو في الحقيقة أنّه وضع خبرته وكفاءاته ومؤهلاته وشخصيته القوية في خدمة مؤسسة لا في خدمة مثلٍ أعلى. وتعرّض بذلك لخيبات أملٍ قاسية ومريرة. بالتأكيد كان ممّن اختاروا المعسكر الغربي في مواجهة الكتلة الشرقية، ولكنّ هذه الرغبة لم تكن كافية لأن يوصَف على أنّه مثاليّ. إنّ منطق الدولة، الذي قاده إلى أن يعيد البحث في قسمٍ، في التزامٍ لم يعد يؤمن به، صدع مناعته المزعومة أمام حالة نفسية. لم يقاوم ذلك. يشبه أوفقير إلى حدٍّ ما جافير في البؤساء... ولكن للأسف، مثل جافير، لم تكن مهمّته سهلة.

تقول آية قرآنية: «وعسى أن تكرهوا شيئاً وهو خيرٌ لكم وعسى أن تحبّوا شيئاً وهو شرٌّ لكم.» ولهذا لدي القناعة بأنّ فشل 16 آب (أغسطس) كان، من وجهة نظر شخصية، المأساة التي أتاحت لي أن أحقّق وجودي وأن تكون لي مسيرتي، وحياتي. أفضل وبما لا يُقاس دوري كسجين سابق، وكمحتملٍ للشقاء، وكمكافحٍ للشدّة، وكناجٍ من الحقد على دوري كابن رجل دولة بلغ قمّة هرم السلطة. كان موت والدي أشدّ الآلام، ولكنّ نتائجه، مهما كانت فظيعة، كانت بركةً لإثبات ذاتي. خيرٌ للمرء أن يكتب بنفسه صفحات حياته، مهما بلغت كآبتها وفظاعتها، من ألاّ يكون سوى عنصر في حكاية وإن كانت مجيدة، كتبها آخرون، حتى إذا كانوا والديه!

الفصل السابع عشر

الهروب الكبير

في قاع البئر، بعد الكثير من سوء المعاملة بفظاعة، لمعَ وميضٌ. عانينا الكثير ولكنّنا ما زلنا أحياء. خرجنا من إضرابٍ عن الطعام لمدّة أربعة وأربعين يوماً ومن غيبوبات خطيرة. بقيتُ عاجزاً لأكثر من أسبوع بعد أن استعدتُ وعيي. لم أقوَ على فتح بلاطتي وإخراج الهاتف من تحتها لأتّصل بأهلي. من جهتهما، لم تستطع عاشورا وحليمة دفع رأس أنبوب الغاز إلى زنزانتي: فلو أزالتا السدادة المصنوعة من التراب والرماد التي تموّه الأخدود من طرفي، لما تمكّنتُ من إعادة سدّها. فاكتفينا برسائل موجزة تبادلناها بالطرق على الجدار.

خلال الساعات الاثنتي عشرة التي تلت استفاقتي، زارني حرّاسي كلّ ساعتين. وقد زال بعد ذلك تأثّرهم العفوي الذي بدا عليهم حينما فتحتُ للمرّة الأولى عينيّ بعد الغيبوبة. واستبدّ بهم من جديد الخوف الذي أثاره مثلنا: استعادوا برودة أعصابهم، وأدّوا مهمّتهم وكأنّهم آلات. ولكن خلف الواجهة التي فرضوها على أنفسهم، شعرتُ، من خلال صمتهم، يبزغُ ما هو أكثر من شفقة، ربّما مسحة من الإعجاب. بل وأحياناً بادروا إلى مساعدتي. حينما استندتُ بوهن على مرفقي لأحاول الشرب من قربة الماء، لم أستطع رفعها إلى فمي. جلب لي بورو، بعد استشارة مرؤوسيه، مصاصّة سوائل. قال لي:

- ليس لنا الحقّ أن نقدّمها لك، ولكنّنا أخذنا ذلك على عاتقنا.

بل وعزّز مبادرته بخمس سجائر. في ردّ فعلٍ أوّلي، رفضت تقدمته، ولكنّني عدلتُ عن رأيي. من الأفضل لخططي المستقبلية أن أكظم كبريائي وأجعل الحرّاس يرتاحون لفكرة خضوعنا التّام. فقبلتُ المصّاصة والتبغ. وعدني بورو بأنّه سيحاول أن يقدّم لي، بالاتّفاق مع مساعديه، ثلاث سجائر يومياً شريطة أن أعيد له أعقابها الثلاثة كل يوم. أوضح لي:

- إذا ما جاء أحدٌ ما من الرباط على نحوٍ مباغت، ينبغي ألاّ يرى آثار السجائر في زنزانتك... هذا سيكلّفنا جميعاً، بمن فينا أنت، غالياً جدّاً.

كان بورو حائراً. يتظاهر بالقسوة والصلابة، ولكنّه وفريقه كانوا يبدون قلقين جدّياً. غطّت فداحة محنتنا عرضياً الرعب الذي كان يتسبّب به الديوان الملكي عند سجّانينا. ومع أنّه لم يكن بوسعهم التعبير عن ذلك صراحةً، إلاّ أنّ حرّاسنا أبدوا بين الفينة والفينة، بصمت، التقدير لمقاومتنا اليائسة ولكن الضارية. جازف البعض منهم بأن همسوا لنا بتشجيعهم الصادق حينما سنحت لهم فرصة ذلك. ولكن الخوف استبدّ بهم. فكّروا: «إذا كان الملك يخصّ ضيوفه بمصير كهذا، فماذا سيحصل لأوّل من يساعدهم رأفةً بهم؟» لاحقهم الشكّ وضايقهم. ما عاد مقنعاً لهم ما كانوا يقومون به. والأسوأ من ذلك، ظنّوا أنّنا إن متنا هنا فلن يُترك شهود هلاكنا أحياء. بعد ذلك، غالباً ما لاحظتُ على وجوههم أمارات التنصّل والاشمئزاز وقد استُبدِلَت سريعاً بأقنعة الخوف حينما تُلفَظ أسماء مولاي حفيظ وبن عايش والحسن الثاني.

دشّن عام 1987 سنتنا الخامسة عشرة من الاعتقال، وسنتي العاشرة من العزلة. لم يطرأ أيّ تخفيف على نظام اعتقالنا وظروفه. وظلّت أوامر الديوان الملكي قاسية ولاإنسانية. بقينا جائعين ومحاصرين من قبل جلاّدينا. والمحن الجديدة التي مررنا بها لم تلطّف قط ولم تخفّف الظروف المزرية التي أُخضِعنا لها. يجب أن نعمل معاً. إذ لم يعد يرتبط التعاطي مع هذا السياق المفرط الشدّة إلاّ بإرادتنا. وفي مسعى أخير

للاعتماد على أنفسنا، كممنا آلامنا وتهيّأنا لتحدّي القدر لآخر مرّة. خصّصنا شهر كانون الثاني (يناير) لاستعادة صحّتنا. حرمت أخواتي أنفسهنّ ليرسلن إليّ القليل من الزاد الإضافي، دون أن يصرّحن لي بذلك. كان طولي البالغ متراً وسبعة وثمانين سنتمتراً وكلّ الدم الذي خسرته يحتاجان إلى أكثر من ملء جفنة من الطعام يومياً وربع رغيفٍ من الخبز لأقف من جديد على قدميّ. طوال الأيام التي بقيتُ فيها غائباً عن الوعي، لم أستطع بالطبع أن أُفرِغ الإجاصة التي كانت تؤلم فمي. أكثر من سبعة أعوام وأنا أعاني من ذلك الخرّاج اللعين؛ الأمر الذي جعل على ما يبدو نزلتي الصدرية مزمنة، والتهابات لُوَزي متكرّرة مع جملةٍ من الالتهابات الأخرى. كنتُ على الدوام محموماً. وقاومت أعضاء جسمي بقدر ما استطاعت الأمراض التي أرهقتها. وتعلمت روحي المتحفزة في هذا الكفاح من أجل البقاء أن تتجاهل غلافها. لو كنتُ أستسلم، لفعل جسدي المنهك الأمر ذاته. وحينذاك كانت ستحلّ النهاية.

القسوة البالغة للظروف التي مررنا بها فرضت علينا أن نعيد بناء بعض القوى الجسدية قبل المعركة النهائية. ومنذ ذلك الحين، بدأت حملة اقتناص البروتينات. موّنتني حليمة وعاشوراء لأجل ذلك بـ«طريدة» إذ أحضرتا لي بعض عصافير الدوري التي تسلّلت إلى شرفتهنّ، حينما كان بابها مفتوحاً. شويتها على شمعتي وعلى «مصباحي الزيتي».

شعرنا بالوحشة والإهمال أكثر من أيّ وقتٍ مضى. ومع ذلك كنّا عاقدين العزم على المقامرة بكلّ شيء: سيكون الهروب أو الموت هو المرادف للخلاص بالنسبة لنا. ومن خلال المجازفة بحياتنا كرهانٍ أخير، سنكون رابحين مهما حصل، مادمنا سنتحرّر أخيراً! عرفنا أنّ حياتنا لم تعد تساوي، في نظر الملك، أكثر من حياة الحشرات. كما لم يعد لدينا ما نخسره. ما دمنا سنموت في كلّ الأحوال، سنقاوم حتى النهاية، في معركة شرف... إذا كان القدر قد قرّر إبقائي على قيد الحياة، فذلك لأنني نذرتُ نفسي لأقاوم أكثر من أيّ وقتٍ مضى، لكي أحيا! وذلك لأنّ

طريقي لم ينتهِ ولأنّه لا تزال هناك أمورٌ ينبغي عليّ تحقيقها!

للإقدام على محاولة هروب، كان لا بدّ لنا من أن نتعافى. فمشروعنا الأخير سيتطلّب منّا عزماً لا يلين. وسيحتاج الفرار من السجن، الذي قد يكون الأكثر حراسةً في المملكة، إلى وسائل مهمّة وطاقة غير عادية! لأنّ حفر نفق في هذا المعسكر المحاط بإجراءاتٍ أمنية فائقة هو مخاطرة وتحدٍّ طموح. كلّفتنا هذه المواجهة الأخيرة مع القصر تضحيات جسدية ومعنوية ومادية جسيمة. لقد فقدنا، بمذياعنا، ورقة ثمينة. الحبل الوحيد الذي كان يربطنا بالعالم انقطع نهائياً. ولأنّ المحطة لم تعد تعمل، ولأنّنا كنّا قد قرّرنا التخلّص من كلّ شيء، تركتُ الجهاز خارج البلاطة، فقط لأُغيظ بورو وأثبت له، في وثيقة ما بعد الوفاة، أنّنا كنّا قد نجحنا في خداع رقابته المشدّدة. وإن لم يعتقد حرّاسنا، لحسن الحظّ، بأنّ هذه اللوحة التالفة المغطاة باللحام والصدأ لا يمكن أن تكون مذياعاً، حيث كنّا لتعرّضنا في هذه الحالة لعقابٍ فظيع، إلاّ أنّهم مع ذلك احتفظوا بها. وإذ ادّعت عاشورا أنّها قد عثرت على هذا الجهاز الغريب أثناء جمعها التراب في الفناء، أغلق آمر المعسكر، مطمئناً بحملاته التفتيشية الثلاث أسبوعياً، الملفّ. وقد ندمتُ أشدّ الندم على عدم احتفاظي بكومة الحديد التي كانت تتيح لنا الاستماع إلى بعض أصداء العالم. مَنْ يدري أنّه، بقليلٍ من الحظّ وكثيرٍ من التخيّل، ما كنتُ لأستطيع أن أختلس منها بعض الأصوات؟ ولكن ما الجدوى من التشكّي؟ وإذا كانت الأيام المقبلة أقسى ما تكون، فسوف توجّهنا مهما يكن الأمر نحو نهايةٍ. . . وسواء كانت النهاية سعيدة أو حزينة، فإنّها ستحملنا بعيداً عن هذه الجدران اللعينة! خيرٌ لنا أن نموت ونحن نكافح، من أن تأكلنا، معوزين ومشلولين، الحشرات والتعاسة.

لإخماد عدوانية سجّانينا واندفاعهم، احتفظنا بمظهرنا البائس. ضاعفت الرباط من قسوتها وعجرفتها. واستمرّ نظام العزل المطلق. اعتقد

جلاّدونا بهزيمتنا الكاملة، مقتنعين بأنّنا سنكون، بعد الآن، خاضعين ومحطّمين تماماً.

بصلابة، لا بل وبصلافة الرجال والنساء المقاومين، اكتفينا بحساب الخسائر المادية الناجمة عن التظاهر بتجاهل جراحنا النفسية. وبتصبّر المحكومين بالأشغال الشاقّة، وبرباطة جأش المحاربين القدماء، استفدنا من الهدنة لنستعدّ للقتال، ونعدّ للمعركة القادمة، المعركة الأخيرة. وإذ شعر كلٌّ منّا بأنّه مسؤولٌ عن الآخرين، ضاق هامش عملي على الدوام. وقد كبّل رفضي أن أترك أهلي وحدهم في تلك المأساة باستمرار يديّ. لم تكن محاولاتنا للانتحار أعمالاً أنانية في سبيل الفرار تاركين الآخرين في الجحيم، وإنّما تضحيةً مكرّسة لمحاولة إنقاذهم. أمّا الآن وقد يئسنا فعلاً، انضمّ الجميع إلى مشروعي للهروب. فقد نجحتُ أخيراً في إقناع أمّي وأخواتي بأنّ فتح نفقٍ هو نظرياً قابلٌ للتنفيذ، وأنّه حتى لو كان تحقيقه غير مؤكّد فإنّه ليس مستحيلاً. ألسنا نتوفّر على ما هو جوهريّ لكي نفكّر في حفرِ النفق: المخابئ لإخفاء التراب والحجارة؟

في البداية، ولكوننا جميعاً ضعفاء، لا بدّ لنا أن نستعيد عافيتنا قبل الشروع بالمهمّة الكبيرة. عليّ بشكلٍ خاصّ أن أستعيد السير على ساقيّ، حيث لا يُمكن للنفق أن يُنجَز من دوني. كنتُ قد أشعتُ عبثاً نظرية معقّدة اجتررتها لسنوات، حيث ظهر، عملياً، أنّ حضوري لا غنى عنه. وسوف ترتبط كلّ مرحلة بالمعلومات والملاحظات التي سأجمعها أوّل بأوّل عن الأشغال. وحدها عيني ستستطيع الحكم على المشروع.

هُيِّئت أسبابٌ عديدة لأكون «المهندس المعماري» لهذا المشروع: منذ أن أُدخِلنا في عام 1977 إلى مأوى المحتضرين هذا، لم أكفّ عن تخزين الملاحظات الضرورية لهكذا مشروع. أنا الوحيد الذي رفعتُ بلاطةً وفحصتُ باطن الأرضية. عرفتُ مواعيد تبديل الحرس، والوضع الدقيق للحرّاس، والزوايا الميّتة من المراقِب، وطبوغرافية المعسكر ومحيطه.

علاوة على ذلك، أهّلتني معرفتي بالعالم الأمني، وزياراتي الطويلة للمحارس، ولحرّاس الدولة (رجال الشرطة والدرك ونخبة العسكر) على نحوٍ خاصّ لكي أعدّ لعملية هروب. لم تتردّد أخواتي ولا أمّي على ممثّلي النظام، ولا اختلطن بالنظام البوليسي مثلي. أعرف تماماً القوانين والأنظمة وردود الفعل وعادات وطريقة عمل كلّ الأجهزة الأمنية. لو حدث، ونجحنا، إنشاء الله، في الهروب من هذا الجحيم، فسيعقب ذلك فرارٌ شاقّ ومطاردة لا هوادة فيها... سوف تلاحقنا حينذاك كلّ قوات المغرب. ومنذ ذلك الحين، ستغدو «معرفتي المسبقة» بردود فعل الأجهزة الأمنية، والتي اكتسبتها من خلال معاشرتي لوالدي والمحيطين به، معرفة نفيسة، لكونها الأفضل حتى لاستباق تحرِّكات الرهط الملكي الذي سيقتفي أثرنا.

في نهاية كانون الثاني (يناير) 1987، كان ما استعدناه من صحّتنا كافياً ليتيح لنا الانتقال إلى العمل. ومرّنّا أجسادنا على ذلك. استأنفتُ مسيراتي القسرية حول حشيّتي. في ظلمات زنزانتي، نضحتُ دماً وماءً لأستعيد لياقتي. فرضت كلّ زنزانة على نفسها إيقاعاً جامحاً، ونظاماً حديديّاً. تهيّأنا جسدياً بقدر ما تهيّأنا ذهنياً لعملية «الهروب الكبير»!

لم تمرّ دقيقة واحدة منذ استفقتُ من الغيبوبة دون أن أدقّق وأعيد التدقيق في المعطيات، وأحلّل كلّ الثوابت في سبيل «الهروب». لم أنشغل إلاّ بالخطط والحسابات. ولكن واحسرتاه، لم تكن جميع ظروف وضع مشروع كهذا موضع التنفيذ قد اجتمعت تماماً بعد. لم أعرف طبيعة الطبقة الأرضية ما وراء الرصّة التي يقع عليها المبنى. كذلك لم أكن أعرف أيّ شيء عن طبيعة أرضية الفناء، الذي كنّا نسمّيه «الحديقة». والحال أنّه من الضروري أن أعرف نوعية باطن الأرض، إلى العمق المناظر للمستوى الذي سيكون علينا حفره لنتمكّن من عبور الأساسات!

سيبتسم لنا الحظّ... ولكن بد أن نكون قد أنجزنا عملاً في

سبيله. امتلأت الحفرة العفنة التي كانت تنصبّ فيها مجارير زنازيننا بعد عقدٍ من استخدامها. فراودتني فكرة: ستكبّ جارتاي تراباً وحصى في المجارير، بكميات متجانسة، بغية غمر الحفرة بشكلٍ أسرع ودفع سجّانينا إلى فتحها وتنظيفها. وهذا سوف يتيح لي أن أعرف طبيعة باطن الأرض لعمقٍ يتجاوز ثلاثة أمتار. كما أنه سيكون على سجّانيّ أن يخرجوني من زنزانتي. وإن لم يتمّ ذلك، فسوف تنقل حليمة وعاشورا، اللتان لهما الحقّ في جولةٍ في الفناء أثناء فترة تقديم الطعام، ملاحظاتهما إليّ.

فاضت الحفرة النتنة سريعاً جدّاً. وأغرقت المياه زنازيننا. وعبثاً تشكّينا من الرائحة النتنة، ومن مخاطر الوباء، إذ لم يقرّر بورو التصرّف إلاّ بعد حوالي عشرة أيام. بعد أن لَفَتُّ نظره إلى أن يستعلم إن كنّا قد أصِبنا بوباء «الطاعون أو الكوليرا»، حيث قد يُصاب هو ورجاله بالمرض خلال جولاتهما التفتيشية الثلاث أسبوعياً! بالنسبة لبورو الأمّي، كان الخطر مؤكّداً ويتطلّب وقايةً وحرصاً. وإذ قلق فجأةً من وباءٍ محتَمل، تنشّط آمر المعسكر. وبدل تنظيف الحفرة، حفر واحدة أخرى، ودائماً في الفناء، بجوار القديمة. وقد وفّر بذلك وصلات المجارير، الأكثر قرباً من «حوض ماء المزابل» السابق، وجنّب رجاله التنظيف المقزِّز.

لإفراغ زنزانتي من المياه الآسنة التي اجتاحتها، أُخرجتُ لمرّتين من جُحري. بل وسمح لي الآمر بأن أتجوّل في الباحة. وفي كلّ واحدة من دوراتي مررتُ بجانب الحفرة الجديدة التي حُفِرَت، ولم تُملأ بعد بأكوام الحجارة التي ينبغي تدعيمها بها. حفظتُ بدقّة نوعية باطن الأرض ولونه وتركيب الطبقات الترابية الثلاث المختلفة التي تشكّله. كانت الطبقة الأولى زراعية سوداء لا تتجاوز سماكتها ثلاثين إلى أربعين سنتمتراً. والثانية طبقة من التراب الأحمر، أكثر صلابة بقليل، ولكن ليس لدرجة تعذّر حفرها. إذ حتى بدعمٍ منظّم، للفواصل المرصوصة جدّاً، قد تنهار مثل رمال الكثبان. أخيراً، وعلى عمق ثلاثة أمتار، في قاع الحفرة، بدت لي طبقة من الكلس الصلصالي سماكتها أكثر من متر. وإن شاء الله

بتجاوزنا للأساسات، سيكون علينا حفر الأخدود في هذه المادة المائلة للصفار، ولن نحتاج حتى إلى الحصائر الخشبية لإسناد قبّة السرداب!

إذا كان الاحتمال الوحيد للإفلات من هذا الحصن هو حفر نفق، فإنّ المحور الوحيد الممكن هو طرف الحقول المقابل للباحة. والمكان الأنسب للوصول إلى هناك هو زنزانة أخواتي، الواقعة في أفضل جهة لاستغلال الزوايا الميّتة للمَراقِب. كانت زنزانتهنّ مكوّنة من ثلاث حجرات صغيرة وفيها كوخٌ صغير حيث سيمكننا أن نخفي فيه جزءاً من تراب وحجارة النفق، حيث كانت أخواتي قد اكتشفن في سقف الحمّام فتحة تهوية قطرها حوالي خمسة عشر سنتمتراً. لا بدّ أنّها مدخنة لموقدٍ فحميّ قديم. وبمدّ اليد في تلك الفتحة، اكتشفن أنّها تفضي إلى نوعٍ من سقيفة، وهي في الواقع مخزن صغير للخمر، من بقايا الزمن الماضي حيث كان ذلك المأوى لا يزال يُسمّى «مزرعة بيير مادور»، نسبةً لاسم مالكها الفرنسي. كان هذا المكان بمساحته البالغة ثلاثة أو أربعة أمتار مربّعة، وارتفاعه البالغ متراً، والمسوّر، يوجد فوق الحمّام. وكان مناسباً تماماً لتجميع نواتج الحفر! بالتأكيد، لم يكن من الممكن إدخاله غير الساعد، وسيتطلّب الأمر الحرص، أثناء وضع التراب والحصى في هذا الكوخ، على عدم فرشها قريباً جدّاً من الفوهة، الأمر الذي قد يمنعنا من استثمار كامل سِعَة استيعابه. وللتغلّب على هذه العقبة، راودت ذهننا تقنية خاصّة: غربلة التراب المستخرَج من النفق وإضافة الماء إليه وجبله حتى الحصول على كرات طينية طريّة ولدنة. وبدسّ الذراع وقذف الكرات، سوف نرسلها إلى أبعد ما يمكن. وستتحطّم الكرات الطينية الرطبة بما فيها الكفاية على جدران الكوخ، ملتصقة به مثل الورق الممضوغ، في ارتطام صامتٍ بها. ومن ثمّ، بعد أن تتغطّى الجدران بما فيه الكفاية، سنقذف بالكرات الطينية المبلّلة إلى أبعد ما يمكن، لترسو على أرضية الكوخ. وبذلك سنحظى بفرصة استثمار الحيّز الكامل لهذا الملجأ الذي كشفته لنا العناية الإلهية.

ومع ذلك، طرحت مشكلة، ليست هيّنة. إذ سيكون عليّ أن أنتقل إلى زنزانة أخواتي. وللوصول إليها، لا بدّ من إعادة فتح ممرّ مثل ذلك الذي أُعدّ بين زنزانتي وزنزانة حليمة وعاشورا. فاتّصلتُ بالبنات عبر «الهاتف» وشرحتُ لهنّ الوضع. بعد أوّل حفرٍ، أبلغنني بأنّ الجدار الذي يفصلهنّ عن حليمة وعاشورا ليس جداراً حاجزاً فحسب، وإنّما حمّالاً! الأمر الذي سيكون كارثيّاً بالنسبة لبقية الأحداث. ولأتأكّد من ذلك، قررت بحلول الليل أن أفتح ممرّي وأذهب للتحقّق من ذلك في زنزانة جارتيّ. تركتُ متّسعاً معقولاً من الوقت يمرّ بين إطفاء النيران وفتح الممرّ U. ما إن أصبحتُ في الزنزانة المجاورة، هرعتُ نحو حفرة المجرور التي تفصلها عن زنزانة أخواتي. جثونا على الركب، وقد انسلخ جلد سواعدنا لكي نلمس أيادي بعضنا. وعلى ضوء اللهب المتراقص لسراجٍ زيتي، حاولنا أن نرى بعضنا بعضاً. تنافست أخواتي على الإمساك بيدي. شعرتُ على كفّي بقبلاتهنّ المبلّلة بالدموع. تهامسنا بكلماتِ المحبّة والتشجيع. تدافعت الكلمات وتلعثمنا في التعبير عن ألمنا وسط النحيب والشهقات والزفرات. طلبت مليكة أن أدسّ ذراعي الأخرى في الحفرة. ومع أنني حرصتُ على أن أمدّ لهنّ يدي السليمة، ألحّت أخواتي على أن أعرض عليهنّ جرح معصمي. كانت الضمادة المرتجلة متّسخة وضغطت، عند محاولة توسيعها، على ورمٍ كبيرٍ قذف ببقعةٍ بيضوية وقاتمة. سمعتُ من الطرف الآخر للجدار نحيب أخواتي المخنوق وغطّت دموعهنّ الحارقة يدي. وسرعان ما سمعتهنّ يتكلّمن:

- لا بدّ من تغيير ضمادته، يجب تنظيف الجرح...

سمعتُ همسات مقتضبة، ملاطفة، وحركة مستمرة صامتة. ثمّ انحنت مليكة على الطرف الآخر من الحفرة:

- رؤوف، حبيبي، تمدّد براحة على بطنك، ودع يدك في طرفنا، واسترخِ. سنحاول أن ننظّف لك جرحك. إن تألّمت، انقر على الحائط.

سعل حارسٌ. تجمّدنا. بدا أدنى صوتٍ ناتجٍ عن حرّاسنا الشرسين

الجاثمين على مَرَاقِبِهم يدخل، مضخّماً، إلى زنازيننا. انهمكت أخواتي لربع ساعة حول معصمي التالف. لم يكن الجرح قد التأم تماماً، ولكنّ الضمادة الجديدة، النظيفة، أنعشتني، سيما وأنّها وُضِعَت بكثيرٍ من الحُبّ.

والآن علينا الانتقال إلى الأمور الجدّية. لا بدّ من فتح ممرّ بين زنزانة البنات وزنزانة حليمة وعاشورا. قمنا، أخواتي من جهتهنّ، ورفيقتانا في الشقاء وأنا من جهتنا، بفحص قاعدة الجدار الذي يفصلنا. حاولنا فتح العديد من الثغرات الضيّقة التي سددناها وأخفيناها في الحال. لم يبدُ أيٌّ منها مقنعاً. كانت أساسات الجدار الحمّال عميقة جدّاً. . . تملّكنا اليأس. في الساعة الثانية فجراً، جرّبتُ آخر ثقبٍ واكتشفتُ باباً صغيراً مسدوداً. لم يكن هناك أساسٌ تحته. الممرّ ممكن! لا شكّ أنّ هذه الفتحة كانت توصل ما كان فيما مضى مطبخاً مع قاعة الطعام خاصته. أثملتنا الفرحة. عملنا بصمت وهيجان حتى الساعة الرابعة. ولكنّ الممرّ لم يُنجَز. وسيكون علينا أن نعيد العملية ذاتها في الليلة التالية. افترقنا متحمّسين لأننا وجدنا مخرجاً مناسباً جعلنا نذلّل عقبة كانت، للوهلة الأولى، تبدو لا يمكن تجاوزها. وعدنا إلى جحورنا. وأغلق كلٌّ منّا بدقّة الممرّ من جهته. استلقيتُ، منهكاً، على حشيّتي، دون أن أتمكّن من النوم. فتحدّثتُ مع إيما، وموسى، ومع كلّ رفاقي في المصيبة الذين رسمتهم الرطوبة والكآبة على جدران زنزانتي.

- تعلمين يا إيما، لقد نجح الأمر! ويبدو أنّه سيسير على نحوٍ جيّد. إن نجحنا في إعداد ممرّ مثل الذي فتحناه بين زنزانتي وزنزانة حليمة وعاشورا، فستكون لدينا المزيد من الأيدي لحفر النفق في زنزانة أخواتي! يا موسى، أيّها الشيخ الحكيم، هذه لحظة التضامن بالنسبة لنا!

تدافعت الخطط والحسابات في رأسي. وإذا كان عقلي قد تشبّع بتصورات متفائلة، فإنني مع ذلك لم أستطع أن أنقذه للحظاتٍ وجيزةٍ من شكٍّ أو من قلاقل وهمية. إلاّ أنّ حدسي الدائم ظلّ إيجابياً. حينما ينوي

المرء الشروع بأمورٍ عظيمة لا بدّ أن يجيد القضاء على أدنى تردّدٍ في داخله. غطستُ وسط أفكاري التي تعاقب فيها الحلم والواقع، بل وأحياناً تطابقا، وتفوقا على ذاتهما سعياً لأن أبتدع لنفسي مستقبلاً.

نحو الساعة التاسعة، غفوت. رفض جسمي، بلا تحذير، أن يمنح أيّة طاقة لدماغي. في الساعة الثانية من بعد الظهر، أيقظتني أفكاري التي تسلّطت عليّ حتى في أحلامي...

قضمتُ قطعة خبزٍ حرصتُ على إخفائها في أسمالي. سقيتُ «الوليمة» بنقطةٍ من الزيت والكثير من الماء. ولكن الجوع خبيثٌ يسهل خداعه. ثمّ سحبتُ حشيّتي إلى وسط زنزانتي وذرعتُ الحلقة السحرية حيث هدَتني خطواتي القسرية إلى تركيزٍ عالٍ، بحيث أصبحت ضرورية بالنسبة لي للتفكير والتأمّل. درتُ دائرياً في إيقاعٍ منتظم. لم تعد خلايا جهازي العصبي تسبح سوى في المعادلة المعقّدة، التي باتت حيويّة لنا، والتي بقيت مجاهلها عديدة. لا شكّ أنّ مشروع النفق هذا مشروعٌ جريء ولم تجتمع تماماً كلّ الشروط لنسبة مئوية معقولة لنجاحه، ولكنّ زجّ أفكاري وطاقتي فيه أمدّني باغتباطٍ ناجع. لفرط ما أنهكتنا المحنة، ولفرط ما كان مصيرنا مضنياً، كانت مجرّد فكرة أننا سنتمكّن من الفرار تنعشنا وتثيرنا وتحيينا. كان الشروع حتّى في المستحيل، بالنسبة لنا، تحرّراً معنوياً. لا يهمّ كثيراً، إن بلغنا هدفنا أم لا، حسبنا أن نخرج من هذا الجمود ومن السلبية التي تجعل عقابنا أكثر فظاعةً وهولاً.

مأخوذاً بتأملاتي ونظرياتي، واصلتُ الدوران حول حشيّتي. جعلني إيقاع مداراتي وشدّة تركيزي أرتعد انفعالاً. لم أعد أحسّ بالألم ولا الجوع ولا البرد ولا التعب. لم يعد هناك لا معصمي المتورّم ولا خراّجي المنتفخ الذي يدقّ في فمي مثل قلبٍ ولا الالتهاب الصدري، ولا نوبات الحمّى المتواصلة، ولا الإسهالات!

في الليلة التالية عاودنا العملية ذاتها، حريصين على ترك هامشٍ

للأمان بين إخماد النيران وفتح الممرّ الذي يربطني بزنزانة جارتيّ. ولأنّنا في مساء يوم الجمعة، بوسعنا أن نعمل تحت ضغطٍ أخفّ بعض الشيء، لكون آمر المعسكر يتغيّب كلّ نهاية أسبوع. إذ يمضي بورو منذ سنوات عطلة نهاية الأسبوع مع زوجته وأولاده. وتحت تصرّفه خمس سيارات مختلفة، جميعها عادية لا شيء يميّزها، ينتقل بها لأنّ الرباط لا تريد أن تُلفت حركة ذهابه وإيابه الانتباه.

حول مسألة تنفيذ مشروعي للفرار، نجحتُ في تمرير رسالة قصيرة إلى محسننا. واصل ذلك المساعد الذي خاض حرب الرمال المخاطرة بحياته لكي يلقي إلينا ببعض الأقلام ما دام لم يعد يحتاج أنّ يزوّدنا بالبطاريات. في الرسالة المقتضبة المرسَلة إليه، طلبتُ منه أن يشير لنا برمزٍ إلى أوقات غياب بورو. إذا كان الآمر موجوداً ولم يذهب للمشاركة في مائدة الضباط الوحيدة في اليوم، سيضع المساعد قبّعته تحت كتفيته. وإذا كان بورو غائباً، سيعتمر «رجلنا الشهم» قلنسوة صوفيّة. بدون حضور الآمر، لا يمكن لأيّ دخولٍ إلى «مربّع الضيوف» أن يتمّ، إلاّ من أجل «تقديم» الوجبة اليومية. ولأنّ الضباط المناوبين لا يشتبهون في محاولتنا للفرار أثناء غياب بورو، كنّا مطمئنين وهادئين أكثر.

معزّزين بالإجراءات الأمنية الهائلة التي لا يمكن تخيّلها المحيطة بمعسكر بير-جديد، ومخدّرين بروتين وضع استمرّ منذ ما يقارب خمسة عشر عاماً، ومطمئنين بحملاتهم التفتيشية الثلاث أسبوعياً، استقرّ حرّاسنا على عاداتهم. أفرطوا في الثقة بأنفسهم، وكانت تلك نقطة ضعفهم.

في مساء يوم الجمعة ذاك، انتقلنا إلى التنفيذ وفتحنا الممرّ. انتزعتُ بحذرٍ وانتباه كلّ بلاطةٍ من البلاطات المقروضة من حوافها لتتراكب الواحدة منها على جانب الأخرى دون مقاومة. رتّبتها حول الحفرة، بحيث يمكنني أن أعيدها إلى مكانها بأدقّ ما يمكن وأسرع ما يمكن. ما إن رُفِعَت المربّعات، ظهر السطح تتموضع عليه طبقة من التراب الصلصالي سماكتها حوالي عشرة سنتمترات تسندها الحجارة التي تردم

الحفرة. وهذه الأحجار ضرورية لحل مشكلة الصدى؛ وضعتُ بينها وبين الطبقة الترابية قطعة من الكرتون منعاً لأيّ تسرّب. بعد أن أُضيف التراب، الذي تمّ جمعه من الباحة، بمعرفة وإتقان إلى كميّة محدّدة بدقّة من الماء تماسك وبات له قوام العجين المطواع الذي يمكن صنع قوالب منه. ولتأمين صلابة قصوى لها، كان يجب الإقلال من السائل المضاف إليها. كانت تلك المادة تمتاز بأنها كانت تتجمّد سريعاً بإضافة الحصى إليها. وحينما وجب عليّ إعادة إغلاق الممر، ردمته بأربعة أحجار بحجم كرة القدم، ثمّ ملأت بالتراب المبلل السنتمترات الخمسة عشر المتبقيّة بين الأحجار والسطح. ومن ثمّ، وقبل إعادة وضع البلاطات، مرّرت جارتاي بعض الجمرات المتّقدة على الموقد الذي تستخدمانه للطبخ. وبذلك سخّنتُ السطح الطيني ليجفّ على نحوٍ أسرع، ويحتمل تماماً البلاطات، ويلتصق بها بإحكام. بعد ساعةٍ من الوقت، استطعتُ أن أسير بكلّ ثقلي فوق البلاط، دون أن تهزّ أيّة بلاطة منها.

كانت العقبة هي أنّ هذه الطينة بعد جفافها كانت تكتسي لوناً كاشفاً. إذا ما اقتلع سجّانونا لسوء الحظ بلاطة سيفشي اللون المصفرّ للدعامة سرّ حفرنا. وقبل «شوي» الطين، ذررتُ عليه بغزارة رماداً مغربلاً. وحينما جفّ، بدا وكأنّه إسمنتٌ حقيقي! واستخدمتُ الخلطة ذاتها لإخفاء الفواصل بين البلاط.

على الضوء المتراقص لسراجنا، عملنا كالنمل. أخواتي من جهتهنّ، ورفيقتانا في الشقاء وأنا من جهتنا، فتحنا ممرّاً من تحت الباب المسدود الذي اكتشفناه في تلك الليلة...

عملنا بالطريقة نفسها التي قمنا بها من أجل المضيق ذي الشكل U الذي يربط زنزانتي بزنزانة حليمة وعاشورا. حفرنا بالملعقة، والأيادي المجرّدة تقريباً، بأدوات معدنية بسيطة جدّاً. وبصمت. حينما تلامست يداي وأيادي أخواتي، كان تأثرنا كبيراً لدرجة أننا بقينا للحظات، منبطحين، تسري النفحة في أصابعنا المضمومة، المرتعشة. كانت الفجوة

التي أحدثناها كافية تماماً لتتمكّن أيادينا من التشابك. منبطحين، ووجهنا على الأرض، وأيدينا ممدودة تحت الحاجز الفاصل بيننا، تمددّنا لكي تتلامس أصابعنا. فاضطربت قلوبنا تأثّراً. مضغوطين بالصمت المطلق ومتوتّرين بالانفعال الشديد الذي فرضت علينا الظروف أن نتمالكه، بقينا ساكنين. . . انساب من الفتحة تيارٌ هوائيٌّ رطبٌ مثل رذاذ البحر. كانت آثاره ثقيلة ومتعفّنة، ورائحته عذبة ولاذعة في آن واحد، مع ذلك كانت مداعبته لوجهي لذيذة كمداعبة امرأة. مغمَض العينين، تنسّمتُ الرائحة الغامضة التي تبعثها الأرض حينما تُشقّ. استنشقتُ نفحة الهواء تلك، المحمّلة برائحة نباتية أثملتني إلى درجة أنني اضطربت. توقّف بي الزمن. لم أعد أشعر بوجود أيّ شيء من حولي. وانغمستُ في أحاسيسي. استنشقتُ تلك النسمة المحمّلة بروائح طبيعية باتت، بالنسب لي، مرادفة للخلاص. باستنشاق فوح تلك الحفرة، شعرتُ بنفسي وكأنني في غرفة انتظار الحرية! تشبّع منخاراي بها مثلما يفعل خطم كلبٍ مع أثرٍ حديثٍ. واضعاً يدي بيد أخواتي، أفرغتُ للحظات ذهني. . . وتلذّذت بثمرة الكثير من الجهود والآمال! هربت تلك اللحظة من الزمن، وأفلتت من الكلمات، تحرّرت من الوصف، عدا عن ذلك الذي استطعتُ أن أجريه بصورٍ عبرت، فجأةً، ذهني. لماذا راودتني؟ لن أعرف الجواب على ذلك. ولكنّها انبعثت عن الماضي، حيّة بما يكفي لأن تسرقني للحظة من الواقع.

مغمض الأجفان، تنقّلتُ بين مشاهد غابرة. تدفّقت الذكريات وتدافعت، لتنطبع في فوضى: كنت على الشاطئ، عند الأمير مولاي عبد الله؛ رأيتُ من جديد الأميرة للاّ نزهة متمدّدة على منشفة حمامها وهي تخاطبني:

- سأقدّم لك ستيف ماكوين، وهكذا لن تعود تضجرنا بـ«الهروب الكبير» خاصتك!

سمعت أيضاً صوت ستيف مبتهجاً بارتدادات لقائنا:

- You're my friend kid1 you're my friend

فكرت من جديد في العطلة في ماربيا، بالدعوة إلى الولايات المتحدة وبتصوير فيلم The Mans، التي لم أستطع تلبيتها لأنني كنت مريضاً.

صورت مقتطفات من تلك الحياة البعيدة جداً عني من الآن فصاعداً، والغريبة جداً عما أصبحت عليه.

لم أستطع منع نفسي من أن أبتسم. وأن أقول إنه منذ ثلاثة عشر عاماً، فيما كنت أشاهد وأعيد مشاهدة فيلم **الهروب الكبير**، كنت بعيداً جداً uk أن أتخيل يوماً ما، لا أن يتجاوز الواقع الخيال فحسب، بل وإن المراهق المدلل لتلك الفترة سيخلي مكانه لسجينٍ محنكٍ، قادرٍ على أن يصبح مبتكر وممثل «هروبٍ كبيرٍ» حقيقي!

الابتسامة التي رسمتها شفتاي لم تكن مريرة في شيء : على العكس من ذلك كانت صادقة بقدر الإباء الذي أظهرته بقطعي كل هذه الطريق وبتجاوزي للكثير من المحن والعيش فيها.

متمدّداً على حافة الفجوة ورأسي في الحفرة عمودياً، شغلتني تلك اللحظة الشاردة إلى حد أنستني الحاضر. ولكن سرعان ما استعادت الظروف تفوقها، واستأنفنا العمل.

حينما أُنجز المضيق ذو الشكل U دشّنته. اندسست في الممرّ .

كانت أخواتي يسحبنني من الجانب الآخر للجدار من قدميّ. وسنصبح كعنقود ونحن نتعانق ونتعاضد دون أن نتفوه بكلمة، للحظات مديدة. ولكن الضغط الذي أخضعتنا له تلك الاستعدادات للهروب تقدم على حدّة لقائنا.

أسقطت الإضاءة الشاحبة لمصابيحنا الخافتة على الجدران أطيافنا الناحلة المرعبة وكأنها عرضٌ لأخيلة الظلّ تصوّر، في زمن القحط، فلاحين ناحلين، تحت نير العبودية، مندسين فيما وراء ستارٍ مرفرفٍ بين الواقع والمتخيّل. تراقصت انعكاسات أشباحنا الغامضة على تلك الجدران

المتسخة. حركّت نحافتنا الحواشي الشاذة والكريهة لأسمالنا. تراقصت الشرارات الخافتة لمصابيحنا الرومانية مسقطة الصور المشوهة الثاقبة لأجسامنا الضامرة والشاحبة على سطح المساحات المتعفنة للزنزانة.

بتفرسنا في ذلك المظهر السريالي، عكسنا صورتنا الخاصة على بعضنا البعض: هذه المرآة القاسية تعكس لنا المشهد المحزن لعوزنا. تغطت وجوهنا التي كانت إلى الأمس القريب نضرة بقناع الألم الذي لا عمر له. تحت وطأة هذا الامتحان القاسي، أعادت الآلام العذابات تشكيل سيماء شبابنا، مستبدلة إياها بوجوهٍ قاسية، نضجت قبل أوانها.

زادت سحنتنا، الباهتة المعتلة، من الهالات المزرقة المائلة إلى السواد من حول أعيننا لفرط الآلام والحرمان.

لحسن حظنا أن الهدف الذي حدّدناه لأنفسنا هو حاضر لتهدئة أذهاننا وتغيير اتجاهها. بث المشروع الذي بدأنا به حماسة جديدة. منسيين من الجميع، في أسمال بالية، جعلتنا مجرد فكرة هروبٍ محبين للقتال أكثر من أيٍّ وقتٍ مضى.

وخدر أملنا المنتعش الصدع النازف أبداً في داخلنا.

وإذ تجاوزت الانفعال المكظوم لمعانقاتنا، ركعت أمام حفرة المجرور التي تفصل شرفة والدتي عن شرفة أخواتي

حاولت كيفما اتفق أن أقرب قدر المستطاع القنديل الزيتي لكي تتمكن والدتي وعبد اللطيف في الجانب الآخر من الجدار، ومن خلال حفرة المجرور من أن يريا وجهي. جهدتُ لئلاّ أدع اليأس يغمرني.

كان وضعنا مؤلماً جداً، مُغضِباً لدرجة أنني مثل معذبٍ يُنكَّل به، اضطررت لأن أكزّ على فكيّ لئلاّ أصرخ.

لحظات الضعف تلك شبيهة، في قسوتها، بلحظات صفاء المعتوهين. وفي لحظات الهاوية تلك، كان عليّ أن أستعيد قوى تفوق قدرة البشر لكي أبقى على السطح. الفرصة الأكبر التي توفّرنا عليها، هي ما أبداه كلٌّ منّا من الشجاعة والجَلَد والتفاني للحفاظ على الآخرين.

سألنا بعضنا بعضاً بتلهّف عن صحّتنا. مررنا سريعاً على الجروح والآثار التي كلّفتنا مواجهتنا الأخيرة مع الديوان الملكي، والمنفِّذين الوفيّين لإرادته، الجنرال مولاي حفيظ والعقيد بن عايش. وعدنا بسرعةٍ إلى الموضوع الذي شغل فكرنا وشرحتُ بدقّة خطّة العمليات. اتّفقنا جميعاً على الذهاب حتى النهاية في عملية «الهروب الكبير»، معاهدين على أن نكرّس لذلك ما تبقّى لدينا من عزم وخيال وطاقة. عزمنا على أن نزجّ في هذا المشروع المغامر كل ما نملك من قدرة، وأن نفرغ فيه كلّ وسائلنا الجسدية والمادية الشحيحة. أيّاً كانت احتمالات الفشل أو النجاح، ستكون العملية بطريقةٍ أو بأخرى تحرّراً. أقوياء بهذه القناعة، شعرنا بأنّنا لا نُقهَر مثلنا كمثل الذين لا شيء لديهم ليخسروه، ولا حتى حياتهم! حرّضتنا القدرة على أن نتصرّف أخيراً. هدفنا بعد الآن هو الذهاب أبعد ما يمكن في محاولتنا، والموت في العملية، إن قُبِضَ علينا.

تركتُ على مضض أمّي وأخي الصغير، لكي أنكبّ مع أخواتي على إنجاز الممرّ.

حينما أنهينا العمل، أتقنّا فتحه وإغلاقه. أخفينا فائض التراب والحصى عبر مجرى المخزن القديم للخمر، ثمّ تفرّقنا. اختفيتُ، وكأنّ الأرض قد ابتلعتني، لأخرج إلى زنزانة حليمة وعاشورا. ومن هناك غطستُ ثانية كدودة الأرض في الممرّ الثاني لأخرج أخيراً وأنبثقُ كشبحٍ على سطح الأرضية المبلّطة لزنزانتي.

نحو الساعة الرابعة والنصف صباحاً، أُغلِقَت جميع الحُفَر تماماً. وأصبح كلّ شيء جاهزاً في الزنازين. مسحوقين تعباً، ومنتعشين بمشروعنا، والرؤوس مليئة بالأحلام، استرحنا استراحةً مستحقّة تماماً. الآن انطلقت الآلة. وبما أنّ المقدّمات بدت أنّها تسير سيراً حسناً، لم يعد هناك سوى ضربة قدر بوسعها أن تمنعنا من مواصلة الرهان الجريء الذي انخرطنا فيه. بقي أن نستعدّ لتضحيات جِسام، وأن نتحمّل ضغطاً لا مثيل له، وأن نعاني عملاً ضاغطاً، ونتوكّل على الله!

ولكن علينا أيضاً أن نحلّ بعض المشاكل الأساسية قبل انطلاق ضربة بداية النفق. لا بدّ أن نجد وسيلة لربط زنزانة أمّي مع زنزانة أخواتي. وإلاّ كيف سنتمكّن من تمرير تراب وحجارة النفق من زنزانة إلى أخرى لتجميعها في العِلّية المسوّرة لزنزانتها؟

الآن وقد أصبحت الممرّات سالكة بين زنزانة أخواتي وزنزانة حليمة وعاشورا وزنزانتي، يجدر بنا أن نتوصّل إلى فتح قناة اتّصال بين زنزانة أمّي وزنازين البنات. والمشكلة هي أنّ الجدار الفاصل بينهنّ جدارٌ حمّال! وبدا أنّ حفر معبرٍ على شكل U، مثلما فعلنا لمرّتين، أمرٌ مستحيل: سنضطرّ لأن نحفر عميقاً. وسوف تكون عليّة حُجرة أمّي والمخزن الصغير للخمر في حجرة أخواتي كافيين لتخزين نواتج حفر النفق. و«كمهندسٍ» للمشروع لم أشأ المجازفة بملء أيّ متر مكعب من هذين المخبأين بترابٍ غير تراب الحفر الذي سيقودنا إلى الحرّية!

فقررنا أن نحاول نزع لَبِنة من أساس الجدار. لم أجازف بفتح ممرّ للذهاب إلى مساعدتهم. البنات من طرف، وفاطمة وعبد اللطيف من طرف آخر، عملوا ليلاً ونهاراً، بصمتٍ وبالمناوبة. لقد أبلوا بلاءً حسناً. خلال بضعة أيام، تغلّبوا على حجر الزاوية اللعين ذاك. إلاّ أنّهم لاقوا عائقاً غير متوقّع. إذ كانت أنابيب قديمة تمرّ من قاعدة اللَبِنة. وقد ضيّقت شبكة الأنابيب غير المستخدَمة تلك قطر الثقب بحوالي الخُمس. كانت تلك السنتمترات القليلة حاسمة لتتيح لأخي الصغير أن ينسلّ منه. كما كان مهمّاً لنا إزالة الأنبوب بغية أن تتيح هذه الفتحة تمرير أكبر حجم من الحجارة التي يمكن استخراجها من النفق!

بحثتُ في ذلك «الحادث السيّئ» مباشرةً. ليس هناك سوى حلّين: إمّا طرق ذلك الأنبوب القديم وطمره في الأرض، وإمّا أن ننجح في بتره وهو سيكون الحلّ الأمثل. إذ إنّه من المستبعد إحداث أيّ ضجيجٍ مثيرٍ للشبهة. ولاسيما بعد إطفاء المولّدة الكهربائية... حتّى ولو غلّفنا الأنابيب بخرقٍ سميكة، فلن نتمكّن من منع الارتجاجات من أن تكشف

أمرنا. بالإضافة إلى ذلك، ليس لدينا لا مبرد ولا منشار. وأين سنجد أداةً مناسبة؟

لحسن الحظ، كان ذلك الأنبوب، المسدود منذ أمدٍ طويل، قد تآكله الصدأ كثيراً. ومثل سيجارٍ قديمٍ بال، بغلافٍ متعفّنٍ متقصّفٍ، بدا الأنبوب الجافّ أكثر هشاشةً.

في كلّ الزنازين، بحث كلٌّ بهيجان عن الوسيلة الكفيلة بالتغلّب على هذه العقبة. أزحتُ بلاطتي. وأخرجتُ من مخبأي مجموعة خلاصي. هل يمكن أن أجد في «مزبلتي» الصغيرة الأداة المطلوبة؟ بالنبش في مقتنياتي الخليطة، عثرتُ على قطعةٍ من كَابل رفيع ولكنّه متين. كان عبارة عن شريط من كابح دراجة احتفظتُ به مذ كنّا في تاماتاغت. أرسلته مباشرةً إلى أخواتي. نجح عبد اللطيف في أن يحزّ حزّاً عميقاً في الأنبوب. البنات من طرف، وأخي وأمّي من طرفٍ آخر، أمسكوا بطرفي الكابل. وبوضع الشريط في الحزّة، وتمريره ذهاباً وإياباً، استخدموه كمنشار. وفق حركة سريعة وإيقاعٍ متواصل. ولمنع الحرارة والاحتكاك من تمزيق الكابل، دُهِن بقليلٍ من الشمع وبُرِّد باستمرار بصبّ الماء عليه. وخلال أكثر من أربع وعشرين ساعة بقليل، بُتِرَ الأنبوب. وستفيدنا قطعة الأنبوب المنخورة التي بترناها كأداةٍ في أعمالنا المقبلة...

نتيجة لذلك، انزلقت اللَبِنة بسهولة إلى مكانها مثل دِرج. عمدنا إلى سدّ الفراغ الذي أحدثه الأنبوب بالطين الصلصالي. وبذلك أزلنا تخلخل اللبنة ما إن أُعيدَت إلى مكانها وموّهت بإتقان. الحاجة أمّ الاختراع. مع مرور فترة سجننا، طوّرنا مجموعة حيَل لنصمد في ظلّ وضعنا. انتهينا إلى ضبط تقنيات معَدّة بما فيه الكفاية، وفعّالة لتمويه أعمالنا. ما إن أُعيدت اللَبِنة إلى مكانها وسُدّت فواصلها، أعدنا تشكيل الطبقة الأخيرة من جصّ الجدار. ودائماً باستخدام التُّراب المغربَل بدقّة والمبلّل بمهارة، حصلنا على صلصالٍ ليّنٍ مثل الصمغ. استخدمنا أيدينا لمسح وردم وتسوية الفجوة الحاصلة. ومن أجل الأعمال النهائية، استعنّا بقطعة كرتون

مخصّصة لسحج سطح الجدار. بقي أن تُرمّم الطبقة الرقيقة من الجصّ والطلاء الذي يغطّيه. من على الجدران الجرداء للسجن، جنينا قشارة الطبقة الرقيقة من الجصّ المغطّى بالطلاء الباهت. كشطنا، بمساعدة أدواتنا البدائية، المكان الذي سبق أن فعلت الرطوبة وكذلك الحبس فعلها فيه ثمّ جنينا ريعاً ثميناً من النشارة التي هرسناها وغربلناها بقطعةٍ من نسيج ناموسيّة. ومن ثمّ أضفنا إلى هذا الذرور الدقيق بعضاً من مسحوق التايد والطحين لجعله ليّناً. بمساعدة هذا الخليط، حقّقنا تماسك الصلصال. ومن ثمّ جفّف العمل بواسطة بعض الجمرات المتّقدة وبالوسائل المتاحة. وكان التمويه تامّاً لدرجة أنّه كان يضلّل أكثر قصّاصي الأثر نباهةً. وقد قمنا بالطريقة نفسها بالضبط بتمويه اللَّبِنة التي تفتح وتسدّ طاقة العليّة.

كان أخي الصغير ناحلاً جدّاً، وهزيل البنية جدّاً، بحيث أتاح له جسمه أن يندسّ في الحيز الوحيد لحجر الزاوية المرفوع من الجدار. إنّه حظٌّ سعيد أن يتمكّن عبد اللطيف من أن يلتفّ على نفسه في جحر فئران. ومن هنا، أصبح قطعةً رئيسة من العُدّة. معتلياً كتفيّ أمّي، بإمكانه الدخول إلى العليّة. والآن، نجح أيضاً في الانتقال من زنزانة أمّي إلى زنزانة أخواتي. وبإمكانه الانضمام إلينا لحفر النفق. أمّا أمّي، فسوف تبقى في زنزانتها: مهما بلغت نحافتها، لا يمكنها بقوامها كإنسانة بالغة أن تلج وتخرج من فتحة بهذا الضيق. كان على عبد اللطيف، أثناء العبور من الفتحة، أن يبقى مرتدياً السليب فقط. حينما كانت أخواتي يسحبنه نحوهنّ، كان المسكين ينخدش في خاصرتيه وكتفيه. غالباً ما كان يكزّ على أسنانه، ويئنّ أنيناً مخنوقاً. كانت كلّ عملية مرور من تلك العمليات تتحوّل إلى «ولادة»! دون عبد اللطيف، كان الهروب سيكون مشكوكاً فيه، إذ لم يكن بوسعِ أيٍّ منّا الولوج إلى العليّة ليُلقي تراب وحجارة النفق ويرتّبها فيها. المغزى: غالباً ما تكون أكبر المشاريع وأكثرها جرأةً رهنَ «أصغر» المشاركين فيها... بالتأكيد كان عبد اللطيف الأصغر سنّاً، ولكنّ

مساهمته غدت ضرورية لنجاح كلّ شيء! هذا يدلّ على أيّ درجة كانت محاولتنا تحدّياً مشتركاً. من مخطّطِه إلى بنّائِه، كان المشروع الذي باشرنا به، الرهان الجنونيّ الذي بدأناه، عملاً مشتركاً معزوّاً إلى صلابة وعناد كلٍّ منّا.

كادت الأعمال التمهيدية لتنفيذ نفقٍ أن تنتهي. فقد تغلّبنا على أغلب العقبات التي صادفناها خلال هذه المرحلة الأولى الضرورية والحسّاسة.

الآن وقد أصبحت المعابر بين زنازيننا جاهزة، وقد أُعدّ مخزن الخمر والعليّة لتلقّي حصّتهما من التراب والحصى، بتنا في مرحلة إطلاق ضربة البداية في الحفر الكبير. ولكن بقي أن نستكمل استعداداتنا الحربية. . .

ولأنّه ليست هناك حملات ظافرة دون تأمين مستلزمات فعّالة، خزّننا منذ أسابيع وأخفينا في زنازيننا كلّ ما سيكون ضرورياً لهروبنا. بصبرٍ بالغ وعنادٍ لا يلين، أتممنا ترسانتنا. ارتفعت احتياطاتنا إلى ثمانية لترات من الزيت، وخمسة كيلوغرامات من الطحين، وأوتاد خشبية طويلة ومتينة بما يكفي لدعم النفق، وعلبة كافية من الفتائل لقناديلنا، وشموع، ودزينة من علب السردين الفارغة. والتي ستُستَخدَم كمصابيح لإنارة السرداب الخفيّ، وأيضاً كملاعق للحفر. كما اقتنصنا أصغر قطعة نسيج وقعت تحت أيدينا. ولكننا كنّا بعيدين عن تلبية حاجات طموحاتنا: فقد كان أمراً حيوياً أن نتمكّن من اقتناء المزيد من الأقمشة. . . تداولنا في الأمر عبر «الهاتف». وقلنا لأنفسنا إنّه سيكون من الحماقة المفرطة أن نتردد في طريقٍ كهذا لنقصٍ في القماش!

وإذ أعملنا عقولنا، دبّرنا حيلة للحصول على بعض الأغطية والألبسة الإضافية. وجدت أمّي الكلمات المناسبة لإقناع آمر المعسكر وزمرته. اشتكت من أن ترتدي امرأة وشابّات ألبسة مستهلكة كثيراً بحيث باتت شفّافة في أمكنة بالية جدّاً منها. شرحت لهم:

- قد يقتلنا الملك ولكنّه لن يتسامح أبداً في أن تُلقى نظراتٌ غير لائقة على بناتي وعليّ. يمكن أن يُلقى اللوم عليك، إن جاء أحدٌ من

القصر، وشاهد هذا الإهمال الذي يحمل الإثم، بل وقد تُتّهم بتعمّد ذلك. . .

أصابت هذه الكلمات هدفها. نقل بورو إلى الرباط شكوانا بعد أن صاغها بطريقة تحظى بفرصة أن تُقبَل من قبل العقيد بن عايش.

بعد انتظارٍ قسريٍّ طويل، تلقّى كلٌّ واحدٍ منّا بطّانية عسكرية، ولباساً. وحصل بورو على الموافقة على أن يُخرِج بعض الألبسة العتيقة من حقائبنا المصادرة والمخزّنة في مستودعٍ للمزرعة. علاوة على ذلك، نلنا الحقّ في اقتناء الإبر والخيطان بغية رتق ألبستنا الداخلية!

ابتهجت. لقد توفّرنا أخيراً على الوسائل التي تتيح لنا تسوية المشكلة الرئيسية للصدى! حتى هذه المرحلة، كانت المسألة التي تشغل بالي هي الطريقة التي سوف يمكننا بها أن نردم البئر العمودي البالغ نحو ثلاثة أمتار عمقاً، في كلّ مرّة ينبغي علينا إعادة إغلاقه؟ ولكن سيصبح من الممكن صنع الأكياس الكتانية من بطانياتنا القديمة والقماش الذي تلقّيناه. وسيُغربَل التراب المستخرَج بغية منع الحجارة القاطعة من شقّ الخُرج؛ ومن ثمّ سنملأ هذه الأكياس أوّلاً بأوّل خلال الحفر برملٍ مصفّى. وهكذا سنردم البئر العمودي، عند كلّ إغلاق، من قاعه إلى سطحه، بتكديس الأكياس المليئة بالتراب فوق بعضها. وسنكسب الوقت والصمت كلّما سنفتح المجرى أو نسدّه.

قضت أمّي وحليمة نهاراتهما ولياليهما في الخياطة. أعدّتا أكياساً بقياساتٍ مختلفة حسب المساحات النسيجية المتوفّرة التي تصنعانها منها. فضلاً عن ذلك، ولأننا نملك الآن ألبسة جديدة بعض الشيء، هدأ بالنا من مسألة أخرى شغلتنا: فبفضل هذه الألبسة، لن نلفت انتباه الناس كثيراً في الشارع بعد أن نهرب من السجن. . . هذا إذا نجحنا في ذلك!

وإذ فُحِصَت التفصيلات الأخيرة للتحضيرات بدقّة، استرحنا قليلاً. واستفدتُ من ذلك لأراجع وأتحقّق للمرّة الألف من خططي وحساباتي. وإذا كانت الأمور تسير إجمالاً سيراً حسناً حتى الآن، فإنّ مشكلة

الحصائر الخشبية لدعم محتَمَلٍ للنفق ظلّت مطروحة. وكانت تلك عقبة كبيرة في طريق استمرارية المشروع. تمنّيتُ أن يكون عمق الحفرة الذي سيفرضه علينا تجاوز الأساسات مناسباً لطبقة التراب الأصفر. وحدها تلك الطبقة الكلسية الصلصالية، التي أراها على عمق ثلاثة أمتار، ستتيح لنا حفر سردابٍ دون اللجوء إلى خشب التدعيم. كانت حسابات تخمّن بنسبة 80% بأنّ تلك ستكون الحالة؛ ولكن تبقى نسبة 20% من الشكّ نسبة كبيرة! ولذلك، أضجرتني مسألة الخشب. سوف أكون أكثر اطمئناناً بضمان هذه الوسيلة للنجاح، بدل الاعتماد على الحظّ. لسوء الحظّ، كان الحلّ خارج متناول إلهامي. كان الخشب الذي يدخل إلى «مربّع الضيوف» غير قابل للاستثمار في سبيل تمكين نفق. إذ كان سجّانونا يقدّمون لنا أسبوعياً منقلتَين من الخشب، تُفرغان على مسافة ثلاث خطوات أمام باب زنزانة حليمة وعاشورا. كان على المسكينتين، وقد تشقّقت أصابعهما بجروحٍ أُسيئت معالجتها، أن ترفعا الحمولة بأياديهم المجرّدة، إلى زنزانتهما. ومن ثمّ تكدّسانه حول الموقد المرتَجَل مباشرةً على أرضية الشرفة المسوّرة على امتداد حجرتهما. ولكنّ أوامر بورو كانت صارمة: الخشب المسلّم يجب أن يُقطّع، حتى لا نقول أن يُفرَم ناعماً. لم يكن خشباً للمدفأة وإنّما لمامة من أغصان الشجر مقلّمة ومقطّعة إلى حُطَيبات بطول خمسة عشر سنتمتراً وقطر خمسة سنتمترات. ولأنّ سجّانينا يتزوّدون بها من غابة لأشجار الأوكالِبتوس القصيرة، كانوا يقطعون أغصاناً منها تكون في أغلب الأحيان خضراء بعد. فكان بورو يحقّق اقتصاداً إضافياً.

أَهي إشارةٌ أخرى من القدر أم صدفة سعيدة؟ فأثناء آخر تسليم للخشب، أدخل سجّانونا أغصاناً طويلة غير مقطّعة! لم أصدّق عينيّ حينماً هرعت حليمة وعاشورا تزفّاني الخبر السعيد. ندين بذلك الحظّ غير المأمول لمجرّد مباراة كرة قدم... ففي ذلك اليوم، لعب المنتخب الوطني المغربي مباراة في التصفيات. وسمعنا من زنازيننا بغير وضوح

صدى تلفازٍ وقد رُفِع صوته إلى أقصاه. بدت الثُكنة بأكملها تشارك في الحدث. سمعتُ من حينٍ إلى آخر صيحاتِ حماسٍ تتلاشى فجأةً وسط صرخات الإحباط. طغى صوت بورو على كلّ الأصوات الأخرى. أرسل الضباط، المنشغلون بالمباراة، ضابطَ صفٍّ وأربعة مخزنيّين ليسلّموا لنا واحدة من منقلتَي الخشب الشهريتين. وإذ استعجلوا العودة لمشاهدة المنتخب الوطني، رموا الحمولة سريعاً دون أن ينشغلوا بتقطيع الأغصان الطويلة للأوكالِبتوس! كانت وصيتهما الوحيدة لحليمة وعاشورا: دفع نهاية أطراف الخشب في الموقد وترك النيران تلتهم القُرَم. طلبتُ إلى رفيقتينا في الشقاء أن تمرّرا دون انتظار الأوتاد الخشبية إلى أخواتي لكي يخفينها في مخزن الخمر. كان عليهنّ أن يدخلنها واحداً بعد الآخر من خلال فتحة التهوية التي تركها الموقد القديم في سقف الحمّام. وكما رأينا، تفضي هذه الفتحة إلى كوخٍ صغير حيث لا يمكن أن نُدخِل إليها سوى ساعد اليد. وبالتالي لاستعادة قطع الخشب المخفية، علينا أن نضعها بشكلٍ مروحيٍّ على أرضية مخزن الخمر وحول الكوّة تماماً، بحيث تبقى في متناول الساعد الوحيد الذي يمكنه الوصول إليها. على كلٍّ، بسوف أتذكّر طوال حياتي تلك المباراة للمنتَخب الوطني! أشكرها على أنّها استطاعت أن تُسحِر سجّانينا إلى درجة أن يجلبوا لنا الخشب بالقياس الذي كنتُ أحلم به! في لجّة الفرحة التي اجتاحتني، لم أستطع منع نفسي من أن أعتقد بأنّ صلواتنا اليائسة بدأت أخيراً تُستَجاب.

منذ أن لم نعد نملك الراديو، فقدنا الخيط الوحيد الذي كان يربطنا بالعالم الخارجي. ففي الليل، ولبضع ساعات، أوصلنا التركيب وتكلّمنا مع بعضنا عبر مخرج «ميكروفوناتنا» لكي نعوم في عالم الصمت. سخرنا من ذلك بطريقتنا. غالباً ما ردّدتُ على أسرتي بأنّ عنوان قصّة حياتنا قد يكون **عشرون ألف فرسخاً تحت الغائط!**

افتتحتُ اتّصالاتنا دائماً بالطريقة نفسها. حاولتُ في كلّ مرّة أن أقلّد

مقدّمة بي بي سي (BBC) خلال الحرب الأخيرة ؛ ذلك النوع من نعيب صفّارة الإنذار ذات الصدى المتفاوت يتعالى ويتلاشى بالتعاقب: «هنا لندن، هنا لندن. . . الفرنسيون يتكلّمون إلى الفرنسيين. . .» بعد بعض الأحاديث الودّية التي نستعلم بها عن أحوال بعضنا البعض، نعلّق بهيجانٍ على آخر تطوّرات النفق. والموضوع الوحيد لأحاديثنا هو بالطبع الهروب. عند انطلاق المشروع لم يكن مطروحاً سوى فراري وحدي. كان إخراج واحدٍ فقط من بيننا من هذه الحصينة يُعدُّ مأثرةً. هروب العديد قد يقلّل فرصنا في النجاح. طبعاً سيكون من الأفضل لنا أن نكون اثنين على الأقل في الفريق بحيث إذا ما واجهنا صعوبة، إن نجحنا في الوصول إلى العالم المأهول، فسيمكننا أن نفترق لكي نصعّب مهمة متعقّبينا. وستكون مليكة الأنسب في مرافقتي في هذه الرحلة: فالمسافة فوق احتمال والدتي المنهكة كثيراً، علاوة على أنّها محاصرة في زنزانتها. ومريم لا تصلح بوضعها الصحّي لهذه الرحلة. أمّا الأصغر سنّاً، فهم لا يعرفون شيئاً عن الحياة. وإذا ما كانوا في الشارع، فلن يمكنهم أن يفترقوا عن بعضهم إذا ما اقتضت الضرورة ذلك. بعد التداول مع أمّي ومليكة عبر الهاتف، اتّفقنا على ما بدا لنا الأكثر حكمةً:

- سنحفر هذا النفق كشخصٍ واحد! وعندما نصل إلى مخرجه، سأقرّر وحدي إن كان بالإمكان فرار شخصٍ واحدٍ أو شخصين أو أكثر. وإذا ما سارت الأمور أصعب ممّا كنّا نتوقّعها سابقاً، فسأغادر بمفردي.

آخذاً هذا الأمر بالحسبان، واصلتُ إعداد خطّة هندسية متغيّرة يُفترض أنّها تتحسّب لكلّ الحالات المتوقّعة. وسط تحمّسنا، أعددنا فرضيات حول طريقة التصرّف ما إن نصبح في البريّة. لم نغادر بعد سجّانينا بلا استئذان، حينما تحدّثنا عن الموقف والتصرّف الذي سوف يفرضه علينا الفرار! استعرضنا على مدى ساعتين أو ثلاث أدقّ تفاصيل عملية فرارنا القادمة. ثمّ افترقنا بكلمات الأمل. عدتُ إلى عزلتي. لم أستطع أن أنام. كان ألم خدّي معذّباً. كان خرّاجي يؤلمني أشدّ الإيلام.

أفرغته بخشية، لأنّ الإجاصة المتخفّفة من قيحها تُثير ألماً لا يُطاق خلال الساعة التي تلي «العملية الجراحية». بلّلتُ خرقةً بالماء، ووضعتها على وجهي المتألّم. ساعدتني البرودة الخاطفة على فكّي على تحمّل الوخزات الأكثر عنفاً لنوبة الألم.

طوال الليل الدامس، من زنزانتي، متربّعاً على حشيّتي الرطبة، متقوقعاً تحت غطائي الوحيد، فكّرتُ ملياً وأنا أستمع إلى الصمت الذي يغلّف المعسكر...

رجّت الخطوات الموزونة للدوريات، كلّما مرّت من خلف جدار زنازيننا، أرضية السجن. فألصقتُ أذني ببلاطاتي، كما كان يفعل الكشّافون الهنود ليستمعوا إلى صوت عَدْوِ حصانٍ مقبل. تعلّمتُ مع الممارسة أن أسمع كلّ الاهتزازات الأوّلية والبعيدة، التي تُعلِن تبديل الحرس. في الليل، يكون الصمت مخيّماً على سجن بير جديد لدرجة أنني أسمع الحراس المناوبين في المَراقِب وهم يسعلون ويدندنون ويتكلّمون مع بعضهم باقتضاب. وأكون متنبّهاً لأدنى صوت. فأحاول بذلك أن أحدّد تصرّفاتهم وعاداتهم وحتى شخصيتهم. تعلّمتُ أن أتعرّف على شاغلي تلك المراكز حتى دون أن أراهم أبداً. لكلٍّ عاداته. أحدهم يتمخّط دائماً مثل نهيم الفيل، مشتكياً باستمرار من الشروط المناخية، ويسأل غالباً جيرانه في المركز عن الطعام. سمّيته دومبو. وآخرُ له صوتٌ خافت، ولا يدخّن، ينبه رفاقه دائماً للنظام ليُظهروا أقصى درجات التيقّظ. لا يحبّ القمر المكتمل بدراً لأنّه يفاقم آلامه المفصلية، ويبدو متحمّساً وشرساً. ولأنّه الأكثر ضجراً من بين الحرّاس، سمّيته «جوليت». لم تكن هذه التسمية مبتكرة جدّاً ولكنها عفوية. وإنّه لحظٌّ سعيد ألاّ يشغل جوليت القطاع الذي سوف نقوم بعمليتنا تحته!

منذ خروجي من الغيبوبة، شعرتُ أن يداً ترعانا، وأنّ قوّة غامضة تأخذنا على عاتقها، وأنّ إرادة تفوق إرادتنا تقود وتحدّد مسار خطونا. كلّ مرحلة قطعناها وكلّ عقبة ذلّلناها بثّت فينا ثقةً صافية، وحماسةً إرادية جدّاً

بحيث بدت لنا أنها لا تُقهَر. وفي كلّ مرّة كان تقدّم أعمالنا يبدو معرّضاً لعقبة، تبدو لنا للوهلة الأولى منيعة، يذلّلها لنا حلٌّ على آخرِ رمق؛ وكأنّ طالعنا يصبح سعيداً من جديد. منذ ذلك الحين، وطوال مدّة مشروعنا، لم تبارحني القناعة بأنّ القدر يبدو أخيراً مؤاتياً لنا.

طبعاً ظلّت العزلة شاقّة بالنسبة لي. ولكنني أعترف بأنّها خفّت بفعل مختلف الثوابت التي تجمّعت لتحملني على الأمل في الهروب. جعل عقدٌ من العزلة مفهومي للزمن نسبياً تماماً. قائمة الشروط التي تتطلّبها خطّتي أعادت لي بعض المعالم... الآن، تُقاس الأيام بالنسبة لي بالدرجات المتجاوَزة والعقبات المذلّلة في المرحلة التحضيرية للنفق. عمل دماغي ليلاً ونهاراً . فحصتُ بدقّة مختلف مراحل تنفيذ السرداب. وكما أشرتُ من قبل، كانت زنزانة أخواتي مؤلّفة من شرفةٍ صغيرة محاطة بثلاث غُرَف صغيرة. وفي واحدةٍ منها، حفرنا النفق لأسبابٍ إستراتيجية. كان علينا المرور من تحت الممرّ الذي يسلكه بدلاء الحرس. يبلغ هذا الممرّ الذي يمرّ بظهر زنازيننا من خمسة إلى ستّة أمتار عرضاً وعشرين متراً طولاً. ويحاذيه سياجٌ ارتفاعه متران، مكسوٌّ باللبلاب، ويفصله عن الحقل المتاخم له. ولكنّ بن عايش أقام سوراً سميكاً يتجاوز ارتفاعه سطح سجوننا. والآن يدلف الحرس بين جدارين: جدار زنازيننا والسور. وينبغي أن يمتدّ نفقنا إلى ما بعد هذا الأخير ليصل إلى الحقل. يجب أن يمرّ أوّلاً من تحت أساس مبنانا، ثمّ يتجاوز عرض طريق الحرس، ومن ثمّ ينسلّ من تحت الأساس الثاني، أساس السور. الأمر الذي يتطلّب نفقاً طوله يقارب عشرة أمتار، ولا يتجاوز ارتفاعه وعرضه ثمانين سنتمتراً إلى مترٍ في حدّه الأقصى.

للمرور من أسفل الأساس الأوّل، سيكون علينا أن نحفر في البداية بئراً عمودياً. وما إن نتجاوز مستوى الأساس، سيكون علينا دعمه بالأعمدة الخشبية. ومن ثمّ سنستطيع المباشرة بحفر الأخدود الأفقي، الذي سوف يمرّ من تحت طريق الحرس بعرضه البالغ بين خمسة وستّة

أمتار. وسوف نصل حينها حتماً إلى أساسات السور الثاني. وسيكون علينا حينذاك أيضاً أن نمرّ من تحته. الأمر الذي لن يكون بتلك البساطة، إذ إنّ السور ليس مبنياً بالقرميد، وإنّما بحجارة كبيرة ينبغي تدعيمها كذلك بأعمدة خشبية. والأهمّ من ذلك: هل سيكون الأساسان بالعمق نفسه؟ بخلاف ذلك، لن يكون نفقنا باتّجاهٍ مستقيم، وإنّما سينبغي الانحدار به على نحوٍ مائل، وهو ما سيصعّب الحركة للخروج منه، وسيجعل من المستحيل الصعود عمودياً نحو المخرج. وسيؤدي طول وعرض أخدودنا إلى أن يكون الهواء أقلّ وبالتالي العمل أخطر. دون الأخذ بالحسبان مخاطر الانهدام.

لم أكفّ عن وضع التوقّعات، وتصوّر كلّ الحالات المحتملة، وكلّ الأوضاع التي قد نضطرّ لمواجهتها، ولكن عليّ أن أخضع لقسمة الصدفة التي تصاحب كلّ رهان.

منذ بداية شباط (فبراير)، أُنجِزَت قائمة مراجعة الاستعدادات وتأمين المستلزمات: كانت العلية ومخزن الخمر جاهزين لتلقّي حصّتهما من التراب والحجارة. وامتلكنا خشب التدعيم. جُمِعَت الأدوات الضرورية للحفر، وأُثريت بقضيبين حديديين، ووتدِ خيمةٍ فولاذيٍّ، ومقبض مغرفةٍ، وثلاث شفرات، حوّلناها إلى سكاكين. جهّزنا تلك الخناجر بمقبضٍ، بلفّ طرف من أطرافها برباطٍ مشدودٍ جيّداً، والذي غطّيناه بالخيط الملفوف بشدّة. هذه التقوية الناتجة عن المعدّات حدثت بفعل نزهاتي في القبو، حيث جاءت معجزات تعزّز «صندوق العدّة» خاصّتنا.

سار إنتاج الأكياس النسيجية على قدم وساق. إذاً سنحلّ بها مشاكل الصدى! في الجانب الإداري، سارت الأمور أيضاً بشكلٍ جيّد. . . بحرماننا أنفسنا، خزّنّا ما يكفي من الزيت لتزويد قناديلنا وتحسين الإطعام المشترك مذ أن تُعلَن ضربة بداية «الهروب الكبير». فالطاقة التي سنضطرُّ لبذلها ستتطلّب بعض الحريرات اليومية الإضافية. كما جرى تموين

مخزوننا من الطحين بما يكفي لتأمين حاجاتنا في «التمويه» وتزوّدنا بحاجاتنا الغذائية أثناء العملية.

في الزنازين، عملت «الورشات» بكلّ إنتاجها. كلّما ظهرت فكرة، انتشرت الرسالة وعولِجَت الطلبية بالوسائل المتاحة. بانتظار يوم الهجوم، قلّبتُ «معادلاتي» على وجوهها مراراً عديدة... ولأنّني لم أكن سعيداً باضطراري لحل مشاكل الهندسة التي يطرحها حفر السرداب، حدَستُ بتتمّة الأحداث. ماذا سأفعل، في الهواء الطلق، لأصل إلى مدينةٍ، وأنا لا أدري أين يوجد معسكرنا؟ بالتأكيد، دلّ عبور الطائرات على أنّه يُفترَض أننا نقع بين الرباط والدار البيضاء، وأنّ المناخ الرطب جدّاً يؤكّد قربنا من المحيط، ولكن من المستحيل أن نستنتج أكثر من ذلك. إذا ما وجدتُ (أو وجدنا) أنفسنا في أرضٍ منبسطة، فسيكون علينا أن نحتمي من الأشخاص الخطيرين، والامتناع عن المزاح الثقيل، والقدرة على إقناع مرشّحٍ بأن يساعدنا.

لدينا بالأساس القضبان الحديدية. ولكن لتعزيز وسائلنا الردعية، أو الأحرى الإقناعية، رسمتُ المخطّط الدقيق لمسدّس والتر 9 ملم. لم أُهمل أيّ تفصيل، من طول السبطانة إلى وضع علامة التسديد، مروراً بصمّام الأمان أرفقت بإنتاجي مخطّطاً إجمالياً وملخّصاً واضحاً. نقلتُ البطاقة إلى جارتيّ، اللتين هرعتا لتسليمها إلى البنات.مكتبة

كان «بريدي» مخصّصاً لسُكَيْنة وعبد اللطيف، لكونهما ماهرين بأصابعهما ومجتهدين في أيّة مهمّة دقيقة. اكتسبنا خبرةً حرفية من خلال صنعنا من هنا وهناك لُعباً لأخي الصغير. فطلبتُ منهما أن يصنعا من لبّ الخبز مسدّساً زائفاً إن كان ذلك بمقدورهما. قاما بتلك المهمّة بطريقة خبيرة ومهنية مثل أكثر صانعي الإكسسوارات دقّة! بعد أن نُحِت جسم السلاح بدقّة، بقي تغليفه وإكساؤه لجعله متيناً وأكثر قابلية للتصديق. كان عبد اللطيف الأنسب لهذا العمل، لأنّه كاد يكون عالمنا الكيماوي. فهو يمضي وقته في تحسين تقنياتنا التمويهية. ويُعدّ خلطات تجريبية ودائمة

بأقلّ مادة، من عفر الكلس أو الطلاء الذي يُكحَت من جدراننا! قام أخي الصغير ، بفضل «غرائنا المنزلي» المعدّ من الطحين المخفّف بالماء، بتغليف كلّ المسدّس المصنوع من لبّ الخبز بورقٍ رقيقٍ منزوعٍ من الكرتون. ومن ثمّ دهنه بسُخام الشمع المضاف إلى بضع قطراتٍ من الزيت. بعد ترك «العمل» يجفّ طبيعياً، كرّر العملية نفسها. وقد تراكبت طبقات هذه الصبغة السوداء مغطّية تماماً زوايا وحنايا المسدس. وبعد انتهاء عملية الطّلي، حاكى السلاح البرّاق المظهر اللامع والصقيل لمسدّس كولت حقيقي. بالتأكيد، لن يخدع هذا السلاح، في وضح النهار، شخصاً خبيراً، ولكن ما إن يُستلّ فجأةً في العتمة، سوف يُرعِب حتى قيّماً خبيراً في السلاح! اقتنعتُ بأنه سيكون كافياً ووافياً بالنسبة لي للتأثير على مَنْ قد «يخدموننا» أو يُضايقوننا خلال فترة الفرار. . .

ولكننا لم نصل إلى تلك المرحلة بعد! لا بدّ أوّلاً من الخروج من مأوى المحتضرين هذا المحمّي بأقصى درجات الحماية. مزوّدين بقوّة الأمل، عملنا دون توقّفٍ ولا استراحة. حينما أُعدّ كلُّ شيء بدقّة، اتّفقنا على ثمانٍ وأربعين ساعةٍ من الراحة قبل الانطلاق في «المغامرة الكبرى». . .

مرّرت تعليماتي إلى كلّ الزنازين: «لا اضطرابات. فلنتظاهر بالانقياد. ولنُشعِر جلاّدينا بأننا خرجنا من هذا الإضراب الأخير عن الطعام مهزومين تماماً، خاضعين بجلاء، ومستسلمين لمصيرنا نهائياً.»

عشية يوم الهجوم، في الساعة الثانية فجراً، أوصلنا الهاتف. بعد تبادلٍ لأحاديث مقتضبة حول المشاكل الخاصّة، لجأنا سريعاً إلى «إيجاز المعركة». قيّمنا الموقف للمرّة الأخيرة، وراجعنا أدقّ الحركات التي سيكون علينا القيام بها ما إن تُعلَن ضربة بداية حفر النفق. وكالعادة، ختمنا نقاشاتنا ببعض المزاح وبإشارة تفاؤلية. كنّا مضطربين، ولكنّ بهجة خفيّة، مكبوتة، لازمتنا. الآن وقد بدأ العدّ العكسي أخيراً، واقتربت ساعة

الحقيقة، باتت إرادة التصرّف أقوى من الخوف من الفشل!

في 7 شباط (فبراير) 1987، باشرنا بأوّل ضربة في النفق. وكما هو متّفق، سيتم حفر البئر العمودي في إحدى الحجرات الصغيرة الثلاث التي تتألّف منها زنزانة أخواتي. وبالمناسبة، لم يُفتَح أيٌّ من المعابر: لا معبري، ولا الذي يوصل زنزانة جارتيَّ بأخواتي. في تلك المرحلة، لم يكون حضورنا ضرورياً، واشتغلت البنات وحدهنّ. بدأن العمل بعد الظهيرة مباشرةً. كان آمر المعسكر غائباً. أقدمنا على تلك المجازفة. كانت أخواتي قد أعددن البلاطات قبل ذلك بعدّة أيام. نقلتُ إليهنّ كلّ التفاصيل حول وسائل الحفر المكتسبة من خلال التنقيب في ما تحت التربة. في البداية قمن بتليين الوصلات الإسمنتية التي تشدّ المربّعات إلى بعضها، بإغراقها بالماء ليلاً ونهاراً. وغدت الرطوبة التي تكتنف زنازيننا، لمرّةٍ واحدة، حليفتنا؛ إشباع الأرضية والجدران بالماء، نال من صلابتها. بمساعدة أحد «سكاكيننا المنزلية»، أزالت أخواتي بصبرٍ وأناة ملاط الفجوات ونزعن كلّ بلاطة من المحيط الذي حدّدتُه. حينما حصل وانكسرت بلاطة أثناء إزالة الرواسب عنها، قمنا بعملية زرع واستبدلنا البلاطة المصدعة أو المهشّمة بأخرى حرصنا على أخذها من الزاوية المقابلة من الحجرة. كان السجن مليئاً بمناطق غاص بلاطها، مما تسبّب بتباين في سويّة الأرضية وأحدث فيها منخفضات أو حُفَر صغيرة. في تلك الأجزاء، تبدو الأرضية مثل رقعة بازل وقد طُرِحَت بلا نظام على طبقة إسمنتية طرية وتثبّتت قطعها فجأة. في ظلّ هذه الفوضى، لن يكون خدشٌ هنا أو صدعٌ هناك ملحوظاً. بعد تنظيف البلاطات، التي تهمّنا، من الرواسب واحدة بواحدة، قامت أخواتي بكحت الشوائب العالقة بقفا كلّ واحدة منها. ومن ثمّ أعدنها إلى مكانها وموّهنها. الأمر الذي جعل الوقت الذي استغرقته عملية نزع وإعادة البلاطات ينخفض إلى أدنى حدّ وتمّت معالجتها بصمت.

إذن، في عصر ذلك اليوم من شباط (فبراير)، لم يكن «نزع كبسولة»

البلاطات، كما سمّيناه، إلاّ إجراءً شكلياً. فظهرت الطبقة الخرسانية بسماكة خمسة سنتمترات، يمتد فوقها التبليط، وتوجد تحتها الرصّة التي تحمل البناء. وكما شرحتُ سابقاً، تتكوّن هذه الرصّة، في سطحها، من طبقة رقيقة من الرمل الناعم، ومن ثمّ، بعمق مترٍ ونصف، من حجارة موضوعة بمهارة فوق بعضها، تاركة بذلك مساحات متساوقة بينها. كانت تلك الألواح الحجرية الملساء تشبه حصى كبيرة. أحجام أغلبيتها مناسبة لنقلها من خلال فتحاتنا ومنافذنا. الأمر الذي لم يمنع مصادفتنا لبعض الاستثناءات.

كان المبنى ذو الشكل L، العائد لزمن «مزرعة بيير مادور»، قد رُفِع عن مستوى الحديقة لتأمين البرودة. فإذا كانت الحجارة قد رُصِفَت بحيث تُترَك بينها فجوات، فذلك لتفسح المجال لتيارٍ هوائيٍّ جارٍ لكي يبقى تحت الدار أو على الأقلّ تحت المربّع الأمني الذي آلت إليه.

باختصار، ما إن جُرِّد المستطيل الإسمنتي من بلاطاته، وجب حفر حفرةٍ صغيرة في وسطه. ثمّ توسيع الفتحة من خلال تدوير رأس سكينٍ فيها أوّلاً ومن ثمّ طرف مقبض سطلٍ، عوضاً عن مثقبٍ. بعث دوران المعدن في الاسمنت حسب شدّة الحركة صريراً غير خافٍ. . . ومن هنا ضرورة سكب الماء باستمرار لكتم صوت التماس القاسي للمعدن الذي يأكل الإسمنت. حينما اخترق المقبض السنتمترات الخمسة من الإسمنت الداعم للبلاطات، تغلغل دون أدنى مقاومة في الرمل. وبغطسه أكثر قليلاً، لامس حجارة الرصّة. إذا ما تمّ بلوغ المرحلة الأولى! وتبيّن أنّ الثانية أكثر دقّة: إذ يجب مواصلة توسيع الحفرة المفتوحة وسط المستطيل الإسمنتي إلى أن يصبح من الممكن إدخال طرف قضيبٍ حديديٍّ فيها. وبرفع الملاط المبلّل بهذا الأخير، تفتّت وتهشّم. كانت تلك مرحلة حاسمة من الإجراءات. ومع ذلك لا بدّ من الحفاظ على حواف وزوايا المستطيل الإسمنتي، وإلا لن نتمكّن من تجنّب تحرّك البلاطات أو خفسها قليلاً بعد إعادتها إلى مكانها. لا بدّ إذاً من الحرص، أثناء تفريغ

مركز الحفرة، على الاحتفاظ من حوله بإطارٍ إسمنتي بعرض بضعة سنتمترات.

في 7 شباط (فبراير)، نحو الساعة الرابعة عصراً، أنهت أخواتي استهلال الحفر. أوصلت مليكة رسالةً إليّ: «أُصيب الهدف. لقد فتحنا حفرةً في الطبقة الإسمنتية. وقد تمّ توسيعها بما يكفي للبدء بحفر البئر هذه الليلة. هذا المساء. أخواتك اللواتي يحببنك».

خلال كلّ هذا الوقت، ذرعتُ زنزانتي، واضعاً يديّ خلف ظهري، منتظراً البرقيات المنتظمة التي تُخبرني بسير العمليات. حينما اطّلعتُ على بطاقة أخواتي، ضربتُ الأرض بقدمي فرحاً. وانتظرتُ، بفارغ الصبر، أن يهبط الليل. بعد نصف ساعةٍ من إطفاء الأنوار، فتحتُ معبري للذهاب إلى زنزانة البنات مروراً في البداية بزنزانة جارتيّ!

بانقضاء منتصف الليل، أي بعد ثلاث ساعات من إطفاء الأنوار، فتحنا المضيقين ذوي الشكل U، وفي كلّ مرّة عملنا فيها، قام أحدنا بالرصد، واضعاً وجهه على الأرض وهو يراقب الباحة والحجرة الفاصلة في نهاية الممرّ التي يمكن لحرّاسنا الدخول من خلالها.

حينما وصلت إلى زنزانة أخواتي، لم يتركن لي الفرصة حتى لأذهب و«أعانق» أمّي وأخي عبد اللطيف وإنّما سحبنني مباشرةً إلى الحجرة الصغيرة التي تنتشر فيها الورشة. كانت علبة حافظة تستخدم كمصباح في كلّ ركنٍ من أركان الغرفة الصغيرة الأربعة. وكلّ علبة ألمنيومية تحتوي في قعرها بعضاً من الزيت الذي تعوم فيه فتيلةٌ نسيجية مجدولة بدقّة. نشر لهب ذلك الضوء الغريب الأطوار على الجدران تدرّجاً لألوانٍ برتقالية، ثابتةً تارةً، ومترجّحةً تارةً. ذكّر جوّ تلك الحجرة المُنارة بخفوت بجوّ مكانٍ لطقوس السحر الشيطاني. في مكان الحفر نفسه غطّت قطعة من بطّانية متّسخة الأرضية. رفعتها أخواتي بحركة واحدة مثلما يُكشَف عملٌ أثناء تدشينٍ رسميٍّ.

فوجئتُ تماماً. لم أكن أتوقّع هذا التقدّم في العمل. كنتُ أعتقد، كما بيّنته لي «الرسالة العاجلة» التي تلقّيتها بعد الظهيرة، أنّ تنفيذ حفرة تُفتَح في مستطيلٍ إسمنتي ستستغرق وقتاً أكثر بقليل. فقد اكتشفتُ حلقةً مفرغَة من ملاطها، ويشكّل محيطها، السليم، تاجاً إسمنتياً جميلاً، قادراً على إسناد زوايا التبليط حينما نعيد البلاطات إلى مكانها. ذُهِلنا جميعاً للنتيجة. ضممتُ أخواتي واحدة واحدة، فخوراً حقّاً بهنّ وبجهودهنّ. عدنا والتأمنا حول البالوعة الصغيرة التي تتّصل بزنزانة أمّي. بعد حوالي خمس عشرة دقيقة من الأحاديث الهامسة التشجيعية، وبعد أن تبادلنا أحاديث الدعم والتشجيع، انكببنا على المهمّة. علينا الآن أن ننقضّ على الرَّدم الذي يقوم عليه المبنى. كانت أخواتي قد استخرجن الطبقة الرملية التي تغطّي سطحياً الحجارة الملساء للرصّة. أخرجنا الحجارة واحداً واحداً بحساسية ودقّة مزيلي الألغام المتناهيتين. وضعناها على بطّانية لكتم الضجيج وقمنا بفرزها. نُقِلَت الأضخم حجماً إلى الحُجرة التي تُستخدَم مهجعاً لأخواتي، ووُضِعَت فوق حشايا البنات. في غضون ذلك، فتحت سُكَيْنة اللَبِنة التي في أسفل الجدار المشترك لزنزانة أمّي. وفعل عبد اللطيف، الجاثم على الكتفين الضعيفتين لفاطمة، الشيء نفسه بقاعدة الواجهة التي تفصل الباب عن العِلّية الصغيرة. بواسطة اللَبِنة النقّالة، دفع أوّلاً الحجارة إلى الكوخ، ومن ثمّ اندسّ إليه ليرتّبها حجراً فوق حجر على سريرٍ ترابيّ. وعلى إيقاع الحَفر، أُخفيت الحجارة الضخمة والحصى وبضعة دِلاءٍ من الطمي في مكانٍ آمنٍ. أمّا التراب الأصلي المستخرَج من البئر، فقد غربلناه أوّلاً بأوّل، ووضعناه في الأكياس النسيجية التي حشوناها بخياطتها على نحوٍ متين. ما إن عُبِّئَت الأكياس، أطلقنا عليها تسميات تبعاً لحجمها: «الأفيال» و«السُريجات» و«النقانق». كانت وظيفتها تتعلّق بعض الشيء بنظرية أرخميدس: إذ يجب أن يكون عدد تلك الخُرَج مساوياً على الدوام لكميّة التُراب المستخرَج من الفجوة التي نحفرها؛ يجب أن يمكنها ملء البئر إلى حافّته. كانت الوسيلة

آمنة وفاعلة وعملية. وبذلك، سُهِّلَت عملية الفتح والإغلاق، وخُفِّف الضجيج على نحوٍ كبير، وأُلغي الصدى.

نحو الساعة الثالثة صباحاً، أنهينا استخراج حجارة الرصّة وبلغنا أرضية الحديقة! توقّفنا لبضع دقائق لنحتفل بانتصارنا. وتأثّرنا كثيراً لدرجة اغرورقت عيوننا بالدموع. ولن أنسى أبداً وجوهنا المتّسخة، وشعورنا المغبرة، وأفواهنا الشبيهة بأفواه عمال المناجم المنوّرة بنعمة الأمل.

سارعت مليكة إلى زفّ الخبر إلى أمّي وأخي الصغير. استرعيتُ الجمع للنظام. غُصنا من جديد، بالتناوب، وجذوعنا النحيلة في الحفرة. استؤنف العمل. وكما أشرت سابقاً، الحفرة التي تغوص الآن حتى أرضية الفناء فُتِحت عبر تنضيد حجارة الرصّة. شكّلت الحفرة بئراً بعمق مترٍ ونصف. وقطره مساوياً تماماً لفوهة مجرورٍ باريسيٍّ، وبالتالي كافياً ليدخل إليها شخصٌ ملامساً بكتفيه محيطها. أمّا جدران هذه البئر فمكوّنة من حجارة الردم التي حفرناه عبرها. في هذه الجدران إذن، برزت نتوءات الحجارة، وانفتحت تجاويف. وباستخدام يدي كمسجّة، غطّيتُ فواصل البئر بطبقة سميكة من ملاطٍ صلصالي. حينما أنهينا أعمال الردم، أصبحت جدران الحفرة صقيلة مثل قعر جرّة. ملأنا الحفرة بأكياسنا الرملية. أحصيتها لأعرف تقريبياً كم من الأفيال والسُريجات تلزم للمتر المكعّب من التراب المحفور، وهو المعطى الذي سيتيح لي أن أقدّر الطلبات المقدّمة إلى «ورشة الخياطة» خاصتنا. طمأنني عدد الأكياس المستخدَمة في ردم أوّل متر ونصف من الحفر: كانت متطابقة تقريبياً مع حساباتي. إذاً لن نخشى نقصاً في النسيج لصنع الأكياس.

حينها أنهينا ردم الأخدود من خلال ملئه بالأكياس الترابية. وهكذا، تكدّست النقانق والأفيال والسُريجات فوق بعضها من قاع البئر وحتى مسافة خمسة عشر سنتمتراً من فوهته. وبقيت فقط المسافة القليلة بين قمّة الأكياس والطبقة الإسمنتية التي تسند البلاطات. ردمناها بالتراب الصلصالي، المغربل بدقّة والمشبَع بالماء. سدّ ذلك الصلصال البئر إلى

حدّ الحرف الإسمنتي الذي يحدّ قطره. وأخيراً، وضعنا البلاطات واحدة واحدة على الطين الطازج لكي تلتصق به كالمحجم. ثمّ سدّدنا تماماً فواصل البلاط بواسطة «العجينة المطواعة» خاصّتنا. وبغية تفادي أن يبيضّ الطين حينما يجفّ، لجأنا كالعادة إلى ذرٍّ ضروريٍّ من الرماد. جلبت حليمة وعاشورا بعض الجمرات من الموقد المرتجَل المعدّ على أرضية زنزانتهنّ. استخدمناها على صفيحة معدنية مقطوعة من علبة حافظة، لتجفيف العمل. وفي النهاية، صقّلنا البلاطات واحدة واحدة. اللَبِنة المنتزَعة من أساس الجدار الفاصل بين زنزانة أمّي وزنزانة أخواتي، وكذلك الحجر المستَخرَج من أساس العلّية، أُعيدا إلى مكانهما الخاصّ، وسُدّت الفواصل، ورُمِّم جير التغطية بفضل خليط الطحين والتايد؛ ونثرنا عليها في الختام قليلاً من الغبار لنمنحها مظهراً متّسخاً، باهتاً، رمادياً.

نحو الساعة الرابعة مساءً، افترقنا. كلٌّ عاد إلى جحره. وكان علينا أن نعيد سدّ معابرنا بين الزنزانات. حوالي الساعة الخامسة، أُنجِز كلُّ شيء! منهكاً من شدّة التعب، سقطتُ على حشيّتي، ونمتُ، تعلو شفتيّ ابتسامةٌ وكلماتُ شكرٍ وحمدٍ للسماء.

اتّفقنا على ألاّ نستأنف أيّ عملٍ لبضعة أيام. فضّلتُ أن نوقف أعمالنا لبعض الوقت. وأن ندع بضع حملات تفتيشية أسبوعية تمرّ قبل مواصلة العمل. جرت زيارات المراقبة بشكلٍ طبيعي. وقام بورو وأتباعه بتحرياتهم الروتينية. وكانت تلك اللحظات باستمرار لحظات قاسية: في الواقع لم نستطع أن نُبعِد القلق من نسيان تفصيلٍ قد يفشي سرّنا. بفضل الله، تمّ كلّ شيء بخير. لم يرتب الآمر، وهو يفتّش الحجرة الشهيرة، في أيّ شيء. بل وقف على مكان النفق بالضبط، دون أن تتحرّك أيّة بلاطة تحت قدمه. هذا الاختبار الحاسم كافأنا على جهودنا وعزّز لديّ الفكرة بأننا على الطريق الصحيح.

مرّت الأيام وكان إيقاعنا في الحفر منتظماً. في بداية شهر آذار (مارس)، تجاوز تقدّمنا آمالي. وفي نهاية الأسبوع، ما إن غاب الآمر، شرعنا بالعمل. . .

في الليل دائماً، وبعد إطفاء الأنوار، فُتِحَت المعابر، واستُؤنِف الحفر. حينما وصلتُ إلى زنزانة أخواتي، كنّ قد رفعن البلاطات وأخرجن أكياس التراب التي ملأت البئر. كدّسنا في متناول اليد، بأمرٍ ثابتٍ وواضح، بحيث يمكن إعادة غلق الأخدود بأسهل وأسرع ما يمكن. حفرنا طوال الليل. مَنْ منّا يكون في قاع البئر يضطرّ لأن يحفر الأرض متقوقعاً تماماً، جالساً على عقبيه. عليه أن يملأ ما سمّيناه «المصعد»، وهو صفيحة بلاستيكية للزيت قطعنا قمّتها. وقد ثقبنا الجنبات العلوية لذلك الوعاء الأسطواني لتزويده بمقبض مرتجلٍ وقد رُبط إليه طرف حبلٍ مجدولٍ بصرامة من مزقٍ من قماشٍ وشراشف. وقد أتاح هذا الحبل للواقفين على السطح رفع سطل التراب من الحفرة نحوهم «لمعالجته». وبحركاتٍ آلية، فرزنا الحصى، وغربلنا التراب وعبأنا الأكياس. ونقلت مجموعةٌ أخرى المخلّفات إلى المهجع، بجرّها على قطعةٍ من بطّانية. وانزلقت تلك الزلاّجة بصمت على البلاط حتى مقصدها. وهناك، ومن خلال فوهة الحجرة المنتزَعة من الجدار، تُنفَق «البضاعة» وتُخفى في العليّة. همستُ بتعليماتي إلى الذي أو التي في المنجم، مفضّلاً أن نتناوب بانتظام على الحفر. لم تكن طاقتنا إلاّ أكثر فاعليةً وأفضل إفادةً بذلك. تركتُ بعض حجارة الرصّة ناتئة في جدران البئر التي رمّقتها بالطين. وعلى هذه الزوائد الجامدة وضعنا «مصابيحنا الرومانية» المستخدمة في إنارة الحفر.

بوصولي إلى أساس المبنى، ارتحتُ لتأكّدي من أن تجاوزه ممكن تماماً. أكثر ما أقلقني، في المقابل، هو معرفة ما إذا كنّا، لدى تجاوزه بعمقٍ للمرور من تحته، سنصادف أم لا الطبقة الشهيرة من الحوّار الأصفر!

في كلّ الأحوال لن أعرف ذلك هذه الليلة. فالوقت يضغط. ويجب البدء بإعادة الإغلاق. يعرف كلٌّ منّا الحركات التي ينبغي عليه أداؤها. حينما نتكلّم مع بعضنا، نفعل ذلك همساً. ودوريات الحرس، التي تمرّ خلف زنازيننا وتطوف حول المبنى، تحثّنا على المزيد من الحذر. في الفجر، سُدَّ «الغروبير»[1] ثانية، وخلت الزنازين من كلّ الآثار.

وما إن أصبحتُ في زنزانتي، شقّ عليّ من جديد السبيل إلى النوم. تكوّمت أجسادنا، وتألّمت، وأُنهكت بالجُهد وبالتوتّر. كنّا نشعر بالبرد، ونتضوّر جوعاً. ومع ذلك بتغذّينا بالآمال، وجدنا لأنفسنا العزاء جزئياً لحرماننا. تثاقلت أجفاني ولكنني لم أستطع أن أنام. استولت طبقة التراب الأصفر على ذهني!

حتى الآن تسير العمليات على نحوٍ مقبول وتطبيقها على الأرض لم يفنّد بعد حساباتي. ومع ذلك أخشى من المرحلة التالية. سيكون اجتياز ركن عمارتنا حاسماً! والحال أنني لا أعرف إلى أيّ عمقٍ تغوص أساسات السجن. إذا حالفنا الحظ ولم تتجاوز الأمتار الثلاثة، فلا بدّ أن الطبقة التالية، حسب «معادلاتي» تطابق الحوّار الأصفر الذي وجدته في قاع الحفرة العفِنة. حينها فقط، سيقرّ القرار وسوف أعرف أخيراً الكيفية الدقيقة للأرض التي سيكون علينا حفر النفق فيها! إذا كان ذلك في الطبقة الكلسية، فسوف نستغني، كما قلت سابقاً، عن الخشب لإسناد القبة.

بزغ يومٌ جديد على بؤسنا. ولكنّ نجاحاتنا الجديدة تعطينا الآن سبباً لأن نحتمله. حان وقت النوم. في الليلة القادمة، سوف نواصل الحفر. فقد راح بورو في عطلة نهاية الأسبوع.

بعد أقلّ من 16 ساعة من تدخّلنا الأخير، وبعد تجاوز منتصف الليل، أُعيد فتح المضائق. أنا وجارتاي من تحت الجدارين الفاصلين،

---

(1) جُبن أصفر فيه ثقوب صغيرة. المترجم

وعبد اللطيف من خلال اللَبِنة النقّالة، انسللنا لنجتمع في زنزانة البنات. كان الفريق كاملاً، باستثناء أمّي المحبوسة في زنزانتها. أفرغت أخواتي مسبقاً الحفرة من الأكياس. شكّلت السُريجات والنقانق والأفيال تلّة في زاوية من الحُجرة. كانت القناديلِ الزيتية منارةً. والأكياس، الفارغة، جاهزة لابتلاع التراب المحفور أوّلاً بأوّل. وتركت المصابيح المعدّة على طول جدران الخندق وميضاً خافتاً يرشح إلى السطح. خيّمت هالةٌ على فوهة البئر. حينما انحنيتُ على حافة الحفرة، سرى تعبيرٌ غريب في وجوه أخواتي. انتابني القلق فنزلتُ مباشرةً إلى الحفرة، وأنا أدلف إليها وكأنني أُبحِر على متن غوّاصة. ما شاهدته تركني مشدوهاً! تمّ تجاوز الأساس، وطبقة التراب التي تليه كانت صفراء! كانت تلك الطبقة الكلسية الصلصالية صلبة ومتينة بحيث نستغني عن خشب الإسناد. فاستغنينا عن الأوتاد. جاثياً في قاع البئر، رفعتُ رأسي ولمحتُ وجوه أخواتي المنحنيات على حافة الحفرة، وهنّ ينظرن إليّ مع ابتسامات مشرقة. كانت تلك أعظم مفاجأة قد يستطعن إعدادها لي! أخيراً، دخلنا في صميم الموضوع... يمكننا الآن الشروع بحفر السرداب الأفقي. لا يتجاوز عرض الأساس ثمانين سنتمتراً. وعلينا، للمرور من تحته، أن نسنده بالحطبات التي تقوم قواعدها على حجارة صغيرة مسطّحة لكي لا تنغرز هذه الدعامات، المضغوط عليها بفعل تقوّس الأساس، في الأرض. إنّه عملٌ شاقّ وحسّاس ولكنّه ضروريّ. أنجزناه بنظامٍ وإحكام.

صعدتُ من البئر. ملوّناً بالتراب الأصفر الذهبيّ من رأسي حتى أخمص قدميّ، وشعري مطليٌّ بالطَلْق، ورموشي مغبرة، وأطرافي مغطاةٌ بالطين، جلسنا متحلقّين على كومةٍ من الرمل والحصى.

احتفاءً بالمناسبة، أخرجتُ سيجارة! كان نجاحنا في هذه المرحلة الحاسمة جديراً بمتعة صغيرة كهذه؛ المؤسف أنّ ذخيرتي من التبغ شحيحة. لم تتجاوز الاستراحة بضع دقائق. نظّمنا فِرَق مناوبة مكلّفة

بالتناوب بانتظام على النفق. مَن يحفر ينبطح أرضاً في السرداب ولا يمكنه الخروج منه سوى بالسير إلى الوراء. بينما يعمل الحفّار المناوب في الأخدود الأفقي، يقرفص أحدنا في أسفل البئر ويراقب زميله الذي لا يسعه رؤية سوى عقبيه. إذا ما حصل، لسوء الحظّ، تهدّمٌ، ستكون المساعدة الوحيدة الممكنة هي محاولة سحب «المدفون» من قدميه. علاوة على ذلك، مَنْ يعمل في النفق لا يمكنه في كلّ مرّة أن يرجع القهقرى لإخراج الطمي الذي كحته. إذ سيضيّع بذلك دقائق ثمينة من الوقت. فاستخدمنا «العربة»: وهي عبارة عن صفيحة زيت مقطوعة طولياً ومثبّتة إلى طرف الحبل الذي يرفعها حتى السطح. حينما يملأ مَنْ يحفر «المصعد» بالتراب، يعطي الإشارة. أمّا الآخر، المقرفص في مدخل النفق، أي في قاع البئر العمودي، الذي يشكّل كوعاً مع السرداب الأفقي، فيسحب تلك الزلاّجة الصغيرة إليه، ثمّ يحوّل محتواه إلى الصفيحة الأخرى الأسطوانية التي نستخدمها كدلو. يسحب لثلاث مرّات الحبل المربوط إلى الدلو ثمّ يرافقه بيديه لجزءٍ من الطريق نحو السطح لئلاّ يرتطم بالجدران في صعوده. ما إن تُفرَغ الحمولة على بطّانية، تبدأ المعالجة ثانيةً. تُدرَز الأكياس المملوءة بالتراب. وتُرسَل المخلّفات لتُخزّن في مخزن الخمر والعلية، حسب حجم ونوعية النفايات.

فخورين بنجاح الورشة، عملنا بصمت وبلا انقطاع. كانت هناك العديد من التأوّهات ألماً. ولكن لم يشتكِ أحد. حينما يُجرَح أحدنا، لا نكتشف ذلك سوى بقطرات الدم التي ترصّع الحمولات الترابية. وبما أننا تعلّمنا أن نسخر من قدرنا لننجو، كظمنا الألم الجسدي وعضضنا على النواجذ حدّ الإدماع. . . أَهي دموع ضحكةٍ حقيقية أم دموع ألم الجسد حينما لا يمكنه التعبير؟ مهما يكن، فقد ظلّت إيماءاتنا وحركاتنا وكلماتنا رشيقة، ومزخرفة. وجرت ثوراتنا في أدنى حدٍّ من الصخب. خارج ضرورة الاتّصال حول المشاكل التقنية للحفر، كان نظامنا المطلق هو الصمت.

في الساعة الرابعة صباحاً، محذَّرين من قبل كورنيليوس «ساعتنا الناطقة[1]»، باشرنا بإغلاق المشغَل. أُنجِزت عملية الإقفال، باجتهادٍ ومثابرة، مع أولى خيوط الفجر. حينما استيقظ المعسكر، وانتعش، واستُؤنِف روتين السجّانين، رقدنا، مسالمين، على حشايانا وأظهرنا لحرّاسنا استسلامنا التامّ. ردّد بورو عليّ باستمرار:

- أخيراً أصبحتم عاقلين! أدركتم أخيراً أنّه لا يمكن مقاومة المَخْزِن! ارضخوا للحكم، لا أحد يمكنه مواجهة قوّة الأوقيانوس!

لم أفعل سوى الامتثال للأقوال «الحكيمة» للآمر. ولكن، في أعماقي، لم أستطع أن أمنع ابتسامةً: ربّما لم يسمع المسكين بورو أحداً يتحدّث عن ايريك تابارلي أو عن آلان كولاس.

في أواسط آذار (مارس)، أوشكنا على الانتهاء من الحفر ما تحت عرض طريق الحرس البالغ خمسة أمتار. في التاسع عشر منه، وصلنا إلى السور الثاني! هذه المرحلة، دون جميع المراحل، هي الأكثر أهمية... إذا ما تبيّن، لسوء الحظ، أنّ عمق أساس المبنى وأساس السور مختلفان، سيطيح هذا عمليّاً بمشاريعنا... لأنّ النفق، وبدل أن يشكّل خطّاً مستقيماً على مستوى واحدٍ ماراً تحت الأساسين، سيميل بطريقة نازلة أو صاعدة! وفي هذه الحالة سوف تكون العوائق التي ينبغي التغلّب عليها عديدة: وسيكون أصعبها استحالة تهوية السرداب. وقد ينعدم وجود الأوكسيجين. سوف يمنع ميلانٌ في الأخدود الأفقي الهواء القادم، عبر البئر ، من تغذية النفق. فتناوبنا بانتظام لكي نجنّب «الحفّار العامل» فقدان الوعي دون أن يدرك ذلك. أعطيتُ أمراً صارماً لمَنْ يحفر بأن يخرج سريعاً من السرداب، ما إن يبدأ لهب قنديله يزرق ويضعف. فذلك يدلّ على أنّ الأوكسجين يشحّ في الأخدود. وإذا كان الحظّ قد ابتسم لنا حتى هذه

---

(1) كنتُ قد كتبتُ حكاية بطلُها حمارٌ يُدعى كورنيليوس. إذ كان حمارٌ في الحقول المجاورة يبدأ بالنهيق في الساعة الرابعة صباحاً، كلّ ليلة.

المرحلة من أعمالنا، فإننا الآن بأمسّ الحاجة لأن يحالفنا. وإن شاء الله، هذا ما سيحصل. . .

في الواقع، تجنّبنا، لحسن الحظّ، أكثر ما كنت أخشاه. كان أساس عمارتنا وأساس السور يغرزان قاعدتهما بالعمق نفسه. لم يكن أيّ من الأساسين اللذين ينبغي تجاوزهما على مستوى أخفض من الآخر. وبالتالي لن يتطلّب النفق لا الانحدار ولا الارتقاء. وكانت نعمة النعم أنّ جسراً إسمنتياً يمرّ بقاعدة السوّر! وبالتالي، لن نحتاج إلى التدعيم، بالأعمدة الخشبية للمرور من تحته!

نكاد نبلغ هدفنا. بعد اجتياز السور بعرضه البالغ خمسين سنتمتراً، سنكون «وسط الحقل» وسيكون بوسعنا الشروع بالصعود نحو السطح. وسيشكّل مخرج النفق كوعاً مع الأخدود الأفقي. وحينذاك، سيفصلنا فقط مئة وخمسين سنتمتراً من الأرض عن الخلاص!

في نهاية شهر آذار (مارس) 1987، كاد النفق يبلغ نهايته. توقّفنا لفاصلٍ. احتجتُ لأن أتحقّق للمرّة الأخيرة من حساباتي قبل الشروع بالصعود نحو الهواء الطلق. ولكن سؤالاً هاماً ما زال يطرح نفسه: هل ينبغي الفرار ما إن يصبح المخرج جاهزاً أم انتظار فرصة نختارها للقيام بذلك؟ كنتُ مدركاً تماماً أنّ الهروب في طقسٍ رديءٍ سيزيد من فرصنا في النجاح. وسط عاصفةٍ، تحت وابلٍ من المطر، سيغرز «الكواسر» الجاثمون على مراصدهم قلنسواتهم العنقية، ويتقوقعون في واقياتهم من المطر، ويلبدون في قاع ملاجئهم، ولن يراقبونا بالحدّة المعتادة نفسها. وسينخفض سمع وبصر الحرّاس كثيراً، بفعل الريح والمطر وهدير المولّدة الكهربائية. بعد التشاور، أقنعتُ الآخرين: المغامرة ستحدث في الشتاء القادم! وبانتظار ذلك، قمنا بإعداد ما قبل مخرج النفق. في بداية نيسان (أبريل)، أُعدّ كلّ شيء للهروب! وبدافع الحرص والحذر، أبقينا آخر ثلاثين سنتمتراً من التراب الذي ما زال يفصلنا عن سطح الأرض. لاسيما وأنّ تلك التربة الزراعية كانت مليئة على نحوٍ غامض بجذور اللبلاب.

كان ذلك التشابك من الجذور المنيعة ناجماً عن السياج النباتي الذي يغطّي الشبكة: تلك الشبكة الشهيرة بارتفاعها البالغ مترين، التي تفصل طريق الحرس عن الحقل المحاذي له والذي أمر بن عايش بأن يحلّ محلّه سورٌ ضخم. مزوّدة بغزوة العريش الذي يتاخم المعسكر، قاومت تلك الشبكة السميكة والدبقة من العسقول بمعاندة «سكاكيننا المنزلية». ولكننا لسنا في عجلةٍ من أمرنا، وسيكون لدينا متّسعٌ من الوقت لنتغلّب عليها قبل الشتاء.

فأغلقنا الورشة في 11 نيسان (أبريل)، مبتهلين إلى الله أن يقدّم تقلّبٌ جويٌّ مبكر ساعة التنفيذ. الآن وقد أُنجزَ القسم الأعظم، نحاول أن نتخفّف من الضغط، وأن نستعيد قوانا، وأن نستعدّ للهروب أوّلاً ومن ثمّ للفرار! لم نختر بعد مَن سيرافقني في «النزهة الكبيرة». سوف أحدّد في الزمان والمكان المحدّدين، حينما أعرف بدقّة الظروف التي تنتظرنا بعد مخرج النفق. ومهما يكن، فإنّ الغرض من الهروب هو اللجوء إلى سفارةٍ غربية.

ولكنّ الحادث السيّئ كان في يوم الجمعة 16 نيسان (أبريل) 1987! بينما كنتُ أقوم بإحدى مسيراتي التأمّلية، أُعطيت إشارة الإنذار بالطَّرْق على الجدار من قبل حليمة وعاشورا! تجمّدتُ في مكاني، مرهف السمع. ومع ذلك لم أسمع أيّة إشارة تُعلِن زيارة سجّانينا. هرعتُ إلى تحت حشيّتي لأتحقّق من أنّ البلاطة التي تدفن «مجموعة خلاصي» لا تعاني من أيّ اهتزازٍ، ولأتأكّد من دقة تمويه الفواصل التي تحصرها. ثمّ تحسّست بلاط «المعبر» الواقع في الزاوية المقابلة من الزنزانة. تأكّدتُ من أنّ لا شيء يتحرّك وأنّ كلّ شيء مضبوط. أخيراً، ارتميتُ على الأرض، ملصقاً جانباً من وجهي على الأرضية لأرصد أدنى ارتجاج للخطوات في الباحة. فجأةً، قذفتْ ساقٌ معدنية السدادة الطينية المموّهة للثقب الضيّق المفتوح بين رفيقتينا في الشقاء وبيني. كانت وُريقة مربوطةً بطرف القضيب المعدني الرفيع الذي برز من الجدار. كانت «رسالة عاجلة»!

فتحتها وقرأتها بتلهّف: «لدينا مشكلة خطيرة. سيطول شرحها كتابةً. اتّصل بنا فوراً بالهاتف».

لم تكن من عادتنا التحادث نهاراً، ولكن بدت الحالة الطارئة حقيقية. بحيث خاطرنا بالدخول في اتّصالٍ. علمتُ بالخبر: صعد بورو وزمرته إلى سطح المبنى ذي الشكل L الذي يضمّ زنازيننا. لم يتمشَّ الآمر وأتباعه إلاّ فوق سطح زنزانات أمّي وأخواتي. زنزانتي تقع في الطرف الآخر من المبنى، وهذا ما يفسّر كَوْني لم أسمعهم. بالتنصّت عليهم من خلال فوهة الموقد القديم التي تفضي إلى مدخنة على السطح، سمعت أخواتي مقتطفات من حديث سجّانينا. كما أكّدت أمّي، من طرفها من الشرفة المسوّرة عملياً، الأقوال التي نقلتها البنات. عقد بورو وزمرته مجلساً استثنائياً على السطح لتعزيز الإجراءات الأمنية من جديد. منذ أن وصلنا إلى بير جديد، كان المعسكر مثل ورشة دائمة. في كلّ واحدةٍ من زياراته السريّة، لم يكفّ بن عايش عن الأمر بأعمال جديرة بخطّ ماجينو[1]! منذ عشرة أعوام، لم يمضِ فصل دون تعزيز دفاعات الحصن.

بعد أن نُقِلَت إليّ أقوال جلاّدينا، سارع أهلي إلى وضعي في صورة الوضع: أمر الآمر ببناء مرقَبٍ إضافيٍّ على زنزانة البنات، بشكلٍ عموديٍّ تماماً فوق الحجرة الصغيرة التي حفرنا فيها النفق.

أرهقني ذلك الظرف الطارئ الفظيع. لم يكن المكان الذي اخترته لحفر النفق عَرَضياً. كان ذلك المحور الوحيد الممكن، إن لم يكن للتواري عن المَراقِب العديدة، فعلى الأقلّ للاستفادة من زواياها الميّتة. إذا ما وُضِع مَرقَبٌ جديد يطلّ على المسار الذي نأمل أن نخرج منه، سيغدو هروباً مستحيلاً من الناحية العملية!

مع خطورة التسرّع، كنّا مرغمين على أن نتّخذ بسرعة قراراً. ولم

---

(1) اندريه ماجينو (1877-1932): رجل سياسة فرنسي، كان وزيراً للحرب (1929-1931) و(1931-1932)، أطلق اسمه على خطّ تحصينات الجبهة الشرقية الشهير. المترجم

تتح لنا الظروف سوى القليل من الخيارات. ما إن ينتهي بناء هذا المَرقَب اللعين، ستسقط مشاريعنا في الماء. نظراً لما نعرفه عن حرّاسنا الشرسين، يمكنهم بسهولة أن ينهوا العمل خلال اثنتي عشرة ساعة من البناء. أرغمنا هذا التهديد على أن نستعجل الهروب!

لم يفرض بورو مواعيد للعمل. في الجمعة هذه، وعلى وشك أن يأخذ عطلته لنهاية الأسبوع، أشار الآمر فقط بأنّ مركز المراقبة الجديد ينبغي أن يُشيَّد ويصبح قيد العمل يوم الثلاثاء التالي في أبعد تقدير. عليّ أن أخضع للحكم، ما لم نهرب خلال ثمانٍ وأربعين ساعة، ستذهب تضحياتنا وأحلامنا وآخر آمالنا سدى! فكّرت أمّي ومليكة في الأمر نفسه. في منتصف ظهيرة يوم الجمعة هذا، 17 نيسان (أبريل)، ما إن يغادر بورو لزيارة أسرته، سيكون الاستعداد للمعركة. نحن الذين كنّا نحسب بأننا سنهرب فقط في الشتاء القادم لم يعد أمامنا، منذ الآن، سوى بضع عشرات من الساعات لنتمكّن من ذلك.

ليس لدينا دقيقة واحدة لنضيّعها. وضعنا ترتيب القطعات. ساعاتنا محسوبة لكي نفرغ من آخر السنتمترات من التراب ومن الجذور التي لا تزال تسدّ مخرَج النفق. تحت هذا الضغط الشديد، خاطرنا بفتح السرداب في وضح النهار. تناوبت أخواتي على قاع المنجم طوال فترة ما بعد الظهيرة. وفي كلّ زنزانة، راقب أحدٌ من تحت الباب المصفّح. درتُ من حولي في قفصي. مضت الدقائق، ثقيلةً، خانقة. الأعصاب متوتّرة، والأفكار معذّبة بانتظار لا يُطاق، انتظرت الشفق على أحرّ من الجمر. حينما لهث المساء وانبسط الليل، ساد هدوءٌ عابر، كافٍ للتخفيف من همومنا وقلقنا. ما إن أُطفِئت الأنوار، ومع الحشرجات الأخيرة للمولّدة الكهربائية، فُتحَت المعابر. ذهبتُ إلى زنزانة البنات. وكذلك فعلت حليمة وعاشورا. خرج عبد اللطيف من فتحة لَبنته. أشركنا في الورشة أيادي جديدة! استؤنف الحفر من جديد، وحُفِر المتر المكعّب الأخير الذي يفصلنا عن الحرية، بوصةً بوصة، بغيظٍ وهيجان اليأس.

لم يكن كوع المخرج عملاً هيّناً. كان ينبغي الحفر عمودياً إلى فوق وفي الوقت نفسه تلقّي التراب على الوجه. الطرفان السفليان ملتفّان تحت السور الثاني، والجذع في زاوية قائمة، كان على كلّ واحدٍ أن يحفر فوق رأسه، مغمض العين عملياً لئلاّ يُعميه الغبار المتناثر. كنتُ وكأنني جالسٌ في غليونٍ عملاق وأمرّر ساقيّ بشكلٍ مستقيم تماماً في ساقه الذي يشكّل زاوية قائمة مع مدخنته. حفرنا، جاثمين بضيقٍ في تلك المشكاة التي يهدّد سقفها في أيّة لحظة بأن ينهار في كتلٍ تكفي لطمرنا وخنقنا.

للأسف، وقع الحادث الأكثر خطورة في «صعودنا نحو السطح» لي، ولحسن الحظّ، لم يقع لأحدٍ من أهلي. دون سابق إنذار، انهالت كتلةٌ من التراب فوقي، وطمرت جذعي بالكامل. وإذ تثبّتُ ذراعاي على طول جسمي، أبقيتُ لحسن الحظّ حبل الزلاّجة في متناول يدي. محصوراً تماماً، لم يعد بوسعي أن أتنفّس، وملأ التراب منخريّ وفمي... تحسّستُ وسط العتمة، وتمالكتُ نفسي لئلاّ أستسلم للهلع. اقتصدتُ في القليل من الهواء الذي نجحتُ في تلقّفه. مددتُ يائساً أصابع يدي المحصورة إلى جانبي محاولاً الإمساك بالحبل الرفيع. أخيراً شعرتُ به في راحة يدي وسحبته في نطاق الطاقة والعرض اللذين تركهما لي جسدي المقيّد. رأى أخي الصغير، الذي كان يحرس في الطرف الآخر من النفق، الحبل يتحرّك واندفع فوراً في السرداب ليأتي إلى نجدتي. همستُ إليه، بين لقمتي طين، بأفضل طريقة لمساعدتي. وستستمر عملية الإنقاذ ربع ساعة تقريباً، ولكنّها ستندرج إلى الأبد بين أطول دقائق حياتي!

في ليلة الجمعة 17 على السبت 18 نيسان (أبريل) 1987، فُتحَ طريق الحرية عملياً. كافحنا، بالدور، لساعاتٍ وساعات جذور اللبلاب، محتفظين مع ذلك بآخر عشرة سنتمترات من تلك اللفيفة النباتية لإخفاء المخرَج. بتنظيف تلك الجذور من الطين الذي يشدّها إلى بعضها، يمكن الشعور بالنسمة الندية التي تهبّ على الحقل وبرّيته!

استخفّ بنا الفرح. نزلَ كلٌّ منّا إلى النفق ليأتي ويشمّ عبق الحريّة.

اغرورقت عيناي بالدموع حينما شاهدتُ من خلال الجذور نجمةً مضيئة في عتمة السماء! عاد عبد اللطيف متألّقاً مع قطعةٍ من ورقة خضراء. احتفينا بتلك الغريسة الطبيعية بانفعالٍ بريء ثمّ وسّعنا قليلاً الشبكة لنتمكّن من تمرير يدنا إلى الخارج. عادت سُكينة من الحفرة ببرود بعد أن نزلت إليها في دورها. نجحت وسط العتمة أن تُخرج ذراعها ولكن حينما جسّت بيدها ما لم تستطع عيناها رؤيته، صادف كفّها عقبة فريدة... على بعد بضعة سنتمترات من مخرج النفق، صادفنا... شبكةً! هل هذا ممكن؟ في الواقع كنتُ أعتقد أنّ العريشة التي اقتحمها اللبلاب قد أُزيلت حينما أمر بن عايش ببناء السور. إذن هذا لم يحصل! رحتُ أتحقّق من سخرية القدر الظاهرة هذه، فزحفتُ إلى قاع السرداب مزوّداً بمقبض سطلٍ وكسرة مرآةٍ أخذتها من البنات. جلستُ في الكوع وأخرجت، عبر الثقب بين جذور اللبلاب، القضيب المعدني الذي ثبتُّ إلى طرفه قطعة المرآة البالغة سنتمترين مربّعين. أتاح لي ذلك المشفاق[1] فحص الخندق. لحسن الحظ، لم يكن القمر طالعاً، لأنّ انعكاساً على المرآة كان سيعرّضني للانكشاف. رأيتُ مجرّد أشكال غير واضحة، ولكن عشر سنوات من العزلة في حفرة معتمة علّمتني أن أميّز على نحوٍ أفضل في الظلمةِ.

ما إن عدتُ من النفق، اجتمعنا في مهجع أخواتي الملاصق لزنزانة أمّي. من المستحيل قصّ السياج: فهو سميكٌ جدّاً وليس لدينا كمّاشة قاطعة. ولو حاولنا بأيّة طرقة أن نتغلّب عليه، سيكون الضجيج خطيراً للغاية.

راكعين في حلقةٍ، الجذع يلامس الأرضية والذقن على مستوى البلاط، استمع الجميع إلى ملاحظاتي. لتجاوز الشبكة بالعبور من تحتها، سيكون علينا أن نمدّ السرداب لمترٍ كامل وأن نحفر مخرجاً آخر. والحال

---

(1) مشفاق: منظار الأفق ويُستَخدَم في الغواصات والمتاريس. المترجم

أن الوقت محسوبٌ علينا! شرحتُ التعديلات التي أنوي إجراءها على الخطّة: الحلّ الوحيد هو جعل هذه العقبة ورقةً منقذِة. دلّلتُ وأنا أرسم على قطعة ورق على الوسط الذي علينا «مواجهته». تابعت أمّي المداولات واضعةً وجهها في الإطار الفارغ للحَجَرة المنتزعة. اقترحتُ أن نوسّع المخرج قليلاً ليسمح للأصغر بنيةً من بيننا أن يُخرج جذعه ليقدِّم لي عرضاً مفصّلاً. انكببنا مباشرةً على العمل. نحو الساعة الواحدة صباحاً، دشّن عبد اللطيف المخرج وأخرج نفسه من بين السور والسياج. عاد وقدّم لي تقريره: يبلغ ارتفاع السياج حوالي مترين، كما كنتُ قد حفظته، ولكن كان عليّ أن أتحقّق بنفسي من طبوغرافية المكان التي تنتظرنا. ومع أنني أعرف موقعه، أردتُ أن أقدِّر على الأرض المسافة التي تفصل المَراقِب عن المسار الذي سنسلكه.

ولأنّ الفجوة لا تزال ضيّقة جدّاً لكي أتمكّن من الخروج منها، سرّعنا الإيقاع. نحو الساعة الثالثة، أنجزنا توسيع «فوهة منفَذ» النفق. والتي بدت الآن أنّها واسعة بما يكفي لأن تتيح لي الخروج منها. كان ذلك التمرين الاستكشافي ضرورياً قبل التصرّف. لم أشأ أن أباغَت حينما نفرّ.

أخيراً توصّلت إلى الخروج من التجويف. رأسي على مستوى الأرض، عاينتُ بدقّة كلّ ما يحيط بي. شعرتُ وكأنّني في برج غوّاصة طَفَتْ إلى السطح على مستوى الأمواج وترصد عدوّاً! حواسي مستنفرة وكتفاي على وجه الأرض، أرهفتُ السمع، استنشقتُ الهواء بتلذّذ، شممتُ الروائح، تفحّصت وراقبت وحلّلت. اكتسحت روائح جديدة منخريّ وأصابتني بالدوّار. رفعتُ عينيّ إلى الظلّ الشاسع للسور المتصب خلف ظهري. لامستُ بيدي السياج المغمور تماماً بالنباتات المتعرّشة. ذلك العريش، الذي كنتُ أعتبره للوهلة الأولى عائقاً، تبيّن، في النهاية، أنّه ورقة رابحة جدّية! لأنّ هذا الخندق المغطّى بالأنقاض، والمفروش

بحشيةٍ سميكةٍ من الأوراق الذابلة، يعبر بين السور الذي تجاوزناه بنصف متر وجدار اللبلاب الذي يفصلنا عن الوصول إلى الحقل المجاور. إنّه يشكّل ممرّاً طوله نحو ثلاثين متراً وعرضه يقارب الخمسين سنتمتراً، وهو خندقٌ سيحمينا، حينما نخرج من تحت الأرض، من النظرات المتطفّلة. لا بدّ أن أخزّن أقصى ما يمكن من الملاحظات حول هذا الوسط. عليّ أن أكون واثقاً من الديكور ومن المسرح الذي سيُمثّل عليه الفصل الأخير.

لأعرف المزيد حول مساحة الأرض، خرجتُ من «برجي»، وتسللتُ خارج حفرتي وزحفتُ بين سور النطاق والسياج. كانت أرضية ذلك الخندق، المغطاة بأوراق الشجر المتفسّخة، رطبة وزَلِقةً جدّاً بحيث تقدّمتُ عليها مثل زاحفةٍ. حدّدت بدقّة موقع المَرقَبين اللذين قد يطرحا مشكلة لنا. كان أحدهما على بعد حوالي ستين متراً إلى يساري والآخر حوالي ثلاثين متراً إلى يميني. وبقدر ما بقيتُ لابداً خلف عريش اللبلاب، لم يستطع شاغلو المَرقَبين أن يروني. وستمضي اللحظات الأكثر حسماً حينما سيتعلّق الأمر بتجاوز السياج... وللحدّ من هذا الخطر، قدّرتُ بأننا سوف نسلك الخندق أثناء دوران المولّدة الكهربائية.

واصلتُ الزحف بحذر، حينما ارتطم رأسي بكتلة إسمنتية من مخلّفات بناء السور. شكّلت قاعدة ممتازة، سأستخدمها كمرقاة لتخطّي السياج. لأنني سأكون السلّم للآخرين، ثمّ سأمشي في المؤخّرة. ما إن يُطفأ النور، في تمام اللحظة التي ستبتلع فيها الكشّافات أنوارها الساطعة، سوف نتسلّق اللبلاب. ومن ثمّ سندع أنفسنا ننزلق على البساط الوسيع من أوراق الشجر الخضراء . سيكون سقوطنا مخفّفاً وستتهاوى أجسادنا وسط ذلك التمويه الطبيعي. بعد أن ينقطع التيار الكهربائي، يستمر محرّك المولّدة الكهربية في الدوران لثماني دقائق كاملة. وفي هذه المدّة من الزمن، سيكون علينا أن نجتاز المترين من السياج وأن ندع أنفسنا نسقط في الجانب الآخر ونزحف وسط الحقل!

سوف يغرق الحقل في ظلامٍ مفاجئ في حين سيغطّي هدير المحرّك

على ضجّة تحرّكاتنا. والفائدة القصوى هي أنّ عيون الحرّاس المحرومة فجأةً من النور ستكون مغشية ومبهورة وتائهة ولا تتكيّف مع العتمة إلاّ بعد بضع دقائق. وهذه هي بالضبط الدقائق التي ينبغي استغلالها للهروب! لأنّه، علاوةً على كون النظر مكدّراً، ستكون طبلات آذان حرّاسنا الشرسين متعبة بضجيج المولّدة الكهربائية. باختصار للاستفادة من كلّ هذه الأوراق الرابحة، سيكون لا بدّ من فرض توقيتٍ مختارٍ بدقّة.

وفّر السياج، من بين مزايا أخرى، غطاءً لهروبنا. لن تُفتَح فوهة مخرج النفق وسط الحقل وإنّما ستبقى بين السور والعريش الكثيف. الأمر الذي سيؤخّر الاستنفار والمطاردة التي ستعقب ذلك. والهكتارات المعدودة التي تحيط بمشربية الخضرة تلك هي أرض غير مأهولة وبائرة. وبالتالي سيكون علينا أن نزحف لما يقارب ستين متراً لعبور تلك الأرض التي استُصلِحَت بتفاوت، وأن نحتمي. وسيكون علينا أن نتموضع على مسافة متساوية بين المَرقَبين. حينما نصبح في الحقل، سينبغي أن نزحف بخطٍّ مستقيم، وأن نميل، بعد أن نبتعد عن المكان، نحو أوّل قطعة أرضٍ مزروعة.

الآن وقد جسستُ نبض الوضع، عليّ أن أقرّر كم شخصاً من بيننا سيهرب. متشجعاً بالظروف المواتية المتحقّقة، ومتحمّساً بغريزتي، ومدفوعاً بعض الشيء بالكبرياء، كنتُ ميّالاً، حتى قبل كشف اللعبة، إلى أن أزيد الرهان. ما دام عليّ أن أقوم بهذا، ومهما كانت نهاية هذه المغامرة، فلن أقاوم جرأة الاندفاع والحماسة. حينما سيتبلّغ الديوان الملكي «النبأ السار»، سيكون التأثير كبيراً. . . وستكون الصدمة أكبر إذا ما تغيّب العديد من «ضيوفه»! هذا الهروب بمثابة طفلي، تخيّلته وتصوّرته وابتكرته. ولكن له أيضاً عرّابٌ وسبع إشبينات، لولاهم لما كبُر أبداً ولا مشى!

كلّ العائلة، بدون استثناء، جديرة بأن تُبحر بهذه السفينة التي صنعناها. بناءً على معرفتي، استنتجتُ أنّه يمكننا أن نهرب أربعةُ

أشخاص. كانت لمليكة الأولوية. ولأسبابٍ صحيّة، لن تغادر أمّي وحليمة وعاشورا ومريم. بقي أن نختار هل سيكون عبد اللطيف أم سُكَينة أم ماريا جزءاً من الرحلة؟ حينما تكلّمنا عن ذلك للمرّة الأولى، تدخّل أخي الصغير بقوّة:

- إذا كان علينا أن نموت، أريد على الأقلّ أن أعرف ما هو الريف والهواء الطلق!

هذه الصرخة النابعة من القلب ساوت في نظري أكثر من أكثر المرافعات مهارةً. لم أستطع سوى الخضوع لرغبته، وكذلك مليكة. أمّا بالنسبة لسُكَيْنة، فكانت لها مبادرةٌ رائعة لن أنساها أبداً: لقد جنّبتنا، مليكة وأنا، إحراجاً أليماً، بتنازلها على الفور لصالح ماريا. ولأنّ مريم واهنة جدّاً، كان لا بدّ أن تبقى واحدة من البنات لتعيد إغلاق النفق وكذلك المعبر بين زنزانتهنّ وزنزانة حليمة وعاشورا. والحال أنّ سُكينة اكتسبت بالممارسة الخبرة في هذا العمل. وسيكون عليها أيضاً أن تعيد إغلاق اللَبِنة في أسفل الجدار الفاصل لزنزانة أمّي. وسوف تسدّ رفيقتانا في الشقاء المضيقَ من طرفهما، والحفرة بين زنزانتهما وزنزانتي. وحدها الحفرة التي في زنزانتي سوف تبقى فاغرة.

اطمأننتُ. لسُكَينة مزايا عظيمة، منها حسّ التضحية. كما أنّها في نظري المؤهَّلة الأفضل لتأمين إغلاقٍ كاملٍ. أعرف أنّه بوسعنا أن نعتمد عليها تماماً لكي تغطّي من ورائنا. انجلى الليل وطلع القمر وانكشف بخجل. وإذ انتهى استكشافي، تواريت القهقرى في الخندق. نحو الساعة الرابعة صباحاً، كانت الفتحة جاهزة. بوسعنا أن نزيح الغطاء من جذور اللبلاب في أيّة لحظة؛ فقد قطعنا منها الأطراف تاركين لفيفة الدرنات تخفي فوهة المخرج. كان بوسعنا أن نهرب في تلك الليلة نفسها. ولكن لسوء الحظ، كنّا في يوم السبت والممثليات الدبلوماسية تكون مغلقة في عطلة نهاية الأسبوع! ولكون هدفنا هو أن نلجأ إلى سفارةٍ، اضطررنا أن ننتظر إلى يوم الأحد لكي نهرب.

وسرعان ما دلّنا المقدام كورنيليوس «الحمار الساعاتي» أنّه قد حان وقت إغلاق الورشة والعودة إلى جحورنا.

بزغ فجر يوم الأحد 19 نيسان (أبريل) حينما أنهينا آخر لمسات التمويه. مرهقاً بالجهد والتوتّر، غططتُ في نوم عميقٍ ولكن للأسف لمدّة قصيرة. نحو الساعة العاشرة، أيقظتني ضرباتٌ على الحائط. تطايرت السُدادة الطينية. وصلتني رسالة من أخواتي: «إنّهم يرفعون القرميد ومواد البناء إلى السطح. لن يتأخّروا في الشروع ببناء المَرقَب. أوصِل الهاتف.»

أجريتُ المطلوب مباشرةً. تحادثنا باقتضاب. يمكن لسجّانينا بين لحظةٍ وأخرى الشروع ببناء المَرقَب الجديد. لا يتطلّب هذا المحرَس على سطح زنزانة البنات سوى ثلاثة جدران صغيرة ومثلها من النوافذ المفتوحة وسقفاً من الصفيح والخشب المعاكس. وبالتالي إنجاز هذا المرصد ليس إلاّ مسألة ساعات! اتّفقنا جميعاً في الرأي على أنّه يجب أن نَسبق الحرّاس في الانطلاق ونهرب الليلة! وافق الجميع. قطعنا الاتّصال. انكبّ كلٌّ منّا على إعداد ساعة التنفيذ، المحدّدة في يوم الأحد هذا، الساعة التاسعة والنصف مساءً! بالكاد تفصلنا إحدى عشرة ساعة عن «الهروب الكبير».

استعرضتُ آخر الاستعدادات. لبّت أمّي، بالوسائل المتاحة، طلب «الإدارة» الرئيسي. فبعد خياطة «السُريجات» و«النقانق» و«الأفيال»، نجحت في أن تعدّ من «أسمالنا» ألبسة لائقة كفايةً لكي نذوب وسط الحشد الخليط لسكان المدن. سوف نمرّ دون أن يفطن لنا أحدٌ في مغربٍ أغلبية الناس فيه متواضعون. فالألبسة القديمة، البالية بعض الشيء، أو الرديئة النوعية، شائعة في شوارع المملكة كما هي بزّات سمالتو في القصر وفي محيطه. سعينا للحصول على أصغر قطعة نسيجٍ داكنٍ، أصغر بطانة قاتمة. طلبتُ من أمّي أن ترتّق الأسمال القديمة التي سنخرج بها إلى الأرض المكشوفة، بمزقٍ من نسيجٍ أسود اللون أو كحليّ. كما أوصيتُها على أقنعة. سنحمل ألبستنا المدينية مكدّسة في كيسٍ نسيجيّ. وسوف

نضع في خُرجٍ آخرٍ داكن اللون دفاتر الحكاية التي روتها لنا مليكة، ودفاتر حكاياتي الأسطورية وأشعاري. ولن نحمل معنا إلاّ مطرة صغيرة من الماء، معدّة من قارورةٍ بلاستيكية. ويجب أن تكون ممتلئة إلى أن تطرد أصغر فقاعة هوائية. يجب ألاّ تصدر أيّة طبطبة أثناء زحفنا على الأرض! تسلّحتُ بقضيبين حديديين وبسكّينٍ. دون أن أنسى «والتر عيار 9 ملم» خاصّتنا. . . كما سأجلب معي اثني عشر عود ثقاب وسيجارتين ونصف.

فكّرنا أيضاً في المشكلة التي قد يطرحها تسكّعٌ في الشوارع دون مال. انعدام الفلوس قد يقصّر مدّة فرارنا. . . احتفظنا بتذكارٍ صغيرٍ من والدنا: إنّها السلسلة الذهبية لساعة كان قد اشتراها من الهند الصينية. أتذكّر أنني سألته عنها ذات يوم:

- لماذا تبتاع شيئاً برّاقاً لا يحاكي لا أذواقك ولا عاداتك، علاوةً على أنّك لا ترتديه أبداً؟

قال لي:

- كنتُ مقامراً بمبالغ كبيرة. وحتى لا أهدر كلّ أرصدتي، استثمرتُ في الذهب آملاً أن ذلك سيفيد في حالة العوز للمال. شاء القدر أن تبقى هذه السلسلة في علبةٍ عتيقة. تفضّل، احتفظ بها تذكاراً. . . لحالات العوز.

لم يكن والدي يفكّر أنّ كلامه سيصحّ إلى هذه الدرجة. لقد قُدِّر لهذه السلسلة المصير الغريب بأن تُشترى في سايغون من قبل نقيبٍ شابّ، وأن ترسو في مأوى للمحتضرين، لتساعد في النهاية أولاده، بعد نحو أربعين عاماً، على النجاح في فرارهم! باختصار، لم نحتفظ من السلسلة سوى بالمشبك الذي حُفِر على وجهه اسم والدي وعلى قفاه رقم قيده في الجيش الفرنسي. صقلنا الوجهين لنزيل كلّ إشارة مثيرة للشبهة. بحيث اغتنت صرّتنا ببضع عشرات الغرامات من الذهب، والتي سوف تكون مفيدة جدّاً، كما سنرى فيما بعد!

وكتفصيلٍ أخير، كنتُ قد طلبتُ من عاشورا قبل ثلاثة أشهر أن توفّر كشتبانات الخياطة من البهارات التي تقطّر لنا للطبخ. أفادتني مخالطتي المستمرّة للكلاب البوليسية المدرّبة، حينما كنتُ مراهقاً، في أن أتحسّب: فأنا أمتلك جُرِياً من التوابل النفيسة التي، بإضافتها إلى قليلٍ من الدم، تضلّل الحيوانات المقتفية للآثار. نويتُ استخدام الطريقة بنثره على طريقي مثل **الصوص الصغير**[1] حتى وإن كان الشعير الذي سأمتلكه في حقائبي أكثر إثارة للخوف من شعير الحكاية. للتخلّص من جلاوزة الملك، سينبغي جعل سحاياه تمشي أكثر من «مرشّة التوابل» بكثير!

انقضى عصر يوم الأحد ذاك وسط سعار التحضيرات. عملياً، لم ننم منذ ستّ وثلاثين ساعة. وها قد انقضت عشرة أسابيع ونحن نحفر دون توقّف. ولكن في هذا الرهان بكلّ شيء، تتولّد طاقتنا من يأسنا، وصبرنا رهنٌ بإيماننا، ومصدر شراستنا الظلم الذي نعانيه. وإذا كانت قوّة الجسد تظهر أحياناً مفيدة في النزاعات الصغيرة، فإنّ بعض المعارك لا تُكسَب إلاّ بقوّة الروح.

في الساعة الخامسة عصراً، عاد حرّاسنا من أجل «تقديم الحساء». ولأنّ بورو غائبٌ، أنهى فريق السخرة توزيع القصعة وخرج ثانية من «مربّع الضيوف» دون أن ينبس بكلمة واحدة. ضجيج الجزم العسكرية التي تصرّ على الممرّ، والمفاتيح التي تقوقئ في الأقفال، والأقفال النقّالة التي تصفق على الأبواب المصفّحة، والمغاليق التي تصرّ في أخاديدها الضخمة، كلّ سيمفونية الشقاء، لازمة اليأس المضجرة هذه، خلال بضع ساعات، إن شاء الله، لن أعود أسمعها أبداً. سأكون بعيداً أو سأكون ميّتاً!

إنّها الساعة السابعة والنصف، والنهار يتراجع. كانت زنزانتي مظلمة وباردة. ستدور المولّدة الكهربائية من الساعة الثامنة والنصف، سأفتح معبري، وسيبدأ العدّ العكسي.

---

(1) عنوان والشخصية الرئيسية لحكاية الكاتب الفرنسي بيرو: Petit Poucet. المترجم

بانتظار ذلك، وعلى ضوء «مصباحي الروماني»، خربشتُ على المزق الصغيرة من «الورق المنزلي» رسالةً إلى العديد من الشخصيات العالمية. إذا ما نجحتُ في الوصول إلى مركزٍ للبريد سأرسل هذه الخربشات إلى جوزيه آرتور مع عنوانٍ وحيد: «إذاعة فرنسا الدولية، برنامج **بوب كلوب**، باريس»، لأنّه كان، مع مذيعين وصحافيين آخرين في الإذاعة، رفيقاً في بؤسنا. أكثر من كونه مهنياً، كنّا معجبين بالرجل. كتبتُ إليه كلمة باسمنا جميعاً لأطلب منه مساعدتنا: «ليس لنا سواك ونحن واثقون من أننا لن نندم على خيارنا. وحده التعويض الكبير بإنقاذ عائلة كاملة راكعة تحت ثقل صليبِ سيكافئك. باسم ذويك الذين تعزّهم، لا تتخلّ عنّا، يا سيّد آرتور؛ أنقذنا».

رجوت مقدّم برنامج **بوب كلوب**، مداهناً إيّاه، بأن يتكرّم بإرسال نداء إغاثتنا إلى فرانسوا ميتران ويوحنا بولص الثاني ورونالد ريغان وايلي ويزل ووجان دانييل وميشيل بيكولي وإيڤ مونتان وسيمون سينيوريه، الذي كنا نجهل وفاته، وآلان ديلون، أحد أصدقاء عنفوان الشباب، وكاترين دونوڤ وبيير ديسبروج واكتفيت بهم! دون أن أنسى ملكة إنكلترة ومارغريت تاتشر، وذكّرتهما بأنّ بلدهما الجميل قد سلّم طيّاري 16 آب (أغسطس) 1972، الذين التجأوا إلى جبل طارق، وبأنّه، بذلك، مسؤولٌ مسؤولية كبرى عن محنتنا! أرفقت نداءَ استغاثتنا بقصيدةٍ عنوانها «صفحات أحزاننا».

حاولنا أن ننام لبضع دقائق، ولكن بلا جدوى. كلّ ثانية تمرّ تقرّبنا من الخاتمة، تزيد من اضطرابنا، وتغذّي تلهّفنا. لم أعد أركّز إلاّ على الخطّة. أعددتُ مراراً في ذهني المعاينة الكاملة لسيرها.

في الساعة الثامنة والنصف، حشرجت المولّدة الكهربائية ثمّ انقضّت هادرةً. ملأ ضجيجها الحقول المحيطة. قبل أن أندسّ تحت حاجز جارتيّ لأذهب إلى زنزانة أخواتي، توجّهتُ إلى الحائط ولاطفتُ بيدي صور رفاقي المطبوعة بالرطوبة.

عانقتُ إيما للمرّة الأخيرة:

- وداعاً، يا حلوتي، لقد آن الأوان، عليّ أن أرحل... صلّي لأجلنا، تضامني معنا، عاهديني على أنّك سترافقيننا لتحمينا!

وسوف تفي بوعدها: في عام 2001، سوف أكتشف صدفةً، وأنا أعاين روزنامات التنبؤات الجوية على فرانس2، أنّ 19 نيسان (أبريل)، يوم هروبنا، هو يوم إيما!

عندما عدتُ إلى زنزانة أخواتي، كنّ قد فتحن السرداب.

بانتظار أن أعطي إشارة الانطلاق، اجتمعنا في الحجرة الصغيرة التي تستخدمها أخواتي مهجعاً. سُحِبَت لَبِنة أسفل الجدار. من الجهة الأخرى، مدّت أمّي الجاثية رقبتها، وأطلّت بوجهها من خلال الإطار الفارغ لحجرها المنتَزَع. التأمنا، منبطحين أو زافرين، حول تلك الكوّة التي انساب منها تيارٌ هوائيٌّ عشوائيّ. فاحت رائحة نتنة، محمّلة أحياناً بذرّاتٍ من الغبار، من تلك الفتحة. أغشت أعيننا وقطّبت أجفاننا. من الطرف الآخر، مدّت أمي بيأس ذراعيها النحيلتين ويديها التالفتين لتلمسنا وتجسّنا واحداً واحداً. منذ خمسة عشر عاماً وهي تشاهد محنة ذريتها ومحنتها الشخصية، دون حتى أن ترى أولادها وهم يكبرون، ويصبحون رجالاً ونساء. والآن ليس بوسعها سوى أن تلمسهم من خلال كوّة، قبل أن ينطلقوا في مغامرة مجنونة سيقامرون فيها بمصيرهم ويخاطرون بحياتهم، أو على الأقلّ بما تبقّى لهم منها... تركتُ أهلي يطيلون في ما تمنّيناه أن يكون إلى لقاءٍ، مدركين تماماً أنّه قد يكون وداعاً أبدياً...

نزلتُ إلى النفق حتى المخرج لكي أتأكّد من أنّ كلّ شيء على ما يُرام. حينما أخرجتُ جذعي من الحفرة، طمأنني ضجيج المولّدة الكهربائية. زحفتُ في الخندق المسيّج في آخر معاينة. بدا كلّ شيء مواتياً. رجعتُ زاحفاً القهقرى إلى الخندق.

لدى عودتي، اختزلنا فيوض المشاعر. حان وقت فراقنا. عرضتُ للمرّة الأخيرة للمغادرين الطريقة الصحيحة للزحف، دون رفع الرأس أو الكتفين أو الخاصرتين عن الأرض. دنت اللحظة، «قبّلنا» أمّنا. عبر فجوة اللَبِنة، تلامست أيادينا، وتعانقت أصابعنا للمرّة الأخيرة. همست لنا أمّي والغصّة في حلقها:

- ليبارككم الله... ومهما حصل سأبقى فخورةً بكم، وبوالدكم، ولو كان بوسعه أن يراكم لكان هو أيضاً فخوراً بنا...

تناولنا واقفين وبسرعة «قهوةً» وبسكويتة طحين. ثمّ ارتدينا ألبستنا الحربية. وكانت عبارة عن أسمال مرقّعة في كلّ مكان برقعٍ من أقمشة غير منسجمة، شريطة أن تميل نحو السواد. وبدافع التوفير، كانت أقنعتنا تكشف عن طرف جباهنا وحرف أنوفنا وقليلٍ من وجناتنا. طلبتُ من الجميع أن يدهنوا الوجوه وظهر الأيادي بسُخام الشمعة. كدّسنا ألبستنا وكتاباتنا و«عتادنا» في خُرجين من نسيجٍ أسود اللون. وسوف أحملها، لأخفّف عن الآخرين حينما سنزحف. أجرينا للمرّة الأخيرة قائمة المراجعة. حينما أصبحنا على أهبة الانطلاق، عانقنا مريم وسُكَينة وحليمة وعاشورا. كان التوتّر قويّاً ولكنّ الأمل كان أقوى. كانت اللحظة وداعاً رسمياً ولكنّها ظلّت رزينة. أظهر الجميع رباطة جأشٍ ووقاراً. إذا نجحنا في الفرار، فسنحتاج إلى اثنتي عشرة ساعة لكي نلجأ إلى سفارةٍ. لأنّه منذ الساعة العاشرة من صباح الغدّ سيُعلَن الاستنفار.

حان الآن وقت الرحيل... وقبل أن ندخل الواحد وراء الآخر في النفق، كانت تعليماتي حازمة:

- سأكون على رأس المسير. وسيكون على الآخرين أن يتّبعوا حرفياً وفي كلّ الأحوال حركاتي ويقتدوا بي. إن توقّفت، عليهم أن يفعلوا الشيء نفسه. مهما جرى، وإذا ما كُشِفنا، لا يجب في أيّة حالٍ من الأحوال النهوض أو الجري. في حال فتح النار، يجب التزام الهدوء،

والالتصاق بالأرض، ومواصلة الزحف، على أن يتّخذ كلٌّ منّا اتّجاهاً مختلفاً.

نحو الساعة التاسعة والنصف مساءً، اندسستُ أوّلاً في النفق. ما إن خرجتُ بين السور والسياج، تمدّدت على حافة الحفرة لأساعد الآخرين على الخروج منها. بالنسبة لعبد اللطيف وماريا جرى كلّ شيء سريعاً ودون عقبات. أخرجت مليكة جذعها وبقيت محصورة عند خصرها. جثوت على ركبتيّ وأنا أسحبها بكلّ قوّتي. كانت المسكينة على وشك أن تتراجع حينما جاءت سُكَينة من ورائها لنجدتها. مرّت دقائق طويلة مثل ساعات. يئِسَت أختي الصغيرة ولم تكفّ عن الهمس لمليكة:

- أسرعي، يا كيكا، أسرعي، وإلاّ عودي، هذا يجازف بإفشال كلّ شيء!

دفعت مليكة بكلّ طاقتها وسحبتها بكلّ عضلاتي. كتمت بتقطيبٍ تأوّهاً ينتزعه منها الألم. وتمالكتُ الألم الذي سبّبه لي الجهد العنيف. وكوسيلة أخيرة، ركعت على ركبةٍ واحدة لأجعل مساعدتي أكثر فاعلية، وأزيد من قوة الجذب التصاعدية التي أمارسها على جذع أختي. أمسكتها بقوّة من تحت ذراعيها لأحاول إخراجها من الأرض مثل سدادةٍ من قارورتها. همست لي:

لا أمرّ، هذا مستحيل... هيّا، اذهبوا من دوني، قبل أن يفوت الأوان...

كنتُ ومليكة قريبين جدّاً من بعضنا، ومتّحدين جدّاً، ومكمّلَين لبعضنا في المحن، بحيث لم أستطع التخلّي عن مشاركتها لنا هذا الطريق؛ سيكون ذلك في غاية الحماقة! بعد الكثير من التضحيات والجهود المبذولة من الجميع، يتمزّق قلبي بالأساس لأنني لم أتمكّن من اصطحاب الجميع. في حياتنا السابقة، كنا نتقاسم، مليكة وأنا، الكثير من الألفة والتوافق، وكان لنا عملياً الأصدقاء أنفسهم. وما كان أثناء حياة أبي علاقة وفاقٍ وتفاهماً أخوياً، حوّلته الآلام والمحن إلى اتّحاد «أخوة السلاح».

بلغ حنقي أوجه. وفي محاولة يائسة، مددتُ جسمي إلى ما وراء حدوده، وكزّت مليكة على فكّيها لئلاّ تصرخ. تملّصت أخيراً من الفوهة، تاركةً فيه عشرين سنتمتراً من جلد وركها وفخذيها. ما إن أخرجتها، التصقنا على الأرض، لنستعيد أنفاسنا. تمدّد عبد اللطيف وماريا في الخندق، أمامنا. مررتُ فوقهما لأتقدّم الرتل. كنّا قد اتّفقنا قبل الانطلاق أنّه سيكون على المغادرين أن يقتفوا أثري ويكونوا منتبهين لأدنى حركة من حركاتي، وأن يقفوا في كلّ الظروف موقفي. ما دام المحرّك يدور، بوسعنا عند اللزوم أن نتهامس. متمدّدين في رتل، في ذلك الممرّ الضيّق ذي الخمسين سنتمتراً، زحفنا بصمت. ذقن واحدنا يلامس عقبيّ الآخر، تقدم موكبنا كاليساريع بين جدار السور والسياج المغطّى باللبلاب. تقدّمنا منبطحين في ذلك الخندق الرطب متوجّهين إلى يسارنا. سرنا بعكس المَرقَب الأقرب إلى فوهة النفق. كان يقع على بعد حوالي ثلاثين متراً إلى يميننا على زاوية زنزانتي في طرف المبنى. وككلّ المراصد المحيطة بباحة «مربّع الضيوف»، كان يبلغ حوالي ثمانية أمتار ارتفاعاً ويطلّ على سطح السجن والحقول المحيطة به. وقد اعتاد الحراس المناوبون فيه، على مدى تلك السنوات الطويلة، أن يركّزوا انتباههم على داخل المعسكر لا على الحقول الواقعة خلف ظهورهم. لاسيما منذ أن ضاعف السور الجدار الخارجي لزنازيننا.

واصلنا تقدّمنا البطيء والشديد التدقيق باتّجاه المَرقَب الذي يراقب مدخل المعسكر. لم يكن ارتفاعه يتجاوز ثلاثة أمتار. علينا، قبل إطفاء الأنوار، أن نتّخذ مكاننا في منتصف المسافة بين مرقب اليمين والشمال. لأنّه ما إن نتخطّى السياج، سنكون في خطّ تسديدها وعلى بعد حوالي خمسين متراً من أحدهما كما الآخر. وسيكون علينا أن نجتاز بأسرع ما يمكن الحقل المجاور لنكون بمأمنٍ في الأرضي المزروعة التي تمتد بعده. وستكون هذه العشرات من الأمتار من الأرض الجرداء الأكثر خطورةً. سيكون علينا استغلال الدقائق القليلة التي يكون فيها النور

مقطوعاً والمحرّك لا يزال يدور. لا يزال قطارنا البشري يسلك دربه لبضع دقائق. أمرت كلَّ واحدٍ بألاّ يعود يرفّ له جفن وأن يلبد متجمّداً إلى أن يهبط على طبقة اللبلاب في الجانب الآخر من السياج. هذه البركة اليخضورية، التي تمتدّ على مسافةِ مترٍ من قاعدة السياج، سوف تخفّف من سقوطنا وتفيدنا كمخبأ طبيعي قبل أن ننطلق في الجري وسط الحقل. توقفنا على مستوى ارتفاع الكتلة الإسمنتية الصغيرة التي لاحظتها أثناء استكشافي. سوف نستخدمها كمرقاة لارتقاء السور. انتظرنا، ملتصقين بالأرض. رفعتُ وجهي من خلال الأوراق الكثيفة المغطّية للسياج وعاينتُ بمنتهى الانتباه الجزء الصغير من السياج الذي تأهّبنا لاجتيازه. مسحت نظرتي بلا توقّف كلّ سنتمترٍ مربّعٍ من تلك الأرض الجرداء. تصوّرتُ ما يمكنه أن يكون أفضل مسارٍ نسلكه لنستفيد من التضاريس غير المستوية للأرض. انعكس ضوء العديد من كشّافات النور الموجّهة على السور الداخلي للمعسكر بالكاد على الأمتار الأولى من الأرض البور. ولكنّه كان مخفّفاً إلى حدٍّ كبير بحيث تضاءل إلى نورٍ معاكسٍ شاحب، إلى هالةٍ غير واضحةٍ جعلتها الرطوبة الليلية معتمة؛ وما بعد ذلك، كان الليل البهيم. أبقيتُ يدي كواقية ضوء فوق عينيّ. لم أشأ أن يكشف بريقٌ ما على حدقتيّ وجودي، مثلما تثير حزمةٌ ضوئية حتماً الحدقة المومِضة لهرٍّ في العتمة. ما زالت المولّدة الكهربائية تزمجر. ما إن يُقطَع التيار الكهربائي، بينما يستمرّ المحرّك بالهدير، سوف أُعطي الإشارة. لازمني دعاءٌ واحد: «أتمنّى أن تكون خاتمة هذه السنوات الخمس عشرة المرعبة من السجن نهاية سعيدة أو موتاً مشرّفاً...»

كان الانتظار عصيباً. بلغنا ضجيجٌ خفيف من بعيد، يغطّي عليه الصخب الآليّ. كان المحرّك القويّ الذي يغذّي بالكهرباء «المزرعة-السجن» يعكس خفيةً ذبذباته على طول السياج. ألصقتُ أذني بالسلاسل الفولاذية، فشعرتُ بموجة منعشة تسري فيها، لحنٌ غريب، هسيسٌ معدني. غيَّر محرّك المولِّدة نظام عمله فجأةً. أصبح اصطكاك مكابسه

أقلّ حدّةً وأقلّ ثباتاً. يعرف مسمعي جيّداً هذا الانخفاض الخفيف لشدّة دوران المحرّك واختلافه والذي ينبئ بالانقطاع الوشيك للتيار. أعطيتُ إشارة لمليكة الأقرب إليّ، فنقلت الإنذار للآخرين. غرق المعسكر في الظلام. واستمرّت المولّدة في الدوران. فجأةً، بدا لنا صوته الذي يضعف مضخّماً وسط الظلام. إنّها اللحظة المناسبة! نهضتُ بقفزةٍ واحدة. وفعل الآخرون الأمر ذاته. وضعتُ قدماً على الأكَمة الإسمنتية، شكّل فخذي، المثنيّ، في خطٍّ مستقيم زاويةً قائمة مع ربلة ساقي. فبات بالنسبة لي مرقاةً أقذف من فوقها الهاربين الواحد تلو الآخر إلى الجانب الآخر من السياج. حرصتُ على أن أصاحب كلّ بهلوانٍ، ممسكاً بقوّة بمعاصمهم إلى أن تصبح أقدامهم على مسافة عشرين سنتمتراً عن الأرض. جرى كلّ شيء بسرعة. في أقلّ من ثلاثين ثانية عبر عبد اللطيف ومليكة وماريا السياج اللبلابي. شكّلت ظلالهم الغامضة المتجمعّة على بعضها، على حدّ الحقل، كتلةً قاتمة، مسطّحة، دون زوايا ناتئة. غلّفهم الغطاء النباتي الذي غاصت فيه أجسادهم وأخفاهم بشكلٍ ناجع. ولحقتُ بهم في الحال، مستخدماً الكتلة الإسمنتية مِقْفَزاً. متشبّثاً بقمّة أحد الأعمدة الإسمنتية، التي تسند السياج بفواصل منتظمة، أمسكتُ بها وكأنني ممسكٌ بكرةٍ صغيرة، وقفزتُ من الأرض بقوّة وكأنني أقفز إلى ظهر حصانٍ. حلّقتُ فوق الواجهة الخضراء لأنزل مثنيّ الساقين. وسط حماستي، تركتُ جذعي يندفع إلى الأمام حتى أنّ صدري بات لي بمثابة عجلات هبوط. سقطتُ على مقربة ذراعٍ من إخوتي المتحجّرين في مكانهم، وأنفي بين اللبلاب. وما زال المولّد يرتجّ. غطّى صخبه اللاسع الحقول وأكّد لي فرص نجاحنا. بحثت يد مليكة ويدي عن بعضهما وتشابكتا بقوّة. ومن خلال ضغطٍ قصير نقلنا إلى بعضنا أكثر من إشارة أو تشجيع. لم نحتَج إلى التحادث لكي نسمع بعضنا بوضوح. دون كلمة واحدة فهمنا على بعضنا مثلما يمكن فقط أن يفعل ذلك أخٌ وأختٌ، باتا في الشقاء صديقين وشريكين بعمقٍ وحميمية.

بهذا الضغط البسيط من اليد، تقاسمنا شعوراً واحداً وفكرةً واحدة: «إننا على وشك النجاح!»

منذ قطع التيار، أحصيتُ كلّ ثانية مرّت. لم تكن معنا ساعة ومن الجوهريّ أن أحتفظ بمفهوم الوقت. لدينا خمس أو ستّ دقائق لنعبر الأرض الجرداء ونتوارى وسط الحقول المزروعة... بدأنا بالزحف. كانت كلّ حواسي يقظة. ضبطتُ إيقاع تموّجاتنا على إيقاع أدنى صوتٍ مشبوهٍ قد يبلغني. كلّما قطعنا أربعة أو خمسة أمتار، توقّفنا لثلاث ثواني. ثمّ، بإشارةٍ منّي، استأنفنا تقدّمنا ملتوين على وجه الأرض وغارزين رؤوسنا تماماً بين أكتافنا. سُرنا لحوالي خمسة عشر متراً... مرّ أقل من دقيقتين مذ عبرنا السياج.

واصلت المولّدة الكهربائية ضجيجها، ونحن ما زلنا نتقدّم. واصلتُ حساب الثواني. كان الهواء مشبعاً بالرطوبة بحيث تموّجت غماماتٌ من الضباب فوق وجه الحقول. رغم التركيز والتوتّر اللذين تتطلّبهما اللحظة، لم أستطع أن أمنع ألف إحساسٍ جديدٍ من أن تتدفّق عليّ، وتسري في جسدي إلى درجة بحيث حاول ما هو غريزيّ وملموس أن ينافسا اهتمامي بما هو ذهنيّ وتأمّلي. رائحة العشب المبلّل، ونداوة النسيم المحمّل بشيءٍ من الطلاوة، وبعبق الحشيش، وبرائحة بعيدة من إسطبلٍ، وبشذى لطيفٍ وحلوٍ لبساتين دخلت كلّ مسامات جسدي. صدمتني روائح الحياة هذه، المنسيّة منذ أمدٍ طويل، بعنف، وغمرتني بابتهاجٍ مماثلٍ للنشوة. كانت زنزانتي المحصورة قد وضعت حاسّة الشمّ عندي في «عطالة تقنية» إن صحّ القول. في قاع «البئر الجديد»، الروائح الوحيدة التي يشمّها المرء هي روائح الغائط والموت!

وجهي نحو الأرض، رفعتُ زاوية جفني نحو قبّة السماء المعتمة. يا للروعة! لقد أنساني صِغَرُ البشر عظمتَها.

انتقلت غيومٌ ضامرة بلا اكتراثٍ، مشكّلةً سحابات بيضاء لامتناهية، تاركةً واحات متوهّجة من النجوم تظهر من خلال الفُرجات الفاتنة. سبّب

لي ذلك التشوّش في الأحاسيس اللذيذة المبهجة، الحميمة جدّاً، الحسيّة جدّاً، نشوةً غامرة. يمكنهم قتلي في مكاني على أن أموت مغتبطاً!

تجاوزنا الآن الأمتار الخمسة والعشرين. لم يكفّ الضباب الخفيف الذي يعمّ ليالي الساحل الأطلسي عن التكثّف. بقي علينا ما يقارب نصف مسافة الطريق الذي علينا اجتيازه. على مستوى الأعشاب، رفعتُ باستمرار بصري نحو حقل الفول الذي يموج في نهاية الأرض البائرة. سيطرتُ على نفسي لئلاّ أستسلم للتعجّل. جهدتُ لكي أحفظ لتقدّمنا الانتظام والحذر. سمعنا من بعيد نباح كلابٍ. تكثر في المنطقة الأراضي الزراعية. وقد اعتاد المزارعون أن يتركوا بضعة كلاب في أراضيهم. توضّحت الأصوات، واقترب النُباح. أبطأتُ التقدّم. انبثق خيالٌ وسط الظُلمة. توقّفنا عن الزحف. هاجمنا كلبٌ مكشّر الأنياب. أوقف جريه العنيف على بعدِ ثلاثة أمتار منّي. جعله وبر رقبته القويّة المنتَفِش أكثر شراسةً. مع ذلك بقي محترساً. هدّد ولكنّه لم يهاجم. عموماً، لا تنقضّ الكلاب على شبحٍ ساكنٍ ممدّدٍ على الأرض. فهي تتحيَّر وتتردّد، ولا تصبح مغتاظة إلاّ إذا رأت شبحاً متحركاً يهرب من أمامها. تجمّدنا في مكاننا. دسستُ يدي في أحد الخُرَج النسيجية لأتناول القضيب الحديديّ. مع ذلك لم يغيِّب ردُّ الفعل هذا عن بالي الأولوية المطلقة: ألا نُلفت أنظار المَراقِب التي تركناها خلفنا. لو أنني ضربتُ ذلك الكلب لما أدّى ذلك سوى إلى المزيد من الضوضاء. تقدّمتُ لبضعة سنتمترات. بينما مليكة وعبد اللطيف وماريا مكوّمون بلا حراك. حادوا قليلاً على يميني ورؤوسهم على ارتفاع ربلة ساقي. بحيثُ وجدتُ نفسي وجهاً لوجه مع الحيوان. استأنف المولوسيّ[1] رقصةً غريبة. تارةً، قائمتاه الأماميّتان ممدودتين، مقوّس الظهر، نافر الردفين، الخطم على مستوى العشب، ينخر براطيله المقلوبة، أنيابه لامعة، ولسانه لاعب. وتارةً، يستأنف نباحه

---

(1) كلب حراسة من بلاد المولوس. المترجم

العنيف وهو يدور من حول نفسه نصف دوراتٍ وكأنّه يريد عضّ ذَنَبه. كنتُ سأقدّم له طواعية ذراعي ليلتهما، على أن يسكت!

ارتفع صوتٌ من على مَرقَبٍ:

- ماذا يجري؟

متجمّدين في مكاننا، تسطّحنا مثل طلميات[1]. توقّفنا حتى عن التنفّس. أكّدت شدّة الصوت أنّ مصدره على مسافة، في كلّ الأحوال، معقولةٍ كفايةً لأطمئنّ على فرص المرور دون أن يفطن لنا أحدٌ.

قال شاغلُ البُريج الآخر:

- لا تقلق! هذه كلاب جارنا.. لا بدّ أنّها صادفت أرنباً بريّاً أو جرذاً!

بالكاد أنهى كلامه حينما أضاء زميله مصباح جيب. حلّقت الحزمة الضوئية من فوقنا وتوقّفت على بعد بضعة أمتارٍ من أمامنا، مباشرةً على المولوسيّ المستمرّ في رقصه المسعور. في اللحظة نفسها، اقترب كلبٌ آخر من الأوّل خبباً، دون حتى أن ينبح. شمّ مؤخّرة مثيله ودار دورةً كاملة من حوله. ثمّ عاد النغلان أدراجهما وتواريا بصمت. حينها، أخفق ضوء مصباح الجيب في تعقّبهما وسط الضباب؛ فخفَتَ ومن ثمّ انطفأ... بلغنا صدى آخر من المَرقَب الآخر:

- قلتُ لك أنّ لا شيء هناك! إنّها الكلاب!

لم ننسحب. لم أنتظر سوى ثلاث ثوانٍ واستأنفنا طرقنا المتعرّجة. انطلقنا كالأحناش فوق طبقة من الندى. تفصلنا أقلّ من عشرة أمتار عن حقل الفول. لم يكفّ الهواء عن التكثّف. استحالت السحابةُ المتناثرة التي كانت تعوم فوق الأرباض ضبابةً تغلّف المكان. تصاعدت أبخرةٌ من الأرض وحامت فوقها سحابةٌ ساكنة على ارتفاع أربعين سنتمتراً.. لم

(1) طلمية: حلوى مسطّحة الشكل من الدقيق والزبدة والبيض. المترجم

نعرف إن كانت الأرض هي التي تفوح أم أنّ السماء هي التي تفيض وترهق سطحها. لم أكن أحلم بظروف ممتازة كهذه لتغطية فرارنا! وطمأننا ذلك. امتلكني إيمانٌ عميق بأنّ يداً خفية تصاحبنا وتحمينا. وسواءٌ كان هذا اليقين خاطئاً أم لا، فإنّه سيمنحنا ميزةً نفيسةً جدّاً: الإيمان بمشروعنا، والثقة بنجاحه، لاسيما وأننا نجونا من الأسوأ ونجحنا في الأكثر قسوةً. ما دمنا وصلنا إلى هذه المرحلة، فنحن قادرون على تجاوز الشَرك الذي سيُنصَب في كلّ المملكة لاستعادتنا. حينما يجتاز المرءُ جبلاً، يشعر بأنّه قادرٌ على القفز من فوق سياجٍ. وسيكون الفرار في كلّ الأحوال أقلّ صعوبةً من الهروب من «مربّع الضِيوف»... فالجري أسهل من الانبعاث من جوف الأرض! راودت نبوءة عرّاف أسّا ذهننا.

بضعة أذرعٍ أخرى ونكون في مأمن. استنفدنا الوقت الذي كان قد مُنِح لنا لعبور الأرض البور. سمعنا آخر قرقرات المولّدة الكهربائية. فقد سعلت وتلعثمت واختنقت أخيراً في جشأةٍ راعدة. خيّم صمتٌ جليدي على المعسكر.

في اللحظة نفسها، بلغنا هدفنا. استغرقنا في أخاديد حقل الفول. واندسسنا في الفواصل المنتظمة التي تفصل السواقي المستقيمة تماماً. في تلك الممرّات الضيّقة التي لم نرَ نهايتها، كانت التربة خصبةً وتلعها ناعمة. كان لذلك الطمي رائحة الحياة، لا الرائحة النتنة للسرداب، روائح العفونة اللاذعة، الخانقة، لسراديب الأموات خاصّتنا! زحفنا وسط تلك الخضرة البالغة على الأقلّ نصف مترٍ. ولكن خمس عشرة سنةً من الحَبس جعلتها بالنسبة لنا غزيرة كغابةٍ استوائية. سيكون من المستحيل أن أُعيد في بضعة أسطر ما خنقه كلّ هذا الحرمان والكبت في داخلنا. وتعجز الكلمات عن إعادة تسجيل ما تمكّن أن يسبّبه لنا ذلك العدد الضخم من الأحاسيس التي كنّا نعتقد بأنّها قد بَطَلَتْ والتي تلقّيناها بصورةٍ واضحة وفي ظروفٍ بالغة الشدّة. لم أتجرّأ على مجرّد تخيّل ما يجري في رأس عبد اللطيف الذي لم يعرف شيئاً عن الحياة، والذي لا بدّ أنّ لهذه المعرفة تأثيراً عليه يفوق

ما لها من تأثيرٍ، غير اعتياديٍّ، علينا نحن إخوته الكبار. . .

بعد أن قطعنا مترين أو ثلاثة وسط حقل الفول، قرفصنا بحذرٍ لكي نلتفت إلى الوراء. ثمّ عُدنا أدراجنا منبطحين، إلى أن بلغنا تخوم قطعة الأرض المزروعة. بالكاد وصلت رؤوسنا إلى حدّ أوراق الشجر. تدلّت على جباهنا سنافٌ غزيرة، نصف شفّافة، مبرنقة. من هناك حيث كنّا، قدّرنا على نحوٍ أفضل مساحة الأرض الجرداء والوقت المقدّر لعبورها. . . حتى وإن كنّا لم نبلغ بعد تماماً مدى مأثرتنا، اجتاحتني فرحة غامرة: هذا الهروب، هو نتاج حياتي. لن أبادل الفخر الذي سوف يلهمني إلى الأبد بألف عام من السلطة والعزّ. إنّ التعويض الذي يشعر به المرء في الانتصار على الظلم هو أكثر إثارةً بكثير من المنحة البائسة لانتقامٍ أعمى وشخصيّ. إذا كان التاريخ يبدو أحياناً متساهلاً مع العنف السياسيّ، حينما يُفترَض أنّ هذا الأخير تمليه الأيديولوجيا أو يمليها منطق الدولة، فإنّه نادراً ما يتسامح مع العمل اللامبرّر. ولا يسامح أبداً انتهاك الحرمات المتمثّل في مهاجمة عائلة مَنْ يُحاربه المرء.

استمرّ الضباب. بقينا لبضع دقائق لابدين في حقل الفول. بدا الشبح المخيف للمعسكر في إطارٍ زغِبٍ. بمراقبه، وبجدار سوره الضخم الذي تغطّي حوافه العلوية مناكش وحواجز شائكة، كان «البئر الجديد» المرئيّ من الخارج أكثر رعباً! شعرنا جميعاً بالتمزّق نفسه في قلوبنا، لعلمنا بأنّ أهلنا لايزالون سجناء تلك الجدران الفظيعة! شدّت مليكة نفسها إليّ. ارتعش صوتها. احتبست دمعةً:

- لا يمكنني أن أصدّق أنّنا قد دُفنّا داخل ذاك المكان كلّ هذه السنين. . . ويجعلني التفكير في أنّ الآخرين لا يزالون هناك مجنونة.

وضعتُ حدّاً لتلك الثورة المشروعة التي شعرنا بها جميعاً. حاولتُ أن أجد العذر الأكثر قابليةً للإقناع:

- مليكة، قولي في نفسكِ بأننا إن نجحنا في استنفار العالم سيُنقَذُ الآخرون. لن يمسّوا شعرةً منهم إن نجحنا في الاتّصال بوسائل الإعلام

الأجنبية... ولكن لو كنّا فشلنا لسوء الحظّ، ولو أنّهم كانوا قد أوقفونا من قبل، لا أجرؤ حتى أن أتصوّر ما كانوا سيفعلونه بنا جميعاً...

ولتهدئة الجو، وقبل أن نسلك الطريق نحو المجهول، قطفنا السِنف بغزارة والتهمنا الفول الطازج منها. ولن ننسى أبداً لذّة وبهجة «غذاء الحريّة» الأوّل ذاك. قبل وضعه في فمنا، رفعنا نخب صحّة أهلنا الذين تركناهم بحسرةٍ خلفنا، «للرفاق الباقين هناك»... خبأنا من الفول قدر ما استطعنا في خُرَجِنا وجيوبنا. سيكون وقودنا للطريق. استمرّ الضباب. ابتعدنا وهربنا.

وسوف تروي لنا، بعد ذلك بزمنٍ طويل، السجينات الخمس اللواتي بقين في «مربّع الضيوف» كيف عشن تلك الساعات الطويلة من الانتظار والقلق. ولهنّ الفضل أكثر منّا. لأننا كنّا وسط نيران الحدث، بينما هنّ في قلق الانتظار. لقد سمعن الكلاب وهي تنبح. ظلّت أمّي خائرة القوى في زنزانتها. راكعة قبالة الجدار، لم تكفّ عن الصلاة حتى الورع. تكوّرت مريم وحليمة وعاشورا على حشيّةٍ وضعنها على حافة البئر الشاقولي. ومن حينٍ لآخر، أمالت واحدة منهنّ بوجهها على الحفرة واسترقت السمع. انتظرن أن تعود سُكينة لهنّ بالأخبار. ظلّت أختي الصغيرة وجذعها خارج النفق بين السور والسياج لأكثر من ساعة، ولم تتحرّك من هناك إلى أن تأكّدت من أننا ابتعدنا عن المكان. عند عودتها، أخبرت الأخيرة بأنّ ضباباً غير مأمولٍ ساهم في فرارنا. بكت أمّي وحمدت الله على استجابته لدعواتها.

شرعت أمّي والبنات، متشجّعات بنجاحنا، في إعادة إغلاق النفق والمعابر. وثابرن كالعادة على أصغر تفصيل.

الفصل الثامن عشر

الفرار

ونحن نبتعد عن «البئر الجديد»، لم يتجرأ أحدٌ منّا أن يلتفت إلى الظلّ الشاسع ذي الزوايا الغنيّة بالمعاقل والمراقِب. لا شكّ أننا خشينا من أن تغمرنا الرغبة الجامحة في الذهاب لتحرير الأشباح الآخرين المدفونين تحت ذلك الحصن المنيع. علاوة على ذلك، لو التفتنا إلى الوراء بدافع الشفقة، مثلما فعلت ذلك زوجة لوط لأسبابٍ أخرى وهي تهرب من سدوم وعمورة، لما تحوّلنا إلى أصنامٍ متحجّرة وإنّما إلى بركةٍ من الدموع. علّمتنا المحنة منذ زمنٍ طويلٍ أنّه يمكن للمساوئ أن تكون خميرة الإرادة، وأنّه ربّ ضارة نافعة. لم يعد لدينا سوى فكرة واحدة، هدف وحيد: أن ننجح في إطلاق نداء الاستغاثة الذي سينقذنا جميعاً.

منذ أن هربنا من مأوى المحتَضَرين، سرنا بخطٍّ مستقيم إلى الأمام عبر الحقول. وسرعان ما سلكنا ممرّاً ترابياً على أمل أن يقودنا إلى طريقٍ ما. ولكنّ المنطقة كانت عبارة عن متاهة من الطرقات المتداخلة والمتقاطعة التي تقسّم تلك الأراضي إلى ما لا نهاية. ومرّ أكثر من ساعة ونحن نمشي خبباً وسط متاهةٍ من الدروب الرملية الضيّقة المتقاطعة والمتداخلة والتي تزيد من حيرتنا. ولكننا لم نستسلم للإحباط وواصلنا تقدّمنا بإيقاع جنود المشاة.

سرعان ما وصلنا إلى طريقٍ فرعية أعرض من الأخرى. سلكناها،

ولكننا أبطأنا خطونا حذراً. انفصلتُ عن المجموعة وتقدّمتها حوالي ستّة أمتار. لمحتُ إلى يميني شكلاً مكعّباً ثابتاً على قارعة الطريق... كانت حزمة من الحشيش! هل قاربنا حضوراً بشرياً؟ أَهذه علامة خيرٍ أم شرّ؟

حينما تنخفض الرؤية بفعل الظلام، تصبح حاسة السمع قويّة لدرجة أنّها تصبح بمثابة العيون. سمعنا كلاباً تنبح. ومع أنّ صدى الرهط كان في البداية بعيداً، اقتضى ردّ الفعل أن نرتمي على الأرض وسط الأدغال. ملتصقاً بالأرض، وسط الأعشاب الطويلة، رفعتُ رأسي قليلاً، لأتيح لنفسي، بفضل الأصوات، استباق ردِّ فعلٍ. فجأةً لاح لي وسط الصبابة توهّجٌ عشوائيّ. وإذ بقيتُ متنبّهاً للنباح الذي اقترب، ركّزتُ انتباهي على ذلك الوميض الغريب كجمرة متّقدة تغمز بين السماء والأرض... أثار ارتفاعه وضوؤه الخاطف حيرتي. لم أنجح في التحقّق من ذلك «البزوغ» أو تحديده عندما مزّقت نوبةُ سعالٍ الهواء... بلغتنا كطلقة بندقية. فتبيّن لي الأمر غير المعقول: إنّه حارسٌ يدخّن، جاثم على مَرقَبه... لقد استدرنا لنعود إلى خلف المعسكر! زحفتُ قافلاً إلى الخلف نحو مليكة وعبد اللطيف وماريا، الذين كانوا يسيرون خلفي بجموح. ولأنّ الرهط يبقى عموماً على تخوم مزرعته، تخوم أرضه، سارعنا إلى الابتعاد عن النغال. ما إن ابتعدنا بما يكفي لننهض، ركضنا بلا توقّف. وهذه المرّة، متجنّبين الدروب الضيّقة، قطعنا المزروعات المشبعة بالندى. ابتلّت أسمالنا، وأصبحت الضبابة ضباباً كثيفاً. كنّا نعتمد على القمر أو الزُّهرة في توجّهنا، ولكنّ، غلّفتنا السماء الخفيضة والزَغِبة. يتعلّق الأمر بعدم الخضوع لهلع ذبابةٍ حبيسةٍ تحت جرسٍ زجاجيٍّ...

استرخينا، لاهثين، في حقل قمح. كنّا عطشى ولكن لا بدّ أن نقتصد في الماء. كان الأولى أن نستخدمه في اغتسالنا إذا ما وصلنا إلى المدنية. ما دمنا لم نعثر على جدولٍ لنغتسل، سيكون علينا الاحتفاظ بمائنا. اتّفقنا على جرعة من الماء لكلِّ واحدٍ منّا. أخرجتُ سيجارةً من السيجارتين والنصف التي جلبتها معي. تشاورنا متربّعين وسط مكانٍ

مجهول. ارتأيتُ أن نستريح لبضع دقائق قبل أن نستأنف المسير. بقي أن نتمنّى أن يتبدّد الضباب. وبانتظار ذلك، علينا أن نواصل تقدّمنا دون أيّة بوصلة سوى فطرتنا.

كان يفترض أنّ الساعة قد تجاوزت منتصف الليل حينما استأنفنا طريقنا. تجنّبنا هذه المرّة الدروب وسرنا وسط الأراضي. ولاستنهاض المجموعة، لم أكفّ عن تذكيرها بأجل الاستحقاق المعلّق كمقصلةٍ فوق رؤوسنا: لم يعد لدينا سوى حوالي عشر ساعات لنلجأ إلى سفارةٍ. ولعلمنا بأنّ سلامة كلّ «الضيوف» متوقّفة على نجاحنا، لم تبالِ أجسادنا بالتعب ولا بالألم. مدفوعين بإرادة رفيعة، أثارت المهمّة التي شعرنا بأنّنا نتولاّها همّتنا وعزيمتنا. بعد ساعةٍ ونصف من المشي في أرضٍ وعرة، انهرنا على ركبنا لنلتقط أنفاسنا للحظة. كانت أقدامنا مرضوضة ولكننا لم نحسّ بشيء. كانت «مشّاياتنا»، تلك الجوارب المبطّنة، المرقّعة لألف مرّة، مع النعل المصنوع من المطاط الداخلي للعجلات، شبيهة بالموكاسانات الهندية[1]: فعّالة في كتم الضجيج ولكنها رديئة في الحماية من الحصى الذربة. اقتُلع ظفرٌ من قدم مليكة بارتطامه بحجرٍ. حاولت كيفما اتّفق أن أخفّف عنها الألم بقطعة قماشٍ مبلّلة بالماء. لم يعد الظفر معلّقاً إلاّ بنهاية مزقةٍ من اللحم. وضعنا ضمادةً مرتجلة، وانطلقنا من جديد. مرّت ساعةٌ أخرى، ونحن لا نزال نسير وسط أوقيانوسٍ من القمح، مجدّفين بأذرعنا لنتقدّم. تطلّب مخور هكتارات عديدة من القمح من سيقاننا الطاقة نفسها التي يبذلها الجسم ليتقدّم في مياهٍ صاخبة.

خفّ الضباب تدريجيّاً. سارت الغيوم في صفوفٍ متناثرة. لعبت قطعةٌ من القمر لعبة التخبئة مع تلك السحابة المتعجّلة. حينما بدأت السماء تصفو، استطعنا أخيراً أن نتوجّه باتّجاه الجنوب- الجنوب غرب. ورغبةً منّا في مضاعفة حظوظنا بنوعٍ من فأل، طلبنا من أخي الصغير أن

---

(1) موكاسان: حذاء هنود أمريكا الشمالية، وهو واطئ وبلا سيور. المترجم

يسير في المقدّمة، وأن يقودنا. وإذ لم يرَ ولم يعرف قط شيئاً عن الحياة، اكتشفها بقسوةٍ في هروبٍ خياليٍّ وفرارٍ جامحٍ... حسب المبدأ «أيادي الأطفال الأبرياء بركة»، أمَلْنا أن تضعنا براءته على الطريق الصحيح.

لم نكن ملتزمين بالمُهَل. وسيحين الأوان، عندما نصل إلى طريقٍ رئيسيٍّ.

هملج عبد اللطيف أمامنا على بعد بضعة أمتار. لم أكفّ عن مراقبته. سار غالباً مرفوع الرأس، متطلّعاً إلى النجوم، مفتوناً، مذهولاً. أحياناً لمحتُ في وجهه ابتسامةً تنمّ عن سعادة بالغة. فجأةً، اختفى عن حقل رؤيتي، وكأنّ الأرض ابتلعته. أسرعتُ. سمعنا صوته هائجاً تماماً:

- إنّه صلب، إنّه صلب، أعتقد أننا قد نجحنا! أعتقد أنني وجدته...!

ولأنّه لا يعرف ما هو الطريق المزفّت، تردّد المسكين في أن يكون جازماً خشية أن يخيّب أملنا. وقع أخي في الخندق الذي يحدّ حقل القمح ويحاذي الطريق. جسسنا بأيدينا وأقدامنا الإسفلتَ بجنون:

- إنّه هو، إنّه الطريق! إنّه القار، إنّه القار!

ضربنا الأرض، هائجين، بأقدامنا فرحاً في رقصٍ عفويٍّ.

لا وقت لنضيّعه. تخلّصنا من «بزّاتنا الحربية» في حقل القمح، ونظّفنا وجوهنا من سخام الشمع بزيتِ عبوةٍ صغيرةٍ جلبناها معنا، ثمّ اغتسلنا بالقليل من الماء المتبقّي في «مطرتنا» وارتدينا «ملابسنا المدينية». كانت الأحذية التي أعدّتها أمّي في كيسٍ جلديٍّ مريحة قليلاً مثل فروة سفّور ومزّقت خياطتها الداخلية أقدامنا. ولكنّ هذا شرٌّ لا بدّ منه إن أردنا أن نختلط بالناس. متحمّسين بالحظّ الذي ابتسم لنا حتى تلك اللحظة، سلكنا الطريق الريفيّ الضيّق. سرتُ مستطلعاً. تقدّمنا بمحاذاة الأعشاب العالية للخندق متحسّبين للارتماء فيه عند أدنى خطرٍ. بعد ساعة، لمحنا ضوءاً من بعيد واقتربنا لنلجأ إليه. كان مصباحاً كهربائياً يقع على بعد

بضع مئاتٍ من الأمتار. تقدّمنا أكثر. توضّح شبح عربة مزرعة. كانت عجلاتها منفّسة، وجنباتها متآكلة بالصدأ. تجمّع مليكة وعبد اللطيف وماريا لينتظروني خلف «الناقلة العملاقة». . .

سرتُ على ترابٍ مركومٍ تنتصب في طرفه عمارة كبيرة بيضاء. وتنفتح بوابة حديدية واسعة لونها أزرق حائل على فناءٍ مستطيلٍ بلاطاته دبقة. أهي مزرعة؟ تقدّمتُ ممسكاً بالقضيب المعدني المخفيّ خلف ظهري. ارتفع صوتٌ تهجّمي وسط العتمة:

- مَنْ هناك؟

ظهر شبحٌ من بين الظلمةِ، وفي يده هراوةٌ. أقبل رجلٌ يغطّي رأسه جلبابٌ سميك من الصوف الداكن نحوي بخطى لامبالية. لا شكّ أنّه حارس المكان. رحتُ للقائه تاركاً القضيب الفولاذي ينزلق ويسقط أرضاً. بعد التحيات المعتادة، اختلقتُ سيناريو لإقناعه. قدّمتُ نفسي كعامل مهاجر، عائد للتوّ من أوروبا بسبب حالة وفاة في العائلة. شرحتُ له أنّ سيارتي تعطّلت على بعد بضعة كيلومترات من هنا وأنني جئتُ أبحثُ عمّن يصلّحها. وحينما تأكّدتُ من أنّ محدّثي يبدي تعاطفاً، أعلمته بأن برفقتي زوجتي وأخوها وأختها، وعدتُ في طلب مليكة وعبد اللطيف وماريا. حينما عدنا، مؤمنين بحسن الضيافة الشهير للشعب المغربي، عرض الحارس أن يقاسمنا نصف الكوب من الشاي الذي تبقّى له. تمالكنا، ونحن في منتهى العطش، رغبتنا في الجري على أوّل صنبورٍ نراه وانتظرنا بضع دقائق من الحديث قبل أن نطلب من مضيفنا إن كان من الممكن أن نحصل على القليل من الماء. فجلب لنا الرجل المقدام دورقاً بلاستيكياً قديماً مملوءاً حتى حافته:

- يحزنني حقاً ألا أستطيع أن أقدّم لكم شيئاً غير هذا. أسكن على بعد ستة كيلومترات من هنا. أعمل حارساً ليلياً في مركز الألبان هذا. . .

بعد أن تعمّقنا في الحديث أكثر، سمعنا للمرّة الأولى اسم المنطقة التي دُفِنّا فيها طوال خمسة عشر عاماً: بير جديد. . .

سألت الحارس إن كان يعرف وسيلةً للوصول إلى مرأب لكي أجد قاطرة رافعة.

- آه، لأجل ذلك، سيتعيّن عليك الذهاب إلى قرية بير-جديد، مركز المنطقة... وهي تبعد سبعة عشر كيلومتراً من هنا، عبر الطريق. وإلاّ لن تجد أيّ شيء آخر في كلّ أنحاء المنطقة.

ألححتُ عليه قائلاً إنّ زوجتي قد خرجت حديثاً من عملية جراحية، وإنّ نقاهتها لا تسمح لها بالسير لمسافة طويلة.

- حسنٌ، الإمكانية الوحيدة التي بوسعي أن أطرحها عليك هي انتظار قدوم الشاحنة التي تجمع الحليب. إنّها تمرّ يومياً في الساعة الرابعة، والساعة الآن هي الثالثة... لن يطول انتظاركم.

تمّت حساباتي سريعاً. بما أنّنا لن نقطع سبعة عشر كيلومتراً في ساعة، من الأفضل انتظار الشاحنة. وعدنا الحارس بإقناع السائق، صديقه، بأن يصحبنا معه. ولم يمنعنا ذلك من أن نقلق حول التوقيت الذي ينبغي التقيّد به لنصبح في مأمن. تجمّعنا إلى جدار مركز الألبان ونحن نراقب الطريق. اضطررتُ لأن أصغي صامتاً للحارس الذي تبيّن أنّه ثرثار.

أخيراً، في الساعة الرابعة صباحاً، دخلت الشاحنة إلى المبنى وعبّأت حمولتها. حينما تهيّأت للمغادرة، تسلّق صاحبنا مرقاةً وتكلّم للحظةٍ مع السائق، الذي أنزل زجاج نافذته. تعلّقنا بشفاههما، منتظرين بفارغ الصبر أن تُعطى لنا إشارة الانطلاق. ومع يأسنا الشديد، انطلقت الشاحنة من دوننا. سارعتُ إلى جانب السائق لأحاول التفاوض معه، ولكنّه لم يتوقّف تحت خطر سحقي. كظمتُ غضبي وأسرعتُ نحو الحارس:

- إذن، ما الذي جرى؟ قلتَ لي إنّ زميلك سيأخذنا معه!

أجابني:

- اهدأ، أقسم لك بالله على أنني وفيتُ بوعدي، ولكنه رفض.

تملّكنا الغيظ، ملأنا مطرتنا بالماء، واستأنفنا طريقنا. أتمنى أن يلهمنا

الله القوّة على تحمّل الكيلومترات السبعة عشر التي تفصلنا عن القرية. . .

مشينا لساعةٍ أخرى بإيقاع ثابت. تضرّجت أقدامنا بالدم. في أقلّ من خمس ساعات، سيكون الإنذار قد أُعطي ونحن لا نزال في المنطقة. خدّر استحقاق الزمن الذي أثقل كاهلنا أجسادنا. انصبّت كلّ إرادتنا نحو هدفٍ وحيد: أن نصبح في مأمن قبل صيحة الهجوم!

على مدى عشرة كيلومترات لم نصادف كائناً حيّاً. على جانبي الطريق الضيّق، تمتد حقول القمح، التي تعقبها مزروعات أخرى، على مدى البصر. حاذينا للحظةٍ نسقاً من مستطيلات إسمنتية يشكّل سقفها التوتيائيّ عريشاً. كانت إسطبلات فارغة تماماً.

مع بزوغ أولى خيوط ضوء الفجر، أبطأنا، متعبين، خطونا. أخرج بزوغ الفجر، ونداوة الهواء، وأريج الأرض المشبعة بالندى، وروائح الطبيعة المحمحمة، المتمطّية، المستيقظة، كلّ هذا السحر الفتّان، من داخلنا سيلاً من الأحاسيس المتناقضة والانفعالات الشديدة. اختلطت مشاعرنا. لم ندرِ إن كان علينا أن نستسلم لتلك اللحظة الساحرة أم نتألّم لحرماننا الطويل منها. تدافعت أحاسيسنا، ولكن بعد التفكير، طفا ردّ فعلٍ وحيد: غريزة البقاء. ركّزنا تفكيرنا من جديد على الفرار، واستعدنا إيقاعنا وواصلنا سيرنا القسري.

فجأةً، سمعنا صوت مركبة تقترب. أشرنا لها ولكنّ العربة لم تتوقّف. فتابعنا طريقنا. بعد بضع دقائق، مرّت شاحنة. وهي كذلك لم تبالِ بنا. كنّا محبطين، ولكن حركة المرور تلك أظهرت لنا أننا لم نعد بعيدين كثيراً عن المدنية. أخيراً استوقفتنا شاحنة ثقيلة ثالثة. بدا السائق الشاب، البالغ حوالي ثلاثين سنة، ودوداً وعطوفاً. والأهم من ذلك، لم يكن فضولياً:

- أودّ أن أصحبكم حتى بير-جديد، ولكن لا يحقّ لي أن آخذ سوى راكبين في قمرتي. ولذلك سأُنزلكم قبل القرية ببضع مئات من الأمتار،

لأنّ هناك مخفراً للدرك على مدخل البلدة. لن يبقى لكم سوى الذهاب إليها مشياً على الأقدام. فنحن على بعد ستّة أو سبعة كيلومترات من بير-جديد.

دون أن يدرك أهمية المساعدة والمعلومة اللتين قدّمهما لنا، أنزلنا الرجل بلطف دون أن يسألنا شيئاً. ألقت الشمس أولى إشعاعاتها. ومنذ سنوات طويلة، هذه هي المرّة الأولى التي نرى فيها الشمس تشرق.

دخلنا إلى القرية مثل فلاحي ضواحيها. هذه أوّل «حاضرة بشرية» نراها منذ خمسة عشر عاماً. على نحوٍ غريب، وعند التّماس المفاجئ مع آلاف الروائح، اختصرتها حاسّة شمّنا في رائحة وحيدة: عبق الحرية.

سنحتاج إلى كتابٍ كاملٍ لمحاولة التعبير عمّا شعرنا به عندما عُدنا بقسوة إلى الحياة. كيف ننقل ما يمكن لأمواتٍ-أحياء خرجوا للتوّ من قبورهم أن يشعروا به باستغراقهم وسط الناس... كان لقاؤنا بالحياة في غاية القسوة والتعقيد بحيث سيكون من المضجر جدّاً وصفه. ولكن من بين جميعنا، كان أخي الصغير عبد اللطيف هو من تلقاها بالطريقة الأكثر عنفاً: كيف يمكن لشابٍ دُفِن في الثالثة من عمره أن يتلقّى بخلاف ذلك صدمة اكتشاف الحياة في الثامنة عشرة من عمره وفي مثل ظروفٍ كهذه؟

توجّهنا نحو ما بدا أنّه «المركز العصبي» للبلدة، مقهى يقع على طريق المقاطعة الذي يربط بير-جديد بالدار البيضاء. انتظرني عبد اللطيف ومليكة وماريا على رصيفٍ تحت مصباح. توجّهت إلى رصيف الحانة حيث يحتسي شابٌ جالسٌ إلى طاولة قهوته. بعد التحيات المعتادة، شرحتُ له أنّ عميّ رئيس الأطباء في مستوصفٍ في آنفا[1] قد توفّي قبل قليل. سألته عن وسيلةٍ للوصول إلى العاصمة الاقتصادية بأسرع ما يمكن لأحضر مع عائلتي الجنازة. بدا الرجل لطيفاً وقدّم لي سيجارةً:

- أنا آسف... تعازيّ الصادقة... سيكون من دواعي سروري أن

---

(1). حيٌّ سكني راق في الدار البيضاء، يسمّيه البعض الهوليوود الصغيرة.

أستطيع مساعدتك. لديّ صديقٌ يذهب كلّ صباح في الساعة السابعة إلى الدار البيضاء. لديه سيارة L4 بيضاء اللون. وهو يأتي لتناول فطوره في هذا المقهى. سأتكلّم معه. سيصطحبكم بطيبة خاطر.

ملسوعاً بحادثتنا المزعجة في مركز الألبان، تردّدتُ في أن أنتظر مركبةً قد لا تقلّنا. ولكن ليس لديّ الخيار:

- تفضّل بالجلوس؛ سأقدّم لك كوباً من الشاي... أم قهوة؟

طمأنني التأكّد من أن المغاربة لم يفقدوا شيئاً من لطفهم وكرمهم. رفضتُ دعوته بأدب، متذرّعاً بأنّه عليّ أن أذهب أوّلاً في طلب زوجتي وأختها وأخيها. وقبل أن أنصرف، قلتُ له:

- سأعود قبل الساعة السابعة. أتمنّى أن يأخذنا صديقك معه...

مع بقية الفارين، اختبأنا في زقاقٍ مهجورٍ عملياً، وراقبنا الوضع. كرّرت للمرّة الأخيرة لكلّ واحدٍ التصرّف المطلوب وسط حشد الناس: السير ببطء، عدم التحديق في أيّ شخص، عدم التكلّم إلاّ في حال لم يكن بوسعنا القيام بخلاف ذلك. وبشكل خاص، تركنا، مليكة وأنا، نجيب عن الأسئلة المربكة. وفي الختام، اتّفقنا على أنّه في حال واجهنا صعوبة، سوف ننفصل إلى مجموعتين: مليكة مع عبد اللطيف وماريا معي.

في الوقت المحدّد، ذهبنا إلى الموعد. وصلت سيارة L4 ولكنها غادرت بعد خمس دقائق. أُصبنا بالوجوم. عاد وسيطنا متأسّفاً:

- حقّاً لستم محظوظين، لدى صديقي مشكلة عائلية؛ لن يذهب اليوم إلى الدار البيضاء... لم يعد لديكم سوى انتظار سيارة كورسا[1]. تمرّ البعض منها، ولكنّها تُقتَحَم من قبل العاملين في المدينة.

انتظرنا محاولين أن نكظم قلقنا. بلغت الساعة حوالي السابعة والنصف. خلال ما يقارب تسعين دقيقة، ستُفتح الحجرة الفاصلة في

---

(1) تسمية بالعربية العاميّة تُطلق على سيارات الأجرة العاملة بين المدن.

«مربّع الضيوف». وسيدع بورو وزمرته حليمة وعاشورا تخرجان لكي توزّعان ماء الصباح. ولأننا في يوم الاثنين، والآمر لا يعود من عطلته إلاّ في الساعة التاسعة والنصف، وأحياناً أكثر، قد يمنحنا هذا بعض الوقت الإضافي. قضينا على الانتظار. حينما سيُعلن الاستنفار، سنصبح حيوانات طريدة سيُطلَق في أثرها رهطٌ مسعور. أخيراً ركنت سيارة أجرة خضراء زيتونية أمام رصيف المقهى، واقتُحِمَت مباشرة من قبل حوالي اثني عشر شخصاً تزاحموا على الصعود إليها. ترك السائق المرشّحين للسفر يتشاتموا، دون أن يوقفهم إلاّ ليُصعِد دافعي المزيد. تركتُ أخي وأختيّ على بعد حوالي عشرة أمتار، التففتُ حول سيارة المرسيدس ديزل القديمة وتوجّهت نحو جهة السائق. بالكاد نظر إليّ الرجل الذي وضع ذراعه على البوابة. بعد أن أخبرته بالحزن الذي أصابني، ذهبتُ مباشرةً إلى الهدف:

- وسط الاستعجال لم أحمل معي نقوداً ولكن إن وافقت على إيصالنا إلى آنفا فسأدفع لك 800 درهم.

ظلّ لامبالياً. عندئذٍ، أخرجتُ الصفيحة الذهبية من السلسلة. رازها في راحة يده مرتاباً، نظر إليّ محدّقاً للحظة، ثم قال لي:

- موافق، اصعدوا إلى السيارة!

أشرتُ بيدي للآخرين. وفي أقلّ من الوقت اللازم لقول ذلك، أصبحنا داخل السيارة، أنا في المقعد الأمامي، وأخي وأختاي في المقعد الخلفي. انطلقت السيارة. كانت الساعة التاسعة إلاّ ربعاً. لم يطرح السائق، الفرِح جدّاً بالصفقة التي أبرمها، علينا أيّ سؤال. سرنا بكلّ طيش نحو الدار البيضاء.

تبادلنا القليل جدّاً من الكلمات. مع ذلك كنّا، مليكة وأنا، قلقين بشأن الأصغرين. خاصّة بشأن عبد اللطيف الذي لم يركب قطّ سيارةً وهو يرى المنظر الطبيعي يمرّ عبر زجاج النوافذ بسرعةٍ فلكية بالنسبة له. أُصِبنا

جميعاً بالدوّار. لدى دخولنا إلى ضواحي العاصمة الاقتصادية، أوضح لي السائق أنّه لا يحقّ له السير وسط المدينة، لكونه لا يحمل إجازة سوقٍ إلاّ للمسافات الطويلة. طمأنته:

- لا تقلق، ابن حميّ الآخر مفوّض مقاطعة. إذا أوقفنا شرطيّ، دعني أتكلّم معه وسأجيد إقناعه بحالتنا الطارئة... توقّف وضَعْ غطاءً على لافتة سيارة أجرة. سيتيح لنا هذا أن نسير دون أن يفطن لنا أحدٌ ما دمتَ تملك حقّ السير بصفة خاصّة...

لم تغظ الفكرة صاحبنا. انطلقنا من جديد لنغوص في المدينة. مع الكثافة البشرية والأرصفة المزدحمة وآلاف السيارات والرائحة المنبعثة من عوادمها وضجيج مزاميرها والحشد الكثيف والألوان المبرقشة واللوحات الإعلانية والعمارات والمتاجر ودور السينما والمقاهي، تلقّينا الحياة المدينية بكلّ مظهرها وكأننا تحت تأثير باعثٍ قويٍّ للهذيان. بذلتُ جهداً يفوق طاقة البشر كي أبقى واقعياً ولِئلاّ تغرب مهمّتنا عن بالي. كرّر السائق مرّتين ليطلب مني أن أعطيه عنواناً. العنوان الوحيد الذي تذكّرته هو عنوان أحد أصدقاء طفولتي. فقلتُ له:

- 13، جادة ميموزا، آنفا.

جالت سيارة الأجرة دون أن تعثر عليه. ودون سابق إنذار، اصطفّت أمام ثُكنةٍ، أنزل السائق زجاج النافذة واستعلم من الموظّف. لم نعد نحرّك جفناً... أرسلنا الحارس إلى محطة خدمة واقعة بعد مجموعتين من البيوت:

- اسألوا العامل المسنّ في المحطّة، لقد شاهد هذا الحيّ وهو يُشيَّد حجراً بحجر... إن لم يكن قادراً على تلبيتكم، إذاً لا أحد بوسعه القيام بذلك...

شكره السائق وانطلقنا من جديد. كارثة! كان البيتُ مهجوراً وحديقته بائرة! فغضب سائق التاكسي ونزل من المرسيدس صارخاً واتّخذ من بعض المارة شهوداً:

- ولكن ما معنى هذا! إنّكم تسخرون منّي. . . !

انحنيتُ نحو مليكة وهمستُ لها:

- مرّري لي خفيةً القضيب الحديدي واستعدّي. . . إذا ما استمرّ في إثارة هذه البلبلة، سأقتله ونفرّ بالسيارة. توجّهت إلى السائق واستبقتُ ما خشيته:

- ما دمتَ غير راضٍ، هيّا بنا في الحال إلى الشرطة! سوف تشرح لهم ما تفعله مع سيارتك في المدينة، وبالمناسبة ذاتها سأخبرهم بأنّك قد سرقتَ منّي المشبك الذهبي!

فعل التهديد فعله. أنزلنا الرجل من سيارته المرسيدس، وأقلع بأقصى سرعة وهو يشتمنا. بلغت الساعة العاشرة. لا بدّ أن الإنذار قد أُطلق ونحن مزروعون على الرصيف في حيٍّ سكنيٍّ في الدار البيضاء من دون أدنى مقوّمات العيش. . .

وقفنا أمام باب ڤيلا فاخرة. فتحت لنا خادمة البوابة. شرحتُ لها أنني وعائلتي من أغادير ولا نعرف الدار البيضاء؛ وأننا تعرّضنا لحادث سيارة ونرغب في استخدام الهاتف لنطلب مساعدة ابن عمّنا. في الحقيقة، وكمحاولة أخيرة، أردنا أن نتّصل بمنزل جدّي في الرباط. كنّا نحتفظ في ذاكرتنا برقمه منذ خمسة عشر عاماً رغم أنّ هناك احتمالات قوية في أن يكون شنّا قد غيّر منزله. وما كنّا نجهله أيضاً هو أنّ نظام الترقيم قد تغيّر وتحوّلت الأرقام من خماسية إلى سداسية.

بدت المرأة الشابّة عطوفة، وأجابتنا:

- لو كان الأمر بيدي، لساعدتكم بكلّ سرور، ولكن عليّ أن أسأل سيّدي.

أغلقت البوابة وتوارت. عادت بعد حوالي عشر دقائق لتقول:

- آسفة، يطلب السيد منكم أن تعطوه الرقم وهو سيوصل الرسالة إلى عائلتكم. . .

في اللحظة ذاتها، ظهر صاحب الدار على درج المدخل، مرتدياً مئزر حمّام أبيض اللون. مشيقاً، وأنيقاً ومهذّباً، دعانا بيده وهو قادمٌ للقائنا معرّفاً بنفسه اعتذر ذلك الطبيب الاختصاصيّ في القلب والذي يدعى الرافعي عن تردّده في تلبية طلبنا. وشرح أنّه كان في الحمام. دعانا للدخول لنعرض له مشكلتنا. جعلته حالتنا الجسدية المذرية يعتقد بأننا من جماعات الفلاحين التي تتدفّق على المدن وتعيش فيها مؤقّتاً. بعد أن استمع إلينا، قدّم لنا هاتفاً، وقال:

- تفضّلوا وخذوا راحتكم. اتّصلوا بأهلكم. سأترككم للحظة لأكمل ارتداء ملابسي. ستقدّم لكم الخادمة فطوراً، تصرّفوا وكأنّكم في بيتكم...

لم نندهش كثيراً لكلّ تلك الغيرة الوطنية والكرم. طوال محنتنا، جهدتُ لأن أجنّب أخي الصغير الفظاظة والحقد الأرعن. لم أكفّ عن تمجيد مزايا الشعب المغربي حتى لا يخلط بين وطنه وجلاّديه. وسُعدتُ لأنّه استطاع أن يتأكّد من أنّ أهل الخير موجودون! اتّصلنا، مليكة وأنا، بالرباط. أخبرنا صوتٌ مجهول بأنّ نظام الترقيم قد تغيّر. فقرّرنا الذهاب إلى منزل أصدقاء آخرين منذ أيام الصبا مقيمين في الدار البيضاء. ولأنّ العالم الميسور الصغير للدار البيضاء يعرف بعضه، سيكون بوسع الطبيب بقليلٍ من الحظ أن يرشدنا.

جلسنا جنباً إلى جنب حول طاولةٍ واطئة عامرة بالطعام. الشرشف أبيض، أدوات المائدة من الخزف، الكؤوس متلألئة، الأطباق عامرة بالفطائر والحلويات العسلية والمحمّصة، والكرواسان الذهبيّ اللون، والشرائح الجميلة للخبز الكامل، والصحون المرصّعة الطافحة بالمربّى، ورائحة القهوة الحقيقية والشاي بالنعناع، وتلال مكعّبات السكر الأبيض، أحدث كلّ هذا تكزّزاً لدينا. بالكاد تجرأنا على تحمّل ذلك التبذير بالنظر، فما بالكم بمدّ اليد إليه. همستُ لمليكة:

- كم شهراً كان سيلزمك حتى توفّري هذا القدر من السكّر؟

لم تكفّ عاملة المنزل عن حثّنا على الأكل بلا تحفّظ. أخذ كلٌّ منّا الكأس التي قدمتّها لنا. داعبتُ بأصابعي البلّور ودفّأتُ يديّ بملامسته. أنعشني مصدرُ الحرارة ذلك. تردّدنا في وضع الشاي المغلي على شفاهنا، وفي الانكباب على الطعام حتى التخمة. مع كلّ لقمة، استرعينا بعضنا للنظام. كان عبد اللطيف مشدوهاً. لم يكفّ عن السؤال:

- ما هذا؟

ولأنّ معداتنا قد اعتادت على الصوم، شبعنا بسرعة. عاد مستضيفنا. احتسينا قهوةً مرّة أخرى. خلال حديثٍ عاديّ، اقترح علينا الطبيب أن ينقلنا إلى حيث نريد. سألناه عن عائلة بن جلّون. وحتى لا نثير فضوله، قلنا له إنّ عمّنا يعمل بستانيّاً عندهم.

- نعم، إنّهم يسكنون قريباً من هنا؛ تعالوا، سأنقلكم إلى هناك.

أعقب الدكتور القول بالفعل، فتركنا أمام ڤيلا بن جلّون، وودّعنا وانصرف، ودائماً باللهجة الودّية نفسها. وفي أيامه الأخيرة، سوف يعيّن الحسن الثاني هذا الطبيب المختصّ بالأمراض القلبية عضواً في واحدة من أرفع المحاكم العدلية في الدولة. وفي احتفالٍ منقولٍ تلفزيونياً، علّل الملك خياره قائلاً: «قد يبدو تعيين الدكتور الرافعي لافتاً للنظر نظراً لانتمائه إلى المجتمع المدني ومهنته الطبيّة البعيدة تماماً عن الدولة. وسيتساءل كثيرون حول قراري. لقد اتّخذته لأنّ استقامة الرجل وإنسانيته وكرمه تسبقه[1]...» حجّةٌ أقبلها به بطيبة خاطر. وحينما سأل وزير الداخلية، إدريس البصري، الملك عن الموقف الواجب اتّخاذه حيال هذا الطبيب بعدما ثبُت بأننا قد مررنا ببيته، خالف الحسن الثاني الجميع في الرأي بردّه بطريقة مدهشة ومناقضة لما يمكنه أن يبدو عليه:

- لا تتعرّضوا له. الأولى أن يبتهج المرء لأنّه لا يزال هناك رجالٌ مثله في المغرب...

---

(1) في عام 2003، عيّن محمد السادس الدكتور الرافعي في مجلس حقوق الإنسان.

أحسن الحسن الثاني، العارف بنقاط ضعف البشر، أحياناً أن يعترف بالمبادئ والسجايا النادرة وسط حاشيته.

ها نحن أمام الباب الموارب لڤيلا فاخرة. كان سائقٌ يلمّع سيارة برلينية. اصطحبنا إلى المكتب وقدّمنا إلى وصيفة أشارت إلى هاتفٍ داخليّ وقالت:

- السيد العربي نائم، ولا أجرؤ على إيقاظه... اتّصلوا على الرقم 2، إنّه رقم غرفته.

حتى قبل أن تنهي عبارتها، أمسكتُ بالسمّاعة. بعد برهةٍ، دمدم صوتٌ أبحٌّ بالنعاس:

- نعم، ماذا هناك؟

أعطيتُ السمّاعة لمليكة، لأنّ صداقة العربي، في الماضي، كانت أوثق معها مما كانت معي.

ردّد الصوت:

- مَنْ؟

- آلو، العربي، أنا صديقة... هذه مفاجأة. انزل إلى المطبخ إن أردتَ أن تعرف مَنْ أكون...

أخيراً، تفضّل بن جلّون الابن، الذي لا يزال، وهو في التاسعة والثلاثين، يعيش مع والديه، بالظهور. مشعث الشعر، ومغمض العينين تقريباً، سألنا متثائباً:

- مَنْ أنتم؟

- ولكن... ولكن هؤلاء نحن... مليكة ورؤوف... صديقاك من آل أوفقير!

نظر إلينا العربي ببرود، لامبالياً تماماً:

- ها، هؤلاء أنتم... كان الجميع يعتقد بأنكم قد متّم؛ ولكن ماذا تفعلون هنا؟

أُصِبنا بدهشة عميقة، فاكتفينا، مليكة وأنا، بأن ألقينا نظرةً لا لبس فيها: يبدو واضحاً أننا قد طرقنا الباب الخطأ. سعينا إلى تقليل الخسائر. فبرودة كهذه تنبئ بالأسوأ. لم يبدِ هذا الرجل الذي كان صديقاً حميماً لنا والذي كان معنا في قبيلة في آب (أغسطس) 1972 تأثّراً بظهورنا في حالةٍ مزرية جدّاً. شرحنا له:

- أنت تعرف أساليب الشرطة. أطلقوا سراحنا في الدار البيضاء، مثل رزمةٍ من البياضات المتّسخة وغادروا...

- وأين أمّكم، وأخواتكم؟

- لا شكّ أنّهم أفرجوا عنهنّ في الرباط...

وبما أنّ مضيفنا لم يكن سعيداً برؤيتنا وكنّا مستعجلين في الفرار، توقّفت الأمور سريعاً.

- العربي، هل يمكنك أن تصاحبنا إلى المحطّة وتقرضنا بعض المال لشراء بطاقات القطار إلى الرباط؟

وافق بإشارةٍ من رأسه، وتركنا واقفين دون أن يقدّم لنا حتى كأس ماء، وابتعد:

- انتظروني، سأصعد لأرتدي ثيابي...

أضعنا وقتنا قلقين من أن يُبلّغ عنّا. وكلّما مرّت الدقائق زاد قلقنا. أخيراً عاد العربي، وتوجّهنا نحو المحطّة. في الطريق حاول أن يُقْصِر الحديث على الأمور العامّة:

- لقد تغيّرت الدار البيضاء، أليس كذلك؟

لم نستجب لحديثه. حينما وصلنا إلى مقصدنا، أعطى لنا 300 درهم وانصرف بالبرودة نفسها التي استقبلنا بها.

ها نحن وحدنا وسط الحشد الغفير. أيّة محنة مرعبة أن تخرج من صمت القبر لتجد نفسك فجأةً غارقاً وسط صخب مدينة صناعية تفور حياتاً... لن أركّز أبداً بما فيه الكفاية على المأزق الذي مزّقنا: في الاتّصال العنيف مع الحياة أدركنا حقّاً جسامة محنتنا والسنوات الخمس

عشرة التي سُرِقَت منّا. حاولنا أن نجعل من هذا التمرّد الخفيّ محرّكاً لإرادتنا. الآن وقد واتانا القدر، لا يحقّ لنا أن نفشل... عدا عن حياتنا المبتورة، لم يعد لدينا في كلّ الأحوال ما نخسره.

انتظرني عبد اللطيف ومليكة وماريا على درج المحطّة، بينما راقبت باحتها، وذهبتُ لشراء البطاقات. لدى مروري أمام كشك الصحف، لم أقاوم الإقدام على طيشٍ. اشتريت مجلة إيكيب وعلبتي سجائر وعلبة بسكويت. سيكون أخي الصغير، الذي يحلم بأن يكون لاعب كرة قدم محترفاً دون أن يشاهد حتى مباراة واحدة، سعيداً بأن يتصفّح للمرّة الأولى مجلّة متخصّصة في رياضته المفضّلة. اختلطنا بالفيض البشري المتّجه نحو القطار. رفعتُ عينيّ إلى ساعة المحطّة. كانت الساعة العاشرة إلاّ ربعاً. لم يستطع أيٌّ منا أن يمنع نفسه من التفكير بما يُفترَض أنه يجري في اللحظة نفسها في بير-جديد[1]...

نحو الساعة التاسعة والنصف، فتح بورو وزمرته الأبواب لتوزيع ماء النهار. كان الآمر، واضعاً يديه في جيبه، يتمشّى في الممرّ الإسمنتي الذي يفضي إلى زنازيننا. تباطأت حليمة وعاشورا في تأدية هذه الخدمة. فكلّ ثانية تمرّ تعمل لصالحنا. نفد صبر بورو وسبّهما. أخّرت المسكينتان اللحظة التي سوف يفتح فيها الحرّاس زنزانتي ويكتشفون أنّها خاوية. أخيراً، حينما جاء ضابطُ صفٍّ ليعيد إغلاق الأبواب المصفّحة لكي يفتح مزلاج باب زنزانتي، قالت له أمّي:

- أريد أن أتكلّم إلى الآمر، هناك أمرٌ هامّ جدّاً.

تقدّم بورو، لامبالياً، بمنتهى الازدراء:

- لا أمور مهمّة هنا سوى أوامر الرباط...

---

(1) من المسلّم به أنّ كلَّ ما سأذكره للقارئ عما جرى في اللحظة نفسها في مأوى المحتضرين هو ليس سوى إعادة لما سيرويه لنا أهلنا فيما بعد.

بدا الآمر في مزاجٍ سيئ، ودقّق في النّوافل. حدّقت أمّي في عينيه وخاطبته برباطة جأش:

- بالضبط، ينبغي الاستعجال، فسوف تُذهَل الرباط حينما تعلم بأنّ الأولاد قد هربوا هذه الليلة...

انفجر بورو مقهقهاً وصعد، دون أن يردّ، الدرجات الثلاث ليغلق الباب. أوقفته أمّي بشدّة وكرّرت له:

- هذه ليست نُكتة. لقد هرب الأولاد البارحة مساءً...

لن تنسى أمي أبداً وجه بورو حينما اضطرّ أن يرضخ للواقع بعد أن ذهب وفتّش زنزانتي. جلس ممسكاً برأسه الضخم بين يديه وتمتم وهو يهزّ به يميناً وشمالاً، نظرته فارغة، تائهة:

- هذا مستحيل... هذا مستحيل... هؤلاء شياطين... هذا شيءٌ من السحر، هذا مستحيل...

ظلّ بورو يردّد على مساعديه الشاحبين والذين ركضوا في كلّ الاتجاهات:

- لم يعد هناك من داعٍ لذلك... في كلّ الأحوال أنتم وأنا سنموت...

وسط الهلع، كسر الحراس التبليط المحيط بالحفرة الفاغرة لزنزانتي والتي لا تقود إلى أيّ مكان. أعادتهم أمّي إلى صوابهم قائلةً لهم:

- إنّكم تكسرون الآن كلّ شيء... حينما يحلّ أهل الرباط هنا، سوف يتّهمونكم بأنكم أردتم تشويش الآثار...

خرج بورو وزمرته مثل سربٍ من عصافير الدوري تعرّض لضربة من رصاص الصيد. استندوا على بعضهم تقريباً واختفوا مترنّحين تحت تأثير الصدمة. خانتهم القوّة في أن يعلنوا «الخبر السعيد» للعقيد بن عايش وللجنرال مولاي حفيظ. ولكنّ الأسوأ، هو أنّ حرّاسنا عرفوا أنّ الملك سيُخبَر بالأمر في اللحظة نفسها... الأمر الذي يكفي لأنّ «يتصبّبوا عرقاً» من شدّة الخوف...

استرعانا نظام الواقع سريعاً. وعاد ذهني الذي طار للحظة نحو بير-جديد إلى هرج ومرج المحطّة. في مدخل الأرصفة، مررنا بصورة كبيرة للحسن الثاني. لاإرادياً، توقّفنا لبرهةٍ وتابعنا نظرته: صُدمنا بوجهه الذي شاخ مبكراً.

وصلنا إلى محاذاة الطريق وسافرنا بلا عوائق. تحرّك القطار نحو الرباط. كان معنا في المقصورة أربعة فرنسيين يقضون عطلتهم في المغرب. اشتكوا من أنّ حجزهم للغرف في فندق قصر مامونيا قد ألغي تعسفياً. فقد تمّ الاستيلاء على غرفهم لصالح احتفال عيد العرش الذي سيُقام في الثالث من آذار (مارس) القادم. لم ننبس بكلمة، مع أن فكرة طلب المساعدة منهم قد أغرتنا. نزلوا من القطار في المحمدية، المدينة الساحلية الجميلة التي تقع بين الدار البيضاء والعاصمة.

نحو الساعة الحادية عشرة، دخلنا محطّة الرباط، فاختلطنا بالمسافرين وخرجنا من المحطة دون مصاعب. أوقفنا سيارة أجرة. ولأنّ القانون لا يبيح سوى حمل ثلاثة ركّاب دفعة واحدة، افترقنا. تركت عبد اللطيف وماريا مع مليكة. طلبتُ من السائق أن يأخذهم مباشرةً إلى السفارة الفرنسية. من بين المجموعة، كنتُ أفضل مَنْ يعرف العاصمة لكوني قد جلتُ في كلّ أنحائها على الدراجة أثناء فترة مراهقتي. لم يكن البريد المركزي بعيداً. نزلتُ في جادة محمد الخامس، أشقّ طريقي وسط حشد المشاة كما لو أنني في حلم. اخترقتني الروائح والألوان والأصوات من كلّ حدبٍ وصوب. ثملتُ بالهواء والشمس. حينما ولجتُ إلى البهو الفسيح لمبنى البريد، أعادت برودة ذلك المبنى العالي والضوء المخفّف بالقبب العالية تركيزي على مهمّتي. توجّهت نحو الكوّة لأشتري طوابع وأرسل رسالةً موجّهة إلى السيد جوزيه آرتور، **بوب كلوب**، دار الإذاعة، باريس. في لحظة رميها في العلبة البريدية، أرجأتُ حركتي لبضع ثوانٍ. في جزء من ثانية، كرّ كلّ فيلم الهروب، منذ إعداده ومروراً بتنفيذه وحتى هذه اللحظة حيث أنظر بحدّة إلى هذا المغلّف الذي يحتوي

على نداء استغاثتنا وآمالنا. قبّلته قبل أن أدعه ينزلق في الشقّ البرونزي لعلبة الرسائل... كان السرور الذي غمرني قويّاً بحيثُ أغمضتُ عينيّ لأوجّه دعاءً مقتضباً ولكن بكلّ قوّتي إلى الله. أخيراً، حقّقنا جزءاً من هدفنا. ومهما حصل الآن، حتى ولو تمّ ذلك بشكلٍ سيّئ، فإننا سنكون على الأقلّ قد ألقينا قارورةً في البحر!

وبما أنّ القدر لا يزال لصالحنا، سألتُ موظّفاً في الكوّة إن كان بإمكانه إعطائي رقم هاتف إذاعة فرنسا الدولية في باريس. وقد بدا على حافة نوبة عصبية وقد أرهقه حوالي خمسة عشر شخصاً انقضّوا على مكتبه. رفض الرجل لأنّه ينبغي الاتّصال بالاستعلامات. اضطررتُ أن أتمالك نفسي تحت طائلة أن أكشف نفسي. كنتُ على وشك أن أصرف النظر عن الموضوع، حينما لمحتُ على قفا يده وشماً صغيراً. فقلتُ له:

- هل أنت بربري؟

- نعم... أنا من الأطلس الأوسط.

أهذا تيسيرٌ جديد من قبل القدر؟ إنّها المنطقة التي تنحدر منها أمّي. ما إن علم موظّف البريد ذلك، أصبح خدوماً ومهتماً بي. خاطبني بابتسامة كبيرة:

- ولكن كان ينبغي أن تقول ذلك من قبل، يا أخي! انتظر ثانيتين، سأخدم الذين ينتظرون وسأطلب رقمك من الاستعلامات... حينما أحصل عليه، سأعطيك إشارة.

في اللحظة نفسها، راقبتُ الباحة الفسيحة. دخل رجالٌ في مجموعة. أفشت سحناتهم وتصرفاتهم وبزّاتهم أمرهم مباشرةً. ولأنني كبرتُ وسط رجال الشرطة، فإني أُجيد كشفهم من بعيدٍ جدّاً... المسافة التي كانت تفصلني عنهم وكثافة الحركة في البريد أتاحتا لي الوقت للتصرّف. كان المخرج الوحيد الذي يمكنني الخروج منه هو الممرّ الذي وصل منه الشرطيون. دخلتُ إلى واحدة من مقصورات الهاتف المصفوفة أمام الكوّة وتظاهرتُ بأنني مستغرقٌ في مكالمة هاتفية. استغرق الشرطيون

في الممرّ متجاوزين المكتب والمقصورات. خرجتُ، وسلكتُ الاتجاه المعاكس لهم، نحو المخرج. خاطبني موظّف الكوّة:

- ايه! يا أخي! ورقمك...؟

ولكنني كنتُ قد ابتعدت. اختفيتُ وسط المارّة. سرتُ بهدوء، ضابطاً خطواتي مع خطوات أهل المدينة. أوقفتُ سيارة أجرة وطلبتُ من السائق التوجّه إلى السفارة الفرنسية. في الطريق، قلقتُ من الاتجاه الذي سلكه:

- إلى أين تذهب... لا تقع السفارة في هذا الاتجاه...؟

فاغتاظ السائق:

- ماذا؟ ليست في هذا الاتّجاه! أَتعتبرني غرّاً!

فعرفتُ أنّ عنوان الممثلية الفرنسية قد تغيّر. فبينما كانت في السابق في المقرّ القديم للمفوضية[1]، باتت الآن في عمارة باهتة مكعّبة الشكل في أكدال، وهو حيٌّ تقع فيه الإدارات الحكومية في العاصمة.

أنزلني سائق التاكسي أمام السياج المعدني الكبير الذي يفصل مدخل السفارة الفرنسية، الذي يحرسه شرطيون مغاربة بزيّهم الرسمي. ما إن وضعتُ قدمي خارج السيارة، تقدّم أحدهم نحوي، وحتى قبل أن أتوجّه إليه، سألني:

- أَأنت زوج المرأة التي مرّت قبل قليل...

تردّدتُ في الردّ قبل أن أعرف المزيد عن ذلك. حيّيتُ الشرطي مقدّماً له سيجارةً، الأمر الذي أكسبني ثواني قليلة، وهو الوقت الذي أتاح لي أن أكوّن رأياً:

- نعم... نعم... أنا هو... جئنا من أغادير لكي...

قاطعني الرجل:

- أدري، أدري، لقد روت لنا زوجتك كلّ شيء...

---

(1) مقر السلطة الفرنسية في عهد الحماية.

خرج الموظّف الآخر من محرَسه واستطرد:

- هل حصلت لكم مشاكل مزعجة؟

زايدتُ:

- ها! لا تتصوّر! قلتُ له ذلك خائضاً في الوصف المفصّل للحوادث المزعجة لرحلتنا، والوجه المرعب الذي قد يكون للمدينة بالنسبة لأهل الريف... لقد أصبتُ هدفي، وواساني الشرطيون صراحةً.

تابع أحدهم:

- ولكن هذا يوم عطلة... نحن اليوم في اثنين الفصح! السفارة مغلقة...

يا لها من سخرية القدر: أن نقطع كلّ هذا الطريق لنصادف يوم اثنين عطلة وأبواب السفارة مغلقة! تمالكت خيبة أملي. خفّف شرطيٌّ قلقي بخصوص الفارين الآخرين:

- زوجتك وأخوها وأختها ذهبوا إلى السفارة الأمريكية. طلبوا منّا أن نبلّغك الرسالة حينما تصل.

راح الشرطيون إلى حدّ إيقاف سيارة أجرة لي، وفتحوا لي بابها وقالوا للسائق:

- اصحبه إلى سفارة الولايات المتّحدة...

لدى الوصول إلى الممثليّة الأمريكية، ارتحتُ لرؤيتها مفتوحةً. كان حرّاسٌ مغاربة يحرسون مدخلها الأوّل. أكّد لي أحدهم أنّ مليكة وعبد اللطيف وماريا هم في الداخل وأشار لي إلى الطريق الذي ينبغي سلوكه للانضمام إليهم. لدى مروري أمام محرَسٍ مزجّج، أشاري لي الحارس بإصبعه إلى الكيس النسيجيّ الأسود الذي يحتوي على كتاباتنا وعلى «المسدّس»! لو راودت أحد الحرّاس فكرة تفتيش الخرج، لأوقعنا سلاحٌ وإن كان مزيّفاً في ورطة... أسرعتُ الخطى لألحق بمرشدي. عبرنا باحةً صغيرة منحدرة تتوقّف أمام بابٍ صغيرٍ مصفّح، سرعان ما انغلق عليّ. لقيتُ أختيّ وأخي في ردهة دخول صغيرة. يوجد في مقابلها بابٌ

مزجّج مقفل. وإلى اليسار، هناك كوّة خلفها موظّف مغربيّ يستقبل الزائرين. وإلى اليمين، كوّة أخرى، هي الأخرى محمية بزجاجٍ مصفّح، تُؤوي عناصر المارينز الذين يحرسون الحرم الدبلوماسي. . .

في تلك الحجرة الفاصلة الشفّافة والضيّقة، وجدتُ مليكة وهي تحاول جاهدة إقناع الموظّف المغربي بخصوصيّة حالتنا. . . كما انكببتُ بدوري على إقناعه شارحاً له أننا جئنا من أجل أوراق معقّدة تخصّ أحد أفراد عائلتنا والذي يتهيّأ للذهاب إلى الدراسة في الولايات المتّحدة؛ وأنّه لذلك نحتاج إلى عرض مشكلتنا على عضوٍ أمريكيّ في —

السفارة. لم يشأ الموظّف أن يعرف شيئاً وقدّم لنا وثيقة:

- خذوا، يوجد هنا كلّ ما يتعلّق بإجراءات الحصول على تأشيرة طالب. . .

ألححنا على مقابلة موظّف أمريكي. سأل أحد عناصر GI الموظّف المغربي:

- What's happening with them? They look so strange

لم نلحّ خشية أن يستدعي الشرطيين المغاربة في المدخل، ووعدنا بأن نقرأ بتمعّن الوثائق وأن نعود إلى السفارة ما إن نطّلع عليها. خرجنا وابتعدنا عن المبنى. على رصيفٍ وتحت شجرةٍ، تشاورنا. رويت للآخرين مغامرتي في دائرة البريد المركزي. كنّا متأكّدين على الأقلّ من أمرٍ: لقد أُطلق الإنذار في بير-جديد. نحن الآن في قلب العاصمة، المكان الذي تتركّز فيه كلّ إدارات الأجهزة الأمنية للدولة. ليست هناك أية مدينة في المملكة مقسّمة إلى دوائر أمنية ومزوّدة بالمخبرين أفضل من الرباط. ولا شكّ أنّهم جميعاً دون استثناء سيتعقّبوننا. . . سرنا على حقل ألغام حقيقيّ. كان علينا أن ننسلّ إلى قلب جهاز المَخْزِن المدرّب جيّداً. غير أنّنا كنا نحظى بأفضلية على متعقّبينا: منذ أن اختُطفنا في عام 1972، لم تُلتقط لنا أيّة صورة. كبرنا في السجن ولا تمتلك الشرطة أوصافنا. . .

علاوة على ذلك أخفيتُ صفّ أسناني المهشّم تحت شاربٍ كثيف.

أوقفنا سيارة أجرة بدا سائقها لطيفاً وودوداً. سمح لنا أن نركب نحن الأربعة، شريطة أن يتمدّد عبد اللطيف عند أقدام أخواته. مررنا أمام سفارة بريطانيا العظمى دون التفكير في أن نجرّب حظّنا معها: إذا كانت هذه الأمّة الديمقراطية قد سلّمت للحسن الثاني الطيارين الملتجئين إلى جبل طارق، فإنّها لن تتحرّج من تسليم أربعة فارّين نسي العالم حتّى وجودهم. طلبتُ إلى السائق أن ينقلنا إلى أكدال، بالقرب من كليّة الحقوق. تذكّرت عنوان الحاج مشاط، آمر فوج الإطفاء، صديق جدّي الذي أشرف على جنازة أبي كصاحبٍ حقيقيّ للمأتم. وقد بلغت الشجاعة بهذا الرجل الشريف إلى حد أن يكون وسيطاً بين الشرطيين الذين ساعدونا في تاماتاغت وبين العقيد شنّا. عرِف الملك بذلك ولكنّه لم يتعرّض له أبداً.
طرقنا باب منزلٍ طابقيٍّ متواضع. ردّت علينا امرأة شابّة. سألنا:

- هل الحاج مشاط موجود؟

فأجابت:

- لحظة، سأسأل زوجته.

وخاطبناها قبل أن تبتعد:

- قولي لها إننا من طرف مليكة ورؤوف، أولاد الحاجّة فاطمة.

انتظرنا. تجاوزت الساعة منتصف النهار. كانت أجسادنا جريحة وأقدامنا متهيّجة وأصداغنا تدقّ كالمطارق. وربت الخادمة بالكاد الباب الصغير وقالت:

- تُخبركم السيّدة أنها لا تعرف أحداً بهذا الاسم... انصرفوا في الحال!

أدركنا إلى أيّة درجة نسيَنا الجميع ودفنونا... إننا أشباحٌ، عائدون جئنا نزعج ضمائر لامبالية بتخاذلها!

جامدين على رصيفٍ لأكدال، لم نعرف إلى أين نذهب. رأف بنا

حارسٌ فقدّم لنا قليلاً من الماء. أخبرنا بأنّ الحاج مشّاط قد توفّي منذ سنوات عديدة وأنّ ابنته مليكة مشّاط تسكن ليس بعيداً من هنا. بل تلطّف بمرافقتنا حتى مسكنها حيث انتظرنا متجمّعين تحت بئر السلّم. أراحنا الظلّ والبرودة بعض الشيء. في الساعة الثانية عشرة والنصف، دخلت مليكة مشّاط مع ثلاثة من أولادها. حينما خرجنا، أختي وأنا، من مخبئنا، تعرّفت علينا ابنة مشّاط في الحال. سقط كيسها من يدها هلعاً ومدّت يديها لتحمي أطفالها. امتقع وجهها، وحالت بجسدها بيننا وبين أولادها متراجعةً إلى الوراء. همست بصوتٍ خافت مرتجف:

- اصعدوا، يا أولاد، اصعدوا... بسرعة. سآتي حالاً...

لو أنّ المرأة الشابة كانت قد رأت العفريت يظهر شخصياً، لما كانت لتتصرّف بخلاف ذلك. حاولت أن أخفّف عنها:

- اهدئي، يا مليكة، اهدئي. لم نفعل شيئاً سوى المرور من هنا.

لم ينفع ذلك في شيء: تملّكها الذعر. فتحت ذراعيها ومدّتهما كما يفعل الأتقياء لطرد مصّاصي الدماء، ولم تكفّ عن التأوّه في تكشيرة مزدرية:

- ماذا فعلتُ بكم... انصرفوا! أتوسّل إليكم، انصرفوا! لديّ أولاد... أرجوكم، انصرفوا! خذوا، إن كنتم تريدون نقوداً، ها هي... والآن، اذهبوا، اذهبوا!

أخرجت، وهي ترتجف، 30 درهماً من محفظتها، وقدّمتها لنا، ولكن رجفانها ترك النقود تسقط أمام أقدامنا. التقطنا الأوراق الثلاث الحائلة وخرجنا من المبنى تاركين إياها تلهث خوفاً، مستندة إلى جدار، محاولةً التقاط أنفاسها بعد تجلٍّ مرعبٍ جداً... مع أنّ مليكة مشّاط كانت بمثابة فردٍ من عائلتنا، كانت، وهي تكبرني بستّة أعوام، معلّمتي... هذا درسٌ من الحياة لا يُنسى. ولكنّها جعلت ردود الفعل الإنسانية والمتعاطفة التي صادفناها خلال فرارنا المجنون أجمل وأنبل!

ها نحن من جديد في المربّع الأوّل. وكسبيلٍ أخير، اقترحتُ أن نذهب إلى بيت أحد أوفى أصدقاء طفولتي، رضا مكناسي، الذي كان والده، المقاول، جارنا. استقلّت مليكة مع عبد اللطيف سيارة أجرة، وتبعناها، ماريا وأنا، بفارق عشر دقائق. كانت الساعة قد تجاوزت الثانية عشرة والنصف، وقد انقضت أكثر من أربع وعشرين ساعة دون أن ننام. لم ينجح الإرهاق والتوتّر الرهيب لجوٍّ جديد والتهديد الذي يتعقّبنا في النيل من عزيمتنا. كنّا في حالة صدمة ولكنّنا في نشاطٍ دؤوب. دفعتنا قوّة وحثّتنا. تقدّمنا إلى الأمام وكأنّها كانت تشدّنا من يدنا مع شعورٍ غريبٍ بأننا في آنٍ واحدٍ ممثلو ومشاهدو فرارنا. علقنا وسط زحام. كان رجل مرورٍ يشرف على الإشارة الحمراء. وقفت السيارة بجانبه. كان الشرطي منشغلاً جدّاً عن مشاهدتنا. وتركتني رؤيته لامبالياً. كان ذهني في بير-جديد. حاولتُ أن أتخيّل ما يجري فيها منذ أن اكتُشِفَ فرارنا...

في بير-جديد، سارع بورو وزمرته لإبلاغ الرباط. في الساعة الحادية عشرة، وصل عقيدٌ وضابطان إلى المعسكر ودخلوا إلى زنزانتي. شاهدت أمّي، وهي تراقبهم من تحت الباب المصفّح، الضابط يسأل بورو صارخاً:

- كيف ومن أين هربوا؟

- أنا... أنا لا أدري سيّدي العقيد... لا أفهم... لا أفهم شيئاً عن شيء في الأمر...

قاطعته صفعة قوية. زمجر العقيد ذو الشوارب الرفيعة والنظارات الخضراء:

- ولكن، يا غبيّ، هل تدرك ماذا يعني هذا بالنسبة لك، ولرجالك ولنا جميعاً؟

تحقّق الضباط من الوضع ولم يلمسوا شيئاً، وهرعوا يؤكّدون الخبر للديوان الملكي. أُخبِرَ الملك. وستبدأ مطاردة مذهلة. استُنفِرَت كلّ

الأجهزة الأمنية. وسيحاول كلّ رؤساء أقسام الشرطة أن يبزوا سواهم من أجل «ترتيب أمر شخصي لصاحب الجلالة»... عارفين بأنّ الذي سيقبض علينا سيحظى بالامتياز لدى السيّد... فجرت منافسة شرسة بين وزارة داخلية إدريس البصري ومديرية درك الجنرال بن سليمان وجهاز الجنرال مولاي حفيظ SSS.

في الساعة الحادية عشرة والنصف، حلّقت أربع طائرات مروحية فوق مأوى المحتضرين والحقل على مستوى الأرض. بعد عشر دقائق من ذلك، دخل الجنرال حسني بن سليمان، متبوعاً بنصف دزينة من الضباط، إلى «مربّع الضيوف». جلبوا كلاباً بوليسية، ولكنّ وصفة «التوابل المضاف إليها الدم» نجحت ولم تعثر الكلاب الألمانية على أيّ أثر متواصل. سمعت أمّي ضابطاً يقول لبن سليمان:

- سيّدي الجنرال، هناك رائحة توابل... أخيراً أريد أن أقول، هل نبحث عن أطفال أم عن محترفين؟

ردّ عليه الجنرال دون أية سخرية:

- نبحث عن أولاد أوفقير.

شاركت مديرية DST أيضاً في الحفلة... وصل مديرها عبد العزيز العبوش، مصحوباً بحوالي اثني عشر من معاونيه، إلى بير-جديد. حتى اليوسفي[1] شارك وفرقته الخاصّة مولاي-شريف الشهيرة في الأمر. ما إن حاصر «أهل الرباط» المعسكر، حتى استولى حوالي ستين دركياً من النخبة، وصلوا في مدرّعات، على المزرعة-السجن. أوقِف بورو وجميع رجاله في عنبر، وضُربوا ضرباً مبرّحاً واستجوِبوا بلا انقطاع. أقام بن سليمان والعبوش واليوسفي وهيئة أركانهم مقرّهم العام في زنزانة البنات. حُبِسَت مريم وسُكَيْنة مع أمّي في زنزانتها. بدأ التحقيق دون التفضّل باستجواب العائلة حول هروبنا. وقد أحسنت جارتاي ردم المعبر من

(1) وهو الشخص نفسه الذي استجوبنا غداة 16 آب (أغسطس).

طرفهما، بحيث اعتبرت الحفرة في زنزانتي، التي لم تعد تفضي إلى أيّ مكان، من قبل المتعقّبين مجرد تضليل: كان محقّقو الرباط مقتنعين بأننا قد استفدنا من تواطؤات وبأن الأبواب قد فُتِحَت لنا بكلّ سذاجة...

بينما تواصلت التحقيقات، كنّا في سيارة أجرة تمور في الشوارع المزدحمة للعاصمة، باتّجاه حيّ السويسي الذي كنّا نسكنه فيما سبق. سبقتنا مليكة برفقة عبد اللطيف. لم تقاوم الرغبة في التوقّف في جادة الأميرات، لتدلّ أخي على الجدران التي كنّا نسكنها. ذُهِلَت مليكة... لم يعد بيتنا موجوداً. لم يبقَ منه سوى أرض بور محاطة بسورٍ خفيضٍ، دون أدنى أنقاض أو أصغر حصاة. كان بيتنا قد هُدم... وسنعلم فيما بعد بأنّ الملك قد أمر، قبل هروبنا بحوالي عام، أي في عام 1986، بإزالة بيتنا، وهو التاريخ الذي وافق أسوأ فترة من فترات اعتقالنا. كان قرار الهدم يثبت تماماً خيار التخلّص منّا ماديّاً ورمزياً. كان ذلك تنبيهاً جديداً من الملك إلى «خادميه المخلصين». كلّ ما كنّا نملكه، حتى أصغر تذكار، عُرِض على الرصيف حتى نصبح عبرة للجميع.

بعد كلّ تلك المحن التي خصّتنا بها الحياة، لم نكن نعتقد بأنّ ذلك الهدم سيُحدِثُ هذا التأثير علينا. لقد سُلبت أجمل سنوات عمرنا ولكننا بكينا في داخلنا أمام التدمير المادي لما كان «بيتنا». في ذلك اليوم، وُلِد في داخلي إحساسٌ مريع بالاستئصال. تلك الرغبة في إزالة كلّ شيء، حتى بَصْمتنا الملموسة على وجه الأرض، ستجعلني منذ ذلك الحين أن أحمل مثل السلحفاة بيتي على ظهري. بعد الآن، أينما ذهبتُ، سأكون بعيداً عن بيتي...

تحمّلت مليكة الصدمة، وشرحت لأخي أنّها قد ضلّت الطريق. أقلعت السيارة نحو بيت أصدقائي من آل المكناسي. حينما وصلنا، ماريا وأنا، بعد ربع ساعة، لم نجد أحداً. سألتُ حارس الفيلا الذي أجابني بأنّ آل مكناسي ما عادوا يسكنون هنا وأنهم غادروا للإقامة في فرنسا. إلا

أن ابنهما رضا يسكن في شقة بالقرب من سينما «زهوى». عاد الأمل. وكنت واثقاً بأن رضا، إذا ما وجدناه، لن يستقبلنا كما فعل العربي بنجلّون.

أنزلتنا السيارة في نهاية الشارع الذي يسدّه اتّجاه ممنوع. سرنا بمحاذاة صفّ أشجار لمجموعة عمارات من ثلاث أو أربع طوابق، ودخلنا إلى ما يشبه قرية صغيرة. كانت فسحات خضراء تزيّن المباني. دلّنا جنائنيّ أين يسكن رضا مكناسي. قال لي:

- اسلكوا الجادة الرئيسية إلى نهايتها. هناك، تصلون إلى موقف دائري للسيارات، مع مستديرة مزهِرة... تقع بنايته مقابلها تماماً... في الطابق الثالث.

حينما وصلتُ إلى الموقف، سمعتُ طنيناً، اهتزازاً خفيفاً يملأ الهواء... وقفنا على بعد ثلاثة أو أربعة أمتار من درج العمارة. بات الضجيج أوضح. دخلنا إلى باحة العمارة. بات الهدير مصمّاً. إنّها طائرة مروحية! صعدنا الدرج وصادفنا مليكة وعبد اللطيف الملتصقين بجدار. ودون أن تتكلّم، أشارت أختي إلى السماء حيث يأتي الخطر. لم يكن رضا في بيته. علينا أن نهرب بأسرع ما يمكن. كان مدخل العمارة مغطّى بشرفةٍ محاطةٍ بزريعات وأشجار زينةٍ. راقبتُ راكعاً الجوّ، مخفياً رأسي بين الأوراق. حلّقت المروحية فوق مجموعةٍ أخرى من العمارات. تفحّص رجلٌ يرتدي بزّة رسمية محيط المنطقة بالمنظار المقرّب. لا شكّ أنّهم يبحثون عنّا. مستفيدين من اللحظة التي ابتعدت فيها الطائرة كفايةً، خرجنا زافرين من العمارة. عملاً بالقانون الأوّلي لكلّ فرار: «عدم المرور أبداً، في إطار الممكن، مرّتين في المكان نفسه»، تجنّبنا الخروج من باب المبنى واندسسنا بين الحدائق المحاذية لجدار السور. قفزنا من فوق السياج، فأصبحنا في الشارع العريض وسرنا بسرعةٍ، دون أن نلتفت لا يميناً ولا شمالاً. شغل سؤالٌ بالي: لماذا تواجدت المروحية فوق هذا

المبنى بالتحديد؟ أن نُطارَد في الأماكن العامّة، في المحطات والمطارات، وعلى الحدود بشكلٍ عام، هذا أمرٌ منطقيٌ، ولكن أن تُرسَل مروحية للدرك الملكي تجوب هذا المكان تحديداً، لا يبدو الأمر بالنسبة لي محض صدفة. حاولت عبثاً أن أجد جواباً لهذا السؤال. ولن أعلم إلا فيما بعد بأنّ جدّي العقيد شنّا يسكن بنفسه في هذا الحيّ! حينما كانت المروحية تحلّق فوق الموقع، كان نصف دزينة من المحققين يدخلون بيته لاستجوابه. وكنّا قد تأخّرنا للحظاتٍ قليلة!

ماذا نفعل، أين نذهب، على مَنْ نعتمد؟ فكّرتُ في صديقين آخرين لطفولتي، فيليب وباتريك بارير. تذكّرتُ منزل والديهما، لكوني كنتُ أتناول الغداء فيه كلّ نهاية الأسبوع عملياً، حينما كنتُ في المدرسة الثانوية. ولأنّه لم يكن بعيداً، ذهبنا إليه مشياً على الأقدام. في الطريق، مررنا أمام سفارة السويد، ولكنّها كانت مغلقة. بعد بضع دقائق، دُرنا نحو اليمين في زقاقٍ عرضيّ. وكانت أبواب البيوت المتأنّقة تتعاقب على جانبي ذلك الزقاق المظلّل. وكانت واجهات تلك المساكن مغطاة بالخضرة. وأسيجة كثيفة تزيّن جدرانها العازلة. أراحنا هدوء تلك الجادة وبرودتها للحظةٍ من صخب وضجيج مركز المدينة. ولاإرادياً، أبطأنا خطونا خلال عبورنا في تلك «الواحة»... عند مخرج المنعطف، رأيتُ الباب الخشبي الكاشف لبيت آل بارير. بقي أن نتمنّى ألاّ يكونوا قد بدّلوا مسكنهم منذ ذلك الوقت. رفعتُ عينيّ، فوجدتُ أن طابقاً قد أُضيف للبيت. إنّها علامة سيئة. قلقاً، طرقتُ الباب. فتحته لي امرأة شابّة مغربية.

- مرحباً... بماذا يمكنني مساعدتكم؟

- مرحباً... هلّ السيّد بارير موجود؟ قلتُ لها وأنا أحبس أنفاسي لأسمع جوابها.

- انتظر لحظة، من فضلك...

ثمّ أغلقت السيّدة الباب وتوارت. مرّت دقيقتان أو ثلاث دقائق

جهنّمية. ظهرت السيّدة بارير بين درفتي الباب. خفقت قلوبنا سكوناً. لم تكن قد تغيّرت كثيراً، ولا يزال ينبعث منها صفاءٌ مهدّئٌ وحنانٌ حقيقيّ. لم تتعرّف السيّدة بارير عليّ. عاينت بتمعّن جسدي الناحل ووجهي الضامر، وعينيّ الغائرتين في محجريهما وسحنتي الباهتة. . .

- مَنْ تكون؟ سألتني بصوتها الأمومي.

تقدّمتُ قليلاً وكأنني أردت مساعدتها في وضع اسمٍ على قسمات وجهي:

- أنا رؤوف. . . يا ميشيل بارير. . . رؤوف.

وثبت ميشيل بارير على عنقي، واحتضنتني بقوّة. بكت فرحاً:

- رؤوف، رؤوف، يا صغيري، كم يسعدني أن أراكم من جديد. مليكة!. . . حمداً لله. . . حمداً لله على أنّكم أحياء! ادخلوا، يا أولادي، ادخلوا، أهلاً وسهلاً بكم في بيتكم.

حينما دخلتُ ذلك البيت الذي كان يرمز إلى حدٍّ ما لمراهقتي، تشنّج حلقي. عادت الكثير من الذكريات إلى السطح حتى أنّها كادت تودي بإرادتي. ولكن من الخطر أن يسمح المرء لنفسه أن يكون كئيباً. ركضت السيّدة بارير، التي لم تسألنا حتّى عن مكان قدومنا، في كلّ اتّجاه، ذهبت إلى المطبخ وطلبت من فتاة البيت أن تقدّم لنا الشاي والقهوة والكاتو. كانت لا تزال على كرمها، وسارعت إلى وضع زجاجة شمبانيا في الثلاجة. . . لم تكفّ، وهي تغدو وتجيء، عن التكرار على مسامعي:

- ها! سيطير فيليب وجاني فرحاً. سأفرغ من تقديم ما تأكلونه، وسأتّصل بفيليب في مكان عمله لأخبره بأن يحضر في الحال!

أخبرتني السيّدة بارير، وهي تشجّعنا، بتطورات عائلتها. كانت وزوجها لوك، المقيمان في المغرب منذ عقود، من الفرنسيين الذين يكنّون حبّاً حقيقيّاً لهذه البلاد. كان السيّد بارير أحد مؤسّسي مصنع خشب المغرب، المشروع الذي استولت عليه الدولة وظلّ هو مديراً له. اتّصلت ميشيل بابنها:

- آلو فيليب؟ أنا ماما. تعال بأسرع ما يمكن إلى البيت. لديّ مفاجأة كبيرة لك. كلاّ لا أمزح. إذاً، إن كنت تريد أن تعرف، تعال بأسرع ما يمكن. قبلاتي، إلى اللقاء القريب. . .

بانتظار صديقي، طرحت ميشيل عليّ أخيراً السؤال المشروع في هكذا ظروف:

- من أين جئتم، يا أولاد؟

- أطلقوا سراحنا في الرباط وأعطونا نقوداً لكي نستقلّ سيارتي أجرة ونذهب إلى بيت جدّي. لا تزال أمّي ومريم وسُكَيْنة وحليمة وعاشورا في المستشفى. ما أن تتحسّن حالتهن سينضممن إلينا.

شرحتُ أننا قد فضّلنا أن نجنّب جدّنا صدمة «ظهورنا المفاجئ»، نظراً لتقدّمه في السنّ. وأننا فضّلنا أن نأتي أوّلاً إلى بيتها لنرتاح لليلةٍ.

طمأنتني:

- لقد أحسنتم الصنع، ممتاز. سترون فيليب، ثمّ سنقيم في السهرة عشاءً عائلياً طيّباً. ستستحمّون بالماء الساخن وتنامون في شراشف جميلة ونظيفة. . .

الطيبة لا تتغيّر. وجدتُ ميشيل بارير وكأننا قد افترقنا بالأمس. لا تزال على كرمها الإنساني. تألّمتُ لكوني قد كذبتُ عليها كذبة بيضاء. كان الغرض للوهلة الأولى هو كسب الوقت بعدم قول الحقيقة لأصدقاء أعزّاء ولكن ذلك سيكون لصالحهم فيما بعد. إذ حينما ستكتشف الشرطة أنّهم قد آوونا، سيكون دفاعهم عن ذلك أكثر إقناعاً.

دخل فيليب، مسرعاً، إلى الصالون. نهضتُ لأذهب نحوه. كان انفعاله شديداً بحيث ارتمى باكياً بين ذراعيّ دون أن يتمكّن من أن ينبس بكلمة. اختلطت في ذلك الدفق الفرحة برؤيتي من جديد مع الألم الصادق لخمس عشرة سنة فرّقت بيننا. سحبني، باحتشام، وهو يوخزني إلى الغرفة المجاورة لنقتسم تلك اللحظة وحدنا. أخذ وجهي بين يديه وحدّق فيّ. بين شهقتين، همس لي:

- أخيراً، أخيراً يا إلهي، أنت هنا، أنت بيننا من جديد. هذه معجزة يا رؤوف، هذه معجزة. كان الجميع يظنّون أنّكم قد متّم!

لن أجيد وصف شدّة تلك المعانقة بدقّة، ولكنني لم أستطع منع نفسي من أن أشكر الله على أنّه قد رصّع طريق الحياة الوعر بأشياء جميلة بما فيها الكفاية لتمنحنا القوّة على التقدّم. أثارت صفارة إنذارٍ نعبت من بعيد انتباهي. عدنا، فيليب وأنا، إلى الصالون حيث استمرّت المعانقات مع أخي وأخواتي. أصرّت ميشيل على أن تتصّل هاتفياً بابنها الآخر، باتريك المقيم في كورسيكا، الذي كان هو الآخر صديق طفولتي مثل أخيه. تحدّثنا إليه باقتضاب. كان باتريك أيضاً مثالياً في صداقته مثل فيليب. تلك الساعات التي قضيناها في بيت آل باربر كانت أليمة مثلما كانت عذبة. فها نحن، بعدما خرجنا حديثاً من زنازيننا، غارقين بشدّة في جوٍّ عائليٍّ عذبٍ، في الحياة الهادئة والطبيعية التي سُرِقَت منّا. وبينما تبحث عنّا كلّ قوات البلاد مسعورة، كان علينا أن نتصرّف وكأننا نعيش نهايةً سعيدة، وأن ننسى أننا «الطريدة الملكية» لغارةٍ هائلة.

ارتحنا لرؤية نهاية ما بعد الظهيرة وهو يخمد الشمس المتغطرسة، وكأنّ قوّتها وسطوعها كانا يساهمان في تذكيرنا بمطاردينا. انتظرنا بفارغ الصبر الليلَ، لأنّه يجلب الراحة للذين لديهم شيءٌ ينبغي إخفاؤه، أو حزنٌ ينبغي تبديده أو جرحٌ ينبغي لعقه...

بينما انشغلت السيّدة باربر بإعداد طعام العشاء، سألنا، مليكة وأنا، فيليب بلهفة عن أصدقائنا المشتركين. علِمنا بموت العديد منهم ولكن علِمنا أنّ فيليب قد تزوّج بفتاة من «شلّتنا»، جاني غريغير، وأنّ لهما صبيّاً اسمه كريستوف. وقد غادر الاثنان، محبطين لاختفائنا، المغرب لعدّة سنوات بعد اختطافنا. وقد عادا قبل عامٍ فقط من جنوب فرنسا ليقيما من جديد في الرباط. وصلت جاني بدورها، مصحوبةً بالصبيّ الصغير كريستوف، الذي توجّه إليّ وكأنه قد رآني باستمرار، قائلاً:

- أَتعلم، لقد حدّثني بابا وماما باستمرار عنك، ولذلك كأنني أعرفك من قبل.

عاد لوك بارير. مع أنّه تأثّر وسُرّ للقائنا، لم ينسَ أن يسألنا. تمسّكتُ بالرواية نفسها. على المائدة، شرحنا، خلال الحديث، ظروف اعتقالنا. بكى الجميع. كما كان الجميع مقتنعين بأنّه لا يمكن أن يكون الملك على علمٍ بهذه المعاملة غير الإنسانية. عبّر لوك عن اعتقاده:

- إن المرؤوسين المتحمّسين هم مَنْ استغلوا ذلك.

ونحن نحتسي القهوة في الصالون، اكتشفنا تلفازاً. جالسين جنباً إلى جنب على حافة أريكة، تلقينا على نحوٍ مباغت أولى الصور الملوّنة! أصبحت الساعة الثامنة، موعد نشرة الأخبار مع موجز النشاطات الملكية. حينما نظرتُ إلى عبد اللطيف، جعلني أفكّر في فيلم هيبرناتوس للممثّل لويس دي فونيس، الذي أعشقه، حيث ينبعثُ إنسانٌ من القرن التاسع عشر في القرن العشرين. ظهر الحسن الثاني على الشاشة. تبادلنا نظرةً خاطفة. ذكّرتنا رؤية الملك بالمصير الذي ينتظرنا إذا ما كنّا قد فشلنا في مشروعنا... حان أخيراً موعد أوّل حمامٍ ساخنٍ منذ سنواتٍ طويلة!

اعتنت بنا عائلة بارير عناية فائقة. احتجنا إلى مساعدة ميشيل وفيليب وجاني لإقناع لوك بألاّ يخبر عائلتنا. تفهّم أننا أردنا مراعاة جدّي، ولكنّه لم يدرك لماذا ينبغي أن يبقى خالنا وحيد يجهل أمرنا. أقام الحجّة قائلاً:

- فليأتِ وينضمّ إليكم لبضع دقائق، ثمّ ستذهبون لترتاحوا، وغداً صباحاً، سنذهب جميعاً معاً إلى بيت جدّكم.

لكنّ زوجته أنقذتنا:

- لا تزعجهم، يا لوك، إنّهم متعبون جدّاً. هيا يا أولاد إلى النوم! فلننسَ كلَّ شيء الآن، أنتم في بيتكم. ستمضون ليلةً هانئة في النوم، وغداً سنرى!

في السجن، توهّمنا كثيراً ملذّات الماء الساخن بحيث حينما دخلنا

إلى الحمام شعرنا وكأننا نعبر بوابة معبدٍ. كانت مربعات السيراميك ذات اللون الأزرق الفاتح، المرحّبة بنا، كامدة. سبّب لي خرير مسقط الماء الذي يملأ المغطس، ورائحة الونيليا، والمآزر والمناشف الفائحة برائحة الخزامى، شعوراً ملطّفاً. وأثارت فيّ كثرة الصوابين، والشامبوان والعطر ومعجون الحلاقة ومزيلات الروائح قشعريرةً حسّية ولكن أيضاً حزناً ملموساً: «لماذا حُرِمنا من أبسط الأشياء؟»، وماذا حصل للآخرين، هناك في المعسكر؟ كان لكلّ لحظةٍ من فرارنا عذوبة العرس ومرارة الحِداد. لا تزال أحاسيسنا، أجسادنا، المعذّبة تجد القوّة على الاندهاش بينما ما زالت أرواحنا، المرهقة بالشقاء، حبيسة وما زالت أسيرة الآلية المملّة والعقلية للنجاة.

لحسن الحظّ أنّ البخار المتفشّي في الحمّام قد أخّر لحظة عصيبة أخرى. مرّ أكثر من عشرة أعوام وأنا لم أرَ نفسي في مرآة. كما أنني تردّدتُ في وضع يدي على السحابة الضبابية التي غشت المرآة الكبيرة. حينما أزحتُ البخار، كانت الصدمة شديدة. لم أكن أظنّ أبداً أنّه يمكن للجسد أن يحتفظ بهذه الدقّة بآثار الألم! لقد أضفى الانتقام الملكي على وجوهنا «قناعاً حديدياً»!

ذهبتُ إلى مليكة وعبد اللطيف وماريا في غرفتهم. حاولنا أن نقيّم الوضع، مع توقّفنا أحياناً، وألاّ نبالي أحياناً، لكي نجيب أصدقاءنا الذين يجهدون لنكون مرتاحين. سوف ننام بالتناوب. سوف يحرس اثنان من بيننا، بينما ينام الاثنان الآخران. جالسين على السرير، تحادثنا همساً مثل المتآمرين. مرّت المروحية من جديد فوق البيت. ارتمى أخي الصغير، في ردّ فعلٍ، تحت السرير. ذهبتُ إلى النافذة وأزحتُ بحذر طرف الستارة. مسحت بقعة ضوء ساطعة ظلام الحديقة، وارتدّت على الجدران وتلاشت وسط عتمة الليل. ابتعد الهدير. كان البحث جارياً عنّا على أشدّه.

جاءت كلّ عائلة باربر تتمنّى لنا ليلة هانئة. وزّعت علينا ميشيل

قوارير للمياه المعدنية، نظرنا إليها كتحف فنية. نطاقها المتناسق وزرقة موج المياه المشعشعة، الشفّافة والنقيّة... كنّا قد نسينا كلّ هذا منذ دهور! ما عدنا نعرف سوى الماء الأجاج والمقنّن لـ«البئر الجديد» مع رائحة مازوت الكريهة التي يتركها في الفم.

انتصف الليل ونام أهل البيت كلّهم. لم يحظَ أيٌّ منّا بالهدوء الذي أوصت به السيّدة بارير لمساعدتنا على أن نستعيد قوانا. لأنّ أيّ شكل من أشكال تخفيف الضغط عنّا قد يكون قاتلاً بالنسبة لنا.

أمضينا الليلة في سهادٍ وأرق. حالنا كحال الذين كانوا، في الليلة نفسها، في مأوى المحتضرين في بير-جديد... لم يغمض للضيفات الخمس الباقيات جفن، وهنّ يُستجوبن باستمرار من قبل المحقّقين. كان قائد الدرك الملكي، الجنرال حسني بن سليمان، والعبوش رئيس جهاز DST، واليوسفي قائد الفرقة الخاصّة، لا يزالون مقتنعين بأننا قد استفدنا من تواطؤات من قبل الحرّاس. ها قد مرّت أربع وعشرون ساعة على فرارنا وهم لا يزالون لا يعلمون من أين وكيف تمّ ذلك. لا بدّ أن القصر الملكي غاضب. ولتعقيد المغامرة، هربنا، دون أن ندري، عشية قدوم فرانسوا ميتران إلى المغرب في زيارةٍ رسمية! والملك سوف «يبذل جهداً كبيراً» لإعادة إلقاء القبض علينا قبل أن نصادف واحداً من الصحافيين الأجانب الثلاثمئة الذين جاؤوا لتغطية زيارة رئيس الجمهورية الفرنسية!

هربنا يوم الأحد 19 نيسان (أبريل) بين الساعة التاسعة والنصف والعاشرة وها نحن في فجر الثلاثاء 21 نيسان (أبريل). نحو الساعة السادسة والنصف، كان لوك بارير، الذي ظلّ على الدوام مبكراً في نومه، أوّل من استيقظ في البيت. دعكنا شراشف أسرّتنا لنتظاهر بأننا قد نمنا فيها. بعد ساعتين، جاءت ميشيل بارير تطرق علينا الباب. وسرعان ما دبّ النشاط في الطابق. ذهب كلٌّ منا إلى المغاسل. حاول فيليب وجاني أن يجدا في الخِزانات ألبسةً تناسبنا. كنّا نحيلين جدّاً بحيث لففنا أجسامنا

بطبقات نسيجية حتى نتمكّن من ارتداء ألبسة. لم نأبه للتعرّق، فهذه طريقتنا الوحيدة للمرور دون أن يفطن لنا أحد. اخترتُ بلوزة من الكشمير الصوفيّ اللون، على صدرها الشعار: «الغولف الملكي في دار السلام[1]». ولأنّ من يشتري هذا النوع من البضاعة لا بدّ أن يستطيع الدخول إلى نادي الغولف، وبالتالي أن يكون عضواً فيه، فلن يخطر ببال أيّ شرطيّ أو مخبر بأنّ يشتبه بحامل شعار كهذا. لا يمكن للمرء أن يتردّد إلى نادي دار السلام للغولف الملكي ويكون فارّاً. أَلا يلعب فيه الملك باستمرار؟

شهدت صبيحة ذلك الاثنين الموافق للحادي والعشرين من نيسان (أبريل) 1986، استمرار الاستجوابات في مربّع الضيوف. كان مجمع الضباط والمسؤولين الذي حلّ في بير-جديد لا يزال بالقرب من مكان العمل. انذهل الجميع بالأمكنة. صُدِم أولئك الرجال بظروف اعتقالنا على الرغم من أنّهم شاهدوا الكثير من الحالات قبلنا. مع ذلك لم تهدأ الاستجوابات. استجوِبَت أمّي مغمضة العينين بعُصابة لاحتمال أن تتعرّف على بعض الوجوه من بين المحققين. وكان كلّما حضر الجنرال بن سليمان الاستجواب، لا يجرؤ على مواجهتها. لا شكّ أن ذلك يذكّره بأنّه كان أحد محاسيب أوفقير، صديق بيته، وأحد الذين كان أوفقير يخاطبهم بكلمة «ابني». تفحّص رجال الرباط أرضية السجن وخرقوا البلاط في عدّة نقاط ولكنّهم لحسن الحظ لم يقعوا بعد على المكان الصحيح. . . ولأنّ مريم كانت مريضة جدّاً، تركّزت التحقيقات على أمّي وسُكَينة. بعد أن أوسِع بورو وجميع المخزنيّين ضرباً لليلةٍ كاملة دون جدوى، أراد المحقّقون أن يعرفوا الحقيقة. مرهَقين، ومتعَبين من الخوف الذي يوحي لهم به نفاد الصبر الغضوب للقصر، قرّروا الانقضاض على حليمة وعاشورا. حينما سمعت أمّي فرقعة صفعة وصرخةً: «كفى مسخرةً،

---

(1) نادٍ خاصّ للغولف يحمل اسم قصر دار السلام الذي يجاوره.

ستقولين لنا من أين غادروا! وإلاّ. . .»، دقّت كمجنونةٍ الباب المصفّح وصرخت:

- يا جنرال بن سليمان، يا عبوش، يا يوسفي، إن كنتم رجالاً فلا تمسّوا هاتين المسكينتين، فهما ليستا مسؤولتين عن أيّ شيء، ولا علاقة لهما بشيء هنا في الداخل! دعوهما وشأنهما وسأخبركم بما تريدون معرفته.

بعد أن عرفت فاطمة بأنّه قد تمّ تجاوز الساعات الاثنتي عشرة التي كنّا قد اتّفقنا عليها لنكون بمنأى عن الخطر بوقتٍ طويل، سمحت لنفسها أن تريح الرهط التائه لكي لا تندم. حينما علِم بن سليمان بأنّ النفق موجودٌ في الزنزانة التي أقام فيها مقرّ قيادته، اعتقد كالآخرين بأنّ الأمر يتعلّق بخدعة كبيرة لكسب الوقت. أخلى الجنرال الحجرة وجاء بسُكَيْنة. طلب منها أن تدلّه على المكان الدقيق الذي توجد فيه فوهة «النفق الشهير». حينما أجابته أختي «إنّك تقف فوقه تماماً»، كاد بن سليمان، الرجل اللائق والمهذّب، يفقد برودة أعصابه:

- احتراماً لسنّنا، لا تعاملينا كأغبياء. . .

- أؤكّد لك، لا أمزح. . . أنت واقفٌ على بلاطات البئر الشاقولي.

نقر الجنرال بقدمه على البلاطات:

- ولكن ليس هناك أيّ صدى!

شرعت سُكينة في شرح آلية فتح وإغلاق كلّ المعابر والنفق. أصغت حلقة ضباط ورتباء الشرطة التي تشكّلت عفوياً من حولها إليها، ذاهلةً. خلال تلك التوضيحات، هرع دركيون أوّلاً بأوّل ليتحقّقوا من صحّتها. المعابر بين الزنازين والعليّة ومخزن الخمر الصغير والأحجار الجرّارة في الجدار، دُقّق في كلّ شيء بالتفصيل. حانت لحظة فتح السرداب. حينما اقترب رجالٌ لمساعدة سُكيْنة، أوقفهم المفوّض يوسفي. أراد أن تصف له أختي بالتفصيل ما سيكتشفونه وأن تخبره بوضع أكياس الرمل المختلفة الأحجام لكي يتأكّد من أننا قمنا بالعملية دون أدنى تواطؤ. حينما أُجلي

النفق، ظلّ المحقّقون مشدوهين بذلك. حاصر مصوّران، أحدهما من الدرك والآخر من جهاز DST، الحُجرة وصوّرا أدنى تفصيل. ولأنّ أيّ دركي لم يستطع أن ينسلّ إلى السرداب، قدّمت لهم سُكَيْنة دليلاً بأن التفّت على نفسها بسهولة في السرداب.

كان «مربّع الضيوف» في حالة جيشان. الأفلام التي صوّرت للمعسكر وللنفق أُرسِلَت مباشرةً إلى القصر. لا أشكّ في أنّ الحسن الثاني سيكون قد شاهدها باهتمام بالغ. وللتشويش على آثارنا، صرّحت أمّي بأننا قد توجّهنا نحو الحدود الجزائرية. هرع المحقّقون إلى البرقيات اللاسلكية وأجهزة الإبراق. بثّ كلّ جهاز من أجهزة الأمن الحاضرة الخبر إلى القوات المنتشرة في أركان البلاد الأربعة. ولكن في اللحظة التي كانوا يبحثون عنّا في شرق المملكة، كنّا نتهيأ للنزول إلى صالة الإطعام في منزل آل بارير.

التأمنا حول المائدة ولكنّ غياب لوك أرعبنا. أخبرتنا ميشيل: «ذهب إلى مكتبه في المصنع. سيلقي نظرة ومن ثمّ سيذهب في طلب خالكم وحيد...». تظاهرنا بالابتسام. ما إن أدارت لنا ظهرها، أسرعنا في احتساء القهوة وانفردتُ بفيليب. أقنعته بأنّ رغبتنا المباشرة الوحيدة هي الخروج في جولةٍ بالسيارة.

قلتُ له:

- في صباحيَ الأوّل من الحرية، أودّ أن أذهب لزيارة الأمكنة التي كنّا نلتقي فيها أثناء مراهقتنا.

أثارت الفكرة حماس فيليب. هرع إلى المطبخ ليأخذ مفاتيحه، وعند الخروج، خاطب أمّه:

- ماما، سأخرج بهم في جولة...

هرعت ميشيل:

- ولكن إذا وصل والدك مع وحيد، ماذا أقول لهما!

- أخبريهما بأنّه، لأنّهم انتظروا خمسة عشر عاماً ليروا زاويةً من السماء، يحقّ لهم أن يستمتعوا قبل كلّ شيء. . .

وافقت ميشيل ورافقتنا بابتسامة أمومية حتى سيارة ابنها. انطلقنا. سألني فيليب إن كنتُ أرغب في الذهاب أوّلاً إلى ثانوية ديكارت[1]، التي درسنا، أخوه باتريك وهو وأنا، فيها، ولكنني طلبتُ من صديقي أن يسلك الجادة الكبيرة. . . حيث توجد سفارة السويد. حينما وصلنا إلى جوارها، أشرتُ له بأنّ يركن السيارة. إلى جانب الممثلية الدبلوماسية الاسكندينافية، كان يوجد محلّ للحلويات وصالة شاي. تعجّب صديقي ولكنّه لم يشأ أن يعاكس رغبتي. ربّما اعتقد بأننا نرغب في تذوّق بعض الحلوى على الرصيف. حينما رأى أننا لم نتحرّك من السيارة، وأنني أنظر إليه بتحديق، تفرّس فينا، حائراً لموقفي الذي بات فجأةً رزيناً وارتسامياً. استدرتُ نحوه وأمسكتُ بيديه، قائلاً:

- أنا آسف، يا فيليب، لا أعرف كيف أشرح لك ذلك، ولكن. . . لم يُطلَق سراحنا، وإنّما هربنا. . . يؤلمني أنني كذبت عليكم وخدعتكم، ولكنّ لأنّ ذلك مسألة حياةٍ أو موتٍ بالنسبة لنا. إن قبضوا علينا ثانيةً قبل أن نستنفر الرأي العام العالمي، فسوف يقتلوننا جميعاً. اغفر لي، يا فيليب، لم يكن لديّ خيار. ثمّ كانت تلك الطريقة المثلى لحمايتكم. سوف تقولون للشرطة الحقيقة. . . لم تكونوا تعلمون بفرارنا.

أجهش صديقي بالبكاء. وضع خدّه الدافئ والمبلّل على راحة يدي.

- لا، يا رؤوف، لا تعتذر، يا أخي، لا تعتذر. أنا الحزين والمتألّم. . . كنّا حقّاً سعداء برؤيتكم أحراراً أخيراً! ولكنّكم ما زلتم في الجحيم ولم ينتهِ شيء. . . لماذا، لماذا، هذا ظلمٌ كبير!

- شكراً على كلّ شيء، يا فيليب، واشرح موقفنا لوالديك. سندخل السفارة السويدية ونطلب اللجوء السياسيّ.

---

(1) ثانوية البعثة الثقافية الفرنسية في الرباط.

قبل أن يغادرنا، سألني صديقي بإلحاح:

- ماذا يمكنني أن أفعل لمساعدتكم؟ أنت تعلم يا رؤوف بأنّه يمكنك الاعتماد عليّ.

- اذهب لتخبر والديك قبل أن يتّصلا بخالي وحيد، إن لم يكن قد تمّ ذلك. وبعد نصف ساعة، مر ثانية أمام السفارة لترى إن كان كلّ شيء على ما يُرام...

تعانقنا ونحن نتبادل وعوداً تفاؤلية وعهوداً ارتسامية.

دخلنا السفارة وغادر فيليب. كانت الساعة العاشرة إلاّ ربعاً. جلسنا في قاعةٍ مستطيلة الشكل. كان شخصان أو ثلاثة ينتظرون أن يُستَدعوا إلى الكُوى، المحمية بزجاجٍ سميك. خضتُ الحديث مع شابٍ مغربي، يدرس في ستوكهولم. كانت ساقه في الجبس ويتنقّل على عكّازين. حينما جاء دوره، ساعدته على الوقوف ورافقته إلى المغربية التي تستقبل المراجعين. كانت موظّفتان سويديّتان غائصتين خلف مقصورتيهما الزجاجيتين. حاولتُ بكلّ السبل أن ألفت انتباههما، راغباً في تجنّب حوار الطرشان الذي تمّ في سفارة الولايات المتّحدة. حينما جاء دوري، سألتني المرأة الشابّة المغربية عمّا أريد. قدّمتُ نفسي كطالب، وأمسكتُ بالمصنّف والقلم اللذين مدَّتهما إليّ وفجأةً بدأت أحتجّ وأتكلّم بصوتٍ عال لأجذب انتباه السويديّتين. حاولت موظّفة الكوّة أن تهدّئني... بالغتُ في حدّتي. أخيراً خرجت مَنْ يبدو أنّها المسؤولة من مكتبها:

- ما الخطب، يا سيّد؟

كتبتُ بأحرف كبيرة على ظهر المصنّف الذي أُعطي لي: «نحن أولاد الجنرال محمد أوفقير. نطلب اللجوء السياسيّ في السويد.» ومرّرتُ الرسالة من الكوّة. قرأت الموظّفة الاسكندينافية الكلمة بسرعة، ورفعت رأسها فجأةً وخاطبتني بحدّة:

- اذهب من هنا في الحال وإلاّ سأطلب الشرطة!

كانت الصدمة كبيرة بحيث بدت السماء وكأنّها ستنهار فوق رؤوسنا! بالتأكيد كانت ذكرى بريطانيا العظمى التي سلّمت طيّاري 16 آب (أغسطس) إلى الحسن الثاني لا تزال حيّة في ذاكرتي، ولكن أن أرى السويد تتصرّف بهذه الطريقة مع أناسٍ أبرياء من كلّ جريمة كان عصيّاً على الفهم. لقد تغيّر العالم كثيراً بالتأكيد. لا شكّ أننا بقينا لأمدٍ طويلٍ جدّاً خلف القضبان... والواضح أنّ «تطوّراً» ما في الأخلاق السياسية قد فاتنا. ألحّت السويديّة، واستشاطت غضباً، وأشارت لنا بإصبعها السمين والوردي إلى باب الخروج. وزعقت:

- Go out! Now!

نهض الطالب الشابّ المغربي وحرجل بعكازه ليأتي لمساعدتنا، غير مدركٍ سبب أن يُعامَل مواطنوه بهذه الطريقة. ولأنّه يجيد اللغة السويدية، بذل بلطف وساطةً وقال لي بالعربية:

- ابقَ، ابقَ، سأتدبّر هذا الأمر...

ثمّ توجّه بطريقة مهذّبة إلى السيّدة ليحاول إقناعها. ولكن دون أن تشيح ببصرها عنّا ولا أن تصغي للشاب المقدام، تظاهرت السيّدة الشقراء البدينة بأنّها سترفع سماعة هاتف. توارينا عن الأنظار. ما إن صرنا على الرصيف، ابتعدنا، ونحن لا نزال مندهشين لما حصل لنا للتوّ. أن ننجو من الجحيم ونتعرّض لكلّ هذه المخاطر ونبذل كلّ هذه التضحيات وأن نصل إلى هنا لنجد أنفسنا نُطرَد مثل الأشقياء من سفارة غربية! كيف يمكن لممثّلٍ للأمم الحرّة الديمقراطية، النشيطة جدّاً في إعطاء الدروس عن المواطَنية، أن يطردنا حتى دون أن يسمعنا؟

هذه المرّة أُصبنا حقّاً بالإحباط. ونحن نسير في الجادة الواسعة، فكّرنا، مليكة وأنا. بدت لنا السماء شديدة الزرقة، وشديدة الوطأة. كنّا ننضح عرقاً. علينا أن نتّخذ قراراً سريعاً. ومن غير المطروح العودة إلى السفارة الفرنسية... فقد مررنا بها أمس. ولا بدّ أنّ الشرطة قد عرفت

ذلك وتنتظرنا هناك. أفضل ما نفعله الآن هو أن نحاول للمرّة الأخيرة الاتّصال بوسيلة إعلامية فرنسية. قلتُ لمليكة ورؤوف وماريا أن نعود إلى بيت آل بارير، والذي لم يعد يبعد سوى نحو خمسمئة متر... تقدّمتُ إخوتي مسرعاً الخطى وما إن انعطفتُ في الزقاق الضيّق الذي يسكن فيه أصدقائي، ركضتُ بلا توقّف وأسرعتُ إلى جرس الباب. ولأنّها قد رأت أننا أمضينا الليلة الماضية في بيت سيّدها، دعتني طبعاً الخادمة أن أدخل وعادت إلى المطبخ. ولمّا كان البيت فارغاً، هرعتُ إلى هاتفٍ لأطلب الاستعلامات. ردّ عليّ صوتٌ مزعجٌ. حينما طلبت رقم إذاعة فرنسا الدولية في باريس، بات كلام الرجل فجأةً معسولاً. أقلقتني لهجته المجاملة بإفراط. نظرتُ إلى الساعة الجدارية. استمرّت المكالمة من خمس وثلاثين حتى أربعين ثانية. حذراً من المدّة التي تستطيع الشرطة خلالها تحديد مكان المكالمة، تردّدت في مواصلة الحديث. فجأةً، دخلت السيّدة بارير إلى الصالون:

- رؤوف، أرجوك، لا تتّصل من هنا.

بات واضحاً أن ميشيل عرفت كلّ شيء. ذهب فيليب إلى والديه في المصنع ليخبرهما بالأمر. أغلقتُ السمّاعة.

- لا تؤاخذيني، ميشيل، لم أكن...

قاطعتني السيّدة بارير:

- لا، يا رؤوف، لا تعتذر، نحن من نتأسّف لكم... أنتم محقّون في مجيئكم. حتى لو أخبرتموني بالحقيقة، أتعتقد بأننا كنّا سنطردكم! مطلقاً! في كلّ حال، لا أبالي، لو وصل رجال الشرطة، فسأقول لهم إننا قد استضفناكم بطيبة خاطر وإنّ هذا أقلّ ما نفعله!

عندئذٍ، وصلت مليكة مع رؤوف وماريا. واستهم ميشيل وطمأنتهم بترديدها لهم الأحاديث العامّة نفسها. وسرعان ما انضمّ إلينا فيليب. كنّا في وضعٍ ميئوسٍ منه. قد تداهمنا الشرطة بين لحظة وأخرى. حينما سمعنا صرير باب الحديقة، هرعنا نحو النافذة. إنّه لوك بارير وقد عاد

متبوعاً بخالنا. انقضّ وحيد علينا، باكياً، مصدوماً حقّاً. أضنى الحزن خالي، ذا الطبع المتحفّظ والبارد، أو الأحرى الانطوائي ورابط الجأش، تماماً على حالنا، وضمّنا بقوّة إلى صدره وهو يرتجف تأثّراً وانفعالاً. وكلّما نظر إلينا، هزّ برأسه يميناً وشمالاً في إشارةٍ على اليأس والعجز. أين الشبّان، الرياضيّون والأشدّاء، والطفل الرضيع، والصبية ذات الخدّين كخدّي طفلٍ صغير؟

السؤال الأوّل الذي تبادر إلى شفاهنا:

- وحيد، من أين تأتي؟

شرح لنا:

- أوقفني جهاز DST البارحة. أمضيتُ الليلة تحت الاستجواب. وسيمرّون بعد قليل على بيتي لاقتيادي معهم، ولكن هذه المرّة جهاز DGED[1].

- ولكن هذا جنون. لا بدّ أنّهم يلاحقونك.

- لا، لا. اطمأنوا، لا أحد يتتبّع خطانا. خرجتُ من بيتي من فوق الجدار مروراً فوق منزل جاري. في الوقت الذي ظنّ العناصر الثلاثة الذين يراقبون بيتي، جالسين في سيارتهم، أنني أرتاح بين استجوابين.

كان خالي محترساً. ولكنّني خمّنتُ أنّ الشرطيين يعملون بقوّة وعنف. أخبرنا وحيد بأن العشرات من الأشخاص قد أوقِفوا. وقد استجوبت الشرطة كل معارفنا السابقين. وبأعجوبة، لم تفكّر سوى في رفاق والديّ، ولم تتمكّن من وضع قائمة كاملة بأصدقاء طفولتي!

ليس لدينا ثانية من الوقت لنضيّعها. بات مخبأنا خطراً للغاية. في الصالون، حاول كلٌّ إيجاد مخطّطاً للحلّ. لم يستسلم أحدٌ لفكرة رؤيتنا وقد أُسِرنا وأضعنا وقتاً في إعداد الفرضيات. كان أمرُ وحيد يهمّني، هو

(1) مديرية الدراسات وحفظ المستندات: الاستخبارات السرية المغربية المناظرة لجهاز DGSE الفرنسي.

الهروب قبل أن يُحاصَر الحيّ. لم يكن لوك بارير، الذي كانت له خبرة طويلة بالمغرب وبمعرفة جيّدة بالقصر لكونه قد نفّذ أعمال النجارة للمساكن الأميرية والملكية، متفائلاً بخاتمة مغامرتنا المجنونة. سار والد أصدقائي في كلّ اتّجاه:

– لو تسمعوا نصيحتي، يا أولاد، سنسلّم أنفسنا. أنتم تعرفون الشرطة المغربية، سوف تقبض عليكم بالتأكيد! فلنسلّم أنفسنا يا أولاد، فلنسلّم أنفسنا. . .

رغم هشاشة الوضع، لم أستطع منع نفسي من الابتسام: المسكين لوك مستعدّ لأن يضحّي بنفسه معنا على أن تتوقّف لعبة «الدركي والحرامية» المثيرة هذه. وبينما كان كلٌّ يتساءل عن عاقبة الأحداث، فكّرنا، مليكة وأنا، واتّفقنا على أن نغادر الرباط. قررنا أن نتّجه نحو الشمال إلى طنجة. من هناك، سنحاول أن نستنفر الرأي العام وأن نعبر، إن استطعنا ذلك، المضيق.

سألتُ خالي إن كان لديه نقود. وإذ لم يكن وحيد يحمل مبلغاً كبيراً معه، قدّم لنا لوك بارير 3000 درهم. ما إن خرج وحيد ولوك، ودّعنا ميشيل وفيليب. اعتمرت قبّعة مطبوعاً عليها شعار النادي الملكي للغولف في دار السلام ووضعتُ مثل مليكة نظارات شمسية. رافقنا أصدقاؤنا حتى الشارع. شكرناهم على تفانيهم واضطررنا لأن ندفعهم لكي يعودوا ويغلقوا الباب على أنفسهم. سرنا في الزقاق المقفر. حينما وصلنا إلى زاوية مجموعة البيوت، لوّحنا للمرّة الأخيرة لميشيل وفيليب. انحنى صديقي وأمّي برأسيهما عبر الباب الموارب وأرسلا لنا قبلات بيديهما وهما يشاهداننا، بتلهّف، ونحن نبتعد.

على الجادة، أوقفنا سيارتي أجرة وانطلقنا إلى محطّة أكدال، التي لم تكن موجودة في عهدنا. كانت بضعة مبانٍ تضمّ وزارات تقابل موقفاً وسيعاً للسيارات. اختبأنا في نفقٍ مظلّل. طلبتُ من إخوتي أن ينتظروني، وذهبتُ مستطلعاً. درتُ من حول المحطّة والمرأب رصداً لأدنى تفصيلٍ

قد يدلّني على الحضور الأمني. اكتشفتُ سريعاً أنّ المحطّة مراقَبة. تحوّلتُ بعيداً عن الطريق المباشر وسرتُ بمحاذاة السكّة الحديدية. كان استدلالي مفيداً. عدتُ نحو المرأب. سألني متسوّل صدقةً. مستغلاً الفرصة، أعطيته عشرة دراهم. شرحتُ له أنّ زوجتي مريضة وأنني لا أستطيع تركها لوقتٍ طويل وحيدة في السيارة، ولكنّه يستطيع أن يذهب هو ليقطع لي أربع تذاكر إلى طنجة. ففرح بذلك. وقبل أن يبتعد عنّي، أضفت:

- يمكنك أن تفرّ بالنقود، ولكنّك ستكون الخاسر، فأنا سأعطيك أكثر من قيمة بطاقات القطار إن عدت.

وإذ أُبرِمَت الصفقة، انصرف الرجل، ووفى بوعده وعاد بالبطاقات. دفعتُ له مثلما اتّفقنا وعدتُ إلى الآخرين. كان القطار المتّجه إلى طنجة ينطلق في الساعة الرابعة. نظرتُ إلى الساعة التي قدّمها لي فيليب. كانت الساعة الثانية والنصف. انتظرنا وتبادلنا الآراء حول المدى الذي قد تأخذه المطاردة. التففنا حول المحطّة بدورةٍ واسعة وحاذينا السكك الحديدية محتمين بالأجمات. حينما وصلنا إلى جانب الأرصفة، انبطحنا أرضاً وانتظرنا القطار. ما إن وصل القطار إلى المحطّة، قفزنا فوق السكك وركبنا. انفصلنا كلّ اثنين عن بعضنا، وأقفلنا أبواب المراحيض على أنفسنا إلى أن تحرّك القطار فوصلنا إلى مقصورة فيها شابٌ مغربي يعمل طاهياً في بلجيكا، وامرأة بدينة ثرثارة ولطيفة يعمل زوجها في وزارة الداخلية. خلال ما يقارب خمس ساعات تتالت المناظر الطبيعية كئيبة وكامدة مزيّنة بالأحاديث مع زملائنا في الرحلة. كان على جميع المغاربة أن يتنقّلوا حينذاك ببطاقتهم الشخصية. فشرحتُ أننا جزء من مجموعة إيطالية جئنا لقضاء العطلة وأنّ زوجتي قد نسيت جوازات السفر بين الأمتعة التي ذهبت مع بقيّة المجموعة. تأسّف محدّثونا، الذين كانوا يتكلّمون العربية دون أن يساورهم الشكّ أننا نفهم عليهم، لحالنا. حتى أنّ السيّدة قالت للطاهي:

- أنت ترى، لم يعتادوا في بلادهم على الكثير من الارتباكات الأمنية، ويأتون إلى بلادنا ليصرفوا نقودهم فنناكدهم بسبب ومن دون سبب... لا بدّ أن نساعدهم، سنرى ما بوسعنا أن نفعله من أجلهم عندما نصل.

بعد أكثر من أربع ساعات من السفر، على مقربةٍ من طنجة، أبطأ القطار من سرعته. كانت السكّة الحديدية تحاذي الشاطئ. خرجتُ من المقصورة، وألصقتُ وجهي بزجاج نافذة وبقيتُ هناك. كان شاطئ البحر يعجّ بالمخزنيّين وبعناصر CMI[1]. كانت المدينة في حالة استنفار.

علِمنا فيما بعد بأنّه قد جُرِّبت، في بير-جديد، كلّ الوسائل لدفع أهلنا للانهيار، لاسيما بالقول لأمّي:

- سيّدتي، كوني عاقلة، أولادك يهيمون على وجوههم وحدهم في البراري، وقد يُعتدى عليهم.

فردّت أمّي على اليوسفي والعبوش:

- إذا ما نجوا من هذه المحنة، فلا تقلقوا عليهم، سوف يحسنون تدبير أمرهم.

فأجابا:

- ولكن انتهى هذا الأمر، الآن انتهى كلّ هذا! لم يكن صاحب الجلالة على علم، وقد استغلّ أعداء زوجك ذلك. وحمّلا المسؤولية للدليمي، الذي لم يعد موجوداً حينذاك للدفاع عن نفسه، والجنرال مولاي حفيظ والعقيد بن عايش:

- هؤلاء هم الذين عاملوكم معاملةً غير لائقة. كانوا على الدوام يغارون من الجنرال. أمّا بن عايش فقد أراد أن ينتقم لشقيقه الذي قُتِلَ في الصخيرات.

الخلاصة، كان المنهج هو نفسه: كلّ شيء في سبيل تبرئة الملك!

---

(1) وحدة التدخل السريع، المناظرة لفرق الأمن الجمهورية.

حينذاك، ولإبعاد متعقّبينا عن الرباط، أخبرتهم أمّي بأنّنا في طنجة. بصدفة مذهلة ولاإرادية، وجّهت الرهط نحو موقعنا!

حينما توقّف القطار، هبط الليل. نزلنا على الرصيف حيث يمرّ المسافرون عبر سدّة من الحواجز المعدنية. على طاولة خشبية، كان شرطيّان بالزيّ المدني، وأربعة عناصر من CMI، والكثير من المخزنيّين المسلّحين، يفتّشون القادمين. أخذت مليكة بيد الطاهي، وأنا حملتُ أمتعة السيّدة البدينة. تقدّمنا متلاصقين في رتلٍ من المسافرين بخطى وئيدة نحو التفتيش. الغريب أننا لم نشعر بالخوف وإنّما شعرنا بأننا ممثّلون لمشهدٍ من فيلم عن شبكات المقاومة أثناء الحرب العالمية الثانية. حين جاء دورنا، مرّ الطاهي أمام شرطيٍّ سأله:

- هل تسافر وحدك؟

تقدّمت السيّدة بدورها:

- إنّهم جميعاً معي، وأشارت للموظّف بإصبعها إلينا، ثمّ أضافت وهي تقدّم أوراقها: زوجي يعمل في وزارة الداخلية.

تفحّص الشرطي الوثيقة، فنهض وابتسم:

- نعم، طبعاً، أعرف زوجك، لقد سبق وعملنا معاً! اعذريني، يا سيّدتي، تفضّلي، تفضّلي، وتحياتي الودّية لزوجك!

وهكذا تجاوزنا الحاجز دون أن نُزعَج وخرجنا من محطّة طنجة. تجاوزت الساعة العاشرة. ودّعتنا السيّدة البدينة وأوصت الطاهي بأن يعتني بنا، قالت له:

- أنا آسفة، ولكنّ أسرتي تنتظرني. لو كنتُ أستطيع استضافة هؤلاء السياح الليلة لفعلتُ بكلّ سرور ولكنّ بيت سلفي يغصّ بالقاطنين. افعل أقصى ما بوسعك لمساعدتهم.

سرنا على الشارع المحاذي للبحر مع مرافقنا. كان الهواء رطباً ومنعشاً والتموّج ضعيفاً ووجه الأمواج صقيلاً. تلألأت التماعات بلون

الكروم على ذرى الأمواج التي بالكاد تهتزّ في ارتدادٍ خجولٍ. امتزجت رائحة الملح واليود برائحة السمك المنقول بقوارب الصيد وبروائح مازوت المراكب وحاملات الحاويات. تلألأت مصابيح قوارب الصيّادين في الأفق. استنشقت ملء رئتيّ، وتملّكتني الرغبة في أن أركض وأركض وأشعر بأنّني حرٌّ وألاّ أتوقّف... راقبنا شواطئ أوروبا مثلما كان البعض ينظرون إلى شواطئ إنكلترة إبان الاحتلال الألماني لفرنسا.

اقترحنا على الطاهي أن نجرّب حظّنا في فندقٍ يدار من قبل معارف لنا، فندق سول آزور على الكورنيش. حينما قدّمنا أنفسنا هناك كأصدقاء لعبد السلام وماما جسّوس، وسألنا إن كان السيد جسّوس بنفسه موجود، ذُهِل البواب: إذ يعيش عبد السلام منذ سنوات في كرسيٍّ متحرّك! وقبل أن نغادر المكان أخذنا رقم هاتف ماما جسّوس. كما سألنا إن كان صديق طفولتنا صلاح بلفريج، الذي يملك والده أسهماً في الفندق، موجوداً. قيل لنا: «كلاّ، لديه فندقه الخاصّ خارج المدينة، فندق **أهلاً**.»

على الطريق الوسيع المحاذي لواجهة البحر، مرّت سيارات جيب للشرطة والدرك والقوات المساعدة. وكلّما نعبت صفّارة إنذار في المدينة، ارتعدنا خوفاً. كانت المطاردة في أوج نشاطها. ولتلطيف الجوّ، تفكّهت بذكر مشهدٍ من فيلم **المطعم الكبير** حيث كان لويس دو فونيس، في شخصية السيد سيبتيم، جالساً إلى طاولة لصوص وعلّق على دوي صفارة إنذار قائلاً: «كلاّ هذه ليست الشرطة، هؤلاء إطفائيون! صفّارة الشرطة هي ري لا ري لا؛ وصفّارة الإطفاء هي سي لا سي لا!»

اتّصلنا، من بقالية، بالسيّدة جسّوس، التي ما إن سمعت صوتنا حتى أغلقت السماعة على الفور. للوهلة الأولى، استنتجنا من ذلك أنّه لا بد أن تكون الشرطة في بيتها وأنّها أرادت تجنّب المضايقات. صديقة أخرى تتبدّى صداقتها أثناء الخوف.

عند الخروج من البقالية، عرض علينا الطاهي أن نذهب للبحث عن صديقٍ من أصدقائه يمكنه استضافتنا. وسرعان ما أصبحنا في حانةٍ كئيبة،

سيئة الإنارة، يجلس إلى طاولاتها أشخاصٌ بوجوهٍ شاحبة وعيونٍ محمرة ونظراتٍ كابية. كانت عبارة عن طابقٍ ملحقٍ خفيض أشبه بمكانٍ مليءٍ باللصوص، بنوعٍ من مكان القراصنة حيث يتلاطم البؤس والعاصفة في الروح. ذلك المكان الذي قد يبدو للآخرين مرعباً بدا لنا مناسباً تماماً لوضعنا كسجناء فارّين. جلسنا إلى طاولة بينما شقّ مرافقنا طريقه إلى آخر القاعة ومال على أذن رجلٍ منهمكٍ في لعبة ورق. استغرقت نقاشاتهما المملّة نحو عشر دقائق، مع الكثير من الحركات المعبّرة. ميزة المتوسطيين هي أنّه يمكن فهم موضوع حديثهم، حتى من دون كلمات. عاد الطاهي إلينا، مرتبكاً:

- أنا آسف، لا يمكن لصديقي أن يستضيفكم الليلة، لقد جاءه أفرادٌ من عائلته على نحوٍ مفاجئٍ.

خرجنا عبر درجٍ لولبيٍّ ضيّق. أعاد الهواء البحريّ المندفع في الزقاق المنحدر إلينا القليل من الطاقة. ودّعنا الطاهي وانصرف: فعائلته تنتظره.

كانت الساعة الحادية عشرة والنصف، حينما حملتنا أخيراً سيارة مرسيدس صوفيّة اللون. كان سائق التاكسي رجلاً مسنّاً قصيراً ولطيفاً ومرحاً، فرحاً مثل قرصةٍ وثرثاراً مثل درّةٍ. لم يكفّ عن طرح الأسئلة عليّ. ولم يسألني إلا بعد لحظاتٍ من انطلاقنا نحو وجهتنا.

- إلى فندق أهلاً، إنّه في مخرج المدينة.

- أعرف، أعرف، ردّ سائق التاكسي، هل تقيمون فيه أم تذهبون إلى مرقصه؟ إنّي أنبّهكم، فهو سيّئ السمعة جدّاً!

فطمأنته:

- كلاّ، كلاّ، لدينا غرف فيه.

حينما قاربنا مخرج طنجة، وبينما يتعرّج الطريق بين روابٍ خفيضة، ارتفع نورٌ ساطع في السماء. بدا ذلك من بعيد وكأنّه بداية نشوب حريق،

ولكن حينما انعطفنا، اكتشفنا أنّها الفوانيس الدوّارة والمصابيح ومساليط الضوء المحمولة لحاجزٍ ضخم.

أبطأت سيارتنا من سرعتها، وقال السائق:

- أوف، لقد استنفروا كلّ الأجهزة. لا بدّ أنّهم يبحثون عن صيدٍ ثمين!

أفرجتُ عن ابتسامةٍ مصطنعة، وكأن الأمر لم يكن يعنينا.

تقدّمنا في رتلٍ مستقيم تكاد واقيات السيارات تتلامس. فُتّشت كل المركبات، إلاّ أنّ التفتيش كان أكثر جدّية وتدقيقاً للذين يريدون الدخول إلى طنجة. لم يتخيّل متعقّبونا للحظة أننا قد استطعنا النفاذ من العيون المتراصة لشبكتهم والدخول إلى المدينة.

كان على الحاجز قوات مختلطة. حيث شغله دركيون وعناصر من CMI ومخزنيّون مدجّجون بالسلاح، وبحضور عملاء لجهاز DST بالزي المدني. لم يعد بيننا وبين الحاجز سوى بضعة أمتار. على الممرّات الجانبية للطريق، رُكِنت سيارات شاحنة وجيب وعادية لقوات حفظ النظام. وعلى جانبي الحاجز، كانت دراجات نارية للشرطة والدرك مسنودة على مساندها، تومض فوانيسها الدوّارة الزرقاء والحمراء بانتظام. لا تزال سيارتان فقط تفصلاننا عن السدّة الشائكة بالسلاسل المسمّرة. حينما جاء دورنا، خفقت قلوبنا إلى حدٍّ كادت تتمزّق ولكننا نجحنا في الحفاظ على هدوء أعصابنا. رغم شدّة اللحظة والتوتر البالغ، همس في عقلي صوتٌ عميق مهدّئ: «إذا كان القدر والسماء قد سمحا لنا بالوصول إلى هنا، فذلك ليس ليتمّ توقيفنا دون أن نتمكّن من إطلاع العالم على مصيرنا! إذا كنّا قد نجونا من مصباح المَرقَب حينما كنّا نزحف أمام الكلاب، وإذا كنّا قد تمكّنا من اللجوء إلى بيت آل بارير، ورؤية خالنا لبضع دقائق وتجاوز الأجهزة المنصوبة في محطة الرباط-أكدال وفي محطّة طنجة، فإنّ اليد التي حمتنا حتى الآن ستواصل فعل ذلك!»

لم يكفّ سائقنا عن الدمدمة، مستغرقاً في مونولوجٍ باللغة العربية:

- هيّا، هيّا، تحرّك! هه! هذا مستحيل، ولكن ما الذي جعلهم يزعجون الناس هكذا! ويريدون أن يصبح المغرب مقصداً سياحياً كبيراً! هذا مضحك! إنّهم يحلمون المساكين! إنّهم يحلمون!

ثمّ التفت إليّ:

- ألا يثير هذا الشفقة؟ لدينا واحدة من أجمل بلاد الدنيا وآلاف الكيلومترات من الشواطئ على الأطلسي كما على المتوسّط، ولكن عدد السيّاح أقلّ من تونس! انظر إلى أسبانيا، التي لديها شواطئ أقلّ جمالاً بكثير من شواطئنا! ولكن الناس يقصدونها لأنّهم يشعرون بأنّهم أكثر حريّةً! ألا ترى هذا محزناً؟

ابتسمتُ ووافقته بإيماءةٍ من رأسي. انحنى مخزنيّ على سيارة المرسيدس، وأنار وجه العجوز النحيل بمصباحه، ثمّ أدخل الحزمة الضوئية إلى السيارة. سمعنا قلوبنا تدقّ في المقاعد. أوضح سائق التاكسي:

- هؤلاء سيّاحٌ نزلاء في أهلاً، وأنا أصحبهم إلى فندقهم، الذي يبعد ثلاثة أو أربعة كيلومترات من هنا.

أطفأ المخزنيّ مصباحه وتوجّه إلى رتيبٍ، كان يحثّ الجمع، بحركات مبالغة من يديه، على تسريع وتيرة التفتيش. صرخ في مرؤوسٍ:

- الذين يخرجون من المدينة، فتّشوهم أسرع. يجب تخفيف الزحام على الحاجز بهذا الاتّجاه للتركيز على الداخلين!

وسط ضوء المصابيح، رأيتُ المخزنيّ يشير للسائق بالتقدّم. حينما وصلنا إلى جانب رئيسه، سمعتُ مرّة أخرى:

- إنّهم سيّاحٌ نزلاء في فندق أهلاً...

ردّ الرتيب، متوتّراً:

- دعهم يمرّون، دعهم يمرّون!

تمتم السائق وهو يستأنف سيره:

- جيّد، أخيراً انتهينا!

ومررنا. فالشرطة تبحث عن فارّين بلا أوراق ثبوتية لا يمكنهم بالتأكيد أن ينزلوا في مكانٍ عام مثل فندق أهلاً. بعد تجاوز الحاجز بوقتٍ طويل، لزمنا الصمت. وسرعان ما غادرنا الطريق العامّ منعطفين إلى اليسار لنسلك طريقاً فرعياً مفروشاً بالحصى. مررنا تحت لافتة تحمل بأحرفٍ حمراء فاقعة: «أهلاً». أي «أهلاً وسهلاً» باللغة العربية.

قدّمنا أنفسنا لموظّف الاستقبال على أننا أصدقاء ينتظرنا صلاح بلفريج، ولكنّ البواب أخبرنا بأنّ المعلّم غائب منذ بضعة أيام. وأنّه لا يمكن إنزالنا بالفندق دون البطاقة الشخصية! عبثاً ألححنا عليه، فقد كان رفضه مهذّباً ولكن حازماً. فذهبنا إلى حانة المشروب في الفندق، المشغلة بسيّاحٍ أسبان يصرخون ويضحكون مقهقهين فرحاً. لم يعر أحدٌ الانتباه إلينا. اخترنا مقعداً خفيّاً، في زاوية طاولة الشرب، قرب مشربية[1] تفصلنا عن البهو. من هناك، كان بوسعنا أن نبقي نظرتنا على المدخل. أحدثت لنا الموسيقى وصخب الأصوات تكزّزاً. كنّا منهكين وجائعين، ولكنّنا اقتصدنا بدقّة نقودنا فلم نطلب إلاّ قهوة وعصير الليمون. فما دام فرارنا لم ينتهِ، لم نكن نعرف حجم المصاريف التي سيتطلّبه هروبنا بعد. هل يمكن أن نضطرّ لأن ندفع لمهرِّبٍ كي نعبر المضيق؟ قلقنا على أخي الصغير، الجالس على حافة المقعد، وهو يتشبّث به بيديه، مركّزاً نظرته على الأرض، فسألناه:

- ماذا يحدث، يا عبد اللطيف؟

أجابنا:

- لا شيء، لا شيء. ولكن مذ أن نزلنا من القطار، لدي الإحساس المزعج بأنّ الأرض لا تزال تجري من تحت قدميّ. أحياناً، أرى أن المناظر الطبيعية تتعاقب أمام ناظريّ بينما أنا جالسٌ معكم.

(1) المشربية: شُبّاك يسمح بالرؤية دون أن يُرى مَنْ وراءه. المترجم

نظرنا، مليكة وأنا، إلى بعضنا. الطريقة التي انبعثنا بها من عدم مأوى للمحتضرين لنغوص في النشاط المضطرب للعالم، تساوي بالنسبة له ولادةً، قدوماً واعياً إلى هذه الدنيا. كانت الصدمة عنيفة مثلما تلتقي الظلمات والأنوار، مثلما يتصادم الصمت والاحتضار على إيقاع الحياة وصرختها المختلجة. ما هو محنة مرعبة بالنسبة لنا، نحن الكبار، لا بدّ أن يشبه شرخاً لا يُجبَر بالنسبة للصغار.

بلغت الساعة الثانية عشرة والربع بعد منتصف الليل. ولا تزال الحانة تضجّ حيويةً ونشاطاً. آلَم صخبها حواسنا ولكنّه خفّف من قلقنا: كلّما كان عدد الأشخاص أكثر، مررنا دون أن يفطن لنا أحد. ومع ذلك أليس علينا أن نبحث عن مكانٍ يؤوينا؟ ألم يكن بوسعنا أن نقيم صداقةً مع من يرغب حقّاً في استضافتنا؟ بدت ثلاث نساء متبرّجات بإفراط «يترصّدن السائح». مرّ وقتٌ لا بأس به وأنا أراقب فخّاً عجيباً حول بليارٍ كهربائيٍّ منصوبٍ في مخدعٍ. تقوم الفتيات الثلاث بانتظام بلصق جرعات من المخدّر تحت البليار، وفي الحال، يتظاهر زبونٌ بأنّه يلعب ليقوم بتحصيل الجرعة. تجارةٌ ممنوعة محبوكة جيّداً يبدو أنّ موظّف الاستقبال هو معلّمها. فالزبون يتوجّه إليه أوّلاً.

قرّرنا أن نتوارى وأن نفترق. دخلت مليكة وماريا إلى مراحيض النساء. وحبسنا، عبد اللطيف وأنا، أنفسنا في مراحيض الرجال. جلسنا متقوقعين على جانبي حوض المرحاض، ووضعنا رأسنا على طرّادة الماء لننام للحظات.

رغم القلق وحركة الذهاب والإياب في حجرات الحمام المجاورة، غفونا لما يقارب ثلاثة أرباع الساعة قبل أن نعود إلى البهو. اقترب منّا موظّف الاستقبال. عرض علينا بلطف أن نعود إلى الحانة، وقدّم لنا قهوةً، ثمّ قادنا إلى قاعة الفيديو المخصّصة فقط لزبائن الفندق. هناك، كان بعض السيّاح يشاهدون مباراةً لكرة القدم. أسعدتني فكرة أن يتمكّن عبد اللطيف، الشغوف بهذه الرياضة التي لم يشاهدها قط، من مشاهدة

بعض تمريراتها وهجماتها. خضتُ حديثاً مع شابٍ إسبانيٍّ ظريف. إنّه يقيم في جبل طارق وجاء يقضي شهر العسل في المغرب. وعلى نحوٍ غريب، ودون أن ننتبه إلى ذلك، أصبحنا مرتاحين أكثر فأكثر، نضحكُ لأدنى سبب! وسيلزمنا وقتٌ حتى نفهم أنّ البوّاب، معتقداً أنني شرطيّ، وضع زيت حشيشة الكيف في قهوتنا.

نحو الساعة الثانية صباحاً، وقد استعدنا أنفاسنا بعض الشيء، خرجنا من الفندق أمام البوّاب لكي يرانا. قلنا له:

- سنعود إلى طنجة، إذا جاء بلفريج، أخبروه بأننا سنعود غداً.

اندسسنا وسط الحديقة الواسعة مقوّسي الظهر تحت أشجار البرتقال القزِمة. عبرنا ما يشبه بستاناً صغيراً وحاذينا جداراً خفيضاً. قفزنا من فوقه لننزل في أرضٍ بور تغزوها الأعشاب الضارّة. انتهى ذلك المرتفع بجرفٍ صخريٍّ يتعرّج على طوله دربٌ ضيّق. جعلني مسلكه السريّ أعتقد بأنّ الروّاد الذين دشّنوه ربّما كانوا يحتاجون مثلنا إلى السريّة. هذا المخبأ مثاليّ: فهو يطلّ على البرية ويوفّر إمكانيات الانسحاب.

مسندين إلى الجدار الخفيض، حاولنا العثور على مكانٍ «مريح» لقضاء الليل في العراء، حريصين على ألاّ نلوّث ملابسنا. كانت الليلة مقمرة، والقبّة الزرقاء، زرقةً كالحة، مرصّعة بآلاف الألماسات التي هدهدتنا بومضاتها الوديعة.

دخنّا ونحن نتكلّم، ولكن لا أحد من بيننا أشاح ببصره عن المشهد الأخّاذ. لم نستطع منع أنفسنا من التفكير في أهلنا الباقين في بير-جديد. ولهذا السبب لن نعرف راحةً ولا هدوءاً، قبل أن ننجح في إطلاق نداء استغاثتنا. كانت كلّ أفكارنا مع «ضيوف» البئر الجديد.

في اللحظة نفسها، نُقِلَت أمّي ومريم وسُكَيْنة ورفيقتانا في الشقاء بعرباتٍ مدرّعة. أُلبسن جلابيب المخزنيّين، وعُصِبَت أعينهنّ، وأُرفقنَ بدركيين مسلّحين. اقتدن إلى مفوضية درب مولاي شريف في الدار البيضاء، مركز الاستجواب الرئيسي في المملكة. لدى وصولهنّ، أُغمي

على سُكينة، المصابة بفقر دمٍ شديد. حينما هرعت أمّي لإنهاضها، صدم شرطيٌّ رأسها بعنف بالجدار. فاحتجّت. وكانت تلك هي المرّة الأولى التي تُعنَّف منذ اعتقالنا. أسرع رئيس قسم DST واعتذر:

- آسف، يا سيّدتي. بقبّعة الجلباب المبتذلة على رأسك، اعتبرتكِ أحد مخزنيّي بورو.

لم تنخدع أمّي بذلك. كان الأمر يتعلّق بترهيبٍ، بتوطئةٍ لما سيكون مخبّأً لنا إن كنّا خانعين. لاسيما وأنّ درب مولاي شريف هي المفوضيّة المخصّصة لألدّ المعارضين السياسيين. التهديد واضح إذاً.

أوقِفَت سُكينة من قبل ممرّضٍ حقنها بمستحضرٍ طبيٍّ في الوريد. كما حُقِنَت مريم أيضاً. استؤنفت الاستجوابات.

محرومين من الغذاء، مستجوبين منعزلين، منهكين، ممنوعين عن النوم، تعرّض «الضيوف» لمحنةٍ قاسية. جُلِبَ بورو إلى الحجرة المجاورة للحجرة التي يتمّ فيها استجواب أمّي، وتُركَ الباب مفتوحاً عن قصد لكي ترى فاطمة آمر المعسكر، وقد قُيّدت يداه إلى حدّ الإدماء، وتورّم وجهه من اللكمات، واحمرّت عيناه ونظرته تائهة. لم يبق أيّ دركي في الأفق. السجينات الخمس في قبضة الشرطة وحدها الآن. ومنذ ذلك الحين يمكن أن يحصل أيّ شيء...

بينما كانوا يستجوبون أمّي وسُكَينة، كان بورو يصرخ في المكتب المجاور. لم يكفّ، وهو يُضرَب بقسوة، عن التكرار لجلاّديه:

- لماذا لا تذهبون لإحضار العقيد بن عايش ومولاي الحفيظ، لم أفعل سوى تنفيذ أوامرهما!

وأضاف:

- أنتم بأنفسكم، مع الجنرالات والعقداء، قضيتم يومين حتى عثرتم على النفق! بينما كنتم تجلسون فوقه! وتريدون أن أستطيع، أنا المسكين، معرفة أنّهم كانوا يحفرونه!

طمأن المفوّض يوسفي والعبوش، المتماسكان، أمّي:

- هو لا ينال سوى ما يستحقّه، لقد أساء إليكم كثيراً. . .

أغاظت تلك الوقاحة، المتجاوزة لحدود اللياقة، أمّي:

- إذا كنتما تتصوّران أنّه يسرّني أن أرى هذا المسكين يتألّم، وهو ليس سوى منفّذ للأوامر، وكبش فداء، فهذا لأنّ قيمة الألم تسمو فوق رأسيكما، مهما بلغ علوّ مكانهما! حينما ستعرفان ما هو الألم الحقيقي، الشجن الصادق، لن تستمتعا بآلام الآخرين، خاصّة حينما لا يكون إلاّ ظلماً إضافياً للتكتّم على المذنبين الحقيقيين. . . أنا أتأسّف عليكما، أيّها السيّدان، إن كنتما تعتقدان بأنّكما ستجعلانني أصدّق بسذاجة أنّكما تعذّبان بورو بسبب النظام المختلّ الذي أُخضِعنا له. إنّكما تنكّلان به فقط لأنّنا تمكّنا من مخادعة تيقّظه، ولذلك، أرجوكما أن توقفا هذه التمثيلية. . .

لم يتحيّر المحققون خلف الابتسامات الموحية بالانزعاج. تحت غطاء نبرةٍ لطيفة، واصل مدير DST ورئيس الفرقة الخاصّة[1] عملهما التنقيبي. في المكتب المليء بالدخان، أحاط بالعبوش واليوسفي نصف دزينة من المفوّضين. كانت الأسئلة دقيقة والتهديد مغلّف بعناية بالنفاق والوقاحة.

- تعلمين، يا سيّدتي، أنتِ مَنْ ينبغي عليها أن تقلق على الأولاد. . . إنّهم معرّضون لأيّ اعتداءٍ كان. إن تأخّرتِ في إخبارنا أين يكونون، ربّما سيفوت الأوان، قد يُقتَلون، ربّما لن نوقِفَ إلاّ جثثاً. . .

فردّت أمّي:

- جُثث، إنّهم كذلك بالأساس، وقد قُتِلوا منذ خمسة عشر عاماً. وإذا كلّفتهم مصادفة سيّئة حياتهم، كما تقول، فالأفضل لكم أن نموت جميعاً، لأنني لن أترككم بعدها.

---

(1) وحدة مكلّفة باستجوابات السجناء السياسيين والانقلابيين، بقيادة المفوّض اليوسفي.

22 نيسان (أبريل) 1987. بزغ الفجر على اليوم الثالث لفرارنا. لم ننجح في أن ننام. كسحت نسمةٌ باردة، رطبة، جرفنا. أرخى نورٌ غريب بهالته على البراح. ونشرت السماء مجموعةً لونية واضحة، تتدرّج من الأزرق الداكن إلى البرتقالي الفاقع. صبّ هذا الطيف اللوني خياله في ظلّ الروابي الضارب إلى البنفسجيّ. ما أجمل الحياة، حينما يتمهّل الإنسان في النظر إليها... لن أعيد أبداً بما فيه الكفاية المشاعر التي سبّبها لنا، كلّ لحظة، ذلك الفرار. كان كلّ اكتشافٍ هو انبهارٌ بقدر ما كان تعذيباً. لأنّ سؤالاً واحداً أرهق ذهننا: «لماذا عومِلنا بهذه الطريقة وحُرِمنا من كلّ هذا؟» ولكن عُدنا سريعاً إلى حالنا كأشباح، كهاربين في وضعٍ ميئوسٍ منه. ها قد مرّ ما يقارب ثمانٍ وستين ساعة على هروبنا وما زلنا لم ننجح في الاتّصال بالخارج. طنجة في حالة استنفار، ومداخلها ومخارجها مُراقَبة بحواجز كثيفة. ونحن على مسافة بضعة كيلومترات من المدينة، وبالتالي لا يمكن لفندق أهلاً أن يكون ملاذاً دائماً لنا.

كلّ ثانية تمرّ تقلّل من فرص نجاحنا. إنّ الفرار هو بالأساس مشكوكٌ في نجاحه حينما يتوفّر على مخابئ آمنة ويحفّ بحدٍّ أدنى من التعقيدات، ويزداد هذا الشكّ بالنسبة لـ«موبوئين» قد يجرّون على المحسنين المحتَملين إليهم لعنة الملك وعذابات «مخابراته». فقرّرنا أن نشرع من جديد في البحث عن رقم هاتف إذاعة فرنسا الدولية. من المستحيل الاتّصال بالاستعلامات، لأنّ الشرطة ستحدّد بالتأكيد مكان المكالمة، ولذلك علينا إيجاد زبونٍ يرغب حقّاً في مساعدتنا.

بالكاد أشاعت أولى أشعّة الشمس الدفء في الهواء المحيط. ولمع الحقل البائر بالندى. كنا نرتعش برداً. أنهكنا الضغط والتوتّر العصبي وقلّة النوم والجوع. قرفص أخي وأختاي مستندين إلى الجدار الخفيض، جاثمين على أوراق شجرة تين. نحو الساعة التاسعة صباحاً، قفزتُ من فوق الجدار وذهبتُ مستطلعاً. سرتُ بمحاذاته لبضع دقائق، محتمياً به. رأسي على مستوى الأرض، فرّقتُ بطرف أصابعي أوراق الشجر. تحت،

وعلى بعد حوالي ثلاثين متراً، تماماً في آخر الممرّ المفروش بالحصى، كان درّاجان من الشرطة متوقّفين. توقّفت سيارة بيجو 405 رمادية اللون ومزوّدة بفانوسٍ دوّار للحظة إلى جانبهما. تحدّث أحد المدنيين فيها إلى أحد الدرّاجين باقتضاب. ثم أقلعت السيارة نحو طنجة. هرعتُ لإخبار الآخرين:

- لقد حُدِّد مكاننا، بدأوا بتطويق الفندق!

في أوّل اندفاعٍ، حاولنا أن ننحدر عبر الدرب الضيّق وأن نحاذي الممرّ الضيّق الذي يتعرّج وسط الروابي، ولكننا غادرنا قبل أن نعرف المزيد عن ذلك. حينذاك، كان علينا ألاّ نتحرّك. استعرضنا، ونحن ندخّن، كلّ الفرضيات. ولأنّنا لم نرغب في أن يُقبَض علينا أحياء، فكّرنا حتى في وسيلة للانتحار إن حدث ذلك. ففكّرتُ في طريقة القتل بالصعقة الكهربائية. لن يكون علينا سوى أن نغطس في حوض حمام الفندق، ونمدّ ذراعنا ونُدخل قضيباً معدنياً في أحد قوابس التيار في محيط الحوض. ومثلما قد يبدو فظيعاً، وجدنا العزاء في هذا الاحتمال. وحثّنا على أن نعبر الجدار الخفيض لنتقدّم بحذر وسط حدائق فندق أهلاً.

لا يزال الدرّاجان موجودين، ولكنّ استرخاءهم أعاد لنا الأمل: لم يبدوا مستعدّين لتنفيذ «غارةٍ». فجأةً، توقّفت قلوبنا. اقترب صخبُ صفارة إنذار. ظهرت ثلاث دراجات للشرطة في نهاية الطريق. بسلوكهم الطريق الذي تحدّه أشجارٌ، ألقى الدرّاجون نظرةٍ من فوق أكتافهم وكأنّهم كانوا يتحقّقون من مطاردين محتَمَلين. . . سارت سيارة مرسيدس كحلية في إثرهم، متبوعة بحوالي اثنتي عشرة سيارة. جاثمين بين النباتات، شاهدنا الموكبَ يمرّ. لم يتعلّق الأمر بمداهمة وإنّما باجتماعٍ لشخصياتٍ رسمية. كان الإنذار حادّاً وأضحكنا: بينما يطاردنا جيشٌ من المخبرين والشرطة والدرك والموظّفين من كلّ الأطراف، راودت أحدهم «الفكرة الحسنة» لإقامة احتفالٍ حكوميٍّ واجتماعيٍّ دُعيَ إليه وجهاء الإقليم!

خرجتُ من مخبئنا المزهِر وتسلّلتُ أجمةً بأجمة نحو أعالي المرأب.

كانت قد نُصِبت خيمة زعامة فوق ملعبٍ للتنس. سيجري الاحتفال هناك. وضِعَت طاولات مستديرة حول الخيمة وتحتها. كان الطريق خالياً. رتّبنا هندامنا واندسسنا نحو بهو الفندق. كانت حافلةٌ للسيّاح واقفة أمام الدهليز فاختلطنا بحشدهم. كان بينهم بلجيكيون وفرنسيون. وقد التقطنا من هناك نتفاً من الحديث. وبّخت سيّدةٌ زوجها:

- أنت تبالغ. لقد مرّ وقتٌ طويل وأنا أنتظر عودتك من طنجة!

- هناك حواجز للشرطة في كلّ مكان. لا أدري ما الذي يجري ولكنّ لا بدّ أن يكون الأمر خطيراً...

افترقنا لغرضٍ وحيد: العثور على أحدٍ يمكنه أن يعطينا رقم إذاعة فرنسا الدولية... وإذا ما حوصرنا، فالتوجّه نحو المسبح. قطعتُ أحد الأسلاك الفولاذية الرفيعة التي كانت تربط أحد أنابيب الري بوصلة مياه، وقسّمته إلى قطع بطول عشرة سنتمترات، لكلّ واحدٍ منّا قطعة. سندخلها في قوابس التيار عند اللزوم. نحن مَنْ سنحدِّد نهاية اللعبة. مزوّدين بهذه «التعزية المرضية»، انهمكنا في البحث عن منقذ...

نحو الساعة الحادية عشرة، قيّمنا الوضع في حانة الفندق. أمضينا فترة الصباح في التقرّب إلى الزبائن، ولكن بلا نتيجة. ولم يحصل إلاّ نحو الساعة الثانية عشرة والنصف أن صادفنا سيّدة عجوز قادرة على أن تفيدنا. روينا لها أنّ أحد أصدقائنا قد نُقِل على نحوٍ مفاجئ إلى قسم العناية المركّزة في مستشفى باريسيّ وأنّنا بحاجة ماسّة لأن نتّصل بأخته التي تعمل في إذاعة فرنسا الدولية لنعرف منها أخباره.

حدّثنا العجوز اللطيفة عن ابنها أوّلاً، والذي قدّمته لنا. كان ذلك الأربعينيّ الملتحي أستاذاً للغة الفرنسية. تداول هو وأمّه، بعد أن أصغيا لمشكلتنا، مدفوعين برغبة صادقة في مساعدتنا.

- لماذا لا تتوجّهون إلى إذاعة Médi 1، إنّها إذاعة مستقلّة مقرّها في طنجة. ولها علاقات وثيقة ببعض وسائل الإعلام الفرنسية. ربّما يُحسن أحد العاملين فيها إعطاءكم رقم هاتف إذاعة فرنسا الدولية؟

أضاف الابن:

- انتظروني هنا. سأبحث في مفكّرتي للعناوين. لديّ صديقٌ في المدينة صحافيّ والأرجح أنّه سيحصل لي على رقم هاتف Médi 1.

صعد إلى غرفته وتركنا في الرعاية الطيّبة لوالدته. بعد عشرين دقيقة من ذلك، عاد الأستاذ وابتسامة على شفتيه ومزقة ورق في يده. لقد عثر على رقم هاتف Médi 1 وتكرّم بالاتصال بها ليطلب رقم فرنسا الدولية. إلاّ أنّه اعتذر وهو يعيد إلينا البطاقة:

- تفضّلوا هذا كلّ ما عندهم: إنّه رقم إذاعة فرنسا الدولية.

شكرناه جزيلاً وابتعدنا ونحن لا نعرف كيف نتمالك فرحتنا. بقي أنّ الوقت كان ضاغطاً. ذهبت مليكة وعبد اللطيف يترصّدان في مدخل الفندق، بينما توجّهنا، أختي الصغيرة ماريا وأنا، نحو مقصورات الهاتف في البهو. بعد العديد من المحاولات المضنية عصبياً، نجحنا في الاتّصال بمقر RFI. تحدّثنا إلى سكرتيرة شرحنا لها أنّ قضيتنا قضية حياةٍ أو موت.

- أوصلينا بالمدير...

تردّدت الآنسة، التي اقتنعت دون شك بالنبرة الخفيضة للمكالمة، للحظة ثمّ دمدمت:

- سأرى إن كان السيد آلان دو شالفرون موجوداً.

مرّت خمس دقائق ثقيلة. تعرّفتُ على صوت المراسل السابق في لبنان. كان آلان دو شالفرون من أسرة أولئك الصحافيين ومقدّمي البرامج الذين رافقناهم من حينٍ لآخر في قبورنا. سكن روعنا بالاتصال به. كنتُ مقتنعاً بأنّه لن يتركنا نسقط: إنّ رجلاً غطّى الحرب اللبنانية بشكلٍ ممتاز وعاش مآسي بيروت لا يمكنه إلاّ أن يتفهّم محنتنا.

- آلو، مَنْ على الهاتف...؟

- صباح الخير، سيّد دو شالفرون، هل تعرف الجنرال محمد أوفقير؟

تقاسمنا ماريا وأنا السمّاعة ورأسانا ملتصقان كتوأمين سياميين. قد يبدو سؤالنا ساذجاً لصحافيٍّ فرنسي ولكن مَنْ نهشته الحيّة حذر الرّسن الأبلق، على ما يقول المثل، إذ لم نهضم بعد الاستقبال الجاف لمملكة السويد الشمالية. كنّا معلّقين بالجواب. كاد محدّثنا يفقد هدوءه:

- إذا كانت هذه دعابة فهي سمِجة...!

- كلا! يا سيّد دو شالفرون، هذا ليس مزاحاً، نحن أولاد الجنرال أوفقير. كنّا مسجونين منذ وفاة والدنا في عام 1972 وقد هربنا من السجن. لا ترفض مساعدتنا. أعرف أنّ هناك ما يستوجب التشكيك ولكن يجب أن تصدّقنا! اطرح عليّ كلّ الأسئلة عن والدي، وسأبرهن لك أننا حقّاً أولاده...

بعد حوالي عشر دقائق من الحوار، اقتنع الصحافيّ. كان حذراً أكثر لأنّ فرانسوا ميتران وصل إلى المغرب بعد ظهيرة اليوم ذاته. ظنّ آلان دو شالفرون للحظة أننا كنّا نريد التشويش على زيارة رئيس الجمهورية الفرنسية. أخبرنا محدّثنا بأنّ عليه إجراء العديد من المكالمات وأنّه سيتّصل بنا بعد ذلك. توسّلنا إليه ألاّ يدعنا نسقط وهو وعدنا. وقبل قطع المكالمة، اتّفقنا على اسم رمزيّ.

- حينما ستتّصل بنا، يا سيّد دو شالفرون، سيردّ عليك الاستقبال، اطلب الآنسة ألبرتيني.

بدأ الصحافيّ مشاوراته، بينما ذهبنا نلوذ بعمق ممرّات الحديقة. ثار هياجنا وقفزنا ورقصنا وتعانقنا ونحن نبكي حتى دون أن ننتبه لذلك. أخيراً بلغنا هدفنا! بدءاً من الآن، كلّ شيء سيسير بسرعة.

وفى دو شالفرون بوعده واتّصل بنا. توجّه مباشرة نحو الهدف، قائلاً:

- هناك حلاّن. إمّا الفضح الإعلامي، أو الاتّصال بمحامٍ سيستكشف الصوت الدبلوماسيّ أوّلاً.

اخترنا الخيار الثاني، دون أن ننسى أنّ خمسة أفراد من أهلنا لا يزالون رهائن. سألنا مسؤول راديو فرنسا الدولي إن كنّا موافقين على تسجيل نداءٍ عبر الهاتف إلى الملك والذي ستبثّه إذاعته في الوقت المحدّد. آثرنا صوتاً أنثوياً لأنّه سيكون مؤثّراً أكثر بالتأكيد لدى الرأي العام. همستُ لأختي ماريا ما عليها أن تقوله:

- نحن لم نفعل شيئاً. نحن أبرياء من كلّ جريمة. لسنا مسؤولين عن أيّ شيء، ولم يكن لنا من العمر بحيث يكون لنا رأيٌ سياسيّ. لقد خضعنا لخمس عشرة سنة من الاضّطهاد، دون محاكمة ولا حكم، في حين أننا لم نرتكب أية جنحة. نناشد الملك أن ينصفنا ويُطلق سراحنا. نتوسّل إلى جلالته باسم الله وباسم أولاده.

اقترح دو شالفرون الاتّصال بالسيّد جورج كيجمان، وهو محام باريسيّ مرموق ومدير مؤسسة دانييل ميتران، **فرنسا الحريات**. بانتظار ذلك، سيطلب مدير المحطّة من أحد زملائه الذهاب إلى فندق أهلاً ليتحقّق من هويّتنا. هيرفيه كيريان صحافيّ فرنسي يعمل في Médi 1، ويسكن طنجة، ويعرف جيّداً المدينة وضواحيها ولن يلاقي أيّة صعوبة في تحديد مكاننا. حُدِّد الموعد في مرأب الفندق في الساعة السابعة مساءً.

نحو الساعة الخامسة، تحدّثنا إلى جورج كيجمان. كانت لهجته باردة. خشي هذا المقرّب من فرانسوا ميتران، أو على الأقلّ مرشّح لأن يصبح كذلك، أن نكون أدوات عملية مدبَّرة لاختصار الزيارة الرسمية لرئيس الدولة الفرنسية. راغباً في إحاطة نفسه بكلّ الضمانات قبل التصرّف، قرّر إرسال أحد معاونيه، السيد برنار دارتڤيل، إلى المغرب. والذي قفز إلى أوّل طائرةٍ حتى دون أن يُعلِم زوجته، الصحافية في صحيفة **ليبراسيون** والتي ترعرعت في مرّاكش.

سيحمل المبعوث علامة فارقة. اضطررنا لأن ننتظر وصول ذلك الشخص لأنه لن يكون أيّ شيء ممكناً ما لم تتأكّد باريس من أن نداء استغاثتنا ليس تحريضاً هادفاً إلى «تخريب» الزيارة الرسمية.

ذرعنا جيئة وذهاباً. وصل هيرفيه كيريان إلى المرأب في الموعد المحدّد. بدا أكثر توتّراً منّا.

- أرسلتني باريس لتتأكّد من أنكم فعلاً أولاد أوفقير، وأنّ ما تدّعونه بشأن اختفائكم صحيحٌ...

قلتُ له:

- انظر إلينا، هل نبدو وكأننا خارجون من **كلوب ميد**...؟

ومع أن رؤيتنا لم تدع للمبعوث مجالاً للشك حول حقيقتنا، كان عليه أن يؤدي مهمّته. فسألني المزيد عن والدي، وسيرته العسكرية، وجراحه في الحرب، ورؤسائه في الجيش الفرنسي، إلى آخره. سألنا عن حياتنا السابقة وعائلتنا. اقتنع هيرفيه كيريان سريعاً بأنّ حالتنا حقيقية تماماً وأنّ الأمر لا يتعلّق بخُدعةٍ.

- الآن، عليّ أن أغادر. تنتظر باريس أن أردّ لها جواباً. اعتمدوا عليّ لنقل الرسالة في أقصر مدّةٍ ممكنة. لقد أُخبِرتُ بالوصول الوشيك للسيد برنار دارتڤيل. ما إن يصبح هنا، سأعود معه ليراكم...

شدّدتُ على أن الملزمة تضيق علينا من ساعة لأخرى وأنّ من المحتمل عند عودة كيريان ودارت؟يل أن يجدانا موقوفين.

- اصبروا! لقد أوشكتم على نهاية آلامكم. إلى اللقاء ...

استقلّ مبعوث باريس سيارته وتوارى. الآن على الأقلّ، ومهما حصل، أبلغنا بعض الأشخاص في فرنسا عن مأساتنا الفظيعة. أيّاً كان مصيرنا، سنكون قد تركنا على الأقلّ أثراً صغيراً عن محنتنا. وإذ تحرّرنا من عبءٍ ثقيل، قرّرنا أن نحتفل بذلك. ذهبتُ واشتريتُ شطيرتين لأربعتنا، وصعدنا من جديد نحو الأرض البائرة التي استخدمناها مخبأً في الليل وأقمنا «وليمةً فاخرة» رافعين زجاجة من عصير الليمون نخب أهلنا! لقد مرّ وقتٌ طويل ونحن لم نعرف لحظة ابتهاج كهذه...

في بداية السهرة، عدنا إلى الفندق وتكلّمنا للمرّة الأخيرة مع باريس. طُلِبَ منّا أن نصبر لحين وصول برنار دارتڤيل، الذي ينبغي أن

يكون هنا قبل الظهيرة. وإذ أصبحنا أكثر اطمئناناً بعض الشيء، اتّفقنا على أن نتأخّر قدر المستطاع في المكان وأن نعود لقضاء الليلة في جُرفنا. منهوكين، ومتضوّرين جوعاً، ومرهقين بانعدام النوم والتوتّر العصبيّ والانفعالات، صعدنا إلى الطوابق وقمنا بغزوةٍ على الأطباق المرتَجعة المتروكة أمام بعض الغرف. خزّنّا حصادنا في كيسٍ بلاستيكي ونقلنا في آخر قليلاً من الزيتون. نحو الساعة الحادية عشرة، ذهبنا وأوينا إلى قاعة الفيديو. حاولنا أن نجد بعض الراحة في جوف الأرائك الوثيرة الناعمة. حان موعد نشرة الأخبار التلفزيونية. استقبل الحسن الثاني فرانسوا ميتران. لم يحسن الملك إخفاء تكشيرةٍ وحدهم المقرّبون منه يستطيعون تفسيرها: إنّها علامة غضبٍ وغيظٍ شديدين. كان أمير المؤمنين في مزاجٍ لا يُطاق. في الساعة الثانية صباحاً، دفعنا الباب ذي المصراعين البرونزيين لقاعة الطعام. ولأنّ المطعم كان فارغاً، أغلقنا الباب على أنفسنا وجازفنا بأن تمدّدنا بالدور على المقاعد الخفيضة. قام أحدنا بالحراسة. آثرتُ أن أكون أوّل المراقبين. حينما حانت لحظة غفوتي، غططتُ في نوم عميق. حينما فتحتُ عينيّ، ضلّلني الديكور المحيط بي لدرجة أنني بذلتُ جهداً يفوق طاقة البشر لأعود إلى الواقع... كانت الساعة الخامسة والنصف صباحاً وهو موعد توارينا قبل أن تأتي عاملات النظافة ويشرعن بعملهنّ. مررنا عبر نافذة مطلّة على الحديقة. اختلفت برودة الجوّ عن درجة الحرارة المعتدلة للفندق. تسلّلنا، مرتعشين، بين النباتات وتوجّهنا نحو أعالي الحديقة وقفزنا من فوق الجدار الخفيض وقرفصنا تحت أغصان أشجار التين. انتظرنا أن يبزغ النهار وأن تُنعش أولى أشعّة الشمس هياكلنا العظمية الهزيلة.

الخميس 23 نيسان (أبريل) 1987، اليوم الرابع للفرار. بلغت الساعة التاسعة صباحاً وغادرنا مخبأنا على وجه الجرف. نزلنا في بهو الفندق، زاعمين أننا قد وصلنا حديثاً من طنجة. ابتسم لي موظّف الاستقبال:

- صباح الخير، كيف حالك؟ أتمنى ألاّ تكونوا قد لاقيتم الكثير من المصاعب في الذهاب والإياب بين طنجة وهنا. هل شاهدتم عدد الحواجز!

أجبتُ بكلمات عاديّة قبل أن أذهب للانضمام إلى الآخرين في الحانة. طلبنا أربعة فناجين من القهوة. ومن خلال المشربية لم تفارق عيوننا مدخل درج الفندق. نحو الساعة العاشرة والنصف، وصل برنار دارتڤيل وهيرڤيه كيريان. هممنا لملاقاتهما ولكننا لم نتوقّف لتحيّتهما. اكتفيتُ بأن همستُ لهما:

- اتبعانا.

مشينا في ممرٍّ ودخلنا إلى صالة الفيديو الفارغة. بعد ذلك بأقلّ من ثلاثين ثانية، انضمّ المحامي والصحافيّ إلينا. وسوف يقولون فيما بعد إنّهما قد وجدونا نحيلين جدّاً، وسوف يؤكّد دارتڤيل، الذي صُدِمَ لمشهدنا، أنّ عبد اللطيف بدا له مثل ماوكلي، فتى الأدغال.

في الحال، جعلنا معاون جورج كيجمان نملأ الوثائق التي تطلب لجوءنا السياسي إلى فرنسا. ما إن أُنجِزَت الاستمارات، سألنا دارتڤيل عن ظروف اعتقالنا ودوّن الملاحظات. من جهته، التقط هيرڤيه كيريان صوراً لأجسامنا التالفة. إذا ما ظهرت هذه الصور في الصحافة العالمية سيشقّ على الملك أن يبرّر للعالم حالتنا المرثية. فجأةً، فُتِحَ الباب. إنّه موظّف الاستقبال. كان هذا «التحرّي-الخسيس» الذي غبنا عن نظره يبحث عنّا. اعتذر، متذلّلاً، متذرّعاً بأنه يبحث عن نزيلٍ ليسلّمه برقيةً. بادرنا إلى الإنهاء وطرحنا بفظاظة سؤالاً جوهرياً على محامينا:

- أخبرنا بصراحة: هل سيساندنا الرئيس ميتران حتى النهاية أم سيتركنا نسقط إذا ما تعكّرت الأمور؟ مَنْ نحن مقارنةً بالمصالح الدولتية، والعلاقات الفرنسية-المغربية؟ ألن تضحّي فرنسا بنا بمنطق الدولة وبالمنطق الاقتصادي؟

بدا السيّد دارتڤيل، المفعم بالإنسانية والرحمة، بمنتهى الصدق:

- لا أستطيع أن أقول لكم ذلك. كل ما بوسعي تأكيده هو أنّ الرئيس أُطلِعَ على قضيّتكم. وقد قال إنّها تهمّه جدّاً وإنّه سيبذل كل ما بوسعه لحلّها.

لم نتأخّر أكثر. قبل أن ننفصل، سألنا برنار دارتڤيل إن كان بوسعه أن يحجز لنا غرفةً. أوضح لنا أنّ القانون يحظر عليه ذلك لكونه محامياً، لأنّ هذا العمل سيُعدُّ تواطؤاً مع فارّين يجري البحث عنهم. لم أستطع منع نفسي عن الابتسام في داخلي قائلاً: «لحسن الحظّ أننا لم ننتظر القانون لنحفر الأرض بأظافرنا ونفرّ...» مع ذلك وعدنا برنار، الذي آلمه أن يتركنا في تلك الحال، بأن يعود في اليوم التالي، العاشرة والنصف صباحاً، ليصحبنا إلى القنصلية الفرنسية في طنجة[1]. من جهته، عرف هيرڤيه كيريان طريقاً مختصراً لتجنّب الحواجز. سلّمنا محامينا الألف درهم التي كانت معه:

- اصبروا، لن نتخلّى عنكم. اصبروا وأتمنّى لكم حظّاً سعيداً. إذا جرى كلّ شيء على ما يُرام فسأمرّ غداً بين الساعة العاشرة والنصف والحادية عشرة لأصحبكم من هنا.

خمّنتُ عجزاً ما على الرغم من النية السليمة التي أراد دارتڤيل أن يرسّخها فينا. لم تكن هناك حاجة إلى خطّة لنفهم أنّ أيّ لجوءٍ إلى سفارة قد بات مستحيلاً بالنسبة لنا. مهما كانت حالتنا مؤثّرة، شعرنا بأنّ الأحداث السياسية الطارئة تتغلّب على الميول العاطفية. كان واضحاً أن لا أحد سيخرجنا من المغرب. حتى وإن كانت باريس تمتلك وسائل لفعل ذلك، وعلى فرض أنّها ترغب في ذلك، فلم يكن بوسعها أن تنتهك

---

(1) وسنعلم فيما بعد كيف أنّ برنار دارتڤيل كافح ليحاول إيجاد ملاذٍ لنا، حتى أنّه طلب من قسٍّ مقيم في طنجة أن يخفينا. والذي رفض طلبه. لا شكّ أن إيمان ذلك الرجل الربّاني لم يكن بمستوى أن ينسيه الخوف من السلطة الدنيوية.

السيادة المغربية وأن تستخفّ بالحساسية الملكية وبالمصالح الاقتصادية الفرنسية في المملكة[1].

بعد مغادرة المتّصلين بنا، انتابنا شعورٌ بالإهمال، الحرمان نفسه الذي يشعر به غارقون تحلّق فوقهم طائرةٌ لا تستطيع الوصول إليهم لإنقاذهم. وإذ مرّت خيبة الأمل الأولى، تحمّلنا، مثلهم، البلاء وسرعان ما انحزنا من جديد للتفاؤل. أليس معجزة أن يُحدّد مكاننا وسط «الأوقيانوس» اللامتناهي؟ وعوض البكاء على ما لن نناله، ابتهجنا لما أنجزناه. لقد قهرنا المستحيل: هروبنا من حديقة الملك الأفضل حراسةً والأكثر سريّةً! وفعلنا ذلك بتبختر. لأنّ القليل من الأشخاص يمكنهم أن يتباهوا بهزم أجهزة الأمن المغربية مثلما فعلنا نحن. والأهم هو أنّ حكايتنا باتت، الآن، معروفة من قبل محامين وصحافيين فرنسيين. في هذا «اللقاء بالشخص الثالث» استعدنا هويّةً وباتت حقوقنا الأساسية إنسانية. أخيراً، علِمَ أحدٌ ما بوجودنا، وبحكايتنا، ولن يعود ممكناً إزالتنا من على وجه الكرة الأرضية. على الأقلّ، نتمنّى ذلك. . .

ما الجدوى من الانتظار؟ تسكّعنا في الفندق، وأخّرنا أقصى ما بوسعنا اللحظة التي سنضطرّ فيها للعودة إلى جرفنا في العراء. اقتصدنا مالنا، مدركين أنّ لا شيء مضمون: ما لم يأتِ برنار دارتڤيل إلى الموعد غداً، لسببٍ أو لآخر، فسيكون علينا أن نرتجل تصرّفاً. صعدنا إلى طوابق الفندق لنتطفّل مرّة أخرى على الصحون المرتجعة من الغرف. خرج رجلٌ من غرفته. إنّه الشابّ الإسباني الذي التقيناه ليلة أوّل أمس في قاعة الفيديو. أشار لنا بيده. تظاهرتُ بأنني أسحب باباً نحوي ليعتقد بأننا

(1) أودّ انتهاز هذه الفرصة في سردي لأشكر برنار دارتڤيل وجورج كيجمان وكذلك هيرڤيه كيريان، على المساعدة التي قدّموها لنا في نطاق وسائلهم المتاحة. كما أودّ أن أعبّر عن امتناني لآلان دو شالڤرون الذي من دونه ما كان لأيّ شيءٍ أن يكون ممكناً.

قد غادرنا للتوّ غرفتنا وتظاهرتُ بأنني أدسُّ مفتاحاً في جيبي، وأنا أسير نحوه. دعانا للدخول إلى جناحه الصغير ليعرّفنا بزوجته. حثّنا الزوجان اللطيفان الساذجان اللذان يمضيان شهر العسل على الجلوس على الديوان والأريكتين في زاوية الحجرة. جالسين على سريرهما، لفّا لفافات ودعيانا للتدخين معهما. تظاهرنا بذلك. ولم يتأخّر مستضيفانا في النوم. وضعتُ رأس عبد اللطيف على ركبتيّ، وفعلت مليكة الأمر نفسه مع ماريا وحاولنا أن نستفيد لأطول وقتٍ ممكن من ذلك المأوى غير المأمول الذي قُدِّم لنا. غفونا، ولكن لم يستطع أيٌّ منّا أن ينام. نحو الساعة الثامنة والنصف، فتح الإسبانيان عيونهما. خوفاً من ردّ فعلهما، تمطّينا ونحن نعتذر منهما:

- البارحة، كانت لفافاتكم قويّة جداً... لقد غفونا بلا تحذير! نحن متأسّفون لاحتلال غرفتكم. لقد حان الوقت لنعود إلى غرفنا...

لم يكفّ هذان الزوجان الرائعان حقّاً عن إدهاشنا:

- لا، لا، لم تزعجونا. على العكس، كان ذلك مؤنساً جدّاً لنا.

صحبت المرأة الشابّة مليكة وماريا إلى الحمّام وعرضت عليهما أن تتصرّفا وكأنّهما في غرفتهما، بينما أخرج الزوج لبناً رائباً من الثلاجة الصغيرة وغلى ماءً ليخفّف به قهوةً قابلة للذوبان. ونفعنا ذلك في التأكّد من أنّ اللطف والكرم لا يزالان موجودين في هذه الدنيا...

في الساعة التاسعة، خرجنا عبر الكوّة المزجّجة المطلّة على المسبح. نحن في يوم الجمعة، 24 نيسان (أبريل) 1987، وهذا يومنا الخامس من الفرار. تفصلنا ساعةٌ ونصف عن الموعد الذي ضربناه مساءً مع برنار دارتڤيل. نزلنا إلى الحانة وطلبنا قهوةً. جاء موظّف الاستقبال يتقصّى الأخبار. حاول، بالنفاق والتذلّل نفسيهما، أن ينخرط في حديثٍ معنا. أبعدته بفظاظة. فانصرف. عبر المشربية، لم أشح ببصري عنه. عاد إلى وراء مكتبه، حيث ينتظره رجلٌ ببزّةٍ رمادية، متّكئاً. أخذ هذا الأخير مفتاح غرفةٍ، ثمّ توجّه إلى الحانة حيث نجلس. مرّ من أمامنا دون أن

ينظر إلينا، وجلس إلى طاولةٍ يرتشف قهوته وهو يتصفّح الصحيفة. لكزتُ قدم مليكة بقدمي، وهمستُ لها:

- هذا شرطيّ.

حافظنا على هدوء أعصابنا. واصل الكولومبو مكيدته الصغيرة، ملقياً علينا نظرات غير مباشرة. ولمضايقته، أعطيتُ الإشارة للآخرين وحدّقنا فيه. شعر الرجل بأنّه قد تضايق سريعاً. أنهى قهوته، وخرج من الحانة، وتوجّه مباشرةً إلى مقصورة الهاتف. هناك، أجرى مكالمة بهياج دون أن يشيح ببصره عنّا.

عرفنا أنّ هذه نهاية «الرحلة»، وتهيّأنا لذلك. حاولنا مليكة وأنا أن نطمئِن الصغيرين: لقد كسبنا في كلّ الأحوال! لقد جعلنا كلّ أجهزة استخبارات المملكة تتسكّع طوال خمسة أيام ونجحنا في إطلاق نداء استغاثتنا! إنّ الطريقة التي سيتصرّف بها كلٌّ منّا حينما سينقضّون علينا ستجول في أروقة السلطة. وإذا كنّا نريد حقّاً أن ننهي هذا الفرار بشكلٍ رائع، يجب علينا أن نواجه توقيفنا بلا تذمّر، مع ابتسامٍ وبكبرياء. استفدنا من ذلك لنطلب أربعة أكواب كبيرة من الميلك شيك بالفراولة.

ذرع الشرطيّ بالزيّ المدني أمام مدخل الفندق جيئةً وذهاباً ودخّن بعصبية. لقد مرّت عشرون دقيقة على إجرائه لمكالمته. لتخفيف ضغط الجوّ، مزحنا. وقد بدأ أوّل من أنهى كوبه من الميلك شيك. قال عبد اللطيف:

- أريد كوباً آخر. ربّما لن أتمكّن من أن أشرب منه مرّة أخرى...

فجأةً، ارتفع صخبٌ في البهو. اندهش السيّاح لناعورة عربات وسيارات الشرطة. طوّق الفندق وسرعان ما اقتُحِمَ من قبل المخزنيّين وعناصر CMI، وهم يقبضون على بنادقهم الرشّاشة. توجّهت مجموعةٌ من رجالٍ يرتدون بزّاتٍ مباشرةً إلى الحانة. وقف مَنْ بدا أنّه رئيسهم أمام طاولتنا. كان طويل القامة وبديناً. رأسه كبير وشعره مائلٌ للون الفضيّ من جراء الشيب وجبينه عارٍ. جعلني ذقنه المزدوج وأنفه الأقنى وحاجباه

المشعثان وكرشه أن أفكّر في سيناتورٍ رومانيّ. نظر بحدّة في عينيّ:

- هل أنتم آل أوفقير؟

- كلاّ، نحن آل ألبيرتيني.

- هل لديكم بطاقة هوية؟

- كلاّ، قلتُ له مع ابتسامةٍ عريضة.

تعرّفتُ على الرجل الذي تحدّث إليّ، إنّه المفوّض جسّوس، المفتّش العام[1] لطنجة. أشار بإصبعه إلينا وصرخ كمن يرتاح:

- رؤوف، مليكة، ماريا، وعبد اللطيف! إنّهم هم! إنّهم هم! هيّا، اقتادوهم!

انقضّ علينا قائد جهاز MCI في طنجة وأربعة من رجاله، ولكنّ المفوّض جسّوس اعترض:

- رويداً! رويداً! لا تعنّفوهم!

أُخرِجتُ أوّلاً. أمسك شرطيٌّ بمرفقي ومعصمي الأيسر، وأمسكني آخر بمرفقي ومعصمي الأيمن، وأخيراً، سار ثالثٌ خلف ظهري متشبّثاً بشدّة بحزامي. في البهو، شاهدت مجموعةً من السياح تنتظر حافلتها، بلهاء، المشهد. من بينهم زوجة صديقنا الإسباني التي تركت حقيبتها تسقط من يدها وركضت نحو غرفتها لتبلغ زوجها. اعتقدت المسكينة أنها مداهمة من قبل شرطة مكافحة المخدّرات.

أصعدونا إلى العربة نفسها. ما إن انصفق الباب الجرّار، دوّت عشرات صفّارات الإنذار وتحرّك موكبنا نحو المفوضية المركزية في طنجة. فتح درّاجون الطريق وأحاطوا بالمركبة. وُضِع لكلٍّ منّا شرطيان، وتكدّسنا اثنا عشر شخصاً في سيارة النقل. ما إن أُنزلنا في الباحة الواسعة للمفوضية، جعلونا نصعد سلالم. أراد شرطيٌّ أن يمنعني من التدخين، قائلاً:

---

(1) المناظر لمدير الشرطة في فرنسا.

- هذا ممنوع.
- مَنْ مَنعَ؟ مَنْ؟
تدخّل المفتّش جسّوس، وقال لمرؤوسه:
- دعه، دعه.

في باحة المفوضية كما في بهوها، من الميكانيكي وحتى عامل المقسم الهاتفي، التأم الجميع لرؤيتنا. لن ننسى تلك اللحظة أبد الدهر! كلّ النظرات التي صادفناها لم تخفِ تعاطفها. قرأنا، في تلك العيون الضَجِرة لشرطيين خبيرين، الاحترام، بل ربّما حتى الإعجاب بهؤلاء الأولاد الذين قاوموا حتى النهاية لكي يُنصَفوا. بعض الذين عرفوني حينما كنتُ صبيّاً مراهقاً تمالكوا دمعتهم. عبرنا البهو مصحوبين بعددٍ كبيرٍ من ضباط الشرطة وCMI. دخلنا إلى قاعة فسيحة حيثُ التُقِطت لنا صورٌ كثيرة. أخذ محقّقون أوزاننا وقياساتنا وبصمات أصابعنا وكوّنوا عنّا ملفّات كاملة. في الطرف الآخر من الحجرة، تحدّث المفتّش جسّوس على الهاتف. كان يُفترَض به أن يفعل ذلك من مكانٍ آخر، ولكنّه أراد أن نسمعه. تكلّم مع إدريس البصري، وزير الداخلية، بصوتِ طفلٍ يفتح علبة هدية.

- ها! احترامي، سيّدي الوزير... لقد تمّ الأمر، إنّهم عندي! إنّهم عندي، سيّدي الوزير...

فجأةً، توقّف جَسوس برهةً عن الكلام، ذاهلاً. تلعثم:

- ولكن، ولكن، سيّدي الوزير، لن أجرؤ على ذلك أبداً! هذه ليست مزحة، إنّهم موجودون، جالسين أمامي: مليكة ورؤوف وعبد اللطيف وماريا!

وهو يُطمئِن إدريس البصري، أشار المفتّش العام بإصبعه إلينا، وهو يعدّنا ثانيةً وكأنّ أحدنا قد يجازف بالتبخّر... حينما فرغ جسّوس من الحديث إلى الوزير، طلب مفوّضان وثلاثة محقّقين من أخي الصغير أن يتبعهم. نهضتُ بقفزةٍ لأحول بينهم وبينه:

- لن يذهب إلى أيّ مكانٍ من دوني. الصغيران ليسا مسؤولين عن أيّ شيء. كان في الثالثة من عمره حينما اختُطفنا. إن كنتُم تريدون طرح أسئلةٍ، عليكم أن تتوجّهوا إلينا نحن الكبار!

وأمسكت مليكة، الجالسة إلى جانب عبد اللطيف، بمعصمه. جاء جسّوس لنجدتنا، فاعتذر وخفّف عنّا:

- لا بأس، لا بأس، إنّهم أساءوا فهم الأوامر. طبعاً يمكنكم البقاء معاً. ولو! لا تقولوا لي بأنكم قد تخيّلتم للحظة بأننا سنسيء معاملتكم؟

قلتُ له:

- من هناك حيث أتينا، لا نصدّق سوى ما نراه... أتعتقد أنّ وزني 45 كيلوغراماً بسبب الدلال؟ أم أنّ وزن ماريا 35 كيلو غراماً لتصبح عارضة أزياء؟

لاحظتُ انزعاجاً عميقاً عند المفتّش، الذي لم يجرؤ على تحمّل نظرتي. زادت مليكة:

- مع أنّ الذين فعلوا بنا ذلك لديهم أطفال مثلك تماماً، أيّها السيّد المفوّض...

حاول جسّوس أن يستعيد بعض الثقة:

- الذين فعلوا ذلك لا يحبّون بلدهم ولا ملكهم. يمكن مهاجمة رجال تحمّلوا مسؤولياتهم، أمّا مهاجمة أولاد، فهذا أمرٌ لا بدّ أن يدينه كلّ كائن حيّ عاقل بكلّ قواه. انتهى ذلك الآن، بفضل الله، وقد خرجتم من ذلك أحياء، يجب نسيان ذلك. منذ أن عرف صاحب الجلالة بالأمر، أصبحتم في حمايته! لن يعود بوسع لا مولاي حفيظ ولا بن عايش إيذاؤكم...

آثرنا السكوت، لأنّ الصمت في بعض الحالات أبلغ من جواب.

فتح لنا جسّوس الممرّ. صعدنا إلى الطابق الثالث. لدى عبور بهو المفوضية، صادفنا موظّف الاستقبال في فندق أهلاً. ذهبتُ مباشرةً صوبه. التصق خوفاً بالجدار. أسرع العقيد آمر عناصر CMI الخطى

ليصبح إلى جانبي وهمس لي:
- أرجوك، بلا فضائح.
- لا تقلق، سيّدي العقيد. لقد خرجتُ من حفرة ولكنني ما زلتُ أتذكّر ما هي آداب السلوك.
أثار البواب شفقتي. كان شاحباً. ملتُ على أذنه وهمستُ له:
- أتمنى أن تكون قد نظّفت طاولة البليار. وإلاّ فأنت معرّضٌ لأن تلحق بنا. إلى اللقاء، أيّها التافه.
خشي المفتّش جسّوس، الذي لم يسمع سوى عبارتي الأخيرة، أن أنقضّ على الواشي ووافقني بإشارةٍ من رأسه:
- أنت محقّ، تعالَ، دع هذا الغبيّ.
فصعدنا إلى الطابق الثالث. أُنزِلنا في مكتبٍ حول طاولة مستديرة عليها حلوياتٌ وعصير ليمون. كُنّا محاطين بشرطيين قاموا بدور المربيّات وحثّونا على أن نأكل.
- لسنا جائعين، شكراً. قدّموا لنا سجائر وقهوةً.
بدأت الاستجوابات. اقتدتُ أوّلاً إلى مكتب جسّوس الفسيح والمربّع الشكل. حاول المفتّش أن يريحني. منذ السؤال الأوّل، أوقفته:
- هل هذا استجوابٌ أم أنّه كما زعمت حديثٌ؟
- كلاّ أبداً، هذا ليس استجواباً، لست مضطرّاً أبداً أن تجيبنا. ما أودّ أن تفهمه هو أنّ الأمر قد انتهى تماماً. ما إن أُطلع صاحب الجلالة على وضعكم الذي لا يُصدّق، أعطى أوامر صارمة. منذ الآن، أنتم «ضيوف» الملك وستُعاملون على هذا الأساس...
كنتُ أتوقّع كلّ شيء، إلاّ عبارة «الضيوف» اللطيفة.
قيل كلّ شيء... واصل المفتّش العام تمثيليته دون أن يرتاب حتى فيما يذكّرنا به هذا النعت:
- لماذا لا تهدأون؟ لا نريد بكم أيّ سوء... استريحوا، انتهى الأمر، لقد انتهى الكابوس.

انتزعت منّي هذه الكلمات الطيّبة ابتسامةً ساخرة. قدّموا لي شاياً. كان ستّة مفوّضين جالسين إلى طاولةٍ بيضويةٍ، على هيئة أطفال جوقة موسيقية. غامر أحدهم، وهو ثلاثينيّ، بأن خاطبني «ابني». رفضتُ ذلك رفضاً باتّاً:

- لستُ ابنك، لقد تبوّلتُ ما يكفي من الدم لأكون ابن محمد أوفقير مع كلّ ما يستتبع ذلك. اسمي رؤوف أوفقير، سجين هارب. فمن فضلك أعفِني من «ابني» خاصّتك.

تفكّه جسّوس ليهدّئ الجو ووبّخ المفوّض:

- السيّد أوفقير محقّ...

وتابع ملتفتاً إليّ:

- أنت محقٌّ تماماً...

فانخرط جسّوس ومعاونوه في مدحٍ لوالدي أذهلني. بدا لي أولئك الأشخاص، الذين لا يملكون أيّة فكرة عن الجحيم الذي كوّن شخصيتنا، مثيرين للشفقة. اعتقدوا بأنّه يكفيهم أن يمسّدوا شعرنا لكي نكون منبهرين. كم مرّة راودت ذهني كلمات الحسن الثاني لصديقه جاك شانسيل: «الألم هو أفضل الجامعات...»

لقد حفرتُ حقّاً الهوّة التي تفصلني عن العالم. يبدو أنّ هؤلاء الكتَبة المساكين لا يدركون حقّاً من أين جئنا. تصوّروا أنّهم بتقديم آيات الاحترام والتبجيل لنا سيجعلوننا نقول ما يريدون سماعه. أمِلوا أن ننقضّ على معجّناتهم وعصيرهم لكي يديرونا على نحوٍ أسهل. نكايةً فيهم، اكتفينا بالسجائر والقهوة. كما أننا لم نشعر بأيّ جوع. ليس هناك ما يهم الآن أكثر من أن نلتقي بأهلنا. قطعت مكالمة هاتفية الحديث. نظر إليّ جسّوس وهو يردّ على المتكلّم. بدا واضحاً أنّه أراد أن أسمع المخابرة...

- نعم، نعم، سي إدريس، كلّ شيء يسير على ما يُرام. نعم، الضيوف بخير...

ثمّ أصغى المفتّش العام باهتمام وختم قبل أن يغلق السماعة:

- اعتمد عليّ، سيّدي الوزير. . . سيتم ذلك بأقصر مدّة!

ما إن أغلق السماعة، سألني جسّوس، مشغول البال:

- يريد الوزير أن تُدقّق أقوال المحاضر الرسمية لهؤلاء الأقذار الذين احتفظوا بكم وعذّبوكم. إنّهم يزعمون أنّك تعاني من خرّاجٍ منذ أكثر من سبعة أعوام.

أجبتُ بإيمائية واضحة:

- يمكنك أن تشكر الوزير لاهتمامه، ولكنّ هذا الاهتمام تأخّر لعقدٍ من الزمن.

فجأةً، دبّت الحركة في المفوضية. أعطى المفتّش العام الأوامر لمساعده. يبدو أنّ الأمر يتعلّق باصطحابي في الحال إلى طبيب أسنان. رافقني جسّوس بنفسه إلى سيارة مرسيدس. جلس مساعد المفتّش العام إلى جانب السائق. وأُجلستُ في المقعد الخلفي. صعد رجلان قويّان مسلّحان إلى يميني وإلى يساري. وفتحت سيارة بيجو 25 مع فانوسٍ دوّار الطريق. وسارت سيارة بيجو 405 رمادية اللون فيها خمسة رجال خلف السيارة التي كنتُ «أستقلّها». وأخيراً سارت عربة بيضاء على متنها ثمانية عناصر من CMI مسلّحين ببنادق رشّاشة في مؤخرة الموكب. غدا الانتشار بتلك الطريقة من أجل رجلٍ واحدٍ أمراً مضحكاً صراحةً. تلوّينا في الشوارع المنحدرة لطنجة. عملت أجهزة الإرسال النقّالة والإذاعة المحمولة بنشاطٍ مفرط. أُعطيت تفاصيل كلّ مترٍ اجتزناه لجسّوس وهيئة أركانه عبر محطّة تحويلٍ في المفوضية. توقّفنا في شارعٍ صغير. أوقفت القوّة المصاحبة لي حركة السير. صعد شرطيون وهم يركضون درج عمارةٍ. أُنزِلتُ من سيارة المرسيدس. أحاط بي ستّة شرطيين. ارتقينا، يتقدّمنا مساعد المفتّش العام، طابقين ودخلنا إلى عيادة طبيب أسنان. نهضت السكرتيرة. ولكننا أصبحنا في مكتب الطبيب الممارس حيث كانت تجري معاينة زبون. همس له المفوّض بكلمتين، وساعده على

الخروج من الكرسيّ، ورافقه حتى الباب. شاهد طبيب الأسنان الجرّاح المشهد هادئ الأعصاب. تعثّر المفوّض في كلامه:

– اعذرنا، يا دكتور، ولكنّها حالة طارئة. إنّها من طرف صديقك المفتّش العام جسّوس. . .

كان طبيب الأسنان إسبانيّاً مسنّاً. دون أن يتفوّه بكلمة، دلّني السيّد العجوز على الكرسيّ. فحص فمي باختصار والتفت بطريقة شبه تهجمية نحو المفوّض:

– ولكن ما هذا؟

تلعثم مساعد المفتّش:

– هأ، هذا ابن أخت المفتّش. يقيم في الجبل. لم يأتِ قطّ إلى المدينة. لا يعرف ماذا يعني طبيب. لقد انتكس خرّاجه بَغتَةً. . .

حينها أساء الطبيب الاستقبال. لم يكن ميّالاً ليهدئ من روعه. أنهضني وطلب من مساعدته أن تُخرِج ميزان الأشخاص. حينما أشار المؤشّر إلى 45 كيلوغراماً، أشاح مرافقيّ بنظرهم. حدّق الطبيب العجوز في عينيّ مساعد المفتّش العام:

– ولكن من أين قادم حتى يكون على هذه الحال؟ حتى الحيوان، ما كان ليُترَك مع هذا الخرّاج! أنا أعتذر، لن أتحمّل مسؤولية لمسه. لإجراء جراحة لهذا الخرّاج، سيلزمه جرعة كبيرة من المضادات الحيويّة، ولن أجازف حتى بتخديره. . . إنني أتألم، ولكن ليس بوسعي أن أفعل أيّ شيء.

تابع مفوّض المقاطعة:

– هذا ليس من سوء نية، أيّ طبيب أسنانٍ سيقول لك الشيء نفسه، يجب أوّلاً إخضاعه للعلاج بالمضادات الحيوية.

أُعلِم جسّوس. أُعطي الأمر بإعادتي إلى المفوضية. فاكتفيتُ كالعادة بتفريغ خراجي. كانت مليكة وعبد اللطيف وماريا، من جهتهم، في غاية

الذعر خوفاً من أن تكون عيادتي لطبيب الأسنان ليست سوى ذريعة لفصلي عنهم.

ألحّ المفتّش العام على أن نتغدّى:

- اطلبوا كلّ ما تشتهونه، لا تتردّدوا. ماذا تريدون أن تأكلوا؟

- شكراً، لسنا جائعين، لقد اعتدنا أن نتناول وجبة واحدة يومياً. نفضّل أن ننتظر العشاء.

مع ذلك، أرسل جسّوس مفوّضاً ومحقّقين يقشطون مطاعم المدينة. سيما وأنّه لا يُريد أن يُقال عنه إنّه حرمنا من الطعام. بانتظار ذلك، جعلنا ندخل بالدور إلى حمّامٍ أنيقٍ ملاصقٍ لمكتبه. حينما جاء دوري لأختلي فيه، ذُهلتُ لعدد عبوات معجون الحلاقة والعطور. لا بدّ أنّ جسّوس يمضي الكثير من الليالي الملاح في مكتبه... بعد دوشٍ دافئٍ هانئ، اقتُدنا إلى صالونٍ صغير وقُدِّم لنا الشاي. استُؤنِفَت الاستجوابات.

طلب منّي جسّوس الانتقال إلى المكتب المجاور. أحاط أربعة مفوّضين وثلاثة مساعدين بالمفتّش العام. سألونا بالدور تاركين الصغيرين بحالهما. تواصلت «النقاشات» طوال فترة ما بعد الظهيرة وحتى أثناء السهرة.

لم يمنع ذلك مستضيفنا من التركيز بشدّة على أسئلةٍ بدت أنّها حقّاً تهمّهم كثيراً:

- هل كنتم ستواصلون فراركم إلى الجزائر إن استطعتم ذلك؟

ذكّرتُ أولئك السادة باختصار بأنني لستُ بحاجة إلى تلقّي دروسٍ في الوطنية منهم. وأنّه قبل أن يختلق جيراننا نزاع الصحراء، كانت هناك حربٌ، هي حرب الرمال، وقد خاضها جنرالٌ، هو محمد أوفقير. ولكن عاد سؤالٌ بأشدّ إلحاحٍ:

- هل مررتم ببيت آل بارير؟ هل التقيتم خالكم؟

ظلّ جوابي ثابتاً دون تغيير:

- كلاّ.

ابتسم لي مفوّضٌ:

- نحن نعرف ذلك، إنّهم هم مَنْ أخبرونا بذلك. . .

تمسّكتُ بجوابي:

- ربّما، ولكن هذا خاطئ.

مع أنّهم استجوبونا بالدور وبشكلٍ منفصل، أعطت مليكة الإجابات ذاتها. حينما أدرك جسّوس أنّه لن يحصل على شيء، أراد أن يأخذ الدور السهل:

- إنّه نبلٌ منك أن ترغب في حماية أصدقائك. . .

- إن كانوا بحاجة لأن أحميهم، فسأفعل ذلك بكلّ تأكيد، ولكنني أكرّر لكم أننا لم نرَ آل بارير ولم نلتقِ بخالي. وإذا كان ذلك قد حصل، فأين تكمن المشكلة؟

سوف نعلم فيما بعد بأنّ كلّ أصدقائنا قد اقتيدوا إلى المفوضية المركزية في الرباط، وأنّهم استجوِبوا بقسوة ولكن دون المساس بهم. وعلى العكس من ذلك، انقضّ رجال الشرطة بعنف وضراوة على خالي وحيد. علّقوه إلى قضيبٍ معدني، قدماه إلى الأعلى ورأسه إلى الأسفل، وجلدوه بقضبانٍ معدنية رفيعة على باطن قدميه. ولكن لم يحصلوا منه على أيّ شيء.

ولأنّه لم يعترف ولا نحن اعترفنا بلقاء آل بارير، غيّر رجال الشرطة الموضوع وأرادوا أن يعرفوا كلّ شيء عن اعتقالنا. كان يهمّنا أن يعرف أكبر عددٍ ممكن من الأشخاص قصّتنا والمصير المخجِل الذي فُرِضَ علينا. فعرضنا لأولئك السادة وبالتفصيل المعاملة التي خصّ بها «ضيوف جلالته». وبالطبع ستؤكّد أقوالنا بأقوال بورو ورجاله. قلقلت حكايتنا الشرطيين الأكثر قسوة. لم يخفِ جسّوس، الذي عَرَفنا أطفالاً، اشمئزازه.

نحو الساعة التاسعة مساءً، وإذ علِم جسّوس، أثناء الاستجوابات، أنّ عبد اللطيف لم يأكل السمك منذ عمر الثالثة، قدّم لنا طبقاً كبيراً من

السمكيّة[1] مزخرفاً بسخاء بثمار البحر. قبل أن نتفوّه بكلمة وخشية أن نرفض ذلك، قال لنا:

- هذا غير معَدٍّ في مطعم ولن تدفع الدولة قيمته. لقد أعددته في بيتي، وسيسعدني جداً أن تقبلوه، لأنّه من الرجل الذي يقدِّمه لكم من صميم القلب، وليس بصفته موظّفاً.

أكلنا بمشقّة.

لأننا لم نكفّ بعد ذلك عن السؤال عن بقية العائلة، أخبرنا المفتّش العام بأنّ موكباً سيرافقنا غداً لشراء ألبسة جديدة. وبينما لفتنا نظره أنّ ما نرتديه من ألبسة هي سليمة، أوضح أنّ هذا أمرٌ من الرباط، ولإقناعنا، ختم قائلاً:

- غداً بعد الظهيرة، ستذهبون للانضمام إلى والدتكم وأختيكم.

نحو الساعة العاشرة مساءً، أُدخِلنا إلى مكتبٍ فسيح مربّع الشكل، خالٍ من أثاثه. في وسطه، أربع حشايا جديدة مصفوفة بأغطيتها. على كلٍّ منها شرشفان وغطاءان صوفيان ومخدّتان. ومقابل «الأسرّة» الأربعة، هناك أربعة كراسٍ وأربعة شرطيين، استعدّوا لأداء التحيّة لرئيسهم. قبل أن يتمنّى لنا ليلةً هانئة، أخبرنا المفتّش العام:

- سيسهر هؤلاء الشرطيون عليكم، اعذرونا على هذه التدابير الأمنية، ولكن بات لكم الآن شهرةٌ راسخة في مجال الهروب.

أفرجنا عن ابتسامةٍ غامضة. لم يكن لنا سوى هاجسٍ وحيد، أن نلتقي بأهلنا، ونكون وحدنا. علِمنا بأنّ الحجرة مليئة بلواقط الصوت، التي سيستخدمها الشرطيون الأربعة «مخدّات»، ولكنّ ذلك لم يمنعنا من تقييم الوضع. وبما أنّنا طوّرنا في السجن لغة خاصّة قد لا يفهمها سوانا، استطعنا أن نتناقش بلا خوف. في الواقع، كنّا مطمئنين. إذا كنّا لم نُعامل

---

(1) السمكيّة: طعام إسباني مكوّن من أرز ولحم وخُضَر وأنواع مختلفة من الأسماك. المترجم

بشكلٍ سيّئ حتى الآن، فلا داعي للاعتقاد بأنّ «الضيوف» الآخرين قد أُسيء معاملتهم. وقد ازددنا ثقةً حينما أخبرنا جسّوس بأنّ نداءنا للملك قد بُثَّ من راديو فرنسا الدولي.

أوينا إلى السرير على أن تمرّ سريعاً الساعات التي تفصلنا عن لقاء أهلنا. كان الشرطيون، مستقيمين في كراسيهم، جامدين مثل تماثيلٍ شمعية. ينهضون كلّ ساعةٍ على رؤوس أصابعهم ويتحقّقون، متظاهرين بأنّهم «يغطّوننا»، إن لم نكن قد مزّقنا أوردتنا. وسرعان ما نمنا، إذ طالب الجسد بحقّه في الراحة. ولكن في نوم مضطربٍ، تخلّلته حالات استيقاظٍ مفاجئة. في الواقع، لم تهمد يقظتنا.

ماذا حلّ بالسيد برنار دارتڤيل وهيرڤيه كيريان؟ جاء محامينا إلى فندق أهلاً كما كان متّفقاً عليه. حينما وصل، نحو الساعة الحادية عشرة، كنّا قد نُقِلنا. سأل موظّف الاستقبال الشهير، الذي تعرّف عليه كأحد الرجلين اللذين كانا قد التقيانا مساء أمس في قاعة الفيديو، المحامي إن كان يريد حجز غرفةٍ. وهو ما فعله برنار دارتڤيل، معتقداً بأنّ ذلك سيكون أكثر سريّة لانتظارنا دون أن يثير الشكوك. استغلّ «موظّف الاستقبال-التاجر الواشي» ذلك ليأخذ هويّة المحامي ويسرع إلى مفوضية طنجة لإخبار الشرطة عنه. وهناك صادفناه في البهو. وإذ أُخبِرَت الرباط، قام الدرك بتوقيف رجل القانون. وإذ اقتيد إلى مقرات فرقتهم، استجوِب لعشر ساعات بلطفٍ وأدب. فذكر السيّد دارتڤيل وضعه كمحامٍ وأوضح أنّه لم ينتهك أيّ قانون لكون الاتفاقيات الفرنسية المغربية تجيز له أن يكون مستشاراً لمواطنين مغاربة. وغالباً ما تردّد سؤالٌ على شفاه المحقّقين:

- هل الأمريكيون هم مَنْ وكّلوك للدفاع عن أولاد أوفقير[1]؟

---

(1) لا شكّ لأنّ جورج كيجمان كان محامي الحكومة الأمريكية في قضية جورج إبراهيم عبد الله المتهم بالإرهاب.

ظلّ دارتڤيل يوضّح لهم الوقائع كما حصلت، وأنّ آلان دو شالفرون هو الذي اتّصل بجورج كيجمان. أخيراً، في بداية السهرة، أقلعت طائرةٌ مروحية للدرك لتنقل إفادته إلى القصر.

قبل إعادة المحامي إلى فندق أهلاً، قال له عقيدٌ:

- ستتمّ تسوية كلّ شيء بالنسبة للأولاد. لا تقلق.

استقلّ دارتڤيل سيارته المستأجرة وغادر مقرّ الدرك الملكي في طنجة حينما لاحظ بأنّه متابَع. بعد العديد من المغامرات في أزقّة المدينة، نجح في التخلّص من متعقّبيه. انسلّ إلى منزل هيرڤيه كيريان وأطلعه على توقيفنا واستجوابه. فأعطاه الصحافي أفلام الصور الملتقطة مساءً، متوقّعاً أنّ الشرطة لن تتأخّر في الوصول إليه. غادر السيد دارتڤيل في الحال، واتّصل بكيجمان لإطلاعه على الوضع. طلب منه هذا الأخير أن يقدّم التماساً للسلطات:

- طالِب بأن يُسمَح لنا برؤية موكّلينا في مكان احتجازهم...

فقدّم برنار دارتڤيل رسالةً إلى فرقة الدرك حيث لم يشأ أحد أن يستقبله، ثمّ عاد إلى الرباط. طوال مسافة سيره، أشارت مراكز متنقّلة للدرك إلى مروره. لدى وصوله إلى العاصمة، حجز غرفة في فندق، ومكاناً في الطائرة ليغادر إلى باريس في اليوم التالي. حينما أقبل الصباح، نزل من غرفته ليذهب إلى المطار، أحاط به أربعة عملاء من جهاز DST:

- نحن مكلّفون بمرافقتك حتى طائرتك.

ما إن أصبح في المطار، اقتيد المحامي إلى مكاتب الشرطة وأُخضِع لاستجوابٍ قاسٍ. بعد أن انتهت مجاملات الدرك الملكي وأساليبه الناجعة، فُتِّشَ تفتيشاً دقيقاً وصودِرَت أفلام الصور الملتقَطة من قبل كيريان. صرخ به مفوّضٌ من DST:

- أنت مَنْ تجاوزت الحدود بتدخّلك في مسألةٍ تخصّ القصر حصراً! وبالتالي، لم نحترم صفتك كمحامٍ!

بعد ساعات من الأسئلة والترهيب، وضِع دارتڤيل في طائرة أُعيدت

من الدار البيضاء لكون طائرته الأساسية كانت قد غادرت بالطبع. أمّا هيرڤيه كيريان، فقد طُرِدَ من المغرب بالقوّة.

يوم السبت 25 نيسان (أبريل)، بعد أن اقتدنا تحت حراسةٍ مشدّدة إلى مخزنٍ وأُلبِسنا ثياباً جديدةٍ، نُقِلنا بعربة زجاج نوافذها غير مطليّ إلى الدار البيضاء. كان الموكب مرعباً. لقد تمّت حراستنا على نحوٍ أشدّ من قطارٍ للنفايات الإشعاعية... ولكن الأمر سيّان ما دمنا سنلتقي بأهلنا. من طنجة وحتى ضواحي العاصمة الاقتصادية، كان سيرنا متابعاً بصرامة من قبل الدرك الملكي. على مدخل الدار البيضاء، كانت سيارتان تنتظران «قافلتنا»، ثمّ فتحتا الطريق. دخلنا إلى باحة مركز درب مولاي شريف للاستجواب. محاطين بشرطيين في الزي المدني، دخلنا إلى بهوٍ فسيحٍ جدرانه مطلية بالأصفر الحائل، إنارته شاحبة، رواقٌ واسع تفوح منه رائحة مطهّرٍ شبيهٍ بالذي تفوح به المستشفيات. كان ممرّان واسعان يفضيان إلى داخل المفوّضية، تفصلهما شبكات سميكة مزدوجة. خلف كلٍّ منهما مركز مراقبة يحرسه أربعة عناصر من CMI، وثلاثة شرطيين بالزيّ المدني. أثار وصولنا الفضول نفسه الذي كان في مقرات شرطة طنجة. اقتدنا نحو الممرّ اليميني. انفتح الشبك قبل أن نلج داخل الرواق. جعل ضجيج الأقفال فكّيّ يصرّان. الممرّ مسدودٌ بأبوابٍ مقفلة: كان مصراعا مكتبٍ مفتوحين في نهايته. وكان العبوش، مدير جهاز DST، واليوسفي، قائد الفرقة الخاصّة، ورئيس مفوضية درب مولاي شريف ينتظروننا على عتبة الباب. حيّونا بابتسامات عريضة. ظلّت وجوهنا مشدودة. دخلنا إلى قاعةٍ فيها حوالي عشرة رجال يرتدون بزّاتٍ رسمية. نهض الجميع لمصافحتنا. قام العبوش بتقديمهم لنا. كان الحضور نخبة مسؤولي الأجهزة الأمنية، بينهم عثمان بوعبيد، مدير مكتب وزير الداخلية البصري، الذي كان قد أتمّ دراسته مع خالي وحيد. دعانا مدير جهاز DST للجلوس. وليدخل السرور إلى قلوبنا، خاطبنا:

- أحسنتم، لقد أنجزتم هروباً مذهلاً. إذاً، مَنْ منكم ستيف ماكوين؟

أجبته:

- ومَنْ منكم آمر المعتَقَل المحصّن؟

قهقه العبوش:

- لا، لا، لا يوجد هنا بورو. انتهى ذلك، ولم يعد مولاي حفيظ وبن عايش هما مَنْ يهتمّان بأمركم. أنتم الآن تحت مسؤولية وزير الداخلية. مذ أن أُطلِع صاحب الجلالة على ما لحق بكم، أعطى أوامره لتُعاملوا معاملةٍ حسنة.

إنّها دائماً اللازمة المضجرة ذاتها، مضحكة بقدر ما هي واهية. يُشار بالاسم إلى رجالٍ من القصر لتبرئة الآمر الأعلى. بالتأكيد هناك أناسٌ «موهومون» بما فيه الكفاية أو يفتقرون للنباهة فيبتلعون الطعم، ولكنّ الشعب المغربي، بعمومه، يعرف جيّداً من هو السيّد المطلق والكلّي السلطة للبلاد! والاعتقاد بأنّ رجلاً آخر، أوفقيراً كان أو الدليمي أو البصري، بإمكانه أن يمارس سلطة فالتة من رقابة الحسن الثاني، هو اعتقادٌ بأسطورة الملك القدّيس، المحاط بوزراء شياطين، قساةٍ وطامحين!

وإذ شوهِدَ أننا بقينا على تحفّظنا، قُدِّم لنا الشاي والكاتو. ولكن بمرور ذلك الربع ساعة من المقدّمات المنافقة، كان يفترَض أن نلتقي بأمّنا وأختينا ورفيقتينا الوفيّتين في الشقاء. آثر مدير DST أن يُرضينا لكي يستجوبنا على نحوٍ أفضل فيما بعد. أدرك أنّه لن ينتزع منّا شيئاً ما لم نتحقّق من أنّ كلّ العائلة بخير. من جهة أخرى، كان المفوّض يوسفي، أحد أكثر ضباط استخبارات المملكة حذقاً، موجوداً لكي «يستدرجنا إلى الكلام». حينذاك، قادنا هو والعبوش، مصحوبين بمدير درب مولاي شريف، إلى «ضيوفٍ» آخرين. وصلنا إلى أمام ثلاثة أبواب موصدة. يحرس كلّ واحدٍ منها شرطيٌّ على كرسي. حينما بلغنا باباً رابعاً، كان ثلاثة شرطيين يحرسون مدخله. وضع العبوش يده على المقبض ونظر

إلينا، متباهياً، قبل أن يطرق الباب مرّتين ويفتحه. . .

كانت عائلتنا، بالمنامات، جالسة إلى مائدة مستطيلة، تتناول العشاء دون أن يخطر ببالها شيء. ما كاد مدير DST أن يتنحّى جانباً حتى انقضضنا على بعضنا. حتى أن أمّي سارت على الطاولة بين الصحون لتقفز وتعانقنا قبل أن نتقدّم. لم نعد سوى عنقودٍ بشريٍّ، مرتعشٍ، منفعلٍ، ونحن نتعانق بلهفة. لم تتمالك أمّي دموعها. مشدودة إلينا، خانتها الكلمات. رجوتها:

- ماما أتوسّل إليكِ، لا تبكي أمامهم، لا تمنحيهم هذه المسرّة. . .

كان العبوش وحاشيته على بُعد سنتمتراتٍ منّا.

- لماذا تقول هذا لوالدتك؟ نحن أيضاً لسنا وحوشاً. . . مَنْ لا يتأثّر بهذه الظروف؟

لم يُجِبه أحد. أدرك مرافقونا أخيراً أنّ وجودهم لا معنى له وانسحبوا. وحينها احتفلنا حقّاً بلقائنا و«انتصارنا». علِمنا بأنّ الحُجرة بمساحتها البالغة اثني عشر متراً مربّعاً التي حُبِسنا فيها مزوّدة بلواقط الصوت ولكننا لم نأبه لذلك. روينا بالتفصيل مختلف مغامراتنا حريصين على التهامس عند الحديث عن الحلقة الخاصّة بآل بارير. حينما علِمَت بقية العائلة بأننا قد اتّصلنا بالخارج، وأنّ لدينا الآن محامين، عمّت فرحةٌ عارمة. للأسف، سيُثبِتُ لنا المستقبل أنّ أملنا كان مبكراً، لأن «العوائق ازدادت» في طريقنا!

في نهاية السهرة، استؤنِفَت الاستجوابات، ودائماً بمساعدة كمية كبيرة من الطعام والمديح. نحو الساعة الثانية صباحاً، كنّا على حشايا أمام تلفازٍ. في اليوم التالي، زارنا العبوش واليوسفي وصحبهما وزادوا اللقاءات المسترخبة حول كوب شاي. وإذ خمّنوا أننا نتوق للعلاقات الإنسانية، أمِلوا، من خلال تسليتنا، أن ينتزعوا منّا شيئاً لا يعرفونه بعد. علاوة على ذلك، لم يكفّوا عن طمأنتنا على مصيرنا:

- سيُسوّى وضعكم سريعاً. في الوقت الراهن، أنتم ضيوف جلالته...

حينما سألناهم: «إذا كان هذا صحيحاً، فلماذا نحن موقوفون في أسوأ مفوضيات المملكة» أجابونا أنّ ذلك بسبب صحافيين أجانب يريدون، منذ أن انكشفت قضيّتنا، معرفة المزيد عنها...

حاول محترفو الكذب أولئك بإصرار أن يجعلونا نبتلع ذرائعهم الغريبة والخاطئة.

وستمرّ ثلاثة أسابيع على هذا المنوال. استمرّوا في إلهائنا بجلبهم لنا مسجّلة تلفزيونية وبعض الأفلام. وأُرسِل لنا الطعام بناءً على الطلب. وكلّما زارنا مدير DST وفريقه، انشغلوا بهزالنا:

- يجب أن تأكلوا، يجب أن تأكلوا. قريباً سيُطلَق سراحكم وستحتاجون إلى كامل طاقتكم.

فأجبناه:

- لا يمكننا أن نأكل إلى حدّ التخمة ونحن نعلم أن السجناء السياسيين الأربعة الآخرين في هذه المفوضية يأكلون حساءكم المتعفّن.

ولمداهنتنا، منحنا العبوش الحقّ في طلب الطعام الذي نريده وتوزيعه على «السجناء الآخرين». أُعدّ لنا مطبخٌ صغير يمكننا أن نطبخ فيه. لم نكفّ عن إعداد صوانٍ عامرة باللحم والدجاج والسمك، وحتى الشوكولاه والمثلّجات بل والسجائر، وتوزيعها على الآخرين من قبل حليمة وعاشورا. وطوال فترة إقامتنا في مولاي شريف، سوف يأكل المعتقلون الآخرون مثلما نأكل.

مرّت الأسابيع، ولم يحدث شيء. كانت السلطات تكسب الوقت. بدأت الصحافة تنسانا. نحن الذين كنّا نعتقد أنّ قضيتنا وقد انكشفت ستثير استنكاراً عارماً وأنّ الملك سيعود إلى رشده، أدركنا أنّ الفخّ قد أحكم

الإطباق علينا من جديد، وسط لامبالاةٍ عامّة. بعد شهرين، في 30 حزيران (يونيو)، أخبرنا العبوش بأننا سننقَل إلى ڤيلا في مراكش، حيث سنتمتّع بكلّ الراحة المطلوبة. حينما عبّرنا عن خيبتنا، أكّد لنا مدير DST:

- سيكون ذلك مدخلاً للحريّة. لا تُثيروا جلالته، بعد كلّ ما ألحقتم به من جرّاء هذا التمرّد العارم لوسائل الإعلام. امنحوه الوقت لهضم ذلك. من الواضح أنّ هذا القرار الملكي بإنزالكم في ڤيلا جميلة هو بشارة خير. اصبروا قليلاً، أنتم قريبون جدّاً من تحقيق هدفكم.

ماذا بوسعنا أن نعمل أكثر من هذا؟ فخضعنا للواقع: لا يزال العالم أبشع مما كنّا نتصوّره. حينما، وبعد قضاء خمس عشرة سنة في تابوتٍ حجري، نخاطر بحياتنا وبحياة عائلتنا لكي نطلق نداء استغاثة ويشيح الجميع بأبصاره عنّا، نشعر بأننا مرفوضون، وملعونون، ومرجومون...

وإن كان مستشارنا قد قصد استرضاء الحسن الثاني، في بعض الرسائل الموجّهة إليه، فإنّه بالغ أحياناً في توجّهه هذا. سأترك الحكم لكلّ قارئ. إذ هكذا كتب كيجمان: «لستُ، لا من قريبٍ ولا من بعيد، مدافعاً عن ذكرى الجنرال أوفقير والحقيقة. لقد كان أولاده الستّة صغاراً جداً ليتحمّلوا في عام 1972 بعض المسؤولية أيّاً كانت عن تصرّف والدهم.» وأضاف: «وقد تعرّضوا، قبل نقلهم إلى معسكرٍ للاعتقال، إلى نوعٍ من الإبعاد الذي كان يمكن للمرء أن يتفّهمه». وبخصوص بير- جديد، تحدّث محامينا حتى عن «مبادرة مرؤوسين». كما قال: «يبقى أنّ ثلاثة أعوام من الإبعاد، ثمّ اثني عشر عاماً من الاعتقال المفروض على أطفالٍ صغارٍ لا يمكنها أن تستجيب لروح العدالة والإنسانية اللتين لطالما أبديتموها جلالتكم.» وختم: «ألتمس من جلالتكم إجراءً رحيماً حيال أولاد الجنرال أوفقير، إجراء يحقّ لكم وحدكم تحديد مداه.»

وحدهم الذين عرفوا عذابات في سبيل هويّتهم سوف يدركون حقّاً ما شعرنا به آنذاك. لم يكن لنا من خيار آخر سوى أن نغترف ممّا تبقى لنا من

شجاعة وهمّة لنواصل مقاومة الاستسلام. استبدّ بنا النظام من جديد، وحادت الأخبار عنّا، فكان علينا أن ننتظر ونقاوم.

لأنّ المحنة لم تكن قد انتهت بعد. نُقِلنا مرّة أخرى إلى مركزٍ جديد للاعتقال وأُحِطنا بظروفٍ أمنية عصية على الفهم. لم يكن مسؤولو الآلة الأمنية في وارد نسيان هروبنا وما لحق بهم من نقمة رهيبة من لدن الملك. هذه المرّة، أرادوا بحبسنا الانتقام لأنفسهم. . . وكذلك الموكب الذي اصطحبنا إلى مرّاكش تجاوز في عديده كلّ ما شاهدناه إلى ذلك الحين. استعاد «ضيوفُ» الملك «التقديرَ» الذي يقتضيه مقامُهم والسجناءُ القيودَ التي يفرضها مجرّد اسمهم.

الخاتمة

الانبعاث اللامتناهي

الأوّل من تموز (يوليو) 1987، اقتدنا إذاً إلى المكان الجديد لاعتقالنا، والذي يقع على بعد حوالي عشرة كيلومترات من مراكش في منطقة زراعية تُدعى ترغة. فيها أيضاً متاهة من الدروب الضيقة المتداخلة، ومزارع من عهد الحماية... على أرضٍ مساحتها ثلاثة آلاف متر مربّع، مسوّرة بجدارٍ ارتفاعه متران، انتصبت عمارةٌ من العهد الاستعماري، الواجهة الصلصالية لطابقيها شبه مغطاة بنباتات معترشة. تنفتح شرفةٌ مظلّلة على مدخل درج البيت. يتكوّن الطابق الأرضي من صالونٍ فيه مدفأة وغرفة ومطبخ. وفي الطابق العلوي، خمس غرفٍ؛ أقمتُ في غرفة الطابق السفلي، وأخذت أمّي والبنات أجنحتهنّ في العلوي.

لدى وصولنا، قابلتنا مباشرة لجنة الاستقبال الثابتة. العبوش، مدير DST، وبوعبيد، مدير مكتب وزير الداخلية، ويوسفي قائد الفرقة الخاصّة، ود. بلماحي، والي[1] مرّاكش، وجينان، المفتّش العام للمدينة، ود. سعيد، عضو مكتب البصري. وقد استُعين ببنحربيط، الساعد الأيمن السابق لوالدي حينما كان وزيراً للداخلية. وقد ظلّ، من أوفقير إلى البصري، المحرّك الأساسي للوزارة. إنّه رجلٌ متواضع، لطيف، رزين، صموت، يعترف له الجميع بالنزاهة. وإذا كان ابنه قد

(1) بمثابة الحاكم الأعلى للمدينة وتحت إمرته حكامٌ آخرون لولاية مرّاكش.

تزوّج أصغر بنات الحسن الثاني، فإنّ هذه المصاهرة مع العائلة المالكة لم تمسّ ببساطته.

كانت مهمّة كلّ هؤلاء «المنظّمين الظرفاء» هي تمرير الكذبة علينا. بالتأكيد لم تكن ظروفنا المادية لتُقارَن بظروفنا في زنازيننا الكريهة السابقة، ولكن بقينا محتَجَزين، محرومين من حقوقنا، ومن حريّتنا. نظرياً، كان الغرض من حضور بنحربيط هو إسهامه في العملية السحرية. ولكنّه، لشدّة تأثّره، حبس دمعة وتجمّد في صمتٍ مطبق. كلّما صادف نظراتنا، شقّ عليه تحمّلها وخفض رأسه في حالة وجوم. كافح العبوش وعثمان بوعبيد لإنجاز ما أُرسلا من أجله. كان الاثنان طموحين، وقد جعلهما حرصهما على إرضاء السيّد أكثر إثارةً للسخرية. لم يكن لنا من خيارٍ سوى الاستماع إلى حماقاتهما. فقد ادّعيا:

- لقد وضعكم جلالته في ظروفٍ لائقة وإنسانية. سوف تستقبلون بانتظام أطباء وتشرعون في تلقي المعالجة لكي تستعيدوا قواكم. ولم يعد إطلاق سراحكم سوى مسألة أيام. فاسترخوا ولا تنشغلوا سوى باسترداد عافيتكم. الخروج قريبٌ جدّاً.

رأى جلاّدونا أنّ إعادة راحة مادية نسبية إلينا كافية تماماً بالنسبة لملغيين. وهكذا لم نكن، لكوننا أولاد أوفقير، منذورين إلاّ للتعذيب والسِّجن. بعد الجحيم، أودعنا صاحب الجلالة الكريم في المطهَر... فماذا نطلب أكثر من هذا!

بعد ساعتين كاملتين من سوء النية والغوغائية، أجال بنا الوفد في البيت. أوصى العبوش الوالي بلماحي:

- اعتنِ بهم جيّداً، يريد جلالته ألا ينقصهم شيء...

قاطعته أمّي:

- إذا كنتم توصوا بنا بهذه الحرارة د. بلماحي، فذلك لأننا لن نتمكّن من رؤيتكم ثانيةً عمّا قريب...

- لا، لا، يا سيّدتي، اطمئني، لقد أعطى صاحب الجلالة الأمر بأن

نأتي لزيارتكم كلّما أمكن ذلك. على كلّ حال، سوف تخرجون قريباً. . . علاوة على ذلك، الوالي في خدمتكم. سوف يأتي لزيارتكم كلّما أردتم ذلك. كما سيكون مفوّضٌ على اتصالٍ معكم ليكون ضابط ارتباطٍ مع وزارة الداخلية. إن رغبتم في مقابلة الدكتور بلماحي، أخبروا ببساطة المفوّض هشام بذلك، وسيأتي الوالي لزيارتكم في الحال. وسيتكفّل قائدان بالمسائل التموينية.

خرجنا إلى الحديقة، وهي أرضٌ جرداء تماماً يحاذيها من اليمين ثلاث أو أربع أشجار متيبّسة.

ورغبة في التباهي، تصرّف مدير DST بما كشف نواياهم. فقد قال لوالي مراكش:

- منذ الغد، يجب أن تزرعوا مرجةً وأشجاراً وزهوراً.

سألته وبدا أنّه سيكون محرَجاً في إجابتي:

- كنت أعتقد أننا لسنا هنا إلا لإقامة قصيرة؟ إذا كنتم ستنتظرون إلى أن تنبت المروج والأزهار والأشجار لكي تطلقوا سراحنا فهذا سيستغرق وقتاً أطول بقليل مما أردتمونا أن نسمعه. . .

- كلاّ، ستخرجون قبل أن تنبت هذه بكثير. . . ولكن علينا، كمسؤولين جدد عن وضعكم، تنفيذ الأوامر الملكية. أكرّر لكم أنّ جلالته يريدُ أن تُعامَلوا كضيوفه. لا يهم إن لم تشاهدوا هذه الحديقة وهي تنمو، ولكن على الأقلّ، سيتأكّد القصر أننا لم نألُ أيَّ جهد.

ألححنا على أن نُترَك لأن نتصرّف بالأرض كما هي. طلبنا فقط أن تسوّى وأن يُنصَب فيها مرمى كرة قدم. آثرنا أن نستخدم تلك الفسحة لممارسة الرياضة، بدلاً من مراقبة نموّ بعض الأزهار، التي ستذكّرنا كلّ مرحلةِ نضجٍ لها بأنّ الزمن يمضي بما لا يُعوّض وأننا ما زلنا محرومين من حريّتنا. . .

قبل مغادرتنا، قدّم العبوش لنا العقيد قائد فرقة CMI في مراكش.

وهو مَنْ كلّفه الملك شخصياً بـ«أمننا»، أي بحراستنا. طوال الفترة التي ستستغرقها إقامتنا، راقبنا العقيد ليلاً ونهاراً. وسيأخذ ساعة أو ساعتين في الأسبوع ليقفز إلى بيته وسينتهي إلى أن يسرّ لي كيف عُيّن لهذه المهمة. قال:

- لم أرَ الملك قط إلاّ في التلفزيون. ولم أُكلّف قط سوى بالأمن العامّ وبالأحداث الرسمية أو الرياضية مثل زيارات الملك لمدينتنا، أو الماراتون الدولي الذي يجري فيها سنوياً. دُعيتُ إلى القصر الملكي في مراكش. استقبلني الملك لمدّة قصيرة بحضور إدريس البصري:

- أُسلّمك زوجة أوفقير وأولاده. حينما سأطلبهم منك، أريدهم جميعاً حاضرين. إن نقص أحدهم، سأعلّقك من أهدابك[1]! وسيكون العقيد مسكوناً بهذه الكلمات إلى درجة أنّها باتت تؤرقه. فراح كلّ ليلة يمسح الحديقة وأطرافها جيئةً وذهاباً، وبات يعيش هاجس عملية هروبٍ من السجن. ذات يوم، ضايقته بهذا الخصوص، أجابني، مذعوراً:

- إذا ما حدث وهرب أحدكم، الأمر سهلٌ جدّاً، سأنتحر بدل أن أتحمّل نتائج ذلك!

كلِّفت مجموعتين، قوام كلّ واحدة منهما أربعون عنصراً من CMI، بحراسة «ضيوف الملك». تناوبتا كلّ أربع وعشرين ساعة. حُفِر خندقٌ حول السور. وكان هناك حارسان كلّ عشرين متراً. ونُصِبَت محارس للدرك وللقوات المساعدة على دائرة قطرها كيلومتر تحيط بالمكان الذي احتُجِزنا فيه. نحو الساعة الخامسة مساءً، أخذ عناصر CMI مكانهم في الداخل، في «الحديقة» الجرداء من كلّ خضرة.

يوجد خلف المطبخ ساحة صغيرة مع ملحقات؛ ومع أنّها لم تكن تتّصل بمسكننا، كان بوسعنا أن نرى، عبر نافذة مشبّكة، ما يحدث فيها. ضمّت تلك الباحة غرفة العقيد، ومهجعاً للضباط المداومين وحجرةً مغلقة

---

(1) هذا تعبيرٌ مغربي يعبّر عن قسوة أشدّ العقاب.

يتناوب عليها ثمانية عناصر من DST في مجموعتين من أربعة عناصر. يدخلونها وهم بالكاد يواربون الباب حتى لا تتسنّى لنا رؤية ما تحتويه من معدات. وسرعان ما توقّعنا بأنّ تلك «الغرفة المنيعة» تحتوي على جهاز إلكتروني مخصّصٍ للإنصات. لم نشكّ للحظة في أنّ البيت كان مزوّداً بلواقط صوت. فشرعتُ، منذ وصولنا، في البحث عن تلك الآذان الخفية.

مزوّداً بجهاز راديو بسيط، تحوّلتُ إلى باقة FM، متجوّلاً في كل أنحاء البيت. فجأةً، سمعتُ وأنا في الطابق العلوي صوت التلفزيون الموضوع في صالون الطابق الأرضي. الأمر الذي بيّن لي بوضوح أنّ هناك لاقطاً في غرفة الجلوس. وبالبقاء على التردّد ذاته، نزلتُ إلى غرفة الجلوس. ممسكاً بأطراف أصابعي الراديو خاصّتي، الذي استخدمته كعداد جيجر[1]، سبرتُ كلّ سنتمتر مربّع. كلّما اقتربتُ من المصدر أرسل الجهاز تشويشاً أشدّ؛ حينما أصبح الجهاز فوق البطارية، صدر فجأةً أزيزٌ صارّ. وهكذا كشفتُ مخبأ أوّل «أذنٍ» لجهاز DST، مركوزٍ بين وصلات الجصّ وإطار نافذة غرفة الجلوس. وبذلك كشفتُ خمسة لواقط، مخفية في الغرف والصالون وحتى في المسجّلة التلفزيونية. تجنّبتُ تماماً نزعها إذ إن أسلاكها تنغرز في الجدران لتصل إلى غرفة الإنصات الشهيرة. نظام اللواقط السلكية بسيط ولكنّه فعّال. ولكن ربّما لم يتذكّر البصري والعبوش وصحبهما بأن لديّ ماضياً يختلف عن ماضيٍّ كسجين، وككبش محرقة الملك... لقد نسوا أنه حينما كانوا مجرّد مفوّضين صغار يخدمون في مدن الأقاليم، كنتُ أعاشر المراتب العليا في جهاز المَخْزن وأرفع مسؤولي أمن البلاد...

بدل فصل اللواقط، آثرتُ ان ألعب مع أولئك السادة لعبة القطّ والفأر... شرطتُ غلاف أسلاك كلّ لاقط. الآن وقد أصبح النحاس

---

(1) عدّاد للاستدلال على وجود أشعة ذرية. المترجم

الناقل عارياً، يمكنني فصلها كلّما دعت الضرورة، ثمّ إعادة التوصيل الذي يتيح لهم الإرسال. كما تسلّيتُ بتعليق واحدة من مضخّمات المسجّلة على بعد بضعة سنتمترات من اللاقط بواسطة مسمارٍ كبير، ومن ثمّ رفع درجة الصوت إلى أقصاه قاصداً إزعاج العناصر التي تسترق السمع. والبرامج التي اخترتها لهم كانت تهيّج أعصاب حتى كلبٍ أصمّ. وحينما كانوا «يستلذّون» بالبرامج، كنا نفصل اللاقط في غرفةٍ أخرى ونتناقش بهدوء. عرفتُ تماماً أنّهم سينتهون إلى التأكّد من ذلك، ولكننا حظينا بالهدوء لبعض الوقت.

مع أننا كنّا لا نزال حبيس الجدران، كنا نندهش لكلّ ما هو جديد بالنسبة لنا: من الماء الساخن إلى النور، من الفراش الوثير إلى الملاءات النظيفة، من الأطعمة التي أعدنا اكتشافها إلى لذّة الأكل عند الجوع، من التلفاز إلى الصفحات المصوّرة للمجلات. مع ذلك احتفظنا في أعماقنا بحزنٍ يعجز عنه الوصف، كبتٌ عميق يتعذّر استئصاله. الأسئلة الوحيدة التي استحوذت علينا كانت: «متى سنستعيد حريتنا؟ متى سيدعوننا نعيش أخيراً حياتنا، أو على الأقلّ في المرحلة الأولى أن نلعق جراحنا؟» خشيتُ من أننا ننظر من أعماق زنازيننا نظرة مثالية للأشياء والكائنات والعالم. نحن الذين كنّا نتصوّر أنّ المسؤولين السياسيين الفرنسيين سيكونون قد تأثّروا لمصيرنا، وصُدِموا بإجحافٍ كهذا وطالبوا الحسن الثاني بالحساب، تأكّدنا من أنّ الغرب وديمقراطياته، ولاسيما فرنسا التي تأمّلنا منها كلّ شيء، ليسوا على استعدادٍ للاختلاف مع الملك من أجل سواد عيوننا!

لم نهرب في 19 نيسان (أبريل) 1987 لكي نقضي ثلاثة أشهر في أكثر مفوضيات المملكة فظاعةً ونتنزل في بيتٍ تحت الحراسة القصوى. حتى وإن كانت من ذهب، فإنّ قضبان قفصٍ تمزّق قلب الحبيس فيه! لقد خاطرنا بحياتنا في سبيل حريّة يواصلون في إنكارها علينا، مع الصمت المتواطئ للجمهورية الفرنسية، صمت بلد الإعلان العالمي لحقوق

الإنسان. ماذا كان محامونا يفعلون؟ لم يكن بوسعنا معرفة ذلك، ما دام الحصار المفروض علينا مستمراً.

في 20 حزيران (يونيو) 1987، أي قبل عشرة أيام من نقلنا من مفوضية درب مولاي شريف إلى مراكش، استُقبِل جورج كيجمان في قصر مراكش من قبل الحسن الثاني، بحضور وزير الداخلية إدريس البصري. وافق الملك على مبدأ النفي إلى الخارج. في 2 تموز (يوليو)، مساءً، استُقبِلَ المحامي مرّة أخرى في قصر الصخيرات. تركّز الحديث على بلدٍ مرشّح لاستقبالنا. حسب كيجمان، كان الملك قد عبّر له بأنّه قد تأثّر للظروف الفظيعة التي أُخضِعنا لها. ودائماً حسب المحامي، ادّعى الحسن الثاني أنّه «تأثّر جدّاً للصغير عبد اللطيف ولأطفالٍ كانوا بمثابة أطفاله، ولاسيما مليكة التي ربّاها كابنته...» ولكن سرعان ما أخلت دموع التماسيح مكانها لصلافة النهّاب. حينما ذكر المحامي البلدان التي قد تستقبلنا، اعترض الملك:

- لا أريد أن يذهبوا إلى فرنسا، ولا إلى أيّ من البلدان المتاخمة لها.

برهن محامينا أنّه سيكون من الأسهل علينا إعادة بناء أنفسنا في بلدٍ نتقن لغته ونلمّ بثقافته، ولكن الحسن الثاني عارض ذلك. والملك الذي بدا إلى ذلك الحين لطيفاً، بشوشاً، غيّر نبرته. وعرض على كيجمان:

- لا أرى أيّ مانعٍ من أن يذهبوا للإقامة في إسرائيل...

وفي نهاية المطاف، قبِل الحسن الثاني بأن تستقبلنا كندا.

في 3 تموز (يوليو)، جاء جورج كيجمان لزيارتنا. كان مصحوباً بالعبوش وعثمان بوعبيد، اللذين تمشيا في الحديقة ليدعانا نتباحث مع مستشارنا. اعتمدا على الإنصات لمعرفة فحوى الحديث. تعارفنا مع محامينا. كانت برودته وادّعائيته تتناقضان مع إنسانية وبساطة برنار دارتقيل. أخبرنا كيجمان بمقابلته مع الملك وأوضح:

- لقد تعهّدت لجلالته بأنّه ما إن تصبحوا في كندا، لن تفصحوا في حالٍ من الأحوال عن اعتقالكم. لقد أعطيت وعداً بأنّكم لن تتحدّثوا علانية عن قضيتكم ولا إلى الصحافة. ما لم تحترموا هذه الأوامر، سوف تضرّون بي شخصياً وتخلّون بكل واجباتكم حيالي. وسأعتبر ذلك خيانةً من طرفكم.

وليزيد الضغط علينا، أضاف:

- إذا كنتم ستستعيدون حريتكم، اعلموا جيّداً أنّكم تدينون للملك وحده بذلك... ولن يتمّ ذلك إلا بإرادته. عليكم إذاً أن تدركوا ذلك وتفوا بوعدكم بألاّ تتحدّثوا إلى الصحافة عن هذه المسألة.

طلب منّا كيجمان أن نكتب إلى الحسن الثاني لنشكره ونؤكّد له صمتنا؛ وهو ما قمنا به. في الرسالة التي وجهّناها للملك، أوضحنا:

- نتعهّد بألاّ ندلي بأيّ تصريحٍ علنيٍّ قد يضرّ بمصالح بلدنا ويسيء إلى صورة وطنٍ وملكٍ هما وطننا وملكنا.

بعد مغادرة كيجمان، اكتفينا بالعيش على أمل «التسوية» التي سيجريها مع الحسن الثاني. تلت ذلك زيارة مجموعة من الأطباء يرافقها ويراقبها بصرامة مفوّضا شرطة ومفتّشان ممرضان. أرادت الرباط على ما يبدو أن تجعلنا أكثر لياقةً في حال عودتنا إلى المجتمع. ولكن ليس وارداً نقلنا إلى مستشفى. ينبغي أن تتمّ كل العنايات الطبية في مكان إقامتنا. في غياب الحرية، اكتفينا بإعادة اكتشاف الحياة والعالم من خلال الشاشة الصغيرة. كما انكببنا على الكتب. وبعد تمشيط مكتبات مراكش، طلب الوالي المساعدة من العبوش لإشباع نهمنا للمطالعة. وضع مدير DST تحت تصرّفه مفوّضاً من الرباط مكلّفاً بتزويدنا بالكتب.

من جهة أخرى، لم يكن لنا الحقّ سوى في الصحف الحكومية أو مجلات الأزياء والرياضة. كانت المقالات الوحيدة من الصحافة الفرنسية التي حرصوا على إيصالها إلينا كانت تلك التي تهاجم أوفقير أو التي، في معرض التذكير الوجيز بحالتنا، تنشر باستفاضة «محنة» ملكنا الطيّب،

الذي غدر به «وزيره الشرير».

ما صدمني، ومع ذلك لا يستحقّ حتى ابتسامة متقزّزة، هو التأكّد من أنّ الصحافة، في كلّ مرّة تذكر حالتنا باستحياء، اتّخذت لنفسها وظيفة تصوير أوفقير على أنّه رمز القمع. مع ذلك لم يُظهر هؤلاء الصحافيون «النبهاء والشجعان» أنفسهم، الذين لم يتوانوا عن التهجّم دون أدلّة على رجلٍ ميّت وغير قادرٍ على الدفاع عن نفسه، لم يُظهروا القريحة نفسها والخيال نفسه لفضح عملية إخفاء وتعذيب زوجته وأولاده طوال خمس عشرة سنة. كلّ الطاقة التي بذلوها في سبيل خلق أسطورة سوداء عن أوفقير خانتهم فجأة لفضح الحسن الثاني...

ومهما يكن، ما أريد أن أفضحه هنا، ليس هذه الثابتة الإنسانية في مداهنة المنتصرين وازدراء المهزومين، وإنّما الخلط الذي لا يُطاق بين مأساتنا محض الإنسانية والشخصية السياسية لوالدنا. على الذين كانوا سبباً في تلك المناورة أو شاركوا فيها بشكلٍ غير مباشر أن يشعروا بالخجل إذا ما وقفوا أمام مرآة.

نحن الذين كنّا نعتمد على فرنسا، على حكومة فرانسوا ميتران الاشتراكية، استغربنا حقّاً. ولكنّ الموقف الوضيع لبريطانيا العظمى مع طيّاري 16 آب (أغسطس)، وردّ الفعل البشع لسفارة السويد حيالنا، كانا قد أعطيا شعوراً مسبقاً بوقاحة الدول... وكما أفصحتُ عن ذلك فيما تقدّم، لا تتعرقل العلاقات السياسية والاقتصادية بين الدول أبداً بالحالة الإنسانية، ولكنني أعترف أنّ تملّص فرنسا كان له وقعٌ خاصّ علينا، أكثر مرارة من سواه. لأنّ تخلّي من تشعر بأنّك قريبٌ منهم يؤثّر عليك أكثر من لامبالاة الآخرين. كانت شجاعة المفكّرين الأدعياء في الدفاع عن الأبرياء والحقّ الثابت تتوقّف حيث تبدأ هالة المباذخ الملكية...

بعد ثلاثة أشهر ونصف من «إقامتنا» في ترغة، سُمِحَ لنا أخيراً باستقبال جدّنا. ظلّ العبوش وحاشيته مواظبين على زياراتهم كما على أكاذيبهم. أوضح لنا مدير DST:

- إذا كنّا قد تأخّرنا في إحضار جدّكم، فلأننا أردنا أن نجنّبه صدمة رؤيتكم في الحالة التي وجدناكم عليها.

في 14 تشرين الأوّل (أكتوبر) 1987، رافق وفدٌ ضخمٌ من وزارة الداخلية العقيد شنّا إلى ترغة. خلّد فريقٌ تقني من خمسة عناصر من DST، منهم مصوّران، اللقاء. لأنّه، إذا دعت الحاجة، سيكون بوسع وزارة الداخلية أن تبرهن إلى أيّة درجة رفيعة من الاهتمام يُعامَل «ضيوف جلالته». مَن بوسعه أن يحظى بهكذا حضور لمسؤولين من أجل ذرف دمعة على لقاءاته العصيبة! حتى أنّه تمّ جلب سيارة إسعاف وطبيب تحسّباً لحالة قد تكون الانفعالات فيها قويّة للغاية. ولكن ليس هناك شخص يحتاج لإعادة الوعي إليه وسط هذا الوفد الأسطوري. أمّا بالنسبة لجدّنا ولنا، مهما عظُم ألمنا وتأثّرنا، فقد حرصنا تماماً على ألا نظهر ذلك أمام شخصيات لا شكّ أنّ المسألة لا تعنيهم كثيراً.

بعد ذلك ببضعة أيام، أُخبرنا بأن مغادرتنا إلى كندا يُتوقَّع أن تكون في 27 تشرين الأوّل (أكتوبر) 1987. في 25 منه، استدعت السلطات المغربية السيّد كيجمان إلى الرباط ليتمكّن من حضور مغادرتنا للمطار. في اليوم ذاته، في الساعة الحادية عشرة ليلاً، اقتيد المحامي إلى منزل وزير الداخلية، البصري، الذي طلب منه أن يعود إلى مرّاكش ليتأكّد للمرّة الأخيرة من صمتنا. أعلنت برقية عاجلة من AFP أنّ وزارة الخارجية الكندية أكّدت قدومنا خلال الأيام المقبلة. في 27 تشرين الأوّل (أكتوبر)، في الصباح، بينما حُزِمَت أمتعتنا ونحن بانتظار المغادرة، جاء العبوش وكذّابوه من المخابرات ليبلغونا بأنّ هجرتنا إلى كندا قد أُرجأتْ لأسبوع لكي يستقبلنا الملك. اعتصرنا الإحباط، مدركين أنّ هذا التأجيل هو حيلة إضافية لإبقائنا في متناول القبضة وأنّ الملك لن يستقبلنا.

مرّ ما يقارب ثلاثة أشهر، ونحن لا نزال محتجزين. صرّح كيجمان

في صحيفة لوموند بتاريخ 16 كانون الثاني (يناير) 1988: «ما زلتُ شخصياً على قناعة بأنّ الملك لن يتراجع عن التزاماته. يُدهشني أن تكون حاشيته على ما يكفي من السلطة لتحول دون التنفيذ.»

ولم يُسمَح لمحامينا، إلاّ في شهر آذار (مارس)، بأن يقوم بزيارة أخرى لنا. هذه المرّة، حضر العبوش وبوعبيد الحديث. قال لنا كيجمان، مهدداً إياهما، صارخاً:

- إنّهما والبصري هم مَنْ يمنعون مغادرتكم! إنّهم هم مَنْ يثيرون الملك ويُظهرونكم كخطرٍ على البلاد! ولكنني سأجرّهم للعدالة!

عاد كيجمان إلى باريس بينما بقينا وحيدين أكثر من أيّ وقتٍ مضى أمام يأسنا. ولكن لا نحن ولا الموظّفون الحاضرون انخدعنا بذلك. لم تكن تلك الصرخة إلاّ لمجرد لفت الأنظار. كانت ستكون لتلك الصرخة وتلك التهديدات قيمة ومعنى فيما لو وجّهَت للملك، في حين أنّه استخدم في «الدفاع» عنّا عبارات مثل: «لا يمكن لاعتقال أطفالٍ بهذا الصغر أن يستجيب لروح العدالة والإنسانية التي لطالما أبديتها.»، أو: «ألتمس من جلالتكم إجراءً رحيماً حيال أولاد الجنرال أوفقير، إجراء يحقّ لكم وحدكم تحديد مداه».

مرّت الشهور، متزايدة المشقّة. تراجع اهتمام وسائل الإعلام، وفشلت إستراتيجية محامينا وأصبحنا أكثر من أيّ وقتٍ مضى في خطرٍ داهم.

رغم بعض الراحة المادية، لم يستطع أيّ شيء أن ينسينا اغتصاب حقوقنا وحرماننا من حريّتنا. استمرّ عزلنا. حتى المدرّس الذي لم نكفّ عن المطالبة به من أجل أخي الصغير منِع عنّا. وقد ظلّ الغطاء الرصاصي الذي قطعنا عن العالم محكماً. فلجأنا إلى الدراسة العصامية وإلى المطالعة. انكببتُ على دراسة السنة الأولى من الحقوق بنشاط. بات استهلاكنا من النتاجات المختلفة الأجناس جنونياً. وحدها الكتب كانت سندنا الحقيقي الوحيد، وحدها حالت دون سقوطنا...

بينما كنّا في مرّاكش منذ سنتين خلتا، عقد كيجمان في باريس مؤتمراً صحفياً، بتاريخ 28 نيسان (أبريل) 1989، في مقرّ جمعية دانييل ميتران، فرنسا الحريات. ونشر كتاباً أبيض عنوانه: أولاد أوفقير، امرأة على وشك الموت... وإلاّ كيف يمكن، على مسافة ثلاث ساعات من باريس، أن يُعتَقَل تسعة أشخاص تعسّفياً لقاء جريمة والدهم وزوجها. قدّمنا كيجمان على أنّنا «الستائر الحديدية للملكية الشريفية» ولكنّ المحامي لم يتحوّل عن لغته المزدوجة. ومع أنّه اختار الضغط من خلال الرأي العام، بقي مجاملاً مع الحسن الثاني، الأمر الذي جرحنا. هكذا كتب: «لو أنّ الملك قد مات، بوسعنا أن نتصوّر أنّ مصير عائلته ما كان ليُحسَدُ عليه. مَنْ يمكنه أفضل من الملك الصفح عمّن كاد أن يكون ضحيّته والعفو عن الذين لم يكونوا، في الحقيقة، مسؤولين عن ذلك؟» هذه حملة سطحيّة أودُّ الردّ عليها. إذا كان من شيم أوفقير أن يهاجم الأولاد، لما كان سيترك بالتأكيد أطفاله بين يدي الملك، ولكان قد نجّانا الخطر. في كلّ الأحوال، مع كلّ ما أمكن تحميله لأوفقير، لم يُسجن أبداً خلال حياته طفلٌ في الثالثة من عمره لنحو عشرين سنة. ربّما سيأتي يومٌ سيُكتَب فيه تاريخ المغرب أخيراً. آمل أن يتم ذلك بانحيازٍ أقلّ مما شهد به كلّ الذين وجدوا أنّه من الأسهل تحميل أوفقير كلّ آثام الدنيا، ما داموا لا يتجرأون على اتّهام الحسن الثاني. تلك الطاقة التي امتلكوها في شتم أوفقير، والتي لم يُظهروها في إنقاذ أولاده! أودّ أن أقول لرجال اليمين كما اليسار، للذين انتسبوا للجنرال ديغول أو لمنديس-فرانس، إنني أشكّ بقوّة في أنّ هذين الرجلين العظيمين كانا ليتصرّفا بهذه الطريقة أمام حالةٍ من الظلم الصارخ كحالتنا. كانا سيُجيدان إيجاد التوفيق بين الضرورة السياسية وواجبهما كإنسانين...

لمساندة الكتاب الأبيض لكيجمان، بدأنا إضراباً عن الطعام، لم تتناوله عملياً وسائل الإعلام. فأُصِبنا بالإحباط وأنهيناه. ولم يستغرق

صيامنا «سوى» اثني عشر يوماً. ومع ذلك سُمِح لجدّي وخالي وحيد وخالاتي بالمجيء لزيارتنا.

في عام 1989، أعاد لنا سقوط جدار برلين ونهاية توازن الرعب بعض الأمل، معتقدين بأنّ هذا النظام العالمي الجديد سيجعل الحسن الثاني أقلّ ضرورةً في نظر الغرب. ولكننا خدعنا أنفسنا. وسرعان ما حلّ خطر التطرّف الديني بالنسبة للعالم الحرّ محلّ الغول السوفيتي وحلفائه في معاهدة وارسو. وسيجعل الإسلام المتشدّد الغرب يرى في شخص الملك المطلق شرّاً أقلّ. وعرف الحسن الثاني، كسياسي محنّك واستراتيجيٍّ مجرّب، أن يستفيد من هذا التحوّل الدولي الجديد. من جهة أخرى، حينما اندلعت، في عام 1990، اضطرابات في فاس وطنجة، قمعها الملك وسط الدماء. لقد أودت، حسب صحافيّ من صحيفة ليبيراسيون، بمئتي قتيل، وأبدت الحكومات الغربية مرّة أخرى تساهلاً حيال الحسن الثاني.

انتظرنا ولم يتغيّر أيّ شيء بالنسبة لنا. تراكمت الشهور والسنوات بلا نهاية. ماذا نقول عن هذه الإقامة الطويلة في ضواحي مراكش، إن لم تكن مظلّةً لآخر آمالنا، وخيباتنا النهائية ومكبّرة مسلّطة على الطبيعة المتقلّبة للبشر. على كلّ حال، مرّت أربعة أعوام، منذ مغادرتنا «الصحيحة-الزائفة» إلى كندا والتي كانت متوقّعة في أكتوبر 1987. مَنْ الذين سيأتون للانضمام إلى السنوات الخمس عشرة المرعبة التي انتهت إلى هروبنا.

في شباط (فبراير) 1991، جاء العبوش وعثمان بوعبيد وبلماحي ووالي مراكش ليخبرونا بقرار الملك الإفراج عنّا. في الواقع استغلّ الحسن الثاني حرب الخليج التي لفتت كلّ الأنظار إليها لكي يعيد إلينا حرية تحت الرقابة المشدّدة. بعد تسع عشرة سنة من الاحتجاز، بدأت مرحلة أخرى، معركةٌ أخرى. كان علينا أن نواجه كلّ يوم صدمة هذه العودة إلى الحياة وظلّ السلطة على حياتنا.

ومع ذلكَ كان من الممنوع علينا مغادرة المغرب. حُرِمنا من جوازات السفر. كما أُغلِقَت في وجهنا الجامعات والمدارس. مهما فعلنا، وأين ذهبنا كان يرافقنا ما يقارب دزينة من رجال السلطة وDST. وزعموا أنّ ذلك لخدمتنا كمرافقين. استعدنا الحرية ولكن دون التصرّف بها تماماً؛ فقد كانت معطّلة ومراقَبة ومتجسَّساً عليها. بعد تسع عشرة سنة من كابوسٍ فظيع، بقينا ملاحقين من قبل أجهزة الأمن. خلال كلّ مدّة اختفائنا، لم تدافع عنّا أيّة منظمة لحقوق الإنسان، لا مغربية ولا أجنبية؛ ولا حتى زوجة أبراهام السرفاتي التي ناصرت عسكريي تاماتاغت. في الحقيقة كنّا أسوأ ما يكون من ضحايا: أراد القصر القضاء علينا واعتبرنا معارضوه أتباعاً لبيت الملك!

خلال الأشهر الثلاثة الأولى من حريّتنا المراقَبة، استقبلنا الجميع وأظهروا لنا تعاطفهم. حتى أفراد العائلة الملكية. وأظهرت للاّ مينا، أصغر شقيقات الحسن الثاني، التي ترعرعت مليكة معها، ميلاً خاصّاً جدّاً نحونا. وأظهر لي ابن مولاي عبد الله، الأمير مولاي هشام، ردّ فعلٍ لائقاً بالمشاعر البنويّة التي كنتُ أكنّها لوالده المرحوم. كما التقى بنا ولي العهد سيدي محمد (الملك الحالي محمد السادس). ولكن بخلاف للاّ مينا ومولاي هشام، لم يقم بذلك في منزله، مفضّلاً التحدّث معنا في مربّع الشخصيات المتميّزة في نادٍ ليلي في العاصمة. وهو الآخر بدا ودّياً وعبّر لنا عن تضامنه. وواظب مدير DST ومدير مكتب البصري على زيارتنا لمراقبتنا على نحوٍ أفضل. ثمّ انغلقت الأبواب ذات يوم دون سابق إنذار. حتى للاّ مينا، التي كنّا مليكة وأنا نعتبرها بمثابة أختنا، غرقت في الصمت. جاءت الأوامر من الملك. كلّ تلك الأذرع التي كانت مفتوحة، في بداية إطلاق سراحنا، لم يكن لها من هدف سوى لإقناعنا بأنّ الصفحة قد طُويت نهائياً. أرادت مؤسسة المَخزِن، لكي تبقينا في المغرب، أن تقنعنا بردّ اعتبار كامل وحقيقي. لحسن الحظ أنّ أصدقاءَنا الحقيقيين ظلّوا أوفياء لنا. لم نتذمّر من أيِّ تخلٍّ من بين أصدقاء طفولتنا: فقد كان رضا

مكناسي وفريد ميمون وفيليب باتريك وجاني بارير، الذين كنتُ أشكّل جماعة معهم في المدرسة الثانوية، على مستوى آمالي.

كان البعض من أخلص أصدقائنا ينتمون إلى مجتمع السلطة ولكنّهم ظلّوا مثاليين في علاقتهم بنا. كانت تلك حال عائلة الزعيم البربري المحجوبي أحرضان ولاسيما ابنه أوزين. أودّ أن أقول لهذا الأخير، الذي هو بمثابة أخٍ لي، كم أنا فخورٌ ومتأثّرٌ بصداقته المعصومة هو وزوجته نزهة الغرباوي، ابنة الجنرال الذي قُتِلَ في الصخيرات. ظلّ أولاد المستشارين الأساسيين للحسن الثاني أصدقاء أوفياء تربطنا بهم محبّةٌ عميقة. وكانت تلك حال كريم السنوسي، ونوال، ابنة إدريس السلاوي، وجوديت، ابنة أندريه أزولاي[1].

من بين العائلة الملكية، وحده الأمير مولاي هشام ظلّ يبدي علناً ودون قيد أو شرط مساندته لنا.

من شباط (فبراير) 1991 وحتى تموز (يوليو) 1996 عشنا في المغرب تحت الحراسة المشدّدة، مراقَبين باستمرار، محرومين من حقوقنا ودون موارد. كنّا منبوذين من قبل السلطة التي فعلت كلّ شيء لمواصلة تخريب حياتنا. ورغمّ كلّ شيء، وجدنا مصادر لنصمد ونقاوم. كان سلاحنا هو ماضينا، وإيماننا بالمستقبل ولكن أيضاً مساندة أصدقائنا. كما أُتيحَت لنا فرصة إقامة علاقات إنسانية متميّزة. وهكذا التقينا، أختي سُكَينة وأنا، ذات يوم، المغنّي جان-جاك غولدمان وموسيقييه الذين كانوا في جولة في المغرب. ورافقناهم، على مدى أيام، من مدينة إلى أخرى. وللمرّة الأولى، استطعتُ، بفضلهم، أن أنسى زنزانتي. وإذا كانت أحاديثي مع هذا الإنسان الاستثنائي قد أثرتني، فقد حظيتُ أيضاً بمتعة التعرّف، من

(1) المستشار المغربي اليهودي الوحيد للحسن الثاني. وهو اليوم أحد المستشارين الرئيسيين لمحمد السادس.

خلال كريم السنوسي، على كارلوس سانتانا. وفي مرّة أخرى، عقدتُ روابط مع كلود زيدي وزوجته ماري-دو، وقد رحّبا بي على الدوام وعاملاني معاملة أخوية. وغيرهم الكثير ممن لا يسعني ذكرهم هنا ولكنني أشكرهم بحرارة.

ذات يوم، التقيتُ صدفةً ميشيل روكار في فندقٍ في الدار البيضاء. ورغم الأمن المغربي المحاط به، نجحتُ في نقل رسالةٍ إليه. وتلطّف رئيس الوزراء الفرنسي بالردّ عليها مباشرةً. فبينما كان يتناول فطوره في البهو، نهض وغادر طاولته، ناشراً الذعر بين رجال الأمن المدنيين المحيطين به، وأقبل نحوي. تصافحنا. وحرصاً على ألاّ أهدر وقته، سارعتُ إلى تقديم موجزٍ عن وضعنا له. ما إن أنهيتُ عرض حريّتنا المقيّدة والمشروطة في المغرب، أجابني ميشيل روكار:

- أُعلمك بكلّ صراحة، بأنني عاجزٌ عن فعل شيء بخصوص حقوق الإنسان في المغرب.

عبرّتُ له عن غاية امتناني لصدقه وشجاعته في التحدّث إليّ علناً، وسألته:

- هل بوسعكم على الأقلّ نقل رسالةٍ إلى الملك إن قابلتموه؟ ذكّروه، إن دعت الحاجة، بالظلم الواقع علينا...

وعدني ميشيل روكار وافترقنا.

ومرّة أخرى، تخلّصنا من ذلك العنف بعملية هروب. إذ نجحت أختي ماريا، بمساعدة أصدقاء فرنسيين، في الفرار والوصول إلى فرنسا، مروراً بأسبانيا. وأخيراً سُلِّمَت إلينا جوازات سفر. هبطنا في باريس في 13 تموز (يوليو) 1996 حيث انتظرنا صحافيون. ما إن مرّ الحدث، طوانا النسيان من جديد، وهذا أمرٌ طبيعي.

وعوض وضع لاجئين سياسيين، حظينا بمجرد بطاقة الإقامة. وبالتالي، لن تقدّم الحكومة الفرنسية لنا أدنى مساعدة- ولا حتى العناية

الطبية ولا سكناً مؤقّتاً. مرّة أخرى، لن يكون بوسعنا الاعتماد سوى على أصدقائنا الحقيقيين. وعليّ هنا أن أعبّر لهم عن كلّ امتناني. بالنسبة للسيّد كيجمان، ما إن وطأت أقدامنا باريس، دعانا إلى الغداء في بيته ذي الطراز الأمريكي اللاتيني، وأخبرنا بصراحة بأنّ ليس بوسعه أن يفعل أيّ شيء لنا في هذا الموضوع. حينما سأله أخي الصغير إن كان بوسعنا، لكوننا أولاد ضابط رفيع سابق في الجيش الفرنسي، أن نحظى بالعناية الطبية في مستشفى ڤال دو غراس العسكري، ردّ عليه:

– لا تفكّروا في ذلك، كان والدكم قد أُدين غيابياً بالسجن المؤبّد في فرنسا!

السيّد برنار دارتڤيل هو، وحده، من ظلّ يهتمّ بأمرنا، دون أن يتمكّن قط من تحصيل أيّ شيء لنا.

مع ذلك، لم نقطع الجسور مع المغرب. فيما يخصّني، لطالما سكنتُ فيه. أقمتُ فيه أكثر مما في فرنسا. هذا مبدأ، إنّه بلدي. أحبّه بشغف، وسينبغي قتلي لكي يُمنَع عليّ أو أُحرَم منه. علاوة على ذلك، لديّ شغفٌ وحماسٌ إلى جانب أوزين أحرضان للدفاع عن الثقافة الأمازيغية. وهكذا حظيتُ بالمشاركة في المؤتمر البربري العالمي الأوّل الذي عُقِدَ في جزر الكناري. بفضل أوزين، تمكّنتُ من وقتٍ لآخر الاشتراك في بعض المنشورات؛ وقد أتاح لي ذلك تجاوز أشهر صعبة.

ولأنّه ستكون هناك حاجة إلى مئات الصفحات لسرد تفاصيل تلك المرحلة الأخرى من حياتنا، أودّ أن أختم هذا الكتاب متحدّثاً عن الحاضر. لم تتوقّف المعركة قط. بطريقةٍ أو بأخرى، أبقت مؤسسة المخْزن باستمرار الضغط علينا. ولأنّ المال عصب الحرب، عملت باستمرار بحيث نكون في ضائقة. كنّا بحاجة على الأقلّ إلى الكثير من الطاقة والإرادة لكي نصمد في حالة الألفة التي أظهرناها لكي ننجو من

محنتنا. تبيّن لي أنّه يكاد أن يكون هناك من الأهلية للمقاومة وسط تناقضات العيش في ألفة بمقدار ما تلزم لتحمّل وحشة العزلة. فيما يخصّني، أدركتُ أنّه في المصاعب اليومية، كما في محن الاعتقال والإبعاد، لا بدّ من الإيمان بشيءٍ ما ولاسيما الثقة بالذات. لقد حظيتُ بأصدقاء أوفياء منحوا لهذه الكلمة قدراً من الحُرمة التي نسبتها لها. حينما تبقى بعض المنارات واقفة، يمكن للمرء أن يتجاوز أيّة عاصفة كانت. لأنّه من المهمّ جدّاً الإيمان، دائماً وأبداً، بالأشياء الجميلة. سواءٌ في المغرب، أو في فرنسا، لم أُصَب قط بخيبة أمل من صداقات طفولتي، ولا من الصداقات التي أقمتها أثناء حريّتي.

طوال فترة سجننا، استمددتُ قوّتي من حبّ أهلي ومن نموذج معتقلين سابقين نجوا بأعجوبة من معسكرات الإبادة النازية. وكما كتبتُ سابقاً، فإني لن أتجرأ، أبداً، قط على المقارنة، فأنا أكنّ احتراماً فائقاً لذاكرة هذا القدر من الأبرياء ضحايا البربرية... كانت شهادات بعض الناجين مثالاً بالنسبة لعائلتي ولي. لم نكن نكفّ عن الترداد في أنفسنا: «ما دام هؤلاء الرجال والنساء يجدون الشجاعة والقوّة للنجاة من هذه الفظاعة، فعلينا أن نستخلص من ذلك نموذجاً منقذاً». لم أكفّ قط عن التفكير في ألفريد نقّاش الذي أكنّ له الكثير من التقدير والإعجاب. هذا الرجل الاستثنائي كان أحد أعظم أبطال السباحة في مرحلة ما قبل الحرب. اعتُقِل في معسكرات الموت مع عائلته؛ وقد فقد فيها زوجته وأهله. لا وحشية جلاّديه ولا الحقد الذي يُفترَض أنّه يكنّه لهم نالا من روحه القويّة والرائعة. بعد الحرب العالمية الثانية، خرج من المعسكرات النازية، وهو لم يعد يزن إلاّ بضع عشراتٍ من الكيلوغرامات، وقد فقد أعزّ أعزّائه، وعزم على مواصلة المقاومة. عاد إلى التدريب وأصبح بطلاً كسابق عهده قبل الحرب. ذات يوم، في بيته بجنوب فرنسا، مصحوباً بصديقين أو ثلاثة، صادف سائحاً ألمانياً وعائلته. وكان هذا الأخير قد

انقطع من البنزين. توجّه إلى نقّاش لطلب المساعدة. وبينما شعر أصدقاؤه بالضيق من الألماني، ساعده هو بذهابه للبحث عن صفيحة محروقات. شكره السائح بحرارة وسأله مَنْ يكون. رفع نقّاش بكل بساطة كمّ قميصه وأظهر له ساعده الذي نُقِش على لحمه رقم تسجيله في المعسكر... خفض الألمانيّ رأسه، مرتبكاً، خجلاً، تلعثم في شكره وانصرف.

نموذج ألفريد نقّاش مؤثّرٌ في إصراره على مواصلة المقاومة كما في رفضه للانتقام والحقد. مرّة أخرى، لا أدّعي مقارنة نفسي به، ولكنني أجد نفسي تماماً في هذا الهوس بالمقاومة وفي رفضه لشعورٍ دنيءٍ إلى هذا الحدّ. لأنّ الحقد يتآكلك قبل أن ينال من أعدائك؛ وبقدر ما هو أهوجٌ ودنيءٌ وشريرٌ، بقدر ما يريحك التسامح ويعزّز من مكانتك ويعظّم من قدرك.

حينما مات الحسن الثاني في تموز (يوليو) 1999، الغريب أنني لم أشعر بأيّ فرحٍ. بل إننا، أمّي ومليكة وأنا، أحسسنا بكآبةٍ شديدة. وبدل أن نفرح بموت مَنْ سرق منّا حيواتنا، شعرنا بفقدان بضعةٍ منّا، ورأينا جانباً من حياتنا يختفي مع الحسن الثاني. بموته، لم نشأ تماماً أن نتذكّر سوى ما كنّا قد تقاسمناه معه في السرّاء والضرّاء.

في كتاب أحاديثه مع إيريك لوران، يجيب الحسن الثاني الصحافي الذي يسأله عن رأيه بأوفقير:

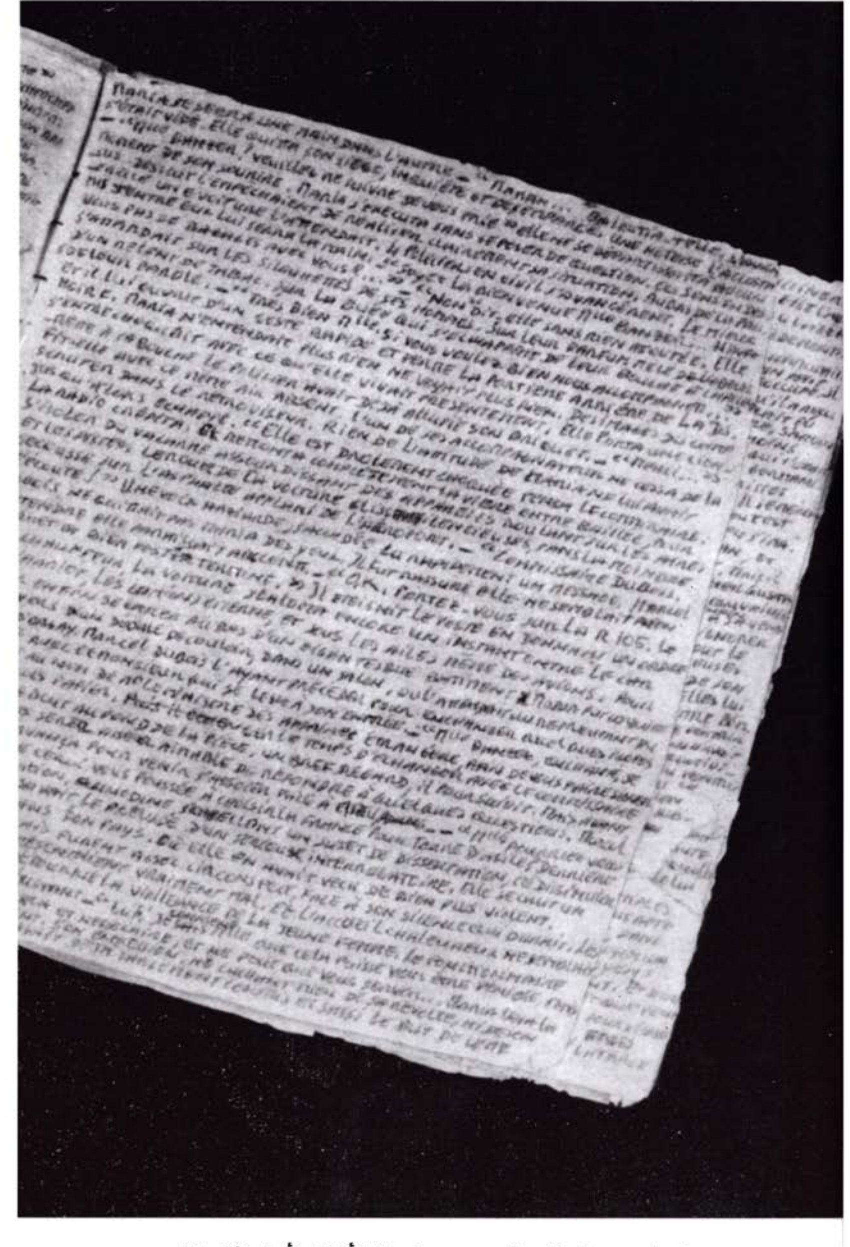
- كلاّ لا أستطيع... سأكون متحيّزاً جدّاً، لن أصف منه سوى قشرة.

لن أُظهر نفسي بحكمة وحذر الملك المرحوم. ستكون هناك حاجة إلى عملٍ كامل لوصف الطابع المعقّد والتناقضات العنيفة لهذه الشخصية غير العادية التي كانت شخصية الحسن الثاني. لا شكّ أنّ التاريخ سيعتبره ملكاً عظيماً، مع كل ما ينطوي عليه ذلك من هول... وسيضع في رصيده وحدة المملكة التي أحسن توحيدها وإن بالقوة؛ والتسامح الذي

أجاد فرضه بين الطوائف الدينية، وسياسته الخارجية البارعة. ولكنّ التاريخ سيجازيه على أنانيته، وعلى إثرائه مع فئةٍ قليلة مهملاً رفاهية شعبه. لا جدوى من الموازنة: في عام 1998، قبل عام من موت الحسن الثاني، رتّب تقريرٌ للأمم المتحدة البلدان حسب بياناتها في التنمية البشرية «التربية، الصحة، التعليم العالي»، بلغ المغرب المرتبة 125 بعيداً خلف الجزائر وتونس ومصر وسوريا! حينما نعرف المزايا الذهنية والموهبة السياسية للحسن الثاني، لا يمكننا إلاّ أن نتأسّف لأنّه لم يضعها في خدمة المواطن المغربي، بدل أن يكرّسها لسلطته الشخصية وجنون عظمته.

باختصار، اعتقدنا بسذاجة أنّ الصفحة ستُطوى نهائياً بعد موت الحسن الثاني؛ وأنّنا سنستعيد كامل حقوقنا في بلدنا؛ ولكن هيهات! ها قد مرّ أكثر من ثلاثة أعوام على موت الملك. قبل وفاته، كان قد شكّل مجلساً لحقوق الإنسان، لكي يتمكّن ضحايا الدولة من الحصول على تعويضات. وقد واصل ابنه، الملك محمد السادس، السير في هذا الطريق. وهكذا تمّ تعويض العسكريين الناجين من سجن الأشغال الشاقة مالياً. في الوقت الذي أفرغ من هذا الكتاب، ما زلنا عائلتي وأنا ننتظر أن نُعوَّض. ولم نتلقّ بعد سنتيماً واحداً. هناك ما يستدعي التساؤل لماذا يواصلون جعلنا ننتظر عبثاً لمنحنا ما يعيد لنا كامل حقّنا. في بداية عهده، أيقظ فينا محمد السادس قدراً من الآمال بحيث اعتقدنا بأنّ التسوية النهائية لوضعنا ستكون أخيراً ممكنة.

كان الناطق باسم القصر، حسن أوريد، يدّعي صداقتي، قبل أن يُعيّن في هذا المنصب. وعبره وبفضل أوزين أحرضان تمّ الاتصال بين الملك وبيني قبل وفاة والده. كتبتُ رسالةً إلى محمد السادس لأقدّم له تعازيّ، وأؤكّد له دعمي وتعاطفي معه في المهمّة الكبيرة الملقاة على كاهله. عبّرتُ في هذه الرسالة عن الأمل الذي كان يحدوني، بتبوّئه للعرش، برؤية عائلتي وقد استعادت أخيراً حقوقها الكاملة، وبأنّ نكفّ عن كوننا منبوذين في بلدنا. في معرض ردّه، وبصوت حسن أوريد، أكّد



نموذج من الدفاتر التي صنعتها عائلة أوفقير أثناء الاعتقال.
وعلى مثله كتب رؤوف مئات القصائد والحكايات.
وهذه هي الوحيدة التي نجت، فيما الأشياء الأخرى أتلفت

لي محمد السادس تفهّمه وتعاطفه. وعدني الملك بمقابلةٍ معه. في يوم الموعد وقبل نصف ساعة من تنفيذه، أُلغي فجأةً. وقد علمتُ فيما بعد أنّ «الاستخبارات» كانت قد أعدّت ملفّاً مختلقاً لمنع ذلك التقارب. هل ربحوا تلك المراهنة؟ على كلّ حال النتيجة حاضرة. إذ لم يتغيّر شيء بالنسبة لعائلتي ولي...

أثناء تحرير هذا الكتاب، علمتُ بوفاة المسكينة حليمة. بعد كلّ هذه السنوات من السجن، ماتت بالسرطان. لم تُعوَّض قط ولم تتكفّل الدولة حتى بنفقات علاجها. وهنا أيضاً، أصدقاؤنا هم من ساعدونا. أشكر عميق الشكر البروفيسور سوادكا، في الرباط، على إجرائه للعملية ومتابعة حالة المسكينة حليمة مجّاناً. كما أنّ جدّي قد توفي مؤخراً ويؤسفني أنّه لم يتمكّن من قراءة هذا الكتاب. هذا هو الظلم الذي يستمرّ في الإحاقة بنا. ولكنّ الطريق يتواصل ولم تنتهِ المعركة بعد.

مع ذلك أريد أن أختم بالتأكيد على أنّ هذه السنوات التسع عشرة من السجن، منها عشر سنوات من العزلة المنفردة، كانت بالنسبة لي تجربة قويّة، وخاصّة؛ هي الخميرة الأساسية لولادتي الحقيقية، لنضجي الحقيقي؛ هي التي أتاحت لي الوجود...

هل يمكن للمرء أن يتحسّر على قدره؟ كما يُقال في بلدنا: «كل ما لا يقتلك يجعلك أكثر قوّة».

من جهتي، كنتُ لأخشى، دون شكّ، من ابتذال مصيرٍ عاديٍّ.

في الحقيقة، أنا فخورٌ بكوني مَنْ أنا الآن، وبامتلاكي للحياة التي هي حياتي الآن. بتحمّل شدائد قدري بنقاء البراءة، وبالنجاة منها بشرف دون أن أتنكّر لذاتي. بقضاء ماضٍ قاسٍ جدّاً مع سلام الروح والضمير المرتاح. وباستمداد القوّة والإيمان والصفاء من هذه التجربة الاستثنائية. بالطبع، لا يمكن لأيّ شخص أن يتمنى بوعي أن يجد نفسه وقد اغتُصِبَت أجمل عشرين سنة من حياته، سنوات الشباب، في ظروفٍ فظيعة لهذه الدرجة، ولكن في نهاية امتحانٍ كهذا وإذا ما خرج المرء منه حيّاً، نادراً

ما لا يتّعظ من التجربة الرائعة، من الدروس الكبيرة والبنّاءة المستقاة منها، للحياة اليومية، من هذه «الجامعة» التي لا مثيل لها. ليكون «من جانبِ ساحة ومن جانبٍ حديقة»، إذا ما تجرأتُ على قول ذلك، لم يكن إحساسي بالعالم إلا أكثر ثراءً وأكثر شحذاً، وفهمي لبلدي أكثر غناً وسعةً.

أنا واثقٌ بأنّ مستقبله لا يمكن أن يزدهر إلاّ من خلال بُعد النظر ونضج الأفكار وصدق المناهج والآراء، بعيداً عن أثقال الماضي، في مستقبلٍ مجرّدٍ من كلّ دناءة، من كلّ حقد، من كلّ عقلية محبّة للانتقام. لأنّ ليس لأيّ كان الحقّ في أن يُثقل مستقبل ثلاثين مليون مغربية ومغربي بماضٍ شخصيّ، مهما بلغت مأساويته؛ سيكون ذلك فاحشاً. مهما حصلَ، أكنّ لوطني حبّاً عميقاً ومتّقداً! وأدعو كل مَنْ سيكون بوسعهم فعل ذلك، ذات يوم، أن يزوروا هذا البلد الرائع ويلتقوا بأهله الجذّابين جداً. وأناشد كلّ مَن يسعهم المساعدة في ازدهاره أن يفعلوا ذلك لأنّ المغرب يستحقّ ذلك.

إذا كانت آلام اللواتي والذين دفعوا ثمن الصفحات السوداء لتاريخنا تستطيع المساهمة في تحرّر المغرب واستقراره وسعادة شعبه، فهي لن تكون عبثية إذاً. لأنّ هذه الآلام لن تجد نفسها وقد عوّضَت تماماً إلاّ في تحقيق مغربٍ مزدهرٍ، عادلٍ للجميع، وحديثٍ وديمقراطيٍّ فعلاً. الأمر الذي لن يتحقّق ما لم يتخلّ كلّ واحدٍ عن الأحكام المسبقة، وعن الخلائط الرجعية مع ماضٍ ليس نتاج جيلي، شريطة عدم الاستمرار في إدارة الحاضر بالأفكار الماضوية، وإنّما بمواجهة المستقبل بإنصافٍ وديمقراطية وتعبئة ضدّ التعصّب، بأيّ شكلٍ كان.

أخيراً، وقد بدأتُ هذا الكتاب بقصيدة، أودّ إنهاءه بهذه الأبيات الشعرية:

على متن الموجة الزائلة
أوليت طينة ذكرياتي

لِئلاّ أراها تطفو على وجهها من جديد
سوى الألم والحسرة.
إنّها الريح الوحيدة، التي وشوشت روحي الموسومة بالأسوأ:
«إنّ جهودي وكلّ أسئلتي،
مهما بلغت قسوة الماضي الذي يمزّقها،
تساوي اللحظة الراهنة التي أتنسّمها.»
رؤوف أوفقير، 30 كانون الثاني (يناير) 1993

شكراً لأصدقائي

أودّ أن أشكر تييري بيلار على الثقة التي أولاني إيّاها وعلى كامل حرية الكتابة التي تركها لي في تأليف هذا الكتاب ونشره.

كما أشكر ناتالي كوڤرور على الدعم المعنوي الذي منحتني إيّاه.

وأخيراً، أودّ أن أشكر، فرداً فرداً، أصدقائي الأعزاء، في المغرب كما في فرنسا: قيس وليلى عابد؛ الكسندر آدلر؛ أوزين أحرضان؛ نور الدين عيوش؛ عبلة علمي؛ جيرار امسالام؛ جوديت الصرّاف؛ جوداس آزولوس؛ جوديت آزولاي؛ محمد ولطيفة بهيج؛ صلاح بلفريج؛ عبد الحقّ بركات؛ فيليب وباتريك وكلود وجاني بارير؛ عائلة بلعباس؛ ماجد ومومو بلعالم؛ عبد الله بنحسين؛ شاول بنسيمون؛ نبيلة برادة؛ جان-لوك بيزار؛ ايغال بن-نون؛ ايريك وماريون وفرانسواز وبيير بوردروي؛ عبد الرحيم وتوفيق بوحميدي؛ ڤيرونيك بروكار؛ كليمانتين سيلاريه وأولادها وشقيقها لويك؛ بوتي وناديا شرايبي؛ لوسي كولينيه؛ زينب ونزهة شنّا؛ وحيد ومواكي شنّا؛ روجيه وآنا دهّان وكذلك ولداهما ايمانويل وبنيامين؛ كارولين دوبو؛ ماري-كارولين دوكاز؛ دانيل ديميرماناس؛ صوفي ومريم وعتيكة وميشا وسيلڤيا؛ جاك غايو؛ جميلة الغلاوي؛ سندس الكاسري؛ عادل فرجاني وأمّه وزوج أمّه روجيه؛ سيلڤي في؛ جان-مارك فلوران؛ برونو فريدمان؛ جاك غايو؛ نزهة غراوي؛ طوني غوميز؛ ميشيل غيوري؛ بيير-جان لابلاس؛ محمد وعالية مصمودي وكلّ عائلتهما؛ جان-جاك

مانديل؛ للاّ مينا؛ رضا مكناسي؛ عائلة النعيمي؛ سيمون-ميكائيل اوزانا؛ جان-مارك بانتيه؛ كونستان بانتيلياس؛ آن-ماري بيلغرين؛ عائلة الرحماني؛ أفرايم ريڤلين؛ فوزية وحبيب صحراوي؛ هشام وماجد سكارابي؛ موريس السرفاتي؛ أنطوان صفير؛ نوال السلاوي؛ كريم السنوسي؛ مينا طاهري؛ عائلة حبي طيّب؛ عدنان ونورما طلحوني؛ داڤيد وكلّ عائلة تورجمان؛ فاضل يوزال؛ صباح زيادي؛ كلود زيدي وزوجته ماري-دو . . .

وإذ لا يسع المكان، لسوء الحظ، لذكر المزيد منهم، أتمنى أنّ كلّ الذين سهوت عنهم سوف يعرفون أنفسهم وسوف يعذرونني.

أكرّر للجميع أعمق عواطفي.



رسالة من جان-جاك غولدمان[1]

رؤوف

وأنا بدوري أشكرك، أشكرك لحضورك أثناء هذه الجولة المغربية.

لم أكن أعرف «مَنْ» كُنتُم- الآن أعرف ذلك بعض الشيء: كائنات بشرية حسّاسة، فاضلة، بليغة، ودودة. جديرة بالصداقة، وهذا كلّ ما يهمّ.

كما علمت بعض الشيء، من خلال مقتطفات (ليس من خلالكم!) ما عانيتموه.

هذه ليست سوى كلمات، الواقع الحقيقي، أنتم وحدكم تعرفونه، إنّه يخصّكم.

ما أريد قوله ببساطة، هو أنّه من دون هذه الأحداث، كنتم ربّما ستشبهون أصدقاءكم، فتوّة سعيدة، سطحية، لا مبالية - لن تكونوا أبداً سطحيين ولامبالين... هل ينبغي التأسّف على ذلك؟ إنّها تجارب تفتح أبواباً، مهما كانت مأساوية. سوف تكون للحظات السعادة، والحرية، وابتسامة، والصداقة على الدوام طعمٌ أكثر حلاوة بالنسبة لك - على الدوام -

على أيّ حال، اعلموا أنّني لن أنساكم وحتى إن لم أكن صديقاً

---

(1) الرسالة مكتوبة بخط اليد، وهنا ترجمتها. المترجم

«يتوفّر على الكثير من الوقت»، آمل أن ألقاكم من جديد وأن أتلقّى أخباركم من حينٍ إلى آخر.

قبلاتي لعائلتك ولأصدقائك

جان-جاك

السجلّ العسكري لمحمد أوفقير

تنويه من قيادة الفيلق

(أمر عام رقم 85 من الجنرال قائد CEF، أمر الفوج رقم 274 في 6 تموز (يوليو) 1944):

«ضابطٌ شاب مفعمٌ بالحيوية والطاقة، يحتفظ في كلّ الحالات بالهدوء التامّ. في 11 أيار (مايو) 1944، قاد رجاله في هجوم سيراسولا، صامدين لساعاتٍ عديدة تحت الرمي المكثّف للمدفعية والنيران القريبة لرشاشات العدو. في 12 أيار (مايو)، دحر أربع هجمات مضادة ألمانية، تطلّب آخرها استخدام صاروخ غونز. يمثّل النموذج الممتاز للضابط المغربي المقاتل، إلى حدّ التهوّر. وسام صليب الحرب 1939-1945، وسام النجمة الفضية.»

مرسوم 6 حزيران (يونيو) 1947 (ج. او. 12 حزيران (يونيو) 1947)

القاضي بمنح الترقية إلى مرتبة فارس

وسام جوقة الشرف:

«ضابطٌ مغربي ذو بسالةٍ ورباطة جأشٍ رائعتين. نموذجٌ للمقاتل بالولادة. لقد سبقَ وذُكِر في سيراسولا، وقد تميّزَ أيضاً مع مجموعة بريتانيا كما مع السريّة. قام بغزو كازانو ولوسينيانو، وكازانو دي سوتا، ومونت موليني، وڤيرنون، وآسيامو. أسر أربعة جنود واستولى على مدفع هاون عيار 81 ملم، ومدفعين رشاشين. أُصيب بجروحٍ خطيرة في 10 تموز (يوليو) 1944 في سان- آجيا (إيطاليا).»

تنويه من قيادة الفرقة

(أمر عام رقم 448 في 8 أيلول (سبتمبر) 1947 من الجنرال آمر FTEO):

«ضابطٌ ذو بسالة بالغة. في 6/6/1947 في تو-دو-مو (كوشينشين)، تطوّع لكي يقود مجموعةً من الكاودِيين[1] وأربعة قنّاصين متظاهراً بالفرار من الجيش وهو يعلم بأنّه سيلاقي متمردين يفوق عددهم ستة أضعاف مَنْ معه. ساهم، بمبادرته وشجاعته، في النجاح الكامل والتامّ لهذه العملية التي تكبّد فيها الخصم خسائر فادحة. وسام صليب الحرب TOE، وسام النجمة الفضية.»

تنويه من قيادة اللواء

(أمر عام رقم 123 بتاريخ 9 تشرين الأوّل (أكتوبر) 1947 من العقيد آمر AD/3

ومن منطقة وسط الهند الصينية):

«زعيمٌ لافت للنظر. أبلى مع فصيلته بلاءً حسناً أثناء العمليات التي شُنّت من قبل وحدته في القطاع الفرعي لبينتريه من 13 وحتى 20 أيلول (سبتمبر) 1947. وإذ أبدى حماسةً وحسّاً تكتيكياً فريدين، وناور بجرأة فائقة، ألحق خسائر باهظة بالعصابات المتمرّدة الجيّدة التسليح التي اصطدم معها خاصّة في 15 أيلول (سبتمبر) 1947 في كزوم-جيونغ-جيا و19 أيلول (سبتمبر) 1947 في تام-فو-تاي (إقليم بينتريه-كوشينشين). وسام صليب الحرب TOE، وسام النجمة البرونزية.»

تنويه من قيادة الجيش

(أمر عام رقم 85 من الجنرال القائد الأعلى لـ FTEO بتاريخ 16 شباط (فبراير) 1948):

«ضابطٌ مغربي ذو حيوية وجرأة استثنائيتين. يحظى بهيبة كبيرة على

(1) أتباع الديانة الكاودِيّة، وهي ديانة ناجمة عن اتحاد البوذية والأرواحية الفيتنامية. المترجم

قنّاصيه. حقّق على رأسهم نجاحاً باهراً في 3 و8 كانون الثاني (يناير) 1948، كبّد خسائر فادحة بالرجال والمعدات بالعصابات المتمرّدة التي تفوق كثيراً في العدد والعتاد، وردّها بعد معركة ضارية. استولى على FM وأظهر أرفع المزايا القيادية. وسام صليب الحرب TEO مع السعفة.»

تنويه من قيادة الفيلق

(أمر عام رقم 362 في 8 أيلول (سبتمبر) 1948 من اللواء آمر FTEO):

«ضابطٌ ذو شجاعة أسطورية، موهوبٌ بأرفع مزايا الجرأة والحماسة والمهارة. عاد للتوّ من جديد بنجاحٍ باهرٍ في الأوّل من تموز (يوليو) 1948 على الضفّة الشرقية لنهر راش-أونغ- شوانغ (كوشينشين) بدحره عصابة متمرّدة قوية مكبّداً إياها خسائر فادحة. بلغت سبعة عشر قتيلاً والعديد من الجرحى، بينما كانت خسائره قتيلاً واحداً وجريحين. وسام صليب الحرب، وسام النجمة الفضيّة المذهّبة.»

تنويه من قيادة الجيش

(قرار رقم 34 بتاريخ 11 أيار (مايو) 1949، ج. او. بتاريخ 18 أيار (مايو) 1949):

«ضابطٌ ممتاز سبق التنويه به مراراً عديدة. حينما أُرسِل في 18 شباط (فبراير) 1949 لإغاثة مباشرة لطائرة مصابة بحادث على بعد كيلومترين من قناة ايلغواش في منطقة لونغ-هوا، أنجز مهمّته بطريقةٍ مثالية. بعد أن بقي لأكثر من أربع ساعات في المستنقعات مع مستوى مياه تبلغ حتى الصدر، معزولاً مع فصيلةٍ صغيرة من قواته الخاصّة، حوصِر في طريق العودة من قبل متمرّدين بعددٍ كبير وأسلحة أوتوماتيكية عديدة ومدافع هاون، إلاّ أنّه نجح في كسر الحصار والوصول دون عناء إلى قناة ايلغواش بعد تدمير العتاد الذي لم يتمكّن من نقله وأوقع خسائر بالغة بالخصم. وسام صليب الحرب TOE مع السعفة.»

التوقيع: ب. راماديه، سكرتير الدولة للقوات المسلّحة، وماكس لوجون.

تنويه من قيادة الفيلق

(أمر عام رقم 221 في 7 حزيران (يونيو) 1949 من الجنرال القائد الأعلى لـ FTEO):

«آمر فصيلة ذو ديناميكية وحسٌ قتاليٍّ استثنائيين. في 10 أيار (مايو) 1949 في بينت-آم، قطاع بيان-هوا، كشف عبر دورياتٍ بارعة وجود عصابة متمرّدة كبيرة محصّنة بقوّة ومجهّزة بالعديد من الأسلحة الأوتوماتيكية. مكلّفاً بالهجوم على الموقع، ناور وانقضّ بضراوة بحيث اضطرّ الخصم إلى القبول بالمواجهة ومن ثمّ الفرار غير المنتظم، تاركاً في أرض المعركة العديد من القتلى، وPM تومبسون وثلاث بنادق رغماً عن الأرض الملائمة بوجهٍ خاصّ للتراجع. على رأس رجاله، خلال المعركة، أثار إعجاب الجميع بحيويته وبسالته الحربية ومزاياه القيادية. وسام صليب الحرب، وسام النجمة الفضيّة المذهّبة.»

مرسوم 3 تشرين الأوّل (أكتوبر) 1949 (ج.او. بتاريخ 11 تشرين الأوّل (أكتوبر) 1949) القاضي بمنح ترقية إلى رتبة ضابط جوقة الشرف:

«ضابطٌ مغربي ذو بسالة فائقة لم يكفّ عن التميّز منذ وصوله إلى الهند الصينية ولاسيما على رأس فصيلةٍ من الرماة- المشاة أثناء العمليات التي جرت من 2 وحتى 9 حزيران (يونيو) 1949 في سهل الأسل.

«في 2 حزيران (يونيو) 1949 في آبمايكي (قطاع ڤين لينغ)، قاوم بشراسة هجوماً يشنّه مئتا وخمسون متمرّداً مسلّحين تسليحاً جيّداً ومدعّمين بقاعدة رمي أكثر صلابة دون ترك أصبعٍ من الأرض، وتركهم يقتربون حتى مسافة أربعين متراً، ثمّ حمل فصيلته بنجاح على الهجوم المضاد، مدحراً الخصم ومرغماً إيّاه على الفرار وترك خمسين قتيلاً في أرض المعركة، إضافةً إلى ذخائر والعديد من الوثائق. في 8 حزيران (يونيو) في روش-كسا-تو (قطاع ڤين لينغ)، حينما وقعت سريّته على عصابةٍ متمرّدة قوية، تفوقّ سريعاً بعد مواجهةٍ من أعنف المواجهات، مدحراً الخصم ومرغماً إياه على أن يترك على الأرض عشرين قتيلاً، و اف ام برين،وبندقية وذخائر. وقد جُرِحَ جراحاً طفيفة برصاصاتٍ في ساعده الأيمن خلال هذه المعركة الأخيرة. وسام صليب الحرب TOE.»

تنويه من قيادة الجيش (قرار رقم 57 بتاريخ 7 تشرين الثاني (نوفمبر) 1949، ج.او. بتاريخ 7 تشرين الثاني (نوفمبر) 1949):

«قائد وحدة لم يكفّ عن التفوّق أثناء مختلف المعارك مع المتمردين. كما تميّز خلال العمليات التي جرت في منطقة شودوك (قطاع لينغ-كزويين) من 18 حتى 22 آب (أغسطس) 1949 وعلى نحوٍ أخصّ في 19 آب (أغسطس) في با-شوك (قطاع لينغ-كزويين) قائداً سريّته بنجاح أمام قمّة جبلٍ يستولي عليه بقوّة خصمٌ جيّد التسليح ويتفوّق في العدد كان يحاول قطع الطريق على كتيبته. احتلّ القمّة بعد بضع دقائق من معركة عنيفة ودامية ملحقاً الهزيمة بالمتمرّدين، قاتلاً العديد منهم ومستولياً على ذخائر ووثائق مهمّة. وسام صليب الحرب TOE مع السعفة.»

التوقيع: بلوڤن. سكرتير الدولة للقوات المسلّحة.

التوقيع: ماكس لوجون.

منح وسام سيلڤر ستار (أمر عام رقم 154 من الجيش الأمريكي الخامس DI بتاريخ 30 تشرين الأوّل (أكتوبر) 1944، أمر الفيلق رقم 395):

«لشجاعته القتالية في إيطاليا، في 28 و29 حزيران (يونيو) 1944، مكلّفاً مع فصيلته بمهمة إسناد مجموعة مدرّعة من الوحدات الفرنسية والأمريكية، أثار الملازم أوفقير إعجاب الجميع، بالاندفاع والعنفوان اللذين قاد بهما فصيلته رغم الخسائر الفادحة. شارك في احتلال مدن كازانو لوسينيانو وكازانو دي سوتا ومونت موليني وڤيرنون. أسر أربعة جنود واستولى على مدفع هاون عيار 81 ملم، ومدفعين رشاشين. جُرِح الملازم أوفقير في 10 تموز (يوليو) 1944 مؤدّياً واجبه ببسالة. خلال كلّ هذه العمليات تميّز هذا الضابط المغربي بشجاعته ورباطة جأشه في القتال.»

أمر الفريق كلارك مركز القيادة

28 أيلول (سبتمبر) 1944

A.M.Gruenther major general GSC Chief off Staff

عبر الفريق كلارك:

«العقيد قائد الفوج يرسل تهانيه الحارّة إلى الضباط وضباط الصفّ والعرفاء والقنّاصين المذكورين.»

30 تموز (يوليو) 1944، التوقيع: بريدو.

وسام جوقة الشرف:

بدرجة فارس: مرسوم 6 حزيران (يونيو) 1947 (ج. او. بتاريخ 12 حزيران (يونيو) 1947)

برتبة ضابط: مرسوم 3 تشرين الأوّل (أكتوبر) 1949 (ج. او. بتاريخ 11 تشرين الأوّل (أكتوبر) 1949)

أوسمة فرنسية أخرى:

صليب الحرب 1939-1945 (سُعفة، نجمة فضية مذهّبة)

صليب الحرب TOE (أربع سُعَف، نجمتان فضيتان مذهّبتان، نجمة فضية، نجمة برونزية).

الميدالية التذكارية لحرب 1939-1945.

الميدالية الكولونيالية، مشبك الشرق الأقصى (الشهادة رقم 12/ 200 بتاريخ 10 نيسان (أبريل) 1948).

الميدالية التذكارية لحملة إيطاليا.

الميدالية التذكارية لحملة الهند الصينية.

سيلڤر ستار (النجمة الفضية) أمر عام رقم 154 من الجيش الأمريكي الخامس بتاريخ 30 تشرين الأوّل (أكتوبر) 1944.

وسام الاستحقاق العسكري الشريفي ظاهر رقم 2062 بتاريخ 13 تموز (يوليو) 1949.

رتبة ضابط شريفي من الوسام العلوي ظاهر: رقم 8407 بتاريخ 8 تموز (يوليو) 1945.

رتبة ضابط من وسام نيشان افتخار: رقم 1933 بتاريخ 3 كانون الأوّل (ديسمبر) 1953.

جروح الحرب:

جُرِح في 10 تموز (يوليو) 1944 في ستاجيا (إيطاليا). جرحٌ في الساعد الأيمن بانفجار قذيفة.

جُرِحَ في 8 حزيران (يونيو) 1949 في معركة راش كا تو (كوشينشين). جرحٌ في الساعد الأيمن برصاصة.

منذ الأوّل من أيلول (سبتمبر) 1939 حتى سنة العرض الخاص الأوّل

من 1941 إلى 1947:

تخرّج من مدرسة الضباط التلاميذ المغاربة في مكناس بتاريخ 20 حزيران (يونيو) 1941. بترتيب 3/ 9 مع الملاحظات التالية:

«ينتمي إلى عائلة ذات مكانةٍ في الجنوب الشرقي المغربي أسدت خدمات جليلة للمصالح الفرنسية. كان والده باشا بودنيب. ذو تدريبٍ عسكريٍّ رفيع، حسن المظهر، يجيد القيادة، صلبٌ وحيويّ، رياضيّ. ذو ثقافة عامّة رفيعة، وذهنٍ منفتح، مستقيمٌ وخفيف الروح.

«خدم كملازم في RTM الرابع والثالث. ضابطٌ شابّ بلديّ من الطراز الأوّل، مفعم بالنشاط، منفتح الروح، حسن الهيئة، في غاية الأدب، فرنسيّ الهوى، ويجيد اللغة الفرنسية تماماً. يوحي بالارتياح التام. حيويّ وحازم. قائد فصيلة ممتاز. يبدي قيادة رفيعة أثناء القتال. سبق أن جُرِح وأُشيدَ به.»

من 1944 إلى 1947:

«ملازم أوّل في RTM الثامن. ذو ثقافة عامّة رفيعة. ذكيّ وحيويّ. صادق وصريح. قويّ البنية ورياضيّ. لامبالٍ رغم بعض عيوب الشباب، يستحقّ أن يولى الاهتمام.

وسام جوقة الشرف برتبة فارس.

«متطوّع للخدمة في الشرق الأقصى.»

من 1947 إلى 1949:

«برهن بأكثر مما ينبغي في الهند الصينية على صيته كمقاتل وكزعيم.

يحظى بثقته رؤسائه، واحترام القنّاصين الفائق. ضابطٌ مغربيٌّ قدير. جديرٌ بقيادة سريّة. مفعم بالحماس، مرحٌ بطبعه، يحصل على أقصى مردودٍ من الوحدة المتنقّلة التي يقودها بحيوية. فائق التفوّق في القتال. جعل من الوحدات التي يقودها أدوات قتالية فريدة. بارع في إدارة سريّة، مجدٌّ وحيّ الضمير. مرؤوسٌ ممتاز، ذو ولاءٍ لا يُنكَر. يفرض احترامه على الجميع، أُشيد به سبع مرّات، منها ثلاث مرّات لأمر الجيش. جُرِح لمرّتين. وسام جوقة الشرف برتبة ضابط لمآثر حربية.»

من 1950 إلى 1953:

«منتَدَب إلى مكتب الجنرال القائد العام لقوات المغرب. ذكيّ، مجتهد، يتكيّف سريعاً مع مهامه الجديدة. ذهنه صافٍ ورائق ودقيق. يجيد الكتابة. طيّب المعشر. يحظى بثقافة عامّة وعسكرية واسعة حسّنها بعمله الشخصي ومطالعاته. يتهيّأ لمسابقة مدرسة الأركان التي ينبغي أن ينجح فيها. ضابطٌ مغربي كامل الصفات، على ولاءٍ مطلقٍ يمكن الاعتماد عليه في كلّ الظروف. مؤهّلٌ لأداء عمل احترافيّ باهر. ضابطٌ قدير. ذكيّ. شرهٌ للتعلّم، دقيق الذهن، أنجز بامتياز كلّ المهمات التي أوكِلَت إليه ومنح ارتياحاً تامّاً. يتمتّع بصفات رفيعة من الحصافة والتفاني والفاعلية. ضابطٌ مغربيٌّ مستقبليّ. عُيّن في الديوان العسكري للمندوب السامي الفرنسي في المغرب بصفة مرافق.»

الرباط، 26 أيلول (سبتمبر) 1953.

التوقيع: العقيد دو سان-بون، رئيس الديوان العسكري.

منذ السنة الأولى للعرض،

حتى السنة الجارية حصراً:

1953:

«نجح بامتياز في مهامه كمرافق، وأدّاها بحصافة وذكاءٍ وتفانٍ. ثقافة ممتازة، ذو شخصية منفتحة ولطيفة.

«ضابطٌ مغربيّ معجزة بمزاياه الذهنية والمعنوية الرفيعة.

«جديرٌ بأن يُرقّى إلى قائد كتيبة بجدارة.»

الرباط، 29 أيلول (سبتمبر) 1954
التوقيع: العقيد ميوكس، رئيس الديوان العسكري.

1954:

«ضابطٌ جدير من وجهة النظر العسكرية كما المناقبية. مزايا ذهنية رفيعة. أدّى بحصافة وذكاء وتفانٍ مهام مرافق المندوب السامي.
«ذو ولاءٍ ثابت. وكفاءات حربية رائعة. جديرٌ بأن يُرقّى إلى قائد كتيبة بجدارة.»
الرباط، 29 أيلول (سبتمبر) 1955
التوقيع: المقدّم هوتينيل، رئيس الديوان العسكري.

ملفّ سي محمد بن حمد أوفقير

الرتبة وهيئة الخدمة: رائد في مشاة العاصمة رقم 209 تكرار المجموعة.
رقم 134953. ملف مفتوح في 1941.
المكتب المركزي للسجلاّت الإدارية والعسكرية. ثُكنة بيرنادوت، 64000 بو.

محمد أوفقير وقضية بن بركة

بالنسبة لقسم من الرأي العام الفرنسي، ترتبطُ صورةُ والدي بقضية بن بركة، باسم زعيم اليسار الذي اختُطِفَ في عام 1965 في وسط باريس والذي لم يُعثَر قط على جثّته. ولكن ما القضية بالضبط؟

الوقائع

كان المهدي بن بركة، زعيم UNFP، الاتحاد الوطني للقوى الشعبية، ولكن أيضاً المنتَخَب حديثاً آنذاك في كوبا رئيساً لمؤتمر القارات الثلاث(*)، التي بات بالنسبة لها «المندوب المتجوّل» للثورة العالمية، منفيّاً حينما وجد نفسه، في حزيران (يونيو) 1965، مقرّباً من منتج سينمائيٍّ يقترح عليه القدوم إلى باريس لمقابلته. كان المشروع: باستا، فيلماً وثائقياً حول زوال الاستعمار. وكان يرتبط بهذه الفكرة السينمائي جورج فرانجو، ورجلٌ غريب، هو جورج فيغون، الشخص الملغز الذي تعرّفت الصحافة اليوم على شخصيته الغامضة والمفتقرة للوثوقية، التي رأت في هذه الحكاية فرصةً للإثراء. فحدِّدَ موعدٌ في مقهى ليب، في 29 تشرين الأوّل (أكتوبر) التالي[1]. في اليوم

(*) كان بن بركة قد تولّى منصب رئيس اللجنة التحضيرية لمؤتمر تضامن القارات الثلاث، آسيا وأفريقيا وأمريكا اللاتينية، الذي عُقِد في العاصمة الكوبية، هافانا. المترجم

(1) هذه المعلومات مستقاة من مختلف المقالات التي نُشِرَت في صحيفة لوموند، VSD ولكن أيضاً من كتابَي ستيفن سميس، أوفقير قدرٌ مغربي، مصدر سبق ذكره، وبرنار فيوليه، قضية بن بركة، فايار، 1991.

المحدد، بينما كان فيليب بيرنيه، الصحافي المتخصص في الشؤون المغربية، وفيغون وفرانجو ينتظرون في الداخل بن بركة، كان شخصان آخران قد أُخبِرا بمجيء زعيم UNFP. وهو العميل المغربي الشتوكي، وأنطوان لوبيز، المخبر الشهير لجهاز الاستخبارات السرية الفرنسي SDECE. بالنسبة لهما، كان ذلك المرور في العاصمة الفرنسية فرصة مثالية للقبض على بن بركة وجعله يلتقي «شخصية هامّة». فنجحا في إقناع شرطيين حقيقيين- لويس سوشون وروجيه ڤواتو - بـ«تسلّم» زعيم المعارضة واصطحابه إلى بيت شخصٍ يدعى بوشسيش. في 29 تشرين الأوّل (أكتوبر) 1965، وجد بن بركة نفسه أمام شرطيين فرنسيين، معتقداً، حسب معلومة ذكرها فيما بعد جيل بيرو[1]، بأنّه ذاهبٌ لمقابلة الجنرال ديغول، وانقاد دون مشكلة. ولن يُرى بعدها أبداً.

التحقيق

ما إن أصبح هذا الاختفاء رسمياً، تقدّم التحقيق بسرعة: جرى التدقيق سريعاً في سياق عملية الاختطاف، واستُجوِب مدبّروها وجرى التحقيق معهم. واعترف لوبيز وسوشون وڤواتو: لقد راحوا فعلاً لإحضار بن بركة، وسلّموه إلى بيت بوشسيش- الذي استقبل زعيم اليسار بلطف: «تعالَ معي، يا سيّدي، ستكون هنا بأمان»-، ولكنّهم لم يدخلوا إلى الڤيلا. ثمّ أُعيد الشرطيان فيما بعد إلى وظيفتهما، وراح لوبيز، حسب قوله، يتّصل بالرباط ليخبر الأمن: «وصل الطرد». فأُجيبَ بأنّ الجنرال أوفقير كان في فاس «لعرض الأمر على المعلّم» وأنّه سيأتي إلى باريس في الساعة «الثانية والنصف». في الواقع، وصل الوزير فقط في يوم 30 تشرين الأوّل (أكتوبر) في الساعة الخامسة والنصف مساءً، أي بعد تسع وعشرين ساعةٍ من الاختطاف، ثمّ ذهب إلى بيت بوشسيش، وقد سبقه إلى المكان الدليمي، حيث وصل رئيس جهاز الأمن إلى أورلي في الساعة الثانية والنصف عصراً.

---

(1) جيل بيرو، رجل استثنائي، LGF، 1985.

الرواية الشائعة

حسب الرواية المسلّم بها على نحوٍ شائع، وخاصة روايات جورج فيغون، يبدو أنّه قد تمّت كلّ اللعبة في تلك الليلة 29 على 30 تشرين الأول (أكتوبر) 1965. فقد زعم فيغون أنّه، لدى عودته إلى منزل فونتونيه لو فيكونت، «شاهد بن بركة يُقتَل»، بطعنه من قبل محمد أوفقير بخنجرٍ سُحِب من بين مجموعة أسلحة. على كلّ حال، هذه هي الرواية التي نشرتها اكسبريس في 10 كانون الثاني (يناير) 1966، حينما كانت القضيّة في أوجها. وهو زعمٌ ستُعيد صديقة فيغون الخاصّة طرحه للبحث متصوّرة بأنّه في تلك الفترة كانت رؤية جريمة مثل تلك من قبل أحدٍ ما مسألة قلما «تُصدِم». وصرّحت: «لو كانت له أيّة مساهمة في تلك العملية المفترَضة ما كان فيغون ليتأخّر عن الحديث عنها لي، بل لكان أسعده أن يذكر ذلك أمامي بكلّ تفاصيله لإخافتي وللتباهي بنفسه». من جانبه، كتب ستيفن سميث، أحد الصحافيين المتخصّصين بالمسألة، في كتابٍ: «مع أنّها أُنكِرت من قبل مؤلّفها، فإنّ هذه الرواية المذهلة، بغياب الواقعة المؤكّدة، غذّت لأمدٍ طويل الخيالات[1]».

الانفعالات

أثار هذا الاختطاف الكثير من الانفعالات مثلما أثار الرأي العام. استولت الصحافة بسرعة على الملفّ. أوّلاً، بإثارة زلزالٍ في فرنسا، حيث قدّر العديد من الصحافيين أنّ المخبرين السريين الفرنسيين وأجهزة الاستخبارات وكذلك المقرّبين من جاك فوكار متورّطون في هذا الاختطاف. ألم يُعثر على فيغون ميّتاً بعد ذلك بوقتٍ قصير، في انتحارٍ يشكّك فيه العديد من الخبراء؟ على أيّ حال، دان هذا الاتّهام الجنرال ديغول، الساخط على هكذا عمليات أمنية وضيعة. وسرعان ما أُضيف منطق الدولة إلى الفضيحة وفُرِض الصمت على عددٍ من المدبّرين. أمّا بالنسبة للوثائق، فقد ظلّت إلى يومنا هذا سريّة. ولكن ما المصلحة في تدخّل السلطات العامة؟ يسأل البعض. مساعدة الحسن الثاني

(1) ستيفن سميث، أوفقير قدرٌ مغربي، مصدر سبق ذكره. ص257.

وحتى أوفقير، يؤكّدون. ويمكن هنا طرح عددٍ من الأسئلة: لماذا كان أوفقير في فرنسا؟ ماذا كان يريد؟ إرغام بن بركة على العودة إلى المغرب حيث يُزعَم أنّ الملك يريد الانضمام إليه؟ أم على العكس، كما يدّعيه آخرون، منع هذه العودة التي يُقال بأنّها كانت ستُزعِج أوفقير نفسه؟

الدعوى

جرت محاكمة على مراحل، عُقِدَت في محكمة الجنايات، لم تُسفِر عن شيءٍ عظيم. سُمِع البعض والبعض الآخر ومن بينهم لوبيز، المتهم الرئيسي، وهم يتلعثمون. في 19 نيسان (أبريل) 1966، استسلم الدليمي، الذي كان إلى ذلك الحين متعذّر القبض عليه، للعدالة. فأُجِّلَت الدعوى. بدأت جلسة جديدة في 19 نيسان (أبريل) 1967، وانتهت في 5 حزيران (يونيو) دون أن تسفر عن حلٍّ ملموس. بُرِّأ بيرنيه وفواتو وآخرون، من ضمنهم الدليمي. وسُرعان ما سيحظى لوبيز وسوشون المحكومان على التوالي بثمانية وستّة أعوام من السجن مع الأشغال الشاقّة، بالحقّ في إخلاء السبيل المشروط. أمّا بالنسبة لأوفقير، فقد حُكِم عليه غيابياً بالسجن المؤبّد، في حين أُطلِق سراح الدليمي. الأمر الذي جعل جيل بيرو يقول: «أفرغت تبرئة الدليمي اتّهام أوفقير من كلّ جوهر.»

إلى أين وصلت القضية؟

لا تزال قضية بن بركة إلى الآن واحداً من ألغاز تاريخ الجمهورية الخامسة كما لتاريخ المغرب. لأنّه بمرور السنوات، جاءت «إفشاءات» و«اكتشافات» جديدة، أو هكذا زُعِمَت، لتشترك في الوقائع وتغذّي استيهامات كلّ من هبّ ودبّ.

ما الذي حدث؟

من الواضح أن الاستخبارات السرية المغربية قد دبّرت، بناءً على طلب الحسن الثاني، اختطاف بن بركة. هل كان ذلك بمساعدة جهاز SDECE، أو بعض أطرافه، و السي آي ايه والموساد كما يزعم البعض؟ الفكرة معقولة

جداً. ولكن بأيّ هدف؟ هل كان القصد إحضار زعيم المعارضة أمام الملك بغية إفهامه بأنّه إمّا أن يتعاون ويتخلّى عن إسقاط النظام الملكي وإمّا أنّ السلطة، وقد وضعت يدها عليه، ستنفّذ مباشرةً الحكم المزدوج بالإعدام الصادر بحقّه بتهمة الخيانة العظمى والتواطؤ مع العدو إبّان حرب الرمال؟ تقول فرضية أخرى بأنّه لم تكن للعملية من هدفٍ سوى سلب المهدي بن بركة، تحت تأثير المخدّرات، رقم حسابه في سويسرا. وسيكون المغاربة قد استردّوا بذلك مفكّرات طريق وأجندات الخازن الرئيسي للحركة الثورية المسلّحة في العالم. وباطّلاعهم على هذه الأسرار، بل وبتورّطهم المباشر حسب مختلف التحقيقات خلال أجهزة استخباراتهم، سيكون الفرنسيون والأمريكيون والإسرائيليون قد وجّهوا ضربةً قاسية للمنظمات الثورية المعادية للغرب وللإمبريالية. وعودة المهدي بن بركة إلى المغرب والتسوية التي كان الملك سيعرضها عليه للمشاركة في حكومة وحدة وطنية كانت ستتراءى لحلفاء بن بركة على أنّها فقط مكافأة على «خيانته».

بالنسبة لأجهزة الاستخبارات الأجنبية، كانت إزاحة مثل هذا المروّج للفكرة الثورية العالمية بعد معرفة كلّ ارتباطاته وشبكاته، ستمثّل، مما لا شكّ فيه، فرصة رائعة.

ماذا كان الدور الفعلي لأوفقير؟

كوزيرٍ للداخلية، لا بدّ بالتأكيد أن يكون قد استخدم الإرادة الملكية وهو يستدرج أجهزة الاستخبارات الأجنبية إلى وحدة واضحة للمصالح. لو لم يكن المقصود سوى تصفية المهدي بن بركة جسدياً، ما كان أوفقير بالتأكيد على سذاجة ولا حماقة أن يأتي شخصياً إلى باريس، بعد تسع وعشرين ساعة من اختفاء زعيم اليسار وقد أُثيرت القضية. إذاً، ماذا كان يفعل أوفقير في العاصمة الفرنسية؟ هل يمكن التصديق بأنّ ذلك كان محض صدفة؟ سيترك منطق هذه الحجّة مجالاً للاعتقاد بأنّ ما يُفترض به أن يكون «حديثاً» بين زعيم اليسار و«مبعوثٍ هامّ» قد تحوّل إلى عاقبة وخيمة.

لا تزال هناك فرضيتان شائعتان في سراي الحسن الثاني. تقول الأولى بأنّ المهدي بن بركة، وقد وصل إلى الفيلا، سيكون قد عيل صبره، وأنّ الشرّير بوشسيش القويّ البنية وجّه له ضربة بأخمص المسدّس على قفا رأسه

لإنهاكه، فلم يحتمل بن بركة الصدمة لكونه يحمل بالأساس أثر كسرٍ في فقرات رقبته جراء «حادث» سيرٍ دبّرته المخابرات السرية المغربية. فأمر الحسن الثاني، وقد استبدّ به الذعر، رجل ثقته، أوفقير، للذهاب وإخلاء المكان. تزعم الفرضية الثانية أنّ المخدّر الذي كان ينبغي أن يُجرَّع لبن بركة لانتزاع المعلومات أُعدّ من قبل جهاز SSS، الشرطة الشخصية للملك، متعمّدة التخلّص «نهائياً» من ألدّ عدوٍ للنظام الملكي. الأمر الذي لا يتعدّى في الأساس كونه موت سياسيّ وقد استحال اغتيالاً. البعض من أفراد النظام الأمني لم يكفّوا قط عن التأكيد أنّ ذلك كان حساباً ميكيافيلياً من قبل الملك لضرب عصفورين بحجر: إذ لن يتخلّص من زعيم مهيوبٍ وحازم فحسب، وإنّما علاوة على ذلك، سيضمن نهائياً وفاء رجله الشديد الإخلاص، مرسلاً إياه إلى مكان الجريمة لإيقاعه في الشرك وقطعه عن دعائمه الدولية وعلى نحوٍ خاص عن صداقاته الفرنسية. فبترسيخ صورة أوفقير كقاتل بن بركة، كان الملك يقطع كل احتمال لاستيلائه على السلطة.

ما أهمية الإفشاءات الحديثة، وخاصة إفشاءات صحيفة لوموند بتاريخ 30 حزيران (يونيو)، و 1 و2 تموز (يوليو) 2001، التي جاءت «تُبهِّر» القضية؟

في هذه المقالات المعنونة على نحوٍ مهين: «الحقيقة حول اغتيال المهدي بن بركة في فرنسا»، تمّ ادّعاء شتّى المزاعم. والتي تستدعي، من جهتي، تفنيداً نقطة بنقطة. في الواقع، وبالاستناد على إفشاءات مزعومة لعامل مقسم من الاستخبارات السرية المغربية حينذاك، ختمت لوموند بأنّ زعيم اليسارَ كان قد عُذِّب وقُتِلَ على الأراضي الفرنسية من قبل الجنرال أوفقير ومساعده الدليمي بعد ساعاتٍ من اختطافه. أليس من الغرور الحديث عن «الحقيقة» في مأساةٍ ذات تشعّباتٍ متعدّدة، حيث لم تتح ستّة وثلاثون عاماً من التحقيقات القضائية وتحرّياتٍ من كلّ نوع أن تتوضّح بطريقة مقنعة لا تُدحَض الألغاز التي تكتنف هذه الفاجعة الكبرى في تاريخ المغرب، والتي لم تُفضِ، بخلاف ذلك، سوى إلى سيناريوهات متناقضة، بل وأكثر كيفيّةً. ألا تُثير وظيفة، وهي وظيفة أكثر من ثانوية، الشاهد «المفاجأة» أحمد بخاري، بما أنّ لوموند قدّمته كعامل مقسم متواضع في جهاز كاب1، في الواقع سؤالاً أوّلاً: كيف تمكّن عامل هاتفٍ بسيط أن يتوصّل بكلّ هذا اليقين إلى أحد أكبر الألغاز

السياسية الأمنية للقرن العشرين، والذي لا يجهل أحدٌ تورّط الأجهزة الأمنية الدولية فيه؟

وإذ لا تسمح لي الفسحة المتاحة أن أكشف العديد من الجوانب غير المتماسكة لكلّ ما قيل وكُتِبَ حول القضية، سوف أكتفي بالإشارة إلى أكثرها وضوحاً:

كتب مؤلّفو المقالات: «إنّ الحقيقة حول اغتيال المهدي بن بركة حسب شهادة شخصية رئيسية، عامل المقسم أحمد بخاري، هي لغزٌ يتلخّص في خمس مكالمات هاتفية...». مع ذلك، مَنْ المراد إقناعه بأنّ في قضيّة كهذه ستكون الاستخبارات المغربية قد تغافلت بالاتّصال علانيةً بين فرنسا والمغرب بالهاتف العاديّ، إضافة إلى أنّه مع عامل مقسم مداوم، منفردٍ في مكانٍ شاغرٍ من أيّ موظّف كما من أيّ مسؤولٍ، وكلّ ذلكَ لترتيبِ عملية كبيرة جدّاً بين باريس والرباط؟

كما يمكننا أن نقرأ، أبعد من ذلك بقليل: «وسيعود المقدّم الدليمي والجنرال أوفقير بأسرع ما يمكن، وهذه المرّة رسمياً، ليس بلا مخاطرة، ولكن كان يجب إعطاء تعليمات لا يمكن نقلها عبر الهاتف». وسأترك جسامة تناقض كهذا للتقدير الشخصي لكلّ قارئ.

حسب كتّاب المقالات، سيكون الدليمي وأوفقير غادرا باتجاه المغرب، تاركين خلفهما جثّة المهدي بن بركة التي جاءا يبحثان عنها من جديد بعد حوالي أربع وعشرين ساعة من ذلك، بينما كانت الصحافة قد أعلنت هذا الاختفاء. إذاً، هناك سؤالٌ يطرح نفسه: لماذا لم يفكّرا في اصطحاب ذلك الجثمان المزعج معهما، ما دام «مجيئهما السريّ» كان يتيح لهما ذلك؟

وأيضاً حسب البخاري، كان أوفقير لا يزال في الرباط في الساعة السابعة مساءً، بالتوقيت الفرنسي، أي بعد سبع ساعات من إلقاء القبض على بن بركة أمام ليب. أكّد أنطوان لوبيز، خلال مرافعته، أنّ الجنرال كان قد سبق وأخبره بوصوله ليلاً في الساعة الثانية والنصف. من جهة أخرى، كتب ستيفن سميث في كتابه، الصادر في عام 1999[1]: «في الساعة التاسعة صباحاً، يوم السبت 30 تشرين الأوّل (أكتوبر)، أبلغ الجنرال لوبيز بأنّه لن يصل إلاّ في الساعة

---

(1) سميث، ستيفن، أوفقير قدرٌ مغربي، مصدر سبق ذكره، ص254 و255.

الخامسة والنصف مساءً.» وأضاف: «في الساعة الخامسة والنصف، أي بعد تسع وعشرين ساعة من استجواب المهدي بن بركة، وصل أوفقير إلى أورلي».

هل تلائم هذه الشهادات، التي تؤكّد وجود أوفقير في المغرب حتى 30 تشرين الأوّل (أكتوبر) والتي ثُبّتَت من قبل محكمة فرنسية، اليوم الرواية الوحيدة وغير المباشرة للسيّد بخاري؟ لاسيما وأنّ هذا الأخير «العليم جدّاً» يقرّ بأنّه لا يستطيع التأكيد أنّ أوفقير لم يعد فعلاً، في ليلة 29 على 30 تشرين الأوّل (أكتوبر)، إلى فاس ليلتقي الحسن الثاني! والحال أنّ هذه العناصر المختلفة جوهرية لأنّها تجعل عملياً من المستحيل وجود أوفقير في فونتونيه لو ڤيكونت قبل موت بن بركة، الذي تمّ حسب هذه المقالات نفسها بعد منتصف ليلة 29 على 30 بقليل. أخيراً، حتى إذا قبلنا بهذا «التمديد البخاري للوقت»، إذا كان أوفقير في مقرّ كاب1 في الساعة السابعة مساءً، بالتوقيت الفرنسي، ليأخذ منه على عجلٍ نقوداً- هذا ما ادّعاه هذا الشاهد، وكأنّ وزيراً للداخلية كان يدفع ثمن بطاقته لطائرةٍ موضوعةٍ تحت تصرّفه، وكأنّ عملية معَدّة لم تتحسّب مسبقاً المبالغ الضرورية لنفقاتٍ محتمَلة-، وبحساب الوقت الضروري للوصول إلى مطار الرباط-سلا الذي يبعد حوالي عشرين كيلومتراً من العاصمة، وللركوب وللإقلاع، سيكون قد انقضى، على الأقلّ، نصف ساعة. أي، للوصول إلى فونتونيه لو ڤيكونت، سيكون على الأقلّ قد مرّت خمس ساعات آخذين بالاعتبار سرعة طائرات النقل العسكرية المغربية آنذاك، وهي طائرات داكوتا المروحية. بعبارة أخرى، بعد موت المهدي بن بركة.

وباعتراف كتّاب المقالات أنفسهم: «البخاري ليس شاهد عيانٍ للجريمة، ولا لاختفاء جثمان المهدي بن بركة». ومع ذلك، سمح البخاري لنفسه بإطلاق تأكيدات متحدّثاً نيابةً عن وباسم م.م. محمد وعبد الحق الشعشي وصاكا والمسناوي وتوزي ميلود وحسوني وأجداين، دون أن يكون هؤلاء قد استُمِعَ إليهم مباشرةً من قبل الصحافيين، في حين أنّ تعقيد وأهمية لغز كهذا يتطلّبان حدّاً أدنى من التواضع والكثير من الحذر.

بيد أنّه سيكون لهذه المقالات جانب إيجابي، بالنسبة لي: وهو كشف أسماء العديد من الأشخاص الذين تعرف العدالة الآن أين هم. والذين ينبغي استجوابهم، إذا ما أُريد حقّاً للأمور أن تتقدّم.

صرّح بشير، نجل المهدي بن بركة، بخصوص هذه «الكتابات»: «على

العدالة أن تؤدّي عملها في التحقيق». أدعم تماماً هذا الكلام. سنساند، عائلتي وأنا، هذا الأمل المشروع. أمنيتنا هي بلوغ الحقيقة والعدالة، لكي ترتاح الأرواح أخيراً بسلام، ولكي يتمكّن أخلافهم، في نطاق الممكن، من الوصول إلى الهدوء والصفاء. أودّ أن أوضّح ببساطة أنني، إذ عرفتُ أهوال العذاب والألم، لا أخشى أيّة حقيقة وأنا مستعدّ لأن أتحمّل مسؤوليتها شريطة أن تصدر عن قضاءٍ عادلٍ ومنصفٍ، ومحايدٍ وبريءٍ من كلّ حكمٍ مسبق.

ما الخاتمة؟

ستُعرَف الحقيقة في اليوم الذي يتمّ فيه التحقيق المفتوح من جديد بحريّة وبشكلٍ دقيق، لكي تتمكّن التحريات من الوصول دون قيد أو شرط إلى الوثائق السرية الفرنسية والمغربية والأمريكية. ويوم يستطيع جميع شهود الإثبات، كما شهود النفي، أن يدلوا بأقوالهم دون خوف أمام قضاءٍ مستقلٍ وسيّد.

اليوم، ما زلتُ أطرح على نفسي هذا السؤال: مَنْ له المصلحة في إعاقة تحقيقات القضاء وجلاء الحقيقة مختصراً العديد من المسؤوليات والتواطؤات على كبشِ محرقة؟ لماذا ظلّ خمسة رؤساء للجمهورية الفرنسية، الجنرال ديغول، جورج بومبيدو، ڤاليري جيسكار ديستان، فرانسوا ميتران، جاك شيراك، صامتين حيال نداءات الحقيقة ممتنعين عن رفع الحظر عن سرّ الدفاع الشهير هذا؟ لماذا تفعل الولايات المتحدة وسويسرا الشيء نفسه؟ «لماذا لا تزال الحقيقة، كما قال بشير بن بركة نفسه، تثير التخوّف في فرنسا؟ مَنْ المطلوب حمايته وما المطلوب إخفاؤه؟ هل يريد منطق الدولة إخفاء اتّهامات أكثر خطورة من الاتّهامات المعروفة لأجهزة المخابرات الفرنسية الرسمية؟».
ويضيف: «منذ بعض الوقت، يجري السعي لخلق قناعة بأنّ المسؤولين الوحيدين عن اختفاء والدي هما أوفقير والدليمي. إذاً، مَنْ يمنع أن يُسلّط الضوء وتُعرَف الحقيقة، إن لم يكن منطق الدولة الذي يريد حماية المسؤوليات السياسية الحقيقية عن الجريمة، في قمّة هرم الدولة[1]؟»

---

(1) «المهدي بن بركة، لماذا تخشون الحقيقة حول موت والدي؟»، ليڤينمان، عدد من 6 حتى12 أيار (مايو) 1999.

أخيراً، هناك سؤالٌ أخير يشغل بالي: إذا كان من المؤكّد إلى هذا الحدّ أنّ المذنبين المحدّدَين في موت بن بركة، أوفقير والدليمي، هما فعلاً أوفقير والدليمي، لماذا لا يزال، بعد خمسة وثلاثين عاماً، البحث جارياً عن مسؤولين عن لغز التاريخ هذا؟

المحتويات

رؤوف أوفقير

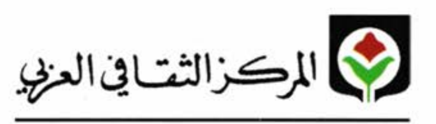
الضيوف

رؤوف أوفقير، الابن الأكبر للجنرال محمد أوفقير الذي قُتل إثر محاولة انقلاب ضد الملك الحسن الثاني. ألقي به مع أمه وأخواته الأربع وأخوه الأصغر في السجن عام ١٩٧٢، واستمر هذا السجن حتى العام ١٩٩١، بعد عملية فرار يائسة.

"لم يكن السجن هو الأسوأ بين ما عانيته من آلام وعذابات فظيعة، بل هو التفكير الدائم بأننا لا نعرف متى سينتهي هذا العذاب".

إنها حكاية حقيقية مدهشة عن مواجهة أقسى أنواع الوحشيّة والانتصار عليها: "كانت السنوات لـ ١٩ من الاعتقال الوحشي التي أمضيناها، عائلتي وأنا، فظيعة، ولكنها مليئة بالدروس والعبر أيضاً"

كان عُمر رؤوف أوفقير ١٥ عاماً حين ألقي به في السجن، وكان يعرف جزءاً كبيراً من كواليس ومؤامرات السلطة، وهذا جانب مهمٌ يميّز هذا الكتاب إذ يتحدث فيه أوفقير عن مرحلة عاشها من هذه الصراعات، وخاصة قضية بن بركة والانقلابات على الحسن الثاني.



الدار البيضاء: ص.ب 4006 (سيدنا)
بيروت: ص.ب: 113/5158
www.ccaedition.com
markaz@wanadoo.net.ma